

الأعمال الكاملة

ابراهيم عبد القادر المازني

الأعمال غير المنشورة

المجلد الاول

التأملات والذكريات



جمع وتحرير وتقديم

عبد السلام حيدر

المجلس الأعلى للثقافة

إبراهيم عبد القادر المازني

الأعمال الكاملة

الأعمال غير المنشورة

المجلد الأول

التأملات والذكريات



جمع وتحرير وتقديم : عبد السلام



المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : إبراهيم عبد القادر المازنى (الأعمال الكاملة)

اسم المحرر : عبد السلام حيدر

الطبعة : الأولى – القاهرة ٢٠٠٦م .



شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084 E.Mail: asfour@onebox.com

تمهيد عام

مرت عملية نشر أعمال إبراهيم عبد القادر المازني - حتى الآن - بمرحلتين أساسيتين. في المرحلة الأولى التي أنجزها المازني نفسه يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة هي :

(١) أن المازني بدأ بنشر الشعر "ديوان المازني - الجزء الأول" (١٩١٣)، ثم الكتابات النقدية حول الشعر "شعر حافظ" (١٩١٣) و"الشعر غاياته ووسائطه" (١٩١٥)، ثم توقف عن نظم الشعر تقريبا عام ١٩٢٠ .

(٢) مع بدء عمله الصحفي بعد ثورة ١٩١٩ نشر (بالاشتراك مع العقاد) "الديوان في الأدب والنقد" (١٩٢١) ثم "حصاد الهشيم" (١٩٢٥) و "قبض الريح" (١٩٢٧) .

(٣) في عام ١٩٢٨ بدأ المازني مرحلة الإبداع القصصي؛ حيث اهتم بجمع أعماله القصصية والروائية، بينما امتنع عن نشر الكتب النقدية، وإن لم يمتنع عن مواصلة كتابة المقالات النقدية. وقد نشر في هذه المرحلة: "صندوق الدنيا" (١٩٢٩)، "إبراهيم الكاتب" (١٩٣١)، "خيوط العنكبوت" (١٩٣٥) ونشر مسرحية واحدة هي "غريزة المرأة" أو "حكم الطاعة" (١٩٣١) والتي أثارت ضجة ضخمة بسبب "انتحالها" كما ادعى البعض .

(٤) وفي عامي ١٩٣٥ و١٩٣٧ نشر على التوالي مجموعتي "خيوط العنكبوت" و"في الطريق" وامتنع عن نشر المجموعات حتى عام ١٩٤٤ حيث نشر مجموعته الأخيرة "ع الماشي" .

(٥) وفى عام ١٩٤٣ نشر عدة روايات هى "عودٌ على بَدء" فى أبريل ، و "إبراهيم الثانى" فى يونيه، و "ميدو وشركاه" فى يونيه أيضاً. أما "ثلاثة رجال وامرأة" فقد صدرت فى يناير من عام ١٩٤٤ .

* * *

أما فى المرحلة الثانية التى أنجزها آخرون، وهى المستمرة حتى الآن، والتى جرى فيها تشويه أعمال المازنى بدرجات متفاوتة أعظمها الإهمال شبه التام لها! وفى هذه المرحلة يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة أيضاً :

(١) أول "تشويه" لأحد أعمال المازنى تم فى حياته حين نشرت طبعة مختصرة إلى النصف من "صندوق الدنيا" فى سلسلة "كتب للجميع" عدد مايو ١٩٤٨ .

(٢) وفى آخر ١٩٤٩ صدرت روايته القصيرة "من النافذة". وفى لقاء خاص مع الأستاذ محمد إبراهيم عبد القادر المازنى فى ١٩٩٢/٤/٢٨ ذكر لى أنه نشر "من النافذة" وبعد وفاة المازنى بشهرين وأن الكتيب الذى نشر فى سلسلة اقرأ كان جاهزا للنشر قبل وفاته وأنه قد أضاف إليه بعض المقالات. وواضح أن الرواية تنتهى عند الفقرة رقم (٧) وهى السلسلة التى نشرها تحت نفس العنوان فى جريدة البلاغ فى الفترة ما بين ١٩٤٣/١٠/١٠ وحتى ١٩٤٣/١١/٢٨، وقد نشر المازنى أربع مقالات أخرى تحت نفس العنوان: الأولى فى ١٩٤٣/١٢/٥ وتمثل الفقرة رقم (٨)، والثانية فى ١٩٤٤/١/٢ وهذه سقطت من الكتيب، لا ندرى بمعرفة المازنى أم لا، والثالثة فى ١٩٤٤/١/٩ وتمثل الفقرة رقم (٩)، والرابعة فى ١٩٤٤/١/٢٣ وتمثل الفقرة رقم (١٠). وظنى أن المقالات التسع الباقية – التى كتبها المازنى فى عامى ١٩٣٦ و١٩٤٤ – هى التى أضافها محمد المازنى حتى يصبح الكتيب فى حجم كتيبات سلسلة اقرأ !

(٣) فى الذكرى العاشرة لوفاة المازنى بدأت "الدار القومية للطباعة والنشر" فى إحياء ذكرى المازنى بإعادة طبع بعض أعماله السابقة، وجمع بعض الأعمال غير المنشورة، فى كتب جديدة. ورغم أن الدار قد أحسنت بجمع ونشر بعض الأعمال

غير المنشورة، إلا أنها شوهت أغلب الأعمال التى أعادت نشرها. ربما كان السبب أن لكتب الدار حجمًا معينًا ومن ثم فقد تم تعديل (تشويه) هذه الأعمال بطريقة منظمة، حتى تناسب الحجم المقرر لها مسبقًا. والمشكلة هى أن أغلب الطبعات التالية (على سبيل المثال طبعة دار الشروق لبعض أعمال المازنى) اعتمدت – ربما بسبب الكسل – على هذه الطبعة المشوهة وكأنها الأصل الذى نشره المازنى فى حياته! وقد حاولت تحديد هذا التشويه الذى بدأ منذ بداية الستينيات فتوصلت إلى ما يلى :

(أ) فى أغسطس ١٩٦٠ تم حذف مقدمة الطبعة الأولى من "إبراهيم الكاتب" (سبع صفحات) وهى المقدمة التى أثبتها المازنى فى الطبعة الثانية عام ١٩٤٥، بل وأضاف إلى هذه الطبعة الثانية مقدمة ثانية قصيرة حذفت أيضًا فى كل الطبعات التى صدرت حتى الآن .

(ب) مجموعة "فى الطريق" التى جرى تشويهها فى سلسلة كتاب الهلال فى عدد نوفمبر ١٩٥٣ بحذف ١٤ صورة وأقصوصة، جرى تشويهها مرة أخرى على يد الدار القومية فى مارس ١٩٦١ بحذف ثلاثة أعمال أخرى. ومعنى هذا أن أكثر من نصف المجموعة قد اقتطعت وتمت إضافتها إلى كتب ومجموعات المازنى الأخرى !

(ج) فى عام ١٩٧٤ نشرت مجلة "الجديد" رحلة المازنى لحضور مهرجان المعرى تحت عنوان "رحلة الشام" وادعت أن النص لم ينشر من قبل وكذلك فعلت مع نص محاضرة المازنى للمؤتمر. والتشويه يأتى من هذا الادعاء رغم أن نص الرحلة نشر فى جريدة البلاغ (فى الفترة من ١١ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤) تحت عنوان "فى مهرجان المعرى" وكذلك نص محاضرة المازنى إلى المهرجان التى نشرت مرتين لا مرة واحدة: الأولى تحت عنوان "أبو العلاء الشاعر الإنسانى" فى عدد أغسطس/سبتمبر ١٩٤٤ من مجلة "الحديث" الذى تم تخصيصه للمعرى بمناسبة المهرجان. والمرة الثانية فى "جريدة البلاغ" على ثلاثة أيام (فى الفترة من ٣٠ سبتمبر وحتى ٢ أكتوبر من عام ١٩٤٤)، مباشرة بعد نشر نص الرحلة، تحت عنوان "أبو العلاء المعرى، كلمة الأستاذ المازنى فى العيد الألفى". من الجدير بالذكر أن مدحت الجيار أصدر نفس

المخطوطة فى كتابه "أدب الرحلة، رحلة الشام للمازنى نموذجًا" (١٩٩٤). ورغم أن المازنى لم يقم بالرحلة إلا فى عام ١٩٤٤ إلا أنه يذكر أن المازنى كتب المخطوطة وراجعها بقلمة عام ١٩٣٦ . وربما كان الأقرب للصحة أنه كتبها ونشرها في البلاغ عام ١٩٤٤ ثم راجعها وأضاف المقدمة فى عام ١٩٤٦ أو حولها .

(د) فى عام ١٩٧٥ أعادت دار الشروق نشر مجموعة المازنى الأخيرة "ع الماشى" وكان التشويه هذه المرة بالإضافة حيث أُضيفت للمجموعة خمس أقاصيص كانت قد نزعت من مجموعة "فى الطريق" وهى: الوطواط، والشيخ مبارك، والبرهان، وورطة، وأرواح متآلفة. ولم أستطع حتى الآن التبين إن كان هذا وقع من الدار القومية أولا أم لا .

وقد ذكر محمد المازنى لى أن ما سقط فى الطبعات التالية كان بسبب غفلة عمه أحمد عبد القادر المازنى الذى كان مسئولا آنذاك عن نشر تراث أخيه. والغريب أنه رفض أن أطلع على مخطوطة "رحلة العراق" التى بحوزته – لمقارنتها بالنصوص المنشورة تحت نفس العنوان – لعدم ثقته فى الأكاديميين لأن أحدهم، كما قال، قد أخذ بعض المخطوطات ونشرها دون أن يعطيه حقه! والظن أنه يوجد داع للمقارنة لأننى أتصور أن المازنى قد جمع رحلتيه إلى العراق عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٥ تحت مسمى واحد وبمقدمة جديدة. ولأننى لم أتمكن من رؤية المخطوطة بعد فقد رأيت أن أنشر الرحلتين كل على حدة مع التفريق بينهما بذكر سنة الرحلة بين قوسين .

* * *

بقى أن نشير إلى أن الدار القومية قد نشرت فى الستينيات عدة كتب للمازنى بمعرفة ورثته هى :

(أ) "قصة حياة" (فى ١٩٦١/٥/٤) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره. وهو تجميع لسلسلتين من المقالات الأولى نشرها المازنى تحت عنوان "حياة الخوف من الخوف" فى الفترة من نوفمبر ١٩٣٧ وحتى فبراير ١٩٣٨

وتمثل ترجمة ذاتية للفترة المبكرة من حياته الاجتماعية والدراسية. والثانية نشرها تحت عنوان "كيف ولماذا أعتزل الناس" في الفترة ما بين ديسمبر ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٩ وتمثل ترجمة فكرية للسنوات الأخيرة من حياته الفكرية والأدبية .

(ب) "مختارات من أدب المازني" (في ١٩٦١/٧/٦) وهو تجميع لما نزع من "صندوق الدنيا" و"في الطريق" بالإضافة إلى ثلاث أقاصيص جمعت من الدوريات هي: "حلم"، و"المطلوب مديرة بيت"، و"عاقبة سليمة" .

(ج) "أحاديث المازني" (في ١٩٦١/٨/١٠) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره. وهو يحتوي على عدد من الأحاديث والمقالات والصور والأقاصيص. وهذا ما يمكن أن يقال أيضًا عن كتاب "سبيل الحياة" الذي نشر في نفس الفترة، ويحتوي على مجموعة من المقالات والصور التي لم يسبق جمعها في كتاب مع استثناء وحيد يتمثل في قطعة "خواطر في مرقص" المنزوعة من "صندوق الدنيا". في هذه الفترة تعرضت "من النافذة" مرة ثانية للتشويه حيث زيدت فقرتين، وأضيف لها ملحق جديد هو "صور من الحياة" الذي حوى ثماني أقاصيص تجمع لأول مرة .

ورغم أن عدد صفحات هذه الكتب الجديدة يقارب الخمسمائة صفحة، إلا أنه بقي الكثير من كتابات المازني التي لم تجمع. لذا عزمت على تتبع كل ما نشره المازني لجمعه وتوثيقه، حتى يتيسر إصدار أعماله الكاملة. ولا بد أن أشير إلى أن هاجس إخراج أعمال المازني الكاملة كان – وما زال – يرافقني منذ دراستي إياه (في الفترة ما بين ١٩٩٠ و ١٩٩٤) لنيل درجة الماجستير. وكنت آنذاك قد جمعت كمية صالحة من هذه الأعمال. وعندما وجدت الفراغ المطلوب والاستعداد المبدئي من قبل الدكتور جابر عصفور لطبع الأعمال الكاملة للمازني، على أن نبدأ بالأعمال غير المنشورة، عدت إلى ما سبق أن جمعته، وشرعت في جمع الباقي أو نسخه. ورغم صعوبة الأمر، خاصة بعد ضياع أو تمزق بعض الدوريات القديمة مما جعل العمل في بعض الأحيان يشبه عمل علماء الحفريات، إلا أنني واصلت العمل لجمع وتحرير ودراسة الأعمال المجموعة هنا. وقد اعتمدت في ذلك على ببليوجرافيا أعمال المازني التي أعدها حمدي

السكوت ومارسدن جونز. ورغم اكتشافي أنها، في بعض الأحيان، لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية؛ حيث نسبت للمازني أعمالا لابنه محمد أو لسميه إبراهيم المصري، إلا أنها أفادتني في إعداد هذه الأعمال للنشر فالشكر الجزيل لهما .

وقد قسمت الأعمال المجموعة هنا، على أساس موضوعي، إلى ثلاثة أقسام. قسم "التأملات والذكريات" ويقع في المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة ويضم ما نشره المازني من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها وحول الحياة بصفة عامة . وفي المجلد الثاني جمعت ما تيسر جمعه من «المقالات والدراسات النقدية» . أما المجلد الثالث فخصص لقسم « الأشكال السردية » سواء كانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمقال القصصي أم طويلة مثل الرواية (وسوف نخص رحلات المازني بمجلد خاص) ... الخ . وقد حرصت على تقديم كل قسم بمقدمة خاصة أشير فيها إلى بعض خصائص الأعمال المنشورة فيه .

تبقى ثلاث ملاحظات، الأولى أنني رتبت الأعمال المجموعة في كل مجلد على أساس تاريخي. والثانية أن تأملات وذكريات المازني تخترق أيضًا المجلدين الأخيرين، ولكنها ليست غالبة كما في المجلد الأول الذي خصصته لهذا الأمر. والأخيرة أنني ما زلت أحتفظ بالكثير من مقالات المازني الاجتماعية والسياسية خاصة تلك التي نشرها في أخريات حياته لأنني لم أرتح بعد إلى طريقة مناسبة لنشرها.

وأخيرًا لا يسعني إلا أن أشكر كل من مد يد العون لإنجاز هذا العمل وأخص بالذكر موظفي مخزن الدوريات بدار الكتب المصرية : نجيب عبد العظيم، وعبد الحكيم علي محمد، ومحمد عبد المحسن، وخالد سعيد وأستير مسعد مقار. كما أتوجه بالشكر للمجلس الأعلى للثقافه وأمينه العام الذي وقف خلف هذا العمل حتى اكتمل .

د. عبد السلام حيدر

مقدمة المجلد الأول

إبراهيم عبد القادر المـــازني .. صورة من قريب

(١)

ولد إبراهيم بن محمد عبد القادر المازني– على أرجح الأقوال – في أغسطس ١٨٩٠ في حي سيدنا الحسين، وأصوله – كما يدعي – عربية صريحة حيث يذكر أن أجداده نزحوا من شبه الجزيرة العربية إلى مصر بعد الفتح، ويشير في ذلك إلى قبيلة "مازن" المعروفة التي اتخذت أحد أعمال المنوفية مكانا لها بعد الفتح: "كان ينبغي أن تكون بلدة "كوم مازن" – مركز تلا، على ما أظن، من أعمال المنوفية– مسقط رأسي. فإن فيها أهلي وعشيرتي.. ولكن المقادير بخلاف ذلك. فلا رأسي سقط في "كوم مازن"، ولا كتب لي قط أن أزورها أو ألم بها. وشاءت إرادة الله – لحكمة ولا شك – أن أكون قاهريا، مولدا ونشأة، وإقامة، وأنا أطوف ما أطوف ثم آوي إلى القاهرة، ولا يخطر لي أن أرى هذه البلدة – الطيبة على ما سمعت – التي نزل فيها أجدادي ونسبوها إليهم"[1] .

وفي حقبة تالية نزح بعضهم إلى القاهرة لتلقي العلم، على الأرجح، ولكنهم ما لبثوا أن استقروا بالقرب من الأزهر. وصار الشيخ عبد القادر المازني شيخا للمالكية في الأزهر. أما ولده محمد عبد القادر المازني فقد انتظم أيضا في التعليم الأزهري: "وكان أبي من رجال الأزهر، وزملاء الشيخ محمد عبده في الدراسة وتلاميذ السيد جمال الدين، وإن كان لم ينبغ كما نبغوا"[2] . ثم سافر إلى فرنسا في بعثة نال خلالها

(١) المازني : سبيل الحياة ، ص١٢ .

(٢) المازني : أحاديث المازني ، ص ١٠١ .

"شهادة فى القانون" وعندما عاد عمل محامياً، وافتتح مكتباً فى منزله. هذا بالإضافة إلى عمله كمحام "للمعية السنية" حيث كان يتولى شئون القصر الشرعية. تزوج للمرة الأولى من ابنة عمه فأنسلها ولديه "محمد خيرى" و"خديجة" وسرعان ما ماتت هذه الزوجة فتزوج بأخرى أنجبت له ولديه إبراهيم وأحمد[٣] .

ونشأ المازنى فى عائلة كبيرة لها بيت خاص كبير فى حارة "الداوديارى" فى حى الحسين، وكان يعمل لديهم الخادم والخادمة والبواب والبستانى، وكان البيت عبارة عن مدخل واسع، وساحة رحيبة بها حديقة تتوسطها نافورة والحجرات من حول ذلك، وفيها مكتب الوالد ومكتب الوكيل ومساعدوه والمصلى وسكنى الخدم. أما الطابق الثانى فسكن للأسرة. وقد تنقل المازنى بعد ذلك بين بيوت كثيرة ، ولكنه لا يتذكر إلا ساحة هذه المنازل ومداخلها الواسعة بالإضافة إلى بعض التفصيلات الأخرى .

ونستشعر من كتابات المازنى الكثيرة والمتنوعة عن هذه الفترة أنها كانت سعيدة هانئة، وحكاياته عنها مملوءة بالعفرتة والشيطنة خاصة مع جده الشيخ عبدالقادر؛ فقد كان مغرماً بلحية جده شغوفا بمعابثته[٤] . لقد كان لهذا الجد أثر فى نفس حفيده لا يمحى، وربما فاق أثر والده، ولا عجب فقد كان الوالد دائم الانشغال بأعماله وزيجاته العديدة ، لذلك لم يترك هذا الوالد فى ذهن ولده صورة واضحة المعالم والقسمات كصورة الجد، وإنما مغلفة بالأسى والحزن. أما والدة إبراهيم عبدالقادر المازنى فقد كان لها أعظم الأثر فى حياته، كونت شخصيته وشقت طرق تفكيره، وطبعت على صفحة قلبه انطباعات بدت آثارها فيما كتب وأبدع .

وقد تولت الأم الإشراف على تعليم ولديها "إبراهيم وأحمد". وبداية لم ترض لإبراهيم التعليم الأزهرى، وبفضل إصرارها لم يطل مكثه فى الكتاب إذ ألحقته بمدرسة أهلية تمهيدا لإلحاقه بمدرسة حكومية، ولم يمانع الأب ولم يتدخل إلا عندما علم بسوء أحوال

---

(٣) حوار مع الأستاذ محمد إبراهيم عبدالقادر المازنى فى منزله فى ٢٨ إبريل ١٩٩٢ .

(٤) المازنى : قصة حياة ، ص ٥٢ .

تلك المدرسة الأهلية فنقله إلى مدرسة أخرى في شارع "محمد على" على مقربة من القلعة، وتسمى "مدرسة القرشوللي" وكان يديرها ضابط تركي، وقد بقي بها إلى آخر العام واجتاز امتحانها، ولكن صاحبها التركي أبى أن ينقله إلى فصل أرقى؛ لأنه ضئيل الجسم، وتكرر معه الأمر في المعلمين العليا حتى أمست ضآلة الجسم هاجسا يلح عليه في جل كتاباته عن نفسه. وقد بقي في السنة الأولى عاما آخر بلا موجب سوى حذلقة المدير التركي .

وفي هذا العام مات جد المازني، وكانت وفاته هي أولى الصدمات في حياة المازني، الذي شعر بأن خسارته جسيمة وأنه فقد ما لا يرى عنه عوضا. ثم كان انتقاله إلى مدرسة حكومية بعد وفاة جده حيث نقله والده إلى "المدرسة القربية"، وهي تقع في "شارع القربية" وذلك لقربها من مسكنه وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التي يجري فيها الترام الجديد والتعرض لأخطاره. أما المدرسة فقد كانت رحيبة ولكنها عتيقة جدا، وقد بقي بها أربع سنوات وهي سنوات الدراسة الرسمية وتقديري أنها كانت بين عامي ١٨٩٨-١٩٠٢ .

وبعد التحاقه بهذه المدرسة مرض والده، لعدة شهور أقامها في بيتهم، وتضاربت الأقاويل حول مرضه، ثم كانت النهاية المفجعة بوفاته. تلك الوفاة التي أحدثت رجة كبرى بين أفراد أسرته، ولم يكن المازني – لصغره – يعقل أبعاد ما حدث، ولكن الأيام لم تتركه ينعم في جهله فسرعان ما شقت له جفونه، وسرعان ما أرته أهوالها، على يد أقرب الناس إليه، وهنا يبرز دور الأخ الأكبر، غير الشقيق، "محمد خيري" وقد أوجز المازني دوره قائلا "وتولى أخي عن الأيام مهمة إفقارنا وترقيق حالنا ، وأشهد أنه وفق في ذلك إلى أبعد مما شاءت المقادير الجارية بالنحوس"(٥) . ويذكر المازني أن مأتم والده اقتصر على يوم واحد، وأنه كان مأتما ككل المآتم، ولكن الأخ ادعى أن المأتم كلفه خمسمائة جنيه، وهي ثروة ضخمة بمقاييس ذلك العصر، ولم يدر أحد فيما أنفق هذا

---

(٥) المازني : الشيخ محمد عبده، السياسة الأسبوعية، ٢٦ فبراير ١٩٣٢، ص٦ .

المبلغ الضخم في يوم واحد، ولما لم يحرك أحد ساكنا استمر "خيرى" في غيه وفي نهب أموال أبيه التي خلفها للعائلة[٦] .

ولم تكن أم المازني لتتصور أن "خيرى" سينفق كل هذه الأموال في أقل من عام، ويذكر المازني أنها دعته يوم عرفت وقالت له، وقلبها يعصره الألم "لم يبق لنا شيء يا إبراهيم. ترك أبوك لنا مالا كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب" ثم قصت عليه ما فعله "خيرى" بميراث أبيه، وطلبت منه إذا أراد أن يواصل تعليمه أن يروض نفسه على الشظف والحرمان، وعلى تلقى ما تجيء به الأيام بالجلد والتشدد، وعدم الشكوى لأنه أصبح رجل البيت والمسئول عنه، وأفهمته أن أملها في الله كبير. يقول "وفي هذه اللحظة قطعت الطفولة كلها وثبا – وما كنت إلا ابن عشر ، ولكن أمي تقول لي إني أصبحت رجل البيت وسيده والمسئول عنه – عن أخي الصغير وعن أمي وجدتي لأبي. كل هؤلاء مسئولون مني أنا الذي لايزال يتعلم الجمع والطرح والضرب وكلمات من الإنجليزية لا يحسن أن ينطقها. مسئول عن هؤلاء وبي حاجة إلى من يتعهدني، ويبرني ويسرني ويهذبني ويؤدبني"[٧] .

وبدأ الطفل يلاحظ ويراقب تغير الأحوال، وبدأ الخدم يتفلتون واحدا وراء الآخر. ولكن أكثر ما كان يضنيه وينكأ جراحه أن يقارن بين حال أمه وحال أخيه: "وكانت أمي تبيع ما عندها من الحلى وما إلى ذلك لتنفق علينا وأخونا لاه عنا بتضييع مالنا وكنت أنظر إلى الجهد الذي تتجشمه أمي في تدبير الأمر، وإلى حال أخي ولهوه فأحس باليأس ويخامرني من المرارة ما يكاد يفيض على لساني"[٨] . لقد علمته تلك الحياة أن يصرف نفسه عن طلب المتع واللذات وأن يوطنها على حياة الخشونة والجلد. وقد أرهف ذلك كله من إحساسه فبدأ يميل منذ هذا الزمن المبكر إلى اعتزال الناس والانقباض عنهم، وإلى اتقاء الخوض معهم فيما يخوضون فيه من جد وهزل

---

(٦) راجع المازني : قصة حياة ، ص ٦٦ .

(٧) المازني : سبيل الحياة ، ص ٢٣ .

(٨) المازني : الشباب الثاني، البلاغ، ٤ نوفمبر ١٩٢٨، ص٥ .

أو فيما يستدعى نفقة أو تكون فيه كلفة. وظلت نبرة الحزن على النفس تعاوده كلما جاء ذكر والده. وكان في أعماق نفسه يحمله جريرة ما يعانيه وأسرته الصغيرة من مر الفاقة ، وأنه هرب بالموت من مسئولية رعايتهم .

ومضت الأيام وساءت الأحوال أكثر، وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام والشراب فوقف المازني على عتبة الباب ينظر إلى صبيان الحارة، وهم يلعبون فرحين مسرورين، لا يكربهم شيء ولا يفكرون في طعام أو شراب ينقصهم وإذا به يرى شيخا فاضلا من زملاء أبيه في الأزهر، مقبلا ففزع، وهم بأن يتوارى عنه، ولكنه كان قد لمحه فناداه وسلم عليه، ثم سأله عن جدته وكيف حالها؟ وطلب منه أن يصعد إليها ويستأذن له كي يقابلها، وإذ به يخبرها أنه كان قد خطف من والد إبراهيم مبلغا ليشترى له أرضا، ولكن المبلغ بقي معه وأنه يريد أن يبرئ ذمته ويرد لهم مالهم "وقد كانت هذه بداية الفرج، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا المبلغ وتيسر الإنفاق على تعليمنا، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم"[٩] . وقد كان لهذه الحادثة أكبر الأثر في حياة المازني وأسرته، فهي التي ردت إلى نفسه الإيمان بالخير في هذه الدنيا، وزايله بسببها الإحساس بالسخط عليها، وقد ظل يتذكرها حتى أخريات حياته، وصارت لديه كترياق "وما زلت كلما ضاق صدري بالشر في الدنيا أذكر هذا الرجل الأمين فيردني ذكره إلى حسن الظن، وسجاحة الخلق"[١٠] .

وبالطبع لم تصبح أسرة المازني، بهذا المال، من الأغنياء، ولكنه كان حسبهم مع الاقتصاد وحسن التدبير، ولذلك آثرت أن تترك البيت الخاص وأن تنتقل إلى بيت العائلة، وكان بحي الحسين أيضا، واحتلت منه جناحا كبيرا أقامت فيه ثلاث سنوات. وقد عز الأمر في أوله على المازني ولكن عصا الفقر ساقته إلى القبول حتى ألف الحياة الجديدة .

---

(٩) المازني : قصة حياة، ص ٦٧ (هذا الشيخ هو المرحوم إبراهيم بصيلة من كبار العلماء) .

(١٠) المازني : ذكريات. البلاغ، ٤ إبريل ١٩٤٣، ص٤ .

وهكذا مضت الأيام وانتظمت الأمور، وإن لم تخل من قلق واضطراب. كانت الجدة لا تفارق السجادة، أما الأم فهي مشغولة دوما بشئون البيت وتدبير المعاش وإقناع ابنها الأكبر بأن جملة الخير في هذه الدنيا أرجح من جملة الشر. وقد نجحت حتى إنه أصبح يرى الجوانب الأخرى المضيئة لهذه المآسي، فأرجع الفضل في ذهاب بلادته إلى هذه المآسي. فقد كان تلميذاً بليداً خائبًا في حياة أبيه، يعيش في رخاء ورغد، فلما مات أبوه وحلت بهم المآسي ذهبت البلادة وزادت حدة ذكائه، وتعود الجلد، وتعلم مغالبة الصعاب وتقبل حكم الأقدار بالتسليم مهما شقت عليه البداية. وللمازني مقالة في كتابه "سبيل الحياة" بعنوان "أساتذتي" ذكر فيها أن الفقر كان أستاذه الأول، وأن الخوف من التعثر في الدراسة كان هاجسه الأساسي .

(٢)

ورغم كثرة أحاديث المازني عن مدرسته الابتدائية وناظرها وأساتذتها فإنه لم يحدثنا كثيرا عن ماهية المواد التي كان يدرسها، وفي مقالته الطويلة "ذكريات مدرسية" يحدثنا عن مدرس الخط وكيف كان يعاقب تلامذته بدق أصابعهم بحجر، فمن الطبيعي أن يكون خطه رديئا. وقد كره "الجغرافيا" بشدة، خاصة أسماء الخلجان والتضاريس البغيضة. أما الرياضيات فلم يكن يحبها ولا يفهمها رغم طيبة مدرسها، وأنه لا يدري كيف كان يجتاز الامتحانات المدرسية في هذه المادة. ويعترف المازني في سياق آخر بأنه نجح في الابتدائية عن طريق الغش في هذه المادة[١١] .

عندما أحرز الشهادة الابتدائية ذهب إلى المدرسة "الخديوية الثانوية" وكانت في حي شبرا وشبه مقصورة على أبناء الأسر المتوسطة وأغنياء الريف. وكان التعليم الثانوي، كما صرح المازني، انتقالا بأدق المعاني. فقد صار كل ما في المدرسة – تقريبًا – إنجليزيا: التعليم والناظر والمدرسون. فكان تدريس التاريخ والجغرافيا

---

(١١) المازني : عود على بدء، ص ١٣٣ .

والطبيعة والكيمياء والرياضيات بالإنجليزية. وكعادته لا يحدثنا المازنى عما كان يدرس ولكنه يحدثنا عمن كانوا يدرسون له، فيهاجم أساتذة اللغة العربية ويمدح أساتذة اللغة الإنجليزية. فأساتذة اللغة العربية يدرسون بطريقة تفضى بالتلاميذ إلى الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال، هكذا يقول!. أما أساتذة اللغة الإنجليزية "فكانوا يرشدوننا ويساعدوننا ويقرضوننا الكتب إذا أنسوا منا ميلا إلى القراءة، ويصحبوننا إلى مكتبة المدرسة، ويتخيرون لنا ما يوافقنا وما يسعنا أن نفهمه، ولا يبخلون علينا بالتفهيم والشرح حتى فى أوقات الفراغ"[١٢] .

ويذكر محمد عبدالله عنان (١٨٩٦-١٩٨٦) الذى التحق بنفس المدرسة بعد المازنى بأربع سنوات، أنهم كانوا يدرسون الأدب الإنجليزى دراسة حسنة: يحفظون مقاطع من مسرحيات شكسبير ويتعرفون على كتاب "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" لإدوارد جيبون وحفظوا بعضه. بالإضافة إلى دراسة بعض الآثار الأدبية الجليلة مثل كتب "تشارلز ديكنز" وغيره من الأدباء. ويذكر الأستاذ عنان أن مكتبة المدرسة كانت تزخر بمجموعة كبيرة من آثار الأدب الإنجليزى، وأن أساتذتهم كانوا يفتحون لهم أبواب القراءات فى عدد من المصنفات الإنجليزية الجليلة خاصة فى مجالى الأدب والتاريخ. وأنه من الطبيعى أن يطالع الموهوبون كتب ديكنز ووالتر سكوت، ووليام ثاكرى ، وجورج إليوت، وأوليفر جولد سميث، وغيرهم من كتاب هذه الطبقة المتميزة فى الأدب الإنجليزى[١٣]، وهى أسماء لا يمل المازنى من تكرارها فى مواضع مختلفة من كتاباته. وإذا جاز أن تختلف النماذج عما درسه الأستاذ عنان، فإن الراجح أن الكم يستوى مع ما درسه المازنى فى نفس المدرسة. ويهمنى هنا اتفاقهما - المازنى وعنان - على وصف واحد لأغلب المدرسين وهو توجيه الطلاب واصطحابهم إلى المكتبة، بل والقراءة لهم أحيانا من بعض الكتب خارج المنهج .

وقد بدأت نفسه تتفتح على القراءة والاطلاع منذ هذه السن المبكرة، ولكنها كانت، كما هو متوقع، دون قاعدة أو منهج. "غير أن هذه القراءة الأولى لا قيمة لها إلا من

---

(١٢) المازنى : الأدب والمدرسة. الرسالة، ١٩٢٩/١/٣٠، ص١٩٤ .

(١٣) راجع محمد عبدالله عنان : ثلثا قرن من الزمان، دار الهلال، ص ٢٦ وما بعدها .

حيث أنها دليل على الميل"[١٤] . وأظن أن طالبا في مثل هذه المرحلة قلما يقرأ غير قصص المغامرات والحب وقصص الأدب الشعبي ومثيلاتها من القصص المترجمة، وقد كانت كالسيل الجارف وما زالت. يقول "ولقد التهمت في حداثتي - غير ألف ليلة - حكاية سيف بن ذي يزن وقصص المردة والشياطين وحروب علي كرم الله وجهه مع الجان وما أحسب هذه إلا بعض أحلام الإنسانية بالقدرة التي لا يحد ولا يحول دون إرادتها وتصرفها حائل من المادة"[١٥] . وكانت موارد المازني، كما نعلم، محدودة جدا فكان يعتمد على الاستعارة من زملائه الموسرين، وقلما كان يرد ما يقترض من كتب! ولم يكن يغفل جرائد ودوريات ذلك العهد. يقول "كانت في أيامنا جرائد ومجلات كنا نقرأها جميعا.. اللواء والمؤيد والجريدة والمقطم والدستور والهلال والمقتطف ، بل كنا نذهب إلى دار الكتب لنقرأ فيها المجلات القديمة مثل الضياء والبيان لصاحبها المرحوم اليازجي"[١٦] . وكانت هذه أيام مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) وكان يقيم البلاد ويقعدها بخطبه ومقالاته التي يندد فيها باستبداد وطغيان المستعمر الإنجليزي، وقد شارك المازني كأي شاب مصري أنذاك في هذه الحركة الوطنية قدر استطاعته. وقد اعترف المازني بأن إفادته من هذه الخطب والجرائد كانت أجل من استفادته من دراسة اللغة العربية وآدابها في المدرسة الثانوية فيقول "وأحسب أني لا أبالغ إذا قلت أني تلقيت دروسي الأولى في اللغة العربية من اللواء والمؤيد لا من معلمي في المدارس"[١٧] .

وكان المازني يتردد كذلك على الدروس والندوات الثقافية. "وقد كانت هناك في أيامنا جمعيات أدبية شتى وكنا نعنى بأن نشهدها كلها"[١٨] . ويؤكد هذا المعنى بقوله: "وكنت أسمع حافظا ينشد شعره في الجمعيات الأدبية، والاجتماعات السياسية التي

(١٤) المازني : القراءة -١- ، البلاغ ، ٢ فبراير ١٩٣٥ ، ص٢ .

(١٥) المازني : زينب ، الصراع بين الواجب والعاطفة. السياسة الأسبوعية ، ٢٧ إبريل ١٩٢٩ ، ص٥ .

(١٦) المازني : الجيل الجديد ، الرسالة ، ٥ يوليه ١٩٣٧ ص١٠٨٣ .

(١٧) المازني : الأدب والمدرسة ، الرسالة ، ٣٠ يناير ١٩٣٩ ص١٩٤ .

(١٨) المازني : الجيل الجديد ، الرسالة، ٥ يوليه ١٩٣٧ ص١٠٨٣ .

كان مصطفى كامل يعقدها ويخطب فيها، فيعجبني حسن الإلقاء، و... ...اطة والجزالة"[19] .

وظلت نفس المازني الغضة المتفتحة تعب وتلتهم كل ما يقع تحت عينيها أو يصك سمعها من طيب ورديء في دنيا الثقافة. ولكن مع الوقت بدأ مرحلة الغربلة والاختيار. وعندما سئل فيما بعد عن هذه البداية وعن الكتب التي أثرت في توجيه فكره وعاطفته بصورة جدية تجاه الأدب: نقده وإبداعه قال: "هما كتابان وجها نفسي هذا التوجيه : ديوان "شيللي" الشاعر الإنجليزي، وديوان "الشريف الرضي" الشاعر العربي. بهما بدأت مطالعاتي الجدية - على خلاف العادة - وعلى أثرهما استنزفت أيامي في معاناة الأدب"[20] . ويشير المازني في سياق آخر إلى تعرفه على "المعري" في نفس المرحلة، والفضل يرجع للمرحوم عاطف بركات باشا وكان يومئذ مفتشا للعربية. دخل فصل المازني وكان طلبته يعربون أبياتا للمعرى فحدثهم عنه حديثا أخذ بألبابهم وجذب انتباههم بقوله "إن شعره أصفى من الجدول الرقراق، ومع ذلك ستحتاجون وأنتم تقرأونه إلى المعجم فقد كان يتكلف الإغراق في أكثر الأحيان". وكان المازني ممن تأثروا بهذه المحاضرة. يقول: "فكان أن اقتنيت "سقط الزند" و"اللزوميات" وعكفت عليهما، وما أظن به إلا أنه قوى في نفسي ميلي في أيام الشباب إلى التشاؤم. وأعداني بخواطره السود. ولكنه علمني أن أنظر بعيني، وأفكر بعقلي. وصدني عن التقليد والمحاكاة، وحبب إلي الخير والرحمة والإنصاف ، وبغض إلي الظلم والبغي وإن كان لم يهدني. وله العذر فما كان اهتدى حتى يهدي سواه"[21] .

---

(١٩) المازني : صديقي حافظ إبراهيم ، الهلال، نوفمبر ١٩٤٨ .

(٢٠) راجع استفتاء "الكتب التي أفادتني". الهلال عدد أول يناير ١٩٢٧، ص٢٧٦ .

(٢١) المازني : أبو العلاء المعري، كلمة الأستاذ المازني في العيد الألفي. البلاغ ، ٣٠ سبتمبر ١٩٤٤، ص٣ .

(٣)

وعندما أتم المازني دراسته الثانوية حار بين مدرستي الطب والحقوق وكانت مصروفاتهما مما يدخل في طاقته، ولكنه آثر الطب اقتداء ببعض ذوي قرباه فذهب وقدم أوراقه. وكان ناظر المدرسة آنذاك، ويدعى مستر "كيتنج"، ديكتاتورا لا سلطان لأحد عليه ولا مرد لحكمه. ومن سوء حظ المازني أو حسنه أنه دخل قاعة التشريح يوم الكشف الطبي فرأى جثة منتفخة تفوح منها رائحة نتن خبيث، فدارت رأسه وأغمى عليه، وكان "كيتنج" هذا قادما فرأى ما حدث فكان حكمه أن "هذا لا يصلح، فاطردوه". ولما لم تجد توسلات المازني ولا تعهداته أخذ أوراقه وقدمها إلى مدرسة الحقوق. وفي اليوم التالي ضاعفت وزارة المعارف المصروفات فجزع وأسرع إلى مدرسة الحقوق واستعاد أوراقه وجلس في البيت مكروبا مهموما لا يدري ماذا يصنع. وفي هذا العام فتحت مدرسة "المعلمين العليا" أبوابها، وهي مدرسة مجانية أنشأها الإنجليز لتخريج مدرسين أكفاء علميا وتربويا، وتولى نخبة منهم التدريس فيها في كافة التخصصات عدا اللغة العربية. ولم يعلم المازني بأمر هذه المدرسة حتى أخبره أحد أقربائه. يقول: "وزينها لي بأن مدة التعليم فيها سنتان اثنتان، وأنه فيها بالمجان، وأنها تعطي الطالب كل شهر في السنة الأولى ثلاثة جنيهات، وأربعة في السنة الثانية، وتلك مزايا عظيمة لفقير مثلي"[٢٢] . "وتصور فرحتي: مدرسة عالية لا تكلفني شيئا وثلاثة جنيهات ثم أربعة كل شهر، وهي ثروة لفتى دخل أسرته في الشهر جنيهان ليس إلا، تنفقهما على الطعام والكسوة"[٢٣] .

ودخل المعلمين العليا، وكان عدد الطلبة المقبولين سبعة وعشرين طالبا، والمازني أصغرهم سنا وجسما، وكان لناظر المدرسة الإنجليزي الدكتور "دليفي" الدور الأساسي في تعهدهم وتوجيههم تجاه الثقافة الغربية عامة والإنجليزية خاصة حيث

---

(٢٢) المازني : من ذكريات الماضي: كنت مدرساً. الهلال، أكتوبر ١٩٤٨ ، ٢٦ .

(٢٣) المازني : هكذا شاءت الأقدار. أخبار اليوم، ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ ، ص٤ .

"هداهم إلى الكتب القيمة ووالاهم بالسؤال والمراجعة، فتخرج على يديه نخبة من أدباء الجيل وفضلائه، وفي طليعتهم عبدالرحمن شكرى والمازنى ومحمد جلال"[٢٤] . وقد تحدث المازنى فى أكثر من موضع عن أثر أساتذة المعلمين العليا فى حثهم على التحصيل بتيسير أسبابه وتنظيم أمره، وهذا ما نفع المازنى وزملاءه كثيرا ، فأقبل على الكتب يلتهمها ويقتنيها. ومن الطبيعى وعدد الطلبة قليل ، أن يتعارفوا ويتآخى بعضهم ثم يتناجوا فيما بينهم بأحلامهم، وأمانيهم فتقارب المازنى وشكرى حتى تآلفا، والأرجح أن المازنى كان قد حدد غايته وطريقه قبل أن يلتقى بشكرى ولذلك يقول: "وسألت نفسى، ما هى غايتك؟ وأجبت نفسى بأن غايتى أن أكون شاعرا عظيما وناقدا حصيفا. ولما عينت الغاية سهل أن أرسم الطريق، فأقبلت على دواوين الشعراء وعلى الكتب التى رجوت أن أستفيد منها فلسفة النقد خاصة والأدب عامة"[٢٥] . فالأرجح أن اتفاق الميول كان أقوى دافع للتقارب بينهما، ولكن قراءات المازنى كانت ارتجالية، ومع الوقت صرفه شكرى عن القراءة غير المنظمة ونصحه بضرورة التخصص والتركيز خاصة بعد أن تعرف على الميول والاتجاهات التى يؤثرها. ويصف المازنى دور شكرى فيقول: "فتناول يدى وشد عليها، وأبت له مروءته أن يتركنى ضالا حائرا أنفق العمر سدى وأبعثر فى العبث ما لعله كامن فى نفسى من الاستعداد"[٢٦] .

وإلى جانب التشجيع والإغراء كانت دروس المدرسة القليلة خير مشجع على الاطلاع، وكانت الدروس مقصورة على الأدب فلم يكونوا يدرسون نحوا ولا صرفا، وقد ترك هذا التخفيف وقتًا كافيًا للمطالعة. وقد صرح المازنى بأن ما كان يقرأه من تلقاء نفسه أضعاف ما يدرسه، وزاد نهمه ما كان ينقدونه كل شهر، فكان يقسم هذه الجنيهات قسمة عادلة، للبيت نصفها وتستأثر الكتب والمكتبات بالآخر، فكان ينتقى مئونة الشهر ويعود إلى البيت فما إن تراه أمه حتى تقول له: "أنفقت فلوسك كلها.

(٢٤) رثاء العقاد للمازنى ، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد السابع ، ص ٤٠٠ .

(٢٥) المازنى: القراءة -١- . البلاغ، ٢ فبراير ١٩٢٥، ص ٢ .

(٢٦) المازنى : عبدالرحمن شكرى وكتاب "رواد الشعر الحديث" للأديب مختار الوكيل ، البلاغ، أول سبتمبر ١٩٣٤، ص٦ ، ٧ .

وتظل طول الشهر تقول لي: هاتي. هاتي. أي تدبير هذا".. فيقول "يا أمي.. لك مؤونتك من السمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم، ولي مؤونتي من المتنبي والشريف الرضي والأغاني وهازليت وثاكري وديكنز وماكولي، ولا غنى بك عن سمنك وبصلك ولا بي عن هؤلاء". فتبتسم له وتدعو له بالتوفيق وتقول :"والله طول عمري ما عرفت جدك من هزلك!"[٢٧] . ولكنه كان جاداً معنياً بتثقيف عقله وإخصاب وجدانه ، فكان يعكف على ما اشترى يغرق فيه بقية الشهر إلى ما فوق الأذنين !

والمازني قليلا ما يتحدث بالتفصيل عن نوعية قراءاته آنذاك، وقد حاولت جاهدا أن أقف على صورة تقريبية فهالني هذا المزج بين العربي والغربي وهذا التفاني في التحصيل يقول: "وكنت لا أتخطى عتبة البيت إلا متأبطا كتابا، ولا تمضي على ليلة إلا طالعت في بعضها قليلا أو كثيرا، وكانت الكتب أنيسي في وحدتي وسميري في خلوتي، وكنت أستغني بها عن متع الحياة ولذات العيش"[٢٨] . كان يؤمن أن القراءة تقوم مقام التجربة الشخصية لذا جعلها تجربته اليومية يقول "كنت أشترى ديوان الشاعر ورقا، أعني بغير غلاف أو تجليد، ليتسنى لي حين أخرج من البيت أن أحمل معي ملزمة أو ملزمتين، أقرأ فيهما وأنا جالس في مقهى، أو إذ أتمشى على شاطئ النيل، وكان حديثنا إذ نجتمع في الأدب والكتب، وكانت رسائلنا التي نتبادلها في الصيف حين نفترق لا تدور إلا على ما نقرأ، وكان أحدنا يلقى صاحبه في الطريق اتفاقا فيقول له: "لقد عثرت على كتاب نفيس بغلاف فتعالى نقرأه". ولا يدعوه إلى طعام، أو شراب، أو سينما، أو لهو، بل إلى قراءة كتاب وكان كل من يقع على كتاب قيم يخف به إلى صاحبه فينبئه به ويلخصه له ويحضه على اقتنائه"[٢٩] .

وعندما انتهى المازني من دراسته في المعلمين العليا كان قد عرف الكثير من أمهات الكتب في الأدبين العربي والإنجليزي وغيرهما من الآداب الأخرى مع الدراسة

---

(٢٧) المازني : سبيل الحياة، ص ٦٦ .

(٢٨) المازني : قبض الريح، ص ٩ .

(٢٩) المازني : سبيل الحياة، ص ٦٦ ، ٦٧ .

التفصيلية لكثيرين من شعراء الشرق والغرب. وهنا نحاول أن نشير إلى أهم هذه الكتب وكيفية اطلاعه عليها :

يشير خير الدين الزركلي في "الأعلام" في سياق حديثه عن المازني وكان صديقا له "ذكر لي - أي المازني - أنه حفظ في صباه "الكامل" للمبرد غيبا وكان ذلك بسر الغنى في لغته"[٣٠] . وأعجب من هذا ما فعله المازني في قراءته "للأغاني" الذي فتن به في صباه: "وكان أول ما اقتنيت "الأغاني" طبعة الساسي وهي نسخة محشوة بالغلط.. ففككت الأجزاء "ملازم" وجعلت أحمل الملازم معي واحدة واحدة إلى دار الكتب في أوقات فراغي، وأراجع النصوص نصا نصا، وبيتا بيتا، في دواوين الشعراء أو كتب الأدب الأخرى، وأدون التصحيح، أو التكملات على ورق أبيض أعددته لذلك، وصرت ألصق الورق المكتوب بين الصفحات المطبوعة، حتى إذا انتهيت من جزء جلدته وانتقلت إلى ما يليه وهكذا حتى أتممت الكتاب كله ، فصار ضعفي حجمه الأصلي"[٣١] . وقد صار هذا منهجه في قراءة دواوين "ابن الرومي" و "الشريف الرضي" وغيرهما. وقد استغرقت قراءته للأغاني بهذه الطريقة سبع سنوات! .

نشير هنا أيضا إلى تأثره بكل من "الجاحظ" و "عبدالقاهر الجرجاني". يقول: "الظن الشائع هو أنني كنت متأثرا في البداية بالجاحظ ، وهذا صحيح ، ولكن أصح منه فيما أعلم أني كنت مفتونا بأسلوب الجرجاني - عبدالقاهر - صاحب "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" على أن هذا شيء قد مضى، وعهد قد انقضى ولله الحمد"[٣٢] . فالتراث العربي كان له أقوى الأثر في تكوين المازني الأدبي ويظهر ذلك في تأثره بتقنيات الاستطراد والتناص وصياغة الخبر وفي تطويع اللغة لمقتضيات السرد والوصف والحوار كما يعرفها الفن القصصي الحديث .

---

(٣٠) الزركلي : الأعلام، مج ١، ص ٧٢ .

(٣١) المازني : مشقة التحصيل، الرسالة، ٨ أكتوبر ١٩٤٥، ص ١٠٨٠، ١٠٨١ .

(٣٢) المازني : الصحافة والأدب، مجلة الكتاب، مارس ١٩٤٦، ص ٦١٨ .

أما فى الأدب الغربى فقد تعلق المازنى بكثير من مبدعيه وكتابه خاصة الذين يتخذون الإنجليزية أداة لهم أو الذين ترجمت أعمالهم إليها. ومن هؤلاء الكتاب والمبدعين اهتم المازنى على نحو خاص بتوماس كارليل Carlyle (1795-1881) . وعنه يقول "كان أول عهدى به وأنا طالب فى المعلمين العليا، وكان أستاذى فى اللغة الإنجليزية يحذرنى منه ويعظنى أن أكون من مدمنى قراءته، وينذرنى بالإخفاق والرسوب إذا ظللت مقبلا على كتبه متأثرا بأسلوبه، ولكنى لم أجعل بالى إلى أستاذى.. وما عسى أن يبلغ من طاقتى على ترك رجل كانت تتعلق بذهنى صفحات بأسرها من كلامه على غير جهد أو كد؟"[٣٣] . وكثيراً ما يشير المازنى إلى كتب كارليل التى خلبت لبه مثل "فلسفة الملابس" و"الثورة الفرنسية" و"الأبطال". ورغم إعجابه الشديد بكارليل ككاتب وبكل ما تناوله بقلمه من مسائل الحياة، إلا أنه لم يكن مقتنعا به كفيلسوف كبير. ولكن كارليل كان يبهره بمناشدته الحامية للناس كى يفكروا فى الحياة وقضاياها، ويبهره أكثر أنه كان يثير فى قارئه الشعور الملح بالحاجة إلى كل ذلك .

إلا أنه فتن بكاتب إنجليزى آخر هو "تشارلز لام Lamb (1775-1843) . وعنه يقول: "إنى لأذكر الآن كيف كنت أفر فى أول عهدى بالكتب، من كارليل إلى شارلز لام. وكنت أقول إن أسلوب كارليل وعرٌ شاذ فأستريح إلى "لام" كما يستريح المصعد فى جبل إلى الروض النضير والنسيم الرقيق، وكنت أزعم أنى أحب من شارلز لام أسلوبه، ولكنى أعلم الآن أنى مخطئ وأنى كنت أحب منه روحه ومزاجه، وذلك أنه لا يطيل ولا يكثر ولا يكظ كلامه بالحزون ولا يتسامى على القارئ، وهو خفيف الظل مخلص، يحب الأدب ويعدى القارئ بحبه هذا"[٣٤] . والواضح أن هذه الخصائص التى طالعت المازنى فى كتابات "تشارلز لام" وطبع بها أو وافقت طبعه، هى نفس الصفات التى تطالع كل قارئ لكتابات المازنى. وقد صرح المازنى بأنه تأثر "بشارلز لام" أيضا فى طريقة ذكره للأحداث والذكريات الشخصية فى سياق القصة أو المزج بينها وبين المقال، وهو الشكل الغالب على إنتاج المازنى .

---

(٣٣) المازنى : نظرات فى كارليل على ذكر كتاب فلسفة الملابس. مجلة الجديد، ع١ ، ٢٢ يناير ١٩٢٨، ص١٦ .

(٣٤) المازنى : صندوق الدنيا، ص ٢٠٨ .

ولكن اتساع قراءات المازني وانتظامها لم يكن يمنعه من المشاركة في بعض المناسبات الوطنية الكبرى. فعند وفاة مصطفى كامل (١٠ فبراير ١٩٠٨)، أقامت مدرسة المعلمين العليا، كغيرها من المدارس، حفل تأبين ورثاه أحد الطلاب فكان جزاؤه التهديد بالفصل من المدرسة. وعندما أقامت المدارس العليا حفل تأبين ناب المازني عن مدرسته ولم يأبه بالمتاعب التي تنتظره، وبالفعل كان جرمه مضاعفا ولم يحل بينه وبين الفصل إلا شفاعة ناظر المدرسة "د. دليني"، وكان – كما يقول المازني – "إنجليزيًا حرًا استقال في آخر العام"[٣٥] وعين بدلا منه "إسماعيل حسنين باشا".

وفي نهاية العام الدراسي الثاني أخبر الطلبة أن الدراسة لم تنته كما كانوا يتوقعون، بل زيدت سنة ثالثة. لم يجزع المازني، بل تلقى الخبر بصدر رحب وسعد به نوعا ما "وسافر بعضنا – بل أكثرنا – في بعثات إلى إنجلترا، وبقيت مع من بقي، لأن المرحوم الدكتور طلعت باشا "حكيمباشي" المعارف في ذلك الوقت أبى أن يأذن لي في السفر خوفا علي. وكانت مدة الدراسة سنتين، كما أسلفت، ولكنها زيدت سنة أخرى، فلم يشق هذا علي. فإني أقبض أربعة جنيهات كل شهر أدع منها للبيت نصفها، وأمتع نفسي بالنصف الآخر، فأشترى الكتب وأتقمش، وأجالس زملائي في "بار كملر" حيث نشرب البيرة الألمانية النفيسة ولا يكلفني ذلك غير بضعة قروش. ثم إني كنت صغيرا، أحلق وجهي – ولا أقول لحيتي – ثلاث مرات في اليوم لينبت الشعر ويغزر، ويكون لي مظهر الرجال. وإلا فأي مدرس يكون هذا الغلام الأمرد، القصير الهزيل الذي لا يمكن أن يملأ العين"[٣٦] . ومعنى هذا أنه بعد انتهاء عامين دراسيين أعلن سفر أربعة عشر طالبا في بعثات إلى إنجلترا، وكان شكري فيمن سافر وبقي ثلاثة عشر طالبا ، وكان المازني فيمن بقي[٣٧] . وفي هذا العام تعرف المازني على العقاد في صحيفة

---

(٣٥) المازني : مقارنة. جريدة الاتحاد ، ٢٧ أغسطس ١٩٢٧، ص١ .

(٣٦) المازني : من ذكريات الماضي: كنت مدرسًا. الهلال، أكتوبر ١٩٤٨، ص ٢٧ .

(٣٧) يذكر د. أحمد عبدالحميد غراب أن شكري ذهب في بعثة إلى إنجلترا بعد أن حصل على شهادة المعلمين العليا عام ١٩٠٩ (راجع : عبدالرحمن شكري ، سلسلة الأعلام رقم ١١، ص ٢٢) وقد تابعه د. أنس داود في كتابه (عبدالرحمن شكري نظرات في شعره، ص ٩٢) ولعلهما أدق !

"الدستور" ورأى سعد زغلول عندما زارهم في المعلمين العليا وكان وزيرا للمعارف. وتوثقت علاقته بمحمد السباعي وكان قد تعرف عليه عام ١٩٠٦ وعن طريقه تعرف على ديوان ابن الرومي .

وتأتي أهمية هذه النقول من دلالتها الواضحة على تنوع المصادر التي كونت ثقافة المازني وعلى زلل بعض الكتابات التي تحدثت عن ثقافة المازني حينما أهملت الحديث عن بعض التأثيرات والمصادر بينما ركزت على الأخرى. وهذا تشويه للحقيقة وتهوين من قدرات المازني. ومثال ذلك إهمال دور المعلمين الإنجليز في الثانوية والمعلمين العليا رغم ما لهم من فضل في توجيهه ودفعه في هذا الطريق. ومنه تضخيم أثر شكري والعقاد عليه[٣٨] رغم أنه لم يقابلهما إلا بعد أن خطا الخطوات الأولى الحاسمة والصعبة. وخلاصة القول أن هؤلاء الثلاثة اتفقوا على الغاية رغم اختلاف المنازع التي قدموا منها. ومثلهم مثل ثلاثة وصلوا بجهدهم إلى البحر المضطرب الطامي وركبوا مركبا واحدا، وكان على كل منهم أن يجدف قليلا، وليس معنى ذلك أن أول من أمسك بالدفة كان هو صاحب التأثير والتوجيه للآخرين .

(٤)

تخرج المازني في "المعلمين العليا" وأحرز شهادتها عام ١٩٠٩ . وكان طموحه أن يعمل بالصحافة، ولكن يد الفقر ونصيحة من الشيخ جاويش ساقتاه إلى العمل بالتدريس في وزارة المعارف التي عينته مدرسا للترجمة في المدرسة السعيدية الثانوية في نفس عام التخرج. ولكن قابلته عقبات كثيرة، وإن كان المازني قد صاغها لنا فيما بعد في قوالب ملئت ظرفا وطرافة. فقد كان أغلب الطلبة طوالا، عراضا بينما هو

(٣٨) نذكر من هذه الكتابات "رسائل النقد" لرمزي مفتاح (مطبعة الإخاء، ط٢، د. ت.). وهو كتاب دافعه التعصب الشديد ضد المازني والعقاد ولا يكاد يصمد للنقد العلمي لأنه مبني على الظن والترجيح لذلك لم نلتفت إليه في متن الدراسة مثله في ذلك مثل مقالات توفيق الطويل ومحمد كامل مصطفى الخياط في مجلة "النهضة الفكرية" في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٣١ وإبريل ١٩٣٢ .

قصير ضئيل، وكان بعضهم ذا شوارب بينما هو أمرد[٣٩] . ويسهب المازني كثيرا في الحديث عن تجاربه في المدارس التي عمل بها وخاصة "السعيدية الثانوية"، وفي شرح كيفية تغلبه على هذه المصاعب بفضل الناظر الإنجليزي والوكيل المصري "عبدالفتاح بك صبري" ويخص بالذكر ما يتصفان به من حزم وقدرة على الإدارة خاصة عبدالفتاح بك صبري. يقول المازني: "وقد كان اتصالي به وأنا مدرس أعود على وأنفع من كل ما خرجت به من مدرسة "المعلمين العليا" في ثلاث سنوات"[٤٠] . مثل هذا الجانب لم يشر إليه أو يوضحه أحد من الذين تناولوا المازني بالدرس والتأريخ. وظني أن المازني يقصد جانب التدريس والخبرة التربوية.

كان مرتب المازني عند تعيينه "اثني عشر جنيها ذهبا" في الشهر. وتصور هذه الثروة في ذلك الزمان وبعد طول فقر وحرمان. يقول "لقد بلغ من فرحي بهذه النعمة أني كنت أوثر أن أذهب إلى المدرسة في مركبة خيل! ومع هذا الإسراف الذي يغري به حديثو النعمة، وسع أمي – عليها ألف رحمة – أن تدخر لي بعد تسعة شهور مهر زوجة"[٤١] . وفي منتصف ١٩١٠ تقريبا كان زواج المازني الأول من ابنة خاله "محمود البردي" وكانت تدعى "سنية". كان زواجهما مقررا منذ الطفولة[٤٢] . وكان المازني ولت بنائه بها في العشرين من عمره. وكانت معارفه الناقصة عن المرأة والزواج وراء مشاكله المريرة التي عاناها وزوجه آنذاك. يقول: "بدأنا متحابين فما هي إلا شهور حتى صرنا إلى شر ما يمكن أن يصيب زوجين من النفرة وقلة الاحتمال، وعدم الاستعداد للتفاهم والعجز عن إصلاح الفساد وكاد الأمر ينتهي إلى التفرقة النهائية لولا أنه اتفق أن قرأت فصلا[٤٣] من مجلة راقتني يومئذ وعرفت بعد ذلك أنه كان

---

(٣٩) المازني : خيوط العنكبوت، ص ٢٩٥ .

(٤٠) المازني : ماذا نقرأ؟ ولماذا نقرأ؟، السياسة الأسبوعية ٣ مايو ١٩٣٠، ص٥ .

(٤١) المازني : من ذكريات الماضي: كنت مدرسا، الهلال، أكتوبر ١٩٤٨، ص ٢٧ .

(٤٢) أحمد عبدالقادر المازني : امرأتان في حياة المازني، الهلال، سبتمبر ١٩٥٨، ص٥٤ .

(٤٣) صرح المازني في مناسبة أخرى أنه كان فصلا عن "الجنس والتوافق الجنسي بين الزوجين" .

سخيفا محشوا بالخطأ، غير أنه دفعني إلى درس موضوع لم تكن لي به عناية، فأقبلت على الكتب ألتهمها حتى الجاف الذى لا يطيقه ولا يفهمه غير الأخصائي من مثل الكتب الطبية، وأذكر من بينها كتابا ضخما عن الإمساك. ولما شبعت من القراءة وأعتقدت أني وصلت إلى نتيجة يمكن الانتفاع بها شرعت أطبق العلم على العمل، وأدرس طبيعة زوجتي، وصبرت على التجريب والاختبار أكثر من عام، وعشنا بعد ذلك بستة أعوام كنا أسعد ما يكون زوجان في هذه الدنيا التي لا تخلو من المنغصات"[٤٤] .

وفي هذه الفترة أيضا بدأ المازني سعيه الحثيث للعمل في الصحافة. فعندما أصدر الشيخ عبدالرحمن البرقوقي مجلة "البيان" عام ١٩١١ فتح صفحاتها أمام نخبة من ناشئة الأدب في تلك الفترة، كان المازني أحدهم ، وكان الشيخ يفتح مكتبة المجلة لمن يريد الاطلاع منهم، وتحولت المكتبة إلى ندوة، وفي هذه الندوة التقى المازني بالعقاد مرة ثانية[٤٥] .

ومع الوقت تعمقت العلاقة بينهما ووقف كل منهما على حب الآخر للاطلاع وتوسعه في الإحاطة بكل من الثقافتين العربية والإنجليزية. ويصف العقاد ثقافة المازني أنذاك فيقول: "كان من مطالعاته الأوروبية في هذه الفترة دواوين: بيرون وشيلي وشعراء البحيرة، عدا شكسبير الغنى عن الذكر في هذا المقام. وكان يقرأ مع الشعر نقد الشعر وتاريخ الأدب في كتب النقاد الممتازين والمؤرخين المأثورين، وأحبهم إليه: هازليت وآرنولد وماكولي وسينتسبري، وطائفة من كتاب المقالة الأدبية، والعجالة النقدية الاجتماعية أمثال: لي هنت، وشارلز لام وسويفت، وأديسون وإخوان هذا الطراز، وأحب الروائيين إليه نخبة من فحول فن الرواية: كوالتر سكوت ، وديكنز، وثاكري، وكنجزلي. أما مطالعاته العربية فقد كان آثرها لديه في الشعر دواوين الشريف الرضي وابن الرومي والمتنبي، وكان آثرها لديه في البلاغة المنثورة كتب

---

(٤٤) المازني : عود على بدء وحكم الطاعة، ص ٧٦ .

(٤٥) العقاد : مقدمة سبيل الحياة للمازني، ص ٤ .

الجاحظ والجرجاني والأصفهاني، مع مراجعة متكررة لأمهات الأدب الكبرى كالأمالي والكامل والبيان والتبيين والعقد الفريد والأغاني ونهج البلاغة وما جرى مجراها في موضوعها، وإن لم يبلغ مبلغها في حجمها وطبقتها"[٤٦] .

وفي هذه الفترة تعرف العقاد ثم المازني على الدكتور محمد مهدي خان الشخصية الفارسية التي كان لها أكبر الأثر في تعميق اهتمام كل من العقاد والمازني بالأدب الفارسي، وخاصة شعر الخيام الذي تأثر به المازني وترجم بعض رباعياته عن الإنجليزية. وكان الدكتور مهدي خان قد ناهز التسعين عندما تعرفا عليه، وكان نموذجا صادقا لثقافة القرون الوسطى، وقد درس الطب والفلسفة ويكتب بالعربية والتركية ويتحدث الألمانية مع أهلها وعلى معرفة بالفرنسية. وقد كان مرجعا موثقا به لدى العقاد والمازني في تواريخ الشيعة والأدب الفارسي شعره ونثره، وقد تحققا عن طريقه مما كانا يرجحانه من خطأ الترجمات الأوربية عن الشعراء الفارسيين "فإذا هي في الواقع محشوة بالأغاليط، عن جهل باللغة تارة وعن رغبة من المترجمين في التزويق تارة أخرى"[٤٧] . ويضيف العقاد في موضع آخر "وأذكر أن صديقنا المازني رجع إليه في تحقيق بعض الرباعيات المنسوبة إلى عمر الخيام"[٤٨] . وقدم له المازني صورة "كاريكاتورية" في كتابه "أحاديث المازني" – ويصفه فيها فيقول: "كان يوسع لنا صدره، ويتقبلنا على علاتنا ، ويأنس بنا كأنسنا به ، وكانت الدنيا كلها أصدقاء له، ولكنا كنا نلازمه بعد أن نفرغ من أعمالنا ، وكان بيته نادينا ، وفيه نعقد حلقتنا الأدبية الخاصة"[٤٩] .

وفي هذا العام بدأ المازني نظم قصائد الجزء الأول من ديوانه، وبدأ كذلك في نشر بعض خواطره وأفكاره في "الجريدة" لسان حال حزب الأمة. وفي يناير يساهم،

---

(٤٦) العقاد : خمسة دواوين للعقاد. ص ٢٨٤ .

(٤٧) العقاد : رجال عرفتهم. ص ٢٦٠ .

(٤٨) العقاد : يوميات. ج١، ص ٣٢٠ .

(٤٩) المازني : أحاديث المازني. ص ٤٥ وما يلي .

كما سلف، فى "البيان" بترجمة بعض إبداعات الغرب فى الأدب والفكر فنشر "صريع الكأس" لديكنز ثم "الشخصية والأخلاق" لرالف والدارسون فى فبراير ١٩١٢، وفى مارس بدأ نشر بعض فصول كتاب "التربية الطبيعية" أو "إميل القرن العشرين" لجان جاك روسو. هذا بالإضافة إلى بعض المقالات التى واصل من خلالها نشر خواطره وأفكاره فى "الجريدة" فنشر بعض الفصول عن "الشعر والشعراء" و "الأساليب الكتابية" .

(٥)

قام المازنى بواجب التعارف بين العقاد وشكرى قبل أن يلتقيا. كان يحدث العقاد عن شكرى ويكتب لشكرى عن العقاد .

وفى أواخر ١٩١٢ حصل شكرى على درجة البكالوريوس (B.A.) من جامعة "شيفلد" بإنجلترا وعندما عاد إلى مصر استقبله المازنى بقصيدة منها :

أما من فتى صادق الهوى كأخى "شكرى" يرد الزمان عن نوبه

أوثق من تصطفى وأكرم من تأخذ من عقله ومن أدبه(٥٠)

وكتب فى هامش القصيدة: "شكرى هو صديقنا الشاعر الجليل عبدالرحمن أفندى شكرى وهو الذى كتبنا هذه القصيدة نستقبله بها عند عودته من سفر طال عمره". ثم كان أول لقاء بين شكرى والعقاد فاكتمل الثالوث وكانت أعمارهم جد متقاربة، فالمازنى له اثنتان وعشرون سنة، والعقاد ثلاث وعشرون، وشكرى ست وعشرون، ومن عجيب التوفيق – كما يقول العقاد – أن يكون شكرى من الإسكندرية، وأن يكون المازنى من القاهرة، وأن أكون أنا من أسوان ثم نلتقى على قدر وعلى اتفاق فيما قرأناه وفيما نحب أن نقرأه مع اختلاف هوامش الموضوعات، من غير اختلاف على جوهرها"(٥١) .

---

(٥٠) المازنى : ديوان المازنى، ج١، ص ٤٨ .

(٥١) العقاد : خمسة دواوين للعقاد، ص ٢٨٤ .

ولذلك فمن الصعب أحيانا أن تفصل بين آراء الثلاثة في بعض قضايا الأدب ومسائله، أو أن تسجل لأحدهم فضل السبق إلى رأى ما. والسبب أنهم كانوا يعملون مجتمعين فيتناولون الآراء والموضوعات ويتولون صهرها في بوتقة واحدة ثم يخرج كل منهم برؤيته الخاصة التي كثيراً ما تتفق مع رؤية الآخرين. "هناك مسائل كثيرة تتفق عليها آراؤنا في الأدب ومذاهب الثقافة العامة نحن والزميلان المازني وشكرى، سواء في مقالات الصحف والمجلات أو فصول الكتب والمصنفات، ولا غرابة في هذا الاتفاق مع العلم باشتراكنا في دعوة واحدة، واطلاعنا على مراجع واحدة، وتبادلنا الأحاديث سنوات طوالا في مختلف الشئون وعوارض الأخبار والأفكار"[٥٢] .

ورغم ذلك فقد كان هناك ما يميز كلا منهم عن رفيقيه لاختلاف الميول. فهناك من يزيد في إيثار القصة، وهناك من يزيد في إيثار الشعر ونقده، ومن يزيد في إيثار الفكريات والتأملات. ومرة أخرى يشير العقاد إلى هذه الجزئية قائلا: "وكان المازني أكثرنا ولعا بالقصة والمقالة الوصفية وكنا نلتقي في ناحية واحدة من نواحي القصة على الخصوص، وهي القصة الروسية. وأحسب أن القصة الروسية كانت من أقوى المؤثرات في نزعته التي جنح إليها بقوته كلها بعد ذلك، فيما نسميه بفلسفة الحياة"[٥٣] .

انضم شكرى إلى "مدرسة البيان" أو ندوتها التي تعقد في مكتبتها وكان الحديث عن ابن الرومي، وكان المازني متصدرا في الحديث عنه فاقترح عبدالرحمن البرقوقي عليه أن يكتب عن ابن الرومي، وكان هذا حافزا للعودة مرة ثانية إلى دراسة ابن الرومي وديوانه. وبدا نشر ما يكتبه في فبراير ١٩١٣ . وظني أنها كانت أول دراسة حديثة عن الشاعر العباسي الذى عاني الغبن وعدم التقدير في حياته وبعد مماته، وهذه الدراسة رغم أنها تضع أيدينا على سمات ومعارف ابن الرومي إلا أنها تلقي بأضواء كاشفة على نفس المازني وتطور عقليته، وأهم من هذا ما نلاحظه من اهتمامه بالمنهج النفسي قدر اهتمامه بالمنهج اللغوى، وهما في رأيه المنهجان اللازمان لتفسير شعر

---

(٥٢) العقاد : يوميات، ج١، ص٣٢١ .

(٥٣) العقاد : خمسة دواوين للعقاد، ص ٢٨٤ .

"ابن الرومي" والاستدلال منه على ملامح شخصيته الشاذة. وقد لمس المازني منذ فترة مبكرة توافقا إلى حد كبير بين نظرته للحياة ونظرة ابن الرومي، وأدرك صدق تأملاته وعمق حكمته ، لذلك كان كثيرا ما يهرع إلى ديوانه يلتمس فيه راحة النفس. وقد كتب بضعة مقالات في الفترة من فبراير وحتى يوليو ١٩١٣ ثم صرفته الحرب العالمية الأولى عن مواصلة الكتابة. كان عام ١٩١٣ عامًا حافلاً بالإنتاج من قبل المازني. فقد أخرج الجزء الأول من ديوانه. وقد صدره العقاد بمقدمة ضافية أعلن فيها عن المذهب الجديد فى الأدب ونقده. ونظرة سريعة على فهرس الديوان أوقصائده تكفى للدلالة على اتجاه صاحبه وتدهش المتلقي وتجعله يتساءل عن منبع هذا النهر الزاخر من التشاؤم واللامبالاة، وهي قصائد ترسم لنا صورة دقيقة لنفسية المازنى وأزماته التى انطبعت على شعر الديوان. فهو قنوط ، متشائم، تسيطر عليه الخواطر السوداء المتصلة بالفناء والموت، وهى توحى لنا أن الموت قد صار عنده خاطراً مخامراً ينغص عليه كل لذة ويكدر صفو كل نعيم .

فى منتصف عام ١٩١٣ (١٣ يوليه) أصدر الشيخ فهيم قنديل جريدته الأسبوعية المشهورة فيما بعد "عكاظ". وبدأت مساهمات المازنى فيها منذ الأسابيع الأولى لإصدارها. وفيها تعرض بالنقد القاسى لشعر "حافظ إبراهيم" فى الفترة من ٢٧ يوليه وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩١٣ . وكان هجوما شرسا وصم فيه شعر حافظ بالضعة وعدم الصدق في التعبير، والمبالغة التى تدل على عجز خيال قائله وبالركاكة والحشو والتكرار. وكان حافظ نديما لحشمت باشا وزير المعارف آنذاك فغضب على المازنى وألب عليه رؤساءه ومن ثم تم نقله فى عام ١٩١٤ إلى دار العلوم ليدرس لطلابها اللغة الإنجليزية التى أدخلت عليهم حديثا، كمادة ثانوية لا خطر لها، وزاد المشقة أن طلاب دار العلوم قدموا من الأزهر مباشرة وأنهم يتعلمون اللغة على كبر. يقول: "فلما ذهبت إلى دار العلوم استقبلنى الطلبة بحفاوة تعجبت لها، ثم علمت أن المرحوم الشيخ أحمد السكندري، وكان أستاذا بها ما كاد يعلم أنى منقول إلى دار العلوم حتى راح يثنى على ويذكرنى للطلبة بما لا أستحق، ويصفنى بما أستحى أن أثبته هنا. ولم يكن لى فى باب الأدب يومئذ سوى مقالات نشرت فى مجلة "البيان" وبضع قصائد وكلمات فى

"الجريدة" وغيرها من الصحف فأكبرت الشيخ وطبت نفسا بالعمل في مدرسة من أساتذتها مثل هذا الرجل العجيب المروءة"(٥٤) .

ولم يكن النقل هو أسوأ ما أصابه في هذا العام بل أصابته بتلف الأعصاب "النيرستانيا" وبالعرج. "النيرستانيا" هي الهذيان أو الوسوسة والأوهام، ولا ريب أن لكل إنسان نصيبه منها، ولكنها إذا زادت أصبحت مرضا له مضاعفات الحمى إحداها. وللحقيقة فإن بداياتها ترجع إلى فترة صباه بسبب ما عاناه إبانها من ضروب الشقاء والحرمان، ولكنها كانت مأمونة الجانب وإن كانت تشتد به إذا كربه شيء. ويرجع المازني، في سياقات عدة، إصابته الجدية بهذا الداء إلى فترة ما بعد زواجه الأول وهي الفترة التي تعرض فيها لثلاثة أحداث غيرته وأتلفت أعصابه :

أولاً : المشاكل التي عاناها مع زوجته، يقول: "بعد زواجنا بقليل توالت الخلافات والمنازعات والشقاق بلا سبب ظاهر، أو علة مفهومة ، حتى كاد عقلي يطير، وحتى تلفت أعصابي، ومرضت بالنيرستانيا"(٥٥) .

ثانيًا : سقوطه في قبر خرب. ففي عام ١٩١٤ انتقل المازني بأسرته للسكنى في حي الإمام الليث بن سعد. وفي رمضان صارت عادته أن يحيي الليل مع أصحابه في وسط القاهرة حتى إذا انتصف الليل عاد إلى مسكنه قبل السحور. وفي إحدى هذه الليالي اعترضه مجنون مشهور قرب الشارع المؤدي للإمام الليث فانطلق يجري في زقاق آخر يفضي إلى المقابروعندما تيقن أنه بعد سكنت نفسه قليلا وحاول أن يتبين اتجاهه، ولكنه لم يدر من أي اتجاه جاء بسبب الظلمة وتعرج الطريق، وسار على مهل وهو يتلفت حوله فإذا به يسقط في قبر خرب. يقول: "ومن غريب أن كون القبر منهدما وأن فيه لا محالة عظام موتاه لم يفزعني، كأنما كان لقاء هذا المجنون قد استغرق كل ما في نفسي من الخوف واستنفذه فلم تبق ذرة لغيره، فنهضت وقلت توكلت على الله،

(٥٤) المازني : ذكريات، البلاغ ، ٤ إبريل ١٩٤٢، ص٤ .
(٥٥) المازني : الزواج ليس لعباً أو تجارة!، أخبار اليوم، ٢٦ يناير ١٩٤٦، ص٨ .

ودرت على عقبى إلى الجدران لعلى اهتدى إلى مصعد وانحنيت لأبصر وأتقى أن أصطدم بشيء. ومددت رجلى لأخطو فدست ما حسبته سن حجر صغير. وإذا بإنسان يستوى واقفا أمامي ويطوق عنقى بذراعيه وأحسب أن صرختى فى تلك الليلة وأنا فى جوف القبر وبين ذراعي الجثة قد حركت الموتي فى مضاجعهم"[٥٦] . ورغم توالى السنوات على تلك الحادثة، إلا أنه كان كلما ذكرها انتفض وأحس بالعرق يتصبب من جبينه وأطراف أصابعه .

ثالثًا : إصابته بالعرج. وذلك من جراء حادث تافه كان له بالغ الأثر فى مجرى حياته. وعندما سئل عن أهم حادث أثر فى مجرى حياته قال بمرارة: "العرج الذى أصبت به بلا موجب ، فما كنت سكران ولا وقعت من سطح ولا زلت بى قدم، ولا شيء غير هذا مما يكسر العظام. ولكنما كانت زوجتى مريضة فأجريت لها عملية جراحية، وفى صباح اليوم التالى وقفت إلى سريرها وفى يمناى الدواء ممزوجا بالماء فى كوب من الزجاج وحاولت أن أرفعها بيسراى وكان السرير عاليا وأنا قصير القامة فشببت فسمعت شيئا يطق فظننت الكوب قد انكسر وتلفت أنظر فإذا هو فى كفى سليم فحاولت أن أدور على قدمى لأرى فإذا بساقى اليمنى تخذلنى ولا تحملنى فعلمت أن الصوت منها ثم ثبت بعد ذلك أن حق الحرقفة هو الذى انكسر وعولجت ثلاثة شهور ولكن العلاج كان فيه بعض الخطأ فانحرفت عظمة الساق عن استقامتها فقصرت عن أختها فكان هذا العرج. وكان هذا فى سنة ١٩١٤ فتغيرت الدنيا فى عينى وزاد عمرى عشر سنوات فى لحظة، وأدركتنى الشيخوخة فى عنفوان شبابى، فاحتشمت وصدفت مضطراً عن مناعم الحياة وملاهى الدنيا وكل ما فيها من رياضة ومتعة حتى البرىء من ذلك"[٥٧] .

---

(٥٦) المازنى : خيوط العنكبوت، ص ١١٩ .

(٥٧) المازنى : أهم حادث أثر فى مجرى حياتى، الهلال، مارس ١٩٣٠، ص٥٣٢ . يذكر د. محمد مندور فى محاضراته عن إبراهيم المازنى أن المازنى كان "يتسلق ليأتى امرأته بدواء من صندوق معلق بالحائط فسقط وأصيب فى ساقه إصابة خلفت به عرجا" (ص٣٢)، ولا أدرى من أين جاء الدكتور مندور بهذه الرواية التى تخالف قليلا ما صرح به المازنى، وقد تابعه د. عبداللطيف عبدالحليم دون أن ينكر عليه هذه الرواية الغريبة، وظنى أن الدكتور مندور اعتمد فى ذكرها على السماع أو على ذاكرته دون التثبت منها فى مصادرها .

ولكى يخفف من ظلعه الشديد احتاج أن يجعل أحد الحذائين أعلى من الآخر. فكان ذلك الحذاء أشبه بحذاء السيدات. ويروى المازنى أن الناس لم يتركوه لشأنه، بل لاحقوه بفضولهم، وصاروا كلما ركب الترام أو سار فى الطريق، يومئون إلى قدمه القصيرة ويتغامزون غير عابئين بشعوره[٥٨] . وظنى أن دقة شعوره وسوء ظنه كانا يبالغان له فى تصوير فضول الناس. وقد اتخذ فيما بعد سيارة خاصة ليريح نفسه من هذا الفضول المؤذى وأبى إلا أن يكون هو سائقها تمردا منه على العجز والعاهة التى خلفت فى نفسه مرارة ظلت تلح عليه فهو لا ينساها. "ولو أننا ذهبنا نستقصى إشاراته إلى مسألة عرجه فى كتبه لخرج بنا البحث إلى متاهات، لأنه قلما تسنح سانحة إلا ذكر هذا الظلع. كأنما يحاول أن يتخفف من إصر أده وأثقله، ومعنى ذلك أن لهذا الظلع أثراً بعيداً فى نفسه وأدبه"[٥٩] .

يقول : "وغمرت نفسى مرارة كان يخيل إلى أنى أحسها على لسانى وتعبت أعصابى وكلت.. وأصبت من جراء ذلك بالنيرستانيا"[٦٠] . وقد لابسته "النيرستانيا" وظل يعانى كربها وغصصها شهورا طويلة. وأصبح الموت خاطرا مخامرا وفتن بأدب الرومانسيين البائسين الذين أفزعهم الموت ومنهم الشاعر الألمانى "هينى" ولأجله حاول المازنى عبثا تعلم الألمانية، وترجم عنه بعض الأبيات وعارض بعض قصائده .

(٦)

لم يكن المازنى ليرضى عن التدريس لمبتدئين بالإضافة إلى الرضوخ لاضطهاد وزير المعارف فطلب نقله. فلما لم يوافقوا طلب الاستقالة. وما إن أمسى المازنى دون عمل حتى جزع وهم باسترداد الاستقالة إشفاقا على نفسه وعلى أسرته مما عسى أن

---

(٥٨) المازنى : فى المرقص. الرسالة، ٢٩ مارس ١٩٢٧، ٤٨٤ وقارن بالمازنى: عيوبى. الهلال، مارس ١٩٤٣، ص ٦١ .

(٥٩) عبد اللطيف عبد الحليم : المازنى شاعراً. ص٢٠ .

(٦٠) المازنى : أهم حادث أثر فى مجرى حياتى. الهلال، مارس ١٩٣٠، ص٥٣٢ .

يصيبها من البأساء خاصة بعد اضطراب الأحوال[٦١] . ولكنه سرعان ما وجد عملاً كمدرس للتاريخ والترجمة بمدرسة أهلية بالظاهر كانت ملكا للشيخ عبدالعزيز جاويش وكانت تسمى "المدرسة الإعدادية الثانوية" وفيها تعرف إلى أحمد زكي وأحمد حسن الزيات[٦٢] . وبعد قيام الحرب في يوليه – أغسطس ١٩١٤ عطلت أكثر صحف القاهرة لقلة الورق، وما بقي منها قيدته الرقابة بتوجيه من السلطات العسكرية البريطانية التي أعلنت الأحكام العرفية في نوفمبر على أثر دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء. وقد شاءت أزمة الصحافة المعطلة والمقيدة أن يشتغل العقاد أيضاً كمدرس للتاريخ والترجمة، بل ومع المازني في "المدرسة الإعدادية الثانوية". ولكن وفي ديسمبر وبعد إعلان الحماية البريطانية على مصر أخذت السلطات في التنكيل بأقطاب الحزب الوطني وأتباعه، وبالتالي عطلت مدرسة الشيخ جاويش فأصبح العقاد والمازني دون عمل. وعندما ازدادت أحوال المازني سوءا كتب عدة أبيات مؤثرة بعنوان "يا أم" يقول فيها :

يا أم لا تجزعي مما يداهمنا	من الخطوب ولا تأسى لما فاتا
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة	ويقسم الله أرزاقا وأقواتا
وكل ضائقة تعرو إلى فرج	وإن لليسر مثل العسر ميقاتا
ضل الذى يرتجى تأخير قسمته	قد مات كالكبش إسماعيل قد ماتا[٦٣]

وفي هذه الأبيات، التي كما يقول العقاد قد أودعت نفس المازني كلها، تظهر بشائر الاستخفاف واللامبالاة. إن إسماعيل عليه السلام افتدى بالكبش فتأخرت منيته ولكنها وافته فمات كما مات الكبش الذي فداه فلماذا المبالاة؟! وما نفعها؟![٦٤] .

---

(٦١) المازني : سبيل الحياة، ص ٢ .

(٦٢) أحمد حسن الزيات : وحي الرسالة، ج٣، ص ٢٨٩ .

(٦٣) المازني : ديوان المازني، ج٢، ص٢١٣ .

(٦٤) العقاد : خمسة دواوين للعقاد، ص ٢٨٥ .

وكان المازنى والعقاد قد ألفا أن يترددا على يعقوب صروف فى "المقتطف" فلما علم بما حدث لهما سألهما أن يعودا إليه بعد يوم. فلما عادا إليه كان "قد اتصل بعبدالله باشا وهبى" مدير مدرسة "وادى النيل الثانوية" ليبلغه أنه يرشح لمدرسته معلمين يعرف كفايتهما الأدبية وصلاحهما للتدريس. فقبلهما. وتعددت الزيارات لدار المقتطف بعد اشتغالهما بمدرسة وادى النيل الثانوية لأن الدارين كانتا متقاربتين يومئذ بحى باب اللوق"[٦٥] . ويذكر العقاد أيضا أن الدكتور صروف صرح لهما فى الانتفاع بمكتبة المقتطف، وكان دائما يسألهما عما يصنعان وعملهما فى المدرسة وبحوثهما الأدبية .

فى عام ١٩١٥ تمكن المازنى من طبع أول دراستين له فى مطبعة البسفور بشارع عبدالعزيز، أولهما "الشعر غاياته ووسائطه" التى صاغ فيها الخطوط العريضة لما نادى به أصحاب المدرسة الحديثة فى النقد عامة ونقد الشعر خاصة؛ فقد حوت هذه الدراسة آراء المازنى التى سيرددها فى "الديوان" وفى مقدماته لديوانه ودواوين غيره وفيما طرحه بعد ذلك من صياغات نقدية وفكرية عن الشعر والشعراء .

وثانيهما "شعر حافظ" وهى المقالات التى سبق نشرها عام ١٩١٣ فى جريدة "عكاظ". وقد زاد عليها أشياء خطرت له بعد أن انتهى من كتابتها ونشرها كالمقدمة مثلا. والكتيب صرخة طيها الأسف والخيبة واليأس من حال الأدب والنقد آنذاك، وهو يرى أن من سوء حظ الناقد فى مصر أنه يكتب لأناس لا يستطيع أن يركن إلى إنصافهم، أو يعول على صحة رأيهم. وكان دافعه إلى زرايته الشديدة هذه أنه كان يرى من قرائه ما يغرى باليأس والقنوط. "أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه سانح اليأس: يا ضيعة العمر! أقص على الناس حديث النفس وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فيقولون ما أجود لفظه أو ما أسخفه كأنى إلى اللفظ قصدت! وأنصب قرب عيونهم مرآة للحياة تريهم لو تأملوها نفوسهم بادية فى صقالها فلا ينظرون إلا إلى

(٦٥) العقاد : رجال عرفتهم، ص ١٢٤ .

زخرفها وإطارها وهل هو مفضض أم مذهب وهل هو مستملح فى الذوق أم مستهجن! وأفضى إليهم بما يعيى أحدهم إلتماسه من حقائق الحياة فيقولون لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ندك! ما لهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطئانه وكثرة صخوره. يا ضيعة العمر!"(٦٦) .

لا شك أن الصدمات المتعاقبات، ثم كوارث الحرب العالمية الأولى وفساد بيئة الأدب واضطرابها كانت وراء هذا اليأس والقنوط الذى ران على نفسه. فهذه الفترة فى حياة المازنى كانت كما يقول العقاد "نقطة تحول" ومحنة عقل وسريرة. وقد "راضها المازنى كما راضته. فاستراح إليها غاية ما استطاع من راحة وعالجها يومئذ – ولم يزل يعالجها بعد ذلك – بنزعة الاستخفاف وقلة الاكتراث"(٦٧) .

ومما يذكر أن المازنى بدأ "شعر حافظ" بنفس المقالة فى الثناء على شكرى وتفضيله على حافظ، ولم ير ضرورة للتغيير لأن رأيه لم يتغير، وفى نفس العام نشر شكرى ديوانه الثالث "أناشيد الصبا" وأهداه إلى المازنى ردا للجميل .

وفى هذه الفترة شاع أن المازنى ينقل قصائد كاملة أو بعضها عن شعراء الغرب، ثم يدعيها لنفسه. ولم يكن شكرى يلاحظ ذلك أو يتصوره، ولكنه كاد يصعق بعد أن لفت نظره إلى هذه النقول أكثر من أديب مطلع (مصطفى أفندى علوة، محمد أفندى جلال، عبدالحميد أفندى العبادى، ...)، وقد فزع عندما تبين أن بعض القراء يعتقدون أن هذا دأب الثلاثة (المازنى والعقاد وشكرى) فراح يدافع عن نفسه مرددا أنه على القراء أن يميزوا بين ما يقال، فالسبيل إلى معرفة اللص ليس أن يتهم كل المطلعين، فإن هذا يفضى إلى الفوضى، وهى فرصة اللص كى يزاول لصوصيته فى خفاء وأمان(٦٨) .

---

(٦٦) المازنى : شعر حافظ. ص ٤ .

(٦٧) العقاد : خمسة دواوين للعقاد. ص ٢٨٦ .

(٦٨) شكرى : مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكرى. ص ٢٧٢ .

وعندما أصدر شكرى ديوانه الخامس "الخطرات" (١٩١٦) صدره بمقدمة طويلة عن الشعر ومذاهبه تحدث فيها عن "إشاعة السرقة" فأكد التهمة على المازنى، بل واستشهد لها، ثم قال "وقد ذاعت هذه الأشياء. ولو كنت أعرف أن المازنى تعمد أخذها، لقلت إنه خان أصحابه بهذه الأعمال ولكني لا أصدق تعمد أخذها. ولو أني رأيت عفريتا لما عراني من الحيرة والدهشة قدر ما عراني لرؤية هذه الأشياء! ولا أظن أني أبرأ من دهشتي طول عمري وفي أقل من ذلك مبرر لمروجي الإشاعات والتهم ولا أظن أن أحدا يجهل مدحي للمازنى، وإيثاري إياه، وإهدائي الجزء الثالث من ديواني إليه، وصداقتي له ولكن كل هذا لا يمنع من إظهار ما أظهرت، ومعاتبته في عمله، لأن الشاعر مأخوذ إلى الأبد بكل ما صنع في ماضيه حتى يداوي ما فعل ويرد كل شيء إلى أصله وليس الاطلاع قاصرا على رجل دون رجل حتى يأمن المرء ظهور هذه الأشياء. ولسنا في قرية من قرى النمل حتى تخفى!"[٦٩] .

وتقديري أن المازنى فزع لهذه الكلمة، قدر فزع شكرى لما اكتشفه في شعر المازنى، لا لأنه فوجئ بالأمر، فقد نبهه شكرى أكثر من مرة، ولكن لجرأة شكرى على فضح ما أسره المازنى، وكان الأجدر بالمازنى أن يتوقع ذلك من شكرى، فطبعه – الذى لا يخفى على المازنى – يؤذن بهذا. لقد أراد لنفسه الخلاص من مظان الريب التى حامت حوله لصلته بالمازنى ومودته له، فكأنه يقول أن هذه المودة لا تحمّل أحدهما أوزار الآخر وحسب المرء أن يحمل عيوب نفسه !

وعندما رأى العقاد عزم المازنى على الانتصاف لنفسه، عمل على تهدئته وتحذيره من مغبة الصراع وخطورة ذلك على مذهبهم الجديد، ونبهه إلى السعادة التى سينالها قتلى المذهب القديم بانشقاق صفهم، فسكت المازنى وحاول أن يتجاهل ما يقابل به من دعاوى وإشاعات، ثم عمل على إخراج ديوانه الثانى، وقد رد فيه كل ما أُخذ عليه لأصحابه من شعراء الغرب وأشار إلى ذلك فى عناوين القصائد وهوامشها، ثم كتب

---

(٦٩) السابق .

مقدمة عن الشعر مصادره وينابيعه ختمها بقوله: "لقد كان الإنصاف ألا يلام غيرى إذا صح ما نسب إلى، ولكن الناس تجاوزونى إلى غيرى، واتهموا سواى قياساً على! وإن كنت لم أرم أحداً ممن تقدوا شعرى، بالسرقة! وهذا عنت ظاهر يريك مبلغ الناس من الفهم والعدل"[٧٠] . ثم تبرأ إلى الله من تعمد الأخذ أو الإغارة على ما اتهم بسرقته من شعر الغربيين، وأبدى الزهادة فيما عسى أن يكون قد علق بخاطره من شعرهم وهو لا يعلم! ثم يقول: "ولو أن ما أخذ علينا فى الجزء الأول وما نبهنا القراء إليه من تلقاء أنفسنا ، حذف ، لما أنقص ذلك من قيمة شعرنا فإن فى ديواننا الأول نحو ألف بيت وليس ما أخذ علينا خيرها. ولئن كان هذا دليلا على شيء، فهو دليل على سعة الاطلاع وسرعة النسيان وهو ما يعرفه عنا إخواننا جميعا. هذا ولا يسعنا إلا أن نشكر لصديقنا شكرى أن نبهنا إلى مآخذ شعرنا والسلام"[٧١] .

وبعد هذا الرد الهادئ المنطقى أراد شكرى أن يوضح موقفه فنشر فى المقتطف فى أول يناير ١٩١٧ مقالا بعنوان "واجب أدبى وانتحال المعانى الشعرية" كرر فيه مع الإضافة معلوماته التى سبق أن أثبتها فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه وأثبت بها التهمة على المازنى. ثم أضاف: "وقد نبهت المازنى إلى هذه القصائد فاعترف أنها ليست له، ولكنه قال إنه نظمها وهو يظن أنها له ذلك لأنه حفظ المعانى ونسى أنها لغيره. فبينت له أن الأبيات والمعانى متسلسلة والترجمة دقيقة جداً. فأصر على فكرته السيكولوجية وقال إن ذلك جائز فى علم السيكولوجيا ولكنه وعد أن يتجنب أمثال هذه المآخذ فى المستقبل ولا أعرف كيف يوفق بين تعليله لهذه المآخذ ووعده بتجنبها فى المستقبل". وأخذ شكرى يعدد مآخذه على المازنى مرة أخرى ويورد دفاع المازنى ويرد عليه مرة أخرى.. وأضاف أنه لا يريد ذكر الأبيات المتفرقة أو المعانى المفردة ، ولكنه يكتفى بذكر ما قدر على إحصائه من المقالات والقصائد التى أخذت كاملة. وختم

---

(٧٠) المازنى : ديوان المازنى. ج٢ ، ص١١٩ .

(٧١) السابق، ص ١٢٠ .

مقالته بقوله: "ولو كان الأمر مقصوراً على أبيات قليلة منفردة لما رأيت فرضاً على أن أكتب هذا المقال، وأؤكد لصديقي المازني أني أجله وأوده بالرغم من ذلك وأدع القارئ أن يحكم أمصيب أم مخطئ أنا في إظهار ما أظهرت؟ وليس لي أن أعلل هذه المآخذ أو أن أتهم المازني بأنه تعمد أخذها". وكان على المازني أن يرد على هذه الاتهامات فبدأ ينقد شعر شكري في جريدتي "النظام" و"الأفكار". ورد شكري عليه في نفس الجريدتين. واستمر التراشق بينهما فترة ليست بالقصيرة، وللمرة الثانية بذل العقاد جهده لرأب الصدع، والإصلاح بينهما، ووفق في ذلك، أو هكذا خيل له. على أن شكري فقد ثقته في رفيقي دربه، وكانت هذه نقطة ضعفه التي أجاد خصوم المذهب الجديد الضرب عليها. فلم تمض بضعة أسابيع حتى نكأ شكري الجرح مرة أخرى فأخذ ينشر في "عكاظ" مقالاته التي ينقد فيها المازني ويتهمه بالسرقة. ورغم أن المقالات كانت تنشر بدون توقيع ولم يكن ليخفى على المازني أسلوب شكري أو طريقة تفكيره. لذا أخذ المازني يعد العدة للانتقام من شكري حين تسنح الفرصة .

(٧)

كتب شكري مقالاته الهجومية في فترة من أسوأ الفترات التي مرت بالمازني؛ وأعني فترة الأزمة المالية الطاحنة. وبداية الأزمة أن مدرسة وداي النيل كانت تعاني من سوء الأحوال المالية، وبالتالي يعاني مدرسوها من عدم انتظام رواتبهم، وعندما اقتربت السنة الدراسية من نهايتها كانا يترقبان مشكلة كل عام. فقد جرت العادة أن تنتهي كل سنة في المدارس الأهلية بأزمة حول تصحيح أوراق الامتحان. فهذه المدارس تنظر إلى أوراق الامتحان على أنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات في العام التالي لذلك كان من الضروري إنجاح أكبرعدد من الطلاب! وبالفعل وقع المحظور وخرجا من المدرسة لا أدري برغبتهما أو بدونها. اتفق العقاد مع المازني على السكنى بجواره في شارع الشيخ محمود الجندي بالإمام. وكان دافعه هو اختزال نفقات المعيشة، فهو يغني عن العجلة في طلب العمل بضعة شهور .

أما المازنى فلم يلبث إلا قليلا حتى رقت حاله، واحتاج إلى المال للإنفاق على أهله، ولما كان هو رجل البيت ولا سبيل إلى الاستدانة فقد وجب عليه أن يتولى تدبير الأمر ببيع بعض كتبه. يقول: "من الأسرار التى لم أبح بها لأحد – حتى ولا للأستاذ العقاد الذى كان يعرف دون غيره ما أنا فيه من الضنك واللأواء ، لأنى خجلت أن أفضى حتى إليه بذلك – أنى قدمت طلبين إلى شركة الترام وشركة المياه، ولم تردا عليهما ولهما العذر، لأنى "أهملت" أن أضع طوابع البريد! على أنى لم أنتظر الرد، بل ذهبت إلى صديق وقلت له: إن عندى ملء غرفة من الكتب، وأريد أن أبيع منها ما لا حاجة بى إليه. فسألنى عن الباعث، فغالطت وقلت: يا أخى إن أكثر ما قرأت يبعد أن أعود إليه فما فائدة بقائها مرصوصة عندى؟ فأدرك أنى فى ضيق، وكأنما أراد أن يهون الأمر على، فقال إنه هو أيضا يبيع بعض كتبه كلما افتقر إلى المال، فإذا احتاج إليها مرة أخرى اشتراها من السوق. وأشار على أن أبدأ بالنسخ الباقية عندى مما ألفت ونهض معى إلى وراق اشترى هذه النسخ بالأقة! ووجدت أن بيع الكتب مورد كاف أستطيع الاعتماد عليه فى اجتياز الشهور التى كنت أقدر أن تستغرقها الأزمة"(٧٢) .

ومما بيع إبان هذه الأزمة نسخته الخاصة من كتاب "الأغانى" طبعة الساسى التونسى. يقول: "ورأى بعضهم عندى نسخة الأغانى، فألحف فى طلبها ، فأبيت أن أبيعها ، فلم يزل يزيد فى الثمن ويرتفع به، حتى أغرانى، وما كاد يخرج بها، حتى طار عقلى وندمت أشد الندم ، فإنها ثمرت تعبى سبع سنوات"(٧٣) . "وهذا هو الكتاب الوحيد الذى بعته بأضعاف ثمنه، فقد اشتريته بمائة قرش فلما بعت مكتبتى فى سنة (١٩١٧) أو (١٩١٨) – لا أذكر – ابتاعه منى وراق بخمسين وسبعمائة قرش، وقد ندمت على بيعه، فما أستطيع أن أصنع ما صنعته قديما ، ولكن العناء الذى تكبدته نفعنى فقد أحوجنى إلى مراجعات لا آخر لها ، وأطلعنى على ما كنت خليقا أن أخطئه فيفوتنى العلم به"(٧٤) .

---

(٧٢) المازنى : زيتون فى قرطاس من الشعر. أخبار اليوم ، أغسطس ١٩٤٧، ص٩ .
(٧٣) المازنى : مشقة التحصيل. الرسالة ، ٨ أكتوبر ١٩٤٥، ص١٠٨١ .
(٧٤) المازنى : سبيل الحياة. ص ٦٩ .

ورغم أن بيع كتبه ترك في نفسه جرحًا غائرًا، وقد ظل فترة لا يكاد يطيق أن يدخل غرفة المكتبة، بل ولا يطيق أن ينظر إلى مكتبة في الطريق وبالتالي لا يقتني شيئًا من الكتب، إلا أن ذلك أفاده في التخلص من تأثير الكتب وسيطرتها وزاد من اعتماده على الملاحظة والتأمل، فوجد نفسه وبرزت شخصيته بعد طول تضاؤل. ويصف هذا التغير بقوله: "كنت قبل ذلك أنظر في الكتب ولا أنظر إلى الحياة ، وأصغي لما يقول لي الكتاب ولا أجعل بالي إلى ما يفعل الناس، وأتلقى التجارب المحكية، ولا أجشم نفسي مؤونة التجريب والمعاناة، فانعكست الآية وانقلبت القضية، وفتحت عيني على الدنيا وأدرتها فيها وذهبت أتأمل أحوال الناس وطبائعهم وأمزجتهم وأعمالهم وكيف تصرفهم في الأمور وتلقيهم للحياة ومكابدتهم لها ووقعها في نفوسهم وجعلت وكدي أن أجيل عيني في نفسي على سبيل المقارنة فانكشف لي عالم جديد أهول وأروع وأفتن وأجمل وأجل من كل ما صورت لي الكتب فأنكرتها لما عرفت الدنيا، وكفرت بها لما آمنت بالحياة، ولم يعد يخفي عليّ ما فيها من الزيف والقصور والنقص والضعف بعد أن اهتديت إلى الأصل"[٧٥] .

وسن المازني لنفسه قانونا في وزن الكلام وتقديره. فكان لا ينفك كلما قرأ شيئًا أن يسأل نفسه "هبني لم أكن قرأت هذا أو لم يكتبه صاحبه فماذا كنت أخسر؟ وأي نقص كنت حريا أن أشعر به؟". وحسب الإجابة يكون التقدير. وصار هذا القانون عنده هو المحك الذي لا يخطئ، والميزان الذي يزن به كل إنتاج أدبي! وعندما فكر المازني في تطبيق القانون السابق على نفسه انتهى إلى قراره بضرورة الكف عن نظم الشعر. يقول: "ولقد نصبت هذا الميزان لنفسي فانتهيت إلى أنه لا خير فيما قرضت من الشعر، وأن الأدب المصرى لا يزيد ولا ينقص إذا فقده، فكففت عن النظم ونفضت يدى من القريض"[٧٦] . لم يتوقف المازني عن النظم مرة واحدة، ولكنه توقف بداية عن النشر بعد الجزء الثاني من ديوانه. ثم توقف عن النظم بصورة شبه كاملة بعد قصيدته في رثاء زوجته الأولى عام ١٩٢٠ .

(٧٥) المازني : من النافذة وصور من الحياة، ص١٥٢ .

(٧٦) المازني : الكتب والمؤلفين ، ديوان العقاد. الجديد، ٢٠ مارس ١٩٢٨، ص٢١٩ .

وقد يستبعد البعض أن يعود هذا التفكير من قبل المازني إلى هذا الوقت المبكر من حياته الأدبية. ولكن التحقيق التاريخي يثبت أن بداية التغير راجعة إلى فترة أزمته المالية. ففي ديسمبر ١٩٣٣ كتب الدكتور زكي مبارك مقالة في "البلاغ" عن المازني وتركه الشعر فأرجع زهد المازني في الشعر إلى فتور إحساسه وجمود جذوة شعوره وأنه فطم نفسه عن الحسن. ونجح زكي مبارك في إثارة المازني الذي أجابه في الأسبوع التالي: "لا يا صديقي وإنما أمسكت عن النظم لأني حاسبت نفسي، ووازنت قوتي ، وضعفي، ووضعت اقتداري في كفة وقصوري في كفة ، فرجحت هذه وشالت تلك، وقست مجهودي إلى غايتي فألفيت الغاية بعيدة والمذهب إليها أطول مما أطيق وأشق مما أحتمل، فتحسرت ، واقصرت، وقلت لعلي أحسن غير هذا، وانثنيت أعالج سواه"[٧٧] . وأشار المازني إلى قصيدته "كأس النسيان" التي يصور فيها تحوله هذا :

إني أراني قــد حلت، وانتســـخت	مع الصــبي ســورة مــن الســور
وصـــرت غـيـــري، فليس يعـــرفني	إذا رآني صــــبــــاي ذو الطــرر
ولــو بـــدا لـــي، لـــبت أنـكـــره	كـــأنني لــم أكـنـه، في عـمـــري
كـــأننا اثنان لـيس يجــمـعـنـا	في العـــيـش، إلا تشـــبث الذكـر
مـــات الفـــتى المازني، ثم أتـى	مـــن مـــازن آخـــر عـلـى الأثـــر[٧٨]

وقد صرح المازني في المقالة نفسها بأن هذا التغيير أو التحول يرجع إلى "أكثر من سبع عشرة سنة كما يعرف صديقاي الأستاذ العقاد والأستاذ حسن السنديوني"[٧٩] . حسبة صغيرة قوامها الطرح تثبت لنا أن بدء هذا التحول كان في عام ١٩١٧ أو حول ذلك. وبالطبع فإن هجوم شكري وأزمته المالية وما نتج عنها من بيع كتبه كانا سببين من أسباب عديدة أنتجت هذا التحول الذي شهد عام ١٩١٨ ذروته .

---

(٧٧) المازني : شجون الحديث بين الدكتور زكي مبارك وبيني. البلاغ، ٧ يناير ١٩٣٤، ص٣ .

(٧٨) المازني : ديوان المازني، ج٢، ص٢٤٤ .

(٧٩) المازني : شجون الحديث بين الدكتور زكي مبارك وبيني. البلاغ، ٧ يناير ١٩٣٤، ص٣ .

وأصبح الكف عن النظم قضية شبه مزمنة، وعندما سأله البعض عام ١٩٣٠: لماذا لا تقول الشعر؟ أجاب بلا مبالاة: "انتهيت إلى إحدى اثنتين: فإمّا أن يقول المرء شعرا من أعلى طبقة وأما يريح نفسه ويريح الناس، فلا خير في غير الكلام الخالد على الدهر، وأنا أعرف بنفسي من أن يداخلني الغرور في شأنها، ولقد نظرت فيما قرضت من الشعر فهززت رأسي وقلت: "هذا كلام فارغ، وأولى بي أن أعرف قدر نفسي، فلأقلع" ورميت ديواني، حتى ما أعرف أين هو الآن إذا كان لا يزال باقيا! والشعر على كونه إلهاما قد يسلس بالمرانة، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطرا واحدا. وحسنا فعلت، فما ينقص الدنيا الكلام الوسط فإنه فيها كثير بحمد الله ثم حمد الغرور الذي فطر عليه الإنسان"[٨٠] .

وفي ٣ مايو ١٩٤٧ أثاره الأستاذ العقاد مرة أخرى إلى الحديث فقال: "لم يكن من الهين على نفسي أن أقول للناس أني لست بشاعر وأني أخفقت فيما عالجت من الشعر، وأصارح الصديق والقراء فأقول إني أشعر وأنا أقول ذلك أني أقتلع أحشائي. فالأمر ما تركت الشعر ونفضت يدي منه، ولكن ما حيلتي؟ لقد كنت بطيء النظم جداً، وقلما كنت أرضى عما أقول – أعرضه على أذني فلا تطرب، وعلى عقلي فيهز رأسه ويقول: "يا شيخ! ما هذا الكلام الفارغ؟ وأين هذا من قول فلان وعلان وترتان؟" وأقرأ الشعر الغربي والعربي، وأنظر في شعري فأتحسر!.. ثم إني أسأت الظن بصدق سريرتي فيما نظمت من الشعر، وشككت في إخلاصي، وكبر في وهمي أن العواطف التي وصفتها والتي ولدت ما أعربت عنه من آراء، لم تكن صادقة وإنما كانت مما أوحيت إلى نفسي، فأنا إذن مقلد لا أكثر. ونظرت فإذا الشعراء الذين أنجبتهم الأمم مئات وآلاف ومئات الآلاف، ولكن لم يخلد منهم إلا آحاد وعشرات. فقلت لنفسي: إنه لا يخلد إلا شاعر من الطبقة الأولى. أما الأوساط فيعفي الزمن عليهم ويمحو ذكرهم. وما أراني جئت بشيء له قيمة حقيقية – نعم قلت شعرا فيه موسيقية، وله حلاوة،

(٨٠) المازني : الكتابة وثقلها، السياسة الأسبوعية، ٢٥ أكتوبر ١٩٣٠، ص٣ .

وعليه طلاوة، ولكن ما قيمة هذا؟ وما خير أن أمضى فى نظم شعر لا أراه يبلغ هذا المبلغ الذى يكفل له الخلود؟ ولما أضيع عمرى فى عبث؟ وسأضيعه – كالملايين من الخلق – فى عبث آخر. ولكن هذا العبث الآخر أجدى على فى حياتي على الأقل"[٨١] .

لقد تطلب الأمر شجاعة نادرة، وكانت متوفرة، ولم يجد المازنى بدا من الاعتراف، ولم يبال ما يقال عنه فى حياته أو بعد مماته فلا خلود للإنسان، ولكنه العدم فما جدوى التعب والنصب ما دامت الغاية بعيدة والأداة غير كافية للوصول. بل وكاد المازنى أن يكفر بالأدب عامة لا بالشعر خاصة، فقد صار فى أخريات حياته كلما ذكر الجهاد فى الأدب يظهر التحسر ويقول "يا حسرة على ما ضيعت من العمر... تالله ما كان أخيبنى وأضل سبيلى"[٨٢] .

(٨)

تعد "ثورة ١٩١٩" أكبر الحوادث السياسية فى حياة المازنى ، لذلك أخذت حيزا كبيرا من كتاباته. وقد يكون السبب أنها لم تكن سياسية فقط ، بل كانت ثورة فى كل المجالات الاجتماعية والثقافية والفنية، وإن المازنى لم ير غيرها، وأنه عاش آسفا على فشلها (سياسيا) ويحلم بتكرارها. وأخيرا أنها كانت ذات تأثير كبير فى حياة المازنى حيث اتجه على أثرها إلى الصحافة مودعا التعليم إلى غير رجعة .

وكان المازنى قد تولى مع بداية العام الدراسي (١٩١٩/١٨) إدارة المدرسة المصرية الثانوية. وانتقل بعائلته إلى السكنى بالقرب من المدرسة بالحلمية الجديدة. وكان المازنى يتمنى لو ظل فى المدرسة حتى يرى نتيجة تجربته الإدارية التربوية الأولى، ولكن الحركة الوطنية بدأت فى ذلك الوقت فجرفت الجميع، بمن فيهم المازنى،

---

(٨١) المازنى : رد إبراهيم عبدالقادر المازنى. أخبار اليوم، ٣ مايو ١٩٤٧، ص٤ .
(٨٢) المازنى : زيتون فى قرطاس من الشعر، أخبار اليوم، ١٦ أغسطس ١٩٤٧، ص٩ .

بتيارها الزاخر. وقد فوجئ المازني، الذي كان يعيش في عزلة شبه كاملة[٨٣]، بنمو وازدياد تيار الحركة الوطنية. ويذكر المازني أنه سمع في أحد الأيام لغطا في حوش المدرسة فأطل من النافذة، فإذا التلاميذ كلهم في الفناء، والمدرسون معهم. فدهش لذلك ولما سألهم عن سر تجمهرهم أنبؤوه بتكوين وفد من كبار المصريين للمطالبة بالاستقلال. فلما سألهم "من أنبأكم بهذا؟ قالوا: إن الخبر على كل لسان، ولكنك يا "أفندي" لا تجالس الناس ولا تتصل بأحد. قلت هذا صحيح، وهو غلط مني، وسأخرج بعد اليوم من عزلتي". ثم قال لهم اذهبوا إلى دروسكم، وسأخرج أتحرى، وأعود إليكم بالنبأ اليقين. وراح يذرع الشوارع حائراً حتى التقى بأحد أصدقائه (محام من رجال الحزب الوطني) فأكد له الأمر. يقول: "وقد ظلت القاهرة تتلقى الأنباء والإشاعات بأعصاب كأنها عارية لا يكسوها شيء من اللحم والجلد. وكان الشعور عاما، وعميقا، باقتراب العاصفة، فراح بعض من أعرف – ولهم أشباه كثيرون – يخزنون القمح والأرز والزيت والسمن وما إلى ذلك استعدادا للمستقبل الذي قد لا يكفل فيه انتظام التموين، وأعداني هذا الشعور فخفت على أهلي، وانتقلت بهم إلى بيت كان لجدي لأمي في حي الإمام الليث بن سعد، على مسافة نصف كيلو من عين الصيرة أو على تخوم العالمين"[٨٤] .

وفي هذه الأثناء وصلته رسالة من عبدالقادر حمزة يقترح فيها على المازني أن يكتب إلى جريدته "الأهالي" التي يصدرها في الإسكندرية مقالين في السنة، على أن يبعث إليه بالأهالي بالمجان طوال العام على سبيل المكافأة. يقول "وكنت أعلم أن صديقي الأستاذ العقاد يعاونه في تحريرها، فلم أشك في أن استكتابي كان ثمرة المشاورة بينهما"[٨٥] . وبدأ المازني يرسل مقالاته وتصله الأهالي تباعاً. ومضت شهور والثورة لا تقوم، حتى خالجه الشعور في صحة رأيه الذي زين له الانتقال للمعيشة في

---

(٨٣) المازني : القاهرة في عام الثورة. أخبار اليوم، ١٣ نوفمبر ١٩٤٨، ص٤ .

(٨٤) السابق .

(٨٥) المازني : عبدالقادر حمزة باشا. البلاغ، ١٤ مايو ١٩٤٤ ، ص٤ .

بيت جده، وبينه وبين مدرسته عشرة كيلومترات خالية من المواصلات، وكان هذا أشد ما يعانيه، خاصة بعد عرجه. ومما يذكر أن الإنجليز اعترضوا على سفر الوفد بحجة أنه لا يمثل الأمة حتى يتحدث نيابة عنها. فأخذ أعضاء الوفد ومريدوه يجمعون التوكيلات من الطبقات والهيئات والأفراد، وذاع أن الوفد يجمعها حتى يؤذن له في السفر إلى باريس لبسط قضية مصر والدفاع عنها أمام مؤتمر فرساي. وقد عدت سلطات الاحتلال هذا تمردا منهم فألقت القبض على أعضاء الوفد في ٨ مارس ١٩١٩ . وما إن انتشر الخبر حتى أضربت المدارس وخرج الطلبة في مظاهرات عارمة. فالثورة بدأت طلابية، وسرعان ما تجاوب الجمهور فأصبحت الثورة شاملة عامة في القطر المصري.. وزاد عناء المازني وتضاعف ما كان يكابده خاصة بعد اشتراك تلاميذ مدرسته في المظاهرات واعتقال العشرات منهم. وبالطبع أغلقت المدرسة فأصبح عاطلا ليس له مورد. ويصور المازني حاله إبان الثورة فيقول: "كنت أخرج في الصباح وأنحدر إلي القاهرة وأجوبها كلها على قدمي، وأمشى في المظاهرات، واستقى أخبار الحوادث هنا وهنا، حتى برزت أصابع رجلي من حذاءيها وأنا ذاهل عن هذا المظهر الزري، وغير عابئ بما أنا فيه من الضنك، وكان الخجل ربما وسوس أو همس في أذني، وخلو الوفاض يحيرني، ولكن شهيدا تشيع جنازته، أو اشتباكا داميا يقع في حي من الأحياء، أو مظاهرة تسير، أو غارة يقوم بها لفيف من الجند الإنجليز على مقهى، أو منشورا يوزع في الطريق، من الذي يبالي حينئذ أنه حاف أو كالحافي، وأن ثيابه قاربت التهلهل وشارفت البلى، وأن ما تيسر له من طعام في يومه هو "طعمية" بمليم ، وكسرة خبز – نصف رغيف على الأكثر – بمليمين، يلتهمها وهو سائر في الطريق"[٨٦] . ومع الوقت بدأت حدة الثورة تنكسر خاصة بعد الإفراج عن سعد باشا وزملائه في السابع من إبريل ١٩١٩ ، وحين هدأت الأمور أبى المازني العودة إلى التدريس مرة أخرى. وللحقيقة فإن المازني لم يكن يخفى أو ينكر مله من التدريس وتوقه إلى الفرار إلى الصحافة .

---

(٨٦) المازني : هل نحن في بلد العجائب. أخبار اليوم، ١٢ يونيو ١٩٤٨، ص٦ .

ترك المازني مهنة التدريس، ولكن بعد أن تركت فيه آثارا ظهرت في أدبه بقوة مثل الاستطراد والتكرار والتبسيط. لقد ترك التدريس لكنه لم يعمل بعد في الصحافة. وكان قد انقطع عن صحيفة "الأهالي" أو هي التي انقطعت عنه إبان الثورة واضطراباتها. لذلك عزم المازني على السفر إلى الإسكندرية ليستريح ويستجم وفي مأموله أن يجد عملا. وفي الإسكندرية أصيب المازني بالحمى وبقي أياما في بيت قريبه الذي كان قد نزل عليه. واتفق في إحدى زيارات العقاد أن كان بحوزته رواية روسية مترجمة للإنكليزية تسمى "سانين" Sanin . وعندما سأله عنها أثنى العقاد عليها وعلى مؤلفها "ميخائيل أرتزيباشيف" Artsybashev (1878-1927) . ولم يكن المازني قد سمع بالمؤلف من قبل[٨٧]، رغم أن روايته كانت قد راجت رواجا عظيما "بسبب إنجيلها عن الجنس المتحرر المضاف إليه نوع إقليمي رخيص من أنواع "فوق الخير والشر"[٨٨] . ورغم تحذير الطبيب، اشتاق المازني أن يقرأها فاستعارها وانكب عليها حتى قرأها في ساعات. يقول: "فلم أكد أفرغ منها حتى رأيتني قد انقلبت مخلوقا آخر، وأعدتني روح بطلها بقوتها وجرأتها على الحياة، وبالبساطة في مواجهة ما يقع له فيها، وباستقامة النظرة وسداد الاتجاه، فشفيت واستغنيت عن الأطباء والعقاقير.. ولست أقول إن هذه خير رواية كلا، وإنما أقول أنها شفتني وقوتني ونفثت في روحا كانت حاجتي إليه عظيمة. ولقد كنت قبلها أعتقد أن عمري لن يطول أكثر من خمس سنوات، فصرت بعدها أكاد أؤمن بالخلود في الدنيا..."[٨٩] .

وتعتبر الرواية الروسية عامة وهذه الرواية خاصة من أقوى المؤثرات في نزوعه إلى الاستخفاف واللامبالاة. وهنا نشير إلى رواية ثانية كانت ذات تأثير كبير على المازني وهي "الآباء والأبناء" لتورجنيف. فقد فتن المازني ببطلها "بازاروف" كما فتن "بسانين". وقد أشار العقاد إلى أن كلتا الروايتين تخلق الاستخفاف – على الأقل –

(٨٧) المازني : السرقات الأدبية. الرسالة، ٢ أغسطس ١٩٣٧، ص١٢٤٣ .

(٨٨) بانكو لافرين : تعريف بالرواية الروسية. ت : مجدالدين حفني ناصف، الألف كتاب (٤٣٧) ص١٩٧ .

(٨٩) المازني : أهم حادث أثر في مجرى حياتي. الهلال، مارس ١٩٣٠، ص٥٣٢ .

حين قراءتها لمن لا عهد له بالاستخفاف فما بالكم بمن في مكانة المازني وظروفه. "ولست أنسى هزة وجدانه بأفاعيل "سانين" مع إنكار لتلك الحيوانية اللجوج التي مثله بها مؤلف القصة، وقد بلغ من رضاه عنها أنه ترجمها باسم "ابن الطبيعة" وأنه كان يردد بعض "لوازم" سانين في كلامه بعد قراءتها بسنوات"(٩٠) . لقد جعل المازني روح "سانين" تميمة في مواجهة المصاعب، فكلما ثقلت عليه الأوهام وتكالبت عليه الوساوس تعود روح بطلها فتنقذه !

وانتهت الإجازة أو ذهب المال على الأصح ، وسرعان ما عاد المازني إلى القاهرة، فلقيه صديق فأخبره أن أحد الصحفيين يريد أن يستكتبه مقالا كل يومين لجريدته، فذهب المازني إليه واتفقا وأخذ الأجر مقدمًا. وما إن شرع ينشر في جريدة "النظام" لصاحبها سيد علي حتى تلقى خطابا من عبدالقادر حمزة ينبئه فيه أنه يحرر الأهالي وحده بلا معين(٩١)، وأنه يرجو أن يبعث له بمقال كل يومين ففعل ثم عاد فكتب إليه يدعوه إلى العمل معه في الإسكندرية يقول: " وكنت قد اتفقت مع المرحوم أمين الرافعي على العمل معه في جريدته حين يتيسر له إصدارها، وكان يوشك أن يفعل ، فأنبأت الأستاذ عبدالقادر حمزة بذلك وقلت له إني أقبل العمل معه على أن يعفيني منه متى صدرت جريدة الرافعي، فقبل وعملت معه شهرين وبعض شهر، وكانت هذه أول مدرسة لي في الصحافة، وكان هو أول أستاذ لي فيها"(٩٢) . وقد كتب المازني في هذه الفترة القصيرة عدة مقالات كان آخرها بعنوان "المسألة المصرية في طريق الحل" وكانت بتاريخ ٩ فبراير ١٩٢٠ . وفي الثاني من فبراير ١٩٢٠ أصدر أمين الرافعي جريدته "الأخبار" وبدأ المازني يركز جهده في العمل فيها. ومع "الأخبار" بدأت شهرته العريضة في دنيا الأدب والسياسة، وقد نشر خلال عمله بها عددًا ضخمًا من المقالات المتنوعة بين سياسية واجتماعية وأدبية، وكانت له جولات وصولات أدبية وسياسية .

(٩٠) العقاد : خمسة دواوين للعقاد، ص ٢٨٧ .

(٩١) كان العقاد قد استقال من تحرير الجريدة بسبب موقف رئيس الوزراء محمود سعيد باشا، وكانت موالية له، من تأجيل النظر في رفع الحماية العسكرية عن مصر، وبدأ الكتابة في "الأهرام" .

(٩٢) المازني : عبدالقادر حمزة باشا. البلاغ، ١٤ مايو ١٩٤٤، ص٤ .

وما إن بدأ المازنى العمل فى "الأخبار" حتى تعرض لإحدى أكبر الصد... التى أحدثت تغييرا يكاد يكون كاملا فى حياته، أعنى وفاة زوجته الأولى فى عام ١٩٢٠ . وقد ظل حتى آخر حياته لا يستطيع أن يعفى نفسه من ثقل الاعتقاد بأن الطبيب قتلها! وذلك أن زوجته جاءها المخاض فدعوا أقرب طبيب، وعندما حضر كانت رائحة الخمر تنبعث من فمه ومع ذلك تركه يفحصها، ثم زاد الطين بلة عندما سمع الطبيب يقول "إن الحالة طبيعية، ولم يكن ثمة موجب لدعوتى، وسيحصل الوضع فى أوانه، ولكنى جئت فلا داعى للانتظار"! ويقسم المازنى أن الطبيب قال ذلك. ولما كان المازنى يأمل فى السلامة لم يمانع مرة أخرى! "وكنت أعاونه، فطهر الآلات وشرع فى العمل، وجر الجنين فإذا الآلة التى طوق بها رأسه قد حفرت فيه أخدودا يسع الخنصر، وشغل نفسه دقائق بالجنين، والتنفس الصناعى على غير جدوى، فألححت عليه أن يتركه ويعنى بالأم، فما من شك فى أن الجنين مات، فرجع إلى الأم ليخرج الخلاص فكان واله يشده بأعظم ما يملك من قوة، ثم رأى أن هذا لم يجد، فدس يده وأخرج الخلاص مقطعا إربا، ثم لفها وقال "ترقد ولا تسقوها ماء" وأخذنى معه وقال لى: إن الحالة خطرة، وأنه آسف"[٩٣] . والمرء يعجب من تردد وإحجام المازنى عن أى رد فعل إزاء هذا الطبيب السكران. ولعل الأمل فى الشفاء كان يخايله، أو أنه لم يكن يتصور أن القضاء العاجل جاء على يدى هذا الطبيب !

وبدأ المازنى يتعثر بعد هذه المأساة فلم يطق الفراغ الذى خلفته فى حياته وولت. كان يراها فى كل موضع حتى كاد يجن فأوصاه الأطباء بالانتقال إلى سكن آخر، فانتقل من دار جده قبل يوم الأربعين إلى بيت بحديقة فى خارطة التونسى بالقرب من البساتين، ومع ذلك ظل طيفها يلازمه سنوات عديدة "ولو أن الذين يدرسون أدب المازنى عنوا بذلك التاريخ لتبينوا ما أحدثته وفاة هذه الزوجة فى أدب المازنى، وفى اتجاهه، وفى أسلوبه. وفيما بدا فى كتاباته من سخرية، سخرية بالحياة وبالأقدار وبالناس وبنفسه"[٩٤] .

---

(٩٣) المازنى : قصة حياة، ص٨٦ .

(٩٤) أحمد عبدالقادر المازنى : امرأتان فى حياة المازنى، الهلال، سبتمبر ١٩٥٨، ص٥٥ .

ويذكر المازني أنه لم ينجه من الجنون إلا إكبابه على تصحيح ديوان ابن الرومي وانهماكه في الأعمال الشاقة في جريدة "الأخبار"، التي أصبح رئيسا لتحريرها. ففي هذه الأثناء أرادت سلطات الاحتلال أن تتخلص من الشبان الذين يشتغلون بالثورة فدبرت قضية المؤامرة الكبرى، وقدموا ثلاثين شابا للمحكمة العسكرية بتهمة تأليف جمعية للانتقام غرضها توزيع الأسلحة وإحداث انقلاب وقتل رجال الدولة المقربين من الإنجليز. يقول المازني "ولم تدع لي المحكمة العسكرية وقتًا لسواها، وكانت تعقد في اليوم جلستين وظلت كذلك من يوليو إلى سبتمبر، وكنت في مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتمي على الفراش وأنام كالميت، فنفعني هذا أيضا وإن كان أسقمني"[٩٥] . وقد عقدت المحكمة ٩٩ جلسة وكانت مؤلفة من أربعة ضباط إنجليز وعدد المترافعين ٣٢ محاميًا. وقد تابع المازني هذه الجلسات ووالى عرضها في الأخبار، وقد بلغت مكافأته – غير المرتب – مائتين وخمسين جنيها جزاء له على ما بذل من جهد في متابعة هذه القضية .

وما إن انتهى المازني من جلسات المحكمة العسكرية، حتى طلب منه أحد الناشرين أن يترجم له رواية يختارها فتذكر رواية "سانين" وأراد أن ينقلها إلى العربية عسى أن تنفع غيره كما نفعته. ويصور المازني طريقته في ترجمتها فيقول: "نقلت الرواية بسرعة. وكنت أذهب إلى المطبعة لتصحيح المسودات فيقول لي العامل أحيانا إن الأصول نفدت فأقعد في أي مكان وأفتح الرواية وأروح أترجم وأرمي للعمال بالورقة، وكأني أدون كلاما حفظته من قبل"[٩٦] . وقد أطلق عليها، كما سلف ، اسمًا جديداً ذا دلالة هو "ابن الطبيعة" .

وقد ترجم المازني فيما بعد مختاراته من الأدب الروسي، ولكنها لم تجمع في كتاب كما ترجم بعض المختارات من القصص الإنجليزي عام ١٩٣٩ . وترجم بعض الروايات مثل "جريمة اللورد سافيل" لوايلد. و "حكم القصلة" لروفائيل سباتيني ١٩٤٤ .

---

(٩٥) المازني : قصة حياة. ص٨٨ .

(٩٦) المازني : السرقات الأدبية. الرسالة، ٢ أغسطس ١٩٢٧، ص١٢٤٣ .

ومسرحية "الشاردة" لجالسورذى ١٩٣٢ . وقد تميزت ترجماته الأدبية بأسلوب متميز وملكة متفردة يطلق العقاد عليها "عبقرية الترجمة" ويصرح بأنه لم يعرف فى آداب المشرق والمغرب نظيرا للمازنى فى هذه الملكة. فهو "يترجم النثر فى أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان، ويترجم الشعر فى أسلوب كأسلوب البحترى والشريف، ثم لا يخرج فى ترجمته حرفا من اللفظ ولا لمحة من المعنى.. بل يأتى بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة فى طبقة التأليف أو أعلى وأبلغ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الأوروبى – العالمى – بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمها فى لغة الضاد"[٩٧] .

(٩)

خلال عامى ١٩١٩، ١٩٢٠ لم يكف شكرى عن مواصلة هجومه على المازنى واتهامه بالسرقة من شعراء الغرب، بل أخذ فى نقد شعر العقاد أيضا بعد أن أغراه بهما الشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة "عكاظ" الذى انقلب هو وجريدته على أصحاب المذهب الجديد فأغلقها أمامهم وفتحها أمام مهاجميهم. وفى هذه الفترة اتفق المازنى والعقاد على إخراج كتاب بعنوان "الديوان فى الأدب والنقد" فى عشرة أجزاء يتناولان فيها الأدب عامة والإبانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة بصفة خاصة. ولما كان نقد ما ليس صحيحا أوجب وأيسر من وضع القوانين للصحيح فقد فضلا أن يقدما تحطيم الأصنام الأدبية الباقية على تفصيل المبادئ. لذلك تولى العقاد مهمة تحطيم شوقى والرافعى، وتولى المازنى تحطيم شكرى والمنفلوطى. وقد نشر المازنى فى الجزء الأول (يناير ١٩٢١) مقالته المشهورة عن شكرى "صنم الألاعيب". وفيه يُقصى شكرى عن دعاة المذهب الجديد ويمهد لاتهامه بالجنون وهذيان الحواس ويورد من كتاباته وشعره الشواهد التى ذُكرت فيها كلمة الجنون بحروفها ليلقى فى روع

(٩٧) العقاد : حياة قلم، ص ١٢٠ .

القارئ هذه التهمة التي لم يجاهر بها وإنما اكتفى بأن يوجه ذهنه إليها. وعندما نشر الجزء الثاني في الشهر التالي (فبراير ١٩٢١) عاود المازني الكرة فراح يقتطف الاستشهادات من شعر شكرى ونثره. وللحقيقة فإن مقالتي المازني عن شكرى صاحبتهما ردود أفعال عنيفة سواء بالرضى أو بالسخط. وقد كانتا كرصاصتين أصابتا شكرى فى مقتل. ومن الجدير بالذكر أن العقاد كان يعالج في أسوان وأنه لم يشهد خروج الجزئين وردود أفعالهما. وظني أن المازني انتهز فرصة غياب العقاد وكال لشكرى حتى كاد يصرعه .

وإذا كان المازني قد كف عن النظم لأسباب عدة كانت مهاجمة شكرى إحداها، فإن شكرى قد اعتزل دنيا الناس والفن لأسباب عدة كانت مهاجمة المازني في "الديوان" إحداها، ومن الجدير بالذكر أنه بعد سنوات شعر المازني بجرمه في حق شكرى فحاول أن يترضاه، ولكن محاولاته لم تفلح في ترضية شكرى والرجوع به إلى حلبة الأدب. وإن كان داعي الفن قد دفع شكرى في أحيان كثيرة، ولكن على فترات متباعدة، إلى نشر بعض قصائده ومقالاته .

ويهمنا هنا أيضا "نقد المازني للمنفلوطي وأسلوبه القصصي" في الجزء الثاني من "الديوان" الذي افتتحه بحديث عن أدب الضعف والأدعياء الذين يعيشون عالة على الأدب وحميلة على أهله وذويه. ثم يبدأ حديثه عن المنفلوطي قائلا: "وهاكم صنما آخر من معبودات الضئال نهدمه ونلقي به بين الأطلال"[٩٨] . ومجمل رأيه أن المنفلوطي يذهب مذهب التخنث في كتابته، وهو ملفق مستحيل التلفيق، ولا يزال يعالج التأثير على قرائه بالتطرى والرخاوة في العاطفة المتكلفة والإحساس المصطنع والغلو في التأكيد وفي صوغ الكلام والتصوير. ويرى أن "العبرات" و"النظرات" ليس فيهما أدب مما تمليه الحياة المتدفقة وصحة الإدراك، وإنما هي كتابة ميتة مملوءة صديداً وسخافات لا يعرف المرء لها مثيلا في كل عصور الأدب التي مرت بالأمم قاطبة[٩٩] .

---

(٩٨) المازني (بالاشتراك مع العقاد): الديوان في الأدب والنقد. ص ٧٩ .

(٩٩) السابق ص٧٩ وما يلي .

حتى نهاية عام ١٩٢٤ نشر المازني مجموعة مقالات متفرقة في الأدب والاجتماع والفنون، وقد جمعها في كتابه المعروف "حصاد الهشيم" الذي نشره في يناير ١٩٢٥ . والكتاب يمثل وثيقة إثبات لثقافة المازني الواسعة، وسجلا لتطور نفسه في هذه الفترة المبكرة نسبيا في حياته الثقافية. وقد صدّره المازني بمقالة كلها زراية على القراء وتضاحك بهم. فهو يخاطب القارئ قائلا: "وفي الكتاب عيب هو الوضوح فاعرفه! وستقرؤه بلا نصب. وتفهمه بلا عناء، ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل وأنك لم تزد به علما! فرجائي إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك وأن الحال على نقيض ذلك. واعلم أنه لا يعنيني رأيك فيه. نعم يسرني أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثني على بنيه ولكنه لا يسوؤني أن تبسط لسانك فيه إذ كنت أعرفُ بعيوبه ومآخذه منك. وما أخلقني بأن أضحك من العائبين، وأن أخرج لهم لساني إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كانت تحت أنوفهم! ومهما يكن من الأمر، وسواء أرضيت أم سخطت، وشكرت أم جحدت، فاذكر، هداك الله، أنك آخر من يحق له أن يزعم أن قروشه ضاعت عليه! - أولى بالشكوى منك الناشر ثم الكاتب"[١٠٠] .

وفي حديثه عن "الكتب والخلود" يجزم بأن الزمن لا يرحم ولا يعرف وسطا، فإما النبوغ فالخلود وإما الخمول والفناء.. لذلك يقول عن نفسه وجيله: "ما مصير كل هذا الذي سودت به الورق وشغلت المطابع وصدعت القراء؟ إنه سيفنى ويطوى بلا مراء! فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق، وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم. ومن الذي سيذكر العمال الذين سوّوا الأرض ومهدوها ورصفوها؟. من الذي يعني بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم في هذه الجلاميد؟ وبعد أن تمهد الأرض، وينتظم الطريق، يأتي نفر من بعدنا ويسيرون إلى آخره، ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة باذخة. ويذكرون بقصورهم، وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها سامقة رائعة، والذين شغلوا

(١٠٠) المازني : حصاد الهشيم. ص٤ .

بالتمهيد عن التشييد؟ فلندع الخلود إذا ولنسأل: كم شبراً مهدنا من الطريق؟"[١٠١] .
واستمرارا لهذه النغمة اليائسة والساخرة من الخلود وبقاء الذكر نجده يقول في الخاتمة: "لا أحتاج أن أقول إني لا أكتب للأجيال المقبلة، ولا أطمع في خلود الذكر، وهل ترى ستكون هذه الأجيال المقبلة محتاجة - كجيلنا - إلى هذه البدائة؟ أليست أحق بأن يكتب لها نفر منها؟ أمن العدل أم من الغبن أن نكلف الكتابة لجيلنا ولما بعده أيضا؟ تالله ما أحق هذه الأجيال المقبلة بالمرثية إذا كانت ستشعر بالحاجة إلى ما أكتب!"[١٠٢] .

والكتاب يفصح أيضا عن استمرار ارتباط المازني وتفاعله مع ابن الرومي وشعره. ففي نهاية عام ١٩٢٤ عاود المازني الولوج إلى عالم ابن الرومي الرحب وكان الدافع هو إصدار كامل كيلاني مختاراته من ديوان ابن الرومي بمقدمة ضافية للعقاد بعنوان "عبقرية ابن الرومي". وفي البداية صرح المازني أن ابن الرومي هو "أحب شعراء العرب إلينا وأعزهم علينا، فليس أعذب ولا أشهى لدينا من أن نقضي ساعة معه كل أسبوع"[١٠٣] . وقد اتضح مما سلف مدى ارتباط المازني بابن الرومي ومدى افتتانه بشعره فنادرا ما تخلو مقالة أو قصة للمازني من بيت أو أكثر لابن الرومي، بل إن بعض الأبيات تتردد بصفة شبه منتظمة في كتابات المازني مثل قول ابن الرومي :

أنا من خف واستدق فما يثـ ـقل أرضا ولا يسد فضاء

أو قوله :

لم يخلق الدمع لامرئ عبثا الله أدرى بلوعة الحزن

(١٠١) السابق ص ١٩٤ وما يلي .
(١٠٢) السابق ص ٢١٥ وما يلي .
(١٠٣) السابق ص ٢٥٤ .

ومقالات المازنى تدل على مدى التداخل مع تراث ابن الرومي والتشابه بين نفسيتهما لذلك كثيراً ما نشعر أنه يتحدث عن نفسه بينما هو يتحدث عن ابن الرومي. لقد عاش المازنى كابن الرومى ساخطاً على الحياة ناقما على العصر، وأدب كل منهما حافل بالشواهد على ذلك، وعذر كل منهما هو "عذر كل حساس مصقول النفس مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال. وليس أقسى من أثر ذلك فى النفس ولا أوجع"(١٠٤) . فسخطهما لم يكن على مظهر عارض أو عيب طارئ، ولكنه كان على ما لا ينجو منه عصر ولا يبرأ من مثله زمن. وقد تشابها أيضا فى دقة الشعور وقوة الخيال، بل وفى اضطراب أعصابهما. فمن المحقق أن كليهما لم يكن سليم الأعصاب، ونتج عن هذا الاضطراب هذه الطيرة التى أصابت كل منهما. ومن هنا لم يكن بينهما – كل فى عصره – وبين الناس ما ينبغى أن يكون من الصلات الطبيعية الممكنة. فقد حدث التنافر لدى كل منهما مع المجتمع – رغم شدة ارتباطهما به – ولا ذنب لأى منهما ولا حيلة فى أعصابه المضطربة، وكذلك لا ذنب للناس فى أنهم لم يكونوا يقدرون حاجات هذه النفوس المضطربة .

وفى الأعوام الثلاثة التالية نشر المازنى مجموعة أخرى من المقالات المتفرقة فى الأدب والنقد والاجتماع والفنون والسياسة، وهى مجموعة مترعة باليأس والتشاؤم، فمن حديثه عن المرأة وفضلها فى تطوير اللغة إلى حديثه عن القراءة والكتابة ومجالسة الناس، وفنون التمثيل والخطابة، ومن بعض محاولاته القصصية إلى أجزاء من مذكراته اليومية. وقد جمع هذه المتفرقات فى عام ١٩٢٧ تحت عنوان "قبض الريح" وهو عنوان يناسب السمة العامة التى سيطرت على هذه المتفرقات، وهى سمة اليأس والقنوط والشعور بالمرارة وهوان الحياة. والكتاب بمحتواه وعنوانه تعبير صادق عن حياة المازنى آنذاك ، فقد كتبه وجمعه فى فترة سيطرت عليه فيها أشباح الماضى

---

(١٠٤) السابق ، ص٢٦٤ .

وأطيافه، وازدادت فيها عزلته وملازمته لمنزل جده على تخوم العالمين بين عالم الأموات وعالم الأحياء. ومن الجدير بالذكر أنه كان قد فتن منذ فترة بالعهد القديم وخاصة سفر الجامعة، ومنه استقى أسماء كتبه فى تلك الفترة. وهو سفر يصيب قارئه باليأس واللامبالاة. يقول ابن داود: "أَنَا الجَامِعَةُ، كُنْتُ مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ فِى أُورشَلِيمَ. وَوَجَّهْتُ قَلْبِى للسُّؤَالِ وَالتَّفْتِيشِ بِالْحِكْمَةِ عَنْ كُلِّ ما عُمِلَ تَحْتَ السَّموَاتِ. هُوَ عَنَاءٌ رَدِئٌ جَعَلَها اللهُ لِبَنِى الْبَشرِ لِيَعْنُوا فِيهِ. رَأَيْتُ كُلَّ الأَعْمَالِ الَّتِى عُمِلَتْ تَحْتَ الشَّمْسِ فَإِذَا الكُلُّ بَاطِلٌ وقَبْضُ الرِّيحِ"[١٠٥] . وكان المازنى يقارن نفسه بالجامعة ، وينتهى إلى نفس النتائج تقريبا: "وأنا أيضا كالجامعة وجهت قلبى إلى المعرفة، وامتحنت نفسى بالسؤال، وعللت روحى "بالتفتيش" بنيت لنفسى "آمالا" غرست لنفسى "أوهاماً" عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها "أحلاما" من كل نوع ثمر... وهذا كان نصيبى من كل تعبى... قبض الريح!"[١٠٦] .

والحديث عن "قبض الريح" لا ينفصل عن سابقه "حصاد الهشيم". فهما تعبير وإفصاح عن حالة المازنى النفسية آنذاك التى لابسته حتى كتابته للصيغة الأولى لرواية "إبراهيم الكاتب". ومن الطريف أن المازنى كاد أن يضع كتابا ثالثا فى هذه الفترة تحت عنوان "باطل الأباطيل" وهو عنوان منزوع كذلك من "سفر الجامعة" يقول "لقد هممت أن أسمى كتابا لى "باطل الأباطيل" كما سميت آخر "قبض الريح" وثالثا "حصاد الهشيم" فليس إيثارى لهذه الأسماء عن تواضع كما توهم البعض، بل عن شعور قوى بمرارة الهوان الذى أجده لهذه الحياة وكل مظاهرها"[١٠٧] .

---

(١٠٥) العهد القديم ، سفر الجامعة، الإصحاح الأول / ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(١٠٦) المازنى : قبض الريح ، ص ٤ .

(١٠٧) المازنى : الكتابة وثقلها. السياسة الأسبوعية، ٢٥ أكتوبر ١٩٣٠، ص٣ .

(١٠)

يعتبر عام ١٩٢٨ نقطة تحول جديدة فى حياة المازنى على المستويين الاجتماعى والأدبى. أما على المستوى الاجتماعى فكان زواجه الثانى. قرابة ثمانية أعوام والمازنى يحرم على نفسه الزواج وفاءً لزوجته الأولى التى صدم لوفاتها، فلم تستطع أية امرأة أن تأسر قلبه وتشفيه مما يكابده: "لما توفيت زوجتى ظللت سنوات لا أطيق أن أنظر إلى وجه امرأة. ثم فتر الألم وخفت وطأته كما هى العادة"[١٠٨] . خاض بعض التجارب، وأشار إليها فى بعض كتاباته ولكن وفاءه لزوجته كان يفسد عليه كل تجربة. ثم بدأ الألم يفتر والوطأة تخف وبدأ يقنع نفسه بفساد فهمه لمعنى الوفاء، وقد صاغ قناعاته تلك فنيا كنصيحة على لسان زوجته الأولى فى محاورة متخيلة معها: "سيان عندى أن تفى لى ولا تفى، ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ فإننى بعد أن مت لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره، ولا ألتفت إلى وفائك أو غدرك، وإنى لأدرى فوق هذا، أنك لا تذكرنى لذاتى بل لما طابت به نفسك على عهدى، فافعل ما بدا لك ولا تعن نفسك بى من هذه الناحية ولكن أبق لى رقعة صغيرة فى زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء"[١٠٩] .

وقد صاغ المازنى نفس المعانى شعريًا فى قصيدته "هاتف من جانب القبر" فقال على لسانها أيضا :

فدع عنك ذكرى إنه ليس نافعى	وسيان عندى أن تفى لى أو تنسى
ولا تتجشم لى الحفاظ فإننى	وقد مت لا أوليك شكراً ولا حسًا

ثم تدعوه إلى ترك هذا اللون من الوفاء غير النافع وإلى أن يتسلى أو يتخذ لنفسه زوجة فإن من تعلق بالحياة لا معدى له عن إجابة دواعيها :

---

(١٠٨) المازنى : من النافذة. ص ٩١ .

(١٠٩) المازنى : قبض الريح. ص ٨٧ .

وأدخل إليك الشمس من كل كوة	فما يتملى العيش من يحجب الشمسا
ستسليك عنى كل زهراء ناهد	وإن بقيت ذكراى تهمس بى همسا
فما أنت بالباكى علىّ وإنما	على فقد ما قد كنت طبت به نفسا

ويبدأ المازنى، تحت إلحاح والدته وأقربائه ومعارفه، يفكر فى إجابة دواعى الحياة. وكانت العروس إحدى قريباته أيضا "بنت بنت خالة" وتدعى "شفيعة عبد الحليم أبو النجا"[١١٠] . ويذكر المازنى العقبات التى واجهته، وهى تشبه ما حدث لإبراهيم الكاتب، فيقول : "لقد قامت فى طريق زواجى عقبات، فقلت لامرأتى – ولم تكن يومئذ امرأتى – سآخذك برضاهم أو كرههم، وأخطفك إذا احتاج الأمر إلى الخطف، فوطنى نفسك على هذا ولا تكترثى لما يكون منهم. وقد كان، ولم أحتج إلى الخطف، ولكنى أخذتها والسلام"[١١١] . والغريب أن نفس العبارات تقريبا جرت على لسان إبراهيم الكاتب لبنت خالته "شوشو". وأظن أن اسم التدليل من "شفيعة" هو "شوشو"! ولكن لا داعى للتوقف طويلا أمام هذه الجزئية لأنه لا يدخل بين أهدافنا هنا إرساء أى نوع من التوحيد بين المازنى وأى من شخصيات رواياته .

أما على المستوى الأدبى ففى نفس العام بدأ المازنى فى نشر مقالاته وصوره فى مجلة "الجديد" منذ أول أعدادها فى ٢٢ يناير ١٩٢٨ وفى "السياسة الأسبوعية" منذ عدد ٢٨ إبريل ١٩٢٨ . وقد بدأ المازنى بهذه الكتابات المرحلة القصصية فى حياته الأدبية التى كان قوامها التذكر والاستعادة. ومن الجدير بالذكر أن المازنى أعاد نشر أكثر هذه المقالات أو الصور فى كتابه أو مجموعته الأولى "صندوق الدنيا" (١٩٢٩) .

وفى هذه المرحلة القصصية استغل المازنى ذكرياته ومشاهداته. لقد كان لديه حنين دائم إلى الماضى فكانت أفكاره لا تفتأ تلتفت إلى الخلف وتكاد تدفن نفسها فى

(١١٠) حوار مع الأستاذ محمد إبراهيم عبدالقادر المازنى فى ٢٨ إبريل ١٩٩٢ .

(١١١) المازنى : تخطب لرجل وهى زوجة لرجل آخر!. أخبار اليوم، ٢٠ يوليه ١٩٤٦، ص٨ .

الأيام الخوالي، ولذلك غلب الاجترار على هذه المرحلة. ومن عادة المتذكر أن يستظهر العبر من كل حدث، ولذلك نجد لكتابات المازني بُعْدًا أخلاقيًا، ونجد الراوى/المازنى يرتدى ثوب الخبير المجرب الذى خبر الناس وعرك الحياة. ورغم هذا لم تخل هذه المرحلة من بعض الاتهامات بالاقتباس أو السرقة إن شئنا الدقة .

وفى عام ١٩٣٠ كانت أكبر خطواته تجاه كتابة الرواية حيث أصدر كتابه "رحلة الحجاز". وللمازنى رحلات عدة قام بها وسجلها فى قوالب قصصية ملئت قوة وجمالا، ولكنه لم يبعد بها كثيراً عن الواقع فبقيت رحلاته واقعية ليس للخيال فيها كبير نصيب أو شأن. وهى مادة تستحق دراسة خاصة تظهر من ناحية خصائصها الفنية والحرفية وما قدمه المازنى لهذا الفن الذى تميز فيه. ومن ناحية أخرى الوقوف على مدى احتذاء المازنى فيها للكاتب المريكى "صامويل كليمنز" الشهير بمارك توين (١٨٣٥-١٩١٠) صاحب "أبرياء فى الخارج" (١٨٦٩) .

فى عام ١٩٣١ أصدر المازنى رواية "إبراهيم الكاتب" بعد أن عكف قرابة الست سنوات على كتابتها وتنقيحها: "بدأت هذه الرواية فى سنة ١٩٢٥ ، ثم عدلت عن إتمامها والمضى فيها وبها إلى غايتها، ونسيتها إلى شتاء ١٩٢٦، فاتفق فى ذلك الوقت أن عرفت سيدة نمساوية تزاول الصحافة والتعليم فى آن معاً، وتوثقت بيننا الصداقة على الأيام – فقد طال مقامها هنا – فأطلعتنى على صفحة من حياتها حافلة بالكروب والمتاعب، ولما كنت لا أعرف لى، مع الأسف، تاريخًا يستحق الذكر أو حياة جديرة بأن يصغى إليها، أو يطلع عليها السامع أو القارئ؛ ولما كنت معها فى موقف يتقاضانى أن أجازيها بثًا ببثٍّ، وأن أقول بشجوى كما قالت بشجوها فقد ركبنى عفريتى الذى استراح إلي كتفى واطمأن إلى استسلامى لقضاء الله معه، فقصصت عليها حكاية الرواية – كما كنت أنوى أن أكتبها – وزعمت أن هذه قصة حياتى"[١١٢] . وفى يوم الاثنين ١٤ ديسمبر ١٩٢٥ بدأت "روزاليوسف" فى نشر رواية المازنى البكر تحت

(١١٢) المازنى : إبراهيم الكاتب،، ص٧ .

عنوان "إبراهيم الكاتب أو فترة من حياة". وإذا كان المازني اقتصر فيما بعد على الشطر الأول كعنوان فإن للشطر الثاني دلالات عديدة. وقد تابع المازني نشرها أسبوعيا، ولكنه في الأسبوع الخامس عدل عن إتمامها لأسباب لم يُفصح عنها. ثم أخذته الشواغل مرة أخرى ولكنه كان يُلمح إليها بين آونة وأخرى. ففي أكتوبر ١٩٢٨ يكتب في مجلة "الجديد" مقالا بعنوان "الأديب" يتحدث فيه عن نفسه ومما جاء فيه: "متى أتم روايتي التي بدأتها؟ إن بي حاجة إلى فراغ طويل. فإن من الإرهاق أن أجمع بين عملين، وستكون هذه أول رواية عربية بالمعنى الصحيح فلا بد من الأناة والتجويد ونفض الطريق قبل الإيغال فيه"[١١٣] .

كان المازني يظن أن روايته ستكون أول رواية عربية " بالمعنى الصحيح" ولكن عندما أعاد الدكتور محمد حسين هيكل نشر الطبعة الثانية من رواية "زينب" في مارس ١٩٢٩ نجد المازني يتناولها بمقالين نقديين في "السياسة الأسبوعية" يشير في أولاهما إلى روايته قائلا: "ألفت رواية أتممتها منذ عام ولا أزال أكر إليها بالتنقيح والتهذيب وأتلكأ غير مستعجل نشرها لأنها في ظني أول رواية مصرية. فما أجدرني بالعناية بها مخافة أن تولد ميتة أو أن يجيء أول القصيدة كفرا. وظللت متعلقا بهذا الوهم حتى بددته الطبعة الثانية من "زينب" فحرمني الدكتور هيكل ما لعلي كنت أتعزى به وأعتذر أيضا لو ساء القراء روايتي بعد نشرها"[١١٤] . وليس معنى هذا أن المازني كان يجهل رواية "زينب" حين نشرت أول مرة ١٩١٣ ولكنه سمع أنها بالعامية فصدق ذلك يومئذ وكان قد أخذ على نفسه، كما سلف، عهدا ألا يقرأ من الكتب إلا ما هو مكتوب بلغة جيدة، وذلك أنه كان مدرسا وكان يخشى أن ينزل بعقله وأسلوبه إلى مستوى عقول التلاميذ. ومن أجل ذلك أقسم ألا يقرأ من الكتب إلا أقواها وأسماها وأمتنها. ومن هنا تشدده في النقد آنذاك. وعند صدور الطبعة الثانية أهداه الدكتور هيكل نسخة منها فتقبلها شاكرا، وعندما اطلع عليها تبددت أحلامه وأوهامه فلا روايته

(١١٣) المازني : الأديب، الجديد، أكتوبر ١٩٢٨، ص٤ .

(١١٤) المازني : زينب ، الصراع بين الواجب والعاطفة، السياسة الأسبوعية، ٢٧ إبريل ١٩٢٩، ص٥ .

ستكون هي الأولى بالمعنى الصحيح، ولا هو سيكون أول روائي مصري كما كان يتوهم. يقول: "ولم تطل حيرتي، فقد سبقني هيكل (بك) وتقدمني في هذا الطريق غيره أيضا ممن لا يدانونه، ولا حيلة في ذلك ولا معنى للأسف من أجله، وفي وسعنا جميعا الآن أن ننتفع بما نتفع بما مهدوا، والإخلاص للأدب أسمى وأجمل وأجل أيضا من الإخلاص للنفس.. وعلى أن التعزى لم يوصد بابه، ففي مقدور كل امرئ أن يحدث نفسه فيقول إن السبق وحده ليس هو المزية، فقد يدرك اللاحق السابق ويفوته أيضًا ويخلفه وراءه"[١١٥] .

وما إن أصدر المازني روايته حتى ثارت ثائرة بعض الباحثين[١١٦] حينما اكتشفوا تطابق خمس صفحات أو أكثر بين "سانين" و"إبراهيم الكاتب"!. ومرة أخرى ثارت قضية "السرقات" فاتهم المازني بأنه نقل الصفحات الخمس عن "ابن الطبيعة". وبداية أقر المازني بصحة التهمة، فالصفحات هي هي بلا أدنى اختلاف في حرف أو اسم أو ضمير، ثم صرح بأن القلم سال بهذه الصفحات وهو يحسب أن هذا كلامه: "من الذي يمكن أن يصدقني حين أؤكد له أني لم أر رواية ابن الطبيعة منذ فرغت من ترجمتها ، وأني لو كنت أريد اقتباس شيء كمن معانيها أو مواقفها لما عجزت عن صب ذلك في عبارات أخرى؟ لهذا سكت ولم أقل شيئا وتركت الناقد وغيره يظنون ما يشاءون فما لي حيلة. ولكن الواقع مع ذلك هو أن صفحات أربعا أو خمسا من رواية ابن الطبيعة علقت بذاكرتي – وأنا لا أدري – لعمق الأثر الذي تركته هذه الرواية في نفسي فجرى بها القلم وأنا أحسبها لي. حدث ذلك على الرغم من السرعة التي قرأت بها الرواية والسرعة العظيمة التي ترجمتها بها أيضا. ومن شاء أن يصدق فليصدق ومن شاء أن يحسبني مجنونًا فإن له ذلك"[١١٧] .

---

(١١٥) السابق .

(١١٦) الناقد البغدادي محمود أحمد، والمصريان محمد كامل مصطفى الخياط وتوفيق الطويل .

(١١٧) المازني : السرقات الأدبية. الرسالة، ٢ أغسطس ١٩٣٧، ص١٢٤٣ .

ورغم هذه الضجة يمكن القول أن الرواية قوبلت في الأعم بحفاوة من القراء والنقاد ودبج عنها عدد ضخم من مقالات النقد والتقريظ واعتبرها الجميع نموذجاً لمرحلة من مراحل تطور الرواية العربية فطارت شهرتها دون أخواتها من أعمال المازني! ومعنى هذا أن المازني لم يكتف بفضل التمهيد وإنما أيضا فضل التشييد فبعد أن اهتدى لأبرز خصائصه بدأ يشيد لنفسه بنايات شاهقة ستظل علامات بارزة في تاريخ آداب العربية الحديثة .

وما إن هدأت الضجة التي أثيرت حول العلاقة بين روايتي "سانين" و"إبراهيم الكاتب" حتى اشتعلت الضجة حول مسرحية المازني الوحيدة "غريزة المرأة" أو "حكم الطاعة". التي قدمتها السيدة فاطمة رشدي وفرقتها في شهر نوفمبر ١٩٣١ على مسرح الأزبكية. وموضوع المسرحية الرئيسي هو درس غريزة المرأة الجنسية وما يؤدي إليه عدم فهمها وإشباعها على الوجه الصحيح من مآس اجتماعية وأخلاقية لا يمنعها الترف أوالبذخ. وقد قال المازني في مقدمة الطبعة الأولى، وكأنه يرد على اتهام متوقع: "الحكاية التي تنطوي عليها هذه الرواية لا جديد فيها ولا ابتكار ولا عمل للخيال. وأعني النفور بين زوجين وما يؤدي إليه في الأحيان الكثيرة من تقوض بناء الأسرة والشقاء وخيبة الأمل في الحياة.. وأمثال ذلك يقع كل يوم، وفي كل لغة مئات من القصص التي تدور على هذا المحور فلا فضل لي أدعيه. ولا جهد أستطيع أن أباهي به، فإن الطريق مطروق، والأرض ممهدة، وما انقطعت الأرجل قط عن السير فيها، والأمثلة التي يمكن أن تحتذى لا تعد ولا تحصى، وفي وسع القارئ – بلا أدنى عناء – أن يهتدي إلى عشرات من الروايات التمثيلية – وغير التمثيلية – التي تتناول الموضوع وتقلبه على كل وجه وتصفيه أتم تصفية وأوفاها... غير أني أعتقد أني وجهت الحوار في هذه الرواية توجيها يستحق العناية ولهذا أكتب هذا التصدير"[118] .
وبعد عرضها، وفي السادس من يناير ١٩٣٢ تناولها محمد علي حماد، الناقد الفني لجريدة البلاغ، فمدحها وهلل لها ولكاتبها وللفرقة التمثيلية ، وأضاف إلى مقاله الفني حديثاً قصيراً مع المازني سأله فيه عن دافع الكتابة فأجاب المازني: "الإلحاح المستمر

---

(١١٨) المازني : عود على بدء وحكم الطاعة. ص٧٥ .

من السيدة فاطمة رشدي ولو تركت لشأني لما كتبت إذ أني أتهيب التأليف المسرحي وأعتقد أن المؤلف مقيد فيه باعتبارات شتى يتحرر منها كاتب القصة". وعندما سأله: هل في نيتك الاستمرار؟ أجاب المازني: "أجل ولكنني سأنزع إلى الرواية الكوميدي لأنها أقرب إلى قلب الجمهور وأعتقد أني أجيد كتابتها خيرا من سواها"[119] . وبعد أسبوعين خرج محمد علي حماد نفسه بالاتهام المتوقع، حيث نبه القراء إلى أن غريزة المرأة مترجمة بتصرف عن "الشاردة" The Figitive للكاتب الإنجليزي المعروف جون جالسورذي Galsworthy . وأقام الناقد الأدلة على اتهامه بأن قابل بين العملين وما فيهما من شخصيات وحوار .

ولم يلجأ المازني إلى دفاعه المعهود في الرد على الاتهامات السابقة، أي لم يتهم ذاكرته بالمعابثة وإنما لجأ إلى أسلوب آخر للدفاع بأن عرض مختصرا لكل من الروايتين أظهر فيه تباينهما ثم قال : "هذه خلاصة دقيقة لكل من الروايتين – ولا وجه للشبه بينهما كما يرى القارئ، حتى سبب النفور مختلف ، ففي روايتي سببه عجز الزوج عن إرضاء مطالب الغريزة الجنسية، وفي الرواية الإنجليزية سببه أن الزوجة لم تعد تطيق أن تعطي زوجها ما يطلب منها كامرأة لأنها لا تحبه، بل تحب سواه أي الذي أغراها وشجعها بسبب حبه لها"[120] . والحقيقة أنهما متشابهان في الموضوع والاتجاه ، وبينهما تماثل أو تطابق في الحوار في عدة جمل وصفها المازني بأنها "جمل سخيفة" لا يعجز الكاتب عن الإتيان بمثلها حتى يسرقها من سواه ويسطو عليها ويدسها في كلامه. لقد غالط المازني في رده فأراد أن يوهم القراء بالاختلاف بينما التطابق بين المسرحيتين أكثر مما أشار إليه الأستاذ حماد، ولكن المازني يكابر فالأحداث والشخصيات تكاد تكون متطابقة والاحتذاء كامل في الفصول. ولو قدم العمل على أنه تجربة رائدة في تمصير الأعمال الأدبية لكانت تجربة تستحق الدراسة والتقدير، ولكنه، لسبب لا نعرفه، أبى أن يعترف بالاحتذاء كما فعل في المرتين

(١١٩) محمد علي حماد : غريزة المرأة (وحديث مع المازني). البلاغ، ٦ يناير ١٩٣٢، ص٦ .
(١٢٠) المازني : رد على نقد. السياسة الأسبوعية، ١٥ يناير ١٩٣٢، ص٢ .

السابقتين مع عبدالرحمن شكري ومحمود أحمد. وحاول المازني أن ينجو من المشكلة بطبع العملين متقابلين في جريدة السياسة فكأنه انتحر بيده حيث خرج القراء من المقارنة بغير ما يجب وعكس ما كان يبغي، ولما حاول أن يحرّف في ترجمته ليخفي التطابق في الأحداث والحوار أخرج محمد على حماد كتابه "المِعْوَل"[١٢١] ليعرض للقضية ويبين أن النص الحقيقي لم ينشر لا لغريزة المرأة ولا للشاردة! ولو نشر لظهر التطابق التام. وللأسف كان الاتهام صحيحاً إلى حد كبير، فالمازني لم يفعل تقريبا أكثر من أن صبغ "الشاردة" بصبغة محلية وأعطى الشخصيات أسماء مصرية. لقد كانت تجربة مؤلمة لنفس المازني وكرامته، وقد صرفته عن المسرح وأهله حتى آخر حياته، ولم يحاول كما وعد في حديثه القصير مع محمد على حماد أن يكتب للمسرح الكوميدي الذي يجيد كتابته .

(١١)

وفي أواخر ١٩٣٢ وبالتحديد في أكتوبر تعرض المازني لأحزان الفقد مرة أخرى حيث مني هذه المرة بوفاة والدته. كان يعلم أنها ستموت حتما ولن تخلد ولكنه لم يكن يتصور أنها ستموت قبله. والذي يعرف مدى حب المازني لأمه يعلم مدى أثر هذا الموت عليه. لقد كان موتها أوجع ما أصابه في حياته. يقول: "وإني لجليد في العادة ، ولكن موتها هدني"[١٢٢] . ولم يكن المازني يمل من ذكر أمه وحبه لها ولم يمل كذلك من تذكرها وتذكر فضلها عليه بعد موتها. يقول: "كان لي أب كغيري من الناس، ولكنه آثر أن يموت في حداثتي، فصارت أمي هي الأب والأم، ثم صارت على الأيام هي الصديق والروح الملهم. وقد استنفدتْ أمي عاطفتَيْ الحب والإجلال، فلم تُبق لي حباً أستطيع أن

---

(١٢١) يلاحظ أن الكتاب طبع تحت عنوان "الفكر الحر" في مطبعة "المجلة الجديدة" لصاحبها سلامة موسى وهذا ما يعيد إلى الأذهان كلمة المازني عن سلامة موسى عام ١٩٢٥ تحت عنوان "تصفية أدبية" وهي موجودة في هذا المجلد .

(١٢٢) المازني : سبيل الحياة- ص ٣١ .

أفيضه على إنسان آخر، أوإجلالاً لسواها. ومثلى فى ذلك كمثل من يمص عوداً من القصب ويعتصر كل مائه، فلا يبقى من العـود بعد ذلك إلا الحطب، الذى لا يصلح إلا للوقود. ومن هنا عجزى عن الحب بالمعنى الشائع. نعم أستطيع أن أصادق وأصفو بالود، ولكن العشق على مثال مجنون ليلى أو كما يصفه لنا الشعراء حال لا قبل لى بها ولا طاقة لى عليها لأن ذخيرتى من هذه العاطفة نفدت وليس فى وسع نفسى أن تبذل هذا المجهود مرة أخرى"(١٢٣) .

وبعد ذلك أبى المازنى البقاء فى البيت الذى وافاها الأجل فيه. فقد كان كل ما فيه يذكره بها حتى كاد يجن، وبالفعل انتقل فى بداية ١٩٣٣ من بيته بخارطة التونسى فى البساتين إلى مسكنه الأخير ٢٢١ شارع الجيش (فاروق سابقًا) ولم ينتقل منه حتى وافته المنية. وفى نفس التوقيت تقريبا انتقل من العمل فى "السياسة الأسبوعية" إلى العمل فى "جريدة البلاغ" مع عبدالقادر حمزة. وأقام المازنى فى مسكنه الأخير ست عشرة سنة أصدر خلالها جل إبداعاته التى أفسحت له مكانا فى الصدارة وجعلته أحد أكبر رواد القصة العربية الحديثة. وهنا سنحاول ترتيبها قدر الإمكان مع إيراد نبذة صغيرة عن كل منها :

١ – فى نوفمبر ١٩٣٥ أصدر المازنى ما يمكن أن نسميه مجموعته الثانية "خيوط العنكبوت"، وهى مجموعة مقالات وصـور وقصص انتقاها المؤلف من مجموع ما نشره فى الفترة ما بين ٢٩ سبتمبر ١٩٢٨ وحتى ١٦ فبراير ١٩٣٥ . وهى كما سنرى نفس "التشكيلة" المتنوعة والمتباينة التى تعوّد المازنى جمعها بين دفتى كتاب. وقد بقى هذا الكتاب عامًا أو أكثر بحوزة المازنى لم يدفع به إلى المطبعة حتى اهتدى إلى اسمه(١٢٤)، وهو اسم معبر عن المازنى يقول: "إنى ما سميته "خيوط العنكبوت" تواضعا.. بل لأنى كالعنكبوت أنسج خيوطى من عصير أمعائى"(١٢٥) .

---

(١٢٣) المازنى : المرأة فى حياة الأديب، الرسالة، أول مايو ١٩٣٩، ص ٨٥٠ .

(١٢٤) المازنى : قصة كتاب يأبى أن يصدر، البلاغ، ٢٤ يناير ١٩٤٢، ص٤ .

(١٢٥) المازنى : إلى الدكتور طه حسين، البلاغ، ٣١ ديسمبر ١٩٣٥، ص٣ .

٢ – وفي يوليه ١٩٣٧ أصدر المازني مجموعته الثالثة "في الطريق" وهي أول مجموعة قصصية خالصة. وكانت تضم بين دفتيها خمساً وثلاثين أقصوصة، وقد لحق بهذه المجموعة داء الحذف والزيادة في الطبعات التالية حتى صارت الطبعة الجديدة مشوهة تحتوي بالكاد على نصف عدد هذه الأقاصيص. ومن يقرأ المجموعة يستشعر مدى موافقتها للعنوان الأساسي للمجموعة وهو كالعادة اسم عام يعبر عن المجموعة ككل وليس منتزعًا من اسم إحدى قصص المجموعة. وله كالعادة تاريخ طريف حيث أطلق عليها في البداية اسم "عابر سبيل" لكن العقاد سبقه إلى إخراج مؤلف له بهذا الاسم هو "ديوان عابر سبيل". يقول المازني: "ونزلت عنه غير شاكر له، واحتلت على المعنى حتى أسميته "في الطريق" ولكن هيهات!"[١٢٦] .

٣ – وفي إبريل ١٩٤٢ أصدر روايته الثانية "عودٌ على بدء". والكتاب يمثل تجربة نادرة تعرض لها المازني بالشرح في مقاله "أسئلة وأجوبتها"[١٢٧] .

٤ – وفي ١٢ أكتوبر ١٩٤١ بدأ المازني نشر روايته "إبراهيم الثاني" في البلاغ تحت عنوان "قصة نفسين". وواصل نشرها مسلسلة واحداً وعشرين اسبوعًا فكانت الحلقة الأخيرة في عدد ٨ مارس ١٩٤٢ وفي عدد الأسبوع التالي (١٥ مارس ١٩٤٢) فوجئ القراء بالمازني يعتذر عن مواصلة النشر قائلا: "أعتذر إلى القراء من الكف عن نشر ما بقي من "قصة نفسين" فقد بدا لي فيها رأي دعا إلى تغيير وتبديل، وحذف وإضافة، فصار ما بقي منها لا يطرد ولا يتسق مع ما سبق نشره، ولحقه من التغيير أيضا، وعسى أن يأذن الله لي بنشرها في كتاب"[١٢٨] . وتقديري أن المازني أوقف النشر بعد أن كثرت الأقاويل حول "ميم" بطل الرواية حيث ظهر بعض أوجه التطابق بين "ميم" وحياة المازني وأفكاره كالحديث عن تطيره وعن إصابته بالنورستانيا..

---

(١٢٦) المازني : قصة كتاب يأبى أن يصدر، البلاغ، ٢٤ يناير ١٩٤٢، ص٤ .
(١٢٧) المازني : أسئلة وأجوبتها، البلاغ، ٨ إبريل سنة ١٩٤٢، ص٤ .
(١٢٨) المازني : حديث الأحد، البلاغ، ١٥ مارس ١٩٤٢، ص٢ .

إلى آخر أوجه التطابق التي كثيرا ما استظهرها نقاد المازني. ونزيد هنا على ما استظهره هؤلاء النقاد أن الراوي ذكر في المقالة الحادية والعشرين أن بطله "ميم" يعاني في عمله كصحفي، وزاد الطين بلة ضيق مجال النشر أمامه بسبب قلة الورق المستورد لاشتعال الحرب. ونتج عن هذا توقف بعض الصحف واختصار عدد صفحات الجرائد الأخرى. ومن هنا ضاق مجال النشر أمام كتاباته ، وبالتالي قلّ دخله ففكر "ميم" جديا في ترك الصحافة والأدب والعمل بأي تجارة تدر عليه أضعاف ما يدره الأدب، رغم أنه لن يجاهد فيها كجهاده في الأدب، وهذا ما كان يحلم به المازني آنذاك ولطالما ردد أنه يحلم بأن يفتح محلا للفول والفلافل أو صالونا للحلاقة! وبالفعل جعل الراوي بطله يترك الأدب ويفتح محلا للمزادات العامة ونجحت التجربة واضطرد العمل وأصبح دخله الصافي حوالي مائة جنيه. وهكذا انقلب الأديب دلالاً موفقا واستراح من كتابة المقالات الأدبية والسياسية ومن تدبيج التقارير التي تطلبها الشركات المختلفة. وهذا ما كان يفعله المازني في حياته الأدبية! وعندما أعاد المازني نشر هذه الفصول كرواية في كتاب مستقل حذف الفصل الحادي والعشرين، ثم سار بالقصة في اتجاه آخر وأدخل عدة تعديلات ضرورية، ثم كتب فصلين متممين أسرع فيهما الخطى حتى يختتم القصة ويستريح! أما التغييرات فكان أهمها تغيير العنوان "قصة نفسين" إلى "إبراهيم الثاني" ووضع "إبراهيم" مكان "ميم" وصيره "إبراهيم الثاني" وعده جزءاً تاليا لـ "إبراهيم الكاتب". تغيير ثان خاص بالشكل فقد أعاد الترتيب إلى فصول يحتوي كل منها على عدة أرقام مما نشر مسلسلا. وقد صدرت الرواية في يونيه ١٩٤٣ .

٥ – تعد رواية "ميدو وشركاه" ثاني رواية كتبها المازني. وهذه قصة غريبة ذكرها المازني في مقاله "قصة كتاب يأبى أن يصدر". ومما جاء في هذه المقالة: "هي قصة كتاب أريد له الظهور، ويأباه كل الإباء! ومن الكتب ماله سيرة عجب !! قلت لنفسي بعد أن أخرجت "إبراهيم الكاتب" يحسن بك يا هذا أن تنحو في الرواية التالية نحوا آخر حتى لا يجيء ما تكتب من ذاك على غرار واحد فيمل القراء، وصح عزمي على هذا التنويع ، فتوكلت على الله، وشرعت في فترات النشاط القليلة أكتب رواية فكاهية... بدأتها في مصر، ثم سافرت إلى لبنان، طلبا للراحة والاستجمام ، فحملت مسودتها

معى، وعكفت عليها فى البكرات الندية حتى فرغت منها، ففركت كفى، وتشهدت، وحمدت الله، فقد أتعبتنى"[١٢٩] . ثم أخذ يبحث عن اسم للرواية الجديدة، والأسماء – كما قال المازنى – آخر ما يختاره لكتبه، واختيارها يكلفه شططا. وإبان فترة البحث بدأ المازنى فى نشر بعض فصول الرواية فى الدوريات المختلفة تارة كأقاصيص وأخرى تحت عنوان "فصل من رواية لم تكتب" أو "لم تنشر". وفى النهاية أطلق عليها اسم "الدكتورة سارة" لكن العقاد، مرة أخرى، سبقه وأخرج فى عام ١٩٣٨ رواية سماها "سارة" فحرمه الاسم الذى اضطر للنزول عنه غير شاكر. وراح يراجع الرواية عسى أن يلهمه الله اسماً جديداً، وكان أثناء ذلك يغير ويبدل ويضيف ويحذف حتى فشا الأمر واختلط الأصل بالتغييرات فأهملها إلى وقت آخر حتى يستريح من وجع الرأس، وفى أبريل ١٩٤٢ تقريبًا فتح الله على المازنى باسم "ميدو وشركاه" ففرح به وقال هذه آية.. يقول: "أسميت الرواية "ميدو وشركاه" وقد آثرت هذا الاسم على غيره مما خطر لى، للدلالة على النحو الفكاهى فيها"[١٣٠] . وقد صدرت الرواية بعد عناء فى يونيه ١٩٤٣ .

٦ – فى أواخر عام ١٩٤٣ عرض عبد الحميد جودة السحار على المازنى أن يكتب قصة طويلة للجنة النشر للجامعيين. فاتفق معه المازنى على أن يكتب له قصة بعنوان "ثلاثة رجال وامرأة" على أن يدفع له مبلغًا معلومًا.. يقول السحار : "وأكب المازنى على كتابة قصة "ثلاثة رجال وامرأة" وراح يسلمنى أصول ما يكتب وانا أدفع به إلى المطبعة، حتى إذا ما سلمنى أصول الفصل الأخير ذهب معى ليصحح التجارب. واتضح أن القصة قصيرة وقد حددنا عشرين قرشًا ثمنًا لها، وكأنما ضايقه صغر القصة فطلب ورقًا ووقف يكتب على نضد جمع الحروف وقد أسند ساقه المهيضة على العارضة السفلى الواصلة بين رجلى النضد الأماميتين ولم يغادر مكانه إلا وقد انتهى من كتابة فصل كامل ودفع به إلى المطبعة. وقرأت ذلك الفصل بعد جمعه فأحسست

---

(١٢٩) المازنى : قصة كتاب يأبى أن يصدر. البلاغ، ٢٤ يناير ١٩٤٣، ص٤ .

(١٣٠) السابق .

أسى، كانت الفصول الأولى قوية رصينة تمتاز بنضج الفكرة، وإذا بالفصل الأخير يقوض الصرح الجميل ويذيب جهد الليالى، ولعنت في نفسى القارئ فارغ العين الذى يزن الكتاب بيده قبل أن يشتريه"(١٣١) .

٧ – تعد مجموعة "ع الماشى" هى المجموعة القصصية الرابعة للمازنى، وقد صدرت للمرة الأولى في يونيه ١٩٤٤ عن لجنة النشر للجامعيين، وهى مجموعة صغيرة تحتوى على ثلاث عشرة أقصوصة أضيف إليها فيما بعد ست أقاصيص نزعت من مجموعته الثالثة "في الطريق" !

٨ – "من النافذة": هذا الكتاب كان جاهزا للطبع في حياة المازنى، ولكنه صدر بعد وفاته بحوالى الشهرين. وقد صدر في سلسلة اقرأ ويحمل رقم ٨٣ وذلك في أول أكتوبر ١٩٤٩ . وهو يحتوى على اثنتى عشرة مقالة فكرية تسبقها رواية قصيرة حمل الكتاب عنوانها وظنى أنه قد حذف أحد فصولها الذى نشر في جريدة البلاغ فى الثانى من يناير سنة ١٩٤٤ تحت عنوان "من النافذة" (ص٥) وسنثبته في المجلد الثانى من الأعمال غير المنشورة !

* * *

تميز المازنى في هذه الفترة الأخيرة بنوع خاص من الرضى الممزوج بالتمرد الساكن: رضى الفاهم للدنيا والعارف بناسها. أما التمرد الساكن فأعنى به التمرد الذى لا تخالطه ضجة أو ثورة، فهو يأتى بالفكرة المتمردة بلا ضجيج أو ثورة، ومن هنا كان تأثير هذه الأفكار أعمق وأوسع. وكان يدير عينيه فيما كان فيرى أنه تخطى عقبات لم يكن يطمح في اجتيازها، وأنه صبر على أشياء كانت تبدو له فوق طاقة الإنسان، وأنه قد وصل رغم كل شىء إلى الخاتمة بنجاح، وإذا كان الزمن قد نال منه وهدّ قواه، فقد أفاده صلابة وعزما وثقة في النفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها،

---

(١٣١) عبد الحميد جودة السحار: صور وذكريات، ص ١٩٩ .

وقد أكسبته تلك المحن الاتزان واحترام النفس، ورحبت أفقه ووسعت نفسه وعمقتها، وعرفته بالقيم الحقيقية للأشياء، وحمته من أن يسرف على نفسه وعلى الناس فشرحت صدره لهم وعلمته التسامح الذى مبعثه الفهم وصحة الإدراك، وأرضته عن الحياة فصار يتلقاها كما تجيء لأنه من العبث الاحتفال بما لا حيلة للمرء فيه، وتساوت عنده كل حالة وتعادل عنده السرور والحزن والضحك والبكاء، والفوز والخيبة(١٣٢) . وما دامت الحالات قد تعادلت عنده فلماذا لا يلتمس السرور وينشد النعيم ويجتنب المنغصات والمتعبات. ومن هنا كلفه فى هذه الفترة بتتبع صور الحياة المسلية. وكان يجد سعادته فى إسعاد غيره أو إدخال السرور على نفس مظلمة. يقول: "وإنه ليسعدنى أن أتوهم أنى استطعت إسعاد غيرى ولو دقائق معدودات وقد أكون واهمًا ولكنه وهم جميل، بل جليل، وأنه الذى يغرينى بتلمس الجوانب الفكاهية فى الحياة"(١٣٣) .

وفى أوائل أغسطس ١٩٤٩ مرض المازنى فما كان من أهله إلا أنهم نقلوه إلى أقرب مستشفى وهو "المستشفى الإسرائيلى" بغمرة ولكنه توفى يوم الأربعاء الحادى عشر من الشهر نفسه "أغسطس" ولم يكن قد مضى عليه أسبوع فى المستشفى(١٣٤) . وكان المازنى قد رثى نفسه فى عام ١٩٤٦ فقال: "كان صريحاً لم يتحفظ فى إبداء رأيه فى أى حزب وأى إنسان فلم يرض عن حزب أو إنسان. وكان عبيطا عاش - ولم يفكر فى حياته - ومات ولم يفكر فى حال أسرته بعد مماته.. يرحمه الله بقدر ما كان مغفلاً.. وسيرحمه كثيراً!"(١٣٥) .

---

(١٣٢) قارن المازنى : تأملات عابر سبيل. مجلتى، ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٦، ص٧٨ وما يلى .

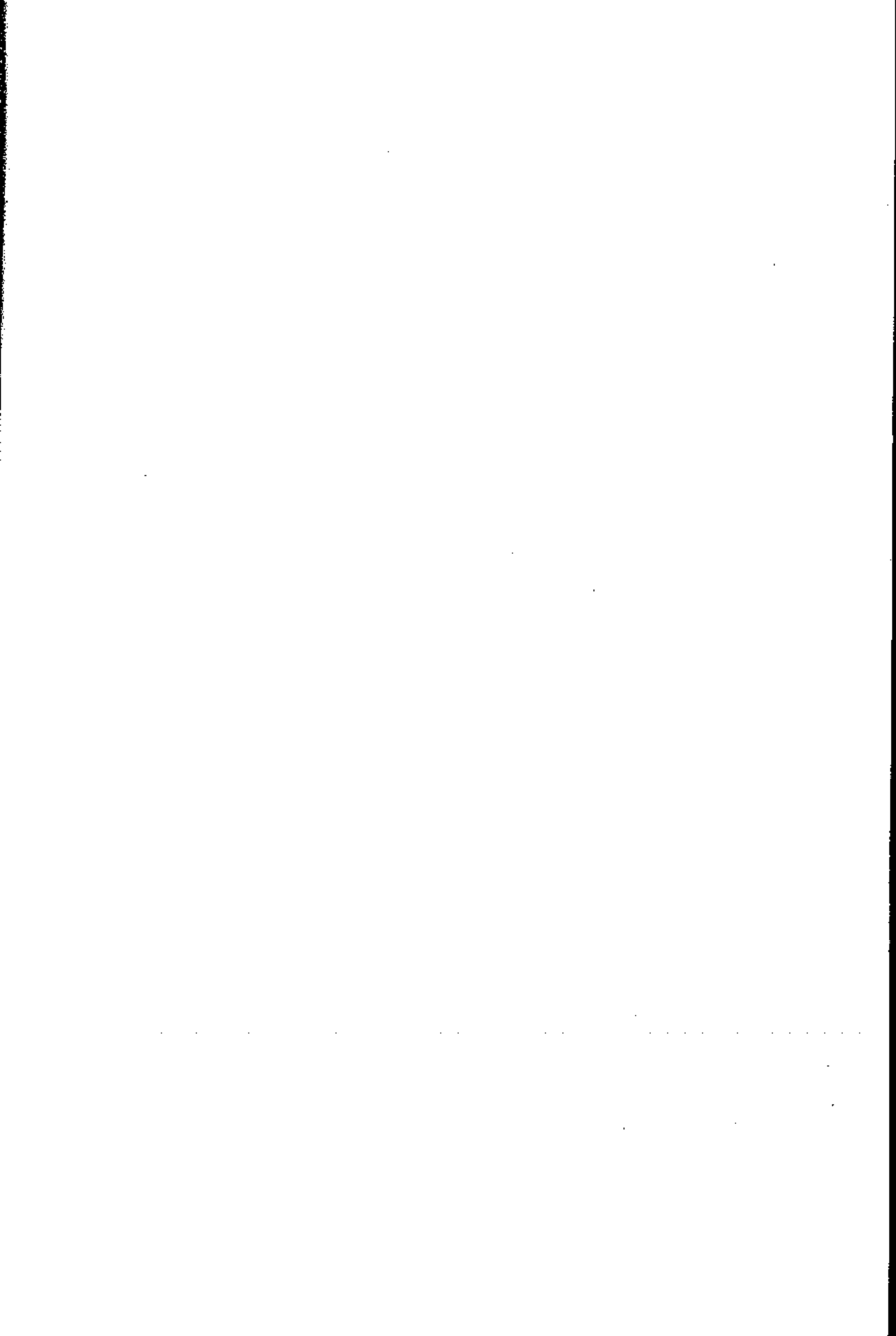
(١٣٣) المازنى : قصة حياة. ص١١٢ .

(١٣٤) مجلة الجديد، مقال للمحرر، عدد (٦٤) أول سبتمبر ١٩٧٤ .

(١٣٥) راجع استفتاء "أدباء ينعون أدباء" بمجلة روزاليوسف، عدد ٢٦ يونيه سنة ١٩٤٦ .

نصوص "تأملات وذكريات" المازنى

(مرتبة تاريخيًا)



فى الأسماء ووقعها فى نفوس أصحابها[1]

كم وقفت على ساحل البحر أخط اسمى على الرمال بطرف العصا، فيكر عليه لسان من الموج لا ينفك يمتد، ويمحوه! وكم قلت لنفسى، وأنا أفعل ذلك مرة بعد مرة، والموج يتعقب بالمحو ما أثبت :

"كاسمى هذا الذى يمسحه الموج، حياة الفرد، لا قيمة لها إلا فى رأى نفسه. الطبيعة لا ترى فيه أكثر من قالب تصب فيه المادة لتتخذ لها شكلا، والحياة لا تعد إلا محطة فى طريقها الحافل بالنقل، وبعد أن يتم الصب يتحطم القالب، ويزايل الراكب المحطة فيعفى على ذكرها النسيان! وما أكثر من يخادعون أنفسهم ويوهمونها أنهم خالدون بأسمائهم وآثارهم. فأما آثارهم فقد تخلد إذا كانت تستحق أن تبقى على الزمن، وأما أسماؤهم فما أراهم يكتبونها إلا على مثل هذه الرمال، وهى لا محالة لاحقة على كر الأيام وتوالى الحقب بأسماء من اهتدوا إلى قدح النار واستنبات الأرض، فما كتب الفرد منا غير الفناء، إذا كتب للنوع طول البقاء، حتى ذرية الإنسان – وهى بعضه – تنتزع نفسها منه وتستقل عنه وتروح فى غنى عن الاتصال به، على حين ينوى هو ويسقط عن دوحة الحياة كما يسقط النوار بعد أن تخرج منه الثمرة!" .

وربما دار بنفسى خاطر كهذا: "هبنى كنت بغير اسم!!" فأنبت، ويعييني أن أتصور على أى نحو كنت أقضى حياتى. ولى العذر، فإن اسم الإنسان أهم ما فيه، وليس هو بعضه بل كل ما ينطوى عليه، هو رمز شخصيته وعنوان وجوده، بل الدليل المثبت لهذا الوجود، يباهى به ويعتز، أو يخزى منه ويدركه من ناحيته الخجل،

(١) نشرت فى جريدة "الاتحاد" فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٦ (ص٧) .

ويستوحيه ويستمد منه القدرة واليقين والجرأة، أو ينقبض له ويضعف به ويستوحش منه، وإذا دفع أحدنا الطماح فإن اسمه ما يبنى، وإذا زلت به القدم أو أصاب جناية أو عرة دين فهو اسمه الذى يطارده به العائبون أو الشرطة أو الغرماء، وإذا سمعه التفت، وإذا نودى به أجاب، وإذا أخذته عينه فى كتاب أو صحيفة هش له وافتر السرور فى وجهه، أو اغتم له وأخذه الحزن، وهو الذى يخرج بالإنسان من عمومية الاشتراك فى الحياة إلى خصوصية التميز الفردى، وأحسب أن التسمى هو النتيجة المباشرة لنشوء الإحساس بالذات فى نفس الإنسان وما أكثر ما يتمنى المرء أن يكون اسمه كذا أو غير كذا رغبة فى مثل المجد الذى ظفر به صاحب الاسم المشتهى أو فراراً من عار الاسم الذى ألصقه به أبواه، وإن كان المرء لو خير لما رضى بنفسه بديلا، وما أظن بالجانى أو المتنكر لسبب ما، الا أنه يحس حين يغير اسمه كأنما قد لبس فى عيون الناس شخصية أخرى، أو كأنما صار إنسانين فى جسد: واحداً مزويا عن الأنظار وآخر باديا لها ماثلا قبلها .

وقريب من هذا الإحساس بازدواج الشخصية ما كان يخالجنى لأول عهدى بالكتابة ذلك أنى فى صدر أيامى قل ما كنت أحفل بلقبى أو أعنى بإثباته فى ذيل اسمى فلما شرعت أنشر ما أكتب بدا فى أن أوقع بلقبى وحده، أو به مع الرمز لبقية اسمى بأوائل حروفه هكذا (ا.ع.ا. المازنى) كان باعثى - أو ما أقنعت نفسى بأنه باعثى - أنى بهذه الحيلة أضمن مقداراً من التنكر وأستطيع الوقوف على القيمة الحقيقية لما أكتب فى رأى الناس، ولكنها حيلة لا شك فى أنها كانت تنبئ عن فرق وإشفاق من سوء رأى القراء، ومن أجل هذا لم أكد أشعر بأن كتابتى فازت بحظ من القبول حتى أثبت اسمى كله بحروفه جميعًا ضنًا بهذا القبول أن يحرمه شخصى واستعجالا لمتعة الشعور بالتوفيق، وإنى الآن بعد عشرين عامًا من الكتابة والنشر وبعد أن أصبت من الشهرة حظًا وذهب سمعى فيما وراء بلادى، أقول إنى بعد ذلك أسير فى الطرقات وبين الناس فلا يلتفت إلىَّ أحد ولا يعبأ بى ديار ولا أرانى أحفل أن يجعل الناس بالهم إلىَّ أو لا يجعلوه، ولكنى كنت لأول عهدى بالكتابة يخيل إلى كأن العيون تبحث عن صاحب مقالاتى، والنفوس تشتاق أن تتملى بمرآتى!! وربما خالجنى من

فرط الغرور شيء من العطف عليهم والمرثية لهم! وقد أنظر في أعطاف نفسي فإذا بي أهم أن أستوقف كل عابر سبيل وأقول له: "يا هذا لا تتعب نفسك ولا تعنيها بطول البحث. هأنذا أريحك وأعرفك أني أنا فلان الفلاني كاتب مقالات كيت وكيت"!؟ ولولا خوفي أن يكون أميا !؟

ولشد ما زهاني الكبر وذهب بي التيه يوم قرأت لأول مرة في ديوان الحماسة قول ذلك المستضعف يذم قومه ويمدح بني مازن :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

وجعلت أقول لنفسي: ياما أطيبها جرثومة وأخلصها أرومة، وأعتقه نجاراً وأعرقه فخاراً! وزاد خيلائي ما قرأت عن النضر بن شميل المازني كأنما كنت قد وثقت قبل ذلك أني فرع من الأيكة التي خرج منها هو وأضرابه! وحدثتني النفس أن أستقصي أخبار السادات والأدباء والشعراء من بني مازن! وليتني ما فعلت ولا فكرت فقد أطاروا نعرتي قبحهم الله ونزعوها عن أنفي. وما ظنك بقوم لا يكون شاعرهم إلا قاطع طريق وفاتكًا؟؟ ماذا عسى أن يكون فخر المرء بهم؟ وبمن منهم يُدل ويباهي؟ مالك بن الريب بن حوط المازني كان لصًا فاتكًا وكان هو ورفقاء له يقطعون الطريق ويسومون الناس الشر؛ فطلبه عمال الخليفة؛ فقضى أكثر أيامه هاربًا مع هذه الثلة من أصحابه حتى بلغ فارس، ويسأله سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان لمعاوية "ما لك ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق؟ ما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل؟".

فيقول "يدعوني إليه العجز عن المعالي، ومساواة ذوي المروءات، ومكافأة الإخوان".

ولا يكف عن ركوب الناس بالأذى، حتى يجري عليه سعيد هذا مبلغًا شهريًا! وكأنما لا يوافقه إلا حياة العبث والتشرد فيموت بعد الكف بقليل في خراسان!

ومسعود بن خرشة المازني كان أيضًا من لصوص البدو سراق الإبل وقطاع الطريق، وهلال بن الأسعر المازني كان رجلاً شديداً عظيم الخلق، ولم يكن يحسن إلا شيئين الأكل والحرب، حتى قطرى بن الفجاءة المازني كان زعيمًا للخوارج وأميراً لمؤمنيهم. ولا نطيل فإن التمرد صفة مشتركة وسمة عامة ولو أن أصحابنا هؤلاء ظهروا في الجاهلية لما كان غريبًا أن يكونوا جميعا كذلك، ولكنهم من الإسلاميين، ومنهم من أدرك الدولة العباسية .

وقد أردت أن أعزى نفسى عن خيبة أملى فيهم فقلت: إن الرجل الذى ينشأ فى مجتمع منظم لا يكون له معدى عن إحدى اثنتين إلا إذا آثر العزلة التامة: أن يكون حاكمًا أو محكومًا، فإذا كانت حيويته متدفقة وشخصيته قوية لم يطق أن يحنى عنقه لنير سواه أو يتطامن لمشيئة غيره، وأحس بالحاجة الملحة إلى الحرية وإلى استشعار الارتياح الذى يحدثه إرسال النفس على سجيتها، والقدرة على إطاعة الميول، وإرضاء الأهواء، لأن الإحساس بأن غيره يزحمه ويدفع فى صدره ويسد فى وجهه الفجاج ، هذا الإحساس ينغص عليه الحياة، ويفسد متعها، ويكدر صفوها، وشبيه بذلك شعور المرء إذ ألقى نفسه فى مكان ضيق إذا وقف فيه اصطدم رأسه بسقفه، أو نام لم يستطع أن يمد رجليه، كذلك أصحاب هذه النفوس الفياضة بالحيوية لا يقدرون أن ينقبضوا ليسعهم الجحر الذى يتركه لهم الحظ فى بناء المجتمع. فإذا أعياهم أن يكون لهم الأمر تمردوا وخرج منهم الثوار والفتاك وقطاع الطريق واللصوص والمرتزقة من الجنود ورواد الآفاق والضاربون فى المجاهل وأهل الخطار من كل نوع وطبقة، وقد لا يكون ذلك لأنهم أهل طماح، وإنهم رفيعوا الأهواء، بعيدو الهمة، نزاعون إلى المراتب السامية، بل لأنهم بطبيعتهم لا يحتملون القيود ولا يطيقون أن يبذلوا القياد أو أن يعيشوا فى دائرة محدودة؛ فليست طلبتهم أن يتولوا أمراً بل أن يكونوا هم أحراراً فيما يفعلون ويتركون، وقديما قال يوليوس قيصر كلمته المأثورة التى ليس أكشف منها عن هذه الروح: "لأن أكون أول رجل فى قرية صغيرة أفضل عندى من أن أكون ثانى رجل فى رومية". ومعنى ذلك أنه يريد أن لا يشعر إلا بنفسه وبشخصيته وإرادته .

* * *

بهذا وأمثاله عزيت نفسى، ولابد للمرء من خدعة يتعلل بها ليحتمل الحياة ويطيق العيش، وإلا جن أو مات كمداً، وماذا يصنع الإنسان بنفسه إذا لم تكن له فى الحياة علالة؟ كيف يقضى أيامه بلا أمل أو ذكرى، أو عقيدة أو نجوى، أو غير ذلك مما يخالط النفس فيه؟ ومن هذا الباب إقبال الناس على الأشربة وما يفعل فعلها من المخدرات سواها، والشراب أو ما هو فى معناه، داء لم تحدثه المدنية ولم يصب به الإنسان مع الترف وإنما رافقته من أقدم عصوره قبل أن يتهذب ويصقل، ولا شك أن الإنسان عرفه عفوا، ولكنه بعد أن عرفه لم يزل يطلبه على نحو ما، كلما فتر عن الحياة وأحس الخور يستولى على جسمه أو عقله أو نفسه، وليس يستغنى عنه إلا من يعمر صدره إيمان أو تزخر نفسه بأكثر من نصيب الفرد العادى من الحيوية والنشاط .

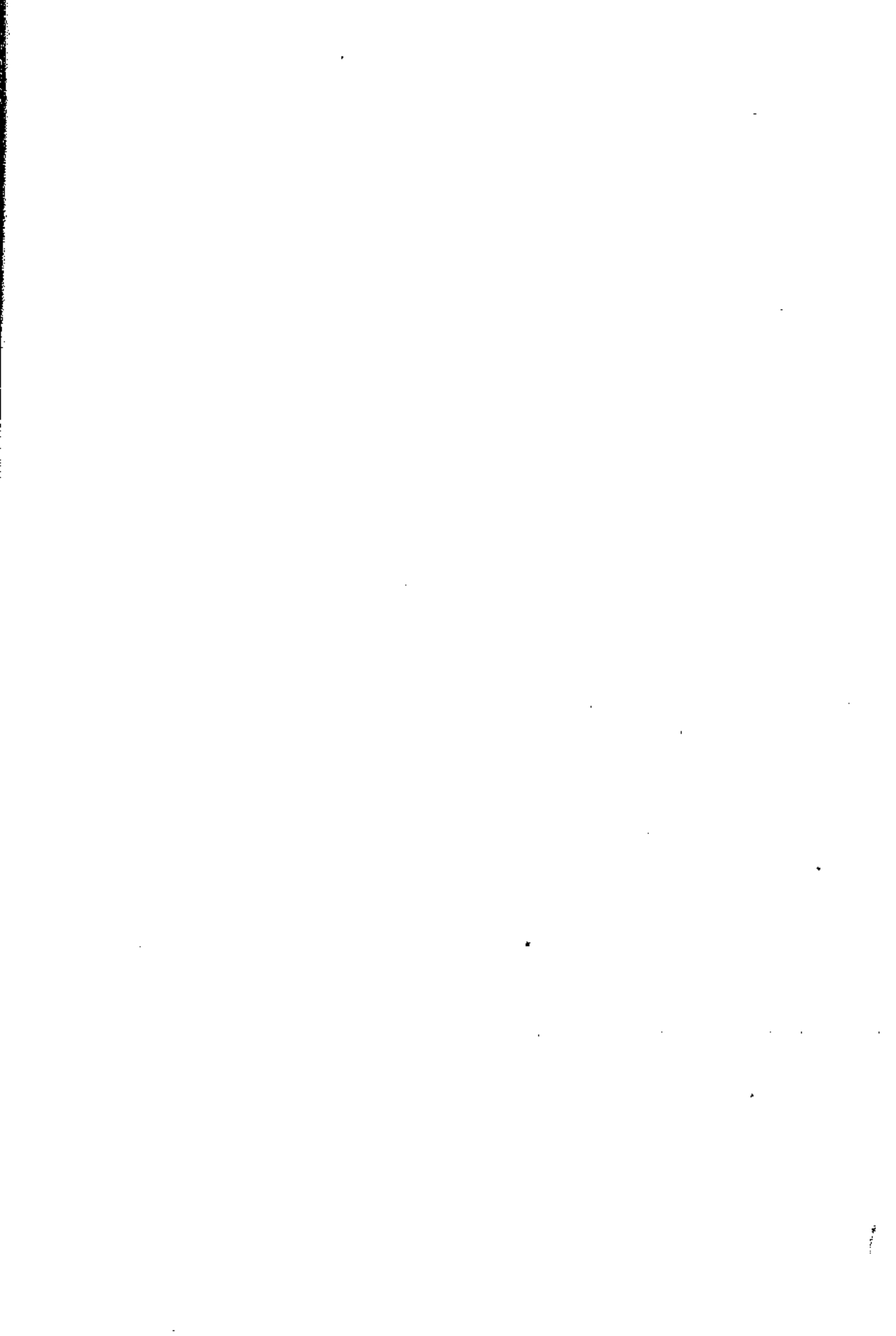
* * *

وبعد فمالى أنا ومازن وهوازن وبكر ووائل؟؟ أين منى مازن وأين أنا منها؟؟ إنه لا شأن لى بها، وما أعرف إلى هذه الساعة من أين جاء أبى أو أبوه أو جده باسمه هذا، ولكنى على ذلك كلما أخذت عينى هذه الحروف رق لها قلبى، وأقبل عليها لبى، وهب على نفسى من ناحيتها نسيم، وذكرت قول العقاد من قصيدته المرقصة (كأس على ذكرى) :

أترى الأحرف فيه	غيرها فى الكلمات؟
أحرف من رقية الكها	ن أو شدو الصلاة
أحرف من نفحة الور	د ومن روح السبات
تنكر السحر وهذا	بعض أسرار اللغات؟

نعم هو ضرب من السحر من شاء غيرى فليعلله. أما أنا فلا أحب أن أغثى نفسى وأفسد إحساسها بوقعه، بالتعليل والتأويل.

المازنى



الشيخ شاويش الرجل

ذكريات[1]

رأيت فقيدنا المرحوم الشيخ شاويش أول ما رأيته، وأنا طالب فى المعلمين العليا، فلم أنسه بعدها، وكان الوقت وقت الامتحان الشفوى، وكان هو عضواً فى لجنة الامتحان فى اللغة العربية، وكان رئيسها المرحوم الشيخ حمزة فتح الله. فأسر إلى أحد زملائى أن الشيخ حمزة يجعل المقام الأول للصرف والنحو ويدير أسئلة كلها عليهما، وسألنى ما العمل؟ ولم نكن ندرس لا صرفا ولا نحواً إلا عرضاً ونحن ندرس أدب اللغة، فبدا لنا أن هذا ليس من العدل فى شيء واتفقنا على الاعتراض إذا صح ما قيل. ودعيت فدخلت وقد وطنت نفسى على الرسوب وانتويت المشاكسة. وناولنى الشيخ حمزة مقدمة ابن خلدون وقال: "اقرأ" ففعلت، ولم ألحن، ورأيت سرور الشيخ فاطمأنت نفسى. وتعلق من ألفاظ العبارة بكلمة العدوان وعدا ويعدو، حتى وصلنا إلى "اعتدى" والجو رخاء و"اعتديا" بفتح الدال و"اعتديا" بكسرها للأمر، فسأل الشيخ: "لماذا تفتح فى الأولى وتكسر فى الثانية؟" فلم أدر كيف أجيب. فأعاد السؤال فقلت وقد قنطت من توقى المشادة: "هكذا نطق العرب بهما" .

قال "ولكن لماذا؟"

---

(١) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢ فبراير من سنة ١٩٢٩ (ص ١٠). والشيخ عبد العزيز شاويش (أو جاويش) من مواليد الإسكندرية عام ١٨٧٦، تخرج فى الأزهر وعمل خارج مصر، ثم رجع إليها ليعمل مع مصطفى كامل: ثم رأس تحرير "اللواء" جريدة الحزب الوطنى سنة ١٩٠٨م، كما شارك فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٧ . والمقالة كتبت بمناسبة وفاته فى القاهرة عام ١٩٢٩م .

فأدرت عيني في أعضاء اللجنة معاتبا ثم قلت: "إن اللغة وجدت قبل أن يوجد النحو والصرف، هكذا نطق العرب، وأنا أنطق كما كانوا يفعلون، ولا أعنى نفسى بلم ولماذا وكيف كان ذلك" .

فغضب الشيخ وألح، فلم أتزحزح عن موقفي وركبت رأسي، وإذا بالشيخ شاويش يخرج ساعته وينظر إليها ثم يلتفت ويقول للشيخ حمزة: "الصلاة يا أستاذ. كاد العصر يفوتك". فنهض الشيخ وهو يقول: "أي والله" وتركنا .

وقال الشيخ شاويش: "والآن يجب أن تكون أهدأ. ولننتقل إلى الأدب" .

وقبل أن يعود الشيخ حمزة كنت قد فرغت من الامتحان وخرجت واثقا من النجاح بفضل ما أبداه الشيخ شاويش من الكياسة والعطف. وفي العام التالي مات مصطفى كامل واستقال الشيخ شاويش وتولى تحرير اللواء فكانت لذلك ضجة .

* * *

وصرت مدرس ترجمة في المدرسة السعيدية الثانوية، فقادتني رجلاى يومًا إلى "اللواء"، واستأذنت على الشيخ شاويش وكان معه خلق كثير فمال إليَّ يسألني أن "نعم؟" فقلت: "الشأن خاص فبعد أن يخرجوا إذا سمحت"، فنهض ومضى بي إلى غرفة أخرى فأعربت له عن ضيق صدري بالتدريس ورغبتي في تركه وشوقي إلى الاشتغال بالصحافة، ورجوت منه أن يشير على بما يراه. فراح يسألني فعلم مني أني مكب على الأدب من عربي وغربي. فذهبنا نتذاكر حديث الكتب ثم فرك كفيه وقال: "يا سي عبد القادر لا تسئ إلى نفسك. اصرف عنها هذا السوء الذي تحدثك به. ولو كانت البلاد حرة كما نرجو أن تصير، ولو كانت أنفاسها خالصة وصدرها لا تجثم عليه كل هذه الكوابيس لما ترددت في تشجيعك. ولكنك لا تزال شابًا لين العظام وعلى كتفيك حمل ثقيل، وأنا أخاف عليك من أعاصير هذه الحياة المضطربة .

قلت : "إن للحرية ثمنها"

قال : "هذا صحيح. ولكني مع ذلك أنصح لك بالتريث" .

قلت : "ألا تراني صالحًا لما أطلب كفؤًا لما أنشد؟" .

قال : "ليس هذا. ولكني أخشى أن تكون أشرف من أن تصلح لحياة كل ما فيها فاسد عفن" .

ثم أرسل لحظه في الفضاء وقال كالذي يحدث نفسه: "إن الشباب عجيب. يعيش أبداً في عالمه وحده – عالم غاص بالأشباح والخيالات، يريق عليه المجد الغرار ضوءه، وله أحلامه ومطامعه، ومن القسوة أن يحرم هذه الأحلام التي لا تتكرر؛ ولكن أقسى من ذلك أن تفتح العيون على الحقائق الأرضية دفعة واحدة". ثم التفت إليّ وقال: "يا سي عبدالقادر. ما أراك إلا فاعلاً ما بدا لك ولكنه ليس الآن. ابق مذخوراً لوقتك. أطعني فإنّي أكبر منك وأخبر" .

وقد كان. وبقيت مذخوراً لأسوأ وأروع من زمنه .

* * *

واتصلت أسبابي بعد ذلك بطائفة من مخالطيه فزدت به خبراً، وعرفت أن أكثر ما تصل إليه يده يذهب في سبيل المعوزين، وأن دائرة جهاده لا يحدها القطر المصري، وليس من حقي أن أنشر ما طواه الموت معه مما عرفته منه بعد أن خلطتني به الأيام. وعلى أنه ماذا يزيد هذا في معرفة الناس به؟ إن الروح التي يسير بها الإنسان في الحياة هي التي ينبغي أن تكون بها عنايتنا، لا مجال العمل وميادينه التي تعرض له. فإن هذا مما تخلقه المصادفة، ولو ظهر شكسبير في مجاهل إفريقية لغنى ثم مات ولم يشعر به العالم، ولكنه كان يغني على كل حال؛ ولو نبت نابليون في الصين لجعل الخطر الأصفر على الغرب حقيقة لا وهماً، ولكان زوبعة أيضًا ولكن في ناحية أخرى من العالم. فبحسب القراء أن يعلموا من أمر الشيخ شاويش أنه كان امرءًا لو شاء أن ينعم بالثراء ويقضي حياته في ترف لين لكان هذا من أيسر المطالب. ولقد كان في تركيا صاحب حول وطول وكانت له كلمة مسموعة ورأي مطاع، وكانت أمامه خزانة الدولة ينفق منها كيف شاء فيما يضطلع به من المهمات ويتولاه من المساعي، ومع ذلك

رحل إلى ألمانيا وليس معه قرش واحد واضطر في جملة ما اضطر إليه أن يحتطب في الغابات ليكسب رزقه ويقتات كأجهل عامل فقير، وكان رجلاً لا تهده المتاعب ولا تويسه الدسائس، فكان في تركيا ينام على ظهر جواده بين الثلوج المتراكمة فلا يكل، وكان ربما نجحت الوشاية به فيضطر أن يختفي في "بدروم" بيت أياما عديدة لا يذوق فيها أكثر من اللبن، ولم تتنقل الأحوال برجل كما انتقلت به: كانت كلمته عند أنور باشا لا ترد، ثم دارت الأيام ففر من تركيا فقيراً معدمًا لا يملك قوت يومه، وعاد إليها في عهدها الجديد فرفع مكانًا عاليًا حتى شاءت تركيا أن تنقلب دولة مدنية ففر منها أخرى، ولم ينج الا بجلده وبثوب واحد على بدنه، وكان في مصر قبل أن يهاجر، لا يفتأ يتنقل بين السجن والبيت، فهذا وذاك له منزل؛ واحتفل به الشعب مرة وأهدى إليه "وسام الشعب" وجر مركبته بدلا من الجياد، فلما آب من تركيا للمرة الأخيرة ورشح نفسه لمجلس النواب حَصَبَتْه العامة في الإسكندرية بالحجارة وألجأوه إلى المسجد العباسي. وما أهون ما يصيب المرء ممن لا يفهم، ولكن شر ما لقي وأوجع ما حز في نفسه أن يزعم من لا عذر لهم من جهل أو قلة فهم أنه عاد إلى مصر على طيارة إنجليزية. والله يعلم، وأنا أيضاً أعلم، وكثيرون غيري يعلمون، كيف جاء وماذا كابد في سبيل العود .

ولازمنا في "الأخبار" بعد أوبته، وجاهد عبثاً أن يبدلها من الضيق سعة، وأن يقيلها من عثرتها المالية فلم يوفق لأكثر من سبب واحد، وكان هذا الرجل المحنك الذي ترك في كل واد أثرًا من الإصلاح، وربما كتب المقال ودفع به إليَّ، أنا الذي لا يعد نفسه إلا في مرتبة أبنائه، قبل أن يبعث به إلى المرحوم أمين بك الرافعي، فيبدو لي وجه اعتراض أفضي به إليه، فيبتسم ويقول: "صدقت. إنَّ عذري أنيّ كالغريب". ويمزق الورقات غير آسف ولا مستنكف. وكنت أراه يهم بأن يكتب فأشير عليه بالعدول لسبب أبسطه له، فيلقي بالقلم ويرفع كفيه داعياً أن يرفع الله الغمة وينيم الفتنة. وكان تواضعه هذا يروعني ويسحرني لأنه أدل على سمو النفس وبساطتها وسعة الروح وسماحتها، ولو غيره ممن له مثل علمه وفضله وسابقته وتجاربه وسنه لأبى واستكبر .

وكان يدهشنى منه أن عقله لا يكف عن التفكير في عمل صالح من مثل مدرسة يريد أن ينشئها على أسلوب طريف يجمع بين العلم والعمل، أو معهد أو جمعية خيرية، ولم يكن يصرفه عن مداومة التفكير في هذا وما إليه أنه هو لا يكاد يجد القوت إلا كفافا، وأنه عائش لا يدرى كيف، وكم جرنى معه فرحنا نزور البيوت الخالية لنرى أتصلح أم لا تصلح أن تكون مدارس - مدارس بصيغة الجمع لا مدرسة واحدة - وكنت أسأل عن المال اللازم من أين يظن أن في وسعه أن يجيء به فيقول: "لا تثبطنى، المال نفكر فيه في آن الحاجة إليه، وعلى أن حاجتنا منه إلى القليل، ولن نعدم وسيلة"، فأهز رأسى فيقول: "أيائس أنت من الناس إلى هذا الحد؟" ثم يشرع يشرح في مشروعاته وقلة تكاليفها فأسكت وأحس أن من الجناية أن ألقى ترابًا على هذه النار وإنى لأعلم أنها تأكله، غير إنى أعلم مع ذلك أن إطعامها نفسه هو كل عزائه .

* * *

وتغديت معه مرة في الإسكندرية، فلما قمنا عن الطعام مال إلىّ وقال: "أتدرى يا سيد عبد القادر أني أكلت من هذه الدجاجة الصغيرة وأنا متألم ؟"

فقلت "ألا يوافقك الدجاج؟"

قال : "ليس هذا ما أعنى، إنما يؤلمنى أن تختصر حياة هذه الدجاجة قبل أن تستوفى حظها من الحياة؛ قبل أن تأخذ نصيبها من الشمس والحرية" .

فقلت : "إنك يا أستاذ تغالى بالشباب، أنت مثلا شاب وإن كنت قد جزت الخمسين - أعنى شاب النفس، وقد تجد - حين تبلغ الثمانين - الدنيا كلها أمامك محتاجة إلى مثل يدك المُصلِحة وقلبك العطوف وروحك المتأججة، وقد يسمعك الناس تقول حين تحس - وأنت في التسعين - يدنو الأجل أن أمامك عملاً كثيراً وأن الطريق قد أخذ عليك كهذه الدجاجة التى ترثى لها" .

فابتسم وقال : "وأنت؟"

قلت : "لقد هرمت نفسى قبل أن أبلغ العشرين"

وقرأ لي في "حصاد الهشيم" مقالاً عن النجاح فقال إنك "مر النفس"؛ ورحنا مع ذلك نتحدث عن الخلائق التي تعين على النجاح المادي فسألته :

"هل تعرف كم قرشاً في جيبك؟"

فضحك وقال: "لا والله"

قلت: "جرب التخمين لترى"

قال وهو يبتسم : "لا تفضحني"

فقلت : "لست خيراً منك" وأمسكت.

وحذرته يوماً من رجل سوء رأيته يطمئن إليه ويأتمنه، فلم يحذر، لأن الاسترابة بالناس لم تكن من خلائقه، فقلت له مشفقًا من عواقب هذه البساطة: "إنك سريع التصديق وأطيب قلباً مما ينبغي. وعندك أن في نفس كل إنسان عنصراً ملائكيًا وإن العطف والثقة تظهرانه، فاسمح لي أن أقول لك أنك تجلس على أعلى ربوة من الوهم وستنهار الربوة يوماً فتقع وتؤذي نفسك" .

فلم يزد على أن قال: "إنك سيئ الظن بالناس فلا أسمع لك" .

وكان رحمة الله بطبيعته رجلاً حالماً؛ وبإرادته رجل عمل، وكان تعادل هاتين القوتين هو الذي يبقيه متزنًا، وقد تغلب إرادته أحلامه فيعمل بسرعة وبإحكام، وقد تظفر طبيعته بإرادته فتراه انقلب أشبه شيء بالشاعر يفكر في عطف وحنو في كل ما في الدنيا من شقاء لا يقوى وحده على محوه أو تخفيف وطأته. وقد عاش عمره هكذا، موزعاً بين طبيعته وإرادته، يعمل طوراً ويحلم تارة، ولم تكن أعماله على جلالتها وبعد مداها، بأعظم من أحلامه. ولو أني سئلت "في أيهما كان أعظم" لكان جوابي أن أحلامه كانت عندي أبهر وأجل، فقد كانت أحلام نفس شفافة حساسة تعرف الدنيا وتزهد فيها ولا ترى الفرد إلا في الجماعة، وكانت أحلامه من القوة بحيث كانت تريه كل ما يحلم به واقعًا، ومن هنا لم تكن إرادته تحفل بالعوائق أو تكترث بالمصاعب. فلولا أحلامه الواسعة ما كانت إرادته وأعماله .

وقد اشتهر بين الناس بقوة عاطفته الدينية، وعلة ذلك أن هذه الناحية أبرز للخلق من سواها، غير أن الذين عرفوه عن كثب يعرفون أن كل عواطفه كانت قوية مشبوبة على السواء، فلم يكن أقل تحمساً للتعليم منه للدين، ولا عطفه على المساكين بأضعف من غيرته على دينه، ولكن نشأته الأولى وظروف حياته أبرزت منه جانب الدين كما لم تبرز غيره. ومن المصيبة أن يكون المرء كبيراً ظاهراً، ذلك أن ناحية منه لا تلبث أن تخرج إلى النور فتتعلق بها العيون ولا تعود [...][٢] .

إبراهيم عبد القادر المازني

(٢) هنا توجد كلمتان غير واضحتان فى الأصل المتاح ويمكن أن يكونا: [ترى سواها] (المحرر) .



صور وأخلاق

أمس واليوم[1]

إذا أردت أن تستبقى ود صاحبك فلا تعاتبه. فإن العتاب مفسدة لأنه يشعر صديقك بأن لك عليه حقا - وليس أثقل من أداء الحقوق - وبأن لحريته حدودا، والحدود قيود تعرق وتحز. والخير في الجملة أن تقبل صاحبك على علاته وأن تغضى عن هانه، وأن تذكر أنك لست خيراً منه ولا أبرأ من العيوب - هذا أجلب للراحة وأنفى للمتاعب .

ولست أشير إلا بما علمتنى الأيام. فقد كنت فى زمان الصبى والجهل لا أطيق خلافا ولا أصبر على زلة، وكأنما كان من همى أن أفرض نفسي على أصحابى وأذكر أنى كنت مرة سائراً مع صديق عليه رحمة الله فذكر لي خطبة ألقيتها فى جمعية كانت لنا فجاء في كلامه أنى "تلوت" الخطبة، فقلت كلا بل ألقيتها - ولم يكن ثمة فرق فإن إلقاءها محفوظة مثل تلاوتها من ورقة، ولكنى يومئذ أبت لى الحماقة إلا تجسيم هذا الخلاف فتركته وسرت وحدي. وقد سقت هذه الحكاية لتقيس عليها ولتعلم أن علاقاتى بإخوانى كانت مناوشات مستمرة. فالآن لو لطمنى رجل على خد لأدرت له الخد الثانى ولعددت نفسى سعيداً بأن وسعنى أن أكون أوسع صدراً وأسكن طائراً، وأرى صديقى مع عداتى فلا أحفل ويسيء إلىَّ من أحسن إليه فلا ألوم ولا أعتب، وكنت أفتح عينى فلا أرى إلا عيوب الخلق فاليوم أغضها وأذهب أديرها فى نفسى باحثًا عن عيوبى أنا. وأجد فى ذلك من الروح والراحة ما لا عهد لى به أيام التمرد والحماقة .

---

(١) نشرت فى مجلة "الجديد" فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٩ (ص٤) .

وأني لأراني أتقبض عن الناس شيئًا فشيئًا وأتراجع عن الدنيا خطوة خطوة وألوذ من نفسي بمثل الكهف على شاهق من الجبال، لا تدب إليه الرجل ولا تموج على بابه الحياة، وكم وجدتني أتمنى لو أتيح لي أن ألجأ إلى كهف حقيقي ينحسر عنه ودونه عباب العيش ولا تضطرب حوله إلا الرياح – لا زهدا فما أعرفني زاهدا في شيء أو متفترا عن الدنيا وإني لأشتهي كل متعة وأشتاق كل لذة، ولكن إلى جانب ذلك مللا يصدف بي ويصدني عن ملابسة الحياة في مظاهرها المشتهاة، كالتعب الذي يعتري المحارب من طول الكفاح .

ومن أجل هذا صرت أفهم كل شيء على نحو يهونه عليَّ ويفل من غرب وقعه، حتى الجمال لا أراني أسحر به إلا ريثما أقلب معناه وأخيل فضلاً منى أنا لا مزية للجميل. وقد يكون أعون على إيضاح ذلك أن أورد للقارئ أبياتًا نظمتها لا أذكر متى فما أقول شعرا في هذه الأيام. والأبيات من قصيدة طويلة[٢] وهي :

تبا لذلك من حسن ! ووا أسفًا	عليه من مستعار ثم مردود
عطية الحب هذا الحسن فاتئدى	ولا تتيهي بحبى وهو مجهودى
ولست أهلا لا متاع برونقه	إن راح معناى فيه غير موجود
إن الرياض رياض بالشعور بها	ولسن سيين في العمران والبيد
والحسن حسن بأن تهواه أفئدة	أو لا فذلك موجود كمفقود
فمن أحب فقد أهوى لصاحبه	حسنا ، وسربله سربال منشود
وليس فضلك إلا أن لي كبدا	تهوى إليك بأسرارى ومشهودى

ولم أكن في عنفوان الشباب أزعم ما أزعمه اليوم من أن الحسن منحة من الحب، وعطية المحب للمحبوب، وأن التيه بالجمال تيه بالحب الذي هو مجهود العاشق وأنه إذا خلا من معنى المحب فليس فيه متعة لصاحبه ولا رونق يعتز به، وأن الحسن لا يعد حسنا إلا إذا عشقه عاشق وهكذا إلى آخر ذلك .

---

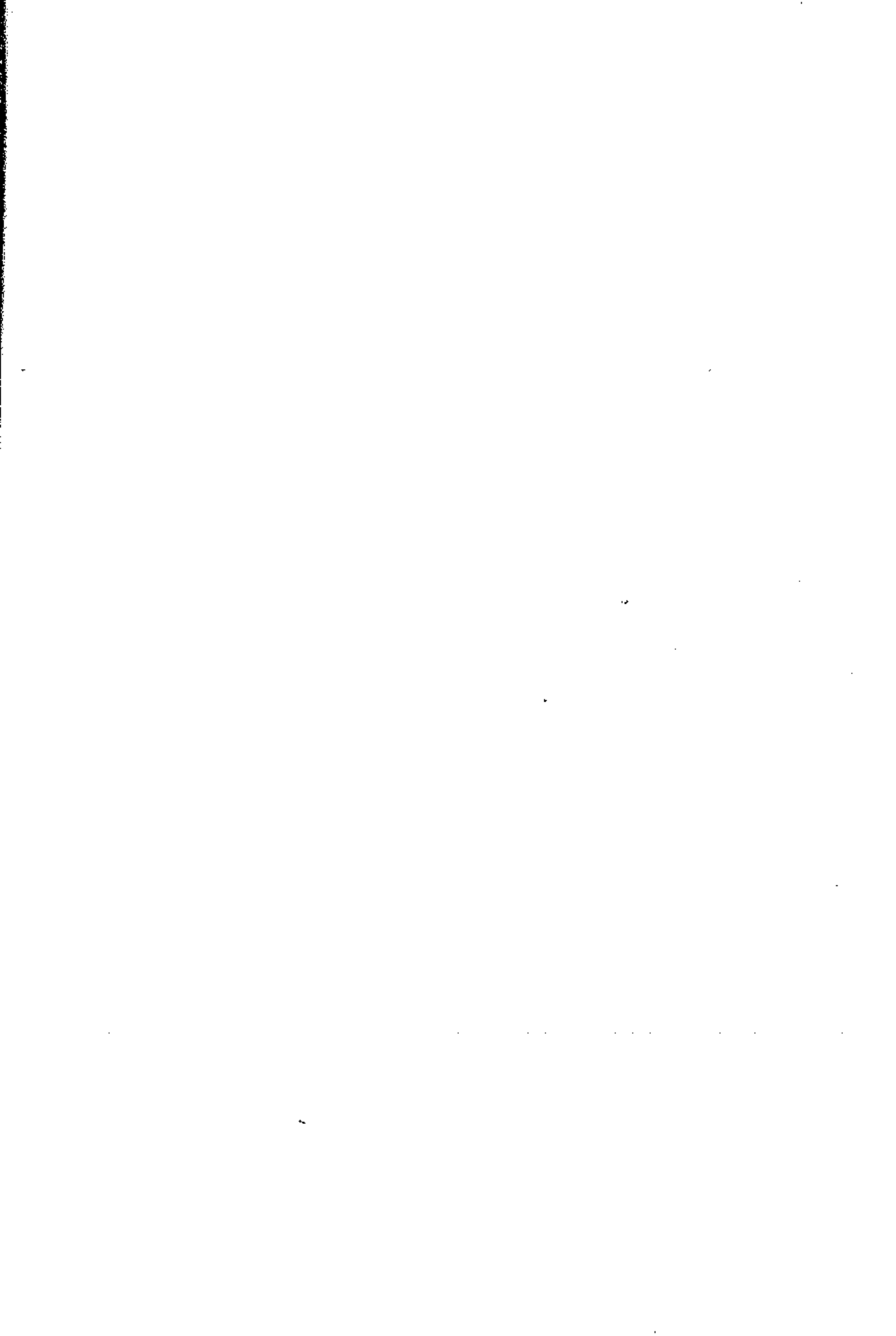
(٢) غير موجودة في ديوان المازني المطبوع .

بل صـرت أثب إلى خـاتمة كل شيء ونهـاية كل أمـر وأطمـئن إليـه وأنسى فـيهـا الحاضر بكل ما ينطوى عليه من المعانى المرضية والمسخطة فأقول :

أرى رونق الحسناء فى ميعة الصبى	فـيـوضـع بى شـؤم الخيـال ويعنق
ويشـهـدنيهـا فى الـتـراب مـرمة	وقـد غالـهـا غـول الحـمـام الموفق

ستقول أنها مرارة نفس، فأقول صدقت، ولكن المرارة التى تفضى إلى مشارفة الحقائق الخالدة خير من اعتدال المزاج الذى يغرى بالسفاسف .

إبراهيم عبد القادر المازنى



صور وأخلاق

المال[1]

المال هو الفضيلة والرذيلة، وهو الخير والشر، وهو كل ما في هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخطه، وتجله وتحقره وتفرح به وتحزن له، والناس بالمال، والرجل بلا مال لا رجل ولا شيء له حساب أو قدر، ومن كان يرتاب في أن الأمر كذلك أو لا يصدقه فما عليه إلا أن يتصور الدنيا - إذا استطاع - وقد خلت من المال، فكيف يراها تكون؟؟ وإلى أي حال يرتد الناس؟ وعلى أي قاعدة من الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم؟؟ وعلى أنه لا حاجة بأحد إلى إرهاق النفس وتكليفها أن تتصور هذا الذي يستعصى على الخيال، وبحسب من شاء أن يفكر في أية خلة من خلال الخير أو الشر وفي ارتباط المال بها وأثره فيها. فإنه حقيق أن ينتهي به التأمل إلى الإيقان بأن الذي اخترع النقود، يوشك أن يكون هو الذي أتاح للفضائل والرذائل ولخلال الخير والشر، فرصة "التسمي" وأعانها على البروز بعد أن هيأ لها أن تعرف بأسمائها ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعواطفها، ولكنه هو الذي أكدها وأظهر الكامن منها، وأقام المعالم، ورسم الحدود، وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع .

وأذكر على سبيل التمثيل أن أحد المشترعين من الأغارقة الأقدمين فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفعله في عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى الذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تسك من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تتخذ العملة

(١) نشرت في مجلة "الجديد" في ٢٥ مارس سنة ١٩٢٩ (ص٤) .

من الحديد، وجعل القيم خسيسة، فكانت القطعة الضخمة التى يعيى بحمل ثلاث أو أربع منها الرجلُ القوى، لا تساوى شيئًا يستحق الذكر، فكان أن كف الناس عن إدخار المال لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطع صغيرة من الذهب، وانصرفوا عن البذخ والترف فى معيشتهم إذ كان الحديد لا يشترى شيئا، ولم يبق هناك ما يستحق أن يسرق، فبطل التلصص وانقطع السطو وما إليه وزال التحاسد لأن الغنى والفقر صارا اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، وقفت التجارة فى حدود البلاد ومع ما وراءها – وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها، إذا وسعه أن يهتدى إلى ألوانها .

وقد اتخذت النقود أو ما إليها فى أول الأمر وسيلة لتسهيل المبادلة والمقايضة ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، ولكنها صارت تطلب لذاتها وتجمع وتدخر رغبة فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة، فتسابق الناس إليها وتهالكوا عليها وانقلبت غرضا يطلب ويسعى له وإن كانت قد ظلت مع ذلك "وسيلة" إلى ما وراءها مما تعين عليه، وهذا التهالك العنيف على المال واقتنائه هو الذى أظهر الكامن فى النفس الإنسانية، وكشف عن المستور، ودفع به إلى السطح، وأطفاه على اللُّجَّةِ، والمرء فى سكونه غيره حين يهتاجه شيء، كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة، حتى إذا جاش وازبد قذف بما فى جوفه من طيب وخبيث .

فالمال داء الإنسانية وليس له مع الأسف دواء ولا منه شفاء، وأحس ما يكون المرء بذلك حين تصفر كفه وتسد الآفاق فى وجهه .

إبراهيم عبد القادر المازنى

طينة الأرض[1]

أعتقد أن رأيي أن الفضائل والرذائل مرجعها في الأغلب والأعم إلى الظروف والعادة، وأقول "أعتقد" لأنه كثيراً ما يتبين المرء أنه يجهل نفسه، ولا يعرف حقيقة ما تنطوي عليه من الآراء، وقد يعن للإنسان رأي عارض فيتوهم لحظة أن هذا هو الذي انتهى إليه تفكيره الهادئ، ثم يتضح أنه ليس سوى نتيجة صدمة أو رد فعل لحالة نفسية طارئة غير باقية .

وأذكر أني مرة – منذ عشرين سنة – عثرت على محفظة فيها ثلاثون جنيها، وكان ذلك في أول الشهر وكان معي صاحب لي، ولا أكتم القارئ أني ترددت فيما يجب على أن أصنعه، فملت إلى صاحبي أسأله عن رأيه؟ فقال مازحا "خذها ولا تخف" ولكني خفت ولم آخذها، ذلك أني كنت في أول الشهر وكان مرتبي لا يزال معي فكان في وسعي أن أتزهد وأن أقنع، ولم أشعر بإلحاح الحاجة، ولا شك أن وجود هذا الصاحب كان عاملا كبيراً في حملي على التعفف، ولا يغضب صديقي إذا قرأ قولي الآن أني أسأت به الظن وأشفقت أن يذهب يثرثر إلى إخوانه وأن لا يستطيع ضبط لسانه، وأصارح القراء فأعترف بأنه خطر لي أن صاحبي ربما كان يشتهي أن يقاسمني هذه اللقية وأنه خليق إذا ضننت عليه بنصيب منها أن يشنع علي ويفضحني بين الناس. يضاف إلى ذلك أن هذه كانت أول مرة وجدت فيها مالا في طريقي .

والآن فلنفرض أني كنت قد وجدت ثلاثة آلاف جنيه أو ثلاثين ألفًا لا ثلاثين فقط، وأني كنت وحدي وأنه ما من إنسان يراني وأنا أنحني على الأرض وأمد كفي وأتناولها

---

(١) نشرت في مجلة "مصر الحديثة المصورة" في ٢٨ مايو سنة ١٩٣٠ (ص٦-٧) .

ثم أدسها في جيبي، ولنفرض إلى جانب ذلك أني كنت في شدة أو ضيق، فماذا كنت خليقًا أن أصنع؟ ليكن رأي القراء ما يشاءون، فإن رأيي أنا أني كنت حقيقًا أن أفرح وأن أحتفظ بما وجدت وأن أعده حقًا لي .

ولست أعبأ شيئًا بما يقوله المتفلسفون والمتحذلقون، وكل ما أعرفه أن الإنسان إنسان وأن الواقع في الحياة غير المسطور في الكتب، ولست شريرًا ولا امرؤ سوء، وما سرقت في حياتي مرة، ولا مددت يدي إلى مال أحد من خلق الله، ولا نازعتني نفسي أن أخطف أو أغصب شيئًا لغيري، غير أني مع ذلك أعلم من نفسي أني كثيرًا ما تمنيت أن أجد في طريقي مالا ملقى، ولو أني وجدت حينئذ ذاك الذي أتمناه لما كان هناك شك في أني مستول عليه لا محالة. ولقد حاول غير واحد أن يرشوني، ولكنهم كانوا يعرضون عليّ مقادير تافهة لا أحس بها إغراءً ولا أشعر لها بفتنة، وما خمسة جنيهات أو عشرة أو عشرون؟؟ أي رجل له كرامة ومنزلة يرضى أن يبيع ذمته بمثل هذه المقادير؟ إن مبلغًا كهذا لا يكفي للتغلب على جبن العادة، ولا يكفي ثمنًا للجهد الذي يبذله المرء لإقناع نفسه بأن ما يقبله ليس رشوة بل هدية أو جزاء يستحقه ولا مؤاخذة عليه، ولو كان المبلغ ألفًا أو آلافًا كافية لانقلب الجبن شجاعة، ولاجترأ القلب، ولحضرت الحجج التي يقنع بها الإنسان عقله أو يغالط بها نفسه .

والحقيقة هي أن لكل ذمة ثمنها، فهناك ذمم لا تساوي أكثر من قروش، وثم أخرى غالية جدًا، لأن نشأة أصحابها وظروفهم لا تسمح بالزهيد من القيمة، وليست العبرة بالغنى أو الفقر، فيا رب غني يسبح في المال هو أرخص ذمة من الفقير المعدم، وما من إنسان إلا وهو يرشى، فواحد يرشى بالمال، وثان يرشى بالمدح والتملق، وثالث بالمعروف يصنعه صاحبه وهكذا، والمهم هو أن تكون الرشوة موافقة لمكان الحاجة إليها، ومن النوع الذي يلمس موضع الضعف في الإنسان، فإذا توفر هذان الشرطان فقد انتهى الأمر .

ولا يقل أحدٌ أن الإنسان خيّر بطبعه، فإنه لا خير ولا شرير، وإنما هو مخلوق لا حيلة له في نفسه، وقد جيء به إلى الدنيا على غير إرادته أو مشورته، وحمل بالوراثة

مـا لا سـبيل إلى الفكاك منه فـهو بدأ يمشـى فى الحـياة وعلى ظهـره مـا حـمله أبواه وأجـداده، وليت حـمله يكون على ظهره، إذًا لهـان، أو أمكن أن يطرحـه، ولكنه فى دمـه وفى كل ذرة مـن تكوينه، ثم هـو يربى وينشـأ على نحـو لا رأى لـه فـيـه، وتكتنفـه ظروف ليست مما أثار هو أو جلب أوجز أو كان السبب فيه .

ولا يحسب أحد أن الفضيلة وحدها هى التى تتطلب الشجاعة، فإن الرذيلة تحتاج إلى جرأة، ويكفى أن يفكر فيما ينقصـه من الجرأة اللازمة للكذب أو السرقة أو العدوان أو غير ذلك، ثم يصبح الأمر عادة بالمران والممارسة، وعلى أن كون الفضيلة تحتاج إلى شجاعة معناه ماذا؟؟ ما معنى أن يعف المرء عن فسوق أو كذب أو سطو أو ما شابه ذلك؟؟؟ أليس واضحًا أن المراد هو مغالبة النفس ومقاومة نزعاتها وردها عما تشتهى؟؟؟ وبعبارة أخرى أليس واضًحـا أن المرء حين يصـدف عمـا يغـريه إنمـا يقاوم نزعـة لهـا أصلها فى نفسه؟؟ مثال ذلك أن اشتهاء الرجل للمرأة والمرأة للرجل عاطفة جنسية فطر عليها الرجل والمرأة لغاية معينة هى حفظ النوع فى الأصل، ولكنه لو ترك كل رجل نفسه وأرسلها على سجيتها لفسد الأمـر واضطرب الحـال وفشـت الفوضى فى [...](٢) أو عدم ملائمة الظروف لمطاوعة الهوى أو غير ذلك من الأسباب. والمهم على كل حال، والذى يعنينا هنا، هـو أن كون المرء – رجلا كان أو امرأة – قد كبح نفسه وبدا للناس ولصاحبه أو صاحبته عفيفًا نزيهًا متجافيًا عن التنزى إلى المقابح – أو ما يعد من المقابح – ليس معنـاه أن نفسه لم تنـازعه ولم تلح بها الرغبـة فيما رد نفسه عنه والإشهاء له، وليست العبرة بالظـاهر الخادع وإنما هى بالباطن المزوى عن العيون ..

وبعد فما معنى هذا ؟

معناه أننا من طينة الأرض يا سيدى! "وأين عن طينتنا نعدى؟" كما يقول ابن الرومى ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

---

(٢) هنا سقـط من الأصل المتـاح ما يساوى سطر من عمود صحفى يمكن أن يكون هكذا : [المجتمع، وإنما يمنعه من هذا الخوف] (المحرر) .

الكتابة وثقلها[1]

قد أعرف لماذا أقرأ وما يستهوينى من الكتب ويغرينى بالإطلاع، فإن أقل ما فى ذلك أنه نقلة إلى عالم غير دنيانا الحافلة بالمنغصات المائجة بالمتعبات، ولكنى والله لا أدرى لماذا أكتب؟ ولست أرانى أفدت شيئًا ولا لى أمل فى شىء، وأحسبنى بين الكتاب الوحيد الذى يعيش بلا أمل جاد أو طمع مستحث، بل لعلى الكاتب الوحيد الذى يعتقد أن الدنيا لا تخسر شيئًا – وقد تكسب – إذا خلت رقعتها من الأدباء والشعراء. واعتقادى هذا فرع من أصل أعم وأشمل، هو أن الدنيا لا تنقص إذا قضت "الحياة" نفسها نحبها فلا إنسان ولا حياة ولا نبات، وقد غير زمن كنت فيه مجنونا كشيللى، فالآن صار جنونى بهوان الحياة وغرور الإنسان وعبث العيش كله، وما لقيت نعماء أو أصابنى ضراء إلا قلت كما قال سليمان ابن داود: "باطل الأباطيل، الكل باطل" حتى لقد هممت أن أسمى كتابا لى "باطل الأباطيل، كما سميت آخر "قبض الريح" وثالثا "حصاد الهشيم". فليس إيثارى لهذه الأسماء عن تواضع كما توهم البعض، بل عن نزوع إلى الاستخفاف حتى بالنفس، وعن شعور قوى بمرارة الهوان الذى أجده لهذه الحياة وكل مظاهرها .

وليس أبغض إلىّ من الكتابة، ولا أثقل على نفسى من تناول القلم، وما أعرفنى كتبت شيئا إلا بعد أن أعيى بالتهرب وأعجز عن الإفلات، وليس هذا لكسل، فإنى لا أطيق السكون. ومن أغرب ما يحدث أنى أرانى – كلما أردت الكتابة – أحاول قبل معاناتها أن أعزى نفسى بأحلام اليقظة، فأوى إلى فراشى وأستلقى عليه وأغمض

(١) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ (ص٣) .

جفني وأذهب أحضر إلى ذهني صوراً شتى من الحياة كما أشتهي أن تكون، على قدر ما يستطيع خيالي أن يلفق، ولا أزال كذلك حتى يغلبني النعاس أو ينهضني الشعور بالواجب، إذا كان الوقت أضيق من أن يتسع للأحلام، وفيما عدا ذلك لا أحب الأحلام ولا أؤثرها على الحقائق .

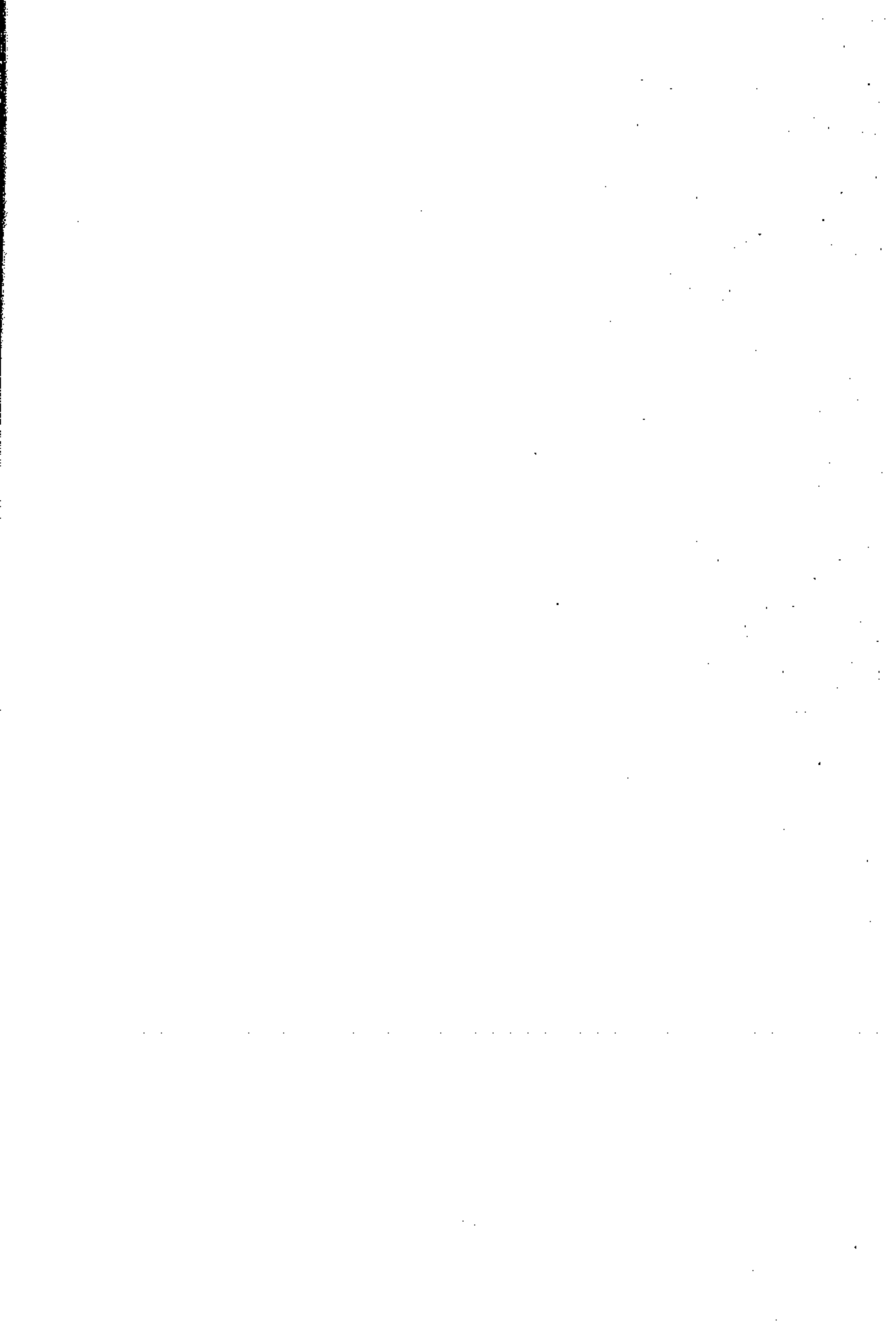
ولو كانت القدرة على اختيار الموضوع تسعفني لكنت حقيقًا – على الأرجح – أن أكون أنشط إلى الكتابة، ولكن اختيار الموضوع أشق علي وأشد عذابًا من الكتابة نفسها على فرط مقتي لها واستثقالي لمعاناتها. وأنا أحس – حين أعالج أن أهتدي إلى موضوع صالح للكتابة – كأن رأسي قد صار "قهوة برابرة" أعني مكانًا يكثر فيه اللغط وتشتد الضوضاء ولا يدري المرء كيف يفهم الناس بعضهم عن بعض، كذلك يكون رأسي، كل ما فيه ضجة عالية مرهقة تنتهي بالصداع والعدول عن الكتابة أو إرجائها إلى وقت آخر أحس فيه أني أصح وأكثر تهيئا لها .

والواقع – عندي على الأقل – أن نفسي لا تكون متهيئة للكتابة في كل وقت أو كلما أردت، ويخيل إليّ أن هناك أويقات تحس فيها النفس مثل نشوة الخمر، وهذا هو الذي أعنيه بالتهيؤ، وقد كنت أجرب ذلك أيام كنت أكتب وأنا في سراح ورواح – أعني لما كنت غير مطالب بالكتابة، أما الآن فقد صارت الكتابة صناعة، وعملا أؤديه وأنا كاره لتكرره يومًا بعد يوم بلا راحة أو استجمام. ولقد سألني بعضهم – في رسالة بعث بها إليَّ – لماذا لا أقول الشعر الآن، وليس لي من جواب عن ذلك سوى أن الصحافة هي التي قطعتني عنه، والصحافة تكسب الكاتب مرونة في الأسلوب وسرعة في الأداء. ولكنها تفسد عليه "فن" الكتابة، ولا سبيل إلى الاستغناء عن "الفن" في الشعر إذا أمكن الاستغناء عنه في كتابة الصحف – المصرية على الأقل – وأقول المصرية لأن الكاتب فيها مرهق، يضطلع بأكثر مما يجوّد معه العمل، وهي في بلادنا تغثي النفس وتقمع النشاط وتغري باليأس، لأن المرء يكون فيها كالذي يُضرب بالسياط، لا يحس الدنيا حوله، وإنما يحس العذاب الذي هو فيه .

أحسبني كففت عن الشعر أيضا لأني أعلى به عينا، أعني أني انتهيت إلى أنها إحدى اثنتين: فإمّا أن يقول المرء شعراً من أعلى طبقة وأما أن يريح نفسه ويريح الناس، فلا خير في غير الكلام الخالد على الدهر، وأنا أعرف بنفسي من أن يداخلني الغرور في شأنها، ولقد نظرت فيما قرضت من الشعر فهززت رأسي وقلت "هذا كلام فارغ، وأولى بي أن أعرف قدر نفسي، فلأقلع" ورميت ديواني، حتى ما أعرف أين هو الآن إذا كان لا يزال باقياً !

والشعر – على كونه إلهاماً – فن يسلس بالمرانة، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطرا واحدا. وحسنا فعلت، فما ينقص الدنيا الكلام الوسط فإنه فيها كثير بحمد الله ثم حمد الغرور الذي فطر عليه الإنسان.

إبراهيم عبد القادر المازني



خواطر عن الطفولة[1]

(خلاصة وجيزة لمحاضرة ألقيت فى الأسبوع الماضى بدار جمعية أصدقاء الكتاب المقدس)

اتفق لى مرة – مذ أعوام لا أذكر عددها – أن لقيت في دار الكتب المصرية الشاعر حافظ بك إبراهيم. فجرى بيننا ذكر ابن الرومى – وكنت يومئذ أنسخ ديوانه – فقال حافظ بك على عادته فى التواضع: إنه يعجب لهذا الشاعر كيف وسعه أن ينظم ثلاثمائة بيت فى مولود ليس له فى الدنيا شأن ولا عمل ولا أثر، على حين لا يستطيع هو – حافظ بك – إلا بالجهد الشديد أن ينظم بضع عشرات من الأبيات فى إنسان تام الرجولة مكتمل الحياة .

فعابثته اعتماداً منى على سعة صدره وحلمه وقلت له: إن هذا بعض الفرق بينه وبين ابن الرومى، ثم عدلت بالكلام إلى وجهه فقلت: إنى لا أرى فى هذا ما يدعو إلى العجب، وأن العكس هو الذى كان حقيقًا أن يكون مستغربًا، لأن الطفولة كلها استعداد، وهى حافلة بالاحتمالات، فمجال القول فيها ذو سعة، ومضطرب الكلام رحيب، أما الرجل الذى اكتملت حياته فمحدود بالدائرة التى كانت فيها مساعيه: فالشاعر محصور فى مجال معين ظاهر المعالم واضح الخطوط. وضربت له مثلاً فقلت إن الرقعة من الأرض الفضاء يسهل أن يتصور المرء مائة بيت مختلفة الطراز والهندسة، قائمة عليها، مشيدة فوقها؛ ولكنك لا تستطيع أن تركض خيالك على هذا النحو أمام البيت المبنى، لأن البناء التام الذى يواجهك يصد خيالك ويأخذ عليه مذهبه .

(١) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٠ (ص٤) .

وهذا فرق ما بين الطفل والرجل الناضج. فالطفولة كلها استعداد كامن ولا آخر لما تنطوى عليه من الاحتمالات، والرجل على العكس محدود بما صار إليه وما كان منه، وبما استبان من مبلغ قدرته واستعداده، والظاهر أبداً أقل روعة من الخفى المستور، ومجال الخيال مع المغيب أوسع منه مع البادى المكشوف، ويخطئ جداً من يتوهم أن المرء فى سريرة نفسه يلقى على الطفولة نظرة عطف، وقد يكون عطف المرء على نفسه لا على ما يجرى فى وهمه من ضعف الطفولة وعجزها وجهلها، وأعنى بعطف المرء على نفسه مالا بد أن يحسه حين يفكر فيما انتهى هو إليه من التحديد، بالقياس إلى حرية الطفولة وما تنطوى عليه من الاستعداد الكامن، أو حين يفكر فيما يستدبره من حياته بإزاء ما لا تزال الطفولة تستقبله .

والحياة قوامها عاملان: عامل النزوع إلى الحرية المطلقة فى الابتكار، وعامل الوراثة الكابح من جماح هذه الحرية لردها إلى حدودها المعقولة؛ ولو أن الحياة كانت تخرج صوراً معادة يطابق لاحقها سابقها ويتكرر أولها فى آخرها لكان استمرارها عبثًا لا طائل تحته، وإسرافا وسفهًا يستوجبان الحجر عليها، ولو أن كل صورة تخرجها الحياة كانت تجىء جديدة من كل وجه لا تتصل بالصورة التى سبقتها من أية ناحية ولا تلتقى معها فى نقطة؛ لفسد الأمر وصار فوضى؛ ولهذا كانت الصور التى تخرجها الحياة أشبه بأن تكون توليداً منها بأن تكون تجديداً محضًا؛ فكل صورة مستحدثة لها نسب عريق فى الصور السابقة؛ وكل طفل يخرج إلى الدنيا يتمثل فيه هذان العاملان اللذان أشرنا إليهما؛ فلو أن الحياة كانت مخلى بينها وبين ما تنزع إليه من الحرية المطلقة فى الابتكار لجاء شيئًا جديداً صرفًا لا يمت بأية صلة إلى آبائه، ولكن عامل الوراثة يقيد هذه الحرية ويكبح جمحتها فيصبح الطفل وهو ليس إلا خطوة أو بعض الخطوة فى سبيل التجديد؛ وهكذا فى كل شىء .

والإنسان فى شبابه لا يكاد يعنى بالطفولة أو يكترث لها أو ينثنى بالخاطر إليها؛ لأن حيويته لا تزال متدفقة وعبابها ما انفك زاخراً ، فليست به حاجة إلى التلفت إلى الوراء أو رد الفكر إلى صدر الأيام؛ وهو أشبه بالمصعد فى جبل كل همه أن يبلغ قمته ويتوقل إلى ذروته، وبحسبه ما هو فيه من مشاغل الإصعاد وملهيات التوقل، حتى إذا

انتهى إلى الذروة، وأشرف من فوقها على الانحدار الذى يتراءى له بعد أن أوفى على القمة، وتمثل له المصير الذى لا محيد عنه ولا مهرب منه، وارتسم فى ذهنه الآخر الذى سيهبط إليه من الناحية الأخرى التى كانت محجوبة عنه وهو مصعد فى الجبل - تلفتت عينه إلى الوراء، وتلبثت على معاهد شبابه وأيام فتوته، ثم تؤذنه الأيام بالانحدار فيهبط متلكئًا متلفتًا بقلبه بعد أن غاب عن عينه طريق شبابه ولم يبق منه إلا صوره المرتسمة فى ذهنه، ومن هنا كان الشاب قل أن يخطر الموت على باله، لأن حيويته الزاخرة لا تعينه على حسن تصور الموت الذى يمثل نضوب الحيوية، ومن هنا تلك الرجة التى تحسها نفس الشباب حين تصادف منظر الموت. ولكن الحيوية تفتر على الأيام ومع ارتفاع السن، ويجيء الكلال مع طول السعى ومشقة الإصعاد فى جبل الحياة، حتى إذا واجه المرء فى كهولته - وبعد الذى أصابه من النضوب والونى - مصيره الذى لا مفر منه، لم يستهوله كما يستهوله الشاب، والعادة تبليد، وأخلق بالمرء بعد أن يلازمه خاطر الموت الذى هو ملاقيه لا محالة، أن يأنس إليه ولا يعود يجدله تلك الفزعة القديمة .

وما أقسى ما تردنا الحياة إليها وتقسرنا على السكون إلى سنتها وتروضنا على الارتياح إلى ما نكره منها والرضى بما نتسخطه، فإن الشاب ليكون مفتونا بآماله مسحورًا بمساعيه ممعنا فى لجاجته فيما يخلق لنفسه من غايات وإذا بالحياة تعنف به وتدير له وجهه وتقيد عينه إلى ما طال انصرافه عنه، فيكاد يجمد الدم فى عروقه .

وقد كنت فى شبابى - كأكثر المسحورين - لا أكاد أنثنى بخاطرى إلى الطفولة أو أدرك معنى الأبوة، لأنى كنت مفتونا بالأدب الذى تبنيته ذاهلاً به عن البنوة والأبوة جميعا، ولم أكن أطيق أن أرى ابنى أو ألاعبه أو أسمع صوته، وكنت أحس أن وجوده معى أو وقوع عينى عليه أو سماعى صوته، يسرق مجهود ذهنى ويغتصب عنه ما لا حق له فيه. وإن لى الآن لطفلا صغيرا كما كان لى قبل عشرين عاما؛ ولكن المازنى الشاب قد ذهب وجاء غيره، كما قلت من قصيدة - أيام كنت لا أزال أقول الشعر من فرط غرورى :

إنى أرانى قد حلت، وانتسخت	مع الصبى سورة من السور
وصرت غيرى، فليس يعرفنى	- إذا رآنى - صباى ذو الطرر
ولو بدا لى، لبت أنكره	كأننى لم أكنه، فى عمرى
كأننا اثنان ليس يجمعنا	فى العيش، إلا تشبث الذكر
مات الفتى المازنى، ثم أتى	من مازن غيره على الأثر(٢)

وقد يكون الكتاب أو القلم فى يدى، فأرى ابنى مقبلاً علىَّ؛ فأدع ما أنا فيه غير متردد ولا آسف، وأمد له ذراعى وأفتح له صدرى، ويودى لو استطعت أن أشق قلبى لأبوئه حبته، ولشد ما يحز فى نفسى الألم إذا جنح إلى المعابثة وانصرف عن ذراعى الممدودتين أو آثر أمه أو أخاه بالعناق! والأدب الآن هو الذى يسرق مجهودى الذى ينبغى أن يكون وقفًا على ولدىّ، وإنى لأكره أن أصبح على غير وجهيهما أو أن أنام قبل أن أملأ ناظرى منهما، وقد يكون أحدهما نائما وأنا أقرأ أو أكتب، فلا أزال كل بضع دقائق أنهض إليه لأقبله ثم أعود إلى عملى مغتبطًا منشرح الصدر.

كذلك تردنا الحياة إليها.

وعندى أن شعور الأب نحو ابنته حقيق أن يكون أصفى من شعوره نحو ابنه، وأقول أنه حقيق أن يكون كذلك، لأنى لست على يقين منه إذ كنت لم أجربه، فقد أبت المقادير أن تكون لى بنت؛ أتملى بها وأنعم، ولكن هذا فيما يبدو لى هو وجه الصواب. فإن الابن هو خليفة أبيه، فلا يسع الأب إلا أن يحس فى أعمق أعماق نفسه أن عليه فى الوقت المناسب أن يخلى مكانه لابنه وأن يتنحى له عنه، وفى هذا غضاضة لا تخفى وإن خفى الشعور نفسه عن أكثر الناس أو ندر الالتفات إليه، ولكن البنت لا يمكن أن تثير فى النفس مثل هذا الإحساس، فعاطفة الأب نحوها جديرة بأن تكون أصفى، وحرية بأن تظل غير مشوبة بما يكدرها من ناحية هذا الخاطر، مهما بلغ من ضآلته أو فتوره أو احتجاجه أو قلة وروده على الذهن.

---

(٢) راجع ديوان المازنى، ج٣، ص٢٤٤؛ حيث يضع فى البيت الأخير كلمة "آخر" مكان "غيره" (المحرر).

ولا ينقص الطفل من الكبار العطف، ولكنما ينقصه منهم أن يفهموه، فإن العطف مكفول أو هو فى حكم المكفول، وقل من يفهم طبيعة الطفولة وحاجاتها وما تحتاج إليه من المعاونة. سألنى ابنى الكبير مرة - قبل أن يكبر - "يا بابا، هل أنت بابا؟" فزجرته جدته وعدت ذلك منه قلة أدب، وخالفتها وصرفتها من متابعة الزجر، لأن هذا الطفل لا يفهم من لفظ "بابا" معنى الأبوة الذى ندركه نحن الكبار، وإنما هو لفظ عودوه أن يطلقه على شخص معين وأن يدعوه به، ولو عودوه أن يسميه: "ماما" لفعل غير متحرج أو مدرك للخطأ .

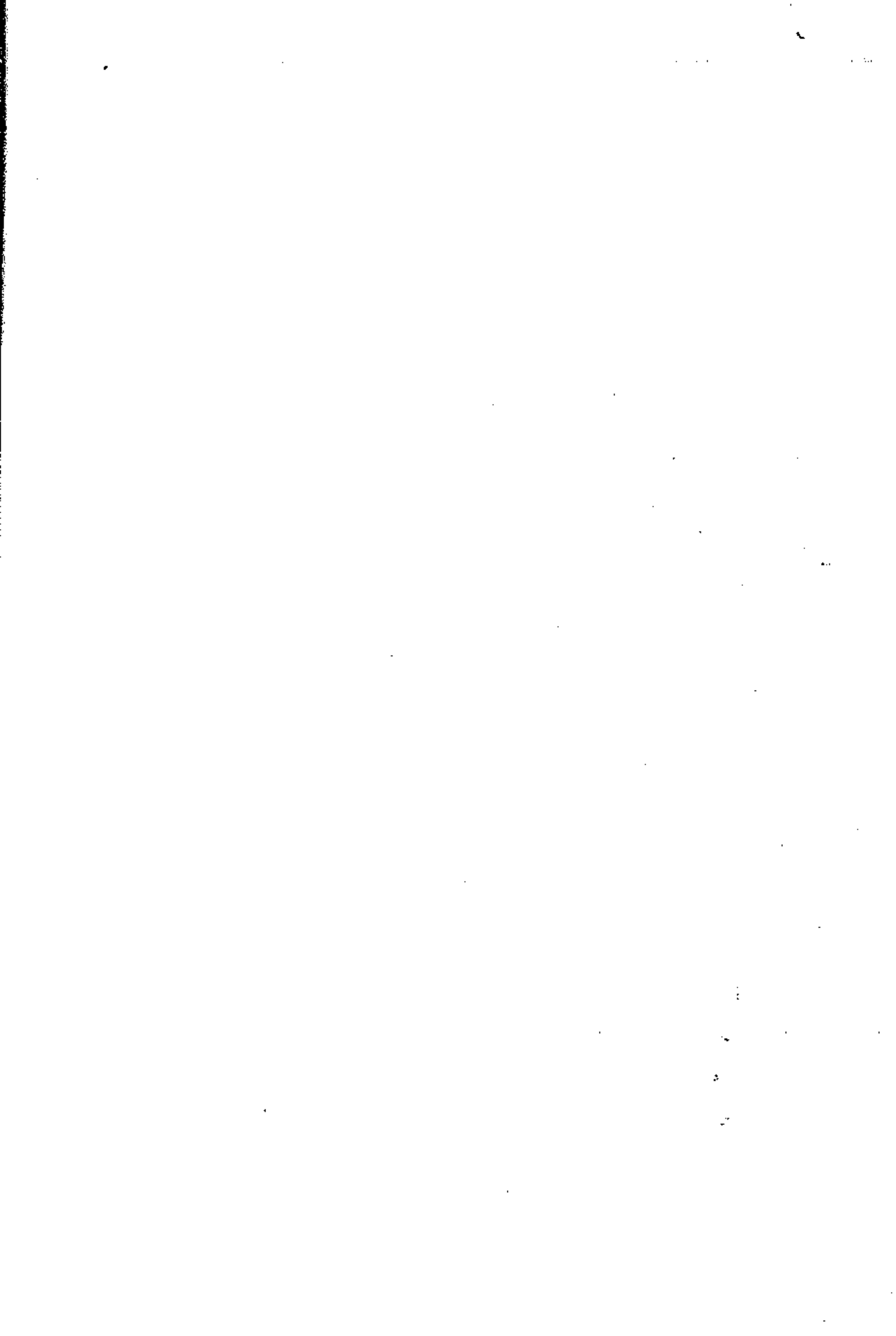
وسألنى مرة أمام بعض الكبار من أقربائه: "أليس الله قادراً على كل شىء؟"

قلت : "نعم"

فقال : "فهل يستطيع أن يخلق حجراً لا يقدر أن يحمله؟"

فثار به أقرباؤه وكفروه ودعوه أن يستغفر الله ويتوب إليه، وخالفتهم أيضًا وأنكرت منهم ثورتهم به، لأنه لم يصنع أكثر من أنه مر بهذا السؤال أو سمعه من أحد أنداده فى المدرسة فجاء يلقيه علىَّ مستفسراً باحثًا عن الحقيقة، أو على شر الاحتمالين، معابثًا لى مريغًا منى العجز عن الجواب؛ فبينت له وجه المغالطة فى السؤال وطريقة اللعب بالألفاظ؛ وأفهمته الخطأ الذى يقع فيه من يتصور أن الله شىء مادى، فاقتنع فما سمعت منه بعد ذلك ما يشى بعدم الاقتناع. إلخ إلخ .

إبراهيم عبد القادر المازنى



نظرية مقلوبة

أخلاق القوة وأخلاق الضعف[1]

سمعت بعض الخطباء في الحفلة[2] التي أقيمت لتكريم الأستاذ عبدالعزيز الثعالبي الزعيم التونسي المعروف، يقول بلا احتياط أو تحرز أن مصر لا تحتاج إلى جيش يحميها ولا إلى أسطول يذود عن حياضها ولا إلى غير ذلك من أسباب القوة المادية، وإنما حاجتها كلها إلى الأخلاق، ثم انطلق الخطيب يورد الصفات التي تنقص المصريين، ولا داعي لسردها هنا فإنها كل الخلال الحميدة .

وعندي أن هذه نظرية مقلوبة، وأن الأخذ بها خطر، ولست أعرف شيئًا هو أضر بأمة من الأمم من أن يظل خطباؤها يقومون في المحافل ويؤكدون أن شعبهم ينقصه كذا وكذا من الصفات التي تجعل الناس أكفاء للحياة ومطالبها؛ فإن هذا مآله أن يتقرر الاعتقاد في النفوس أن الأمر كما يصف هؤلاء الخطباء وأن الحقيقة هي ما ذكروا. وخليق بالناس إذ يسمعون ويقرءون كل يوم أن الأمة ضعيفة الأخلاق مفتقرة إلى الشجاعة والنزاهة وغير ذلك مما يبدئون فيه ويعيدون - أن يقتنعوا على الأيام بأنهم كذلك. ولهذا الاعتقاد أثره الطبيعي الذي لا مفر منه، وهو أن يجيء سلوكهم بعد ذلك مطابقًا لما شاع في نفوسهم الإيمان به؛ وليس في هذا مبالغة، فإن فعل الإيحاء معروف، وما نتهم الخطباء بأنهم يقصدون إلى الإيحاء، ولكنما نتهم الذين ينسجون

---

(١) نشرت في "السياسة الأسبوعية" في ١٧ يناير سنة ١٩٣٠ (ص٧) .

(٢) هي الحفلة التي أقامها زميلنا الأستاذ محمد أفندي علي الطاهر صاحب جريدة الشورى في ٢ يناير (المازني) .

على هذا المنوال؛ بما هو شر من تعمد الإيحاء، ونعني به الجهل؛ ومن أمثلة فعل الإيحاء ما يحدث في التنويم المغناطيسي؛ إذ يوحي المنومُ إلى النائم الفكرة فيتخذ كل مظاهرها، كأن يقول له: "إنك جندي" فيعتدل النائم ويقف كالرمح ويخطو خطوة الجندي، أو يقدم له ماء ويقول له اشرب هذا النبيذ، فيجد له طعمه ويحس إسكاره، بل يحدث ما هو أبعث على الدهشة من ذلك؛ إذ يوحي المنوم إلى صاحبه النائم أنه امرأة، فيلين وتصدر عنه حركات الأنثى، ويروح يرقق صوته إلى آخر ذلك .

وتأثير الإيحاء في النائم سريع، وهو في الأمم بطيء ولكنه محقق، والنتيجة واحدة، لأن المهم والذي عليها المعول هو أن يشيع في النفس ويتقرر فيها الاعتقاد بأمر أو حالة ما. ويقيني أن الذي يؤمن في أعمق أعماق نفسه بأن عمره طويل يكتسب من المناعة والقدرة على مبالغة أسباب الضعف ما يمتد به أجله، والعكس بالعكس، وأذكر أني قرأت في معنى ذلك قصة قصيرة لا أذكر اسمها ولا اسم كاتبها، ومحورها أن رجلا يعيش في أفريقية الشمالية وأن الشائع أن له من العمر مئات من السنوات، والكاتب يقول – تخيلا – أنه قصد إليه ليراه وكان قد جف وذوى ورنقت فوقه المنية، وقد علل طول عمره باستقرار إيمانه بذلك فيما وراء الوعي. والقصة متخيلة، ولكن النظرية التي تقوم عليها صحيحة ليس في الوسع المكابرة فيها. وليس معنى هذا أن في وسع الناس أن يطيلوا أعمارهم وإنما معناه أن الإيمان الراسخ – حتما من غير أن يفطن المرء إليه – يعين على الحياة ويمد الإنسان بأسباب القوة والجلد، وهذا هو المهم.

ونعود إلى ما استطردنا عنه فنقول: إننا لا نعرف أمة – لا المصرية ولا غيرها – ينقصها شيء من الخلال التي تتحلى بها الأمم القوية العزيزة الجانب، وإنما الذي ينقص مصر وأمثالها هو الأسباب أو الظروف التي تبرز الصفات والمزايا التي يتوهم البعض أنها معدومة أو ضعيفة، ولو أننا فتحنا غداً عيوننا فإذا بمصر قد صار لها جيش قوي قادر على صد الغارات وحماية الذمار، لراعنا التغير الذي يطرأ على نفوسنا وسلوكنا ولأذهلنا أننا قد صرنا أمة أخرى. نريد نقول: إن ما عليه الأمة كدولة

من قوة أو ضعف هو الذى يبدى أفرادها على النحو الملائم لهذه الحالة. وليتصور القارئ أنه يمشى فى الليل فى طريق مقفر غير مطروق، وأنه أعزل من كل سلاح يصلح للمقاومة؛ فكيف يكون حالة؟ إنه لا شك يكون وجلاً ويمشى متلفتًا، مؤثراً للانزواء، أو كما يقول الشاعر "إذا رأى غير شيء ظنه رجلا"[٣] ، بل ظنه قاطع طريق أو فاتكًا من الفتاك، وليس هذا من الجبن ولكنه من الشعور بالضعف. والآن فتصور هذا الرجل نفسه، فى هذا الطريق الموحش بعينه، وليكن معه فى هذه المرة مسدس محشو فكيف تظن مشيته تكون؟ لا خوف على التحقيق ولا إيثار للانزواء، وإذا تلفت فإنما يكون هذا منه تلفت الحذر الذى يريد ألا يؤخذ على غرة، لا تلفت الموجس من غير شيء المتوقع لكل سوء، لأن معه سلاحًا يدفع به عن نفسه أو يرهب به من يتعرض له، وقد لا يكون هذا من الشجاعة، ولكنه على التحقيق من الشعور بالقوة .

كذلك المفلس مثلا تراه متهضم الوجه غائر العين شارد النظرة أو حائراً أو مكتئبًا، وإذا طال عهده بالإفلاس فقد تتجه خواطره إلى المحظورات؛ ولا يستغرب أن يجره الفقر إلى شتى المهاوى، وعلى خلاف ذلك ترى الغنى الواثق من قدرته المالية، فإن علمه بأن المال معه أو قريب منه أو فى متناوله على كل حال، يكسبه اعتزازاً بالنفس وجرأة فى الجنان وسرعة فى العمل، ويقوى على العموم فى نفسه العناصر التى تعين على النجاح فى الحياة؛ والمال قوة، والفقر ذلة؛ وما نحسب القراء قد نسوا قصة الجرذ الذى حكى صاحب "كليلة ودمنة" أنه فقد ما كان قد ادخره من مال فأصبح كسيحًا عاجزًا عن الحركة، وما به من مرض ولكن الذى به هو الشعور بالضعف الذى يجيء مع الفقر .

فليست حاجة مصر أو سواها من نظائرها إلى الأخلاق، ولكنما حاجة هذه الأمم إلى أسباب القوة؛ فإن مجرد شعور الأمة بأنها تملك من هذه الأسباب الكفاية، كفيل بإبراز الصفات المنشودة وتأكيد المزايا المندوبة .

---

(٣) الشعر من البسيط وهو للمتنبى ونصه :

وضاقتِ الأرضُ حتى كان هاربُهُم ... إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنَّه رَجُلا

ثم إن حاجتنا شديدة إلى أن يكف أمثال هؤلاء الخطباء عن الهراء البحت الذى يهضبون به فى المحافل. وليته كان هراء فحسب، إذًا لدخل من أذن وخرج من أذن، ولكنه ينقلب في آخر الأمر إيحاء سيئ الأثر فى حياة الأمة، ويصبح عونًا للزمان عليها. ولمدح الأمة بالكذب خير من ذمها بالحق .

إبراهيم عبد القادر المازنى

القدم والحداثة[1]

اشترى صديق لى قطعة من الأثــاث – وأعنى أنه صديقى لا أنه اشتراها لى، فما أقل ما يتهادى الأصدقاء بعد أن ترسخ قواعد الود، وأكثر ما يكون الإيثار وكرم النفس حين يكون الود مخطوباً، هكذا الإنسان – ودعانى صديقى أن أرى هذه القنية الثمينة، وفى مرجوه ولا شك أن أسمعه من الثناء عليها ما يشعره أنها حقيقة بما بذل فيها من مال، فلما أبصرتها لم أكبرها، ولم أرتح إلى منظرها، واستسخفت ما فيها من الصنعة، وجعلت أدله على عيوبها، وهو يحملق فى وجهى ويعجب لى، ويرثى لبلاهتى، ويزعمنى جاهلاً، ويؤكد لى أنها قديمة وأنها كنز نفيس، وأن لها فى هذه الدنيا لا أقل من خمسمائة عام .

فأما جهلى فلا شك فيه ولا حيلة أيضاً، وأما قدمها أو حداثتها، فمسألة أخرى لا أراها تحيل القبح جمالاً ولا التشويه مزية، وليست المسألة أنى جاهل وإنما هى أن منظر القطعة فى رأى العين غير رائق، وسواء لدى بعد ذلك أكانت مصنوعة منذ ألف عام أم نفض الصانع منها يديه منذ بضعة أيام، ولكن صاحبى تعلق بطول عمرها وأغضى من أجل ذلك عن شىء كثير .

وخرجت وأنا أقول لنفسى أن من السخافة أن يعتقد المرء أن كل ما صنع فى سنة ١٥٦٠ مثلاً لابد أن يكون جميلاً، أو رائعًا، وأن كل ما يخرج من أيدى الناس فى عامنا الحاضر تنقصه لا محالة عناصر الجمال أو الروعة، فليست العبرة بالزمن ومقدار ما مر منه ولكنما العبرة بما فى الشىء من مزية، ولو أن الزمن هو مكسب المزايا ومفيض الروعة على الأشياء... ولكنه ليس به، وتمنيت لو أن الأيام تستطيع أن

---

(١) نشرت فى مجلة "الجديد" فى ١٦ فبراير سنة ١٩٣١ (ص٤) .

تخلع على مقالي هذا جلالها الموهوم، إذن لما حفلت نفسي ماذا أكتب، ولوثقت أن ما أخلفه ورائي سيقرؤه الناس في سنة ٢١٦٥ ويجدون فيه من الروعة مالا يحسونه من أنبغ نوابغهم في زمانهم، ولكن هيهات ...!

ومن هذا القبيل ولع البعض بالمخطوطات القديمة ولو كانت هراء، والغريب أنها لو طبعت ونشرت لما عبأ بها أحد شيئًا، لأنها لا قيمة لها في ذاتها، وإنما كل قيمتها راجعة إلى قدمها، وأغرب من ذلك أن تطير للمولعين بجمعها سمعة وأن يكون ذلك داعيًا إلى أن يلهج الناس بعلمهم وإن كانت لا تفيد علمًا ولا أدبًا. ولا شك أن القدم يصقل الشيء، ولكن الصقل غير متعذر مع الحداثة، وأحسب أن الاعتزاز بالقديم فيه من الغرور معان، وكأني بالذي يقع على قديم ويفرح به ويضن، يستكثر في أعمق أعماق نفسه أن يكون الإنسان في صدر الزمان قد وسعه أن يجيء بشيء كهذا، وكأني به أيضًا لا تخفى عليه عيوبه ولا تغيب عنه مواضع الضعف أو السذاجة فيه، ولكنه يغتفر ذلك ويجنح إلى التسامح لأنه يعتقد أن الإنسان في ذلك الزمن السابق حسبه مبلغ ما وفق إليه، وشبيه بذلك فرح الرجل بآثار ابنه الطفل - فقد يتفق أن يصنع لعبة أو يخط كلمة أو يفعل غير ذلك فيدخرها أبوه ويحتفظ بها ولا يزال كلما رجع إليها يجد منها روحًا وإيناسًا ويفيد سرورًا واغتباطًا .

ومعنى آخر ينطوي عليه إكبار القديم، ذلك أن قدم الشيء يفيد معنى المتانة والثبات، والبقاء شيء محبب في عالم كل ما فيه زائل متحول، وتراخي الحقب على الأثر يوقع في الروع أنه ما بقي إلا لمزايا فيه أرضت الأجيال عنه، فكأنه يسير مع الزمن في حاشية حاشدة من الرضى العام حتى إذا انحدر إلى الأحياء راعهم منه ما يحف به من قوة هذا الرضى الزاخر، ومن هنا كلمة المعري المشهورة، فروعة القديم أكثر ما تكون للحواشي لا للأصل، وللمعاني العالقة بالشيء لا لمزاياه الذاتية، وهذا ما يجب التحرز من الخلط فيه إذا أريد التقدير الصحيح .

أراني صاحب لي، خاتمًا أو دبوسًا - لا أذكر - فيه حجر فرعوني منقوش وسألني أقديم أم جديد، فقلت وما سؤالك هذا؟ قال "لأنه لا يستحق شيئًا إذا كان

جديدا؟" فقلت: ولكن إذا كانت الصنعة دقيقة ومطابقة للأصل فماذا يكون الفرق؟؟ تصوره قديماً وادفنه بخيالك فى التراب أدهاراً تفز بالشعور الذى تبغيه، وعلى أنك لن تستطيع أن تتخذ من القديم حلية حتى تنفض عنه التراب وتغسله وتصوغه، كما ترى هذا الذى فى إصبعك، فهز رأسه وسكت، وأحسبه لا ينظر إلى الفن من حيث هو، ولا يقدره لذاته، وإنما باله كله أو أكثره إلى شعور الزهو بالظفر بقديم يعز مثله ويندر نظيره، وإلى إحساس المباهاة بالتفرد أو ما هو فى حكمه، أى قلة المشاركة، وهو إحساس طبيعى، والإنسان يسره بلا مراء أن يقل مشاركوه فى صفاته أو مزاياه أو مقتنياته .

إبراهيم عبد القادر المازنى



المـــال[1]

أوصاني أبي وأبوه وكل جد لي إلى الشيخ آدم: أن أكنز المـال، قالوا: والمال عصب الحياة، بل هو الحياة، ولا قيمة لشيء في الدنيا بغيره، وليس بحيٍّ من ليس له مـال؛ وغاية حظه أنه موجـــود في الدنيا ومحسوب في الأحيـــاء – على التســـامح. قالوا: ولا حرية لفقير؛ ولا حقّ لمعدم؛ ولا كرامة لمفلس؛ وإذا لم يكن للإنسـان مدخر حين يمد اليد حتى إلى الأجر الذي عملت به، فقد خضعت رقبته لمعطيه حقه، وهان عليه أمره .

قالوا : وكن من شئت أو ما شئت أدبًا أو علمًا أو خلقًا، فليس بمجديك هذا فتيلا ولا رافعك كثيرًا أو قليلا، إذا كنت فقيرًا، وأحر حينئذ بالأدب أن يكون من ذنوبك التي تحصي عليك، وبعلمك أن يكون مدعاة لكرهك أو استثقال ظلك، وبالخلق الذي أنت عليه أن يجر عليك الهضيمة والغمط والاستخفاف؛ ثم كن من شئت فراغًا أو جهلاً أو سوء خلق، فلن يضيرك هذا إذا كان لك مال، فإنه شفيع لا يخيب، وستر لا يكشف، ودرع سمكة تقيك وترد عنك النصـال مكسرة. ولا تصدق أن في دنياك عدلاً، أو أن القوانين تكفل لك حقًـا، أو أن كونك إنسانًا يجعلك مساويًا لأي إنسـان سواك، إنما العدل هو المـال، والحق هو المـال، والمساواة هي المـال، وعلى قدر مالك تكون الرغبة في إنصافك، والاجتهاد في إعطائك حقك وتقديمك أو تأخيرك، ورفعك أو حطك؛ بل نظرة الإنسان إلى الإنسـان ترق أو تجفو، وتدعو أو تطرد، وتكرم أو تهين، وترحب أو تغضي، ويلمع فيها نور البشر أو يفترها الملال أو يسودها النفور، تبعا لماليهما، والمال يقلب المذام محامد والفقر يعكس الآية ويقلب القضية .

---

(١) نشرت في "السياسة الأسبوعية" في ٨ يوليه سنة ١٩٣٢ (ص٣). والمقال تطوير لسابق نشر تحت عنوان "صور وأخلاق : المال" (المحرر) .

١

قالوا: ولا ديمقراطية ما دام أن فى الدنيا شيئًا اسمه المال؛ لأن المال يقسم الناس فريقين غنيًا أى ليست به حاجة، وفقيرًا أى به حاجة؛ ولا يستوى مستغن ومحتاج. وكل ما يحاوله الإنسان من تنظيم حياة الخلق على قواعد الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرهما مما يمكن أن يخطر له، عبث وباطل ومحال، فأعرف هذا واجعل وكدك جمع المال وتكديسه فإنه أجدى عليك من كل تعبك تحت الشمس .

قالوا : وقد كان اليونان الأقدمون يزعمون فى بعض أساطيرهم أن المرء بعد الموت ينحدر إلى وادى الأشباح، وهناك يتلقى "أتروب" الموتى ويحصيهم، ويسلمهم إلى "شارون" النوتى لينقلهم على زورقه ويعبر بهم نهر "ستيكس" – أو نهر النسيان إذا شئت – إلى حيث يحاسبون، والنقل على الزورق بأجر، ولابد أن يؤدى الميت هذا الأجر إلى شارون النوتى، وإلا امتنع عن نقله، وتركه معلقًا بين الدنيا والآخرة !

فحتى الآخرة فيما تصف هذه الأساطير الإغريقية يلقى فيها ذو المال التيسير ويشقى فيها الفقير؛ فاعرف هذا ولا تنسه .

والمال هو الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والشرف والضعة والكرامة والمهانة، والقوة والضعف، والقدرة والعجز، ولا تصدق من يقول لك غير ذلك، جرد الدنيا من المال تمح كل هذا، وتترك الحياة باهتة مسيخة لا لون لها ولا طعم، ولا طماح فيها ولا سعى، ولا شىء من المغريات بهما، وقد أضنى الفلاسفة عقولهم فى البحث عن أصل الخير والشر وغير ذلك، والأصل تحت أعينهم، وهل ثم أصل غير المال؟؟ ومن كان يرتاب فى أن الأمر كذلك، فما عليه إلا أن يتصور الدنيا – إذا وسعه ذلك – وقد خلت من المال. فكيف يراها تكون؟ وإلى أى حال يرتد الناس؟ وعلى أية قاعدة من الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم، وعلى أنه لا حاجة بأحد أنه يرهق نفسه ويكلفها أن تتصور هذا الذى يكاد يستعصى على الخيال. ويحسب من شاء أن يفكر فى أية خلة من خلال الخير أو الشر وفى ارتباط المال بها وأثره فيها. فإن التأمل حقيق أن ينتهى به إلى الإيقان بأن المال – كائنة من كانت صورته – يوشك أن يكون هو الذى أتاح للفضائل والرذائل ولخلال الخير والشر فرصة "التسمى"، وأعانها على البروز بعد أن

هيأ لها أن تعرف بأسمائها. ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعواطفها، ولكنه هو الذي أكدها وأظهر الكامن فيها؛ وأقام المعالم ورسم الحدود وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع .

وأذكر على سبيل التمثيل أن "ليكرج" المشترع الأسبرطي فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفي عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى الذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تسك من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تتخذ العملة من الحديد وجعل القيم خسيسة، فكانت القطعة الضخمة التي يعيي بحمل ثلاث أو أربع منها الرجل القوي، لا تساوي شيئًا يستحق الذكر فكان أن كف الناس عن ادخار المال، لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطعة صغيرة من الذهب، وانصرفوا عن البذخ والترف في معيشتهم، إذ كان الحديد لا يقتنى ولا هو يشترى شيئا؛ ولم يبق هناك ما يستحق أن يسرق، فبطل التلصص وانقطع السطو وامتنعت الخيانة وما إلى ذلك، وزال التحاسد لأن الغنى والفقر صارا اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، ووقفت التجارة في حدود البلاد ومع ما وراءها – وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها إذا وسعه أن يهتدي إلى ألوانها .

وقد اتخذت النقود دوما إليها في أول الأمر وسيلة لتسهيل المبادلة والمقايضة، ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا؛ ولكنها صارت تطلب لذاتها وتجمع وتدخر رغبة فيما تفيده من الاقتدار، والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة؛ فتسابق الناس إليها، وتهالكوا عليها، وانقلبت غرضاً يطلب ويسعى له، وإن كانت قد ظلت مع ذلك وسيلة إلى ما وراءها مما تعين عليه، وهذا التهالك العنيف على المال واقتنائه هو الذي أظهر الكامن في النفس الإنسانية، وكشف عن المستور، ودفع به إلى السطح وأطفاه على اللُّجَّة، كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة حتى إذا جاش وأربد قذف بما في جوفه من طيب وخبيث .

قالوا : وليس أقوى من المال إلا القدرة على الاستغناء عنه؛ فمن كره أن يحشد المال ويشد به أزره ويقوي به ساعده، فلينفض منه يده. ولما كان المال هو كل ما في

هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخطه، وتجله وتحقره، وتفرح به وتحزن له، فنفض اليد منه معناه ومؤداه نفض اليد من الدنيا نفسها. وإذا كان المال قوة؛ فإن أقوى القوة أن تستغنى عن القوة، والزاهد الذى يصفى نفسه ويخنق شهواتها ويقتل أهواءها ويروضها على الاستغناء عن كل ما يطلبه الناس ويسعون له – هذا يخلق من روحه قوة تربى على قوة المال ولا تباليها .

قالوا : فإما أن تغنى أو تزهد – وإلا عشت محتاجا إلى الناس – والناس من تعرف. كذلك أوصانى أبى وأبوه وأجدادى إلى آدم .

إبراهيم عبد القادر المازنى

حديث اليوم

حافظ إبراهيم(1)

الموت ثمرة الحياة التى لا يعرف الأحياء لها جنى سواه، ولكن النفوس لا تألفه إلفها هذا الهواء، ولا تزال ترى فى قديمه المتكرر جديداً يروع ويدهش ويفجع، وكل مألوف يفتر وقعه إلا هذا، وما من فرق فى نظر الفكر بين حالة ميلاد وحالة ممات، وما يدرينا لعل الذين انتقلوا إلى ذلك العالم المجهول يفرحون بالذى يضمه القدر إليهم فرح الأحياء بالوليد الجديد. والأحياء يزعجهم ذكر الموت ووقعه، فما يدرينا كذلك! لعل الذين ماتوا يفزعهم أيضًا ذكر الحياة التي أريحوا منها. ولو خير الأحياء ما اختار منهم واحد أن يموت، فأكبر الظن أن لو خير الأموات ما اختار منهم واحد أن يرتد إلى الحياة، أو ما نسميه نحن الحياة، ورب معمر ما عاش إلا ساعات، ورب صغير كان الدهر عمره، وليست العبرة بعدد السنين ولكنما هى بامتلائها وبما بذل المرء فيها من نفسه، وعلى قدر ما أعطى المرء الدنيا من نفسه يكون إحساسها به، والأنحاب تقضى كل يوم، ولكن الناس لا يهزهم إلا نحب الذى أيقظ نفوسهم ولو عليه، ونبه مشاعرهم ولو إليه، وعاش – فيما يحسون – لهم .

وقد عاش حافظ وكأنه كان يحس الحياة بأعصاب عارية، وكان همه أن يتلقى – بهذه الأعصاب الحساسة – وقع الحياة ثم ينقلها إلى الناس، مصورة، فى شعر جزل رصين، سهل الورود على الأذن، سريع النفاذ إلى القلب، وكان يرسل نفسه على سجيتها بلا تكلف أو تعمل، فلا يذهب، يتصيد النافر من المعانى، ولا يحاول الإغراب

(1) نشرت فى جريدة "السياسة" فى ٢٧ يوليه سنة ١٩٣٢ (ص٤) .

فى لفظ أو فكرة، وإنما دأبه أن يخاطب القلوب من أقرب طريق، وكان إلى هذه البساطة التى امتاز بها فى العرض، مخلصًا صادق السريرة، والإخلاص معد، والنفوس معايير حساسة، لا يجوز عليها الزيف ولا يدخل عليها التصنع والغش، ولا يخدعها التزويق والدجل، وحافظ بفضل الله كان من أبعد الناس عن ذلك، فلا تكلف ولا خداع ولا رياء ولا مأرب أيضًا غير الإفضاء بما يختلج فى نفسه ويضطرب به صدره، فما عرف عنه أنه طلب مالا أو عبأ به إذا امتلأت به كفه، ولا بغى بشعره أملاً، غير أن يحدث شعره الأثر الذى ينشده ويحرك النفوس إلى ما حرك نفسه، ولم يخاتل قط ولا صانع أو مالق أو دارى، وأكرم نفسه فكرمت على الناس، ولم يهنها فأحلها الناس محلها من الإكبار والحب، ولم يحسد ولم يحقد ولم يشعر يوما أن الدنيا تضيق بغيره معه، وكان أبدًا أخًا لكل أديب، وكان يعرف لكل امرئ قدره ويعترف به مخلصًا فى المعرفة وفى الاعتراف، وقد نشط المذهب الجديد فى الشعر وحافظ فى عنفوان قوته وإبان شهرته، فلم يخاصمه ولم يناصبه، ولم يكد له، ولم يسلط عليه نفوذه الظاهر أو الخفى، ولم يحمل عليه بشهرته، بل حبذه وشهد له وصادق رجاله ومضى هو فى طريقه وأفسح لهم طريقهم، عارفًا أن الحلبة تتسع له ولهم ولا تضيق بأحد منهم، وحسبك بهذا دليلاً على رحابة الأفق وطيب الشيم ومروءة النفس وكرمها. وقد اقترنت حياته الأدبية بالنهضة القومية، وفى وسعنا أن نقول بلا مغالاة أن شعره كان من أقوى العوامل فى هذه النهضة، ومن أسبقها أيضًا وأحقها بالذكر، وقد عقد حافظ أخراه بأولاه فلم يكد يطلق من أسار الوظيفة حتى عاد يحثث النفوس ويحفزها ويستثير شعورها بالكرامة والغيرة. ولحافظ فى هذا ميزة أيضًا، يجب أن تذكر، فما كان قط فى حياته ساعيًا لفُرقة أو ماشيًا بوقيعة، وإنما كان أبدًا داعية للتآزر، إذ كان مفطورًا على الخير عزوفًا عن الشر نفورًا منه. ولقد اختلف المصريون ما اختلفوا فى أحوال وظروف شتى فما دخل حافظ بينهم، حين بدا له أن يدخل، إلا ليؤلف بين القلوب، ويجمع الكلمة، ويوحد الصفوف، وأحسب أن طبيعة الخير والعطاء التى بنى عليها هى التى عدلت به عن السيف إلى القلم، وبغضت إليه حياة الجندية وأغرته بالأدب .

وكشعره – حياته – بساطة تنفر من التكلف، ووفاء للذين اتصلت أسبابه بأسبابهم، وكرم عريض يصدر فيه عن مروءة فطرية ولا ينشد من ورائه غاية، وأنس

محضر، ورقة حاشية، وتواضع محبب، وصراحة فى أدب جم، وحلم وطيد، وإغضاء عن إساءة، وإيثار للصفاء. وكان رحمه الله مليح الفكاهة، سريع الخاطر، حلو الحديث فياضًا، وقد أعانه على ذلك أنه كان قوى الذاكرة، حافظًا للمختار فى كل باب وكان إلى هذا حسن الإلقاء، ومن حسن إلقائه أنه كان يقطع الكلام على المعانى يبرزها ويؤكدها ولا يجريه على النظم وحده، يساعده على ذلك صوت قوى وتبرات موفقة، فالكلام جاريًا على لسانه له ضعف مزاياه حين يسمعه المرء من سواه .

وقد عرفت حافظًا من ثلاث وعشرين سنة، فما أنكرت من سيرته أو خلقه شيئًا، وحببه إلىّ كل شيء، صدق وطنيته، وحرارة حماسه، فى صدر أيامه وشيخوخته على السواء، وعزمه المصمم الذى لم تحلله الأيام والحادثات ولم ينقض مِرّته وما يرغب به أو يخوف ويهدد، وغيرة متقدة لم تفترها السن ولم يوهها الضعف والمرض، ولم تكتمها الوظيفة، ولا أطفأتها مطالب العيش، ووفاء لحقوق أمته هو فوق ما عرفت حتى من الوفاء للنفس، وحماسة فى الخير وقصور عن الشر، وكرم مكتوم شهدت بعض آياته بكرهه، واطلعت على ما كان يؤثر إخفاءه منه لو أن ذلك وسعه، وإنصاف للغير من النفس لا يستطيعه إلا الكبير القلب العظيم الروح، وحب واسع يفيضه على كل الناس، وتسامح هو دليل القوة والثقة بالنفس وعنوان الرجولة وإباء وكرامة فى رقة حاشية، وتواضع لا يشجع متهجمًا ولا يجرئ متوقحًا، وصبر هو من الإيمان العميق، وحلم هو من سعة العقل وكرم النفس، لا من الضعف أو الجبن، وخفة إلى المعروف، واتساع صدر للنقد وإقرار كريم بالحق .

لقد بدأ حافظ حياته جنديًا، وانصرف عن الجندية وزهد فى التقتيل والتذبيح ورغب عن حياة كل ما فيها يذكر بهما، ولكنه على هذا عاش ما عاش وأبرز مزاياه أنه جندى شهم جاهد فى سبيل وطنه، وجاهد فى سبيل لغته، وجاهد فى سبيل الشرق كله، وجاهد فى سبيل الخلق الكريم، وكتب الله له التوفيق فى كل ما جاهد فيه، فله على اللغة والأدب والوطن والشرق الفضل الذى لا يجحد، وعلى عدو واحد، وكل من فى مصر والشرق له صديق يكبره ويحبه ويبكيه .

إبراهيم عبد القادر المازنى



من سينما الحياة

شــىء من الـتاريخ[1]

اسمي المازنى، كما أعتقد أنك تعرف، وهو كل ما أملك في هذه الدنيا الطويلة العريضة، أو لعل الأشـبـه بالواقـع أن أقول إني أنا كل مـا يطلـق عليـه هـذا الاسم، ولا أحتاج أن أقول إني لم أكتسبه وإنه لا ذنب لي فيه، وإنما انحدر إليَّ مع الحياة نفسها أو بعدها بقليل. وعلى ذكر ذلك أقول إنى كثيراً ما أفكر فى اسمى ماذا عساه أن يكون فى الآخرة، أعنى بعد عمر طويل، فلست أحس أن هناك داعيًا إلى العجلة، فهل يعقبنى هناك ويلصق بى ويلازمنى؟ وإذا لم يفعل فكيـف أعـرف نفسى؟ على أن هذا مشكل لا يستحق أن أعنى نفسي به، فإن أوان الحاجة إلى حله لا يزال بعيداً فيما أرجو وأحس .

وقد كان من الممكن أن أكون غيرى، ولكن هذا لم يحدث لحسن الحظ، وقد أغمض عينى أحيانا وأذهب أعرض على نفسى صور الناس أو ما ارتسم فى ذهنى لهم من الصـور، وأتسـاءل : أى هؤلاء كنت أوثر أن أكون لو كان لى الخيار، أو لو لم أكن أنا إياى؟ وأكرر ذلك مرة بعد مرة ولا أرانى مع ذلك أهتدى أو أنتهى إلى رأى، وقد أتعبنى هذا وأضجرتنى الحيرة والتردد، فقلت لهذه الصور التى تلح على وتطاردنى : "إنى آسف جداً، لقد أرهقتكن بكثرة النشر والطى والإقصاء والإدناء والتقليب والتفلية، ولكنى إنسان ناقص، ومـا أرى نقـائصى وعـيوبى ورذائلى إلا أشـهى إلىَّ وأحب إلى نفسـى من كل

---

(١) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ (ص٥) .

مزاياكن ومفاتنكن، بل هى، فيما أعرف، قوام شخصيتى، وأقوى ما يحببها إلىّ
ويسحرنى منها، ويرضينى عنها، ويدفعنى إلى الضن بها، والحرص عليها، فمعذرة فلست
أرانى مستطيعا أن أنضو عنى هذا الثوب الذى ألبستنيه الحياة وإن كان مراقع".

* * *

ولا أدرى لماذا كان أبى هو أبى؟ أعنى زوج أمى - هذا سر دفن معه يوم دفن
ولف عليهما فى قبره كفن. وقد يلج بى الشوق إلى استطلاع جانب منه فأقول لأمى،
مع التحرز فى العبارة :

"هل كان أبى رجلا.. .. .. طيبا؟ أعنى أنى أظن أن التصوير لم يكن فى زمنه
متقنا" فتقول وهى ترفع يدها بالسبحة :

"إنه الآن فى وديعة الرحمن فاقصر".

فأحس أن لو كان أبى حيًا لا مْتَعَضَ، وأشعر كأن واجبى أن أذود عن كرامته،
ولكنى أعود فأذكر أنه خذلنى فى الحياة ومات عنى وأنا طفل، فأدع الدفاع وأقول :

"إنما أريد أن أعرف هل كنتما متحابين؟".

فيغضبها سؤالى - لا أدرى لماذا؟ - وتنظر إلىّ شزراً وتهز رأسها وتتمتم بكلام
غير مفهوم، وتحول وجهها عنى، فيركبنى عفريتى الخبيث وأحاول أن أستفزها فأقول :

"يظهر - وإن كنت لا أعلم - أنه لم يكن بينكما حب، فقد كان مزواجا".

فتثور بى تلعننى وتؤكد لى أن "خلقتى عار". وأؤكد لها بدورى أن المسئول عن
"عار" هذه "الخلقة" غيرى، وأن كل ما أرمى إليه من وراء هذه الأسئلة البريئة التى
تغضبها هو أن أعرف أى ثمرة أنا؟ ثمرة الحب والتآلف أم ثمرة الـ..، وهنا تأخذ عينى
صورتى فى المرآة فينعقد لسانى.

وتنقضى أيام وهى غضبى وأنا أعالج أن أفئ بها إلى الرضى.

* * *

وقد سُرقت من طفولتى – سُرقت بصيغة البناء للمفعول أى بضم السين المهملة وكسر الراء إلخ إلخ – سرقتنى جارية سوداء لامعة كالفحم "السكوك"، وكنت ألعب أمام البيت، فاحتملتنى ومضت بى، ولم يفزعنى وجهها الأسود فأرحت رأسى على كتفها ونمت، وقد استردنى أهلى على ما يزعمون، ومن أدرانى أنهم لم يغلطوا؟ من أين لى أن أعلم أنى أنا ذلك الطفل الذى خطفته الجارية بعينه، لا طفل آخر شبيه به، ففى حقيقتى شك كما ترى كما فى كل الحقائق الأخرى. وليتنى أهتدى إلى هذه الجارية الطيبة القلب التى رأت أنى جدير بأن أخطف! إذاً لقبلتها بين عينيها وأسندت رأسى إلى صدرها وبكيت شكراً لها وإعجاباً بذوقها. ولكن هذا لا سبيل إليه حتى لو أنها لا تزال على ظهر الأرض أو قيد الحياة كما يقولون، غير أن مالا يدرك كله لا يترك كله، أريد أن أقول: إنه إذا كان قد فاتنى أن أفضى إلى هذه الجارية بما يجن صدرى لها، فقد وجدت أنها عاطفة قابلة للتحويل، ومن أجل ذلك لا أضن على أية جارية بما هو من حق تلك التى لا سبيل إليها، وقد أذهب أتفلسف أحيانا، وأحاول أن أرد هذه النزعة إلى سبب أعمق وأبعد من حادثة اختطافى فأقول: إن ذلك بعض مظاهر الوراثة، فقد كان أبى يحب "الجوارى البيضاء"، يظهر أنه لم يكن يعرف ذلك من نفسه حين تزوج أمى، ولذلك دأب بعد ذلك على أن يقصد كل بضعة أعوام إلى تركيا ليعود منها فى كل مرة بزوجة تمكث معه ما شاء الله ثم يسرحها ويكر إلى الأستانة أولا أدرى أين غيرها، فغير عجيب أن تتخذ الوراثة عندى مظهر الإيثار للجوارى السوداء، فإن للوراثة مثل هذه الأعاجيب .

وقد غلطت مرة فشرحت هذه النزعة لزوجتى بأوفى ما يدخل فى طوقى من البيان، فكان تعليقها بعد أن أصغت إلى إصغاء محموداً أكبرته وشكرته: "كان يجب إذاً أن تتزوج جارية! ومع ذلك لم تضع الفرصة فلا يزال هذا فى وسعك" وتركتنى وحدى فى الغرفة، فذهلت ولم أفهم، وعجبت لقدرة المرأة على تصور المسائل مقلوبة، وإداركها معكوسة. ويتفق أحيانا أن نرى – أعنى زوجتى وأنا – جارية فيجيش صدرى وأحس كأن عواطفى المكتومة تكاد تنفجر أو تخنقنى، غير أنى أضبط نفسى وأكبحها،

فإن إلى جانبى عينين محملقتين تنظران إلىَّ، والكبح تعذيب. وقد ضاق صدرى مرة فقلت لزوجتي :

"إنك مخطئة. مخطئة جداً. وكل ما فى رأسك الصغير هذا، أوهام فى أوهام، ولو أنك كنت خطفتني وأنا طفل لحفظت لك هذا الجميل ولبقيت طول حياتى شاكراً لك هذه اليد بدلا من هذه الجارية التى أبحث عنها فلا أجدها والتى أحس أنى أراها فى كل جارية أخرى" .

فتجهم وجهها وقالت: "وماذا أيضا؟"

قلت : "لا شيء أنها عاطفة شكر طبيعية لا ضير منها على أحد" .

قالت : "لو كنت خطفتك وأنت طفل؟! طبعًا! فإنى فى عمر جدتك أليس كذلك؟ لا بأس" .

قلت : "ليس هذا ما أعنى! إنما أفترض حالة لأساعدك على تصورها" .

قالت : "سامحك الله" ومضت عنى .

هذا والأمر لم يَعدُ الكلام، فكيف لو أنه اتفق أن أتيح لى أن أقبض على إحدى الجوارى مما أطوى عليه أضالعى لجنسها! إن مجرد التفكير فى هذا يرعبنى !.

* * *

ومما هو جدير بالذكر أن لى أخًا "كان" أصغر منى، فصار يدعى الآن أنى أنا الأصغر! والأمر لا يستحق خلافًا، وأحسبه يعنى أنه يبدو فى رأى العين أكبر منى، وقديما كان الحسد بين الإخوة، فلندع هذا ولنعد إلى أيام الطفولة البريئة – أيام لم يكن هناك شك فى إرباء سنى على سنه، وكان لأبى مكتب فى البيت، فكنا إذا عدنا من "الكتاب" وشرعنا نلعب مع الأطفال مثلنا أمام البيت، يمر بائع "دندرمة" ويقف بيننا يخايلنا ويغرينا حتى يجرى ريقنا، ولما كنت يومئذ أنا الأكبر، بلا نزاع، فقد كنت أنا

الذى يجترئ على الدخول على أبى، وهناك – إلى جانب المكتب – أظل واقفا أهمس بأخفت صوت :

"أبويا. أبويا. هات إرش" .

وهو مكب على أوراقه لا يسمع، أو لعله كان يتظاهر بذلك، وأنا صابر مثابر وواقف كأنى بعض ما فى الغرفة – أو المنظرة كما كانت تسمى – من أثاث سوى أن لسانى لا يمل ترديد العبارة المألوفة، حتى يؤذن الله بالفرج فيرفع وجهه ويمد يده ليتناول فنجانة القهوة فأتقدم خطوة وأبرز من وراء الكرسى فيلمحنى ولا تعود بى حاجة إلى الكلام فيدفع يده فى جيب الصديرى ويخرج القرش ويناولنيه فأعود، متسللا إلى جانب الجدران، حتى إذا جاوزت المنظرة اندفعت أعدو وأتوثب حتى أصير إلى عربة "الدندرمة" فأدس القرش فى يد الرجل فيناول كلا منا كوباً أو كوبين، فقد كان يصدقنا حينا ويغالطنا أحيانا .

وكان أخى فى الرابعة من عمره فى ذلك الوقت، وكنت أنا فى الثامنة، فما أسرع ما أدركنى وفاتنى أيضا! فاتفق يوما أن كنت مريضاً، ومر بائع الدندرمة على عادته، ولم يجرؤ أخى أن يدخل على أبيه. وأنصفه – أعنى أخى وإن كانت دعواه قد طالت وعرضت – فأقول أن الخادم لم يكن يدعه يدخل قط، مخافة أن يحسده الغرباء من عملاء المكتب، فقد كان حلوا سمينا وكانت فيه لثغة محببة، على أن العبرة بالخواتيم، فوقف يبلع من الدندرمة حتى اكتظ ثم طالبه الرجل بالثمن فقال :

"مفيس" .

ونفض كفيه، فألح الرجل عليه، فلم يعبأ به الأخ، الفاضل، وهم أن يمضى عنه. ولكن البائع كان أحرص على ماله من أن يدعه ينصرف بهذه السهولة فأمسك بجلبابه، فحار المسكين ماذا يصنع، ثم فتح الله عليه بما يحل الأشكال فرفع يده وخلع طربوشه وناوله إياه وقال :

"خد طلبوسى ويبقى خلاص" .

ونظر الرجل إلى الطربوش فألقاه جديداً، وإلى سعته فوجدها عظيمة، وإلى رأس الطفل فرآه شيئا ضخما، فخلع الطاقية وجرب الطربوش فإذا هو كأنه مصنوع له، فألقى إلى الباب نظرة فلم ير الخادم فمضى بالعربة يعدو .

وقد افتدينا الطربوش فى اليوم التالى بنصف فرنك .

إبراهيم عبد القادر المازنى

حافظ الرجل[1]

ليس هذا مقالاً عن حافظ الشاعر، فإن لهذا "كتابًا" سيصدر فى أوانه ويشترك في وضعه الأدباء كلهم أو جلهم، ولكنما هذا مقال عن حافظ "الرجل" أو هو طائفة من الذكريات تخطر الآن بالبال .

كانت قهوتا "جراسمو" و"متاتيا" مثابة الأدباء ومنتداهم، وكان المرء لا يعدم منهم واحدًا في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل، فهذا يدخن النرجيلة فى صمت ولعله يستعين بها على النظم أو التفكير؛ وذاك يلعب الشطرنج ويزجى به الفراغ ويقتل الوقت، وثالث فى حفل من الأدباء أو الشعراء أو الأصدقاء؛ يتطارحون الشعر أو يتناشدونه أو يتبادلون النكات أو يفعلون غير ذلك مما يجرى فى المجالس العامة بين النظراء أو الأخوان؛ وقد عرفت حافظا أول ما عرفته فى قهوة جراسمو، ولا أذكر كيف كان ذلك، ولا من الذى قدمنى إليه وعرفنى به؛ ولكنى أذكر أنى رأيته مرة هناك وكانت أمامه نرجيلة، ولم أره قط يلعب الطاولة أو الشطرنج أو غيرهما، فلعله كان لا يجيد ذلك أو لا يرتاح إليه أو لا يصبر عليه، وكان فى حفل واسع الحلقة والكل منصت إليه، فقد كان بارع الحديث سرى الفكاهة وكان يستولى على المجلس ولا يكاد يدع لغيره كلامًا، وإذا بالمرحوم إمام العبد – أحد شعراء ذلك العهد وزجاليه – يقبل عليه إقبالا فيه من اللهفة أكثر مما فيه من الشوق، ثم انحنى على حافظ وأسر إليه كلامًا فقام هذا إليه، وعينى تراعيهما؛ ومال به عن الجمع ثم دس يده فى جيبه وأخرج حافظة كبيرة دفعها إليه فى صمت وتركه وعاد إلى مجلسه .

(١) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ (ص١٦-١٧) .

لم يمض إمام بالحافظة، بل فتحها ووقف هنيهة يرنو إلى وهج الجنيهات الذهبية المرشوقة فى عيونها، ثم راح يأخذ جنيهًا فآخر ويتردد ويتلفت ثم يرتد إلي الحافظة فيخرج بضعة جنيهات أخرى حتى اكتفى فطواها ورجع إلى حافظ فألقى إليه حافظته ومضى عنه. أما حافظ فتركها لحظة على ساقة كأنه لا يحسها ثم أعادها إلى جيبه من غير أن ينظر إليها أو يفتحها ليرى كما بقى فيها، إذا كان قد بقى شىء .

ولم يكن حافظ على هذا غنيًا؛ ولا متصل حبل الرزق، فما كان له عمل إلا قرض الشعر، ولم يكن يتكسب به، وإنما كان يمدح من يمدح لأنهم أصدقاؤه، ولأنه كان يرى من حقهم عليه ومن واجبه لهم أن يثنى عليهم، ولهذا ترى المدح فى شعره قليلا، وقلما يتجاوز البيت أو البيتين يردان في القصيدة لسبب معروف، وعلة مفهومة، ومناسبة ظاهرة لا تكلف فيها ولا استكراه للشعر عليها. وكان رثاؤه وفاءً أو إكباراً أو قضاء لحق يعتقده عليه، ومن هنا كان الرثاء فى شعره من خير ما نظم، وفيما عدا ذلك كان شعره فى الاجتماع والأحوال السياسية، ومن ذلك لم يكن شعره الشعر الذى يمكن التكسب به، وقد صار قدوة لمن نشأوا على عهده من شعراء عصره فكانوا يقلدونه ويحاكونه ويجرون على أسلوبه ولكن هيهات، فما كان يلحقه أحد فى هذا الباب. ومع أنه كان منقطع الرزق عف النفس يعيش من دخل كتبه ودواوينه على الأكثر: فقد كان جواداً لا يضن بما معه كله. وقد حدثنى هو قبيل وفاته وبعيد إحالته إلى المعاش، أنه كان فى بيته فدخل عليه الخادم بظرف فضه فإذا فيه قصيدة جيدة يستوكف بها ناظمها بره، ويستمطر جوده، قال فأُعجبت بالقصيدة واستحييت أن أرد قائلها خائبًا: وأكبرته أن أدعوه وأخجله بالعطاء، فعددت الأبيات فوجدتها عشراً، فوضعت له عشرة جنيهات فى ظرف بعثت به إليه .

قال ومضى نحو عام فزرت المرحوم إسماعيل صبرى باشا الشاعر فتذاكرنا الشعر وجر ذلك إلى ذكر أجواد الأمراء من العرب وصلاتهم للشعراء، فتذكرت القصيدة وصلتي لصاحبها وأسفى على أنى لم أعرف قائلها إلى الآن؛ فضحك إسماعيل صبرى وقال أنا أعرفك به، قلت هل تعرفه؟ قال نعم، وأسمع أبياته فإنى

أحفظها؛ ثم أنشد فيها فعجبت. وعرفت بعد ذلك أن إسماعيل صبرى أراد أن يركبنى بالدعابة فكتب الأبيات وبعث بها رسولا إليّ عاد إليه بالجنيهات العشرة! وروى لىّ صديق لى ولحافظ أنه طلب منه مرة جنيها، ولم يكن الصديق فقيراً، ولا كانت به حاجة إلى الجنيه، وإنما أراد أن يمازحه ويثبت لإخوانه أن حافظًا لا يذكر أبداً دينا له، ثم مضى يوم فطلب منه نصف جنيه، وسأله كم لك الآن عندى؟ فقال حافظ بلا تردد : "خمسون قرشًا فلا تنسها" فضحك الحاضرون، وكانوا يذكرون الجنيه السابق !

ولعل حافظًا كان الشاعر الوحيد من شعراء عصره، الذى لم يحقد على المذهب الجديد فى الأدب، ولم يحاول قط أن يتناوله بالزراية أو التنقص أو يكيد أو يدس له، بل لقد كان يعالج أن يفهم هذا المذهب لينصفه، وكان إذا شرحت له نظرية يعترف بصدقها وسدادها ويراها غير منافية للصدق الذى فى سريرته، والإخلاص الذى بنى عليه طبعه، فيقول أنا إذن من المذهب الجديد .

وأذكر أنى مرة زرته فى دار الكتب وكنت مشغولاً بابن الرومى فرأى قصيدة طويلة له فى وليد؛ فعجب حافظ رحمه الله لقدرة ابن الرومى على نظم ثلاثمائة بيت فى وليد ليس فى حياته شيء لأنها لم تبدأ إلا منذ أيام، وقال إنه هو لا يستطيع أن يقول أكثر من ثلاثين أو أربعين بيتًا فى رجل تام الحياة مكتمل الرجولة؛ فقلت له إن هذا هو الواجب أن يكون، لأن الرجل الكبير الذى تمت حياته واكتملت رجولته، يكون قد أصبح محدوداً بحدود هذه الحياة وبسيرته فيها فليس يسع الشاعر أن يخرج عن هذه الحدود التى رسمتها سيرة الرجل وحوادث حياته، وإذا تجاوزها بجهد فلن يكون ذلك إلى مدى بعيد، ولكن الطفل الوليد كله أمل منبسط الرقعة مترامى الآفاق لا يحد الكلام فيه شيء، فمجال الخيال رحيب لا يعترضه ولا يأخذ عليه متوجهه شيء وفى وسع الشاعر أن يركض فى كل ناحية بلا عناء أو نصب، وفى مقدوره أن يتمثل حياة الطفل كما ينبغى أن يكون – أى على هوى الشاعر، وليست ثلاثمائة بيت بالكثيرة لولا القافية فاقتنع حافظ ولم يكابر .

ولم يكن يمدح أحدًا فى وجهه أو فى غيبته نفاقًا أو إشفاقًا، فقد كان جريئًا، مطمئنًا إلى طريقته فى الشعر، راضيًا عنها، غير راغب فى التحول إلى سواها ولا مستعد لذلك، ولم يكن فيما يأخذه على إخوانه أو الشعراء غيره شىء من المرارة أو ما يشعرك بأن أضالعه تطوى على حقد أو كره أو حسد أو غير ذلك، فقد كانت نفسه كماء النبع الصافى الذى لم يمتزج بعد بتراب الأرض وأقذارها؛ وكانت فيه على إسرافه وجوده قناعة وصبر عجيب؛ وحياء شديد من الشكوى أو التململ، وكانت رجولته تستنكف من ذلك وتخشى سوء تأويله .

وقد مات وهو أشد ما يكون حماسة كما كان فى عنفوان شبابه؛ فلم تخمد جذوة وطنيته ولم تبترد حرارة نفسه؛ ولم تنطفئ شعلة روحه ولم تقبر لهيبها لا السن ولا الأمراض ولا الحادثات، نعم قل شعره بعد أن التحق بدار الكتب، ولكن قدرته على الإجادة حين يقوله لم تضعف، ولقد سمعت منه ميميته التى نظمها قبل وفاته؛ ولست أعرف أن له ما هو أجود منها وأرصن .

ولكن لا أريد الآن أن أتكلم عن شعره، كما أسلفت، وإنما أردت أن أثنى على خلائقه ورجولته رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

إبراهيم عبد القادر المازنى

أطفال كبار[1]

كنا نحن أيضا تلاميذ وطلبة قبل أن نكبر هكذا – أو على الأصح، وفيما يتعلق بى، قبل أن تعلو سنى، فما أعرفنى كبرت شيئا يذكر مذ عرفت نفسى – والناس لا يولدون بأسنانهم ولحاهم، والله ألطف بعباده من أن يحرمهم نعمة الطفولة والصبى، والشيطان ألأم من أن يدعهم يسلون فقد الشباب. وفقده – كما يقول ابن الرومى – "الموت يوجد طعمه صراحا". ولكنى لست فى مقام الكلام فى لؤم الشيطان وسوء صنعه، فإن لهذا وقتًا آخر لا أستعجله، وإنما أريد أن أقول أن أستاذنا في اللغة العربية – أو على الأصح في النحو فما كنا نتعلم لغة – كان رجلا عتيقًا جداً يبدو لك وجهه الكالح كأنه المدينة المتهدمة، فيها العالي والواطي، والداخل والخارج، والحفر والأكوام، وكان بعد خمس دقائق من ابتداء الدرس يستطرد إلى الكلام فى السياسة وكانت الحجرة مجاورة لحجرة الناظر الإنجليزى فكان يعمد إلى النوافذ فيغلقها، وإلى الباب فيوصده، ثم يذهب يحدثنا فى صوت خفيض كأنما يسر إلينا كلامًا مخوف العاقبة – عليه على الأقل – وينشئ يصف لنا عهد إسماعيل وظلم حكومته الرعية، ويفيض فى عدل الإنجليز وما تنعم به البلاد من الأمن والحرية فى ظلهم؛ فنجادله بالتى هى أحسن وبالتى هى أقبح أيضًا، فقد كنا وطنيين على الرغم منه، وهو راسخ الحلم كالطود لا يغضب ولا يضجر ولا يزيد على ابتسامة سخر من جهلنا وطيش صبانا .

هذا الأستاذ الزارى على إسماعيل المشيد بالإنجليز، هو المسئول عن "جمعية" أقمناها وأسميناها (جمعية الشبيبة الإسلامية) ونافسنا بها جمعية أخرى وطيدة

---

(١) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ (ص١٨) .

أنشأها صاحب المدرسة التحضيرية رحمه الله وعفا عنه واتخذها سلمًا إلى الاتصال بإيطاليا — ولا شأن لي بها فما كانت من عمل الطلبة. وكنا حفنة قليلة تمتاز بالفقر وقلة الحيلة؛ فعقدناها أول ما انعقدت في بيت كنت أسكنه في (الحارة اللعينة) التي عرفها القراء من وصفي لها[٢]، وقضينا أسبوعًا نصنع المنبر بأيدينا من (صفائح الغاز) ثم كسوناه قطعة من قماش أخضر لا أذكر الآن من أين جئنا بها؛ فلعل أحدنا سرقها، ووضعنا المنبر في المنظرة، وكانت حجرة واسعة، أما الكراسي فاستعرتها من فراش قريب في الحارة لم يأتمني عليها إلا برهن، فرهنت عنده الكنبات الثلاث التي كانت في المنظرة. وكنا نحن المؤسسين ثلاثة: أحدنا وخيرنا مات فرحمة الله عليه، وثانينا لا أدري أين هو الآن فما تقع عيني عليه ولا أسمع به. وكنت أدعوه "عبد العفريت أفندي" لأنه كان يحلق لحيته وشاربيه وحاجبيه بالموسى ويقص أهداب عينيه، فيبدو كالعفريت تمامًا، والثالث يعرفه القراء فلا حاجة إلى تعريفهم به[٣] .

وأعد أولنا خطبة الافتتاح ونظمت أنا قصيدة قلتها أحق من قصيدة السيد البكري بأن تسمى ذات القوافي؛ وتولى "عبد العفريت أفندي" سكرتارية الجمعية والجلسات؛ ودعونا أناسا كثيرين حضر قليلون منهم؛ وأذكر من بينهم الأستاذ لطفي جمعة، وكان في ذلك الوقت من أبرز الشبان وأفصحهم وأخطبهم، وكان قد اتصل في ذلك الوقت بالمرحوم مصطفى كامل باشا. وحسبي هذا عن جلسة الافتتاح فقد نزلت عن المنبر غارقا في بحر من العرق المتصبب، وما زلت إلى اليوم أعجب لنفسي من أين جاءتني تلك الجرأة، حتى وقفت ألقي قصيدة ليست ذات قواف فقط، بل ذات بحور وبحيرات ومستنقعات أيضًا .

ما علينا. كان لابد بعد هذه الجلسة أن تتخير للجمعية مكانًا آخر، فإن "الحارة" وحدها كفيلة بالقضاء المبرم عليها، ثم إني لا أستطيع أن أظل كل أسبوع أرهن

(٢) يعني في كتابه "خيوط العنكبوت"، الطبعة الأولى، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة (١٩٣٥) (المحرر) .
(٣) يعني المازني نفسه (المحرر) .

(كنبات) البيت لأستعير الكراسي من الفراش؛ فاهتدى "عبد العفريت أفندي" إلى ناظر مدرسة أهلية في حارة الروم، وأقنعه بالسماح بعقد الجمعية في فناء المدرسة وزين له أن ينافس في هذا الطريق صاحب المدرسة التحضيرية، وبقي مشكل المال للإنفاق على الجمعية – أي لاستئجار الكراسي والمصابيح وشراء الغاز؛ وقد تبرع الناظر في أول جلسة بهذه النفقات، وشرعنا نضم إلى الجمعية أعضاء ونجمع منهم ومن أنفسنا اشتراكات، وكان مقدارها زهيداً، أعني قرشين في الشهر وخمسة من المطيق، فقد كنا، كما أسلفت، فقراء، وكان الواحد منا لا يأخذ من أهله لنفقته اليومية غير قرش أو نصف قرش .

ونجحت الجمعية لأن دعوتها كانت إسلامية، وكنا نخفي الدعوة الوطنية تحت هذا الستار، لأنا كنا تلاميذ لا يجوز لنا أن نشتغل بالسياسة، واكتظت جلساتها، وصار يخطب فيها شيوخ مشهورون في ذلك العهد أذكر من بينهم المرحوم (الشيخ زكي الدين سند) وكان أكثر الحاضرين من طلبة الأزهر، وكان الخطباء منهم يتعاقبون على المنابر ثم يبرز بعضهم لبعض في فناء المدرسة ويتضاربون "بالسلاح الأحمر" كما كنا نسمي "المراكيب" وأشهر هؤلاء الأبطال اثنان لا أسميهما، أحدهما الآن قاض شرعي ممتاز والآخر كاتب مشهور.

وكنا جميعا تلاميذ لمصطفى كامل نشتري صحيفة اللواء بالقرش الواحد الذي معنا ونقرؤها؛ فتجيب نفوسنا دعوته، فلما أرغمنا على فض الجمعية – بأمر صدر إلينا من الناظر الإنجليزي – سُد المتنفس الوحيد الذي كان لنا فاشتعلت نفوسنا، ولم نكد نفرغ من التعليم الثانوي، حتى كان طلبة آخرون قد أسسوا "نادي المدارس العليا" والتحق الكثيرون منا به، وانضموا إليه، وكان في هذا النادي جل المتعلمين والشبان، وهؤلاء وأولئك جميعا من الوطنيين فكانت الحكومة تنظر إليه بعين السخط، وكان الخديوي في أول الأمر يظهر الرضى عنه لظنه أن يتخذ منه آلة وأداة لأهوائه، ولكن روح النادي كانت أطهر من أن يستطيع أحد كائنا من كان تسخيرها لمآربه. وكان طلبة المدارس العليا مسموحاً لهم بشهود التمثيل في الأوبرا مجاناً من (أعلى التياترو) فاتفق مرة أن حضر الخديوي التمثيل؛ فخف إلى (أعلى التياترو) أعضاء النادي من

الطلبة، وكانوا جيشاً جراراً، وما كاد الخديوى يظهر فى مقصورته حتى سك مسمعيه مثل الرعد داوياً مجلجلاً بصيحات المطالبة بالدستور؛ فغضب غضباً شديداً، وكان أشد ما يهيجه أن يطالب بالدستور، ولم يكن هو يقاوم الإنجليز إلا ليستأثر هو بالحكم ويستبد؛ وعلى أثر ذلك حرم الطلبة مزية السماح لهم بحضور الأوبرا مجاناً، وتنكر الخديوى بعد ذلك لنادى المدارس العليا .

كانت روح الطلبة فى أيامنا - كما ترى - مصرية وطنية، وكانت على إسلاميتها خالية من التعصب بريئة من النعرة المرذولة، وكانت مصريتها صافية نقية لا تعرف إلا الوطن، ولا تكدرها الأهواء، ولا يرنّقها[٤] التشيع، ولم تكن الأحوال يومئذ تساعد على الالتفات إلى الشرق؛ لأن الشرق العربى كان أكثره داخلاً فى الإمبراطورية العثمانية، وكانت مصر على تبعيتها اسما لتركيا - فى شاغل من كرب الاحتلال، وخير ما كانت تمتاز به روح الطلبة البساطة والإيمان، ولا نعنى بالإيمان التدين، وإنما نعنى الإيمان بالواجب فى الحياة وبحق البلاد، ولعل البساطة من ثمار ذلك.

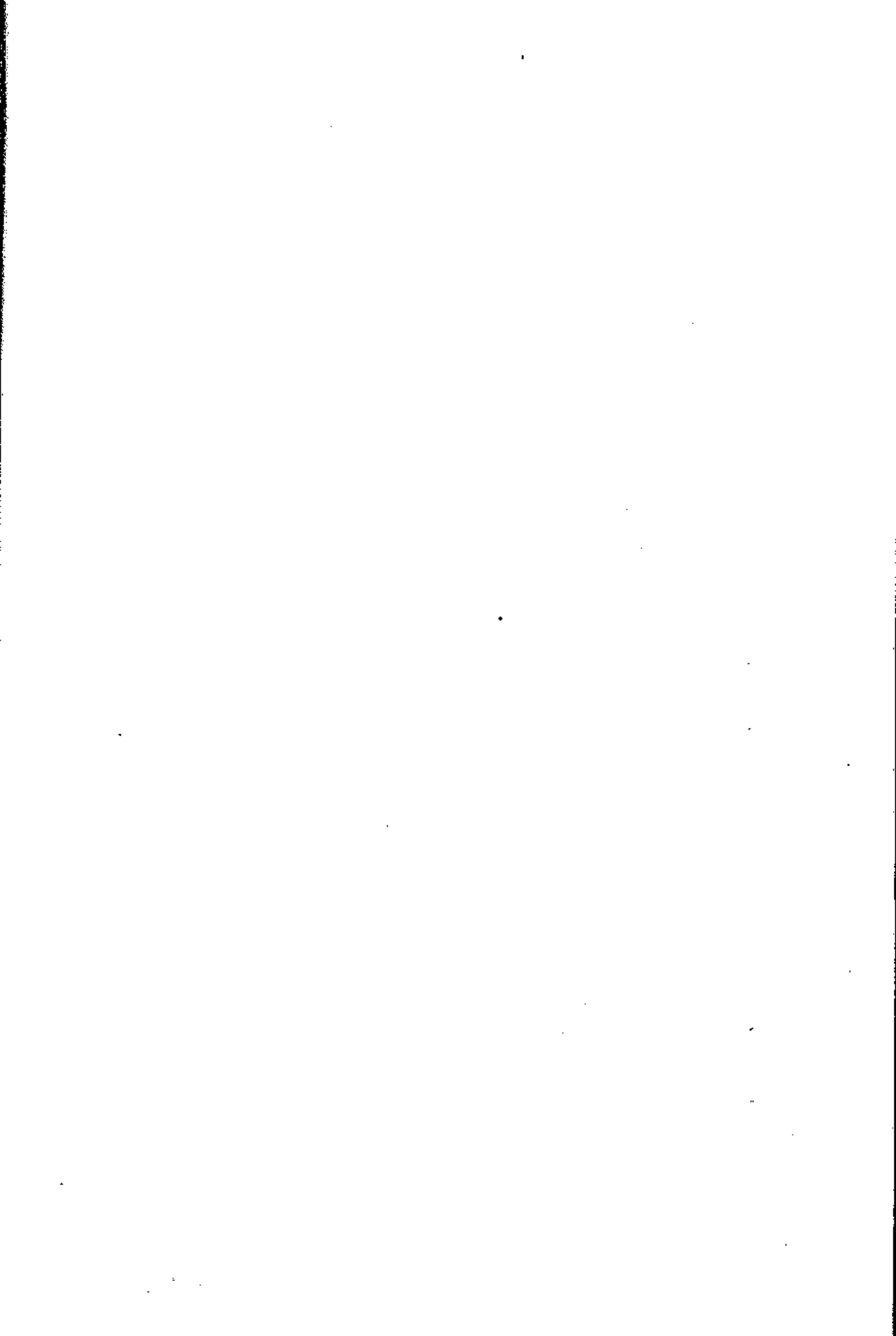
أما الآن فقد تغيرت الدنيا، وتعددت المساعى، واتسع أفق التفكير، وامتد إلى ما وراء مصر وشمل الشرق كله لا العربى وحده، وليس لى أن أقول أن هذا خير أو أنه شر، فما أدرى، فإن لكل جيل ظروفه، ولُكّل ناس أفق حياتهم؛ ولكنى لو ردت طالبا لما عدوت ما كنت فيه أيام الدرس والتحصيل، والذى كنا فيه فى أيامنا تلك هو الحب لبلادنا والاستعداد للحياة، ولم نكن كطلبة هذه الأيام علما بالدنيا، وتجربة للحياة، ومعاناة لشتى أحوالها وصروفها؛ ولكننا كنا طلبة نتوسع فى التحصيل، ونقطع من قوت يومنا لنقيت عقولنا، ونجيع بطوننا لنشبع نفوسنا، ونكد فى أجسامنا لنريح أرواحنا. وكانت أعمالنا - حين نعمل شيئًا - تمتاز بطابع الجد الصارم، وقد يضحك منها هذا الجيل، ولكنها لم تكن تدعو إلى الضحك فى أيامنا، لأن روح الجد كانت تنفى إمكان السخر، ولم يكن الإنجليز يضحكون منا، ولا الخديوى ولا حكومته، وكان الناس يتلقون

(٤) يرنّقها : يحيرها (المحرر) .

أعمال جيلنا بنفس الروح التى تصدر عنها هذه الأعمال، ويخيل إلى الآن أن جيلنا كان جيل "أطفال كبار" – أطفال إذا اعتبرت صدق السريرة والإخلاص وبساطة النفس ولكنهم كانوا كبارا إذا اعتبرت روح الجد؛ ولعل هذا الجد من تلك البساطة؛ وأين نحن من جيل اليوم؟؟ إنه جيل – كما يقول المثل العامى – يستطيع أن يمضى بنا إلى البحر ويردنا عنه ظماء، أعنى أنه أعرف بما فى الدنيا من عرف ونكر وخير وشر، أما نحن فما عرفنا الحياة أول ما عرفناها إلا من الكتب، أعنى أننا عرفنا المثل العليا قبل أن نعرف الحياة؛ وتعلقنا بصور الكمال قبل أن نكابد الليل، ولشد ما صدمتنا الحياة بعد ذلك وخيبت آمالنا، ورجت نفوسنا، ولكن بقية من الثقة بهذه المثل العليا بقيت فى قرارة نفوسنا فما زلنا بلهاء كما ترى .

وجيل الطلبة الحاضر على خلاف جيلنا فيما يبدو لى، أعنى أنه بدأ حيث انتهينا نحن؛ فعسى أن ينتهى حيث بدأنا فيفوز بالحسنيين جميعا .

إبراهيم عبد القادر المازنى



شوقي في ذمة التاريخ[1]

في أشهر معدودات – في مدى صيف واحد – فقدت مصر اثنين عاشا على رأس جيلهما، واستطاعا بعد أن تقضى العصر الذى أخرجهما وتغيرت الدنيا التى نشأ فيها، أن يحتفظا بمكانيهما من زمنها، وأن يثبتا على دفع الزحمة الجديدة، وأن يبقيا عنوانًا على مصر، وحلية فى تاج زعامتها للشرق. فالآن مضى الموت بشقى العنوان، وعطل التاج من حليتين كان لهما من القدم جلال، وإذا كانت الحياة كفاحًا بين الآراء والمذاهب والعقائد كما هو بين الناس وسائر المخلوقات – فإن الموت ينزع سلاح الكفاح، ويستل البواعث عليه ويمحو الدوافع إليه، والموت خليق أن يغرى المرء بالوقوف لحظة مترددًا حائرًا متفكرًا مضطربًا – إذا كانت هذه نهاية الحياة وخاتمة المساعى فيها وآخرة الفضيلة والرذيلة والحق والباطل والجلال والجمال والخير والشر؛ فأى شىء فى الدنيا حق؟ وأى شىء فيها باطل؟ وأين هى الحدود والمعالم؟ وإلى أى مدى تتداخل أو تتصل؟ وأين تفترق؟ ولقد عشت من العمر ما يكفى لأن يعلمنى أن الهدى والضلال أقرب شيئين ابتداء، ثم يفترقان ويتباعدان ولكن إلى أى مدى؟ لا أدرى ولا أعرف من يدرى، وليس بمخلص لرأيه من لا يخالجه الشك فيه أحيانًا، ولا يرجه الخوف أن يكون على ضلال. وما أكثر ما يكون رفض الشك غرورًا، ولكن بأى شىء يهتدى المرء فى هذه الدنيا التى تنتهى الحياة فيها إلى ظلام قبر لا يرى النور من يراه ؟؟

والحق أقول إن موت شوقى هزنى، فقد كنت فى حياته أتناول شعره برأى لى فى الشعر ينزع بى إلى الرفض، وإنى فى هذا لصادق السريرة؛ فقد تناولت نفسى قبله وقستها بهذا المقياس عينه، ووضعتها فى الميزان الذى وضعته فيه، فرفضت شعرى

---

(1) نشرت فى "السياسة" فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢ (ص١) .

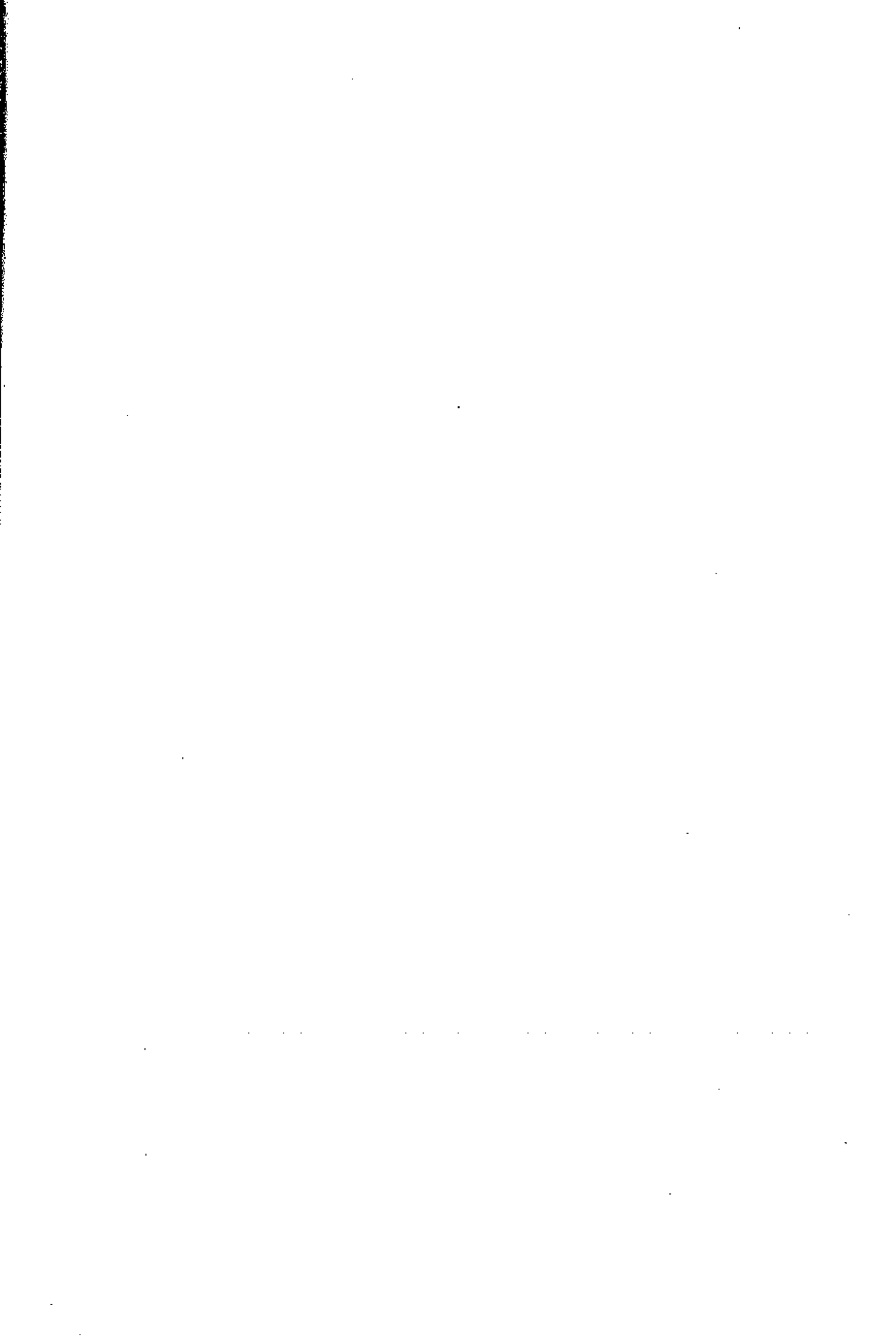
أيضًا، ونفضت يدى من النظم وكففت عنه لأنى أيقنت أنه لا يرقى إلى الطبقة التى أتمثلها، ولكن الموت قلاب لوجوه المسائل، وهو يبدى من الصفحات ما لعله كان مغيبًا، وإن كان على هذا يغيب ما كان باديًا معوضًا، ويخلع عن المرء كل ما هو عرضى ويجرده من كل شىء إلا الفضل والحق. فأحرى بالإنسان أن يقف برهة يتأمل مقاييسه، ويتدبر موازينه، لعله يعرف إلى أى حد كانت هذه المقاييس مضبوطة، والموازين دقيقة، والتقدير سليمًا، والنظرة صحيحة، ومن ذا الذى يسعه أن يطمئن إلى الدقة والسلامة والضبط والإحكام، والحياة بحر تتلاطم فيه أمواج الصدقات والخصومات، ويختلط فيه الإحساس بالرأى، والعاطفة بالعقل، ويتسرب الشعور المتأثر بشتى البواعث – ظاهرها وخفيها ومعروفها ومجهولها – فى ثنايا القضايا المنطقية؟ من الذى يستطيع أن يقول: إن رأيًا لى أبديته اليوم سيأخذ به الزمن غداً ؟

الزمن وحده هو الذى يغربل الآراء وينخل الأحكام وينقى ميراث كل جيل مما عسى أن يكون قد علق به من حواشى الحياة التى تتصادم فيها القوى أو تتساير، وتحترب أو تأتلف، وتجور فيها النفوس وقلما تعدل، والمرء فى حياته يقول ويعمل بقدر اجتهاده، وليس أحد بمطالب أن يكون رأيه هو رأى الزمن، فإن هذا فوق مقدور البشر، وإنما يطالب المرء بالإخلاص وصدق السريرة والاجتهاد، والاجتهاد فيه الخطأ والصواب، وليس المصيب بأولى بالتقدير والحمد من المخطئ، فإن الحمد على قدر الجهد والإخلاص فيه، فمن وفق فهو مشكور، وإلا فهو مشكور ومعذور .

وقد كنت فى حياة شوقى لا أحجم أن أبدى فى شعره رأيى، وهو رأى استخلصته من درسى لبراعات الأمم، ولست أدعى العصمة لنفسى، ولكن انتفاء العصمة لا يمنع أن يأخذ الإنسان برأى، ولو منع لتعطل الفكر وبطل الارتياء ووقفت الدنيا، وكان همى من النقد إفشاء الرأى الذى أعتنقه – بعرضه وتطبيقه – لا الإساءة إلى ذكرى شوقى، وقد صار تراثه هذا فى يد الزمن، وعلى قدر ما يجد الزمن فيه من عناصر الاستحقاق للخلود يكون إبقاؤه عليه، وليس لنا الآن أن نسبق الزمن إلى حكمه، وما أكره أو يشق علىَّ أن أكون مخطئًا، وإن كنت أرجو أن أكون مصيبًا، وما كان بالهَين على نفسى أن

أعالج تصحيح رأى لناس فى مذهب معين في الشعر يمثله شوقى، ولكن إخلاصى للأدب أعمق وأقوى من دواعى المجاملة لرجاله، وأخلق بمن يقسو على نفسه ولا يجاملها أن يكون أقل مجاملة لسواه، وما كان شوقي عندى شخصًا أناصبه، بل فكرة أقاومها أو مذهبًا أحاربه، وفي النضال تحمى النفوس، وتطيش الأيدى، وتخرج عن الاتزان، فإذا كنت قد عنفت أحيانًا، وجئت باللفظ الحامى والكلمة الثقيلة، فليس أشد منى اليوم أسفًا على ذلك، وإني لأستغفر شوقى وابنيه، وأستغفر أنصار مذهبه من كل ما جمح به القلم وهو يجرى بما أومن أنه واجبى للأدب، رحمه الله وعفا عنه وعنا .

إبراهيم عبد القادر المازنى



المـــوت[1]

رأيت الموت في صورة الشنع، وعرفت وقعه، ولذع مصابه، وهول معناه، وأنا صبي أتهجى وأحسب الحياة كرة تضرب وحلوى تؤكل، وقد مات أبي على عيني وكان مهول الحلم، صليب الإرادة، قليل التشكي؛ فلما حضرته الوفاة نادى أمي وأمرها أن ترقده على القبلة ثم ابتسم لي ودعاني أن أقبله، وفاضت روحه في عناقي حتى لخلته قد نام؛ ثم اختفى من بيننا؛ فغاب الخير كله، وشهدت جدتي لأبي وهي في سياق النزع أربعة أيام بلياليها، وكانت سنها عالية، وأحسبها أربت على التسعين إلا أنها كانت قوية، فلما جاء أجلها جعلت تفهق، ولا تكف عن ذلك حتى اختارها الله، وماتت ابنة لي بين ذراعي، وظلت حشرجتها ثلاث ساعات، وأنا أنظر إلى وجهها الصغير وأراعي عبث الموت به وتشويهه له، وأرى كيف يخبو ضياء الناظرين وتصبح العين كالزجاجة. وقضت زوجتي الأولى ويدي على رسغها؛ وعينها تحدق في وجهي، ودمها ينزف، والموت يشيع فيها شيئا فشيئا؛ وأخيراً ماتت أمي فشهدت أعنف عراك بين الحياة والموت، أو بين إرادة الحياة وعدوان الفناء، وأحسب القارئ يعرف ماذا يصنع الرجل إذا أبقى في الماء وكان لا يعرف السباحة، وكيف يروح يجاهد ويخبط بيديه ويضرب برجليه ويدفع برأسه، ويحاول أن يقتنص بضعة أنفاس من فوق الماء يستعين بها على الصبر والمقاومة - كذلك كانت تفعل أول ما أصابتها الذبحة، ولبست ثمانية أيام تكافح في كل ساعة منها صورة جديدة مما يكر الموت به عليها ليهزمها أو على الأصح ليخنقها، حتى لقد كان يكبر في وهمي أحيانا أن هناك يداً تقبض على عنقها لتحبس أنفاسها، وهي تعالج الفكاك والتملص، حتى كلت وأسلمت الروح، ومن ذا الذي لا يهزمه الموت ؟

---

(١) نشرت في "السياسة الأسبوعية" في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٢ (ص٣).

هذا الموت الذى يصنع بنا ذلك مـاذا هو؟ هو فى نظر الأحيـاء غـول موفق، يعدو على الرضيع والصبى والشاب والشيخ، ولا يبقى ولا يذر، ولا يحترم قوة، ولا يدرك على الضعف عطفًا، ولا يكـبـر علمًا، ولا يقـدر أدبًا، ولا يـرق لحسن، ولا تصـده تقوى، ولا تردعه سذاجة، ولا تغلبـه حيـلة، ولا يجـدى معه مكر، وأهـول مـا يروع المرء منه ما يتصوره من فعله، ومن منافاته ومحوه لمعنى الحياة. هذا إنسان محس مدرك يروح ويجىء ويأكل ويشرب ويضـحك، يلعب ويخـاف ويرجـو، ويحـزن ويفـرح، ويطمع ويزهد، ويشقى وينعم؛ ويقـعد أو يسعى، ويخيب أو يفوز، ويفتح له التفكير مـيادين لا أخـر لها يعرف، ويكاد أحيانا يحلق فـوق الحياة ويجـوز حدودها ويتصل بروح الكـون، ويلهم ما لا ينفع فيه تفكر أو يهدى إليه تدبر. هذا الإنسـان يمسى جيفه تسد الأنوف من نتنها ، جيفة يشق على المرء أن ينظر إلى بـلاها، أو أن يحتمـل ريحها الخبيثة، وينضب كل ما كان من ماء حياة مستجير ومن سحر، وينعدم ما كان من حس وإدراك، وتجف الأمـانى، ويقف العقل، ويتعطل الخيـال، ولا يبـقى إلا شىء من الإكرام له ومن الخير للناس، أن تدفنه عن العيون .

ولكن هذه المقابلة بين الحياة والموت قلما تكون فى شبـاب العمر، لأن قوة الحياة تكون أزخر وعباب تيارها يكون أطمى من أن يتجه الخاطر إلى ركود الموت، والتفكير فى الموت يجىء مع الإحسـاس بأن فيض الحياة أخذ يضعف، وأن نبعـها لم يعد كما كان ثرًا؛ فيستيقظ الشعور بالذات يقظة المحس بالخطر عليها، ويكذب من يقول لك أن خـاطر الموت لا يجرى له فى بال، وأن فكرته لا تروعه، فـإن غريزة حفظ الذات مـركوزة فى الطبـاع؛ وهى تقوى على الأيام فى الإنسان وتزداد تنبها، إذ كـانت حياة الإنسـان كلها تعرضا واستهدافا للمخاطر، والتجربة والمعاناة يشحذان هذه الغريزة، والموت هو الخطر الأكبر على الحيـاة فيمـا يحس كل مخلوق، حتى الحيوان يجزع منه بفطرته الساذجة؛ فغير مقبول من امرئ أن يقول أن خاطر الموت حسن الوقع فى نفسه، ولكن من الممكن أن يقول الإنسان أنه راض نفسـه على السكون إليه إذ كـان [لا] منجى منه ولا متحول عنه .

على أن الخاطر قد ينثني إلى الموت ويطول تفكيره فيه، حتى في أيام الشباب الجامح، ولقد عانيت آلام هذا التفكير وتنغيصه في صدر حياتي، وكان يفزعني ذكر الموت حتى لقد كنت أعوذ بأهلي وأحيط نفسي بأذرعهم كأنما كنت أتوهم أن في وسعهم أن يحموني من أن يخطفني، والعجيب أني كنت أحس بهذه الحماية.. أو قل إن إحساسي لم يكن أن في وجودهم حولي حماية لي ، بل بأن هذا الوجود فيه مقدار من الإيناس يرد بعض الطمأنينة إلى النفس، ومع الطمأنينة يعود إلى المرء شيء من اتزان الأعصاب؛ ومتى اتزنت الأعصاب خف عن النفس كرب الخوف والجزع. وليس الجزع من الموت جبنًا، وإنما هو نقص في اتزان الأعصاب يتعذر معه التفكير الهادئ الرزين الذي يستطيع وحده المحافظة على التناسب الحقيقي بين الأشياء .

ولفرط جزعي من الموت في شبابي، وهول ما قاسيت من آلام هذا الجزع، قلت أتداوى بالداء، فنقلت سكني إلى حيث أجداث الموتى، وحيث كل قبر يصير – كما يقول المعري – قبرًا مرارًا ضاحكًا من تزاحم الأضداد؛ لتألف نفسي فكرة الموت وتسكن إليها ! وتتبلد بذلك، والعادة تبليد. والطرق عديدة إلى حيث سكنت، ولكني كنت أوثر المشي بين المقابر في النهار وفي فحمة الظلام، وأتعمد ذلك وأحمل على نفسي به، حتى برئت من هذا الجزع أو على الأصح تبلدت وسكنت وفقد خاطر الموت لذعه، وقد رويت للقارئ من قبل كيف وقعت مرة في قبر متهدم عانقتني فيه جثة[2]، وأحرى بهذه التجاريب أن تشفي، وأن تفرغ على النفس القدر الكافي الواقي من البلادة أو الاعتدال في الإحساس، وقد أصبحت من البلادة بحيث لا يبذني في ذلك دافنو الموتى أنفسهم .

ولو سئلت الحياة عن رأيها في الموت لخالفت الإنسان، والإنسان يبغي البقاء والدوام، ولو بقي لفقدت الحياة غايتها وبطل فعل عواملها؛ بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أن دوام الحياة لمخلوقات بأعيانها يعصي على "الحياة" نفسها وينفيها، فلا تعود هناك حياة لها سنن، وإنما يكون هناك وجود هو عبث محض، وقد فصلنا ذلك في

(٢) راجع المازني : خيوط العنكبوت، الطبعة الأولى، ١٩٣٥، ص ١١٩ .

"حصاد الهشيم" ولعلنا نعود إليه في فرصة أخرى، والموت ليس فناء، ولكنما هو طور من أطوار الحياة، والذي يموت يخدم "الحياة" ويغذي عناصرها، كما يخدمها عن وجوه أخرى، وهو حي يرزق، وليست خدمة الميت "للحياة" بأقل من خدمة الحي، ولا هذه الأخيرة أولى أو أحق بالرعاية، والقانون واحد للأحياء والموتى، وليس للفرد قيمة خاصة، وكل قيمته عند نفسه لا في نظر الحياة، وهي قيمة مبعثها الشعور بالذات، ولو فقد المرء شعوره بذاته لفقد تبعًا لذلك ما ينحل نفسه من القيمة، ولما عز عليه الموت إلى هذا الحد، ولا استهول أن يصبح فإذا هو جثة هامدة لا سعي لها ولا حس ولا روح فيها ولا نفس، تتحلل في التراب وتمتزج بعناصره وتتفاعل معها لتساعد "الحياة" على الإنتاج - كما ساعدها في وجوده فوق ظهر الأرض بصور الإنتاج المختلفة التي قدر عليها ووفق إليها. وقد لا نفهم الغاية التي تقصد إليها الحياة، أو قد تقصر أذهاننا المحدودة عن إدراكها، ولكن عجزنا نحن المحدودي الأذهان عن إدراك كنه الحياة والتفطن إلى غاياتها ليس بدليل على أن ليس للحياة غاية، وإن كان كذلك ليس بالدليل على أن لها غاية، ولكن الحياة لا تكرر نفسها؛ لأن التكرار يكون عبثًا وسرفًا، وهذه الصرامة في قوانين الحياة والدقة الرائعة في سننها تنزهانها عن العبث، وأخلق بالإنسان - إذا نظر إلى الموت من هذه الوجهة: وجهة الحياة بالمعنى الأوسع - أن يرى فيه من السحر والفتنة مثل ما في الحياة نفسها. وأن يحس بنفسه تسمو وتحلق وتمتزج بروح الكون، وتتسرب فيها كالموجة في الموجة، وأن تذهل عن الخواطر الأرضية جميعا .

إبراهيم عبد القادر المازني

شجون الحديث

بين الدكتور زكي مبارك وبيني[1]

كان العزم أن أتم في هذا الفصل ما بدأته من الحديث عن "الجاحظ"، ولكن الدكتور زكي مبارك صرفني عن هذا بما كتب عني، وما أراه أحسن أو عدل فإن الجاحظ كان أولى بالكلام مني ومنه جميعا، وقد زعم أن من حقي عليه أن يستدرجني إلى الكتابة والنظم والتأليف، فهو ألب مع الحياة عليّ، وما أعرفني كففت عن الكتابة حتى يحتاج هو أو سواه أن يستدرجني، ولقد تكفل الرزق بحملي على هذا المكروه، فماذا يبغي فوق ذلك؟ وليتني أعرف السبيل إلى الكف! ولشد ما أود أن ألقي القلم وأستريح من عناء باطل، وأريح الناس من هذر طويل، أما الشعر فلا والله لا عدت إليه! وما أظن بفتن الدنيا ألا أنها عاجزة عن أن تردني، وما أستطيع أن أغش نفسي أو أخدعها عن حقيقتها، وما زال في جنبات الأرض مراح لمن يبغي المراح، فما تغيرت الدنيا ولكن تغيرت نفسي، واختلفت نظرتي، وعلى أن الشعر ليست مادته الوحيدة الجمال كما يبدو لي أن الدكتور زكي يظن، والحب ليس مصدر الوحي الذي لا مصدر سواه، فإن كل ما في الحياة مادة صالحة للشعر لو عرف المرء كيف يتناولها ويؤديها، وإن صديقي ليخطئ إذا كان يظن أن زهدي في الشعر مرجعه إلى فتور في الإحساس أو خمود في جذوة الشعور، وأن الوحي ما انقطع إلا لأني فطمت نفسي عن الحسن، لا يا صديقي، وإنما أمسكت عن النظم لأني حاسبت نفسي، ووازنت قوتي وضعفي، ووضعت اقتداري في كفة وقصوري في كفة، فرجحت هذه وشالت تلك،

---

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٧ يناير سنة ١٩٢٤ (ص٢) .

وقست مجهودى إلى غايتى فألفيت الغاية بعيدة والمذهب إليها أطول مما أطيق وأشق مما أحتمل، فتحسرت وأقصرت، وقلت لعلى أحسن غير هذا، وانثنيت أعالج سواه، وما أرانى أفلحت، ولكن اليأس لم يشع فى نفسى، فأنا ما زلت أحاول، فإذا كتب الله لى التوفيق فله الحمد، وإلا فحسبى أنى سعيت ملحًا .

وينابيع الشعر لا تنضب، وبواعثه ليس لها حصر أو آخر، والغزل ليس كل الشعر ولا أجله، كما أن الجمال ليس كل ما فى الحياة ولا أروع ما فيها، وقد كان المعرى أعمى وكان شاعراً ليس كمثله شاعر، والإحساس بالجمال لا يذهب به انعدام القدرة على الفوز بمتعه، فقد فلج هينى الشاعر الألمانى أو أصابه ما هو شر من الفالج، فكان يحمل كالطفل، وتفتح له عيناه، ويوضع له الطعام الخفيف فى فمه فلا يحسن مضغه ولا يزدرده إلا بجهد مضن، وصار نظره فى حكم المكفوف. ويروون عنه مع هذا أنه عشق وهو على حافة القبر امرأة تدعى "كاميللا سيلدون" ويقول مترجمه المستر هـ.ج.أتكنز أستاذ اللغة الألمانية فى جامعة لندن "ومع أن المرجح أنه غالى فى تقدير مواهبها، إلا أنها كانت عنده فوق منزله المساعد المأجور، (فقد اتخذها كاتبة له) وحسبنا أن نقرأ الرسائل التى كتبها إليها، والقصائد التى أوحتها، لنعلم أن هذا الكسيح الميئوس منه – هذا المفلوج الذى خبا نور عينيه أو كاد، هذه الصدفة التى لم يبق منه سواها – قد استولى عليه حب، إذا كان ألطف وأرق من كل معاشقه الأخرى، فإنه مع ذلك لم يكن أفلاطونيًا وإنما كان شهوانيًا حاراً كحب الشاب. وأعجب من هذا أنه أثار فى نفسها مثل حبه لها، فلم يعد يطيق أن تغيب عن عينه... وكانت هذه هى التجربة العظيمة فى الأشهر الثمانية التى بقيت من حياته. واستدارت حياته، وكان يحيى على ذكريات الشباب، فألفى نفسه يعشق مرة أخرى... ويقول فى ختام رسالة إليها "لا أعرف شاعراً غيرى أبلغه سوء حظه ذروة السعادة فى وقت يسعها فيه أن تسخر منه" إلخ إلخ. وفى الليلة التى مات فى صباحها ألح عليها، وهى تنصرف، أن تعود إليه فى الصباح، وكان يعلم أنه هامة اليوم أو الغد – كما يقول العرب، وكان يخبر إخوانه فى رسائله أنه مشف على التلف، ولم يكن يخفى عليه أنه جثة وأن فرق ما بينه وبين أهل القبور، أنه ينطق وهم لا ينطقون، وأنه يفكر بعقله ويحس بروحه وهم مرتاحون .

وما قلت أني فقــدت "الإحساس"، وإنما قلت أني "استضعفت" شعــرى، وأني لا أراه يبلغ بي حيث أريد، وفرق بين الحالين، والأولى موت والثانية حياة، ولاتلتبس حياة بموت، والخلط بينهما أعجوبة، وقد يبقى الشعور وتذهب الإرادة، ويظل الإحساس قويًا تامًا ويفتر العزم والطلب، أو يضعف النشاط وتعاني النفس ثقلة تصرفها عن المحاولة، أو تجرب ما يزهد أو يحدث غير ذلك مما لا سبيل إلى تقصيه. وإذا كنت قد قلت أني أخشى فتنة الذكريات السوالف، وأخاف أن يضربني الماضي بسحره، فلا أدرى لماذا يصرف صديقي هذه الذكريات إلى الحب؟ ويقصر السحر على الجمال؟ إن لي قصيدة مما لم ينشر في ديواني[٢] ، اسمها "كأس النسيان" وفيها أقول :

هات اسـقني سلوةً عن الذكــر	أنسى بها ما مضى من العمـر !

ومنها :

هات اسـقنيـهـا وخـلّ نـشـوتهـا	تمحـو الذى فى الفـؤاد من صـور
وخــذ كنوز العـقــول وارم بهــا	مــن حـــالق لـلـــرياح والمـدر
كم غـصـت في لجة الحيـاة فـما	فـزت بغـيـر الصـخـور والحـجـر
وكم نفـضـت اليـدين من حـجـر	حـــسـبــتـــــه درة مـن الـدرر

ومنها :

ما ضرني لو جهلت ما علمت	نفسي وما قد أفادني نظرى؟
أو لو نسيت الذى شعرت به	فى كبرى الآن أو لدن صغرى؟
أو لـو سلوت الـذى كـلفـت بـه	على الذى كان فيه من سَكَر؟[٣]
أثـم صــوت تعـــيــد نبـــرته	إليّ ذكــرى الربيــع والزهــر؟

---

(٢) نشرها الأستاذ محمود عماد في الجزء الثالث من ديوان المازني، (ص٢٤٣-٢٤٤) .

(٣) بالتحريك وفى الديوان "شكر" .

أثم عين تثير نظرتها أحلام نفسي في ريّق البكر؟

وتنشر اللذة المضيئة لي حُلماً من العيش جد مبتكر؟[٤]

نعم لعمري في الأرض زينتها [من مسمع فاتن ومن نظر

وروضة العيش جد حالية][٥] من زهر مونق ومن ثمر

كأنها لافترار بهجتها تحير نطقاً لمدمن البصر

واها لقمريها إذا اتسقت أسجاعه واستراح للسحر

واها لسحر في لحظ نرجسها يسطو بوقع السجو والفتر

واها لأيكاتها إذا همس النسيم في أذنها مع القمر

لكن أغصانهن يا أسفا بعيدة من منال مهتصر

أصبت في العزم لا الشعور فإن أدرت لحظي في الشيء لم يدر

وإن مددت اليدين خانهما عزم الشباب الجريء ذي الأشر

يذعرني الشيء كان يجذبني لشد ما أستجير بالحذر!

أحمل عبئاً من السنين فما عسى وراء الغايات متكدري؟

ولي من الذكريات حاشية في حيث أمضي- محشودة الزمر

فهاتها إذعرا الشجون بها حتى أراها تطير كالشرر

لم لا أبت الذي يقيدني بما مضى وانقضى من العصر؟

إني أراني قد حلت وانتسخت مع الصبي سورة من السور

وصرت غيري فليس يعرفني - إذا رآني - صباي ذو الطرر

ولو بدا لي لبت أنكره كأنني لم أكنه في عمري

كأننا اثنان ليس يجمعنا في العيش إلا تشبث الذكر

مات الفتى المازني ثم أتى من مازن غيره على الأثر

---

(٤) تنشر معطوف على تثير في البيت السابق، وحلماً مفعول لمضيئة (المازني) .

(٥) قارن الاختلافات مع الديوان، المجلد ٢، ص٢٤٤ .

وقد سقت هذه الأبيات وأنا خجل منها، لأنها بسبيل مما أقول، ولأنها تبين للدكتور زكي مبارك وللقراء أن التطور في النظر راجع عندي إلى أكثر من عشر سنوات، بل إلى أكثر من سبع عشرة سنة كما يعرف صديقاي الأستاذ العقاد والأستاذ حسن السندوبي، فقد اطلعا على قصيدة لي اسمها العراك لم تنشر في ديواني، وهي أطول جدا من أن تنقل هنا لأن عدة أبياتها أربعمائة وخمسة وثلاثون، ولكن فيها هذه الأبيات على لسان النفس وهي تخاطبني :

نضب العزم - والمنى ثرة العين	لعمرى ما أسوأ القرناء
شيبة العزم مع شباب الأماني -	أضعيف يظاهر الأقوياء ؟
دون ما تبتغى حوائل ضعف	فاجعل العزم والمنى أكفاء !
أيها الطين ما ترى بك أبغى ؟	لست فيما أرى لشيء كفاء[٦]
إن طلبت السماء قلت لي الأرض،	أو الأرض كنت لي عصاء[٧]
صرت[٨] حتى الذى أفكر فيه	لست أسطيع صوغه والأداء

والتطور كما يرى صديقي ويرى القراء قديم، وقد صرت من فرط التحول أرى أن الجمال هبة من المحب، وعطية منه المحبوب، فإذا جاز للجميل أن يدل بحسنه وورنقه فإن للعاشق أن يتيه عليه بحبه له، لأن عين المحب هي التي تلبسه الحسن، ولأنه إذا لم يكن معنى الحب موجودا في الجمال، فلا جمال هناك، ولا معنى إذن للضعف والإذعان من العاشق والتدلل الثقيل من المعشوق، وأولى بالجميل أن يشتاق أن يُحَبْ وأن يفرحه ذلك لا أن يبْطره. وقد قلت في ذلك أبياتًا لم تنشر[٩] منها :

(٦) لست أنت. (المازني) .
(٧) طلبت أنا (النفس)، وقلت أنت (الجسم). (المازني) .
(٨) في الديوان "حرتُ" (المحرر) .
(٩) غير موجودة في الديوان. (المحرر) .

تبًا لذلك من حسن ! ووأسفًا   عليه من مستعار ثم مردود
عطية الحب هذا الحسن فاتئدى   ولا تتيهى بحبى فهو مجهودى
ولست أهلا لا متاع برونقه   إن راح معناى فيه غير موجود
إن الرياض رياض بالشعور بها   ولسن سين فى العمران والبيد
والحسن حسن بأن تهواه أفئدة   أو - لا - فذلك موجود كمفقود
فمن أحب فقد أهدى لصاحبه   حسنًا وسربله سربال منشود
وليس فضلك إلا أن لى كبدا   تهوى إليك بأسرارى ومشهودى

وليس أثقل من مثل هذا الكلام فى نفس حبيب، ولكنه الحقيقة، وبلغ من وقع الحوادث فى نفسى أن صرت إذا أخذت عينى منظرًا حسنًا أرى آخر الأمر بأول الظن؛ فتفزعنى الخاتمة وتصدنى عن الحلاوة القصيرة العمر، وصار هذا داءً مخامرًا حتى لقلت فيه بيتين أرويهما لاستشهاد، وهما مما لم ينشر[10] :

أرى رونق الحسناء فى ميعة الصبا   فيوضع بى شؤم الخيال ويعنق
ويشهدنيها فى التراب مرمة   وقد غالها غول الحمام الموفق

فما القول فيمن لا يرى ذات حسن إلا تصورها راقدة فى قبرها - وإن كان القبر غاية كل حى - وقد عدا عليها البلى وأصارها جيفة !! أو يعرف الدكتور زكى أشأم من هذا الخيال الذى ينغص على صاحبه منظر الجمال بهذه الصور؟ وأحسبنى صرت كذلك لطول ما أقمت بين المقابر، وكثرة ما نزلتها، ويا ما أكثر ما سويت فى ظلمتها التراب، وحسرت فى وحشتها عن الوجوه وفى نفسى يدور قول الشريف الرضى :

صور ضنت على العيون بلحظها   أمسيت أوقرها من البوغاء[11]
ونواظر كحل التراب جفونها   قد كنت أحرسها من الأقذاء !

(١٠) كذلك غير موجودة فى الديوان. (المحرر) .
(١١) التراب عامة (المحرر) .

ففرق ما بيني وبين الدكتور زكي مبارك أن نفسه موصولة بالوجود وأن نفسي موصولة بالموت، وأنه يفتنه وقع الحياة وأني يفتنني دبيب الفناء اللازب، وأنه يخالس الحين المحتوم وينتهب ما يسعه انتهابه من طيبات العيش، وأني أواجه هذا الحتم في حياتي قبل الأوان وأتعقبه بعيني وأتأثر دبيبه إلى كل شيء. وليس هذا عنده من فيض القوة ولا هو عندي من فرط الضعف وإنما هي أمزجة وطباع .

ويزعمني الدكتور أنني أريد أن أمحو شعر العواطف، وما أبغي شيئا من هذا، ولا أنا أدعو إليه، وإني لأدرى أن الإنسان يعيش بالعاطفة والطبع أكثر مما يعيش بالعقل والمنطق، ولكن الشهوة الهوجاء عرام وجماح، وسبيل المدنية أنها تنظم تدفق العواطف وتحولها إلى مسارب تصلح بها حياة الجماعة، والعواطف كالماء المتحدر، تحتاج إلى السدود والحواجز ليعظم الانتفاع بها، ويتسنى استخدامها في الخير، ولتمتنع البعثرة والتبديد، ولا صلاح لجماعة إلا بتهذيب الغرائز وتنظيم العواطف، والعاطفة أداة لا غاية، والمرء يشعر بالجوع لأن الجوع هو الوسيلة التي تنبهه بها الغريزة إلى حفظ ذاته من التلف، ولكن الطعام ليس هو الغاية، وإنما الغاية هي المحافظة على الذات باكتساب القوة التي يفيدها الغذاء، وكذلك الحب ليس في مرد أمره سوى تنبيه أو إغراء بالمحافظة على النوع، فهو أداة لا غاية ووسيلة لا غرض، وفي الحب متعة كما أن في الطعام الشهي لذة، ولكن الطعام لا يطلب لذاته، فلماذا يطلب الحب لذاته، وكلاهما أداة تنبيه وحفز وإغراء ليس إلا؟؟ والحب عند الحيوان مظهره التنزي، ولكنه صار في الجماعات الإنسانية أصل نظام الزواج، والزواج كبح وتنظيم، لا أكثر ولا أقل، والأنانية أصل في الإنسان، ولكنها اتخذت على الأيام، ومع رقي الجماعة، مظهر الوطنية – والوطنية ضرب من الأثرة في الجماعة، غير أنها على هذا تدفع إلى الإيثار الرائع والتضحية الجليلة، فمن شاء أن يقول في الحب فليقل ما شاء، ولكن لا يقل ضعفاً وخلطاً، وقد قلت أن المرء بأن يغتبط بالحب ويفرح أولى منه بأن يحزن ويشقى، وما زلت على هذا الرأي، وفي الحياة التوفيق والإخفاق، والخيبة في الحب لا ينبغي أن تعد خيبة للحياة كلها، فما هي بأكثر من أية خيبة أخرى في أي مطلب، والبكاء والعويل والندب واللطم من أجل بعد أو فراق أو غير ذلك عجز وقلة حيلة

وضعف لا يغتفر، والخدود لم تخلق للّطم ولا العيون للبكاء ولا الحناجر للصراخ والإعوال، وللإنسان في الحياة عمل غير هذا، وواجب أجل وأسمى، والحب - كالموت - شيء مألوف، وجديده ليس أقدم منه، ولا خير في أن تظل تقول لي - في كلام منظوم أو منثور - أنك تحب وأنك تحب، وأنك تحب، وإنما الفضل والمزية أن تبين لي ماذا حرك الحب في نفسك من المعاني والخواطر والخيالات والإحساسات والصور، وأن تطلعني إذا شئت على اتجاهات نفسك، والتفاتات ذهنك، وأن تجعلني بكلامك في هذا أحسّ بالحياة، وأعمق شعوراً بها، وأحسن فهما لها، وأصح إدراكا لحقائقها، فكأني جربت ذلك، وبلوته بنفسي، وفتحت المعاناة عيني على كل ما هنالك وجعلته في متناول إحساسي وإدراكي، وبذلك تقوم قراءة الشعر - أو النثر - مقام التجربة الشخصية، أما إذا لم يزد الكاتب أو الشاعر على أن يقول أنه يحب، وأنه موجع القلب، وأنه، وأنه مما يجري هذا المجرى، فإن هذا يكون وجع قلب للقراء لا يستحقونه! وكذلك في كل عاطفة أخرى .

ومن المغالطات التي صرنا فيها إلى التقليد المحض والحكاية الصرف أن نقول إن فلانا خلي وفلانا شجي، ونعني بذلك أن أحدهما قلبه فارغ من الحب وثانيهما قلبه مترع، وما يخلو قلب مما يترعه وإن خلا من الحب، فما كان الحب كل ما في الدنيا، وقد صرنا إلى التقليد في هذا بلا تفكير لأنا رأينا السلف يقصرون الاستعمال على هذين المعنيين حتى أصبح اللفظان كالعملة المسكوكة، لا تستطيع أن تتصرف بها إلا بقدر ما كتب عليها، وقد جاء في مقال الدكتور زكي مبارك "أما ما تشير به ضبط النفس وبعد النظر إلى ما بعد اللحظة الحاضرة؛ فكلام جميل ولكنه لا يصدر إلا عن قلب خلي، والخليون من أقدر الناس على سوق العظة وضرب الأمثال" .

والذي أريد أن أفهمه هو: إذا كانت النفس خالية فارغة فأي ضبط تحتاج إليه؟؟ أليس من الواضح أن الضبط والكبح لا يكونان إلا مع الشغلان؟ ولا قيمة لضبط النفس إلا إذا كانت مضطرمة، أما مع الخلو فلا فضل المرء في ذلك إذ لا عسر ولا مشقة، وليست المسألة أني خلي وأن صديقي شجي، وإن في وسعي لهذا أن أعظ،

وإنما المسألة أن الدنيا تصير إلى الفوضى إذا راح المرء يسلس العنان لجمحات إحساسه، كلما طغى به شعور، وليس فضل الإنسان أنه يحس، وإنما الفضل فى اللجام الذى تضعه الإرادة لتتزن الخطوات، وتعتدل الحياة، وتستقر الأمور على حدود محتملة .

ويعد فلعل صديقى بعد أن يقرأ هذا يرى أنه تجنى علىّ حين اتهمنى بسوء النية وخبث القصد حين قال "أغرم الأستاذ المازنى منذ سنين بنفى الشعر عن نفسه ليتحرر من ماضيه تحرراً مطلقًا، وبذلك استطاع أن يهاجم شوقى وأن يداعب حافظًا، ثم عاد فتبرأ من شعره براءة قاطعة لينفى الشعر عن صديقه الحميم زكى مبارك" .

ذلك أنى نقدت شعر حافظ وشوقى قبل أن يزول عنى الوهم وأيام كنت أقول الشعر مغترا بنفسى مخدوعا فيها، وديوان زكى مبارك لم يظهر إلا منذ أيام أو أسابيع، وهو يعترف أنى أبرأ إلى الله من شعرى منذ سنين .

ولا يخف أن أهدى إليه نصيحة – كما يقول – فإنى أعرف أن أتعب خلق الله قلبا من يدور على الناس بالنصح، وليس أثقل على خلق الله من الناصح، وما كنت أنصح له وإنما كنت أشرح مذهبى فى الشعر وحالى معه، لأنصف نفسى وأنصفه من سوء رأيى فى شعره، وليس عليه من ذلك كله بأس، فليمر به متسامحًا، وليعذر من لا يفهم، وليملأ السماء والأرض شعراً فلن يجد قارئًا صبوراً مثلى ..

ولم يصدق [...][١٢] الذى أخبره أنى أحفظ بيتين من ديوانه ألهج بهما معجبًا فما أحفظ شيئا له أو لسواه، وإن ذاكرتى لغربال واسع الخروق .

بقيت الترجمة، فأنا أقول أن الجيد فى لغة يجود فى أخرى، وأن الكلام الذى تفقده الترجمة قيمته، لا تكون له قيمة حقيقية، وهو يرى غير ذلك، ويمثل بالقرآن الكريم وترجمته، والقرآن فوق هذا فلندعه. ولا أذكره بأن لكل لغة بلاغتها، وأنه ما من لغة انفردت بالبلاغة واستبدت بحسن الأداء، والمترجم لا ينقل ألفاظًا وإنما ينقل معانى؛

(١٢) [...] أى غير واضحة فى الأصل المتاح ويمكن أن تكون "القارئ" . (المحرر) .

فإذا كان ممن أوتوا القدرة على العبارة، ورزقوا موهبة الأداء، استطاع أن يجعل الترجمة فى وزن الأصل، ولم يخسر الأصل بالترجمة شيئا، وربما ربح، والألفاظ بمجردها لا قيمة لها وهى شيء ميت لا يحييه إلا أن يتعلق بعضها ببعض على مقتضى المعانى، وهى وحدها كالثياب المعلقة، والثوب يكسو اللابس ويزينه ولكنه – أى الثوب – لا تكون له شخصية ولا يعرف الإنسان مزيته إلا حين يكون ملبوسا، وكذلك اللفظ؛ فإذا فقد الكلام بالترجمة المحكمة شيئا، فإنما يفقد الزيف. والحكم صحيح على إطلاقه، والقول بهذا تعصب ودعوى عريضة للغة دون لغة .

حاشية – لفتنى بعض الإخوان إلى عبارة فى مقال الدكتور زكى مبارك لم أفهمها فى أول الأمر، وهى: "وهذا الطيف الذى نام عن ليل المازنى وأسهره كان معروفًا فى القاهرة إلى عهد قريب وهو اليوم طيف مشرد لو أوى إلى جفن المازنى لطرده ورده أقبح الرد إلخ إلخ" .

وقد دهشت وأسفت لهذا الإسفاف، ووددت أنى ما علمت هذا، ولا التفت إليه، وأنى بقيت على حسن ظنى بالرجل، فليسمح لى أن أجعل هذا آخر ما بينى وبينه والسلام عليه .

إبراهيم عبد القادر المازنى

العيد .. فى مصر[1]

العيد للصغار دون الكبار – أعنى أن فرحته للحدث لا الذى علت به السن، فما له فى عقل العاقل أى معنى، وهو إذا حسن جدا وطاب الوقت فيه وصلح الحال لا يعد أكثر من فرصة تتاح للراحة من عناء العمل وجهد السعى والمغامرة، ولست أدرى كيف يغتبط الحى بتصرم الأيام، وكل يوم يمضى عليه يهد منه ويدنيه من ساحل الحياة أو من منحدرها – إذا شئت – والأيام تبنينا لتعود فتهدمنا، حتى ليخيل إلى المرء أحيانًا أن بها مثل عبث الأطفال، أو طفرة الفجار من ذوى السلطان، وما أكثر ما أقول لنفسى أننا لسنا فى هذه إلا كخراف العيد التى نربيها ونسمنها ونملؤها لحما وشحما لنكر عليها بالسكين فى البكرة المطولة من صباح العيد، وكذلك تفعل الأيام بنا، وقل إنها تسمننا والأغلب أنها تعجفنا، ولكنها على الحالين تملؤنا تجارب ومعارف، ثم تطوى الكتاب طيًا يمحو كل ما خط فيه من الفوائد، فلو أن ما أفدنا يبقى بعد أن تذهب، ولا يلف عليه الكفن الذى يلف علينا.. ولكنه يلحق بنا! ولو بقى الذى يستفيده المرء ويعتصره من الحياة لقل الأسف، ولما خامر المرء الشك فى حكمة الحياة، وتصور أن يقضى المرء حقبة طويلة من الدهر يدرس ويتعلم ويحصل ويلخص ويعصر، ويعمر بهذا كله رأسه وصدره، حتى إذا جاءه الأجل مسح اللوح وأمحى ما كان مسطوراً فيه، ولم يبق إلا الجثة الهامدة التى لا خير فيها، بل الخير فى تغييبها أو إيقاد النار فيها لتطهير الدنيا منها! ولا تزال الفوائد تحصل وتذهب على هذا النحو، والدنيا لا تجنى منها ثمرة. فما أعجب هذا! فهل ترى كانت الدنيا تخسر وتفسد لو أمكن أن تتحفظ بما يكسبه المرء من التجارب ويفيد من الحنكة والمعرفة والدراية ؟

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٧ يناير سنة ١٩٣٤ (ص١) .

والعيد لا يكون عيداً فيما يحس الصغير، إذا لم ينل فيه ما تعود أو ما اشتهى، من لعبة أو كسوة أو هدية أو نحو ذلك، وللطفولة منطقها وفهمها الخاص للحياة، ولدواعى السرور والحزن، ولو أنك قلت لطفلك إنى قد اشتريت لك ضيعة مغلة تجيئك فى كل عام بألف جنيه، أو أنى قد ابتعت لك ألف سهم من أسهم بنك مصر لا تربح منها فى السنة أقل من ثلثمائة جنيه، لغضب واكتأب، وربما بكى وانتحب، لأنك تهدى إليه ما لا قيمة له عنده، وتهبه مالا وزن له فى حسابه، وتحرمه لعبة مشتهاة من مثل حصان آلى، أو أرجوحة، أو شخص ينقر على طبلة، أو زمارة يملأ بها البيت ضجة، أو كرة يقذفها فتكسر الزجاج وتحطم الأوانى، أو غير ذلك مما لا آخر لضروبه وأشكاله. وأذكر – فيما أذكر من أيام الطفولة – أنى كنت فى كُتّاب أو مدرسة أولية وكان أبى حيًا، وكنا فى رخاء وميسرة، وكان للكتاب وقف مشروط فيه أن يعطى كل فقير من الصبيان كسوة فى العيد – بضع أذرع من نسيج خفيف فى الصيف أو ثقيل إذا وافق العيد الشتاء، وكانت العادة أن يحمل المجدودون من الصبيان هذه الهدية ويمضون مع زملائهم المحرومين صفوفًا متتابعة إلى دار الوقف لرفع الشكر والدعاء، وعلمت أنى لن أعطى شيئا، لأنى كنت فى ذلك الزمان الغابر من الأغنياء، ببركة أبى وجدى عليهما رحمة الله، حزنت وشق على الأمر، واستهولت أن أمشى مع الصبيان ويدى فارغة على حين يمشى من عداى متأبطين كساهم فرحين بها! فاشترى لى أبى "قطنية" زاهية الألوان ناعمة الملمس، وقال خذها وامض معهم، فهل يعرف القراء ماذا صنعت بهذه "القطنية" الغالية؟! طرت بها فرحًا وتلقيتها من أبى، فلما صرت مع رفقائى ورأيت أن كساهم كلها بيضاء، وإن كسوتى دونهم صفراء وزرقاء وبيضاء – كرهت ما عندى، ووددت لو ألقيت به فى الوحل، ولم أزل بواحد من الصبية أحاوره وأداوره وأخادعه حتى قبل أن يبادلنى، فأعطيته "القطنية" النفيسة، وأخذت "البفتة" الرخيصة، وسرت مع الرفاق مزهوًا، لا تسعنى الدنيا من فرط السرور. وكانت هذه "البفتة" صدقة وإحسانا، فهى عنوان فقر، والفقر فى دنيانا مذلة، ولكنى ما فكرت فى هذا، ولا خطر لى سوى أن أندادى يحملون مثلها، فلماذا يعطون وأحرم؟ ويمشون حاملين وأمشى فارغًا؟ والقطنية من أبى لا من الكُتّاب؛ فهى لا تقوم مقام (البفتة) المهداة، ولا تغنى غناءها فى تلك الساعة .

وبعد موت أبى، تولى إفقارنا أخ لى (كان) أكبر منى، وأقول (كان) لأنه لحق بأبيه، والعمر يقف بعد الموت، "فكنس ومسح"، كما يقول العامة، ولم يكف إلا بعد أن لم يبق شىء يُكنس أو يُمسح؛ فكان شعورى بالفقر الذى صرنا إليه يحملنى على رفض كل هدية – كائنة ما كانت – تجيئنى من غير أمى أو أخى، فللطفولة منطقها السليم أيضاً، وإن بدا فى بعض الأحوال غريبًا او مضطربًا .

وكنا فى العيد نعطى بلا تقتير أو حساب، نأخذ باليمين وننفق بالشمال، وكلما فرغت أيدينا وذهب ما معنا عدونا إلى أهلنا نطلب منهم أن يعطونا، وكان أمتع ما فى العيد "البارود". وهو فتيل ملفوف عليه ورق أحمر وبعضه فى سمك القلم، والبعض أسمك من ذلك جداً، والأول يرص فى علبة؛ والثانى يستعمل فرادى لضخامته. فكنا نشترى هذا وذاك، ونشعل فيها النار؛ فتنطلق منها مثل أصوات البنادق والمدافع. وقد بطل هذا، أو قل حتى ليندر أن يراه المرء، ولست أعلم أن الأطفال يستعملونه فى هذه الأيام؛ فالحق أنهم حرموا متعة وتدريباً .

والأراجيح تلى البارود، وهى أنواع، بعضها خيل تدور براكبيها حتى تدور رؤوسهم، والبعض "دكك" أربع، كل اثنتين منها متقابلتان، وتدور كالساقية وتحن معها، ومنا الجذل المسرور، والخائف الوجل، والذى يصرخ، والذى يغنى، والعطوف الذى يطمئن المضطرب، والفظ الذى يتندر على رفاقه ويسخر من ضعفهم، والدكك دائرة – كالأيام – صاعدة بنا طوراً، وطوراً هابطة، لا تبالى عن ضحك ممن بكى، ولا تحفل الذى فرح ولا الذى جزع، حتى ينتهى الدور؛ فيوقف الرجل العجلات ويقول انزلوا أو هاتوا ملاليم أخرى .

ومن الأراجيح لوح مشدود من الجانبين إلى حبلين معلقين، يقف عليه المرء ويمسك الحبلين، ويروح يدفع اللوح بقدميه ويكف؛ فيتطوح من الخلف إلى الأمام، ومن الأمام إلى الخلف، فإذا كان قويًا أو مدربًا بلغ بها علواً كبيراً، وكان الكبار منا دون الصغار مشغوفين بهذه الأرجوحة بسبب ما تتطلبه من القوة وحسن الموازنة .

أما الفتيات فكان ولعهن شديداً بما يسمى "على لوز"، وهو سكر يحل ويعقد ويزين باللوز والبندق والفستق وما إلى ذلك، وتحمله الفتيات فى أطباق يدرن بها على الصبيان ويبعنهم منه، كل ملء ملعقة صغيرة بمليم، وقل من الصبيان من كان يفعل ذلك، إلا أن يكون صغيراً جدا لا يميز بين الفتى والفتاة؛ فالمرأة منذ الصغر، ومن أول العمر، باب غُرْم على الرجل. وهى تضحك عليه صغيراً، وتستنزف دمه كبيراً، وتسخره فى كل حال لما سُخرت له .

وقد دارت الأيام بنا وكبرنا، فلا عيد لنا، وما أكثر من لا عيد لهم حتى من الأطفال، وما عيد الفقير المحروم، وماذا عسى أن تكون فرحة الذى يحمله أهله إلى القبور، لزيارة أهلها فى أيام العيد؟ على أن الأطفال قل أن يبالوا المقابر، أو يحسوا بإفسادها لمعنى العيد، والسعادة لا تخطئهم إذا لبسوا الثياب الجديدة وفازوا باللعب المشتهاة، ووجدوا اللاعبين من أندادهم، وما زلت أذكر إلى هذه اللحظة أنى بعد موت أبى كنا على قبره فى يوم عيد، وقد ألبست حلة مزركشة مقصبة هى شكة ضابط يتدلى من حمائلها سيف كليل كسيف أبى حية النميرى ليس بينه وبين الخشبة فرق، فكنت أخطر فى هذه الحلة وأستل السيف وأضرب به حجارة القبور والجدران والأبواب، وأنا فرح محبور لا ألتفت إلى الدموع المتسايلة على الخدود، ولا إلى معانى هذه الحجارة القائمة والصوى المرفوعة .

ولعل مصر هى الوحيدة التى يزور أهلها القبور فى أعيادهم لا يستثنون من ذلك عيداً أو موسماً، وكل مناسبة عندهم فرصة لهذه الزيارة، وهى أصلح ما تقضى فيه مواسمهم وأعيادهم، وأحسبهم ورثوا هذه النزعة عن المصريين القدماء؛ فإنّا نراهم يقيمون على القبور بيوتا ويشيدونها كالقصور، ويؤثثونها، ويعنون بفرشها، وغرس الحدائق فيها، وتعيين الحراس والخدم والقراء عليها، ويزورونها بالطعام والفاكهة والورود والرياحين وسعف النخل، وإذا كان فقيدهم قريب عهد بالوفاة زاروه بالبواكير من الفاكهة قبل أن يطعموها فى بيوتهم ولم يستحلوا أن يذوقوها إلا بعد ذلك، وهذا

كله مأخوذ عن المصريين القدماء ومقتبس منهم، ومما نقلوه أيضا أن يجعلوا القبر على شكل الغرفة، يجرون في ذلك على عرق قديم، ولا دخل للدين في هذا، وإنما هو مزاج موروث، وعسى أن يكون مما تحمل عليه طبيعة هذا البلد، ولا عجب فإن مصر هى أول من فكر في الآخرة والروح وعنى بأمرهما، وجعل هذه الحياة الدنيا أشبه بالمقدمة لتلك التى تليها وراء أستار الغيب .

إبراهيم عبد القادر المازنى



كلمة إنصاف

لنفسى وللأستاذ عبد الرحمن شكرى(1)

كانت النية أن أكتب كلاماً غير هذا، ولكن الإنسان يريد الشيء، والله يريد خلافه، ولا حيلة للمخلوق فيما شاء ربه، على أنى غير آسف فقد أتيحت لى اليوم فرصة للتكفير عن بعض ما اجترحت من الآثام وارتكبت من الذنوب، وإنى لمدين بهذا لمن لا أعرف بل لمن تحدثنى نفسى أنه شخص لا وجود له، أو أنه على الأقل من غير بنى الإنسان، فإن للسانه سلاطة منكرة، ولقد لعن آبائى وأجدادى لعنا أظنه أزعجهم فى قبورهم، فسددت أذنى "بأناملى العشر"، ولكن الشلال لا تخفت رعده الأصابع فى المسامع، والمصيبة أن الشلال باطنى، أعنى أن مصدره الضمير الثقيل الذى أعيانى إخراسه، وبح صوتى من الدعاء عليه أن الله يقطع لسانه .

وقد كان ضميرى - اليوم - مشغولاً بأمور، أعنى بجرائم، تافهة هينة، وكنت وأنا فى طريقى إلى البلاغ أقول له مخادعاً: "اسمع يا صاحبى، يجب أن تعرف أن للكلام وقتاً، وأن للصمت وقتاً، وهذا ولا شك وقت الصمت التام، فلست أستطيع أن أسوق هذه السيارة التى لا تريد أن تسير، وأن أتقى قتل الأطفال والنساء والشيوخ، إذا ظللت تشغلنى بهذا الجدل العقيم، فاعفنى بالله من صوتك الكريه، حتى نبلغ "البلاغ" وهناك تستطيع أن تصيح بأعلى أصواتك المنكرة من فوق السطح" .

وكانت هذه خدعة فإن فى مكتبى قطن أعددته لأحشو به أذنى كلما آنست من هذا الضمير المتعب حركة، ولم يكن يخفى علىّ أنه ذكى لبيب ككل ضمير مع الأسف،

---

(1) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٤ (ص٣) .

ولم أكن أطمع أن تجوز عليه هذه الحيلة، ولكني رجوت أن يفتنه منظره وهو واقف فوق سطح البلاغ يصيح مشهراً بي مشنعاً عليَّ، عائباً كل ما فعلت، بل حتى ما أفكر فيه وأحلم به، وقد كان يخيل إليَّ أنه كان يدرك ما في حملته عليَّ في الطريق من الإسراف والشطط، ويعلم أنه لم يكن جاداً، وإنما كان يريد أن يزجى الفراغ، ويقتل الوقت، وأنه يؤنب ويوبخ لأن هذا عمله في الحياة، لا لأنى فعلت شيئاً يستوجب الملامة، ومهما يكن من ذاك فقد سكت وأراحنى دقائق حتى صرت إلى مكتبى؛ فألفيت عليه كتاباً جلدته زرقاء واسمه "رسائل النقد" بقلم "الدكتور رمزى مفتاح"؛ فتناولته مستغرباً فما سمعت اسمه، فتنحنح ضميرى؛ فمددت يدى إلى الدرج أريد أن أفتحه لآخذ منه قطناً، ولكنه – أعنى ضميرى – ابتدرنى بقوله "لو سددتهما بالأسمنت المسلح لما أجدى عليك" .

فتراخت يدى وقلت: "إيه؟"

قال : "نعم. لا فائدة يا صاحبى. كان الأمر محصوراً بينك وبينى، ومقصوراً علينا، أما الآن فهو فى الكتب والناس جميعاً يقرأونه" .

فصحت به: "أى أمر؟ وأى كتب؟"

قال وعلى وجهه المسيخ ابتسامة بغيضة: "هذا الكتاب الذى بيدك"

قلت مستغرباً : "ماله؟"

قال باختصار : "ستقرأ فيه أنك مجرم"

فصحت مرة أخرى: "إيه؟"

قال شارحاً بتؤدة تطير العقل: "ميم، مجرم، جيم، جداً، راء، رذل، ميم، منحط". فهويت إلى الكرسى وسقط الكتاب من يدى فضحك الخنزير وقال:

"هاها! هل تسمح لي أن أرش على وجهك ماء؟"

فغضبت وانتفضت واقفاً وصحت بعنف : "اخرس"

فلم ينهزم – وهل ينهزم قط؟ – وقال : "ماذا قلت؟ فإنى لم أسمع !"

قلت : "لا أسمح لك بهذا التهكم"

فانحنى ساخراً وقال: "عفوك إذا كنت قد أسأت الأدب"

فقلت أحدث نفسى، شىء لا يطاق! سكتنا له دخل بحماره" .

وجلست، وكانت يدى تقلب ورق الكتاب وأنا ذاهل؛ فقال : "هممم !"

فقلت مثله : "هممم !"

فقال : "لا تجعل بالك إلىَّ، افتح الكتاب واقرأه ودعك منى" .

فقلت لنفسى لابد أن فى الأمر سراً، وأقبلت على الكتاب أتصفحه، فما راعنى إلا أن مؤلفه هذا الدكتور رمزى مفتاح يتهمنى بالعقوق والغدر والخيانة وو.. إلى آخر ما يمكن أن يخطر بالبال من أمثال هذه المعانى، وهو يشرك معى فى هذه التهم الشنيعة صديقى الأستاذ العقاد بلا سبب، ثم يفرد له تسعة أعشار الكتاب، والعقاد لسان عال وبيان قوى، وإن كنت أحسبه لن يعنى بهذا الطعن السخيف .

وسبب هذه الحملة أنى كنت نقدت الأستاذ عبد الرحمن شكرى الشاعر فى كتاب "الديوان" الذى أصدرناه – العقاد وأنا – فى سنة ١٩٢٢، وأن ما بينى وبين شكرى فسد بعد ذلك وقبله .

وأحب أن أنصف شكرى وأبسط للقراء قصتى معه، لا لأن الدكتور رمزى مفتاح رمانى بالغدر والخيانة، بل لأن كتابه مناسبة صالحة .

كانت علاقتى بشكرى كأوثق ما يمكن أن تكون علاقة صديقين، ثم حدث فى سنة ١٩١٥ أن كتب إلىَّ من الإسكندرية يبلغنى أنه وضع كتاباً عن أدباء هذا العصر، وأن فيه فصلاً عنىّ يجب أن يقرأه علىَّ قبل طبعه، وأنه قادم لهذا .

ولما صرنا فى بيتى أدهشنى بقوله أنه يريد أن يسترد منى رسائل كان قد كتبها إلىَّ؛ فذهلت وقلت له دونك الدرج فخذ منه رسائلك جميعاً إذا شئت، ولم أر أن أسأله بعد هذا عن كتابه الذى زعم أنه ألفه عن أدباء العصر، ولا عن الفصل الذى قال إنه

كتبه عني، فقد حز هذا الطلب في نفسي، ووقع عندي أسوأ وقع وآلمه. وكان مما قاله لي أيضًا في ذلك اليوم أن في الجزء الأول من ديواني أبياتًا يسهل أن أرمى فيها بالسرقة، فقلت له :

إذا كنت قد وقعت على هذه الأبيات فما عليك إلا أن تدلني عليها، وإنك لتعلم أني لا أتعمد ذلك، وإني لمستعد أن أراجعها معك، فإذا اقتنعت، فلست أتردد في كتابة مقال أنشره في "الأهرام" وأنص فيه على هذه الأبيات مهما بلغت عدتها، وأعلن نزولي عنها وردها إلى من يعدون أولى بمعانيها لأنهم أسبق .

فنصح لي ألا أفعل، وقال إن الناس لا يقدرون هذه الصراحة، ومادمت تنوي أن تظهر الجزء الثاني من ديوانك قريبًا يكفي أن تشير في مقدمته إلى هذه الأبيات، وافترقنا على هذا؛ فعاد هو إلى الإسكندرية، وشرعت أنا أعد الجزء الثاني من ديواني للطبع، وإذا به يصدر الجزء الخامس من ديوانه هو، ويحمل عليّ في مقدمته حملة يتهمني فيها بالسرقة !!

ولم يثقل على نفسي اتهامه لي بالسرقة، لأني أعرف من نفسي أني لم أتعمد سطوًا ولم أُغر على شاعر، وإنما علقت المعاني بخاطري أثناء المطالعة، وجرى بها القلم وأنا غافل، لأني ضعيف الذاكرة سريع النسيان، وإنما الذي أثارني أولاً أنه لم يأتمني على بعض رسائله، وشك في مروءتي، وخاف أن أستخدمها ضده إذا بقيت عندي، وثانيًا، أنه ضحك عليّ، ومنعني أن أُميط عن شعري لوثة السرقة، ليتسنى له هو أن يرميني بها، وليكون وقع التهمة أعمق، وأثرها أبلغ إذ كانت ممن يعرف الناس جميعًا أنه صديق لي .

ولا أكتم القراء أني انتقمت لنفسي شر انتقام، وأني أسأت إلى شكري أعظم إساءة، وما كنت أستطيع أن أفعل يومئذ غير ذلك، لأني لا أؤمن بإدارة الخد الأيسر لمن ضربني على خدي الأيمن، وبعد أن شفيت نفسي بما وجدت استرحت، ونسيت الحكاية .

ومضت سنون بعد ذلك فنشر شكرى طعنا شخصياً عليَّ فى جريدة عكاظ، وكان يجيء من الإسكندرية ليملى على صاحبها رحمة الله هذا الطعن، ويدفع إليه [...][٢] الجريدة ويرجع، فقلت لنفسى: إيه! طيب! وكتبت ما كتبت عنه فى "الديوان" واسترحت مرة أخرى .

ومضت سنوات أخرى، وجاء شهر مارس سنة ١٩٣٠ فطلبت منى إحدى الجمعيات أن ألقى عندها محاضرة فى "التجديد فى الأدب العربى" فجعلت موضوعها "عبدالرحمن شكرى" وقد نشرت هذه المحاضرة فى الخامس من أبريل سنة ١٩٣٠ فى السياسة الأسبوعية[٣] ، وأنا أستأذن القراء فى نقل فقرات منها :

"وقل من يذكر الآن شكرى حين يذكر الأدب ويعد الأدباء، ولكنه على هذا رجل لا تخالجنى ذرة من الشك فى أن الزمن لابد منصفه وإن كان عصره قد أخمله، ولقد غبر زمن كان فيه شكرى هو محور النزاع بين القديم والجديد، ذلك أنه كان فى طليعة المجددين إذا لم يكن هو الطليعة والسابق إلى هذا الفضل؛ فقد ظهر الجزء الأول من ديوانه فى سنة ١٩٠٧، إذا كانت الذاكرة لم تخنى، وكنا يومئذ طالبين فى مدرسة المعلمين العليا، وكانت صلتى به وثيقة، وكان كل منا يخلط صاحبه بنفسه، ولكنى لم أكن يومئذ إلا مبتدئًا، على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب معين فى الأدب ورأى حاسم فيما ينبغى أن يكون عليه. ومن اللؤم الذى أتجافى بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدى وسدد خطاى ودلنى على المحجة الواضحة. وأنى لولا عونه المستمر، لكان الأرجح أن أظل أتخبط أعوامًا أخرى، ولكان من المحتمل جداً أن أضل طريق الهدى، أو أن يميل بى الجهل أو الضلال أو غير ذلك إلى ما تمردت عليه من زمان بعيد؛ فليس بين الهدى والضلال عند الابتداء إلا خطوة واحدة أو بعض خطوة، ثم يتباعد الطريقان ويذهب هذا شرقًا وذاك غربًا، ويا رب شبر واحد ماله المرء إلى هنا

---

(٢) [...] غير واضحة فى الأصل المتاح، وقد تكون الكلمة الناقصة : "نفقات" .

(٣) راجع نص هذه المحاضرة فى المجلد الثالث من "الأعمال غير المنشورة" للمازنى .

أو ها هنا – يميناً أو شمالاً – عند مفترق الطرق؛ فكان هذا الشبر الواحد هو أول الخير أو أول الشر، ومفتتح الهداية أو مبتدأ الضلال. وقد كان من حظي أن وصلت المقادير أسبابي بشكري، فاعداني وأفادني صحة في النظر، واستقامة في التفكير، وفتح عيني على ذخائر وكنوز كنت حقيقًا أن أخطئها وأن تفوتني وأنا أتخبط وحدي" .

ومما قلت عنه في هذه المحاضرة المنشورة :

"وإن شكري لأكرم ضحية في سبيل الأدب الصادق، وأنه لأنبل من تخونته صروف الأقدار في ميدان الجهاد. وإن اليوم الذي يبرز فيه اسم شكري وفضله من ظلمة الخمول التي يؤثرها هو الآن، لقريب جداً، بل أقرب مما يتوهم حتى شكري نفسه. وهنا موضع التحرز من وهم قد يسبق إلى الأذهان، ذلك أن فضل شكري ليس قاصراً، على أنه كان من أول الدعاة وأخلصهم إلى الأدب الحي؛ فإن لآثاره الأدبية قيمتها المستقلة عن هذا الفضل" .

قلت هذا عن شكري وأنا لم أضع يدي في يده منذ سنة ١٩١٩ إلى اليوم، لا لأني أحمل له ضغنًا أو أنطوي له على حفيظة، فما أحمل له أو لغيره شيئا من هذا القبيل، بل لأنه هو شاء أن ينأى ويبتعد، ولست أستطيع أن أطارد أحداً بصداقة لا يريدها، وأنا امرؤ ينسى المعركة بعد انتهائها، يستوي في ذلك أن أكون غالبًا أو مغلوبًا، فإذا كنت غالبًا لم أزه أو كنت مغلوبًا لم أتحسر ولم أحقد، ويحسبي أن أكون قد بذلت جهدي كله وأني لم أدخر منه شيئًا، ولو كان شكري يذهب مذهبي في الحياة لما وسعه شيء أن يصافحني بعد وضع السلاح وانقطاع الكفاح، ولماذا يظل الناس متنافرين طول العمر؟؟ إن الحرب تدور مرة أو مرات، ثم تسكن الحومة وتقر الفورة، فلماذا لا تسكن النفوس أيضًا وتنصرف إلى ما هو أجدى عليها وأولى بها من هذا "الاجترار" الدائم للحفائظ القديمة ؟؟

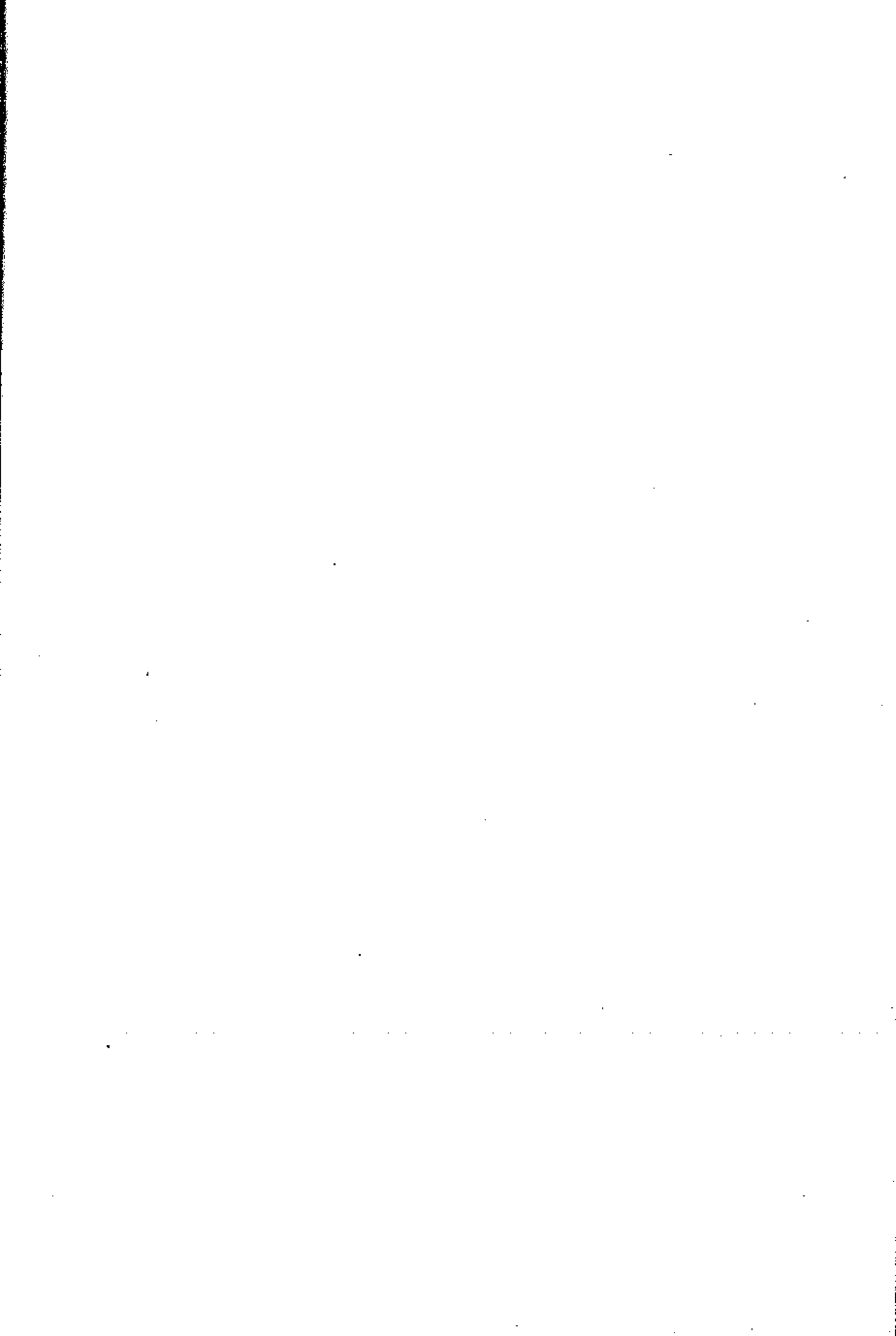
على كل حال هذا شأن شكري لا شأني، فإن بي غنى حتى عن نفسي والحمد لله! وإنما كتبت هذا الكلام الكثير لأني أحب شكري وأجله ولأني نادم على ما صنعت به، تائب من ذنبي إلى الله معه، وله أن يصدق أو يرتاب فمالي فيه مطمع، ولقد حاولت أن

أكفر عما أسأت به إليه، وأن أجره إلى الدنيا مرة أخرى؛ فأبى وقال اتركني ولا تنبش قبرى وحسبى ما لقيت منك، فأقصرت ونفضت يدى يائسًا .

وإنه لسخف من الدكتور رمزى مفتاح أن يخوض فيما لا يعلم، وأن يكتب عن العقاد وعنى ما كتب، ولست أظن العقاد مباليه، ولولا أن الود يعطفنى على شكرى، وأنى آسف على ما أسلفت إليه من الإساءة لما باليته أنا أيضًا ولما أشرت إليه بكلمة .

ويحسن أن أنبه إلى أن الأستاذ العقاد لا ذنب له فيما وقع بينى وبين شكرى، ولم يكتب حرفًا واحدًا يسوء شكرى، ولقد كان من فضله علينا أن أصلح ما أفسدناه .

إبراهيم عبد القادر المازنى



عبد الرحمن شكرى وكتاب "رواد الشعر الحديث "

للأديب مختار الوكيل[1]

تلقيت منذ بضعة أيام كُتيبًا فى ثمانين صفحة اسمه "رواد الشعر الحديث فى مصر" للأديب مختار الوكيل، وهو كاتب جديد ولعله شاعر أيضًا وإن كنت لا أذكر أنى قرأت له شعرًا، ولكن ذاكرتى خوّانة فلا تعويل عليها، وهى - أى ذاكرتى - إن كانت تستحق هذه التسمية، تعنى عناية موفقة بنسيان الأسماء حتى ليكبر فى وهمى أحيانًا أنى سأنسى اسمى فى يوم من الأيام. وعسى أن أفعل فأستريح من ضجته الفارغة ومن شغلى به، وأصارح القراء فأقول إنى آخذ لذلك اليوم عدته من الآن، وأفكر فى اسم آخر أتسمى به وأُعرف بين الناس، فما يكون للمرء وجود وحقيقة فى هذه الدنيا بغير حروف يتألف منها اسم يطلق عليه، فما أهون حقيقتنا، وما يدرينى، لعلى أوثر يومئذ أن يكون لى رقم أستغنى به عن الأسماء، وأتميز كما يتميز السجناء فى المحابس، وما دنيانا يا صاحبى إذا لم تكن سجنًا؟ ولا أكتم القرّاء أن أسفى سيكون عظيمًا إذا نسيت اسمى، فإن له فى نفسى حلاوة، وفى الدنيا خير منه ألف مرة، ولكنى لا أرضى بغيره - ما دمت ذاكره - ولو كان من أعظم الأسماء وأشهرها وأسهلها على اللسان وأعذبها فى الآذان. ولا عجب فإن الاسم رمز الشخصية وعنوانها، وما من إنسان يقبل أن يستبدل بها سواها، ولو كانت شخصية أعظم من دبت أو تدب به قدم على هذه الأرض، ولا أدرى لماذا. فيظهر أن فى السريرة الإنسانية من الغرور أو التخييل أو المغالطة - أو غير ذلك فما أعرف - ما يكفى لإرضاء المرء عن نفسه وتسميته .

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٤ (ص٣) .

وأعود إلى مختار الوكيل فأقول إني أعنى بقولي إنه كاتب جديد، إنه شاب، وقد جرى على الألسنة المألوفة فى بلدنا؛ فبدأ بالنقد، وليته لم يفعل، فلن يكسبه هذا إلا الحزازات والبغضاء، وسيعلم بعد عشرين عامًا أنى صادق، كما عرفت أنا بعد الأوان؛ فقد بدأت مثله بالنقد، وكانت غايتي أن أكون شاعراً وناقداً، فأما الشعر فأخفقت فيه، وأما النقد فانظر ماذا أفدت: الندم والحسرة - الندم على ما أسأت، والحسرة على ما ضيعت، ويا بؤس من يمشي وشرابه البؤس في بستان زقوم. ولو أنى بدأت حياتي مرة أخرى من جديد لآثرت أن أكون بائع فجل وكرّاث ولا أكون ناقداً، لا اتقاءً للعداوات، فما يستطيع الإنسان أن يتقيها ولو عاش في كهف، ومن ظن أنه ينجو منها فقد ظن حمقًا، بل لأن النقد الذى ضريت به جهل وسفاهة وتطاول ذميم وقلة حياء. ولماذا لا نحيا وندع غيرنا يحيا. ونعمل ونفسح لسوانا أن يعمل. ومن ذا الذى يسعه أن يصنع خيراً مما صنع ويحجم. وكيف يطالب المرء بأكثر مما يدخل في طوقه، والنقد تطفيل، ثم إن الناقد يقيم من نفسه حكمًا ومرجعًا، ويفرض آراءه على الخلق، وينحل نفسه حقوق القراء جميعًا في وزن ما يقرءون، وهذا كله من الغرور والدعوى والتطاول، عفا الله عنا .

ومن كرهي للنقد أكره الآن أن أتلقى كتبًا فيه، لأنها توقظ في نفسي الشر الذى أنمت شيطانه، وكنت أظن لجهلي أني قتلته، فإذا به ينهض وقد استجم من طول الرقاد، ويستولي عليّ، ويزوى عيني عن الخير، ويدير رأسي؛ فأنقلب كالمجنون في يده سيف، ثم أفيق فتأخذ عيني الأشلاء المتناثرة؛ فيتقطع قلبي حسرة، وأثور بنفسي؛ فأوسعها ذمًا ولعنًا، وأنذرها أني بعد اليوم ملجمها بلجام من النار، ولكن طباع السوء أغلب، فليعفني الكُتّاب، فإني شرير، ولا يهيجوا أبالستي الكامنة، وليدعوني .

وما أعالج من نفسي وأروضها عليه وأصرفها إليه لعليّ أتطهر، وما أظنهم يحبون لي أن أظل عمري أمرأ سوء، والنفس تكره أن تضطر إلى الاعتراف بخطيئاتها، وتثقل عليها دواعي الندم، فإذا كثر ذلك وطال تكراره، فتر الإحساس بالذنوب، وخفت صوت الضمير، وتبلد الشعور، وصارت مقارفة السوء عادة. لهذا لم أقرأ من كتاب "رواد الشعر الحديث في مصر" إلا فصلاً واحداً كتبه عن الأستاذ عبدالرحمن شكرى،

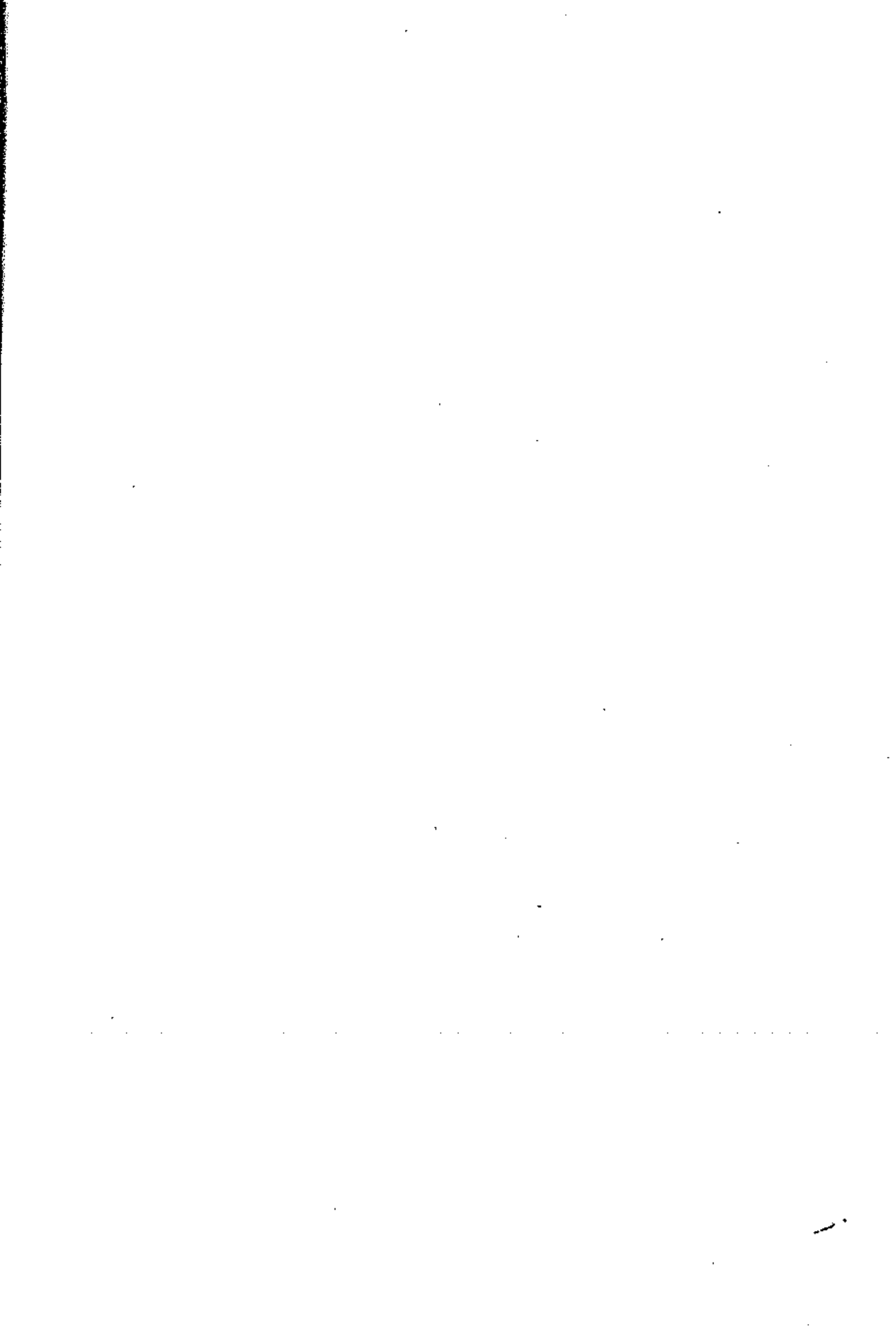
وقد عرف القراء حكايتي معه، وكيف كنا صديقين حميمين، ثم وقعت الجفوة، وحلت النبوة، وتعادينا، وأساء كلٌ منا إلى صاحبه، ومضى خير عمرينا في قطيعة سخيفة. ولست أعلم كيف كان بعدي، وما أظن به إلا أنه بخير، وما أعرف لي رجاء أو دعاء حين أذكره إلا أن يمسح الله على قلبه وينسيه ما كان مني، فما ندمت على شيء في حياتي كندمي على ما فرط مني في حقه. ذلك أني أحبه وأكبره، ولا أستطيع أن أجحد فضله عليٌ، نعم كنا زميلين في مدرسة، ولكنه كان ناضجاً وكنت فجًا، وكان أديبًا شاعراً واسع الاطلاع، وكنت جاهلاً ضعيف التحصيل قليل العقل؛ فتناول يدي وشد عليها. وأبتْ له مروءته أن يتركني ضالاً حائراً أنفق العمر سُدى وأبعثر في العبث ما لعله كامن في نفسي من الاستعداد، وكنت أقرأ ابن الفارض والبهاء زهير، فأقرأني شعر الحماسة، والشريف الرضي، والبحتري، والمعرّي، وابن المعتز، وأبي نواس وغيرهم، وكانت مطالعاتي في الإنجليزية مقصورة على أمثال "ماري كوريللي" ومن نسيت غيرها من أضرابها؛ ففتح عيني على شكسبير، وبيرون، ووردز ورث، وشيللي، وبيرنز، وملتون، وكولردج، وهازلت، وكارليل، ولي هنت، وماكولي، وجوتا، وشللي، وهينة، ورختر، ولسيخ، وموليير، وراسين، وروسو، ومئات غيرهم من أعلام الأدب الغربي، وصرفني عن المقلدين في أدب كل أمة، وأغراني بأصحاب المواهب والابتكار، وصحح لي المقاييس، وأقام الموازين الدقيقة، وفتح عيني على الدنيا وما فيها، وكنت عميًا لا أنظر، وإذا نظرت لا أرى، وكان لفرط أدبه يتوخى معي سلوك الند، ولا يتعالَى تعاليٌ الأستاذ على التلميذ، وكنت فقيراً فكان يعيرني الكتب أو يهبنيها، وكنت غبياً فكان يشرح ويفسر على نحو لا يجعلني أبدو لنفسي صغيراً، ولما نفخني وأعداني قلت الشعر، وكان يصونني عن العبث ويزجرني عن التقليد، ولا يرضى لي الضعيف. وأذكر أني مرة نظمت أبياتاً في العتاب أو الغزل وبعثت بها إليه، فردها بكتاب قال فيه إنها لا تليق برجولتي، فشق عليٌ ذلك وأجبته جوابًا مُرًا، فأغضى، ومرت أيام وهدأت نفسي وراجعت الأبيات فلم أر فيها غير ما رأى فمزقتها، وتوخيت بعد ذلك أن أجنب ذلك الضعيف الذي نهرني عنه، ووجه بعض الشعراء أبياتًا إليٌ نشرها في "الجريدة" وكان يجري فيها على الأسلوب القديم. أي على التقليد؛ فأجبته بأبيات من طرازها

ذهبت فيها مذهبه إيثاراً لمجاملته، وكراهة منى لأن يقال عجز عن المجاراة، فقرأها شكرى وكتب إلىَّ ينكر علىَّ هــذه النكســة، وينصح لى إذا دعيت مرة أخرى إلى ما يردنى إلى التقليد ويغرينى به، أن أعتذر بطول الطريق وبُعد الشقة .

ولو أردت أن أتقصى لما فرغت؛ فأنا مدين له بكل ما أعان على ما صرت إليه، أقول ذلك مباهيًا شاكرًا فضل الله على أن لم يضيعنى، وأن كتب لى نعمة الاتصال بشكرى. وإنى لأرجع البصر فى حياتى وأتساءل ماذا عساى كنت أكون لولاه؟ فلا أجد عندى لهذا جوابا، وأدير عينى فى نفسى وأبحث عن نزعة لم يكن هو غارس بذرتها — إن لم يكن هو الموحى بها فلا أهتدى، ومن طول ما عرفته، وفرط ماملأت نفسى به، صرت على البعد والقطيعة أستطيع أن أستوحيه، فكأنا ما تباعدنا ولا تجافينا، ولقد تنمرت له وغدرت به، ولكنى والله ما كرهته قط، ولا انطوت له نفسى فى أحلك ساعات النقمة إلا على الحب والإكبار، أقول هذا ولا رجاء لى عنده، ولا أمل لى فيه، ولا خوف بى منه، فما يملك لى نفعاً أو ضراً، وإنى لأسطى منه وأجرأ على الحياة، وأقوى عزمًا وأعظم جلداً، وقد بنيت على المغامرة وحب الخطار والفرح بالمجازفة، فلو سكنت الدنيا حولى لذبلت ومت، وأنه ليستوى عندى الجدة والفاقة، والنجاح والفشل، والخطأ والإصابة، والحياة والموت، وقد هان كل شىء حتى ما أحفل شيئًا، أو أبالى كيف أكون، أو أتحسر على شىء فات، أو أتطلع إلى ما هو آت، إنما هى رياضة نفسى على ما أحب لها من حالات النظر والإحساس، ومن نوع التلقى لما تجىء به الأيام، وأضأل فوز فى هذا المسعى أجلَّ عندى، وأشرح لصدرى، وأندى على كبدى، فلولا الرزق والعيال لاستغنيت عن الناس، فما يفرحنى ما يفرحهم، أو يُسوءنى ما يسوءهم، لأن همى غير همهم، وآمالهم ومساعيهم خلاف آمالى ومساعىَّ، وهم يدبون على الأرض، وأنا أحاول أن أحلق فوق الحياة لو أن إلى هذا سبيلاً، وهم ينظرون إلى اللحظات التى تكون، وتمضى عليهم، ثم تمضى بهم، وأنا أعالج أن أنظر بعين الزمن، ومن كان هذا وكده؛ ففيم يعادى وعلام يخاصم ؟.

وقد سرني أن يكتب مختار الوكيل عن شكرى وأن يحاول في هذا الفصل إنصافه، ولا أعرف ماذا صنع في بقية الفصول فقد وقفت عند شكرى، على أنه لا يعنيني ماذا كتب غير ذلك، فإن مثل العقاد لا يحتاج أن ينصفه ناقد ولا يضيره ألا يفعل، ومطران ينعم بكل ما ينعم به الشاعر الموفق، وبعض ذلك أن تلهج بذكره الألسنة، ولا قيمة للمدح أو الذم بعد ذلك وأبو شادى مشهور، والأقلام مشغولة به، وشكرى وحده هو المظلوم المغمور، ولا نكران أنه هو الذى حجب نفسه عن العيون، وطوى آثاره، وكف عن نشرها، وأصر على ذلك سبعة عشر عامًا، حتى نسيه الناس، ولكن من كان له مثل فضله ومزاياه يجب إكراهه على الظهور رضى أم سخط، وإنزاله منزلته ولو ثار وقذف الناس بالبراكين، وما أظنه يكون حينئذ إلا قرير العين، فما يكره أحد أن ينال حظه الذى يستحقه في دنياه وإن غالط نفسه وأوهمها غير ذلك .

إبراهيم عبد القادر المازنى



حول " اعترافاتي "[1]

كتب صديقي الأستاذ العقاد مقالاً في الجهاد يوم الثلاثاء الماضي لا شك أن القراء ينتظرون مني كلمة عنه، لا لأن ماذكره عن نشأته الأدبية وتاريخ دعوته الفكرية فيه ما يدعو إلى تصحيح أو استدراك، فما قال في هذا إلا حقائق لا يمكن أن يكون هناك خلاف عليها، ولا مصلحة لأحد، كما قال، في تشويهها أو تبديلها، وأي مصلحة هناك في أن يدعي أحدنا أنه عرف صاحبه قبل أن يلتقي به ببضعة أعوام؟؟ والواقع هو ما بيّن الأستاذ في مقاله من أنيّ أنا والأستاذ شكرى كنا طالبين في مدرسة المعلمين؛ فتعارفنا وتزاملنا منذ سنة ١٩٠٦، أما الأستاذ العقاد فلم ألقه الا في سنة ١٩١٢ أو في أخريات سنة ١٩١١ لمناسبة ظهور مجلة "البيان" وكان هو ينشر فيها فصولاً وكنت أنا أيضًا قد اتصلت بها، بفضل صلتي بالمرحوم الأستاذ السباعي، وكان الأستاذ العقاد كاتبًا وشاعرًا معروفًا في ذلك الوقت، بل من قبل ذلك بسنوات، وله كتب مطبوعة ورسائل منشورة على نحو ما بين في مقاله .

ولو اقتصر مقاله على ذلك لما كانت بي حاجة إلى كلام، فما كتبت قط ولا قلت شيئا يخالف ذلك، ولا جاء فيما قلته عن صلتي بالأستاذ شكري – وهي قديمة جداً – ما يمكن أن يفهم أحد منه أن ما يسرى عليّ يسرى على الأستاذ العقاد، أو أن حظي وحظه مشتركان في عالم الأدب بلا افتراق أو اختلاف، ولست أنكر عليه أن يوضح ما شاء من الحقائق، ولا أنا أخالفه في أن توضيحها لازم ليمتنع أن يُساء فهمه أو فهمي أو فهم تاريخ الدعوة الأدبية، فما من ذلك ضير على أحد، بل أنا أذهب إلى أنه أحسن بهذا البيان، وأقام على حدودها أموراً يخلط فيها الذين لا يعرفون الكفاية أو لا يحيطون

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٤ (ص٣، ص١١) .

بما سبق زمانهم، ولو أنهم سألوا أحدنا لما بخل عليهم بالحقيقة، ولا قصّر في جلائها لهم. وقد كان هذا البيان لازما منذ عدة سنوات، فإن لكل منا شأنه وطريقه ومنهجه على الرغم من صلاتنا الوثيقة كل هذه الأعوام المديدة، وصداقتنا التي لم توهنها الأزمات من سياسية وغير سياسية، حتى لقد كان الناس يعجبون لنا كيف بقينا على الود برغم ذلك، ولا يحجمون عن مصارحتنا بعجبهم هذا، كأن الأصل والواجب أن تتقطع الأوصال وتفشو العداوات في دنياهم المقلوبة. وإنما ينتظر القراء مني كلمة لأن الأستاذ العقاد استهل مقاله الذي جعل عنوانه "اعترافات الأستاذ المازني" بقوله :

"لأخينا الأستاذ المازني ولع شديد في الأيام الأخيرة بالاعتراف على نفسه، والغض من شأن الأدب وشأنه، لا يكتب كلمة إلا ليقول أنه ليس بكاتب، ولا ينقد إلا ليقول أنه ليس بناقد، ولا يؤلف قصة إلا ليقول أنه ليس بقصاص، وإنما هو رجل يعزف عن الحسان فتتصدى له الحسان، ولا يشتغل بالأدب إلا ليعقد المقارنة بينه وبين بيع الفول والكراث وطلب الرزق من أمثال هذه الأقوات. ويطلق القراء على ما يكتب الأستاذ في هذا الباب فيفهمه أناس منهم على أنه تواضع، ويفهمه غيرهم على أنه فكاهة، ويفهمه آخرون على أنه كياسة، ويفهمه "آخرون آخرون" على أنه استدعاء للمقارنة والمفاضلة بين الناس والأشياء والمبيعات والمقروءات. وللناس فيما يفهمون مذاهب وشجون، وإنما يلاحظ فيما يلاحظ أن الأستاذ يكتب ذلك – بعض الأحيان – في سياق التنويه بمطبوعات مطوية لا يلتفت إليها أحد غيره من أدباء العربية. ويلاحظ كذلك أن هذه المطبوعات تشتمل على قدح أثيم في كاتب هذه السطور، وفيمن شابهه من الكتاب، أو على غمط لحقوقهم غير محمود، ولا يكون جزاء تلك المطبوعات من القراء إلا الإهمال والازدراء" .

فيظهر أني رجل عظيم! وما دام صديقي الأستاذ العقاد يروي أن الناس مختلفون في أمري، وأنهم يذهبون كل هذه المذاهب في تأويل ما أكتب، فإن من حقي أن أنتفخ، وأن أكف عن الغض من شأن أدبي وشأني! وأن أصعرّ خدي للناس ليعرف مقامي من يجهله، ويلتفت إليه الذاهل عنه! وأتكلم جاداً فأقول أن عبارة الأستاذ العقاد أدهشتني، فما خطر لي قط أن هناك محلاً لأمثال هذه التأويلات، وأي محل لها في كلام واضح

لا غموض فيه ولا إبهام؟؟ وما قلت عن نفسي شيئًا إلا وأنا فيه مخلص صادق السريرة، وإذا كنت أذم أدبي وأنتقصه وأعيبه وأستخفه فما ذاك – كما بينت مرارًا – إلا لأني لا أزال أقيس قدرتي إلى أملي؛ فلا أراني صنعت شيئًا أو بلغت حيث أريد، وليس هذا بحادث؛ فإن مما أذكره أن أحد أصحاب المكاتب في دمشق طلب مني في سنة ١٩٢١ مختارات من شعري الذي لم ينشر وموجزًا لترجمة حياتي، فبعثت إليه بما يبغي، وكتبت في ترجمتي ما معناه أن خير شعري هو الذي لم أقله – هو الذي يدور في نفسي، ويضطرب به جناني، ولا يجري به لساني. وقد ظهر هذا الكتاب وفيه هذا الكلام واسمه – أي الكتاب – "مشاهير شعراء العصر" .

وقبل ذلك بسنوات عديدة – في سنة ١٩١٤ أو ١٩١٥ نظمت قصيدة سميتها "أنشودة الشتاء"[٢] أنقل منها هذه الأبيات للاستشهاد :

أعجب للحظ هل مقسّمه	أراده – ويحنا – أعاجيبا ؟
أجزل من سهمة الرجاء لنا	فكل شيء نراه مطلوبا
لكنه قد أخس قدرتنا	يا ليت ما شاء كان مقلوبا !
غنى أمانٍ، وفقر مقدرة،	فلن ينال الفؤاد مرغوبا !

وقد صدق الأستاذ العقاد فيما قال من أن صلتي به عرفتني بماكس نورداو وأشباهه، ولفتتني إلى النقد العلمي الفلسفي؛ فظهر أثر ذلك في كتابتي، وكنت قبل أن ألتقي به أتقي أن أقرأ لكاتب أو شاعر معاصر، لأني كنت أضن بوقتي أن يضيع، وأتحرى أن لا أقرأ إلا ما أثبت الزمن أنه جيد، فلما اطلعت على ما نقله الأستاذ العقاد من كتاب "الأكاذيب المقررة في المدنية الحاضرة" لماكس نورداو، وسمعت شهادته له، أقبلت عليه مطمئنًا، ففتح لي آفاقًا جديدة من التفكير والنظر والإطلاع، ولكني بعد سنوات طويلة انثنيت راجعًا إلى ما يسمونه الأدب الصرف، لأني تبينت أن النقد

---

(٢) راجع ديوان المازني، ص١٨١ . وفي البيت الأول "ويلنا" بدلا من "ويحنا" .

العلمى الفلسفى ليس ميدانى، وما زلت إلى اليوم أغير منهجى فى القراءة والكتابة كل بضع سنوات بل كل بضعة شهور، ولو أن أحداً رأى ما عندى اليوم من الكتب لاستغرب أن يضم مكان واحد – ولو كان مكتبة تجارية – كل هذا الخليط المتنافر، وسبب ذلك أنى أمضى فى القراءة والكتابة، كما أمضى فى الحياة على التجريب ولكن على غير هدى أو نهج معين، وكما أنه يتفق لى أن أكون سائراً فى الطريق فتأخذ عينى مقهى جديداً فأميل إليه وأقضى فيه ساعة، ثم آلفه أو أنفر منه، كذلك أفعل حين أقرأ أو أكتب، وعندى لهذا دواعيه الخاصة بى والقاصرة علىّ، ومنها – على سبيل التمثيل – أن ساقى انكسرت فى عنفوان شبابى، ثم لم يجبر ما هيض منها، ومن العجيب أن هذا وقع على أثر صدور الجزء الأول من ديوانى!! فذهب إيمانى بالإنسان والخلود فى الدنيا، وصارت الحياة – فيما أعلم وأشعر وأكابد – حواراً طويلاً مملاً بينى وبين القضاء والموت والأبد. ولو انكسرت ساق القارئ ولم تجبر فى بلد لا يفتأ عميانه يعيبون العرج لاستطاع أن يفهم كيف تتغير الدنيا والحياة فى نظر المرء فى لحظة واحدة. ولست أذكر هذا شاكيًا – معاذ الله – أو معتذراً – كلا!– وإنما أبين بعض ما غيرنى وأصارنى هذا المخلوق الذى لا يرضى عن نفسه .

ومن آثار هذا الحوار الطويل قصيدة "العراك"[٣] – الطويلة مثله وهى قديمة نظمت فى سنة ١٩١٧ – والأستاذ العقاد يعرفها فقد أسمعته أكثرها وغشيته به، ولكن أستأذن القراء فى نقل أبيات منها كشاهد على ما أقول: والكلام فيها يكون مرة على لسان النفس ومرة على لسانى، وأول هذه الأبيات من كلام النفس :

"ملت العين أن ترى كل يوم	غصنا يانعًا يعود إباء[٤]
ملت الأذن كل لفظ حبيب	تفتريه المنى عليها افتراء

(٣) قارن بديوان المازنى، ج٣ (ص٢٧١-٢٧٤). وما تحته خط هنا يختلف عما أثبت فى الديوان المطبوع .
(٤) الأباء : القصب أو الحلفاء .

لست أبكي على عهودي، فسيان ... دنا ذكرها بها أو تناءى

أبدا أفتح النوافذ من روحي ... للشمس وهي تغرى الغماء(٥)

لا رجائي مساوم عزماتي ... لا ولا الخوف مورثي استخذاء

أتلقى الذي يجيء به الدهر ... وأقني تجملا واجتزاء

وأحاشي زرع الفيافي، وقدما ... خاب من بات يرتجي الصحراء

غير أني وإن سكنت إلى اليأس ... لأخشى من يأسي استشراء

ربما قَرَّ زاخِرُ اليم حينا ... ثم آضتْ أمواجه هوجاء

مثلما سادت السكينة في الحومة ... والقوم ينتوون اللقاء

ولعل الحياة أهول ما تمسي ... إذا ساق صبحها البشراء".

قلت : "ما خير أن أظل حياتي ... أتقصى وجوه استقراء؟

أنا هذا الذي أحس، وهذا ... كل ما قد وسعته استقصاء

أنا كون يحس، أو صرخة بين ... سكونين، أسكنا طخياء(٦)

أنا ظل ألقته سحب ينازعن ... – على ربوة الحياة – الضياء

أنا سهم مضى من الغابر الفاني ... إلى المقبل إليهم مضاء

أنا ضوء الشهاب تومض ناري ... وهي تجتاز هذه الأجواء

لست أدري هذا الفضاء لماذا ... كان للناس والوجود كساء

وأرى النجم طالعا ثم يخفى ... وأرى الصبح يعقب الظلماء

وأرى اليم لا يزال له مد ... وجزر قد أرهقا الأشطاء

وأرى للفصول كل حول ... دورة لا تحاول استثناء

---

(٥) الغماء : السقف .

(٦) طخياء : الليلة المظلمة .

كل شيء أراه ينبئ أن الكون ... لا شك ملهم أشياء

آية الوحي ليس تخفى ولكن ... سرها السر أعجز الحكماء

ما نصيبي من كل ما تأخذ العين؟ ... وهل من يقسم الأنصباء؟

أترى حسناً سواء وحسن الكون ... أم ليس ما حيينا سواء

أترى القدرة التي تقدح الصبح ... مضيئًا وتنسخ الظلماء

وتثير النسيم فينا عليلاً ... وتسيل الدجنة الوطفاء

وتذيع العبير في زهر الروض ... وتشجي حمامه إشجاء

وتضيء الشموس في ظلمة الكون ... وتجلو لألاءهن جلاء

ومن الصخر تفجر الماء أنهاراً ... وما العهد أن فيه سخاء

وتربي جرثومة الخير في الأكوا ... ن طراً، وتنضج الآراء

غير تلك المنايا التي أياديها ... فليست تزل إلا التواء؟

تسعر النار في الجوانح، والحرب ... وتوري الأحقاد والبغضاء؟

ضلة لامرئ يحاول أن يجلو ... سراً يأبى علينا الجلاء

كلما أرسل الفتى سهم فكر ... زاد خبراً بعجزه وابتلاء

مثلما طخطخ الظلام فأبدى ... هوله ومض بارق قد أضاء

فدعيني أغشى الغمار وأضحى ... قبل أن يسدف المغيب العشاء

ودعيني أرعى الهواتف سمعي ... قبل أن يملك الردى الأرعاء

عصب الريق فاسقني قبل أن ... أسقى بكأس تذكي الحشا إذكاء

وانظمي لي من الورود أكاليل ... وأحيي بنفحها الأهواء

قبل أن يمضي الربيع ويلوي ... بي وبالزهر دهرنا إلواء"

قالت النفس: "هل ترى الأرض ... قد عادت فراديس لذة - غنّاء ؟

عيش حلالها غرير، فمستذر ... بأمن، ووداع أحشاء؟

تسع النفس مثلما تسع الجسم	فما تستضيق فيها فناء؟
وترامت آفاقها فالأماني	ليس تبغي وراءها أرجاء؟
زخرت أبحراً، وقرت صخوراً	وسجت أعصراً، ورقت هواء؟
وأبي اللحظ أن يُمدّ وأن يأخذ	إلا ريحانها والأضاء؟
وأبي القلب أن يزايل طوداً	مشمخراً لا يتقي إيهاء؟
قلت يا نفس	....
إن هذي الحياة صحراء سوء	نقطع الشرخَ قبلها والفتاء[7]
ويغر السراب فيها ويُغري	فنُغذّ الإدلاج[8] والإسراء
سَرِيخٌ[9] بعد سريخ، ومُهوب	دون أخرى، وما بلغنا الماء؟
وجحيم من فوقنا، ووطيس	تحتنا، يوسعاننا إحماء!
ليتنا كالحديد نُصلَى لنُمهى![10]	غير أنّا نُصلى ولا إمْهاء!
ولعمري الواحات كُثْر، ولكن	من تُرى مُبدلي ضلالي اهتداء!؟
أنا في فُدفُدٍ مُضلٍّ، وأخلقْ	بي أن أخطئ الطريق السّواء
والهدى والضلال أقرب شيئين	ابتداء، منا، وأنأى انتهاء!

إلخ إلخ .

فأنا لا أصف غير الواقع حين أقول أن حياتي حوار طويل ممل بيني وبين القضاء والموت والأبد، وبعد أن يوجعني قلبي ويتحطم رأسي، أيكون داعية استغراب أن أقارن بين الأدب والفجل والكرات؟ أليست هذه المقارنات نفسها مظهراً للعراك الذي لا ينفك

---

(٧) الفتاء : الشباب .

(٨) الادلاج : السير ليلاً .

(٩) السريخ : الأرض المترامية .

(١٠) مهى : رقق، وإمهاء الحديد ترقيقه وتحديده .

دائرًا في ســـريرتي؟ وهي مقــارنات لا تغـض من الأدب أو أحد من أهــله، وإنما هي – كما يقول المتنبي – "هجو الورى" وذم الحياة التي تكون فيها هذه الأقوات والأشياء أشد لفتًا للنظر، وأولى بالعناية وأجدى على الإنسـان، وقد سمى الأستـاذ العقـاد مـا كتبت "اعترافات"، والناس يقرنون هذه اللفظة بالأسواء والمرذول من السير، ولكني أدع هذا فمـا إليه أقصـد، وإنما يعنيني قـول الأستـاذ أن لي ولعًا بالاعتراف في هذه الأيام، فليسمح لي بأن أقول أنه ليس ولعًا بالاعتراف، وإنما هو إيثار للحق وأنفة من المكابرة، وليس في هذا مـا يعد جديداً، فقد يذكر بعض رجال وزارة المعارف، وتلاميذ المدرسة الخديوية الثـانوية، أني لما نقلت إليـهـا مـدرسًا للرياضة، دهشت ولم يسـعني إلا أن أصـارح النـاظر – وكـان المســتر فرنس – والوكـيل – وكـان المرحـــوم علي بك عمـر – بأني جاهل لا أعرف من هذه العلوم لا كثيراً ولا قليـلاً، ولم أقصر في تنبيه التلاميذ إلى جهلي والإقرار به، ومـا زلت برؤسـائي في الوزارة حـتى ردوني بعد ثلاثة شـهور مدرسًا للترجمة .

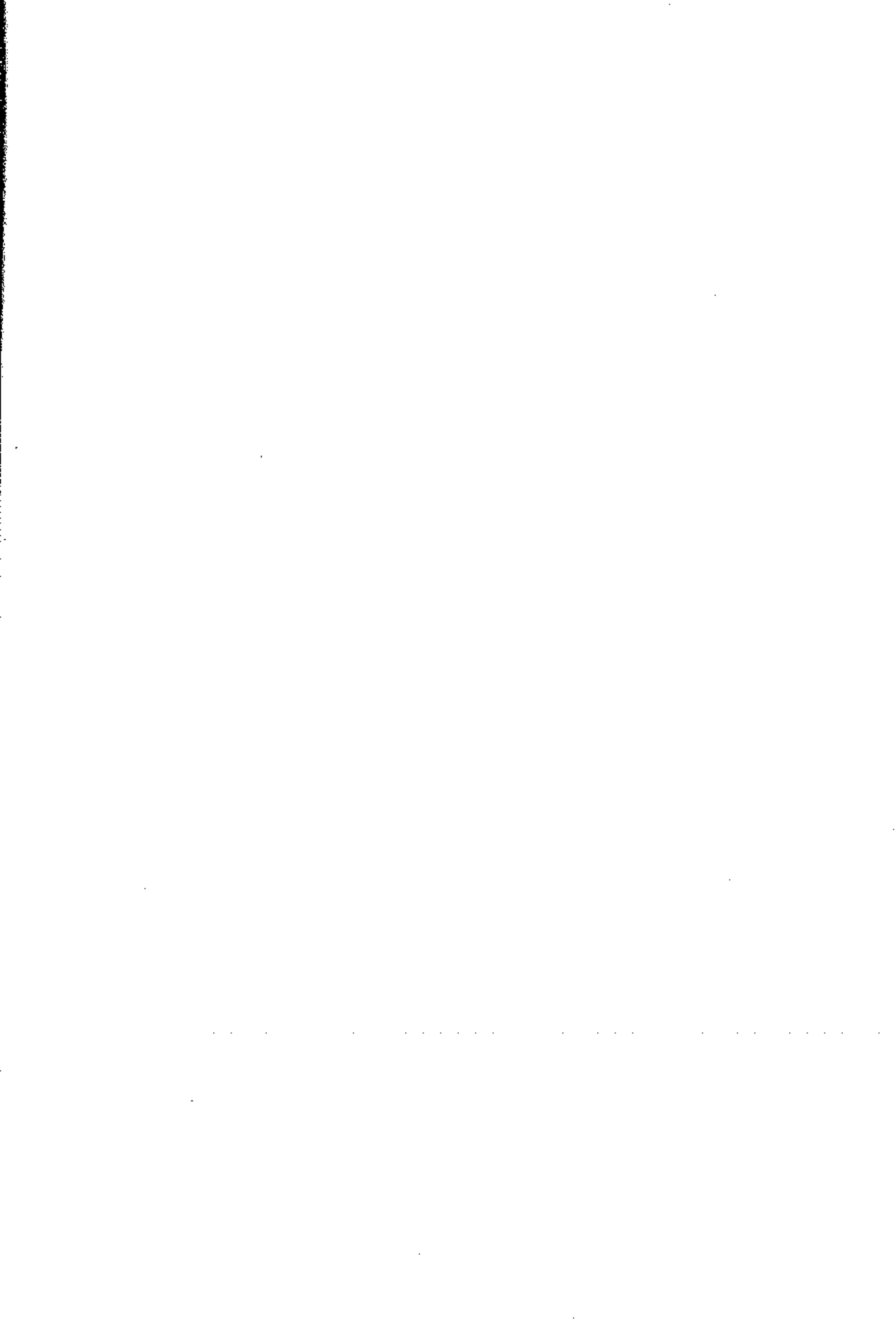
وأقرب من هذا وأحرى بأن يذكره الأستاذ العقاد إنه لما أعاد طبع الأجزاء الثلاثة الأولى من ديوانه وضم إليهـا الجزء الرابع كتبت أنا مقدمته وكنت أريد أن أبين للقراء مبلغ ديني للأستـاذ العقاد، فأبى عليَّ ذلك، ولم يزده إلحاحي إلا إصـراراً على الرفض، وكان في رفضه أسلم مني ذوقًا. فاضطررت أن أكتب كلامًا آخر، وأشرت إلى هذا في ختـام المقدمة فقلت: "وبعد فهل يصلح هذا الكلام أن يكون مقدمة لهذا الديوان؟؟ لا أدري! وليس ذنبي ألا يكون كذلك، فقد أردت شيئا وأراد العقـاد خلافه، وكـان العزم أن أقول غير مـا قلت، وأن آخذ في نهـج غير هـــذا النهـــج، فـأبى عليَّ ما هممت به، وردني عمـا شرعت فيه، وركب رأسه وأصر أن أعدل، فإذا كان فيما كتبت قصـور أو تقصير، فالذنب له وحده دوني، ومـا كنت أبغي إلا أن أقول كلمة حق أبرئ بها ذمتي، وأنصفه حتى من نفسي، فأباها عليَّ واستنكرهـا مني، كـبرًا أو تواضعًا، أو حيــاء، أو مجاملة لا أدري، وحسـنًا فعل أو شرًا فعل، فما بالعقاد حاجة إلى إنصاف مني أو من سواي" إلخ إلخ .

فآخرتي يا صديقي معقودة بأولاي، وليس في حديثي ما ينافي قديمي .

بقى الأهم، وهو إشارة الأستاذ العقاد إلى ما يلاحظ - أحيانًا - من تنويهى بكتب فيها طعن ذميم عليه، وأظنه يشير إلى كتاب اسمه "رسائل النقد" للدكتور رمزى مفتاح، وإنه ليعلم أنى ما أشرت إلى هذا الكتاب إلا لأريح ضميرى وأنصف نفسى، وأنصف الأستاذ شكرى أيضًا؛ فقصصت حكايتى معه وتاريخ صلتى به، وقد ذممت الكتاب واستهجنته، وعلى أن فى هذه "الرسائل" قدحًا أثيمًا فى المازنى أيضًا، فلا يعقل أن يكون غرضى التنويه به ولفت النظر إليه، وكيف أنوه بكتاب يصفنى بأخبث ما يمكن أن يجرى به قلم، ويقول عنى أنى خسيس، وأنى نذل، وأنى وغد، وأنى لئيم، وأنى وأنى.. إلى آخر ما كالَ لى من هذه النعوت الجميلة؟! وعلى أنه ما قيمة إشارتى إلى هذا الكتاب، أو إهمالى له، وصاحبه يوزعه مجانًا على الناس؟؟ بل يجب أن نسأل ما قيمة الكتاب كله؟ وأى أثر يمكن أن يترك فى نفس من يطلع عليه إلا التقزز والاشمئزاز ؟

وبعد فقد أطلت وأمللت، وتعبت وكلت أصابعى، ودار رأسى، فإذا كان هناك شىء آخر ينبغى أن يقال، فما بقى فى "عقلى راس" كما قال بعضهم، على أنى أظن أنى قد صفيت الموضوع ولله الحمد والشكر .

إبراهيم عبد القادر المازنى



القــراءة[1]

(خلاصة محاضرة فى دار جمعية الشبان المسيحيين)

- ١ -

لما دعانى صديقى الأستاذ "يعقوب فام" إلى إلقاء هذه المحاضرة، سألته: "متى موعدها؟" فقال: "٣١ يناير"، وكنا يومئذ فى بعض ديسمبر، فقلت: "يفرجها ربك، وعسى أن يحدث شيء يشغل الناس عنى، فتزلزل الأرض أو تسقط السماء عليها كسفًا، أو أجد مالاً فأخرج من هذا البلد الذى يحب الكلام. وفى أقل من شهر تتغير الدنيا وتتبدل الأرض غير الأرض، وعندى اقتراحات شتى على القدر - كل واحد منها كفيل بأن يريحنى ويرضينى" .

ونسيت المحاضرة وموعدها حتى دنا يومها، فأذكرنى به. فقلت: "جاءك الموت يا تارك الصلاة! أليس فى الدنيا ذاكرة تخون صاحبها غير ذاكرتى؟ ألا مفر إذن من هذه المحاضرة" ؟

وكان لا يزال هناك بضعة أيام باقية، فتركت التفكير فى هذا، لأنى من الذين تستغرقهم اللحظة الحاضرة، فيذهلون عما عداها مما كان قبلها أو ما عسى أن يجيء بعدها، فإذا كنت آكل، فهى هو الطعام ولا أُعنّى نفسى - وأنا أتناول منه - بما بذلت فى سبيله من مالى وعافيتى، ولا بما لعله يجر على من كظة أو تخمة، وإذا كنت أقرأ أو أكتب، فذاك شغلانى، وليس لى عقل يرتد إلى ما كان قبل دقائق، أو يمتد إلى ما يمكن

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢ فبراير سنة ١٩٣٥ (ص٣، ص١١) .

أن يكون فيما بعد، وإذا كنت ألهو وأعبث، فألف سلام على الجد والوقار والاحتشام، وإذا كنت أجد، راع الناس وجهي من مسافة ميل، وهكذا في غير ذلك .

وصرنا في يوم الأربعاء، ولم يبق بيني وبين المحاضرة إلا أربع وعشرون ساعة خبيثة طائشة تذهب تعدو بسرعة خطرة لا يقرها في هذه الدنيا قانون. فقلت ألزم بيتي هذه الليلة لأفكر فيما ينبغي أن أقوله وأنفع به الناس، فإن بهم ظمأ إلى دمي – أعني إلى علمي وفضلي وأدبي. وأدرت الفونغراف، فما لما يذيعه الراديو في مصر أي قيمة، والموسيقى التي نسمعها منه بليدة تفتر الجسم والنفس. وتغرى النعاس بالجفون والتثاءب بالأشداق. وأنا بي حاجة إلى أصوات قوية قادرة على تحريك النفس وابتعاثها وإنعاشها وتقليب ما في أعماقها كما تثار الأرض بالعزق. وليس أصلح لهذا ولا أقدر عليه من فاجنر وباخ وأضرابهما. وقد تعجبون كيف يتاح لي أن أفكر وأستمع في وقت معا إلى هذه الأصوات؟ فاعلموا أمرين: الأول أن لي قدرة على التفكير والكتابة والقراءة في حمام بلا ماء، ومهما بلغت الضجة حولي فإني لا أسمعها ولا أباليها، ولكن الشرط في ذلك ألا يجرني أحد إلى الحديث أو الملاحاة، وألا يوجه إلى كلامًا، فإذا لم يكلمني أحد فإن في وسعي أن أنصرف إلى ما أنا فيه، وأن أذهل عما عداه، كأنه غير موجود، والثاني أن الموسيقى القوية تحدث أثرها في النفس وإن كنت غير متنبه إليها، وأنا أريد أن أحرك نفسي وأزخر تياراتها وأثير عبابها، لعل شيئًا كامنًا في أعماقها يتقلقل ويتزحزح عن موضعه فأحسه أو يبدو لي فأظفر به وأتفضل به عليكم .

ولكن ضيوفنا زاروني في تلك الساعة فلم يعد يجديني لا باخ ولا بيتهوفن ولا فاجنر ولا كل من خلق الله ومن لم يخلق من نوابغ هذا الفن، وأنا كما لا تعلمون مصاب بكثرة الأطفال، وكثرة الضيوف والزوار، فخطبي جسيم، وبلائي عظيم، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

واستقبلت الزوار بلطفي المعهود وكرمي المشهور، وقلت لنفسي أن الله قد عودني الستر، وأن لا يفضحني، فلأنس هذه المحاضرة الآن، فلا يزال يوم باقيًا، وفيه يخلق

ربك ما لا تعلم. وبهذا وأمثاله عزيت نفسي وعللتها وأعنتها على الكسل كما هي عادتي، فإني لا أفعل الشيء إلا في آخر ثانية من آخر دقيقة من آخر ساعة، فلا آكل إلا بعد أن أشفى على الموت جوعًا، ولا أشرب ماء إلا إذا عصب ريقي ونشف لساني وتدلى كلسان الكلب، ولا أكتب حرفًا من مقال في "البلاغ" إلا بعد أن يفرغ العمال من صف الأوراق التي في أيديهم ويقفوا منتظرين، فيبعث إلى رئيسهم بواحد ثم بثان ثم بثالث وأنا أعد كلا منهم خيرًا، وأؤكد لهم جميعًا أني سأكتب "حالا" وأروح أتلكأ، فيوفد إلى جمعًا منهم – ثمانية أو عشرة – يدخلون علي وفداً محتجًا أو "مظاهرة" ساخطة، فأتساءل – في سري – عن قانون التجمهر ماذا صنع الله به؟ ولماذا لا تنفذه الحكومة ؟

وفي كل صباح تنشب في البيت معركة. تدق الساعة سبع دقات، فأسمع نقرا على الباب، فأستعيذ بالله، وأتناوم – أعني أتصامم؛ فيتكرر الدق ويعلو، فأصيح :

"نعم، ماذا إن شاء الله على الصبح" .

فيقول الصوت: "قم!" .

فأقول مغالطًا : "الساعة السادسة فلماذا أقوم من الفجر ؟"

فيقول الصوت : "بل هي السابعة؛ فقم ولا تكسل !"

فأقول : "لم أسمع إلا ست دقات"

فيقول الصوت: "بل دقت سبع مرات"

فأؤكد أنها ست، ويؤكد الصوت أنها سبع! فأقول: " إذن فلننتظر حتى نسمع دقة الساعة الآتية" .

فتفتح زوجتي الباب وتقول: "ألا تنوي أن تقوم؟"

فأقول محتجًا على هذا الازعاج: "لماذا بالله أقوم، واليوم يوم جمعة؟"

فتقول : "إنه الثلاثاء لا الجمعة"

فأقول : "بل هو الجمعة. على كل حال قد اختلفنا، وقد قالوا إن اختلاف الفقهاء رحمة. وكذلك أرى اختلافنا. فدعيني حتى يجيء زائر من الزوار الكثيرين فنسأله عن يومنا هذا ما هو؟"

فتقول : "كل يوم عندك يوم جمعه؟ هيه؟"

فأقول : " يا ستي لقد اختلفنا، ويجب أن ننتظر ثالثا يجيء فيقضي بيننا بالحق"

فتقول : "طيب. سأجيء بمن يقضي بيننا"

وتجيء بالأطفال وتساعدهم، على جري من رجلي، وإنزالي عن السرير، وإدخالي في الثياب، ودفعي إلى الباب، وهي تقول :

"لم أر أشد منك كسلاً عن السعي لرزق أولاده؟"

فأخرج إلى الطريق وأنا أقول لنفسي :

"ولماذا لا يسعون هم لرزقهم؟ لقد قرأت في الكتب أن الضرورة أم الاختراع، وأن الحاجة تفتق الحيلة. ولست أرى حاجة هؤلاء الأولاد الملاعين إلى الرزق تفتق لهم إلا حيلة واحدة أو اختراعًا واحدًا – هو كيف يكرهونني على العمل والسعي وهم قعود ينعمون بالراحة وأحرمها!"

ولكن شيئًا واحد لا أتلكأ فيه أو أؤخره إلى آخر لحظة، وذلك هو السفر؛ فأنا كلما سافرت، أذهب إلى المحطة قبل الموعد الذي يقوم فيه القطار بيوم كامل على الأقل، والسر ليس به خفاء ذلك أن السفر منجاة من العمل، والغائب عذره معه، كما تقول الأمثال .

ولم يفتح الله على شيء – أعني بكلام أقوله لكم وأنفعكم وأسركم به، فجئت وفي مأمولي أن يحدث أحد أمرين. أن أضل الطريق ولا أهتدي إلى مكان هذه الدار؛ فينهض لي العذر فيما بيني وبين نفسي على الأقل، وأنا كما قد تعلمون – أو لا تعلمون – أجهل الناس بجغرافية الشوارع. والثاني أن يمنعني الواقف بالباب ويردني عن

الدخول كما ردني بواب المدرسة السعيدية الثانوية عن دخولها وأنا مدرس بها، لظنه أني تلميذ متأخر، فلولا أن أدركني الأستاذ الهراوى وكان موظفًا معنا فيها، لضاعت على التلاميذ في ذلك اليوم دروسي النفيسة .

غير أني لم أضل ولم يصدني أحد أو شيء عن بابكم، وإنما رأيت في الطريق على مسافة أمتار من الدار، صناديق كثيرة تسد جانبا من الشارع، فدنوت من الرجل الذي يدحرجها عن المركبة إلى الأرض وقلت له :

"لماذا لم تسد الطريق كله يا أخي؟"

فظن أني أتهكم عليه أو أسخر منه، فصرفني بكلمة وإشارة .

وها أنا ذا قد بينت لكم عذري، فإذا شئتم أن تتفضلوا على هذا العاجز، وتكرموا أديب قوم أَصْفَى فهيا بنا إلى الطريق، وكفى الله المؤمنين الثرثرة، وإلا فلا ذنب لي، بل الذنب لمن اختارني للكلام، وعين لي الموضوع، ولم يترك لي أي رأي فيما أستطيع أن أقوله، ومن سوء الحظ أنه اليوم – كما علمت وأنا مقبل – مريض، أو لعله هارب، متخفٍ، وإلا لكان لي معه حساب طويل .

سألت نفسي وأنا مقبل على هذا المكان "لماذا تقرأ يا ترى؟"

وبعد أن أطرقت قليلاً، وقطبت طويلاً، وأفزعت بهيئتي الراكبين معي في الترام قلت في جواب هذا السؤال :

"والله يا مازني إنك لسخيف! ولماذا لا تسأل لماذا نتكلم ويستمع بعضنا إلى بعض؟ إن هذا من ذاك! فنحن نتكلم لأن بنا حاجة إلى الإعراب عما في نفوسنا أو رؤوسنا، والإفضاء بشعورنا، وبيان خوالجنا، والترفيه عن أعصابنا، أو التظاهر بذلاقة ألسنتنا، وسعة معارفنا، وعظم أحاطتنا وذكائنا .

ويصغي بعضنا إلى بعض، ويجد في ذلك متعة لأن الإنسان فضولي بطبعه أو قولوا إذا شئتم لأنه محتاج إلى المعرفة، يتطلع إليها ويطلبها، بل أصح من هذا كله أنه لا يستطيع أن يتكلم إلا إذا سمع. والكتابة كالكلام بل هي فن مهذب منه، والقراءة

كالسماع، وكل ما هنالك من الفرق أن هذا نطاق ينتظم الإنسانية كلها، وإن ذاك محصور في نطاق ضيق، لأن القراءة ليست في متناول كل واحد، والموضوعات قد تكون أعوص من أن يقوى عليها كل قارئ. والمرء لا يستطيع وحده أن يعلم كل علم، ويفكر كل فكر، ويحس كل إحساس، ويجرب كل حالة، ويكابد كل امتحان، فلا غنى به عن الإطلاع على ما عند الغير، ليكمل نقصه، ولو وسعه أن يستغنى لاستغنى، ولكن ذلك لا سبيل إليه .

ومزية الكتب أنها تعطيك الخلاصة، وتعفيك من عناء التجريب، ومشقة الامتحان، وعذاب المعاناة، والقارئ لا يدرى ماذا كلفت صاحبها الأبيات القليلة من الشعر أو السطور المعدودات من النثر، وذلك من حسن الحظ، فإن المرء ليعجز أحياناً عن احتمال ما يكابد، فكيف لو كان عليه أن يحتمل فوق ذلك .

* * *

معاناة الناس جميعا؟ وعلى أنه حتى حين يعرف ذلك ويطلع عليه، لا يحسه كما يحسه صاحبه، ولعله حين يقف عليه، يحمد الله فى سره على النجاة من مثل ذلك. ومن هنا تجد المرء يسمع بمصائب الغير ولا يكاد يتحرك لها .

ولا شك أنكم جميعا من هواة القراءة، ولكنى لا أدرى كيف تمضون فى ذلك، وأى نهج تنهجون، أما أنا فقد وضعت لنفسى ثلاث قواعد. ولست أذكر متى بدأت أقرأ، فقد كانت البداية وأنا صغير جداً، غير أن هذه القراءة الأولى لا قيمة لها إلا من حيث أنها دليل على الميل، ولم تكن لى فيها قاعدة ولا نهج، وإنما كنت أقرأ كل ما تصل إليه يدى من الطيب والخبيث، فلما كبرت قلت لنفسى: إن العمر أقصر من أن يتسع للإطلاع على كل كتاب، ولو أنى أردت أن أحيط حتى بأسماء الكتب من قديمة وحديثة، لقصرت، فكيف لو أنى أردت أن أقرأها، فلا مفر من الاختيار .

وقد رأيت أن أقتصر على الجيد الموثوق بجودته، وإذ كنت طالب أدب فقد آليت لا أقرأ إلا ما أكون على يقين جازم من جودة مادته وجودة أدائه. فإذا وقع لى كتاب جيد المادة، ولكنه سخيف الأداء أو ضعيفه رميته وانصرفت عنه. وقد أتسامح إذا جاء

أداؤه دون مادته، ولهذا يندر أن أقرأ كتاباً مترجماً لأني أوثر أن أقرأ الأصل إذا تيسر ذلك. ومن أجل هذا أيضاً. أقللت من قراءة الحديث حتى أملأ جعبتي من القديم الذى أطمئن إلى جودته .

والقاعدة الثانية أن أقرأ ولا أكلف نفسي عناء الحفظ. وقد أعجبني قول قائل في "العمدة" لابن رشيق أو "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، أو لا أدرى في أي كتاب آخر، ما معناه أن على طالب الشعر أن يحفظ عشرة آلاف بيت ثم فلينسها بعد ذلك، والغرض من ذلك أن تحصل الفائدة من غير أن يتقيد المرء بالمعاني أو القوالب التي صبت فيها المعاني؛ فيجيء الأسلوب طبيعياً بريئاً من التقليد، منزهاً عن الاقتباس أو الاقتباس، فأما الحفظ فلا قدرة لي عليه، أو لعل لي قدرة ولكني كسول جدا ، أو حكيم جدا، فإن الوقت الذى يضيع في الحفظ أولى أن يضيع في قراءة شيء جديد. ولم أتكلف مراعاة هذه القاعدة لأني سريع النسيان، حتى ليكبر في وهمي أني سأنسى اسمي يوماً ما – أي أنسى نفسي وشخصيتي وحياتي ويمحى كل ما هو مسطور في اللوح. وعندى كتب كثيرة قرأتها مرات عديدة، فكانت في كل مرة جديدة، وكأن لم يسبق لي الاطلاع عليها. وهذا من فضل الله علي، فإني أعجز في أحيان كثيرة عن شراء كتب جديدة؛ فأكر إلى ما عندى وأتناول منه وأقرأ، فكأني اشتريته قبل ساعة. وأقلب الصفحة وأنا أقرأ، فأنسى ما فيها، ويكون الكتاب قصة، فإذا لم أفرغ منها في جلسة واحدة نسيت الحكاية واحتجت أن أبدأ من البداية. وهذا عجيب فقد كان أبي وأمي من أقوى الناس ذاكرة، ولكنه لا ضير من ذلك، لأنه لا يضيع شيء في الحقيقة، وإن كان يختفي عن العين وراء الوعي أو لا أدرى أين؟ وفائدة التحصيل تحصل على كل حال، وإن كان المرء لا يعرف ذلك أو لا يشعر به ويدركه .

والقاعدة الثالثة استخلصتها من كتاب "ليوسنت" اسمه "الأدب المقارن" وهو يذهب فيه إلى أن ومضات العبقرية الحقيقية لا تظهر من آثار الفنان، بل من آراء الناقد، وعنده إن الفنان – الكاتب أو الشاعر أو غير ذلك – يعيش في عالم من خياله محدود، بحدود شخصيته وأحواله وظروفه، ويتوهم أنه ملهم، فلو أنه أكل من شجرة المعرفة، وفتح عينيه على حدود النطاق الذى يعيش فيه، لفقد القوة والسحر اللذين

أفادهما من توهم الإلهام. أما الناقد فنظرته أعم وأشمل، وهو لا يفتأ يقارن بين ضروب الأدب المختلفة، ويقابل بعضها ببعض، ويحلق فوقها جميعاً، وينظر إليها من قريب، فيراها مفرقة، ومن بعيد فيراها جملة. فهو لهذا أرحب من الفنان أفقاً وأبعد مطارح نظر وفكر، وإذا كان الإلهام ينقصه فإن السمو والدقة والإحكام والإحاطة بعض ما يستفاد منه .

وهذا الرأي فيه صواب وخطأ، فهو ليس بصواب على إطلاقه ولا بخطأ على إطلاقه، وقد أفادني أني سألت نفسي بعد أن قرأت هذا الكتاب: ما هي غايتك؟ وأجبت نفسي بأن غايتي أن أكون شاعراً عظيماً وناقداً حصيفاً. ولما عينت الغاية سهل أن أرسم الطريق، فأقبلت على دواوين الشعراء، وعلى الكتب التي رجوت أن أستفيد منها فلسفة النقد خاصة والأدب عامة. وصحيح أني أخفقت في الغايتين فنفضت يدي من الشعر، ثم [...][٢] عن معالجة النقد، وملت شيئاً فشيئاً إلى طريق جديد، ولكن هذا الإخفاق لا قيمة له، وهو نتيجة الخطأ في درس النفس والوقوف على استعدادها. والحياة تجارب، ومن المحال أن يتوقى المرء الخطأ والغلط والضلال، والنفس شيء مجهول جداً، وإن كان مختزلاً في هذا الجرم الضئيل، والمهم أن يعدل المرء عن الضلال متى فطن إلى ذلك، وأن لا يلج فيه كبراً أو عناداً أو كسلاً أو يأساً .

إبراهيم عبد القادر المازني

---

(٢) غير واضحة في الأصل وقد تكون : كففت .

القـــراءة[1]

(خلاصة محاضرة في جمعية الشبان المسيحيين)

– ٢ –

يبدو لى من وجوهكم – أعنى من ألوانها ومن النظارات التى على عيون الكثيرين منكم – إنكم من هواة القراءة أو على الأقل من هواة الكتب، ولست أرى فرقا بين من يكنز المال أو يجمع طوابع البريد أو السجاد النفيس أو الخزف الثمين، وبين من يكلف بجمع الكتب، أو بقراءتها. والشره واحد وإن اختلفت مظاهره، وأنا أعرف ناساً يجمح بهم هذا الهوى، جماحاً عجيباً، ومنهم من لا يتردد – فى سبيل إرضاء هذه الشهوة – فى أن يتلصص ويسرق، ولعلكم سمعتم بالأغنياء الذين يغافلون باعة الطوابع ويسرقونها، ولو شاء أن يشتريها لما أعجزه ذلك، على أن من هواة الكتب من يفعل شراً من هذا، ولى قريب ما دخل بيتى قط إلا سطا على كتاب. ومن غريب أمره أنه يحمل الكتاب ويمضى به، فإذا عاد ووجدنى اشتريت نسخة أخرى منه، مد إليها يده، ودسها فى جيبه أو تحت ثيابه، وخرج، وقد سرق منى ثلاث نسخ من الجزء الأول من ديوان ابن الرومى، وكانت تكفيه – لو عقل – نسخة واحدة، ولكن الأمر فى هذا ليس أمر عقل، وأغرب من ذلك أنه يكدس هذه الكتب فى صندوق ويخفيه فى غرفة مظلمة منحدرة فى الأرض فى بيته، لا تدخلها الشمس ولا ينفذ إليها الهواء، ولا يعيش فيها وينعم بالرطوبة والظلام إلا الجرذان والوطاويط والهوام. ومالى أمثل بقريبى وأنسى

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٩ فبراير سنة ١٩٢٥ (ص٣).

نفسي؟ كانت عندي منذ نحو خمس وعشرين سنة، ثلاث طبعات مختلفة من شعر شكسبير – الأولى في مجلد واحد، وحرفها دقيق جداً فهي لا تقرأ، ولا أدري لماذا اشتريتها، والثانية في ثلاثة أجزاء وحرفها أكبر وقراءتها أيسر، ولكن ينقصها الشرح، ولم أكن أستغني عنه في ذلك الوقت، والثالثة في أجزاء كثيرة بعدد الروايات، وفي واحد منها أغاني شكسبير، وهي خير الطبعات وأصلحها، لوفاء الشرح والتعليق، فاتفق أن ذهبت إلى مكتبة "ديمر" وكانت في بناء فندق شبرد، وأخذت أقلب الكتب على عادتي وأنظر إليها وهي على رفوفها، وأشاور نفسي أيها أبتاع وأيها أترك – إلى حين؛ فوقعت عيني على كتيب صغير مجلد بالمخمل فيه أغاني شكسبير، فافتتنت به، ولجت بي الرغبة في الاستحواذ عليه، ولو شئت لا شتريته، ولو نسيئة إذا أعوزني المال، فإن صاحب الدكان وعماله يعرفونني، وأنا أنفق في دكانهم كل أول شهر أكثر مما أنفق على بيتي، غير أني لم أشتره بل دسسته في جيبي ثم خرجت به وبما ابتعت غيره، ولا أدري أرآني وتغاضى عامل المكتبة، كرماً وتسامحاً، أم لم يرني، فلما صرت في الطريق خجلت، فوقفت متردداً، ثم عدت فرددت الكتاب! ولعل منكم من يشك في صدقي، ولكني لست مضطراً أن أكذب، فقد مضى أكثر من ربع قرن على الحادثة، فلا خوف من النيابة والشرطة، وأظن صاحب المكتبة قد انتقل إلى عالم آخر فلا مجنى عليه في دنيانا .

ولكن لا أقتني الكتب لأرصها وأزين بها داري بل لأقرأها، وهي عندي خير من الصديق والقريب، وأحب إلي من الزوجة والأبناء، وحسبي من بواعث الرضى عنها والإيثار لها أنها تعطيني ولا تأخذ إلا من وقتي الضائع على كل حال، والأمل فيها لا يخيب، والثقة بها لا تكون إلا في موضعها، ولا خوف من كذب أو خداع أو غدر أو نفاق، وقد تعلمك الخطأ ولكنها لا تفعل ذلك عامدة، وصداقتها لا تفتر، وودها لا يحول وإن مللتها وجفوتها واعتضت منها سواها. وللكتب شأن غير شأن "المودة" فليس كل جديد فيها بخير من كل قديم، ولا يكون للناس له – من أجل ذلك – أطلب، وفيه أرغب، وما عدت إلى كتاب قط إلا استعدت الخواطر والخوالج التي لا سبيل إلى استعادتها بغير هذه الوسيلة، فأتذكر الوجوه التي كنت أراها إذا أرفع عيني عن الكتاب، والمكان

الذى كنت فيه، والجو والمناظر التى أحاطت بى، وما وقع فى نفسى من الكتاب ومن ذلك كله، وفى هذا التذكر جمع لما يتفرق من شخصيتى ويتبعثر على الأيام، وينسى المرء الزمن، وتمحى السنون التى مضت وانقضت، من لوح العمر، ويرتد المرء شاباً كما كان، ويتحقق ما تمناه بعض الحكماء من أن يرجع شاباً ومعه تجارب شيخوخته، وصحيح أن الشباب مزيته أنه ليس مثقلا بعبء التجارب، وفضله أنه غرير يقدم، ويقبل، ويقتحم، ويتطلع، ويفيض أمله على الدنيا ويرقرقه فى الحياة، لأن عباب الحيوية زاخر، وتيارها دافق، وسيلها العرم، ويغتر الحدث بذلك، ويتوهم أن الينبوع لا ينضب، ويحسب أن المنبع لا يشح، ويظن أن صلته به لا تنقطع واستمداده منه لا ينتهى، فينفق وينفق، حتى تذهب السكرة وتجيء الفكرة، فيحس الجفاف، ويدرك أن العين قد نشف، وأن الشيخوخة قد أدركته - أعنى المرء لا العين - فيحتاج إلى التخييل، فلا يلقى كالكتب عوناً على ذلك، فإذا أقبل عليها وقف الزمن، بل ارتدت عقارب الساعة، ورجع هو بارتدادها يافعاً ينظر إلى الدنيا والحياة بعين جنية الإنسان .

ولكن هناك فرقا بين تحصيل المرء فى شبابه، وتحصيله فى كهولته، وأنا اليوم أقرأ، ولعلى أعظم شرهاً مما كنت فى صدر حياتى، غير أنى أحكم عقلى، لا إحساسى، كما كنت أفعل، أيام كانت كل كلمة زهرة أو درة، وكنت أعب من جدول المعرفة الذى كان يغرينى ولا يسخر منى، كما يسخر نهر الحياة، فأنا الآن أنظر إلى الجودة وأطلبها، وأقدر مبلغها، ولا أحفل الوقع الذى يكون للكتاب فى النفس، ولست أستجيد ما كنت أغالى به فى حداثتى من أمثال "آلام فرتر"، وهذا طبيعى، مع ارتفاع السن، واتساع أفق النفس، ونضج العقل، واعتياد الأناة فى النظر والحكم. وفى وسعى أن أقول - وفى وسعكم أن تصدقوا - أنى لا أهتز ولا أطرب الآن، ولا يستخفنى شيء من الشعر أو النثر، ولا يقوى على إخراجى عن طورى كلام بالغاً ما بلغ من القوة والجمال، وكنت إذا أعجبتنى أبيات من الشعر، دهورتها بلسانى فى شدقى، فالآن أتناول الديوان من شعر الشاعر فأعبره بعينى، وأنتقل من قصيدة إلى قصيدة، وأقلب صفحة بعد صفحة، وقد أتخطى صفحات أطويها جملة، ولا أكاد أقف عند شيء، أو أقرأ من القصيدة إلا بيتاً هنا وبيتاً هناك، وكلمة فى أول الصفحة وجملة فى آخرها، ولا يكاد يستوقفنى شيء إلا إذا كان بالغاً غاية الأحكام ونهاية الجودة، وهيهات !

وبين تحصيل جيلنا، وتحصيل جيلكم، فرق كبير، فنحن كنا - وما زلنا - نقبل على الكتب جادين مصممين، أما جيلكم فيتناولها مستخفًا وبأطراف البنان، وينشد اللهو وتزجية الفراغ والتسلي لا المعرفة والاطلاع، ونحن كنا نغرق في هذا البحر الزاخر إلى أذقاننا، وأنتم تقفون على الساحل تنظرون وتسخرون قانعين بثبات الأرض تحت أقدامكم، مستخفين بعقول الذين يلقون بأنفسهم في اللجة، وأضرب لكم مثلا لجدنا ومثلا لهزل جيلكم .

لما سرت على الدرب - أعني لما نهجت في القراءة نهجًا منظمًا، شرعت أدرس كتاب "الأغاني"، وهو على حلاوته طويل ممل، فكنت أجد فيه البيتين أو الثلاثة للشاعر، وكثيرا ما يسقط المؤلف أبياتًا أخرى بينها، أو يوردها على خلاف ترتيبها في ديوان الشاعر، فقلت أرجع إلى دواوين الشعراء، فجمعت ما وسعني جمعه من ذلك، ومن ليس له ديوان مطبوع، اعتمدت في مراجعته على دار الكتب، فكنت لا أجد في كتاب الأغاني شعرًا إلا راجعته في ديوان الشاعر كلما تيسر ذلك، والذين يعرفون الأغاني، يعلمون أنه ما من صفحة فيه تخلو من الشعر، ولهذا آثرت أن تكون نسخة الأغاني التي عندي ورقًا غير مجلد، فوضعت بين كل صفحتين ورقا أبيض دونت فيه الأبيات التي اهتديت إلى أصولها منقولة عن دواوين أصحابها أو عن غير الأغاني من كتب الأدب، وكلما فرغت من جزء من الأغاني جلدته وفيه هذا الورق الذي كتبته في مواضعه .

ثم شاء الله أن أحتاج إلى بيع مكتبتي فكان الكتاب الذي ثمنه وهو جديد نصف جنيه يباع بخمسة قروش أو أقل، إلا نسختي من كتاب الأغاني، فقد كنت اشتريتها بمائة قرش وخمسة قروش (طبعة الساسي) فبعتها بسبعمائة وخمسين قرشًا، أي بسبعة أضعاف ثمنها، وقد قصصت عليكم ذلك لتعرفوا ماذا تجشمت في قراءة الأغاني .

ولما وقع في يدي كتاب "أصل الأنواع" لداروين، سهرت فيه الليل كله على وعورته وتعويصه، واستعصائه على مثلي، فلم أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، وكنت يومئذ طالبًا في مدرسة المعلمين العليا، وكان هذا الشباب يتكرر كلما صار في يدي كتاب

جديد، فدعانى الناظر إليه، وكان المرحوم إسماعيل باشا حسنين، ونصح لى أن أواظب، وأعرب لى عن استعداده لمنحى أجازة خمسة عشر يوماً دفعة واحدة، على أن أثابر بعد ذلك وأواظب على الحضور؛ فشرحت له سبب الغياب، وبينت له أني لا أتخلف عن الدروس لألعب، فهز رأسه ولم يقل شيئًا، وتركني لرأيي .

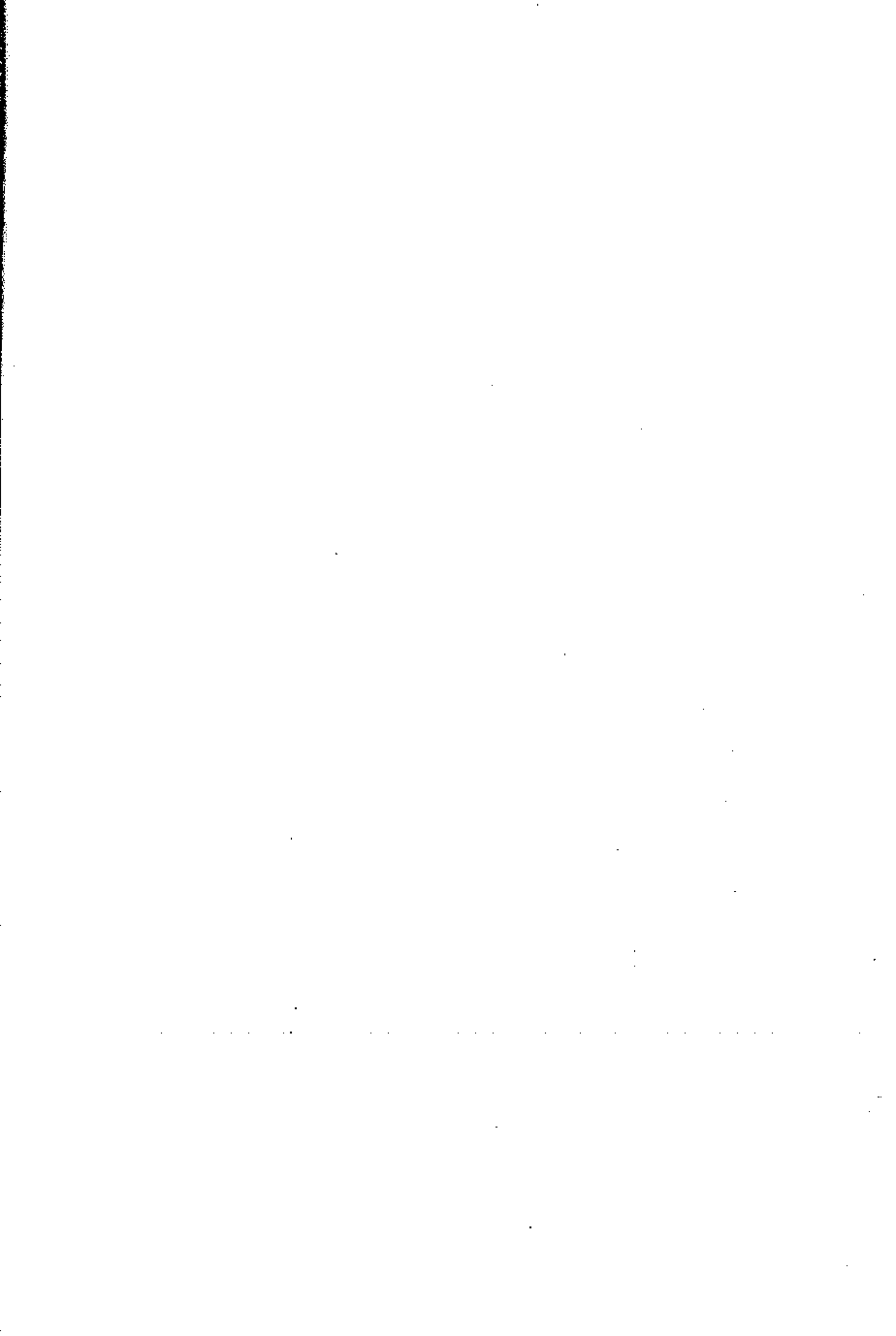
أما الجيل الحاضر فلا أحسبه يجد فى القراءة هذا الجد، ولست أعرف له صبراً يستحق الذكر، على التحصيل، وإنك لتسأل أى صاحب مكتبة، فيقول لك أن الكتب الخفيفة تروج فى مصر دون الأقطار الشرقية الأخرى، وأن الكتب الجدية تروج فى هذه الأقطار دون مصر، ولا أظنكم تجهلون أن الحياة ليست هزلاً صرفًا ولا جداً بحتًا، وإنما هى مزيج من هذا وذاك، والذى لا يحسن أن يجد، لا يحسن أن يهزل، وفى وسع الإنسان أن يعبث ويلهو كما يشاء ويلعب ما استطاع من غير أن يهمل الجد أو يجور على وقته، ولست قدوة لأحد، وأنى لآخر من يصح أن يتخذوا مثالاً يحتذى، ولكنى مع ذلك أذكر لكم أنى استطعت أن أفرد للجد الصارم وقتًا كافيًا، والهزل وقته بلا تقتير، فأنا أعمل كالثور الذى يدير الساقية، ولا أكاد أذوق للراحة طعمًا، حتى إذا فرغت من ذلك، وتشهدت، أرسلت نفسى على سجيتها، فضحكت ولهوت ولعبت كما لا تحسنون والله أن تفعلوا، لأنى قسمت حياتى قسمة عادلة .

* * *

أما ماذا تقرأون؟ فمسألة يرجع الأمر فيها إلى الغايات، ولكنى أوجز فأقول أن القاعدة هى الآداب. وليكن المرء طبيبًا أو مهندسًا أو سياسيًا أو غير هذا وذاك. فإن الواجب أن يبدأ بالإطلاع على الأدب إطلاعًا كافيًا. لأن الأدب هو تفسير الإنسان للحياة، وهو يعمق النفس ويوسع الأفق. فلا غنى بأحد عنه، إلا إذا كان يريد أن يستغنى عن فهم الحياة إلخ إلخ ..

(حاشية) هذه خلاصة المحاضرة، وأظن أنى قلت كلامًا كثيراً أجمل من هذا وأحلى وأحكم. ولكنى نسيته، فمن فاته من القراء شيء، فلا يلم إلا نفسه. فقد كان فى وسعه أن يسمعنى فى ساعة الإلهام !.

إبراهيم عبد القادر المازني



فـى أصول الأدب

للأسـتاذ أحـمـد حسـن الزيات[1]

عرفت صديقى الأستاذ أحمد حسن الزيات بعد أن استقلت من العمل فى وزارة المعارف ورجوت أن أنجو بنفسى من وخامة جوها، وكنت حينما استعفيت مدرسًا بمدرسة دار العلوم للغة الإنجليزية! ومالى أنا أدرسها وهى ليست بلغتى؟؟ ومن تهكم الحوادث أنى لما نقلت إليها مدرسًا للغة الإنجليزية، أذاع الأستاذ الكبير الشيخ أحمد الاسكندرى هذا النبأ فى طلبتها، وخبرهم أنى أديب وشاعر وأثنى علىَّ، من كرم النفس ومروءة القلب، واتصل بى ذلك فأكبرته منه وشكرته له، وصار عجبى بعد ذلك أن يرحب الطلبة بأديب عربى، عملة وواجبة أن يعلمهم الإنجليزية! وكان نقلى إلى دار العلوم خدعة ونفيًا : جاءنى يومًا زميل من أصدقائى. وكان وثيق الصلة بالرؤساء وأسر إلىَّ أن الوزارة تتخير مدرسين للغة الإنجليزية فى دار العلوم، وأنه رشحنى، وأوصانى بكتمان هذا السر فإنه إذا ذاع كثرت المساعى والوساطات والشفاعات، إذ كانت دار العلوم تعد أرقى من المدارس الثانوية، وحظ المدرس فيها من الترقية أعظم، فصدقت هذا الكلام وصنت السر شهرين كاملين على صعوبة ذلك، وتلقيت أمر النقل فى بيتى ومعه رجاء من ناظر المدرسة الخديوية - وكان إنجليزيا - أن أذهب إليه. فسألنى :

"هل كنت تعلم بهذا؟"

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٤ مايو سنة ١٩٢٥ (ص٣) .

قلت "نعم، منذ شهرين"

قال "وكتمته؟ إذن أنت راغب فى النقل"

قلت "لا أدرى! ولكنى أوهمت أن هذا خير لى"

وقصصت عليه الخبر، فهز رأسه وقال إنه ليس خيراً لى، وأنه لو علم بذلك قبل أربع وعشرين ساعة لحال دونه .

وذهب إلى دار العلوم، فرضيت عن الطلبة، ورضى الطلبة بى، ولم يرض عنى الرؤساء، ولقيت منهم – على اختلافهم – عنتًا شديداً لم يكن يخففه عنى إلا رجلان كريمان هما الأستاذ الإسكندرى والمرحوم سلطان بك محمد، وكان شر ما لقيته من المفتش الإنجليزى، وكان رجلاً ضخمًا هائل الأنحاء ذا لحية طويلة كثة، كانت يدى تهم – كلما قابلته – أن تعبث بها فأردها بجهد وأدسها فى جيب البنطلون لأحبسها وأقيدها، فكان يعد ذلك منى سوء أدب فى حضرته أو قلة احترام له، ولو درى لغفر لى سوء أدبى، ولشكر لى أنى أصد نفسى عما هو أدهى. وعظم البلاء لما جاء يومًا يفتش، فدخل علىّ، وكنت جالسًا، فوقفت له ثم عدت إلى كرسىٍّ فقعدت عليه، فلما انتهيت من الدرس خرجت معه، فذكر لى أنى جلست وتركته واقفًا وإن هذا غير لائق، فقلت له :

"لو علمت أنك تريد الجلوس لدعوت الخادم أن يجىء بكرسى آخر" .

فقال بلهجة جافية : "هذه ليست قهوة" .

قلت : "صحيح. إذن ما وجه الاعتراض؟"

قال : "أن تجلس وتتركنى واقفاً"

فقلت له : "إن أساتذتى فى مدرسة المعلمين، علمونى أن المدرس فى فرقته لا رأس أعلى من رأسه، ولا مقام أرفع من مقامه، وأن كل رؤسائه أعوان له لا خصوم، وأن عليهم أن يقووا ضعفه لا أن يضعفوا قوته، وأن تغيير المدرس عاداته أمام تلاميذه

لجيء مفتش أو دخول رئيس، يصغره في أعين الطلاب، وإن سلب المدرس كرسيه يحقره، وأنت مفتش ولا ينقصك أن يعرف الطلبة أنك رئيسي، وأنك تملك نفعي وضري، ولكني أنا المحتاج إلى التأييد، المفتقر إلى التقوية، المطالب بأن أحرص على كرامتي لأضمن احترام الطلاب لي، وإلا فشا الأمر عليَّ واضطرب النظام و تعذر التعليم" .

قال :"هكذا؟" ومضى عني .

وكنت مكلفًا أن أعلم جماعة من الإنجليز اللغة العربية، وكنت أُعطي خمسة وعشرين قرشًا تجزية عن الدرس الواحد، فثقل عليَّ ذلك وأضجرني، فاستعفيت من هذا التكليف، واستعفى بعدي معلمون آخرون، فاتهمني المفتش الإنجليزي بأني حرضتهم على ذلك وأغريتهم به؛ فقلت :

"يا سيدي إن هؤلاء المعلمين منهم من كان أستاذًا لي، فلا يعقل أن أكون أنا محرضه . وإنما أستعفيتكم لأن العمل شاق والأجر لا يستحق كل هذا العناء، ثم إن هذا التكليف المضني يسرق وقتي ويصرفني عن الأدب" .

فلم يسمع مني.

وأصيب ساقي بكسر، فصرتُ أدخل بعدها على الطلبة متوكئًا على عصاي، فاتفق يومًا أن سمو الأمير محمد على زار المدرسة، وفي حاشيته الوزير والمستر دنلوب المستشار يومئذ، وكبار الرؤساء في وزارة المعارف .

فلما حضرت إلى المدرسة في الصباح، استنكر الناظر أن أحضر في ثياب بيضاء، ولم أكن أعلم أن الأمير سيزور المدرسة في يومه هذا، فسألت الناظر :

"هل للتدريس ثياب معينة؟"

قال : "يا سيدي سمو الأمير محمد على سيزور المدرسة اليوم! فأرجو أن تعود وتغير ثيابك "

قلت : "ليس عندي ثياب تليق باستقبال الأمراء، فالحل أن تدعني كما أنا، أو أن تمنحني أجازة"

فتركني محنقًا، وجاء الأمير ودخل عليّ ووراءه هؤلاء جميعًا، وأخبره بعضهم أني مهيض الساق، فحنا عليّ ولاطفني، ثم وقف المستر دنلوب معي يسألني عن تدريس اللغة الإنجليزية في دار العلوم، فقلت له أن رأيي أنه جهد ضائع، وأن تعليم هذه اللغة يجني على اللغة العربية ولا يفيد الطلاب جديداً، فلم يقل المستشار شيئًا، ولكن المفتش الإنجليزي الضخم رجع إليّ بعد انصراف الأمير وقال: "ما هذا الفضول؟"

قلت : "أي فضول؟"

قال : "ماذا يعني المستشار من رأيك في تعليم اللغة الإنجليزية؟"

قلت : "هذا شيء يُسأل عنه المستشار، وكل ما أعلمه أنه سألني فأجبت"

قال : "كيف تقول له هذا الكلام؟"

قلت : "لأنه رأيي الذي سألني عنه".

فألقى إليّ نظرة لا أنساها، ومضى عني .

ويأبى سوء الحظ إلا أن يوقعني معه بعد ذلك وقعة سوداء، وكنت مقبلاً على المدرسة في الصباح – كالعادة – فوجدت الناظر على بابها، فصاح بي : "أين أنت؟"

قلت مستغربًا : "أين أنا؟ هنا!"

قال : "لقد بعثنا في طلبك"

قلت : "خيرًا إن شاء الله!"

قال : "طلبك المستشار فاذهب إليه"

قلت : "على العين والرأس! ولكن لماذا كل هذه العجلة؟"

قال : "العجلة؟" العجلة؟ المستشار يطلبك يا أخي!"

قلت : "عرفت. وسمعًا وطاعة"

وهممت بالدخول؛ فمد ذراعه ليمنعني وقال :

"لماذا تدخل؟ اذهب"

قلت "كيف اذهب الآن، وعليّ ثلاثة دروس؟ بعد الفراغ منها اذهب!"

فضرب كفًا بكف وقال : "يا خبر أسود! والمستشار ينتظر؟"

قلت : "يا سيدى ماذا أصنع بدروسى؟"

قال : "اتركها يا أخى"

قلت : "أعطنى أجازة"

قال : "أعطيتك الأجازة! اذهب!"

قلت : "كتابة!"

فقال : "ما هذا العناد؟ ألست قد أعطيتك أجازة؟"

قلت : "لا آخذها إلا كتابة، وإلا فشأنك مع المستشار، وأنا داخل لدروسى"

فكتب لى ورقة أعفانى فيها من الدروس فى ذلك اليوم، فدسستها فى جيبى ومضيت إلى ديوان الوزارة، والناظر يصيح بى أن أركب عربة، فلما صرت فى الديوان وجدت رئيسًا كبيرًا فيه ينتظر على السلم فاستحثنى بإشارة وانطلق يرقى فى السلم بسرعة، وأنا أنظر إليه وأتمنى لو وسعنى أن أفعل مثله، ولكنى مهيض الساق، أجرها جراً، وصعدت إلى غرفة السكرتارية الملحقة بمكتب المستشار، فأجلسونى بها، ودخلوا عليه، ثم خرج إلىّ المفتش الإنجليزى الضخم، فمضى بى إلى غرفته الخاصة، وشرع يسألنى عن مدرس إنجليزى كان من تلاميذى فى اللغة العربية، فاعترضت وقلت له إن أستاذه الحالى أولى أن يُسأل عنه. فقال إن هذا ليس من شأنى، وأن علىّ أن أجيب .

قلت : "لا أجيب إلا إذا أُثبت اعتراضى، فإنى أخشى أن أظلم الرجل" .

ففعل؛ فأنسأت الشهادة وقلت إنه لا يعرف العربية، وإنه لن يتعلمها، وإنه فوق ذلك لم يكن مواظبًا على حضور الدروس، ولم يكن سلوكه حين يحضرها محموداً، وإنى شكوته لرؤسائه، فزجروه على مسمع من زملائه .

ثم عاد المفتش بى، فدخل على المستشار وتركنى أنتظر، فلما دُعيت سألنى - أى المستشار - : "هل هذا رأيك؟"

قلت : "لا أدرى!"

قال : "كيف لا تدرى؟"

قلت : "لقد كان المستر... يسألني فأجيب، وكان هو يكتب، ولم يطلعني على ما كتب"

قال : "خذ وانظر"

فقرأت الورقة وقلت : "هو رأيي بأدق تعبير"

وانتهى الأمر عند هذا فخرجت، فحقدها عليّ المفتش، وظن أني أعرّض له أو أغمزه، وعلمت بعد ذلك أن المدرس الذى سألوني عنه كان يراد ترقيته مفتشًا للمدارس الابتدائية، فأنا قد أسأت إليه بهذه الشهادة إذا عبأوا بها .

وقد عرفت بعد أيام أن مستقبلي ضاع فى هذه الوزارة، ذلك أني لقيت هذا المفتش اتفاقًا فسألني عن حالي، فاغتنمت الفرصة وسألته عن القاعدة التى تجرى عليها الوزارة في ترقية الموظفين: أهى القدم أم ترى هى الكفاءة؟ أم ماذا؟ فإن كان القدم هو الذى يلاحظ، فأنا قد تخطاني من هم أحدث مني، وإن كانت الكفاءة فإن تقارير المفتشين لا تسوغ إهمالي. فقال :

"إنك غير راض على ما يظهر عن وزارة المعارف فماذا يمسكك؟ اتركها؟".

قلت : "إن الذى أعلمه هو أنك أنت غير راضٍ عني، ولهذا تشير عليّ بترك الوزارة" .

وقلت كلامًا آخر أملاه الغضب والطيش، وخرجت موقنا أني أحمق، وأني أسأت إلى نفسي وجنيت عليها، وذهبت إلى دار من دور السينما فى تلك الليلة فلقيت فيها زميلاً ترك الوزارة كما تركتها بعد ذلك، فسألني عن حالي، فقلت إنه شر حال، وقصصت عليه طرفًا مما وقع لى مع هذا المفتش .

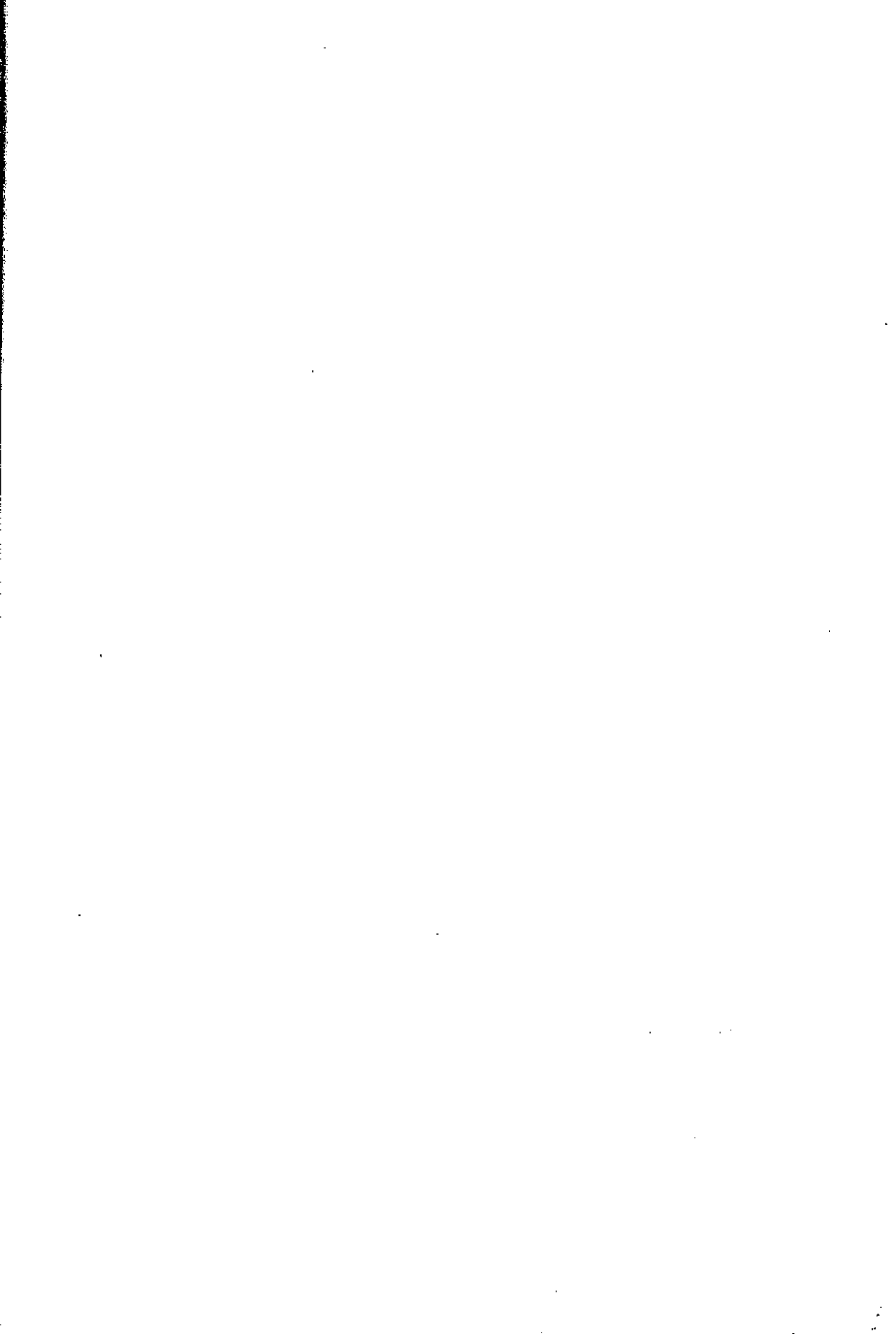
فسألني : "هل تقبل أن تعمل معنا فى مدرستنا؟"

قلت : "لم يبق لى خيار – نعم أقبل"

وفى اليوم التالى تعاقدت مع المدرسة، ثم استقلت من الوزارة، وفى هذه المدرسة الحرة، عرفت الأستاذ الزيات، وقضيت معه فيها ثلاث سنوات لا ينغص حياتى ولا يسود عيشى مفتش إنجليزى ذو لحية طويلة[٢] .

إبراهيم عبد القادر المازنى

(٢) يلاحظ أن المازنى ذهل واستطرد بعيداً عن كتاب "فى أصول الأدب"، ولكنه سيعود إلى الكتاب فى مقال تال تجدونه فى الجزء الثالث من "الأعمال غير المنشورة" للمازنى. (المحرر) .



سبيل المدنية[1]

رآنى مرةً صاحبٌ لى آكل لحمًا نيئًا، فاستغرب، وسألنى عنه كيف أجده؟ قلت: أطيب ما يكون، فأبى أن يصدّق، وذهب يكابر، وجعل يسألك "كيف تستطيبه وهو نيئ؟"

قلت : "يا أخى إن المسألة ليست مسألة منطق وجدل، وإنما هى مسألة طعام، فخذ منه وذق، وانظر بعد ذلك كيف تجده، ثم إنه لا شك أخف على المعدة وهى أقدر على هضمه من اللحم الذى أنضجته النار، وأثقله ما يخلط به"

فهز رأسه منكرًا، وأبى أن يجرب. ومضت أيام، فاشتهيت أن آكل كبدًا نيئة، فصارت الخادمة بعد ذلك تعلن الخوف منى ولا تخفيه، وتغلق عليها الأبواب حين تنام، كأنما خشيت أن آكلها حية، ثم لم تطق صبرًا فتركت البيت، وتحدثت إلى المخدم بأنى "غول" فتعذر عليه أن يقنع غيرها بالعمل فى بيتى، فجئت بواحدة من الريف .

ويخيل إلىّ أن المدينة تضعفنا من حيث ترقينا، وتشيع فى نفوسنا روح الأنوثة، فنزداد عليها رقة وتطريا، ولا نزداد قوة وقدرة على المقاومة. فنحن مثلاً نقاوم البرد بالثياب لا بأجسامنا وما فيها من المناعة الطبيعية التى تستفاد من التجرد، ولا يستطيع الواحد منا أن يخطو عشر خطوات بقدم حافية، وما أكثر ما تسمع الأم تحذر ابنها أن يمشى حافيًا حتى فى البيت مخافة أن يصيبه أذى من الرطوبة أو نحوها. والخبز يوضع على المائدة فى طبق حتى لا يمس السفرة، والأشواك والسكاكين والملاعق توضع مستندة إلى قطع من الزجاج أو المعدن ترفع أطرافها، وهكذا فى كل شىء، ولكن القطة مثلاً تعمد إلى كوم الزبالة فتنبشه، وتأكل ما تجد فيه من فتات

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٢٧ مايو سنة ١٩٣٥ (ص٨٤٧–ص ٨٤٨) .

الخبز أو غيره، والكلب يقضم العظام مخلوطة بالتراب فلا يصاب بسوء ولا تعروه حمى، وينام تحت عين الشمس فلا تضربه، وإذا جاء الشتاء لم يتخذ لحافاً ولا شبهه. وحدثني طبيب يعمل في الريف أنهم قلما يعنون بتطهير أدوات الجراحة في مستشفيات القرى عنايتهم بذلك في المدن، ولا يرون أن هذا يضير المرضى، أو يحدث لهم تسمماً، وهو يعلل ذلك بأن الأجسام في القرى أعظم حصانة، وأقوى مناعة لكثرة تعرضها، على خلاف الحال في المدن .

ونصحني مرة طبيب من أصدقائي أن أكف عن أكل اللحم، وأن أقتصر في طعامي على الخضر والفاكهة، فقلت له: "لا يا صاحبي، فإني أرى الحيوان أقواه أكل اللحم وأضعفه آكل النبات، وأنا أكره لنفسي أن أحيا حياة خروف. والعمر طوله أو قصره لا قيمة له، وليست العبرة بأيام تزداد في الأجل أو تنقص منه، فإنه إلى انتهاء على الحالين. "ومَرجوع وهاج المصابيح رَمدد" كما يقول الشاعر[٢] ، ولأن يحيا المرء حياة قصيرة ولكنها قوية، خير ألف مرة من أن يعيش ألف سنة ويكون بغلاً أو حماراً"

فضحك ولكني كنت جاداً، ومن ذا الذي لا يؤثر أن يكون نمراً على أن يكون ثوراً؟ أعني أن تكون له قوة النمر وصولته وبطشه، ولا بأس بالغدر والقسوة أيضاً، فإن لكل مزية ثمنها، وعسير أن تؤتى فضلاً وأن تسلم من عيب أو نقيصة: وإذا كان ثمن القوة القسوة أو الغدر، فإن ثمن الجمال الضعف، وهكذا في غير ذلك .

وعلى ذكر ذلك أقول إن الحب عند الحيوان تنزٍّ، وهو بين البدو شهوة تغوى بالاستحواذ بالقوة أو الحيلة، ولكنه في ظل المدنية يستحيل حنينَ عاجز، وصبوةَ حائرٍ ولهفة ضائع، ودموع مفؤود، لا حيلة له ولا دواء من دائه إلا أن يرق له المحبوب ويحنو عليه كما تحنو الأم على طفلها الرضيع. والتماس معاني الجمال في الإنسان والحيوان والأشياء عنوان رقي ودليل على دقة الحس والتمييز، ولكنه أيضاً التماس لمعاني الضعف،

---

(٢) الشعر من الطويل، وهو لابن الرومي (٨٣٦-٨٩٦م) ونصه :

محارُ الفتى شيخوخة أو منيةٌ ... ومَرجوعُ وهاج المصابيح رَمدد

ورمدد أي الهلاك، ومنه الرمد، وعام الرمادة أي عام الجوع والهلاك .

وتطيرٌ من الإنسان، ونزوع إلى الأنـوثة. وهذا كلام أحسب القراء سينكرونه ولا يقبلونه، ولعل منهم من يتوهمه إغراقًا في التخيل، ولكنه الحقيقة - وسبيل المدنية هذا، ولا حيلة لي ولا لهم .

وأحسب أن في نفسي أثرًا من آثار البداوة، فإني أحب الصحراء وأكره هذه البنى العالية ولا أرتاح إلى الفرش الوثير، وأمقت التعقيد وأوثر البساطة في كل شيء؛ وقد ارتاب بعض أهلي في صحة عقلي لما تزوجت، لا لأني تزوجت، فما في ذلك من بأس، بل لأني قلت لهؤلاء الأهل لما أبلغوني أن صاحبهم يأبى أن يزوجني الصغرى قبل أن تتزوج الكبرى: "قولوا له إني سآخذها على الرغم منه إذا لم آخذها برضاه" .

فعجبوا وقال قائلهم: "كيف؟ في أي عصر نحن؟ أم تريد أن تحدث لنا حدثًا في الأسرة؟"

قلت : "كل ما أعرفه أني أطلبها وأني سآخذها - خطفًا أو غصبًا أو سرقة - آخذها والسلام، فقولوا ما بدا لكم، وظنوا ما شئتم، ولكني أنصح لكم أن تردوا صاحبكم إلى الرشد"

فلم يسمع منهم، فكان أن أخذتها على رغم كل أنف - إلا أنفها! ولم أخطفها ولم أسرقها، ولكني أحسنت التدبير وجودت الحيلة. وما معنى أن أطلب شيئًا فلا أصنع شيئًا، وأروح أتحسر وأتلهف وأقطع قلبي عليه؟ هذا كلام فارغ. والطلب يقتضي السعي، فأما أن يوفق المرء وإلا فليقصر إذا عزه المطلب، ولكنها المدنية تحيل النفوس كالورق المبلول، فمن كان يريغ القوة فليجفف نفسه قليلاً، وليبنأ بها من الترف والرقة .

وقد قرأت للكاتب الإنجليزي هـ.ج. ولز قصة لا أذكر اسمها، ولكني أذكر أنه يتخيل أن البطل انتقل إلى كوكب آخر أرقى من هذه الأرض، وأعلى في درجات الحضارة وأسبق إليها ببضعة آلاف من السنين، فكان أن ظهرت الأنفلونزا، ففشت بسرعة ولم يدر سكان هذا الكوكب كيف يتقونها أو يصدونها، لأن جرثومتها لا تجد من أجسامهم مقاومة، فأخذوا يعزلون المصابين بالطيارات .

وهذا فعل المدنية لأنها ترمى إلى التسهيل والتيسير على الإنسان والتخفيف عنه، ورفع مؤونة الكد والتعب، وهذا مفض إلى التطّرى والضعف. وقد قيل للمشترع الأسبرطى مرة :

"ألا تبنى لنا سوراً يقينا الغارات المفاجئة؟"

فقال : "كلا. خير سور ما كان من اللحم والدم"

يريد أن يقول إن بناء السور من الحجر يغرى بالاستنامة والاطمئنان ويؤدى إلى الضعف، أما إذا بقيت المدينة بلا سور يحميها، فإن هذا يبعث على تنبه أهلها ويقظتهم ويدفعهم إلى الاستعداد الدائم، فلا تضعف نفوسهم ولا تذهب رجولتهم. وهذا صحيح. وقس على ذلك فى سائر الأمور .

إبراهيم عبد القادر المازنى

فـي الـكـتـب ومـا كـنـت أتمـنـى أن أقـرأ[1]

ليس أكثر من الكتب في الدنيا، ولعلها الشيء الوحيد الذي يزيد ولا ينقص، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التي بقي لنا منها أثر – ودع ما نقل بعضهم عن بعض – جمع في مكان واحد، لملأ مدينة واسعة كالقاهرة ومعها ضواحيها التي تزحف بها على الريف من ناحية، وعلى الصحراء من نواح، وليس أشد شرهًا ممن يستقل ذلك، أو لا يرى فيه غناء، وهنا موضع التحرز أو التنبيه إلى وهم قد يسبق إلى بعض الأذهان، فما أعني أن في الموجود من الكتب ما يغني عن الاستزادة أو يصدّ عن التطلع؛ أو ما يكتفي به العقل الإنساني عن المضي في البحث والتقصي، وإنما أعني أنه حسب من شاء أن يقرأ، فما يتسع عمرٌ – مهما طال – للإلمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلى عمر الواحد منا (!!) وزيدت عليه، لما كانت كافية لتحصيل ذلك كله، ولكني، مع ذلك، أراني أحيانًا – وأنا جالس بين ما بقي لي من كتبي – أتحسر وأتمنى: أتحسر لأن مطبوعًا من هؤلاء المؤلفين، على الشعر، أبى إلا أن يكون جاهلاً نفسه، وتوهم أنه ناقد أو فيلسوف أو غير ذلك، وذهب يكتب. أو أن كاتبًا فذًا غالط نفسه فراح يقرض الشعر، ويجيء بالغث ويحسب أنه صنع شيئًا، وأتمنى لو أن بعضهم نظم قصيدة في معنى يخطر لي، وأراه كان أقدر على صوغه، أو وضع كتابًا في بحث معين، أو كتب قصة مثلاً، أو أردف ما كتب بشرح ما يعني، كأنما كل هذه الكتب لا تكفي ولا تقنع !

وأتساءل أحيانًا – لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر "سقط الزند" وبعض اللزوميات، وزادنا من مثل "رسالة الغفران"، أكان هو ينقص شيئًا أم كان يزيد؟! وهل كنا نحن

---

(١) نشرت في مجلة "الرسالة" في ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ (ص١٤١٣–ص ١٤١٥) .

القراء نخسر أم نكسب؟؟ كنا نربح فيما أعتقد، ولم يكن يضيع علينا شيء من نظمه لا نهمله الآن، ولكن أبا العلاء غلط وآثر التكلف، ليرضي غروره، وليتعزى أيضاً بإظهار اقتداره. وإنه لفحل عظيم، وما يطيب لي أن يظن أحد أني أغمطه أو أنزله دون منزلته، وإني لأعلى به عيناً من أن يخطر لي أن في وسعي أن أظلمه، ولكني كنت أود لو زادنا من مثل الرسالة، وفي يقيني أنه لو كان فعل، لبلغ الذروة واستولى على الأمد .

ويؤسفني أحياناً أن الجاحظ لم يكتب قصة، أما لو كان فعل!؟ أين بين كتاب العرب، من كان أقدر على ذلك منه، وأولى بأن يكون أبرع فيه، وأسحر وأفتن؟؟ من له مثل قدرته على الكتابة ووفاء التعبير بلغته؟ من له مثل فطنته ونفاذ نظره، وفكاهته، وحسن تأتيه، ولطف مدخله، وحذقه في التناول والعرض، ودقته في فهم الناس واستبطانهم، والإحاطة بجوانبهم المختلفة، والتفطن إلى نواحي الجد والهزل فيهم، وإلى مبلغ اختلاط هذا بذاك، وإرباء ذاك على هذا ؟؟

أوليت الجاحظ كان مصوراً!؟ أترى كان يستطيع – لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة – أن يحوّل مواهبه إلى هذه الجهة؟؟ أكان يسعه أن يسخر قدرته اللفظية على البيان إلى قدرة من نوع آخر، على الأداء، فيثبت ما يريد على اللوح ويدعه، وهو ساكن لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره، ينطق بما حمله من المعاني؟ ومن يدري؟ إن مطلب الكاتب غير مطلب المصور، وأداة هذا غير أداة ذاك، وأقل ما بينهما من الفروق ووجوه الاختلاف أن الكاتب يقوم أسلوبه على الحركة والتعاقب، وأن المصور لا يسعه إلا أن يثبت لحظة ويعرضها ساكنة، والسكون لا ينفي التعبير والنطق، وقد يكون أنطق، وأبلغ في نطقه من الكلام. فهل كان بيان الجاحظ – وهو فيض لا تصده السدود – يستطيع أن يحتمل الحصر والتجمد والتجمع، والنطق بقوة الإبراز لا بفضل الانسياب أو التدفق؟ أعود فأقول، لا أدري ؟

وتمنيت، وأنا أدير عيني في كتبي على رفوفها، لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم، بينوا لنا – أو لي أنا على الأقل – ماذا يريدون أن يقولوا. عجيب أمرهم والله! قرأت مرة لأحدهم – وأظنه "هجل" فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كله –

كتاباً فى "فلسفة التاريخ" فخرجت منه كما دخلت، وقلت لنفسى: إما أنى أنا حمار، وإما أن هذا الرجل لا يحسن العبارة عما فى رأسه، ولكنى أفهم عن غيره فلماذا أرانى لا أفهم عنه؟؟ وكيف يعقل أن أعجز عن فهم ما أخرجه عقل إنسان مثلى؟ وكان فى هذا الكتاب فصل عن المدنية الإسلامية أو عن تاريخ العرب - فقد نسيت - خيل إلى أنى فهمت أقله، ودارت الأيام، ووقع فى يدى كتاب لرجل أمريكى اسمه "دريبر" عن المدنية ونشوئها، يكتب كما يكتب خلق الله - لا الألمان - فإذا فيه فصل طويل عن العرب يعد تطبيقاً لنظرية هجل التى لم أفهمها، فسألت نفسى: لماذا لم يكتب هجل كما يكتب هذا الرجل؟؟ ثم عدت أسألها وأتعجب: لماذا فهم "دريبر" عن "هجل" ولم أفهم أنا عنه؟ وأسأت الظن بنفسى واعتقدت أن بى نقصاً فى التدريب العقلى، وراجعت "هجل" وكررت إلى هؤلاء الألمان المعوصين كرة المصمم المستميت، ولكن مضغ الجلاميد أعيانى، فنفضت يدى منهم - ومن نفسى - يائساً، وقلت: يا هذا، لقد صدق القائل: كل ميسر لما خلق له، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان، فارجع عنهم، وانج بنفسك منهم .

ولست أعرف أن للمتنبى نثراً، وإن شعره لحسبه، فما يحتاج بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئاً آخر، أو يجشم نفسه جهداً فى باب غيره، ولكنى مع هذا أحس بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتاباً عن مقامه فى مصر، ورحلته إلى "الأستاذ" كافور! ألا يشعر القارئ معى أن كنوز الأدب العربى ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبى فى "كافور"؟ يا لها من تحفة نادرة، ضن بها علينا المتنبى؟ أتراه لم يخطر له هذا قط؟ فماذا كان يصنع يا ترى حين لا يعالج النظم؟ لقد كان مقلاً، وليس ديوانه الذى خلفه بالذى يستنفد عمر مثله أو جهده، فلماذا يا ترى لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة؟ أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظوماً، لأن عواطفه لا تتدفق إلا على لحن؟ وخواطره لا تنتظم أو تتسق إلا على النغم؟ ربما .

وينقص الأدب العربى - فى رأيى - اعترافات رواته، فقد ملأوا عالمه بالدخيل والمنحول والمخترع: وتركوا لنا نخل ذلك كله وغربلته، فليت واحداً منهم كانت له جرأة "روسو" إذن لارتفعت عن الباحثين تكاليف ثقيلة، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التى

لا نراها تغربل شيئًا، ولأمكن أن تنفق الأعمار التي تضيع في هذا البحث، فيما هو أجدى. ولو أن الرواة كتبوا اعترافات لخلفوا لنا قصصًا من أمتع ما في الآداب، غَربيّها وشَرقيّها، ولكشفوا لنا عن خصائص، نفسية وعقلية، ينفع الناس العلم بها، ولتسنى أن نعلل هذه الفوضى التي أغرق فيها الرواة أدبنا، ولا سيما القديم منه. ومن الذي لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحد منهم ينظم الأبيات ثم يحشرها في قصيدة لشاعر قديم، أو يخترع القصة أو النادرة ويعزوها إلى هذا أو ذاك من الأولين، ويصر على أن الأمر حق وأنه صادق، ويزعم أنه أخذ ذلك عن فلان وعلان، أو تلقفه من أفواه البدو الضاربين في الصحراء؛ والغريب من أمرهم أنهم ينزلون عن مزية كبيرة في سبيل مزية أصغر منها، ذلك أن اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدل على خصب في القريحة، وعلى قوة الخيال ونشاطه، بل على وجود ملكات كافية لأن يكون الواحد منهم شاعرًا مجيدًا أو قصاصًا بارعًا؛ ولكنهم يزهدون في ذلك، ويظلمون أنفسهم، ويقنعون بأن يكونوا رواة فحسب؛ أي حفّاظًا ليس إلا؛ أي خزانة مفتاحها في لسانهم، وأغرب من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا، وتوخوا الأمانة في الحفظ والرواية، لعدوا علماء، ولكانوا محل الثقة والاطمئنان، ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة، ويروحون يزوّرون ويفترون ويلفقون، ويظهرون في ذلك من الحذق والبراعة ما لو أظهروا بعضه في غيره لرفعهم مقامًا عاليًا. فلابد أن يكون هناك عوج في طباعهم والتواء في عقولهم يزينان لهم الطريق الذي سلكوا، ويعدلان بهم عن المنهج الأقوم، ويغريانهم بإهمال مواهبهم، أو سوء استخدامها .

وعلى ذكر الاعترافات أقول إني لا أحب أن أقرأ اعترافات لذلك النواسي الفاجر، وليس هو بأفجر من سواه من أصحابه في زمانه، ولكنه أظهرهم لأنه أعلاهم لسانًا وأقواهم بيانًا، ومثل سيرته لا يزيد الناس فهمًا للحياة وحسن إدراك لها، وما في الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتم نقائصه، كما يفعل غيره، ولم يحاول أن يستتر لما ابتلى، ولولا أن شاعر لما شُغل بقصصه أحد، والشهرة هي التي جنت عليه، فأبرزت جانب السوء والاستهتاك من حياته، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصر أو شعب. فلو أنه كتب اعترافات لما كانت لها مزية يفيدها الناس،

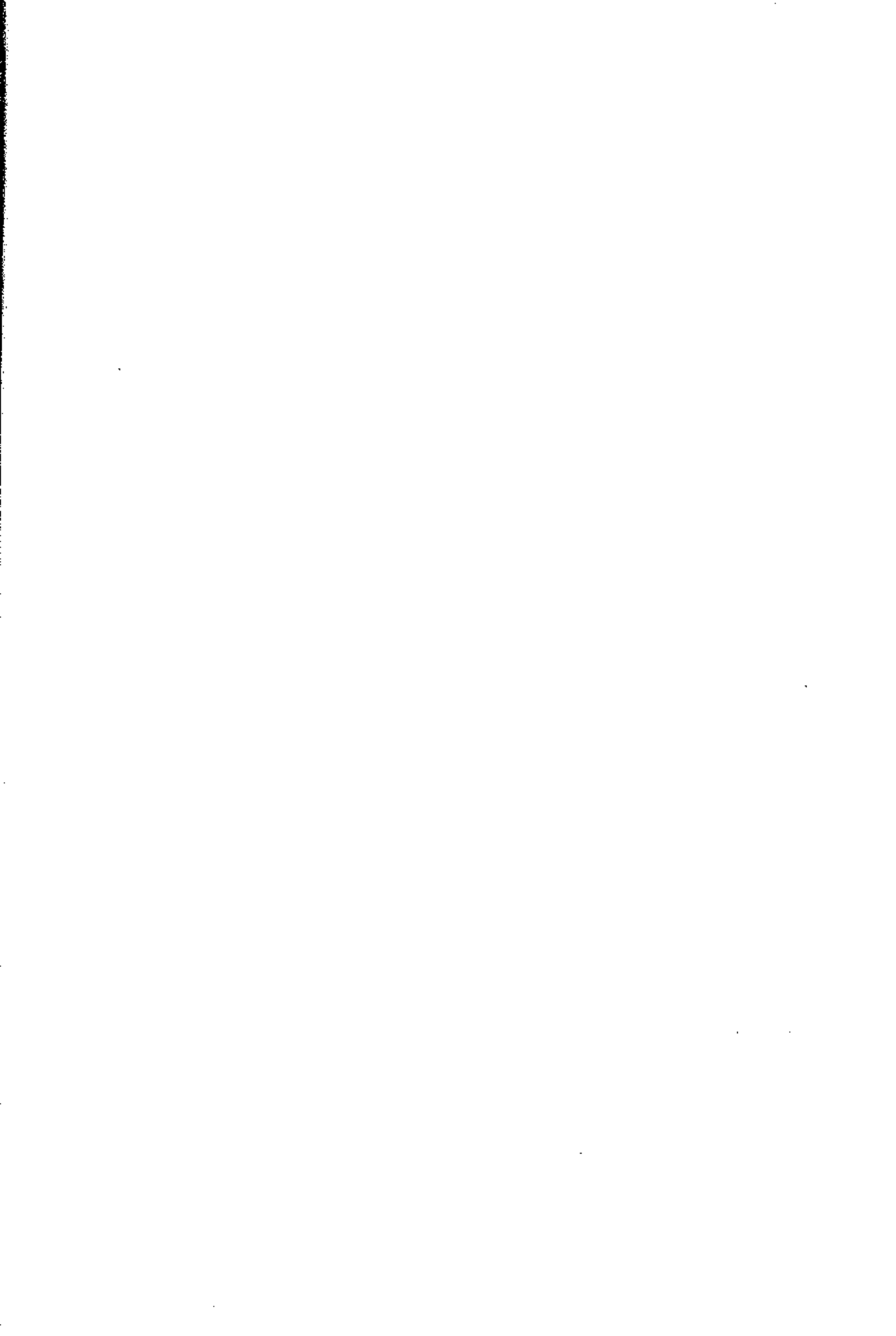
ومـاذا كـان يمكن أن يكون في اعتـرافاته مما يـجـهله الناس، وإن كـانوا لا يجـاهرون بالعلم به. كل ما كنا خلقـاء أن نستـفيده هو صـورة الحيـاة، كما عرفـهـا وعاناها، فاسق عظيم .

وليت دعبلاً ترك لنا مذكرات! فإنه متمرد ظريف، وليس أحب إلي المرء من الوقوف على مظاهر التمرد، ولكن التمرد صنيعه في حياته، وصنيع شعره معه - أو أكثره - فلو أنه كتب مذكرات لما أعوز خصومه الخطب .

* * *

لو ذهبت أذكر مـا كنت أتمنى أن أجد فيـه كتـابًا، لما فرغت، فـما لهذا آخر، فحسبي ما بينت، وليكن كإشارة الفهرس .

إبراهيم عبد القادر المازني



الطول والقصر[1]

الراكب خير من الراجل – أعني أنه أعلي – والاستعلاء يشعر المرء أنه أقوى وأقدر، ويدخل في وسعه أن يصوب عينه إلي ما هو تحته – والفرق ذراع – أو ما هو دون الذراع – ولكنه، على ضآلته، تمييز كاف، يصبح به واحد "فوق" وواحد "تحت"، فهذا مرفوع، وذاك مخفوض، والذى هو أعلي يشرف علي الذى هو أدنى، ويراه تحته، والخفيض يرفع عينه إلي الرفيع ويحس بشيء من قلة الاتزان وهو يفعل ذلك. وذراع من النسيج لا يصلح ثوبًا ولا لطفل، وذراع من الخيزران أو غيره من ضروب الخشب لا يكفي أن يكون عصا يتكئ عليها وتطول بها اليد، ولكن العلو – مقدار شبر واحد – وإن لم يكن شيئًا في ذاته، يدير في النفس معاني لها أثرها في المظهر والسلوك والاتجاه. والاستعلاء في الحرب حصانة، والطول في الرجل عزة، أو هو على الأقل مظهر وفاء في النمو، وتمام في الخلق، فالقصر – على هذا – نقص في كليهما وعجز، وقد لا يشعر المديد القامة بذلك، ولا يجرى في نفسه هذا الخاطر لأنه لا يتكلف شيئًا يضايقه ولا يتجشم عناء حين يخاطب الناس، ولكن القصير القميء يحتاج أن يرد رأسه إلي الوراء وأن يباعد ما بين قدميه ليثبت على الأرض حين يكلم من هو أطول منه، وليس في وسع القصير حين يماشي طويلا أن يمشي كما يمكن أن يمشي وهو وحده أو مع أنداده – وعينه إلي الناس أو الطريق – لأن المثابرة تغرى بالحديث والحديث مع الطويل يحوج القصير إلي رفع رأسه ليسمعه، فهو لهذا لا يزال مضطربًا بين أمور شتى يعاني منها كلها ما يثقل عليه – ذلك أن عليه أن يحفظ توازنه وهو يمشي ورأسه إلي فوق، وأن يتقى أن يصطدم بالناس أو الأشياء، أو أن يضع قدميه

---

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ (ص١٠).

على زحلوقة، أو غير ذلك مما لابد للسائر من ملاحظته، ثم إن عليه فوق ذلك أن يكون طرفًا فى حديث يتقاضاه شيئًا من الانتباه والتفكير وقدراً من حسن الأداء، وهذه المشقات – على تفهها – تلفته إلى عيب القصر ومزية الطول. لهذا يسرنى أن ألقى الناس وأنا راكب – فإنى قصير – وأن أحدثهم وهم جلوس، ليقل الفرق الذى بينى وبينهم، ومن هنا كرهت المشى إلا مع من هم أدنى منى إلى الأرض، ليسعنى أن أضع كفى على كتف الواحد منهم، كأنه ابنى، ومن هنا أيضًا كرهت الزحام لأنى أغيب فيه، ونفرت من مواقف الخطابة لأن الخطيب الذى يحتاج إلى كرسى يقف عليه ويضيف ارتفاعه إلى قامته، لا يمكن أن يكون إلا مغرياً بالضحك، والتأثير هو مطلب الخطيب، ولا سبيل إليه إذا لم يكن مالئًا للعيون على الأقل إذا أعياه أن يملأ الصدور أيضًا. ولكن هذا الشعور الثقيل الذى يوحيه القصر إلى النفس كثيراً ما يكون مصدر قوة، لأنه يدفع المرء إلى تعويض النقص الذى منى به، كما هى العادة، ولكن الشرط أن يثقل الإحساس بالنقص على النفس وأن يشق عليها احتماله، فيكون ذلك مغرياً لها بالتماس العوض من طريق آخر. ومن هنا قالوا إن القصار أدهى من الطوال، وليس هذا بصحيح فى كل حال، ولكنه صحيح فى الأغلب والأعم بسبب ما ذكرنا من الرغبة الطبيعية فى تعويض النقص .

إبراهيم عبد القادر المازنى

القوة لا السعادة[1]

ضع يدك على عاتق من تشاء واسأله: "ما مطلبك فى الحياة؟" يقل لك تسعة وتسعون من كل مائة تلقى أن المطلب هو "السعادة". ولا أدرى ماذا عسى أن يكون جواب المتمم للمائة، ولكني أحسبه خليقًا أن يحوم حول ذلك ويجيء بسبيل منه. والسعادة – عندهم – هى المال والصحة والتوفيق في المساعي، فإلا تكن هذه، فهى الرضى والاطمئنان والسلامة. وقد تكون عند آخرين، الاستغناء والقدرة على التجرد، ولكن هذه وسائل لا غايات، والمال لا يطلب لذاته، بل لما يفيده ويعين عليه ويمكن منه، والصحة مثله، والاستغناء هو الاقتدار على مقاومة إلحاح الرغبة ولجاجة الشعور بالحاجة. وكل ما يوصف من حالات السعادة ليست إلا وصفًا لحالات القوة. ذلك أن السعادة، فيما يرى الناس، هي الفوز بالمشتهى والنجاة من المخوف أو المرهوب. وتلك عليا مراتب القوة .

أريد أن أقول إن السعادة وهم، وإن الإنسان يغالط نفسه حتى يزعم أنه ينشدها ويجرى وراءها، وإنما يطلب الإنسان القوة وهو يحسب أنه يطلب سواها. وليس للسعادة أى معنى أو صورة في نفسه، وإنما الذى فى نفسه هو صور شتى لحالات القوة، وما من إنسان إلا وهو يأنس من نفسه ضعفًا فى ناحية من النواحي، وبعض ما يخفيه ويستره مواطن ضعفه أدهى وأشد عليه مما لا يرى بأسًا أن يبديه ويعالن به، وهو أعظم عناية بما يكتم منه بما يظهر، ولو أنه استطاع أن يداوى الظاهر ممن علته لما عبأ بذلك شيئًا ولا أفاده هذا ارتياحًا أو رضى فإن همه المحجوب لا البادى من ضعفه. والقوة التى يلتمسها هى القوة التى تعوض ما يعرف – ويخفى – من الضعف المستور .

---

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٥ (ص١٠) .

قد يقال ولكن الاستغناء والتجرد حالة سلبية، فأقول أنها لكذلك، ولكنها تتطلب عن القوة مثل ما يتطلبه السعى والإفادة، بل فوق ذلك، لأن الذى يريد أن يستغنى ويزهد يحتاج إلى رياضة، ورياضة النفس على التجرد أشق من طلب الشىء، لأن الطلب عمل يوافق سنة الطبيعة ويجرى فى مجاريها، ومعقول أن يحس المرء برغبة، فيسعى لرضائها، ولكن الزهادة قمع للرغبات الطبيعية، والسير ضد الريح أصعب من السير معها، والانقياد لها أسهل من مقاومتها ومغالبتها، والمغالبة تحتاج إلى قوة فوق ما يكفى للمسايرة .

ولهذا يندر الزهاد فى الدنيا ويكثر الطلاب .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الجماعة والأخلاق الفاضلة[1]

هل تكون الحياة أطيب وأرغد، أو أحلى وأمتع، لو كان الإنسان أوفى؟؟ سؤال لا سبيل - فيما أرى - إلى الجواب عنه إلا بسؤال آخر هو: هل في الوسع أن يكون الإنسان وفيًا؟ وبعبارة أخرى، هل هو مفطور على الوفاء؟

والحاجة إلى الإجابة بسؤال - أو إلى التمهيد للإجابة بسؤال - مدعاتها أنه لا خير في افتراض المستحيل، وأن من العبث إضاعة الوقت - أى العمر - فيما يؤدى إلى غير شيء، وإذا كان أعجب شيء فإن أكبر عجبي من أن الإنسان يشكو قصر العمر والضيق في فسحة الأجل، وهو مع ذلك يحلو له أن يضيع هذا العمر القصير وأن ينفقه - بل يبدده - فيما لا طائل تحته ولا أمل في محصول وراءه. ولعل أحلى ما يستدعي من أيام حياته، ويذكره فيما بعد بالحنين والرقة، هو ما يبعثره على هذا النحو، حتى ليخيل إلى أن الإنسان - لإيقانه بأن العمر ضائع، ضائع، يحب أن يكون له يد في تضييعه. وحب الحياة يغرى بإفنائها وإتلافها كما يغرى بالضن بها والحرص عليها. وليس كل الإسراف في المال وحده، وفي الأغنياء الكز المقتر، والمسرف المبذر، وكلاهما يحب المال، أما الإسراف والبخل فمظهران ليس إلا... ومن العشق ما يدفع إلى القتل - قتل النفس أو قتل المعشوق - ومنه ما يحمل على النظر إلى المحبوب كأنه غلالة ورد تذوى إذا انطبقت عليها كف...

ولا أتردد في جواب السؤال، فهو عندي "لا" بالخط الكبير، أعنى أنه لا وفاء للإنسان، وأنه لم يطبع على ذلك، وقد يحسب القارئ أن مما يعيب الإنسان ألا يكون

(1) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥ (ص ١).

فى طباعه هذا الوفاء المزعوم، ولو أنه كلف نفسه مشقة التفكير لحظة وجيزة، لأدرك أن الوفاء أكذوبة وأن الأمر لا يعدو أن يكون ضرباً من الرياضة للجماعة لتسكن إلى النظام وتتقى عواقب الفوضى. ذلك أن الفضائل كلها رياضة يحض عليها الناس عسى أن يكتسبوها بالتدرب، ويتطبعوا بها، فهى تكلف، وشيء يستفاد بالمرانة، والتعود، كما تنمو العضلات وتكتسب القوة بالألعاب. ومن هنا ترى الحث المتواصل على التحلي بالأخلاق الفاضلة، والقوانين المجعولة لزجر الناس عما فى طباعهم، ولا ترى أحداً يدعو الناس إلى رذيلة أو شر، وإنما كان هذا هكذا لأن الفضائل ليست أصلا أو طباعاً فى الإنسان. وإنما هى عارية، وعادة تعتاد، فاكتسابها يتطلب الدعوة إليها، والحض عليها، وتحبيبها وتزيينها، ولكن هذا لا ضرورة إليه إذا كان الأمر أمر رذيلة أو شر، لأن الإنسان محمول بفطرته عليه، فهو أحوج إلى ما يكبحه عنه لا إلى ما يزينه له، وقد صدق أبو نواس حين قال فى بيت له "والخير عادة" .

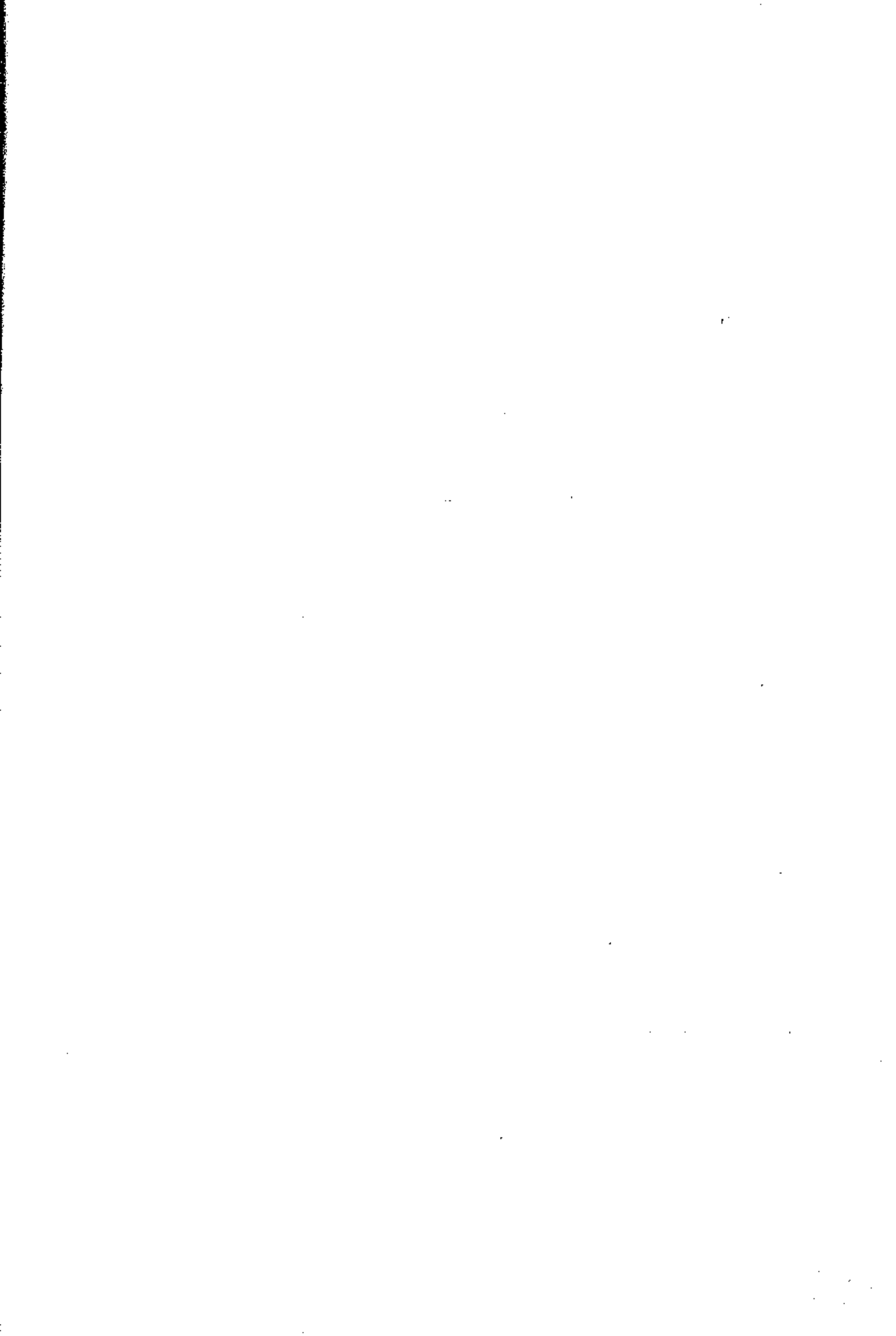
وندع التعميم إلى التخصيص فنقول إن الوفاء إفلاس نفسي، كما أن الثبات على رأى واحد فى الحياة إفلاس عقلي، ولست أحمد أو أذم شيئاً، وإنما أنا أصف حقيقة، والحياة تقوم على التحول، لا الثبات على حالة واحدة، ومعنى هذا أنها تركد وتأسن إذا لم تتحول، والركود فساد ينافى الحياة. لأن الحياة هى الحركة، والحركة تؤدى على التحول والتغير. والإنسان بعض الطبيعة، وحكمها يجرى عليه، وهو يتغير كل لحظة، وإن كان التغير لا يبدو للعين فى أكثر الأحوال، وأخلاق الإنسان وإحساساته ونزعاته وميوله وآراؤه يعتريها هذا التغيير كما يعترى جسمه، لأنها نتيجة ما يحدث فى جسمه، وليست بأشياء مادية مرصوصة على رفوفها فى نفس المرء، وإنما هى بعض ما تؤدى إليه الحركات الحادثة فى الجسم .

والنظام خير للجماعة وأصلح لها، والجماعات الفاضلة أقرب الجامعات إلى النظام، لأن الفضيلة هى وسيلة النظام وأداته، ولا سبيل إلى التعاون المجدى إلا بالنظام، والتعاون قوة، والقوة هى المطلب فى هذه الحياة للفرد والجماعة كذلك – كما بينت من قبل – وبعض الناس يتوهم أن المطلب هو السعادة. وهذا خطأ كما أسلفت. فلا حاجة

إلى الإعادة، والإنسان ينشد القوة من كل طريق - من طريق الراحة، ومن طريق التعب، ومن طريق اللذة والألم، ومن طريق التجربة والمعاناة، أو النجاة والسلامة إلى آخر ذلك. وطيب للحياة وحلاوتها، أو مرارتها وسوءها يكون تبعًا لما يبلغ الإنسان فيها من مراتب القوة - وهذا جواب السؤال الأول .

ومؤدى هذا أن الواجب رياضة الإنسان والجماعة على الأخلاق الفاضلة، لا الاعتماد على الفطرة، لئلا يفسد الأمر.

إبراهيم عبد القادر المازني



الفكاهة الشعبية[1]

منذ بضع سنوات – عشر أو عشرين أو نحو ذلك – كان من المألوف في حفلات الزواج أن يرى المرء – في فترة استراحة المغنين – رجلا ممن يسمون "أولاد البلد"، ينهض ويصفق، فيلتفت إليه المدعوون، ويعرفون من وجهه لماذا وقف؟ وماذا يبغى؟ وإذا برجل يبرز له في ناحية أخرى من السرادق، ويروح الرجلان يتساجلان – أي يتبادلان النكات أو ما كان القوم يسمونه "التأليث" .

وكان لهذا "التأليث" خصائص، فهو أولاً محفوظ لا ارتجال فيه ولا عمل للبديهة أو الخاطر، ثم هو – ثانيًا – يدور على المسائل الجنسية بأصرح لفظ وأخشن عبارة، وهو – ثالثًا – لا يعدو بابًا معينًا يتفق المتساجلان عليه مثل التجارة أو البرادة أو الزراعة، فكل نكتة تلقى يجب أن يكون قوامها لفظًا له صلة بالحرفة التي وقع عليها الاختيار. ومعنى هذا أن النكات لفظية .

وكان الناس – أو سوادهم – يضحكهم هذا "التأليث" ويسرهم ويرضيهم، وكانوا لا يجدون فيه منافاة للذوق، وإن كان معروفًا أن النكات محفوظة، وأن ألفاظها خشنة صريحة، وأن موضوعها ليس مما يليق الخوض فيه وتناوله على هذا النحو البذيء .

وقد تغير هذا كله الآن، وذهب زمانه، فليس مما تقبله الجماعة المصرية – كائنة ما كانت طبقتها – أن تجرى مساجلة من هذا القبيل أمامها وعلى مسمع منها. وقد صار المصريون – حتى العوام منهم – يسترذلون هذا الضرب المنحط من الفكاهة، ويستثقلون النكات المحفوظة، ويتقون ما يدور منها على المسائل الجنسية،

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٥ ديسمبر سنة ١٩٣٥ (ص-١٠) .

إلا في مجالس السكر والعربدة، وليس لهذه ضابط، ولا هى مما يصح أن تتخذ مقياساً للروح العامة، ولا تزال الفكاهة اللفظية شائعة، ولكن الجمهور صار يقدر الفكاهة المعنوية ولا يبخسها حقها .

والمصرى مطبوع على الفكاهة، وهو من أقدر خلق الله عليها، وأشدهم ولعًا بها، وأدقهم فهما لها وفطنة، ولعل الفكاهة أدق ما تقاس به حالة الأمة ومبلغها من الرقى أو الانحطاط، ولا شك أن الفكاهة في مصر تطورت، وانتقلت من حال إلى حال، وسنعود إلى هذا الموضوع فى كلمات أخرى .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الأدب[1]

الأدب الذى أعنيه هو الأدب مع النـاس لا الأدب الذى فى الكتب، وكلاهما - فيما أعلم - ثمرته، لصاحبه، الحنظل. وأشقى الناس وأسوءهم عيشاً هو لا شك الأديب المؤدب. فإن الأدب يغريه بالمثل العليا ويصور الكمال فى دنيا كل ما فيها وضيع، وفى حياة أسمى ما فيها موصول بالأدنى، وأطهر مظاهرها مبطن بالقذارة والدنس. أما الأدب مع الناس فضعف، ولا حظ لضعيف فى عالم تقوم الحياة فيه على التنازع .

لذلك خالفت الناس في تربية أبنائهم؛ فلست أطالب أبنائي بالأدب أو أحضهم عليه، فإني أخشى أن يضيعهم ذلك في حياتهم، فأكون قد جنيت عليهم جنايتين: جناية الميلاد وجناية التأديب. وسبيلي معهم أن أدعهم يرسلون أنفسهم على السجية، وأن أفسح لعناصر القوة مجال الظهور، وأمكنها من التغلب على عناصر الضعف. ودأبى أن أغريهم بالجرأة والصراحة والحرية والاستقلال في التفكير والعمل، وأن أنفي عنهم الشعور بأن لأحدٍ رأيًا فوق رأيهم، أو وجوداً يزحمهم ويضيق عليهم، ولست أعايشهم معايشة الشريك، أو الوصي المهيمن، بل أتوخى أن أجعل البيت صورة مصغرة لميدان الحياة، فما من شيء يشتهيه واحد منهم إلا كان عليه أن يطلبه ويسعى له، وينافس عليه، ويجاهد، ويكافح من أجله بكل ما يدخل في طوقه من الوسائل. وليس يسوءني أن يطلب الواحد منهم شيأه بالقوة إذا أعيته الحيلة، وإنما يسوءني أن ييأس، وينفض يده عن السعي، ويقصر عن المجاهدة، ويفطم نفسه عما كان يشتهي. ولطول ما أتردد فى زجرهم عما يكونون فيه من عبث أو جد، حتى أفكر وأتدبر وأهتدى إلى ما هو أخلق بى معهم وأجدى عليهم، لا أكاد أنهاهم عن شيء، إلا أن يبدو لى من أحدهم ضعف

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ (ص١٠) .

أو خور، فلا أجد بدا من الدخول في الأمر، لأقوى ضعفهم، وأشد أعصابهم، وأعمر نفوسهم بالشجاعة، وأرد إليها الثقة، أو لأجعلهم يحتملون الخيبة بلا مرارة أو جزع. وأنا صديقهم في حياتهم معي، ولكنى أوثر أن أدربهم على ما تقتضيه المنافسة، وأكره أن أعودهم الاعتماد على حي لهم. ولست أقصر فى منافستهم، وإن كنت كبيرا وهم صغار، فإن الحياة لا ترحم، ولا أحب لهم أن يعولوا في المزاحمة على ضعف فى خصمهم أو خطأ منه أو قصور أو تقصير، وقلما أقول لهم شيئا لأن التجربة والمعاناة خير من التلقين. وكل ما أصدهم عنه – من حيث لا يشعرون – هو أن يهينوا أحدا أو يسيئوا إليه بقول أو فعل، أو أن يعتدوا عليه، بغير موجب، وأنا أحرص على أن يدركوا أتم الإدراك أن لكل إنسان من الحق مثل ما لكل إنسان آخر، وأن التمتع بالحقوق يفرض على المرء واجبات لا مفر منها، وأن التقصير فى أداء الواجب نقص فى الرجولة. ويسرني أن أقول أنى مرتاح إلى النتيجة، ومغتبط بما أراه من أبنائى، ومستبشر بمستقبلهم، وراض عنهم، وأدعى من هذا إلى ارتياحي أنى أشعر من معاملتهم لى أنهم راضون عن هذا الأب الذى يحبهم ولا يرحمهم، وأبعث من هذا على اغتباطي أنى أراهم ينسون فى أكثر الأحيان أنى أبوهم ولا يعينهم إلا أنى خصم يريدون أن يغلبوه ويقهروه .

ويحسن أن أذكر أن أبنائي جميعًا ذكور، ولا أدرى ماذا كنت خليقًا أن أصنع لو عاشت لي من بناتي واحدة، ولكنهن جميعًا ذهبن قبل أن يُفطمن لسوء الحظ أو لحسنه، فما أدرى ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

فى وقع الموت[1]

ضمنى مجلس قال أحد من فيه - وقد ذكر بعضنا وفاة الملك جورج الخامس، وقول الأطباء إنهم لم يشهدوا أعراض مرض معين، وأن قواه كانت تهبط شيئًا فشيئًا : "إن من الصعب على الإنسان أن يواجه الموت وهو محتفظ بعقله". فقال آخر إن الذى يخفف عنه فى هذه الساعة أنه يستسلم للموت ولقضاء الله فيه، فسألته : "هل معنى هذا أنه يقبل على الموت راضيًا ويتلقاه مغتبطًا؟" .

فكان جوابه : "نعم... يستسلم، فيفقد الموت لذعه ورهبته"... ولست طبيبًا ولا شبيهه، ولكنى لا أرى هذا ولا أستطيع أن أقتنع به؛ وعندى أن الإنسان لا يزال إلى آخر عمره يثور على الموت ويجاهد أن يدفعه عنه ويقى نفسه منه؛ ولكن جسمه يفقد الحيوية فتذهب معها الإرادة - لا إرادة الحياة، فإنها لا تفارقه أبدًا، بل إرادة المقاومة والكفاح بعد استنزاف القوة، ويظل المرء كارهًا للموت مشتهيًا للحياة متعلقًا بها، ولكنه يعرف من نفسه أنه لم يعد قادرًا على المجاهدة، ويخطئه العون اللازم من الجسم، فيكون كالذى فقد فى المعركة سلاحه، أو فرغت ذخيرته والأعداء مطبقون عليه، فيوطن نفسه على الموت يأسًا من النجاة .

والمرء إنما يقاوم الموت بجسمه، وقد يستطيع بقوة الإرادة أن يطيل أمد المقاومة؛ ولكن استمرار المقاومة معناه أن جسمه لا يزال محتفظًا ببقية من القوة مذخورة - بالغة ما بلغت من الضآلة - وبهذه البقية يستطيع أن يجعل لإرادته أثرًا ولمقاومته لعدوان الموت مظهرًا، فإذا زالت هذه البقية ونضب المعين، لم يبق للإرادة عمل، لأن الأداة التى تعمل بها الإرداة تكون قد فنيت وذهبت .

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦ (ص٢٠٢-٢٠٤) .

ولا فرق هناك بين من يكافح الموت – في الأحوال العادية الطبيعية – وبين من يقاتل مع جيش. فكما أن الجندي يثبت ويصمد ويتسنى له أن يكر ويفر، ويهاجم ويدافع ما بقي معه سلاحه وعدته، حتى إذا فقد ذلك لم يبق له عمل، كذلك يكون المرء حيال الموت الذي يدلف إليه ويدنو منه على الأيام ليثبت عليه آخر الأمر. وكل ما هنالك من الفرق أن الموت كامن فينا، وأن أداته الضعف الذي يصيبنا، والهرم الذي يدركنا، والعجز الذي يستولي علينا في النهاية، فهو ليس عدواً يهجم علينا، بل حالة نصير إليها حينما تنفذ الحيوية لسبب من الأسباب .

وقد راقبت الموت أكثر من مرة، وشهدت كثيرين وهم في سياقه، ثم ماتوا بين يدي، وكان الموت في هذه الحالات كلها على أثر تضوب الحيوية ونفاد القدرة على المقاومة. وكانت إحدى الميتات بسبب النزف، فظل العقل حاضراً لا يغيب ولا تغيم سماؤه، ولا يتعكر صفوه؛ وكان الإحساس بدنو الأجل قوياً، ولا شك أن الرغبة في الحياة كانت عظيمة، والجزع من الفناء كان شديداً، ولكن الجسم لم تكن له قوة تستخدمها الإرادة، فخرج النفس الأخير في سلام ومن غير أن يبدو للناظر أثر للصراع. وبأي شيء يكون الصراع ؟؟

وميتة أخرى شهدتها، كان الصراع فيها كأعنف ما يمكن أن يكون، لأن الجسم بوغت بعدوان المرض المتذر، فتنبه فيه كل كامن من قوته، وهبت إرادة الحياة تدفع هذه الغائلة، وكان يخيل إلي وأنا أنظر، كأن إنساناً ألقي به في الماء وهو لا يعرف من السباحة إلا لفظها، وكما يفعل المرء حين يلقى نفسه في الماء ويخشى عليها الغرق، فتراه يضرب بيديه ورجليه بغير حساب أو تفكير ويهز رأسه هزاً عنيفاً، وينفخ ويرغي، كذلك كنت أرى أمي لما أصابتها الذبحة؛ وسكنت الآلام بفضل العلاج يومين، وبدأنا نستبشر، ولكن النكسة جاءت، أو لا أدري ماذا حدث، فجعلت نوبات من الاختناق تعتريها، وبينها في أول الأمر فترات طويلة جعلت تقصر شيئاً فشيئاً حتى صارت دقائق. وكانت أول الأمر تقاوم الاختناق بشدة، وتعالج التنفس بجهد عنيف، يظهر أثره في كل عضلة من عضلات الوجه والعنق، وفي اضطراب الصدر وخفق القلب، وفي دفع

اليدين والرجلين؛ وكان همي أن أقوى إرادة الحياة في نفسها وأن أمدها بما يكفي من الأمل والثقة والشجاعة، ولكن كرّات الاختناق أوهت قوتها واستنفدت مجهودها، ولم يفارقها الحرص على الحياة، والنفور من الموت، وإنما خذلتها قواها، ولم يذهب عقلها ولا ضعف أو كل، ولكن ما خير العقل وما غناؤه وحده؟؟ وبأى شيء يشتد أزره؟ فلما جاءت آخر النوبات كان كل ما وسع الجسم أن يكافح به هذه الغارة أن الشفة السفلى اختلجت مرة أو مرتين، فهمد الجسم وكف القلب عن النبضان وانقطعت الأنفاس .

وقد سقت هذه الأمثلة لأقول إن الإنسان لا يستسلم ولا يزهد في الحياة، ولا تفتر رغبته فيها، ولا يضعف كرهه للموت واستهواله للفناء، ولكنه لا يجد مؤازراً من جسمه فييأس: وليس هذا استسلاما وإنما هو إدراك لحقيقة بغيضة لا يبقى مفر من مواجهتها وتوطين النفس عليها، والإذعان لها كرهاً. وخليق بهذا أن يكون مؤلماً، ولكن فترته أقصر من أن يكون الألم فيها قيمة أو حساب، وعلى أن عجز الجسم عن المقاومة، يذهب في رأيي بالألم، لأن الألم فيما أعرف نوع من الاستجابة لوقع الشيء أو الحالة، ومتى فقد الجسم القدرة على الاستجابة للمؤثرات فإنه يفقد أيضاً قدرته على الإحساس بالألم أو الحزن أو الجزع أو الفزع، لأن شعوره بذلك يقتضي أن تكون هناك بقية من الحيوية، ولو كانت هناك بقية، لاستمرت المقاومة ولظلت رحى الكفاح بين الحياة والموت دائرة .

فلست أوافق الذين يستهولون أن يكون المرء مدركًا لمجيء الأجل، لأن إدراك المرء لذلك، معناه أنه يدرك أن جهده نفد، وأن مَعين حيويته نضب وجف، وهذا الإدراك وحده وبمجرده، رياضة سريعة للنفس على السكون إلى المصير المحتوم، لأنه إشاعة للموت في الجسم قبل تجربة وقعه، فكأن الإنسان يوحي إلى نفسه الموت – بفضل هذا الإدراك وبقوته – قبل أن ينزل به، فإذا زاره ألفاه مستعدا له، مهيأ لتلقيه؛ والإدراك تهيؤ، والتهيؤ ينفى الألم ويستل اللذع .

ومن هنا كانت الشيخوخة – أى الضعف – والمرض الطويل أو المضني، بمثابة التدريب على الموت، وكل امرئ يقرن الشيخوخة أو المرض بالموت، ولا يستغربه حين

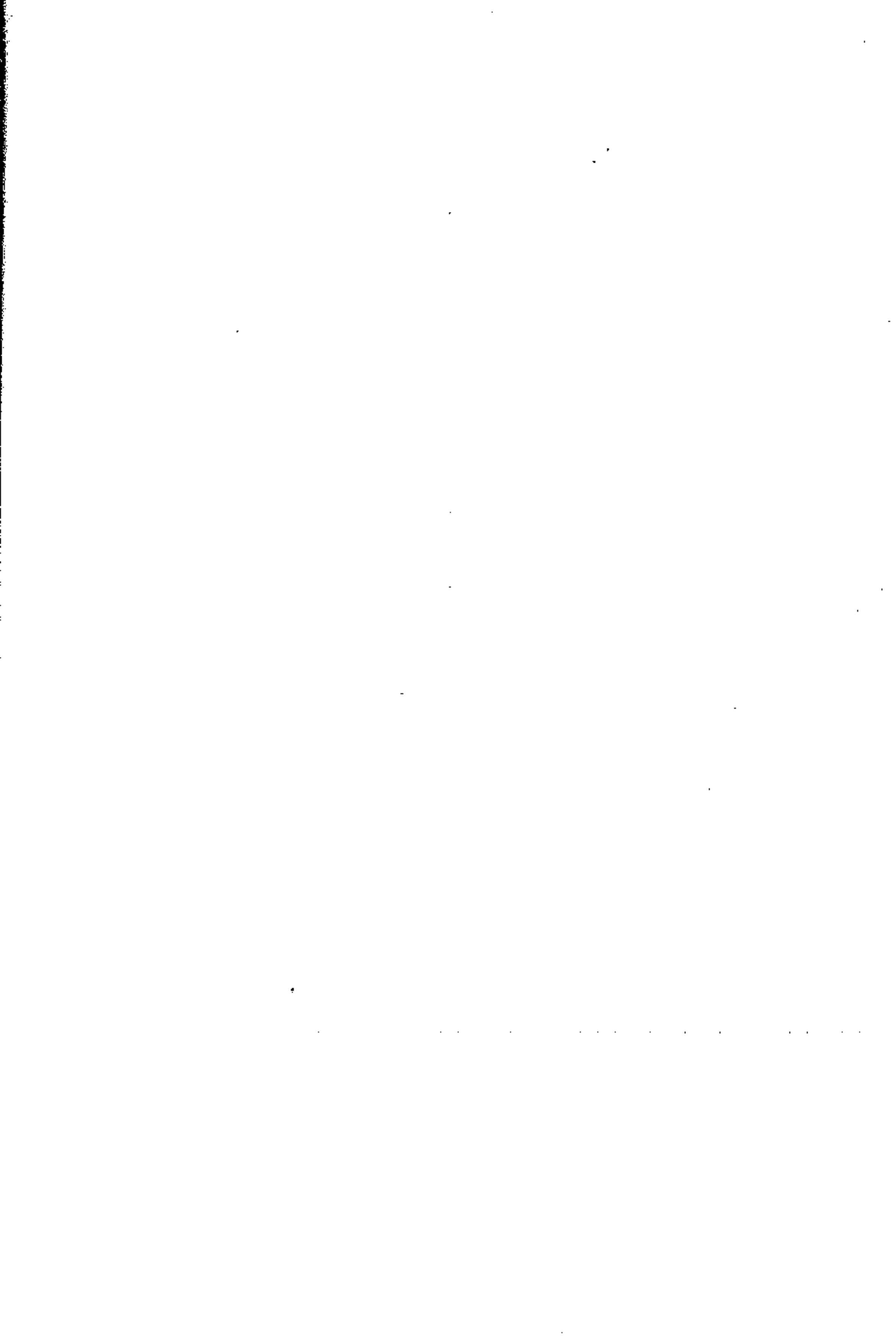
يحل بالهرم أو الذى خامره الداء، ولكن موت الشاب يصدم النفس ويرجها ، لأن الشباب – وهو أوان الحيوية الزاخرة – لا يقترن في الأذهان بفكرة الموت. أما الشيخ الهِمُّ فإن كل من يراه يجرى بخاطره أنه هامةٌ يوم قريب، وأخلق أن يكون الموت أقرب إلى خاطره وأجرى بباله، وأشد مثولاً وأكثر حضوراً، لأنه أحس بنفسه وأدق إدراكًا لما خسر من قوته، وعلما بما صار إليه من الوهم والفتور بالقياس إلى ما كان عليه من المُنّةِ والنشاط والخفة والمرونة. ويألف المرء الضعف واليبس فيألف المصير الذى يرى نفسه ينحدر إليه بسرعة أو على مهل، فيكون هذا كالرياضة له على السكون إلى المآل المحتوم، وهذا هو معنى قولى إن الشيخوخة أو المرض تدريب على الموت .

وهذه الرياضة النفسية – أو التدريب الذاتى – على الموت أفعل وأوقع من كل ما يشاهده الإنسان من عدوان الفناء على الحياة فى مظاهرها المختلفة. وأحسب أن المرء حين يرى غيره يموت، أو يسمع بذلك، يستثنى نفسه من هذا المصير، وإن كان على يقين جازم من أنه حتم لا راد له ولا حيلة فيه؛ ولعله فى ضمير الفؤاد يهنئ نفسه بالنجاة، ويشكر الله على أن الموت لم يخطفه هو، وعسى أن يكون الأمل المستمد من غريزة المحافظة على الذات هو الذى يغريه بالتعلق بوهم الاستثناء المستحيل، وهو على كل حال يخفف وقع الخبر، ويجعله محتملاً، ويذهب ببواعث الجزع على النفس قياسًا على المشهود .

ولكن قدرة المرء على مغالطة نفسه تضعف أمام دبيب الموت إليه على الأيام. ذلك شيء يحسه فى نفسه فلا سبيل إلى تجاهله والإغضاء عنه. وكيف يسعه أن يتجاهل اليبس الذى فى أعضائه، والتصلب الذى فى شرايينه، والفتور الذى يجده، والضعف الذى يعتريه حين يهم بأيسر الأشياء، والعجز عن احتمال ما كان يمر به فلا يعيره لفتة، إلى آخر ذلك؟؟ وكل يوم يمضى به وهنا على وهن، ويدنيه من القرار الذى يلفى نفسه هابطًا إليه، فلا يبقى سبيل إلى مغالطة النفس. وكل ما يقدر عليه أمله هو أن يرجو أن ينسئ الله فى أجله، على الرغم مما يكابد من ذلة الشيخوخة ومهانة الضعف والحاجة المتفاقمة إلى الإسناد. فهو مضطر أن يوطن نفسه على الموت،

وأن يقصر الأمل على طول المهلة، وليس أجدى عليه، ولا أفعل فى تخفيف وطأة الموت من هذه الرياضة البطيئة. ومن هنا كان موت الفجاءة مزعجًا لنفوس الأحياء، لأن صدمته لها تجيء على غير انتظار. والله أعلم، فما جرب الموت أحد وعاد إلينا ليقول لنا كيف كان وقعه – هذا طريق لا يحمل المسافر فيه "تذكرة" ذهاب وإياب، كما يقول ويندل هولز .

إبراهيم عبد القادر المازنى



فكرة المدرسة الخاصة

لأبناء الأعيان والأغنياء

وجوب العدل عنها واتقاء خلق أرستقراطية كاذبة(١)

من العيوب الملحوظة في الخلق المصرى ما يمكن أن نسميه "النفخة الكذابة". ومرجعها، فى مرد أمرها، إلى ما ورثناه من عهود الاستبداد الطويلة التى منيت بها البلاد حقبًا مديدة. وقد فطن إليها ونبه عليها المرحوم "الكواكبى" فى كتابه القيم "طبائع الاستبداد". ومن أمثلة ذلك أنى ركبت القطار من الإسكندرية فى الدرجة الأولى مع صديقين لى، فدخلنا "ديوانا" لم يكن فيه سوى راكب واحد، ليس معه لا حقيبة ولا عصا، فبدا على وجهه الامتعاض الشديد، وجعل ينظر إلينا نظرة الكره والسخط، ثم يحول عنا وجهه المعبس، وهو يتأفف وينفخ، فلم يسعنا إلا أن ننظر إليه مستغربين ما بدا لنا من نفرته منا ونقمته علينا، وخفت أنا أن نكون غلطنا فدخلنا ديوانًا "محجوزًا" له خاصة، فسألت موظف القطار فنفى ذلك، وبعد برهة نادى صاحبنا الموظف وأسر إليه شيئًا، فخرج ثم عاد ينبئه أنه وجد ديوانًا آخر فارغًا ودعاه أن ينتقل إليه، فنهض وهو يتنفس الصعداء ويتشهد! فالتفت إلى أحد صاحبى – وكان إنجليزيًا – وسألنى عن هذا الرجل ما خطبه؟ قلت "لا أعلم، ولكن الظاهر أنه شق عليه أن نعكر عليه بوجودنا صفو وحدته". فقال: "إن الديوان مجعول لركوب ستة لا واحد، فإذا كان يأنف أن يجالس الناس، فقد كان عليه أن يستأجر الديوان كله، أو أن يسافر بالسيارة" وعلمنا بعد ذلك أن هذا الرجل مفتش رى .

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢١ مارس سنة ١٩٣٦ (ص١) .

هذا مثال للنفخة التي تصيب الواحد منا لغير سبب يدعو إليها، وشاهداي على صحة الرواية والدقة والأمانة فيها الكبتن وودروف من ضباط المدفعية البريطانية، والأستاذ زكي أفندي عبد القادر المحرر بجريدة الشعب. وليس من حق أي منصب في الحكومة، ولا منصب الوزارة نفسها، أن ينفخ المرء على هذا النحو، أو أن يحمله على الاعتقاد إنه قد صار من طينة أخرى غير طينة الناس، وللمرحوم الزهاوي في قيمة الناس بيتان قويان صادقان، ولكنهما ليسا مما يروى. وكفى بهذه الإشارة إليهما دلالة على معناهما .

وقد ذكرت ما كان من هذا الموظف حين سمعت أن الوزارة – أو وزارة المعارف – أو لا أدري أيهما، تفكر في إنشاء مدرسة لأبناء الخاصة والوجوه والأعيان، على مثال مدرستي هارو وايتون في إنجلترا، وقالوا في تسويغ ذلك أنه كانت في مصر مدرسة للأنجال على عهد بعض الخديويين، وأنها ألغيت فحلت محلها – إلى حد ما – المدرسة الناصرية إلى آخر ذلك .

ومؤدى هذا أن المراد خلق طبقة أرستقراطية كاذبة، في بلد حاجته شديدة إلى تقرير الروح الديمقراطية الصحيحة في نفوس أبنائه، وتطهيرها من النقائص التي ورثتها من عصور الاستبداد الماضية .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن ايتون وهارو من مفاخر المعاهد العلمية في إنجلترا، فما يتوهم هذا إلا من لا يدري شيئا عن الحياة والتعليم في إنجلترا. أما المدرسة الناصرية المصرية فما كانت – في العهد الذي يشيرون إليه – مهدا للتعليم والتربية، وإنما كانت معهداً للتدليل، وهذا ما يعرفه ولا ينكره أهل الجد من رجال التعليم. وأذكر أنَّا – ونحن طلبة في مدرسة المعلمين العليا – كنا نذهب مرة في الأسبوع إلى إحدى المدارس لنتدرب على التعليم، فاتفق أن ذهبنا مرة إلى المدرسة الناصرية، لهذا الغرض وكان عليَّ أن أعطي درسًا في الإنشاء الشفوي باللغة الإنجليزية، ولكن التلاميذ ائتمروا بي، واتفقوا فيما بينهم على التزام الصمت، فأعياني أن أحمل واحداً منهم علة فتح فمه والنطق بكلمة واحدة، وكان معي أستاذنا في التربية العملية، وأظنه كان

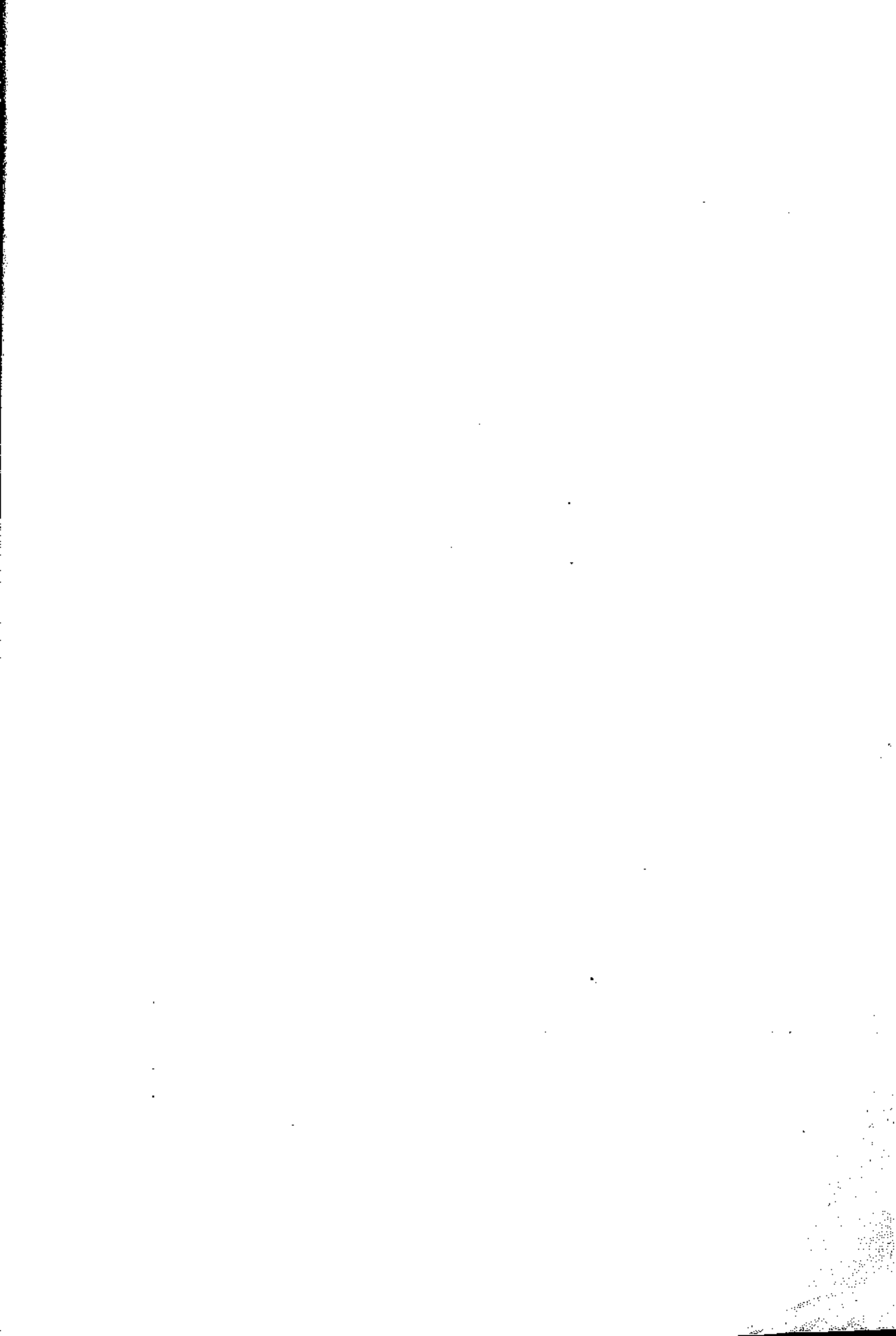
المستر هبارد أو لعله كان المرحوم المستر بسيمذارد، فتدخل فى الأمر وحاول هو أن ينطقهم فعجز، وذهبوا هم يتبادلون نظرات الشماتة وابتسامات السخر، فغضب الأستاذ وخرج بى من الفرقة، وحادث مدرسها الأصيل فى أمر عقابهم، ولكن المدرس أظهر نفوره من ذلك وأحاله على الناظر، ولم يصنع الناظر شيئا سوى أن ابتسم ثم أخذ يلقى علينا محاضرة يبين فيها مزية الرفق واللين فى معاملة التلاميذ، فانصرفنا يائسين، وأخرجنا "معهد التدليل" من عداد المدارس التى كنا نتدرب فيها .

الواقع أن إنشاء هذه المدرسة الخاصة لا مسوغ له ولا حكمة، وهو تمييز يضر ولا ينفع، والمسألة لا تخرج عن أحد فرضين: فإمّا أن يكون الأسلوب الجديد الذى يريدون أن يجروا هذه المدرسة عليه، أصلح وأجدى من الأسلوب المتبع فى المدارس الأخرى، وحينئذ يجب الأخذ به في كل مدرسة لا قصره على واحدة فقط، فإن لم يكن الأمر كذلك، فهو لا داعى له إذن ولا موجب لإنشاء هذه المدرسة .

ولا ينبغي تمييز أبناء الأعيان أو الأغنياء، على أبناء الطبقات الأخرى، وليس ينقص مصر تكثير البواعث على الغرور والغطرسة والنفخة الكذابة، وإنما ينقصها جيل من الرجال الأكفاء للحياة القادرين على النهوض بالأعباء والاضطلاع بالتبعات فيها، والمطيقين لاحتمال ما تجيء به الأيام، وتلقي مطالب العيش بالعزم والجلد والإقدام .

وليثق ولاة الأمر فى وزارة المعارف أن المدارس الخاصة التى يريدون أن يحتذوا مثالها، لا تعلم شيئا، ولا تقوى الرجولة، ولا تنمي الملكات والمواهب، وإنما تفعل خلاف ذلك، أى أنها تخرج كطبقة من المدللين المخنثين الفاترين المغرورين الذين يتوهمون أن الدنيا كلها ملاعب كرة وما إليها، وأن الحياة ليست أجل من مباراة فى التنس، وأنه ليس عليهم بعد أن يفرغوا من ذلك إلا أن يلبسوا ثوبًا أنيقًا، ويُظهروا وجوه صبيحة، ويمشوا متخطرين متخلعين، ويجلسوا متنطعين، ويتكلموا بألسنة معوجة، وعلى الناس أن يفسحوا لهم، وعلى الحظ نفسه أن يمالئهم. فإنهم خريجو المدرسة الخاصة وقد أدوا الثمن ودفعوا الأجر، واستحقوا بذلك أن تظل الدنيا تدللهم إلى آخر العمر .

إبراهيم عبد القادر المازنى



خواطر فى الحياة والموت[1]

كلما فكرت فى أمر الموت ازددت حيرة، وكنت أظن أن إطالة الفكرة فيه رياضة حسنة عليه. وأن ذلك جدير بأن يصغر الدنيا فى عيني، ويجعلني بالحياة أقل احتفالاً، فإذا الأمر على خلاف ذلك، والحال على نقيضه. وما أظن بغيرى إلا أنه مثلى، وقد أقول لنفسى حين أخلو بها - وقلما أفعل هذا الآن - إن كون المرء يحيا ليموت ليس بالغاية أو النهاية التى يسكن إليها الحى ويطيب بها نفسا، وما أشبه ما يفعل بنا هذا القدر الجارى علينا بما نصنعه نحن بخراف العيد - نسمنها لنذبحها آخر الأمر، وفرق ما بيننا وبين الخراف أن هذه تزداد لحماً وشحماً وأنّا نزداد علماً وفهماً؛ ولا أدرى من الذى قال إن الحياة مدرسة، ولكن الذى أدريه أنها أعجب المدارس وأخفاها - ولا أقول أقلها - حكمة، ذلك أن التعلم فيها يستمر إلى نهاية العمر، ولا سبيل إلى اختصار الأمر أو الاجتزاء ببعض العلم عن بعضه، لانتفاء الإرادة الشخصية، ولأن المدرسة هى الدنيا كلها، فلا خروج منها إلا بالخروج من عالم الأحياء، والعالم والجاهل سيان، واللبيب كالغبى، والساعى فى وزن القاعد، والمصير واحد، والمآل لا يختلف، وكل من فى هذه المدرسة العجيبة يتلقى علومه الخاصة التى لا تشبه دروس غيره، ولا ترى أحداً يسأله هل حذق الدرس أم أهمله ونسيه؟ وكل واحد عالم وجاهل فى آن معًا، يعرف ما أتيح له أن يعرف، ويجهل ما عدا ذلك أجمعه. وقل أن ينتفع أحد بما تعلم فى حياته لأنه يدفن معه فى قبره، ويلف عليه وعلى تجاربه ومعارفه كفن واحد. وكم تساءلت - وأنا أتدبر هذا كله - عن الحكمة فى تضييع ما أفاد الإنسان فى حياته من العلم والخبرة؟؟ ذلك أن كل ما حصل فى حياته يموت معه، و سبيل إلى استنقاذ التجاريب

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٣٠ مارس سنة ١٩٣٦ (ص٤٨٩-٤٩٠) .

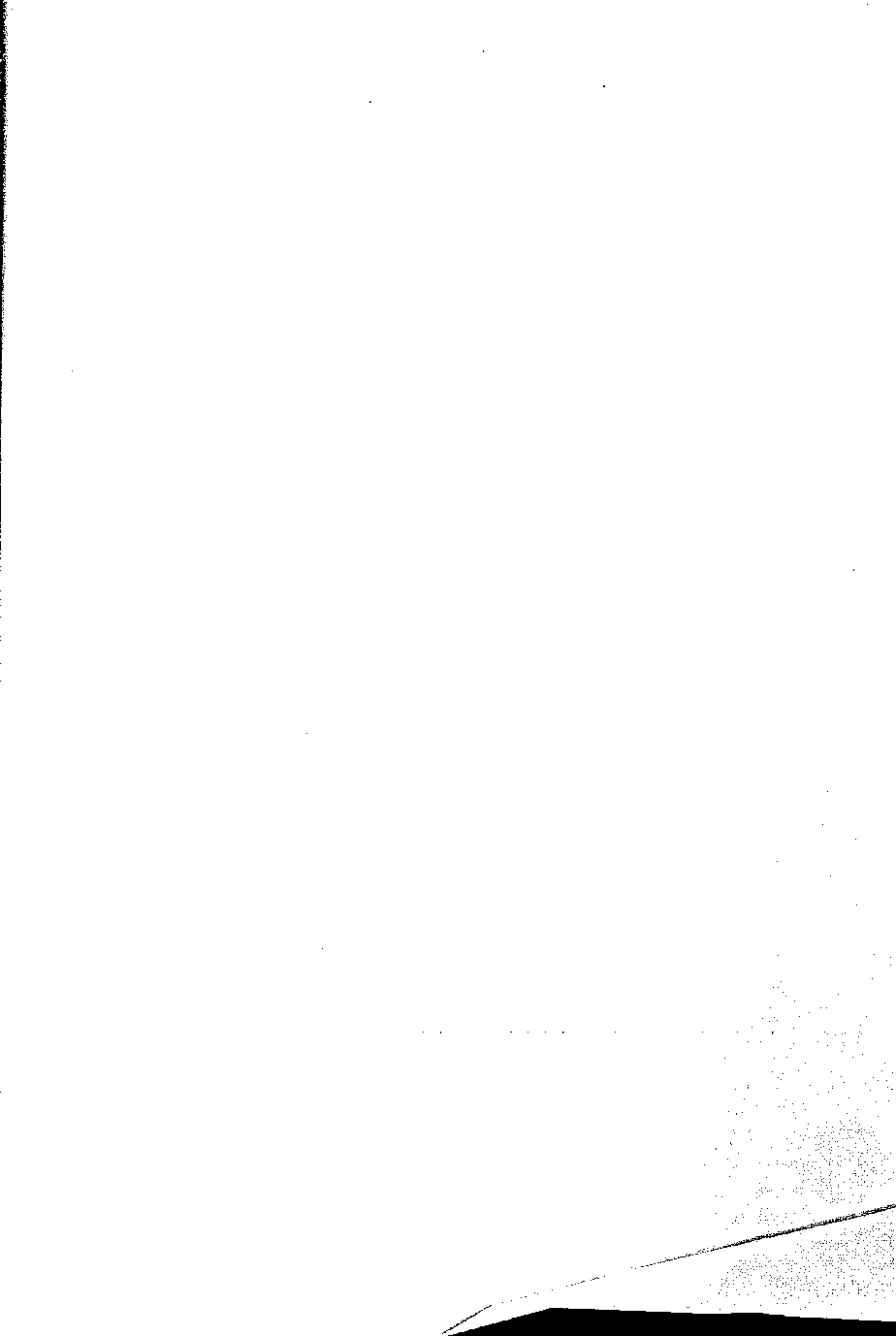
والمعارف والانتفاع بها بعد أن يقضي صاحبها نحبه ويستوفي أجله. فهل هذه يا ترى خسارة تصيب الإنسانية كلما مات منهـا فرد، أم لا خسارة هناك عليها ولا ضير؟ من يدري ؟

وسهل أن يفهم المرء أن يخلق ليحيا، ولكن العسير أن تجعله يفهم أنه يخلق للممات. فلماذا يكون هذا هكذا؟ وإذا صح أن الحياة مدرسة، أفلا يكون الأصدق والأشبه بالواقع أن نقول إن غايتها تدريب الأحياء على الموت وإعدادهم له: ذلك أن الإنسان يموت منه كل يوم شيء، وشجرته لا تزال تتساقط ورقاتها وزهراتها واحدة في إثر أخرى، حتى تصوح وتعطب، وانظر ما يفعل الزمن بآمالنا ورغائبنا ومساعينا وبأجسامنا ونفوسنا؟؟ والآمال يدركها الحين، والشباب يذهب، والصباحة يغيض ماؤها، والنشاط ينضب معينه، والشعر الأسود يبيض، والقوة تسترق، والقناة المعتدلة تتقوس، والسمع يثقل، والنظر يضعف، والشهوات تفتر، والعجز يدب دبيبه شيئًا فشيئًا. حتى يوافي الأجل فيكون كل هذا تمهيداً له تتدرب به النفوس على السكون إلى الموت. حتى كر الأيام إيذان مستمر بالموت الزاحف، وليس يسع الإنسان حين يتأمل ذلك إلا أن يشعر أن كل يوم يعيشه، هو يوم يموته، والواقع أن الإنسان في يومه غير ما كان في أمسه، لأن الحياة قائمة على التحول، أو هي دائرة على الموت إذا شئت، ولا سبيل فيها إلى بقاء شيء أو ركود حال، وكل ساعة تمضي علينا تمضي بشيء منا، أو على الأصح بصورة من صور وجودنا، وحالة من حالات نفوسنا وأجسامنا، وكون المرء يتغير، معناه أنه يذهب ويجيء غيره، ويموت ثم يخلق خلقًا آخر، ولكن بسرعة التعاقب في الخلق تجعل الصورة الجديدة مولدة من القديمة الفانية وشبيهة بها شبهًا يخفي وجوه الاختلاط: والذي يديم النظر في المرآة لا يفطن إلى التغير الذي حدث، ولكن الذي يبعد عهده بالمرايا لا يسعه إلا أن يرى أن صورته قد تغيرت، وحالت عما كان يعرف .

فالموت يعيث فينا نهارًا وليلاً. وصباحًا ومساءً، وكل إحساس أو رأي أو اعتقاد لنا يتغير، هو ضرب من الموت يدركنا، والشيخوخة والأمراض وما يصيبنا من خيبة في

آمالنا أو إخفاق في مساعينا - رياضة لنا على ما نحن سائرون إليه من المآل.
وقد أتساءل أحياناً عن معنى حياة مجهولة للموت ودائرة عليه ومتسربة فيه - في كل حالة ومظهر؟؟ ولا جواب هناك أعرفه لسؤالي، وقد يئست من إمكان الاهتداء، حتى لم أعد أحفل لا الحياة ولا الموت، أو أبالي كيف أكون في يومي، وماذا يكون من أمري في غدي. وهل الإنسان إلا مقبرة متحركة؟؟ بل أنا أبالي - كما قدمت في مستهل هذه الكلمة - ولكني أغالط نفسي، وأصرفها عن النظر إلى هذا الجانب الأسود، وألهيها وأسليها بما أستطيع أن أريقه على جوانب العيش من ضوء يردها مشرقة ضاحكة. ومن هنا نشدانى للفكاهة وحرصي على الوقوع عليها. ومتى تساوى الحزن والفرح، وتعادل الغضب والرضى، وكان الاهتداء في وزن الحيرة والضلال، وصار البكاء والضحك سيين، فالضحك أولى إذا قدرت عليه؛ والدنيا مأتم، فما أحقنا بأن نسر الناس، أو نسرى عنهم، أو نذهلهم لحظات عن تنغيص حياة مبطنة بالموت، وذلك يتطلب الإرادة، ولكن الإرادة تكتسب .

إبراهيم عبد القادر المازني



تأملات عابر سبيل[1]

أراني كثيراً ما أقول لنفسي وأنا سائر في طريق الحياة :

"اسمع يا شيخ! إن الطريق لا آخر له فإن طوله عمر الدنيا، ولن تقطع إلا بعضه مهما جهدت.. ولا قيمة لبضعة أمتار تضيفها إلى ما مشيت.. وهذه شجرة لفاء اختلطت فيها بهجة الزهر بنضرة الخضرة. والظل تحتها وارف ممدود، وقد نقب الماء الصخر فتفجر عليه، وسال منه، وانطلق يبقبق ويدردر، وهو يتدافع ويتراكب بين الحجارة، وقد طفت على وجهه الحباب واليعابيل. وما في جلسة هنا من بأس.. تسند ظهرك إلى جذع الشجرة وتريح أعضاءك المكدودة، وتنعم بالظل والندى، وتتملى بالخضرة والماء، فإن لبدنك عليك حقًا، وقد صدق رسول الله فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.." .

وأجلس في ظل الشجرة وأحط حملي عن كاهلي، وأمد رجلي، وأرخي ذراعي، وأستسلم لفتور الراحة برهة، حتى ترتد إليَّ نفسي، فأجيل فيما حولي عينًا مفتوحة كمغمضة. ثم أروح أتلفت مما لا يزال أمامي من الطريق إلى ما خلفته ورائي، فلا يهولني الذي لا يزال باقيًا، لأني ألفت المشي، وطالت تجربتي لما يلقي السائر في طريق لا استواء فيه، ولا علم له بما يفاجئه منه، وما يحوجه إليه. وكل شيء في دنيانا هذه عادة – حتى الخير وحتى النسك والعبادة كما يقول النواسي :

"أنت يا ابن الربيع علمتني النسـ ـك وعودتنيه، والخير عادة"

(1) نشرت في مجلة "مجلتي" في 15 سبتمبر سنة 1936 (ص784-792) .

وأكر طرفي فيما فرغت منه فأستغرب أموراً كثيرة وأتساءل – من البرح والإعياء – عن هذه الحياة العجيبة التي لا سبيل فيها – ما دامت – إلى التوقف وأقول "إلى أين يا ترى بنا.. وما آخر هذا الدؤوب الذي لا ينتهي، والسير الذي لا ينقطع، والحركة التي لا تبطل؟ وما الغاية من كل ذلك على كل حال ؟."

ولا أجد لسؤالي جواباً فاكف عن التطلع إلى ما لا يبدو. وطول العهد بالحياة – أعني بمعاناة الحياة – يدرب المرء على الانصراف عن العبث وما لا خير فيه ولا جدوى منه. وأدير عيني فيما كان فأرى أني تخطيت عقبات لم أكن أطمع في اجتيازها، وأن مصاعب ذللت لي كان الظن أنها أقوى مني، وأني صبرت على أشياء كان يبدو لي أن احتمالها فوق طاقة الإنسان، وأن كل ما صادفت في طريقي وراعني وهالني، وكنت أحسب أن لا سبيل إلى النجاة منه أو التغلب عليه، قد مر بسلام. وإذا كان قد نال مني، وهدّ من قوتي، فقد ترك عزمي أقوى، وثقتي أعظم، ونظري أسد وأحكم. فهي حياة عجيبة – يقبل عليها الإنسان في صباه بفيض من الحيوية الزاخرة حتى ليكون المرء كله أملاً ورغبة ويقيناً بالفوز وإيماناً بالظفر. وإذ كان لا تجربة له، ولم يسبق أن قاس قوته على قوة الحياة، فإنه يندفع وصدره عامر باليقين، فلا تزال الحياة تصدمه، وتلكمه، وترده، وتصده، وتدفع في صدره حتى تثقل عليه وطأة الخيبة المتكررة، فيتهافت وهو مذهول، وبرأسه دوار، وبنفسه شك عظيم فيما آمن به، ينظر فلا يرى، ويفكر فلا يهتدي، ولا يلقى لنفسه مخرجاً، من حيرته أو مستقراً من اضطرابه ولا تزال الدنيا ترجه وتزلزل منه، فإما تضعضع ففقد نفسه، فهو موجود كمعدوم، وإما فطن إلى حقائق الحياة، وإلى القيمة النسبية للإنسان، فهو مضطر أن يروض نفسه على ذلك حتى يسكن إليه. ولابد من الإخفاق والخيبات في كل مرحلة. ولكن المجرب الذي سبكته الحوادث، وصفت معدته نارها، لا تنقض مرته الخيبة بل تزيد عزمه قوة، ولا تذهب بثقته ولا تقوض كيانه لأنه صار يعرف بماذا ينبغي أن يتلقى وقع الحياة، وما تجيء به من الصروف والغير. فهو يعد لها من القوة ما يكافئها – أو على الأصح ما يقدر بالتجربة أن يكون مكافئاً لها. وليست الكهولة أقوى من الشباب ولكنها أنضج وأحذق. وفرق بين رجلين أحدهما يحاول أن يرفع حجراً وفي ظنه – لما يأنس من نفسه من القوة –

أنه خفيف فلا يعد له من القوة ما يكفي لرفعه، وآخر يحسن التقدير بفضل تجربته السابقة، فهو يتحنى على الحجر وهو عارف بما يتطلبه رفعه من الجهد. وإذا خاب الأول فهو لا يخيب لضعف فيه، بل لاغتراره وغرارته. وإذا نجح الثانى فإنه لا ينجح لإرباء فى القوة، بل لإرباء في التجربة والدربة. والحياة تصنع بنا ما نصنع نحن بالأنهار. وكما أننا نضبطها ونتحكم فيها، ونزيد انتفاعنا منها بالسدود والخزانات وما إليها، فلا يضيع منها إلا ما لا سبيل على الاحتفاظ به، كذلك تعلمنا الحياة أن فيضها يذهب عبثًا فى صدر أيامنا، حتى نضبطه وننظم أمره وندخر ما يمكن ادخاره منه، وننفق من ذلك بقدر وحساب. ولو كنا نتلقى الدرس - أو نفطن إليه - فى أوانه لما كان ثم محل للشكوى، ولكن قلة الفطنة ذنبنا لا ذنب الحياة .

ومن هنا تختلف قيم الأشياء تبعًا السن، ويتفاوت وقعها فى الكهولة المدركة والشباب الغرير. فترى الأمر الصغير فى الصبى يبدو ضخمًا مالئًا الدنيا. أما فى الكبير فكل شيء يشغل محله ولا يعدوه أو يجاوزه أو يجور على محل سواه. أذكر أني بعد أن تخرجت فى مدرسة المعلمين العليا عينت مدرسًا للترجمة فى المدرسة السعيدية الثانوية، وكان العمل هينًا وأوقاته قليلة - عشر ساعات فى الأسبوع كله ليس إلا - فاتفق يومًا أن وصلت إلى باب المدرسة بعد دخول التلاميذ بنصف ساعة، وكان باب المدرسة موصدًا، وخلفه البواب النوبي، فحسبني تلميذًا لصغر سنى وقصر قامتي، وأمرني أن أذهب إلى الباب الثانى الذى يدخل منه التلاميذ المتأخرون، فشق عليّ ذلك، ولكن ما الحيلة؟ ومضيت إلى الباب الثانى فكان بوابه أخشن، وأعنف بى، وأكثر توبيخًا لى. وتركني واقفًا دقائق، وأكب على كتاب صلوات وأدعية كان فى يده فضاق صدرى، وعز عليّ أن أخلط بالتلاميذ، ولكن ماذا أصنع؟ وأخيرًا شاء الله أن ينقذني من حيرتي، فجاء الأستاذ الهراوى الشاعر المعروف - وكان معنا في المدرسة - فناديته فأدركني.. بقيت هذه الحادثة الصغيرة تحز فى نفسى زمنًا طويلا.. وأنا الآن أذكرها وأضحك منها وإذا رويتها، رويتها متفكهًا، ولكن وقعها كان أليمًا فى وقتها.. أمنا الآن فما أكثر ما أُرد، وأُصد، وأطلب فلا أنال، وأُقبل فألقى الإعراض، فلا أحزن، ولا أكتئب، ولا أجد ألمًا لصدمات الخيبة، لا لأنى ألفت ذلك فقط لكثرة ما تكرر،

بل لأني صرت أيضاً أصح تقديراً لقيم الأشياء، وأفطن إلى أواخر الأمور من بداياتها. فالخيبة في أمر جسيم تعدل عندي الخيبة في أمر تافه.. وخيبة الأمل في الحب مثلا هي فيما أحس الآن كخيبة في لقاء صديق كنت أرجو الأنس بمجلسه ساعة فأخلف الميعاد.. أو كخيبته في أكلة شهية كنت أطمع أن أنعم وأتلذذ بها ثم حرمتها. ولثقتي – كما لم أكن أثق في صباي – أن كل شيء يمر، وأن كر الأيام يفتر كل وقع، ويهون احتمال ما يشق احتماله في وقته، ويستل ألمه، ويبرد كيه، ويخفف لذعه – لعلمي بذلك صرت لا أجزع لشيء، ولا يثقل عليّ أمر، ولا يخرجني عن طوري وسكينتي واتزاني حادث مهما جل، لأني أعرف أن الأيام كفيلة بتهوين كل عسير، فأنا أنظر على المصير الهين، وأستعين بذلك على التشدد للحاضر الذي يرمض ويزعج .

ومعاناة الحياة تعلم المرء التسامح، وتعوده سعة الصدر، وتدربه على الحلم وتغريه بالتماس الجوانب الأخرى التي تخفى في العادة وتكون محجوبة. وتغير رأيه في المعايير والمقاييس التي كان يأخذ بها في صدر أيامه، حتى لا يكاد شيء يبقى على حاله أو يحتفظ بصفته الأولى التي كانت له قديماً، لأن الحياة تهذب وتنقح ما قرأناه في الكتب، وما تلقيناه من آبائنا ومرشدينا في صبانا، ولا يزال الكتاب – كلما علت السن – يدخل عليه التعديل والتبديل والتغيير، فيزاد هنا ما كان ناقصاً، ويفصل ما كان مجملا، ويضاف هناك فصل جديد، وتوضع في ذيل هذه الصفحة حاشية حتى يعود الكتاب آخر الأمر وكأنما لا صلة له بالأصل الذي خرجنا من المدرسة الأولى به. وقد يبقى جوهر الأصول كما هو، فيظل الخير خيراً، والشر شراً، والفضيلة فضيلة، والرذيلة رذيلة، ولكن الحدود الفاصلة، التي كانت حاسمة، تتداخل في مواضع كثيرة، فتصبح، هناك، بسبب هذا التداخل، رقعات كثيرة مشتركة يختلط فيها الأمر، ولا يسهل اليقين والجزم بأي الجوانب هي أحق بأن تلحق به. والشباب يجزم كما تجزم الكتب لأنه لم ير إلا جانباً واحداً ولم يلق ما يزعزع ثقته بما صدق، أو يشككه فيما وقر في نفسه، أما الذي قطع من الحياة أكثر من مرحلة واحدة فهذا قد رأى، وقارن، وقاس، وقابل، فليس يسعه إلا أن يتردد بعض الأحيان في الجزم، وإلا أن يحجم عن ذلك لكثرة ما بلا من تنوع وجوه الحياة، وتعدد جوانبها، واختلاف ظاهرها وباطنها،

فـهـو لا يأمن أن يكون لما يعرض على عقله باطن هو خـلاف الظاهر. وليس كـرحلة الحياة معلم. وكل امرئ مسـافر، وإن لم يخرج من بيته، ومـا أقل الذين يفطنون لذلك لأنهم، وهم فـي ركب الحـيـاة، يشـغلون بما لا آخـر له مما يعـرض لهم فـي الطريق ويتقاضاهم كل التفاتهم وعنايتهم. وما أكثر ما يفتن المرء ما يراه فيتعلق به كالمسحور، ويتخلف عن الركب، وبا ربما لاح له مـا يجذبه فيغذ السير، ويبعد عن الرفقـة فينقطع مـا بينهم وبينه. وقد يضنيه الجهد فينصرف عما حوله إلى ما به من الوصب والعناء، فلا هو يرى ولا هو يعبأ إذا نظر ورأى. وقد يقع على ملهاة فيفرح بها وينهل عما عداها، فيفوته الأكثر والأكبر، ولا يخرج إلا بلعبة. وهكذا على آخره إن كان لهذا آخر. والمهم أن مكابدة الحياة – كائنًا مـا كان يلقاه الإنسـان فيها – لا بد أن تؤثر في نظره إلى الأمور، ورأيه في المعايير، وتقـديره للأعمـال، ووزنـه للبواعث، إلا إذا كان المرء جامداً لا خير فيه ولا نظر ولا فكر .

وأذكر على سـبيل المثال حادثين يمكن أن يقـاس عليهمـا فيمـا هـو أكبر وأهم، وإنما تخيرتهما لبساطتهما. فقد وقعت في ليلة مظلمة في أيدي لصوص في الصحراء المحيطة بعين الصيرة – على مقربة من الإمام الشافعي – فإني مولع بارتياد الصحراء والتطواف فيهـا منذ الصـغـر. وكنت في ذلك الوقت حـدثًا، وكـانت سني لا تزيد على العاشرة. واتفق أنهم كانوا يعرفونني، ولكنني لم أكن أعرف ذلك، فجعلوا يخوفونني ويوهمونني أنهم سيدهنونني كما تدهن الحيطان، ولكن بألوان سخيفة، فشق على ذلك وجـزعت منه، واعـتـقـدت أن هذه الألوان التي هددت بهـا سـتظل ثابتة لا تذهب عني، فبكيت حزنًا على نفسي. وقـد نجوت – كما لا أحتـاج أن أقول – من اللصـوص ومن الدهان المخوف. ولكن خوف اللصوص بقي في نفسي – وكرههم أيضًا – ودارت الأيام وتقلبت بي الأحوال، وكابدت الدنيا، وبلوت الناس، وصار لي نظر في البواعث والأعمال والمصائر. واتفق أن حادثًا لا يعتني سواي فلا داعي لذكره، بغض إليَّ البيت الذي كنت فيه – وهو بيت جدي – فتركته وتركت فيه ما كان لي من أثاث وفرش وانتقلت بمن بقي لي من أسرتي الخاصة إلى بيت استأجرته على تخوم الصحراء، ولم أضع فيه من أدوات البيت وفرشه إلا ما لا غنى عنه. وكنت في ذلك الوقت أعمل في جريدة "الأخبار"

وكانت "الأخبار" قد فتحت باب اكتتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمثال المشهور المرحوم مختار. فبلغ ما اكتتب به القراء نحو ستة آلاف من الجنيهات. فظن بعض الحمقى أن هذه الآلاف في بيتي العاري. وكان سور البيت واطئًا، فشعرت في منتصف الليل بجسم يسقط في الفناء الخلفي، فقلت لعله حجر فإن بناء السور واه، ولكني سمعت على أثر ذلك حركةً عند باب المسكن نفسه كأن يداً تعالج فتحه، فنهضت وأنا أضحك فما في البيت ما يستحق أن يسرق. وفتحت شباك الباب فرأيت خلفه رجلاً أراد أن يتوارى لما رآني – وهذا طبيعي – ولكني ألححت عليه أن ينتظر. وكان يراني أضحك فارتبك لهذا، فعاجلته وقلت له "الدخول في الحقيقة من الباب الآخر. ولكن لا بأس.. سأفتح لك من هنا" .

فبهت الرجل فقد كانت هذه المقابلة آخر ما ينتظر، بل من المحقق أنها لم تكن تخطر له على بال. ولم يكن يجهل من أنا، فإني معروف في تلك الناحية. ويظهر أنه راجع نفسه فندم أو أسف فقد بدأ يعتذر ويطلب الصفح، فقلت له وأنا أعالج الباب – فإن مفتاحه قديم – "لا بأس.. إذن خذ المفتاح وافتح من جهتك وتعال اشرب معي سيجارة.. وناولته المفتاح من بين حديد الشباك فأخذه مني وهو لا يزال متردداً وعالج الباب حتى فتحه فدعوته أن يدخل وسرت أمامه على الحجرة التي فيها كتبي، وقدمت له كرسياً وناولته سيجارة، وأشعلت له عود ثقاب، فمد فمه على النار بالسيجارة وهو يتأملني ويتفرس في وجهي فقلت له :

"اسمع يا صاحبي.. إني آسف لأني خيبت أملك فإن البيت عار كما ترى، وقد خدعك الذي أوهمك خلاف ذلك. ولكني لا أحب أن تخرج من هنا صفر اليدين – ولست أظنك تقبل أن أعطيك مرتبة أو نحو ذلك لأنها لا تستحق الحمل، ثم إننا تحتاج إليها لننام عليها. وليس عندي مال أجود به عليك، فإني فقير، والبيت يشهد بذلك. ولكني مللت الكتب وكفرت بهذه الأصنام المرصوصة على الرفوف – إذا كنت تفهم ما أعني، وما أظنك فاهماً شيئًا – ولكن إذا شئت فإني أهبك ما يروقك من هذه الكتب الكثيرة فقم على الرفوف وانتق ما يعجبك واذهب به مشكوراً.. هذه هي تفضل" .

فأساء الظن واعتقد أني أنصب له شركا أريد به أن أضبطه - كما يقولون - متلبسًا بالجريمة كأنما لا يكفي في باب الإجرام أنه تسور الحائط ودخل البيت. ولعله كان يعتقد أن وراء الأبواب أو بعضها - شرطة مختبئين متربصين، فقد كان دائم التلفت إلى النوافذ والأبواب، سريع التفزع لأخفت صوت، ولو كان بعيدًا، وإلا فكيف يعقل في رأيه أن أكلمه بمثل هذا الاطمئنان؟ وله العذر ولا شك، ولكني كنت مخلصًا ولم أكن أريد به سوءًا، فأردت أن أزيل مخاوفه فقلت له اسمع حكاية فإنها تصف حالي معك: قالوا إن لصًا دخل بيتًا ليسرقه بالطبع، وقد مر بالغرف كلها فلم يجد حتى ولا حصيرًا من قش، ولكنه وجد رجلا مخبئًا وجهه في ركن، فضحك لظنه أن لصًا آخر انخدع مثله فدنا منه وسأله عما جاء به؟ قال الرجل إني، لا مؤاخذة، صاحب البيت، وقد خجلت منك، فأدرت وجهي على الحائط استحياء من هذا العري والتجرد. وكذلك أنا معك يا صاحبي، فاعذرني على الفقر، وقم خذ ما شئت من الكتب وأرحني منها، ومن أباطيلها وخدعها، وصور الحياة المزيفة التي فيها .

وحملته بعض الكتب له ورقة بأني أعطيتها له لتكون جوازًا له مع الشرطة إذا رابهم منه شيء واتفقت معه أن يزورني كلما رغب في المساعدة!! والظريف أنه كان يظن أن الكتب التي عندي كلها دينية فكان وهو يتناولها يبسمل ويدعو الله أن ينفعه ببركتها ويقبلها ويرفعها إلى جبينه كما يقبل المؤمن المصحف ويلمس به جبهته.. وقد صار هذا الرجل بعد ذلك صاحبي وحارسي في آن معًا، ولا سيما بعد أن توغلت بمسكني في الصحراء، وبعدت جدا عن العمران، ولا يزال يمر بي كل بضعة شهور ليزورني فآنس به وبحديثه، وإن كنت قد استغنيت عن حراسته بعد أن تركت الصحراء، وسكنت في مساكن الأحياء .

وطريق الحياة صاعد هابط، والطبيعة كيسة، وفيها رفق وحكمة، على كل ما يبدو من قسوتها وما بها من قسوة ولكنّا نحن نحب أن ندير أمور الكون على هوانا ولو تيسر ذلك لخربت الدنيا لا شك في ذلك. ومن حكمتها أعني الطبيعة - أنها تجعل الصعود في زمن الشباب وأيام الفتوة والأيد والحيوية الزاخرة، أما الهبوط والانحدار فيكونان في الوقت الذي تأخذ فيه القوة في التضوب، والعود في الذوي والجفاف واليبس.

فلا يزال في شبابه يصعد، ويصعد ويتلكأ وهو يفعل ذلك، ويتلبث هنا، ويتريث هناك، مفتونا بما يصادفه من المناظر، مسرورا بما يعرض له من الملهيات فيخلو بذلك زمنًا طويلاً أو قصيراً ولا يكاد يفكر فيما وراء الجبل الذي هو مصعد فيه، ولا فيما بعد قمته، بل لا يكاد يخطر له أن هناك وراء، فحاضرة هو شاغله. وقيمة ما يشغله لا يؤثر فيها، أو يعد لها نظر إلي ما وراء الحاضر، لأن ما وراءه محجوب. والحقائق التي تعرض له مرجعها عنده إلى وقعها في نفسه وحدها. ولهذا يبدو له كل شيء مجسماً ومطلقًا وتتعاقب السنون ويرقى المرء في الجبل وتفتر الهمة من طول التوقل ومشقته، ومن كثرة ما يستنفده ذلك من القوة والحيوية، ويبلغ القمة – قمة الجبل – وأنفاسه منبهرة فهو يلهث بعض الشيء، والتعب يفتر النفس ويخمد فيها ما كان مضطرمًا. ويحس المرء بالبرد فوق رأس الجبل، والبرد يطفئ الجذوة، وأي عاطفة مشبوبة يمكن أن تبقى متلظية مع البرد؟؟ ومن كان عاشقًا فليجرب إحساسه بحبه حين يبرد جسمه فيوحوح وتصطك أسنانه من القر، ويرعش بدنه، وينتفض، وليقل هل يمكن أن يفكر في هذه اللحظة في حبيبته؟؟ أو يكون همه كله لحافًا ثقيلاً؟؟ وينظر المرء حوله فيرى الانحدار، ويعلم أنه هابط بعد أن كان صاعداً. والهابط ينظر إلي ما تحته لا إلى ما فوقه فهو مضطر أن يجعل باله إلى الوادي الذي هو نازل إليه ومنته إلى قراره. فلا يسعه حينئذ إلا أن يجعل هذه النهاية مقياسًا لكل شيء، لا كما كان يفعل إذ هو يصعد ولا يرى قرار الوادي وراء الجبل. فلا تعود الحقائق مرجعها إلى نفسه شعوره ورغبته، ولا يبقي شيء منها مطلقًا، بل يتغير القياس، ويصبح قرار الوادي هو الذي تنسب إليه الأشياء، وترد الأمور إلى المصير فيه .

ولا يكاد يكون هناك فرق بين واحد وواحد في الصعود، فإن الجميع لا يرون إلا ما أمامهم وما حولهم على جوانب الجبل، ولا يحسون إلا الحياة التي تزخر في نفوسهم. ولهذا يتشابه الشباب ولا يكادون يتفاوتون. وشبيه بهذا الأنهار في فيضانها فإنها جميعا تكون ماء دافقًا لا سبيل إلى صده أو حجزه أو إقامه السدود في وجهه، وعبابًا راغيًا مزبداً متراكبًا منطلقًا في حيث يتيسر له التحدر والسيول. ولكن التفاوت يحدث بعد أن تهدأ الفورة، ويأخذ المعين الذي كان فياضًا في النضوب، ويشح الماء،

ويضعف نزه، ويصبح سيله قطرة قطرة، بعد شدة الفور والجيشان، أي بعد أن تأخذ العين قرار الوادى ويفتحها الانحدار عليه. وهنا يختلف الناس فمنهم من يروعه المصير فلا يعود يرى سواه ويحس من نفسه النضوب والذوى فيوطن نفسه عليه، ويسكن إليه، ولا يبقى له شعور إلا به أو تفكير إلا فيه. ومنهم من يشعر أن الآخرة دنت، ويأنس من نفسه بقية من القوة وجزعًا من النهاية، فيقول اغتنم كل فرصة، وفز بكل متعة، وشم كل وردة، وانشق كل عبير، واختلس كل ما يستطاع اختلاسه، فإن الوقت ضيق، والنهاية قريبة، وليس بعدها شيء، فكدس فى أضيق وقت كل ما يدخل فى الطوق من المتع واللذات. ومنهم من يتناول الدنيا برفق ويقبل عليها باعتدال، فإذا لقى فى طريقه ما يسر، لم يشح عنه بوجهه ولم يزهد فيه، وإذا لم يفز بشيء لم يندم ولم يتحسر، واستبقى قوته وأمله ما استطاع أن يستبقيهما. ومنهم من يعزى نفسه بالمتع الذهنية ولذات العقل والخيال وغير ذلك بما هو من هذا بسبيل. ولا آخر لاختلاف الناس بعد أن يدخلوا فى الكهولة ويبدأ الشعور بانسراق القوة ونفاد الحيوية الأولى .

وما أكثر ما أقول لنفسي وأنا جالس تحت الشجرة أستريح وأستجم وأتهيأ لاستئناف السير في طريق الحياة: "ماذا يكربك يا هذا؟.. هل أعجبتك هذه الفتاة؟. حسن! وإنها لحقيقة باعجابك، وإن جمالها لبارع، وإن فتنتها لشديدة، ولكن الدنيا فيها كم امرأة؟. مئات الملايين!!.. حسن إذن.. فهل كانت الدنيا تخسر لو أن هذه لم تخلق ولم تكن؟؟ كلا!. فهبها لم تخلق.. واعتبر أنها لم توجد.. وثَم غيرها كثيرات.. جداً.. فلماذا تقطع نفسك عليها حسرات؟. ولو كنت فى العشرين لما أقنعني هذا المنطق، ولكنني ارتقيت في الحياة، وللرقي ثمنه الذى لابد أن يؤدى. وما زالت نفسي صبية، ولكن الجسم كثيراً ما يهرم والنفس فى صباها، وعمر النفس لا يقاس بعمر الجسم. وقد ترى نفسا عمرها عمر نـوح والجسم ما يـزال غضًا، وقد يشيب الرأس والقلب فى عنفوان الشباب. ولا يزال يحسدنى ويقول لى كلما لقيني إن قلبى سيظل شابًا. ذلك أنه يرانى أتلقى الحياة كما تجيء لما وقر في نفسي من عبث الاهتمام والاحتفال بما لا حيلة لى فيه، ولأنه يرانى قد تساوت عندى كل حالة وكل حالة، وتعادل عندى السرور والحزن، والضحك والبكاء، والفوز والخيبة، فإذا جاء خير فيها، ولله الحمد،

وإلا فلا أسى ولا أسف على شيء، وقد قطع من مراحل الحياة أكثر وأطول مما قطعت، ولكنه لا يستطيع أن يحول عينه عن نفسه، أما أنا فإني أحب طريق الحياة ولا أريد أن يفوتني شيء مما على جانبيه. وإذا لم أنظر ولم أمتع العين بما ألقى وأجد فمتى أنظر وأتمتع؟؟ وما دامت الحالات قد تعادلت عندي، فلماذا لا ألتمس السرور، وأنشد النعيم، وأجنب المنغصات والتعبات؟؟ أليست مشقة السير حسبنا تعبًا؟؟ وما أخلقنا بأن نتسلى ونتلهى ونرفه عن أنفسنا ونحن سائرون وعلى كواهلنا أعباء لا يسهل اطراحها؟؟ ولا بد من السير على كل حال سواء أفرحنا أم جزعنا، وضحكنا أم تجهمنا واكتأبنا.. فالضحك أولى إذن، والسرور أحق بالنشدان. ثم إن القدرة على اختلاس السرور من أحزان الحياة دليل على أن النفس لا تزال فيها حيوية كافية. والحزن – أعني الاستسلام له – ذوى وذبول، والتغلب عليه ظفر وانتصار على ما تهاجمنا به الدنيا من الكروب. فإذا كانت لي نصيحة إلى القراء فإن نصيحتي أن يتوخوا أن يضحكوا دائمًا، وأن يلتمسوا أسباب السرور ويجنبوا أسباب التنغيص، فإن السرور يجدد النفس، والتنغيص يخلق ديباجتها ويذوي نضرتها. وهذه نصيحة رجل سار في طريق الحياة مفتوح العينين، ولا يزال أمله قويًا في أن يطول سيره، فاسمعوا مني وأطيعوني، وجربوا واشكروني.

إبراهيم عبد القادر المازني

مقارنات عابر سبيل[1]

وقفت وأنا أنهج وملت إلى شجرة لفاء وارفة الظل ، وقلت بعد أن مسحت العرق المتصبب وانتظمت أنفاسى : "يا مجير. لقد كانت هذه مرحلة طويلة، وكانت الخطى فيها متداركة متلاحقة، وكنت أحسّ من فرط الإسرع كأن وراءنا من يضربنا بالسياط ويستحثنا بوقع العقد التى فى ألسنتها على جلودنا. وما أظننى كنت أتلفت أو أرى شيئًا حتى إذا كنت نظرت. فيحسن أن أحاول أن أرجع إلى ما طويت لعل بعضه ينشر لى الآن بقدرة الله"

وأجلس وأرد عينى إلى الوراء وأديرها فيما كان. ولست أذكر أنى كنت أنتظر، ولكنى مع ذلك تبين أنى رأيت أشياء غير قليلة. وكون المرء لا يتعمد النظر أو لا يذكر أنه نظر إلى شيء، ليس معناه أن عينه لم تأخذ شيئًا فإن صور الحياة تنطبع فى النفس بلا حاجة الى التعمد .

والنفس تتلقى هذا الصور بواسطة عدسات شتى بعضها أقوى من بعض وإن كان خيرها وأدقها العين. وهذه العدسات أبداً مفتوحة والشريط الذى تنطبع عليه لا يحتاج إلى لف أو تغيير. فليس عجيباً أن يجد الإنسان أنه رأى ما لم يكن يظن أنه رآه وما لا يذكر أنه عنى بالنظر إليه .

والصور التى تتعاقب على عينى الآن وتبدو لى هذه الساعة – وأنا جالس تحت الشجرة أجيل عينى فيما كان وما هو كائن – مختلفة جدا. من ذلك أن المرأة الحديثة التى لا تقع العين إلا عليها ولا ترتاح إلا إليها فى هذه الأيام – غير أختها – أو أمها –

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ (ص ١٠-١١) .

التي جاءت منها وإن كانت الأم والبنت لا تزالان في حالات كثيرة متعايشتين، وكانت الأم تحاول جهدها أن تساير بنتها في الطريق. كانت المرأة القديمة لا تخرج ولا تظهر إلا لبعلها، ولمن يأذن هو لها في لقائهم. وكانت ثيابها أوسع وأطول وأستر للجسم وأغلظ والتكلف في تفصيلها أشد وكان الغرض منها الستر والزينة معًا فخفت الزينة وخلت من الأناقة والظرف. وكانت المرأة تطلب من الثوب أن يجعلها أجمل ، فجماله شيء مستقل تضيفه المرأة إلى نصيبها من ذلك. والثياب الآن لها غاية أخرى فهي لست جمالا مضافًا وإنما هي أداة لإبراز الجمال الطبيعي للجسم الإنساني، فهي لهذا تظهر الجسم وتبرز محاسنه وتؤكد مزاياه، وإذا كانت لا تزال تستر فإنما تستر لتكشف، وتغطي ما تغطي لتجعل فتنته أقوى، ووقعه أعمق. فالجيل الحاضر من هذه الناحية أفطن لمعنى الجمال وأعرف بوسائل إظهاره وأساليب الفتنة. ومن آيات ذلك أن المرأة القديمة وإن كان العهد بها قريبًا جدًا كانت تستكثر من الحلي وتؤثر منها الكبير الغليظ الثقيل، وقلما تعنى الفتاة الحديثة بحلية تلبسها إلا في المناسبات التي تستدعي ذلك، ويندر أن تبدو في العادة بأكثر من حلية صغيرة دقيقة لا تكاد العين تراها، لأنها تدرك أن للجمال العاطل فضله ومزيته أيضًا .

وكانت المرأة القديمة تتخذ الأصباغ والمساحيق لوجهها وأهدابها وحاجبيها، وكانت ربما أسرفت في ذلك، ولا تزال في عهدنا هذا نماذج من هذه المرأة، ولكنها كانت لا تتناول هذه الأصباغ والدهانات والمساحيق إلا في بيتها بل في حجرتها الخاصة المغلقة عليها، وكان من اليسير جدًا أن يراها الرجل - وهو زوجها - وهي تعالج وجهها بهذه المزيفات. أما اليوم فإن الفتاة تجلس في الترام بين الرجال، أو في السينما، أو المسرح، أو على ساحل البحر، أو في الكازينو، أو غير ذلك، وحولها عشرات من الرجال بعضهم يحدق فيها والبعض يخالسها النظر فلا ترى بأسا أن تفتح حقيبتها - أو متبذتها كما تسمى - وتخرج منها إصبع الأحمر والمرآة فتنظر في هذه وتقبل بذاك على شفتيها تصبغهما، ولا تستنكف أن تنفض الأبيض على خديها، أو تتناول الملقط فتسوي به حاجبيها وترققهما، أو تديرهما وتقوسهما، أو تصيرهما خطين مستقيمين إلى آخر ذلك. فالفرق كبير بين العهدين، وإن كان أحدهما لا يزال

موصولاً بالآخر. وقد خطر لى مرات أن من دواعى العجب أن يقبل هذا من المرأة، ولا يقبل مثله – أو من هو فى معناه – من الرجل. والرجل يتزين أيضاً وهو لهذا يعنى بأن يحلق ذقنه أو لحيته كل يوم مرة أو مرتين ولكنه لا يجرؤ أن يفعل هذا إلا فى دكان حلاق أو فى بيته.. ولو أنه كان فى الترام أو السينما أو المسرح أو القهوة أو ما أشبه ذلك من المحلات العامة فأخرج موسى وفرشاة وصابونة ووعاء ومرآة ثم شرع يحلق لحيته على أعين الملأ لحسبوه مجنونًا ولثاروا به، وربما ضربوه. ومن المحقق أن عمله هذا كان يعد مخلا بالآداب [العامة] ومنافيًا لواجبات اللياقة وحسن السلوك. ولكن المرأة تصنع هذا فلا يخطر ببال أحد من الرجال أو النساء أن عملها فيه أقل خروج عن اللياقة أو حسن الأدب. فيظهر أن المرأة سبقت الرجل فى هذا الجيل، وكانت أجرأ منه على اقتحام أسوار التقاليد. وعندى أن المسألة ليست مسألة جرأة أو سبق وإنما هى أن الرجل يعرف أن الزينة من لوازم المرأة، وأنها لها أطلب وبها أكلف، فهو لا يستغرب أن يرى امرأة تتزين لأنه يعرف أنها تفعل ذلك، ولو كانت تعيش فى صحراء لا تراها فيها عين رجل. وجمال المرأة مقرون عنده بحب الزينة لأنه ألف منها التعويل على الزينة حين تعرض محاسنها. والجمال هو سلاح المرأة الذى لا سلاح لها غيره، فهو يتسامح معها لعلمة أن هذا هو كل ما تملك من عدة فى الحياة .

ولكن الرجل شىء آخر وليس معوله على الجمال، ولا هذا سلاحه فى الحياة، وإن له لمهمة غير مهمة المرأة، وعملاً آخر خلاف عملها، وأسلحته فى سعيه ونضاله ليس منها الجمال إذ كان قليلا الغناء فى هذه الميادين. فاذا رأى الرجل رجلاً يعنى بزينته الى حد الاشتغال بها فى المحال العامة: فإنه بطبيعته لا يسعه إلا أن ينكر ذلك – حتى من غير أن يفكر فى الأمر – وإلا أن يلحقه بالنساء، ويسلكه معهن، ومن هنا غضبه وثورته، أو على الأقل استنكاره، لمحاكاه المرأة فى أخص خصائصها .

وليس هذا لأن الرجل يرى المرأة أقل منه، فإنها ليست دونه، وإنما هى مختلفة عنه. ومثل هذا يقال عن المرأة، فلو أن امرأة أبصرت فتاة تحاكى الرجال كأن تلبس الطربوش مثلا بدلا من البريه، أو تتخذ وتفعل غير ذلك ما يتخذه ويفعله الرجال لأنكرت ذلك عليها واستقبحته منها وكرهته لها. وليس الرجل دون المرأة فى نظرها، وإنما لكل جنس خصائصه ومميزاته وما هو أنسب له وأليق به وأولى .

وكان قوام الفضائل الجنسية في العهد السابق هو الحجاب، فهي فضائل كانت في أمانة الحيطان الأربعة والبراقع والملاءات والحبرات، وما إلى ذلك مما يجرى مجراه. أعني بذلك أن عماد الفضيلة كان البعد عن المغريات واجتناب التعرض لها. واذا كانت المرأة لا تبرز للرجال والرجال لا يختلطون بالنساء في الحياة العامة، فليس هناك ميدان مشترك، ومعنى هذا أنه لم تكن ثم فرصة – بالمعنى الصحيح – لاختبار الفضائل الجنسية ومبلغ قوتها وقدرتها على مقارنة الإغراء وثباتها على الامتحان.

وقد عصفت الأيام بهذا الحجاب فهدمت الحيطان، ونزعت البراقع، ونضت عن الأجسام هذه الملاءات وأشباهها مما كانت المرأة تلف منه في مثل أكياس القطن، وبذلك تغير وجه الأمر، ولم يعد من الممكن أن تقاس الفضائل الجنسية في هذا الزمان بما كانت تقاس به في الأيام الخالية؛ لأن الحيطان الحاجزة لم تعد موجودة، والبراقع الساترة قد زالت، ولم تتغير الثياب وحدها – ولو أن هذا كل ما هناك لما أحدث كبير فرق – وإنما تغيرت العلاقة بين الرجل والمرأة: فصار هناك ميدان مشترك تتسع حلبته شيئًا فشيئًا على الأيام، ويتقارف فيه الجنسان ويتعارفان ويتناوشان ويتصاولان ويتجاولان ويتحاوران. وقد جاء هذا الانتقال فجأة حتى ليمكن أن يقال أنه كان طفرة أو أشبه شيء بالطفرة، وأعانت على السرعة فيه الفورة الشديدة التى حدثت في حياة مصر وتناولت أعماقها كما تناولت سطوحها ووجودها، فكان هذا الانقلاب التام – أو الذي يكاد يكون تامًا – في أوجز زمن. وما بضع سنوات في حياة الجماعة إذا كانت شيئًا في حياة الفرد.. ولم يسبق هذا التحول تمهيد من التعليم الصحيح، والتدريب اللازم، والفهم السليم، والتنظيم الواجب. وعلى أن التمهيد عسير، ومطلبه غير هين. والقول به سهل، ولكن إخراجه الى العمل شيء شاق جدًا ولا سيما إذا جاء الانقلاب في أعقاب رجة شديدة زلزلت حياة البلاد ونقلتها من السكينة التي يكون التفكير فيها هادئًا – وإن كان الهدوء لا يستلزم السداد – ولا تكون الحركة إلا بطيئة وانية – إلى الاضطراب والنشاط والرغبة الجامحة في تغيير وجه الحياة كلها لأن وجهها صار كريهًا لا سبيل إلى احتماله والصبر عليه، وهكذا تغيرت حياة الجنسين – الرجل والمرأة – وعلاقاتهما دفعة واحدة بلا تمهيد، ومن قبل أن يحصل الفهم الصحيح لما ينبغى أن

تكون عليه هذه الحياة وتلك العلاقات. ولهذا ترى هذه الحياة الجديدة مضطربة حائرة غير مستقرة على حال. ولا معتمدة في ثباتها واستقرارها على تقاليد وعادات تقررت على الزمن ووافقت مزاج الأمة ونزعاتها وعقائدها. وإلى هذا الاضطراب، وتلك الحيرة، وذلك البعد عن الاستقرار في حياة الجنسين على حدود المزاج العام للأمة أو العقائد الراسخة، إلى هذا كله يرجع ما يشكوه الناس من التفكيك والانحلال والإسراف والجماح. فليست الفتاة الحديثة أسوأ ولا أقل فضيلة من المرأة السابقة، ولكن الفتاة الحديثة تمتحن امتحانًا قاسيًا مباغتًا لم تكن مستعدة له، ولا كانت تحلم بأنها سيقذف بها في أتونه. وقد كانت سجينة فأطلقت، ومقيدة فتصدعت عنها الأصفاد، ومقودة فألقى إليها بالزمام، وقالت لها الأيام هذه هي الدنيا كلها أمامك فاخرجي واسعي واصنعي ما بدا لك وأرينا ما تقدرين عليه، وهي لا تجربة لها، ولا دربة ولا خبرة بشيء من أحوال هذا العالم الجديد فلا عجب إذا حارت وضلت وتعثرت، ولا غرابة إذا أرادت رأسها هذه الحرية الواسعة التي ورثتها على غير انتظار. ولا محل للدهشة لأنا نراها تستعمل الحقوق التي ظفرت بها، ولا تؤدي الواجبات أو تحمل التبعات التي تقابل هذه الحقوق، لأن أول ما يفهمه المقيد من معنى الحرية حين يُسرح هو أن القيود كلها قد زالت وأن التكاليف جميعًا قد سقطت. وهذا خطأ، ولكنه خطأ طبيعي يقع كل يوم وتقع فيه الأمم كما يقع فيه الأفراد، ووهم يركب الأذكياء كما يركب الأغبياء. وليس العلاج أن تعود فتقيد المرء بعد الحرية حتى تقية عواقب الإسراف ومغبات الشطط، فإن شبيهًا بذلك أن يُصاب واحد بالتخمة فتحرم عليه الأكل طول حياته بعد ذلك خوفًا عليه أن يصاب بالتخمة مرة أخرى. وإنما العلاج أن تدعه يزاول حريته ويستعملها، وتتركه يخطئ ويتعثر وعينك عليه تتعهده وترعاه وهو غير شاعر بذلك ليستفيد من أغلاطه، ويتعلم من أخطائه، والذي لا يخطئ لا يمكن أن يتعلم. وكل امرئ، وكل شعب، حين يدخل في طور جديد يكون شبيهًا بالطفل حين يشرع في المشي، والذي يطلب من الفرد أو الشعب أن لا يخطئ في استعمال حريته الجديدة ولا يتعثر، يكون كالذي يطلب من الطفل ألا يكبو حين يتعلم المشي كلا الأمرين محال ومطلب لا ينال.

وما قلته عن الفتاة الحديثة يقال مثله تماماً عن الشاب الحديث، فإن خطبهما واحد، ومظاهر تقصيرهما فى المسئوليات وإهمالهما للواجبات لا يختلف؛ لأن كليهما قُذف به فى حياة جديدة، ومحيط لا عهد له به؛ فهو يتخبط ويفعل ما يجىء فى أول الخاطر، وسيظل يتخبط – هو والفتاة – حتى يتهدى ويفطن بالتجربة والمعاناة إلى أن حرية الفرد فى الجماعة ليست مطلقة، وأن لها حدودها، وأن كل حق يقابله واجب، وأن الحياة تصير إلى الفوضى بغير ذلك. ولكن هذا درس لا يمكن أن يُستفاد بغير التجربة – تجربة الحرية – وتطبيق استعمالها عملياً .

وكانت حياة الجيل السابق هادئة ساكنة كصفحة الغدير المصقول، وكانت فوق هدوئها منتظمة كدقات الساعة المضبوطة، فلما كانت الحرب الكبرى وزلزالها، انتقلنا فجأة من السكينة إلى الجلبة المزعجة، والضوضاء التى تدير الرأس، وتطير العقل، وتزيغ البصر، وتهد الأعصاب، وتحولنا كذلك – أو بسبب ذلك – من الونى والبطء والتريث، وأن الله مع الصابرين، والعجلة من الشيطان، إلى السرعة التى لا تكاد تسمح بالتفكير، أو التى توهم المرء ذلك على الأصح، فنحن فى حركة دائمة، بعد الفتور المخيم والركود الذى كان يغشى حياتنا. وما زلنا فى ذهول هذا الانقلاب السريع، وكثيرون منا يدورون حول نفوسهم وهم يحسبون أنهم ماضون على سننهم، سائرون على استقامتهم، وأكثرنا لا يجد نفسه ولا يحسها، وهو يدور ويلف وينقلب فى هذا العهد الذى لا يثقل الزمن فيه رجله ولا يتئد فى خطوه. وليس هدوء الحياة فى كل حال خيراً من جيشانها وفورها، فإن الهدوء قد يكون عن بلاده، وقد يؤدى الى الركود أى الفساد. والجيشان حركة، والحركة دليل الحياة، والحياة تمتنع إذا انعدمت الحركة. ولا شك أن الجيشان اضطراب، ولكن هذا الاضطراب هو الذى يعين على إظهار ما كان خافياً، وإبراز ما كان مكنوناً، وطفو ما كان راسباً، ولن يعرف نفسه من لا تضطرب نفسه أحياناً ويموج بعضها فوق بعض. ومن الخطأ أن يظن أحد أن السرعة تحول دون التجويد والاتقان، وإن البطء وحده هو الكفيل بذلك، فإن الشعور باتساع الوقت ينيم ويرقد ويبعث على الاسترخاء. والحاجة الى الإسراع تنبه الملكات الراقدة، وتوقظ المواهب المغفية، وتشد الأعصاب وتزجرها عن الاسترخاء لأن ههنا ضرورة تقضى

بالعجلة، والعجلة تتطلب أن تنبعث النفس كلها وتفيق. وقدرة الإنسان على التكيف عظيمة بل لا يكاد يكون لها حد معروف. وأذكر على سبيل المثال أنى قبل أن أشتغل بالصحافة كنت لا أكتب المقال أو الفصل القصير فى أقل من أسبوع، وكنت أكره أن أمحو بالقلم كلمة بعد كتابتها، فإذا كان لابد من تغيير كلمة واحدة غيرت الصفحة كلها من أجل ذلك. وكنت لا أنفك أغير وأبدل وأمحو وأثبت حتى أضجر، وقلما كنت أرضى عما أكتب على الرغم من فسحة الوقت واتساعه للتنقيح. ثم شاء الله ان انتقل الى الصحافة فكبر فى وهمى أول الأمر أنى سأعجز عن كتابة مقال فى يوم، فكيف بكتابته فى ساعة أو أقل من ساعة، فقضيت بضعة أيام وأنا أحيى الليل بالسهر فى كتابة المقال ليكون حاضراً فى الصباح، ثم وجدت هذا يضنينى ويحرمنى الراحة والنوم وصرت كأنى أعمل ليلاً ونهاراً فقلت لابد من رياضة النفس على الكتابة على مكتبى فى الجريدة، وشرعت فى ذلك وقد صح عزمى عليه، فكنت أكتب وأنا مضطرب ضيّق الخلق لا أكاد أحتمل أن يقربنى السلام إنسان، وزاد الطّين بلة أنى كنت أكتب أولاً فى بيتى، وليس فيه ما يزعج أو يعكر أو يقطع علىَّ سلسلة التفكير؛ فصرت أرانى فى الجريدة يدخل على من شاء حين يشاء ليكلمنى فيما يشاء وينسنى ما أنا فيه، وكان يجتمع عندى فى بعض الأحيان خمسة بل عشرة، وأنا صابر ساكت وماذا أقول وهم ضيوف وأنصار.. ولو كان هناك مهرب من هذا الحال، أو وسيلة لتخفيف وطأته لما قصرت، ولكنه لم يكن ثم أى مناص وكنت بين أمرين: أن أروض نفسى على السكون إلى هذه الحالة الجديدة أو أن أنفض يدى من الصحافة وأهجرها إلى عمل آخر.. بدا لى أن من [السخرية] أن أزعم أنى كاتب – وأديب أيضًا – وأن أهرب من الصحافة لأنى عاجز عن الكتابة، فلا مفر من رياضة النفس. وقد كان، والعجيب أنه لم يمض الا قليل حتى صرت أستطيع أن أكتب فى أى مكان وفى أية ساعة، يستوى فى ذلك أن أكون وحدى لا يزعجنى مزعج، وأن يكون حولى جيش من المتلاغطين، بل صرت أستطيع أن أكتب قبل أن أفكر فى الموضوع، وقد اعتدت ذلك حتى صرت إذا أردت أن أكتب لم يكلفنى ذلك إلا أن أجلس إلى المكتب وأتناول القلم وأقيم سنة على الورقة وما هو الا أن يفتح الله على بكلمة استهل بها المقال ثم ذا المقال كله مكتوب والحمد لله. وليس معنى هذا

أني لا أفكر، وإنما معناه أني أفكر وأنا أكتب لا قبل أن أكتب والعملان يتمان معًا.
بل أغرب من ذلك أني صرت إذا انصرفت إلى الكتابة أذهل عما عداها فلا أسمع الذين يتكلمون حولي، ولا أشعر بضجة الترام ولا ضوضاء الباعة، ولو ضربت المدافع قريبًا مني لما حولت خواطرى عما أنا فيه. وقد أفادني هذا فائدة أخرى فقد كنت لا أستطيع أن أنام إلا سكنت الأصوات، وكان أخفت الأصوات وأبعدها يزعجني، ويطير نومي فأسخط وأتبرم ويسوء خلقي، ولهذا سكنت صحراء الإمام أعوامًا طويلة، طلبًا للهدوء والتماسًا للسكينة التامة، ومع ذلك كان أهلي إذا أردت النوم يذهبون إلى أقصى البيت، ويغلقون كل الأبواب بيني وبينهم، ويفرضون الصمت على الصغير والكبير، [خوفًا] عليّ وخوفًا من إيقاظي، ولكني على الرغم من هذا كنت لا أنام نومًا هادئًا. وآه لو اتفق أن مرت سيارة في الطريق، أو صاح طفل يلعب على مسافة كيلو من البيت. إذن أقوم كأني شككت بمسمار محمي في جنبي، ولكن عملي في الصحافة عودني أن أشغل بما فيه نفسي، وأن أذهل عما حولي، فصرت أجدني أنام ولا أعبأ بالضجات، ولا أبالي الضوضاء، فقلت لنفسي وما مقامي إذن في هذه الصحراء المجدبة البعيدة عن العمران.. ولهذا انتقلت الى مساكن الأحياء وعلى الطريق العام أيضًا غير عابئ بالترام والباعة والسيارات، وغير ذلك من المقلقات، لانى صرت أستطيع أن الوذ من نفسي بحصن لا تقتحمه هذه المنغصات، وهذا مثل لقدرة الإنسان على التكيف لا مبالغة فيه ولا غلو، لأن هذا ما يعرفه عني كل من يعرفني.

والإنسان موجود ليعمل وليناضل وليكافح ويسعى، وحياة السكينة لا تشعره بأنه يفعل ذلك، ويقوم فيه بالواجب الذى تفرضه عليه الحياة. وإنما تشعره السرعة بذلك، وتفرحه بهذا الشعور أيضًا. والذى يفعل الشئ في سكون، وفي سراح ورواح، وعلى مهل، وكلما أحس نشاطًا، ووجد من نفسه إقبالاً على العمل وارتياحًا إليه، لا يكاد يشعر آخر الأمر أنه صنع شيئًا، ولا يخفق قلبه خفقة السرور والرضى إلى ما أثمره كده، لأن طول الوقت الذى استنفده في العمل يفقده القدرة على الإحساس بجملة العمل إذ كان كل شعوره بالتفاصيل الصغيرة كل منها في وقتها وبمجردها أى على حدة. نعم يفرح ويرتاح، ولكن ما ضيع فيه من الوقت والجهد يسلب السرور قوته.

والأمر في السرعة على خلاف ذلك، والحال على نقيضه لأن إتمام العمل في وقت وجيز يتيح له أن يشعر به جملة وتفصيلاً في آن معًا، فإذا أعجبه ما عمل فاضت نفسه بالسرور .

وقد لا يدرك المرء في أول عهده بالحياة أنه يكافح ويناضل، ولكنه كلما تقدم في طريق الحياة وكر طرفه فيما مضى، لا يسعه إلا أن يشعر أن الحياة كلها كفاح.. ثم يجيء وقت يتساءل المرء فيه ما هي يا ترى القوة التي كنت وما زلت أكافحها في حياتي.. أتراني كنت أكافح نفسي طول عمري وأنا لا أدري.. وإذا لم تكن نفسي هي ذلك الخصم الذي أصارعه فمن هو غيري عـ ..

ويدهشه أنه لا يدري، وأنه يجهل خصمه، وأنه لا يستطيع أن يجزم في هذا بشيء.. وكلما علت به السن زادت حيرته، وربما تردد ومال إلى عقل أن الخصم الذي يصارعه ليس خصمًا وإنما هو صديق في ثياب عدو؛ فيشتهي أن يعرفه ويسأله عن اسمه، ولكنه لا يفوز بطلبه .

وقد أذكرتني هذه الخواطر حلمًا ليعقوب النبي – أبي يوسف عليه السلام – ولا تقول التوراة أنه كان حلمًا ولكن هذا هو المفهوم. وكان يعقوب قد قام في ليلة، وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده وعبر بهم مخاضة يبوق، وأجازهم الوادي، وبقي يعقوب وحده فصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، وأبى مصارعة أن يذكر له اسمه لما سأله يعقوب عنه، ولكنه باركه ولم يبخل عليه بالدعاء له – أي ليعقوب – لأنه جاهد مع الله والناس .

ولست أعرف ما هو أصدق من هذا الحلم في تصوير الحياة، فإنها كلها صراع مع خصم مجهول في الظلام، فلا وجهه يبدو، ولا اسمه يُعرف. وليس هو بعد ذلك بخصم، لأنه يبارك الإنسان ويثني على جهاده في سبيل الحق والواجب؛ فكأنه لا يصارعه وإنما يستدرجه الى الجهاد المفروض، ويجره إليه، حتى ينزله حومته، ولا يدعه فيها يهدأ، حتى اذا رآه آخر الليل لم يقصر في جهاد الحياة باركه ودعا له ..

ثم يرق الظلام، وتستبين معارف الأرض، ويشف سواد الظلال التى كانت كثيفة وتدخل فى الفجر، ويؤذننا ضوء الصباح الذى ينبلج شيئا فشيئًا بانتهاء حلم الحياة ومن يدرى.. فقد نعلم حينئذ كنه ذلك المصارع المجهول الذى حسبناه فى ظلام الليل خصمًا وقد نرى وجهه ونعرف اسمه .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الوهـــم[1]

أكثر ما يقعد بالإنسان عن الطلب، أو يصده عن السعى أو يصرفه عن الإقدام، وهم لا حقيقة، وقل أن يقدم الذى يطول تفكيره ومشاورته لنفسه؛ ويندر أن يفوز بالطيبات فى هذه الدنيا الا الجسور أو "الفاتك اللهج" كما يقول بشار، أى الذى لا يتردد ولا يضيع الوقت والفرص فى الموازنات والمعادلات وحساب العواقب والمغبات .

تكون مع المرأة التى تحبها، فتحدثك نفسك أن تبثها ما تجد، أو على الأقل أن تثنى على جمالها أو ذوقها فى اختيار ثيابها؛ فتردد مخافة أن يسوء وقع ما تقول فى نفسها وأن تعد ذلك منك تسحبًا واجتراء عليها، فتحجم، وتمتعض هى، لأنك خيبت أملها فيك ورجاءها عندك. وقد لا تحب المرأة الرجل، ولكنه لا يسوءها منه أن تعرف أنه يحبها، ولا يثقل عليها أن يثنى بما يعلم، وما يتخيل أيضًا، والمرأة تنتظر من الرجل أن يشعر بجمالها وأنوثتها قبل أن يشعر بعقلها أو علمها أو أدبها أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى. وكثيرًا ما تقرأ لى الفتيات ما يكتبن أو ينشدننى ما ينظمن، حتى إذا فرغن من التلاوة تعمدت أن أهمل ما سمعت منهن، وذهبت أصف لهن ما وقع فى نفسى من صوتهن وهيئتهن وهن يقرأن، وكيف كان النسيم يعبث بذلاذل الثوب، وكيف أن خصورهن كن يغرين بالتطويق، وشفاههن وهى تتحرك وتلتقى وتفترق، وتختلج من فرط التأثر بالمعانى المصورة فى الكلام، تحمل على اشتهاء القبلات الطويلة، ولا أراهن يغضبن لذلك أو يتجهمن، أو حتى يتكلفن العبوس والقطوب، بل تشرق وجوههن ويشيع فيها البشر، وتومض عيونهن وميض الجذل والاغتباط والرضى، وأنا أفعل ذلك لأسرهن، وأشرح صدورهن، ولأهرب من إبداء الرأى فى كلام لا أرى له قيمة أو وزنًا،

---

[1] نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ (ص ١٩٠٥-١٩٠٦) .

فننتقل بسهولة إلى حديث آخر نخوض فيه، وتطوى الورقات وتدس في الحقائب، ونحن نسح بالكلام، ثم ينصرفن راضيات مسرورات شاكرات، وأبقى أنا أو أذهب، ولا أكون قد رددت نفسي على مكروهها .

وقد جربت الناس فلم أجد ما يريح مثل الاجتراء عليهم. كنت في بعض ما مر بي مضطراً الى الاتصال في عملي برجل سريع البادرة، عظيم الغرور، متقلب الرأي، فلا راحة لإنسان معه، وآثرت الملاينة في أول الأمر وقلت: أسايره خطوة أو خطوات لأجره باللياقة والكياسة الى حيث أريد من حيث لا يشعر هو. فكان يفطن إلى حيلتي في بعض الطريق فينبو في الزمام، فخطر لي أن المنطق والحجة لعلهما أجدى، فصرت أجادله بالتي هي أحسن، ولكن بالبرهان والبينة، فكان يتململ ويتأفف، ولا يكتم ضجرة مني، وكراهته للجاجتي، فضاق صدري يوماً، وخرجت معه عن طوري – على ندرة ذلك جدا – ولم أستطيع أن أملك زمام نفسي، فأسمعته من رأيي فيه ما أعتقد أنه أوجع ما سمع في حياته، فما راعني إلا استخذاؤه، وإلا أنه أذعن وراح بعد ذلك يتقي أن يثير غضبي ويخشى بادرتي أشد الخوف. فاسترحت .

وقد يظن القارئ أني أشير بالتوقح على الناس وسوء الأدب معهم، وما أريد شيئاً من هذا، وإنما أقول إن احترامك لغيرك لا ينفي أو يمنع أن تحترم نفسك؛ ومن احترام النفس أن تكون صريحاً وحازماً، والصراحة والجرأة ليس معناهما قلة الأدب، فإنك تستطيع أن تذهب في الصراحة إلى أبعد مدى، وأن تحتفظ مع ذلك بالأدب. ومتى عرف الناس فيك الصراحة وألفوا منك الشجاعة، اقتنعوا بذلك ووطنوا أنفسهم عليه، وأعفوك من كثير مما تكره .

وقد قص عليَّ بعضهم حكاية شاب اتخذت منه زوجته دابة، فهو لا يفعل إلا ما تأمر، ولا يخرج أو يدخل أو يقوم أو يقعد أو يأكل أو يشرب إلا إن أذنت له، وقيل لي أنها هي التي تنتقي له ثيابه، وتختار له ما يوائمها من قميص ورابطة وحذاء إلى آخر ذلك. وتأمره فيصادق هذا ويخاصم أو يعادي ذاك، ويصل فلاناً ويقاطع فلاناً، فعجبت! وسألت محدثي: وماذا يخيفه منها؟ أهو يخشى أن تأكله اذا اعترض أو أبى أو تمرد

على هذا السلطان؟ فهز محدثي رأسه ولم يستطع أن يذكر لي شيئًا معقولاً. وما أزال إلى هذه الساعة عاجزًا عن تصور ما تستطيع هذه المرأة أن تصنع إذا انتفض زوجها على هذا الاستبداد؟ وهي وقفة واحدة يقفها الرجل فلا يسع امرأته إلا أن تلتزم حدها، وتترك له حقه في نفسه. وهذه الوقفة لا تحتاج إلى ثورة، ولا تتطلب أن تقوم قيامة البيت، بل لعل الهدوء أحجى، وضبط الأعصاب أجدى. وما أظن امراة تكبر رجلاً يكون عنانه في كفها الرخص، ولا شك أنها لا تنفك تحتال لتخضعه من حيث لا يشعر ولا يدري، والرجل الرشيد يدرك ذلك ولا يخفى عليه أنها تدور من ورائه لتحمله على ما تريد؛ فيلين ليرضيها ويسعدها بالشعور بالنجاح، ويجعلها بذلك ألين في يده من ناحية أخرى .

وحياة الرجل والمرأة مناوشات مستمرة، ولعلها أشبه شيء بالحرب التي تشنها العصابات المتحصنة في رؤوس الجبال على الجيوش المنظمة. وقدرة الرجل وسطوته متعرف بهما، ولكن المرأة لا تقر لهما الإقرار التام، ولا تزال تختبئ وتطلق قذيفتها. وخير للرجل، وأجلب لراحته، أن يدع لها فرصة كافية لإصابة الهدف، فتسكن نفسها وترضى عن حالها، وإلا التمرد الصريح. ولكنه ينبغي أن يكون له وجود وكرامة، وإلا خسر احترامها له. واحتفاظه بكرامته واستقلاله وحريته لا يكلفه إلا أن توقن هي أنه لا خير في محاولة إخضاعه لها .

وقد زاولت التعليم عشر سنين فما أذكر أني احتجب يومًا أن أعاقب تلميذاً، ولو تمردوا عليَّ لما وسعني شيء فإني واحد وهم كثر، ولو انتفضوا على نظام المدرسة لما استطاعت أن تكرههم عليه، ولكن التلميذ يتوهم البأس والشوكة والسطوة والقوة، ويرهب ما يتوهم، ويطول عهده بذلك فيتقرر في نفسه. وقد كنت وأنا معلم لا أحجم عن مصارحة تلاميذي بأن سلطان المدرس خيالي ولا حقيقة له، وأنهم لو شاءوا لتناولوني وقذفوا بي من النافذة، وقذفوا بالمدرسين جميعًا وبالناظر أيضًا ورائي، وكنت أراهم يبتسمون لما يسمعون مني، ثم يعودون إلى ما ألفت منهم من حسن الإصغاء وشدة الحرص على النظام .

وكبر ابني وصار أطول مني قامة، وأنا الآن كهل وهو شاب، وقد وقد توخيت فى تربيته أن أدعه حراً، وأن أجعله يشعر باستقلاله، ومع ذلك لا أراه يجترئ الاجتراء الذي أتوقعه وأريده يسرني أن أراه منه، لأنه يهاب ذلك السلطان الذى درج على إكباره والإقرار له منذ الصغر. فهو لا يزال طفلاً بالقياس اليّ فيما أرى، وإنه لكذلك إذا اعتبرنا التجربة والعلم وما إلى هذا، ولكن وهم الأبوة أو سلطانها، أو لا أدرى ماذا، يصده حتى عما لا بأس منه ولا ضير، ولا عيب فيه، ولا خوف من الزجر عليه. وأنا أيضًا كنت طفلاً – كما لا أحتاج أن أقول – وكان هذا شأنى، لأن للعادة سلطانها .

ولو جرب الناس الشجاعة والأقدام، لأدهشهم أن ما كانوا يخافونه أو يتقونه أو يتوقعونه، لا وجود له، وأنه لم يكن سوى وهم ليس إلا. وأكرر أنى لا أحض على تجاوز الحدود، فليس من حسن الأدب أن يكون المرء جبانًا أو ذليلاً، ولا من سوئه أن يكون عارفًا بحقوقه، حريصًا عليها وجريئًا فى سعيه، وصريحًا فى قوله، أى مخلصًا لنفسه .

إبراهيم عبد القادر المازنى

السفور وتربية البنت[1]

نشرت لي "مجلة الرسالة" الغراء صورة وصفية لفتاة في ريعان الشباب لا تبرح بيتها، ولا تغادر شرفتها، ولا تخالط غير أهلها، فيدفعها الملل إلى ضروب العبث البريء، وقد تضمنت الصورة كلاما عن السفور، وأن الفتاة المصرية عرفته وألفته، ولكنها لم تعرف الحياة الاجتماعية، فهي تخرج مكشوفة الوجه، والذراعين أحيانا، والصدر إلى النهدين، كذلك، وتكلم سائق الترام وموظف المتجر، ولكن الحياة الاجتماعية التي يمهد لها السفور، لا تزال شيئًا منكرًا لأن بيوتنا خليط من أجيال غير متجانسة، وقد راض أهل الجيل السابق أنفسهم على السفور، ونزلوا على حكم الزمن فيه، غير أنهم لم يستطيعوا – ولهم العذر – أن يحملوا أنفسهم على تقبل النتائج الطبيعية لذلك. ومن [هنا] ترى اجتماع الحرية والحجر، والسفور والحجاب في آن معًا، وفي البيت الواحد. فالأب يسمح لفتاته أن تبرز في الطريق سافرة الوجه، ولكنه خليق أن يثور ويحرق الأرم[2] لو رآها تطعم شابًا من غير أهلها الأقربين، ولا يخطر على بال الفتاة أن تقول لأبيها أو أخيها: "اسمح لي أن أقدم لك فلانًا صديقي". وليس يخفى علي أن هذا مألوف ولا عيب فيه، عند الذين ينتمون إلى ما يسمى "الطبقة الراقية" أو "الارستقراطية"، ولكن كلامي على السواء لا على القلة، وعلى العموم لا على هذا الخصوص .

وقد زارني صديق قرأ هذا المقال، أو هذه الصورة الوصفية، وأخذ يجادلني في رأيي، أو يستوضحنيه على الأصح، لهذا رأيت أن أشرح رأيي هنا عسى أن يكون هناك غيره من الراغبين في هذا البيان .

---

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٦ (ص ١٠-١١) .

(٢) يحرق الأرم: يحك أضراسه من الغيظ ببعضها البعض. (المحرر) .

والذى أريد أن أقوله هو أن السفور لم يؤد فى مصر إلى الحياة الاجتماعية على نحو ما أدى إليه في الغرب، لأن تربية الفتاة المصرية لا تزال قوامها التخويف من عواقب الاتصال بالرجال الأغراب، فالفتاة تنشأ عندنا على اعتقاد أن الرجل مخلوق يُخاف ويُتقى، لا على أنه ند لها، أو هى ند له، وأن لها فى نفسها مثل الحق الذى فى نفسه، وأنها يسعها أن تحتفظ بهذا الحق كما يسعه بلا فرق، ولولا أن هذا هو قوام التربية عندنا لما كان ثم أى داع للفَرَق من الاختلاط الاجتماعى، والفتاة الغربية تربى على خلاف ذلك ونقيضه، فهى ترى الرجال وتألفهم، ولا تستغرب وجودهم معها، ولا تلح عليها الخواطر المتصلة بالإحساس الجنسى حين تسايرهم أو تجالسهم، لأن الرجل عنصر مألوف في حياتها مثل المرأة ، وقد ألفت حريتها واعتادت استعمال حقوقها كما ألف الرجل، فالخوف لا يساورها بل لا يجرى لها فى بال، حتى الخلوة لا تفزعها، وإن كانت تدرك بفطرتها أو ذكائها أو من قرائن الأحوال، ما عسى أن يكون دائرا فى نفس الرجل، لأن معرفتها بحقوقها يطمئنها ويقويها ويجعلها موقنه من قدرتها على المقاومة إذا شاءت .

والفتاة المصرية على خلاف ذلك ونقيضه. وقد شبت على أن الرجل قوى مخوف، وأنها لا تملك من أمرها شيئًا إذا وقعت فى يده، وأن الاتصال به من أجل ذلك لا يكون إلا سيئ العاقبة غير محمود المغبة. وهذا الاعتقاد يفقدها الشعور بحقها، ويسلبها الاقتناع بحريتها فى التصرف فى أمرها، ومثل هذه التربية السخيفة لا تكون لها إلا نتيجة واحدة، هى سرعة تنبيه الإحساس الجنسى فى نفس الفتاة – ونفس الرجل أيضًا – كلما اجتمعا اثنان من الجنسين. ونتيجة أخرى لهذا هى إنه إذا جلست فتاة إلى شاب، كان أبرز ما تشعر به الفتاة هو ما تعتقد – بطبيعة شأنها – أن الشاب ينشده من أنوثتها، والشباب مثلها لا يسعه إلا أن تتجه خواطره إلى هذه الناحية، ولما كان اجتماع شاب بفتاة يعد خلسة – لأنه حال غير معترف به – فان الطبيعى أن يسعى كل منهما للفوز بأكبر حظ من المتعة فى أوجز وقت لندرة فرصة الاجتماع، ومخالفة ذلك للعرف المقرر والتقاليد السائدة التى تباعد بين الرجل والمرأة .

ولما كانت الفتاة قد نشأت على الإقرار بضعفها وقوة الرجل، وعلى ضعف الثقة بحقها وحريتها، فإن الخلوة لا تكون مأمونة العاقبة إلا فى الفلتات المفردة .

وأساس الحياة الاجتماعية فى الغرب أن للمرأة حقًا فى نفسها مثل حق الرجل فى نفسه، وحرية فى التصرف كحريته، وأن الأمر كله قد نظمه العرف، وأقامه على حدود معروفة وقواعد لا شذوذ فيها ولا اضطراب، ولا وجود لشىء من ذلك فى مصر، وكل ما حدث من التطور عندنا لا يتجاوز الثياب، ولا يمتد الى النفس وإحساسها وخوالجها، ولا يرتفع الى الرأس وما يدور فيه. كانت المرأة تضع على وجهها البرقع أو النقاب فاستغنت عنه، وبرزت به غير مستور، وكانت تلف على رأسها خرقًا سوداء كما تُلف العمامة، فرمتها واعتاضت منها القبعة، أو آثرت أن تترك شعرها عاريًا، وكانت تختفى فى ملاءة فألقتها، واستبدلت بها العطف، وقد تكتفى بثيابها، ثم لا شىء غير ذلك. أما تفكيرها فظل كما هو على الرغم من التعليم، وأما إحساسها نحو الرجل فلم يتغير منه شىء، بل بقي كما كان أيام الحجاب. ومدار هذا الإحساس كما أسلفت، هو أنها فريسة الرجل، والقنيصة التى يتربص لها، فشعورها هو شعور الفريسة حيال الوحش الذى ورثت من سلسلة آبائها الخوف منه، والإيقان بسطوة عليها اذا ساعفته الفرصة، كما يرث الفأر خوف القط ويضطرب إذا رآه، فتخذله أرجله فيقف فى مكانه لا يُريمه، وقد أيقن من الهلاك. وكل ما فى حياة الفتاة يقوى فى نفسها هذا الإحساس ولا يضعفه ولا يحل محل الشعور بالقوة والاستقلال والحرية. تقف فى الشرفة أو تطل من النافذة فيراها أبوها أو أخوها فيزجرها ويقول لها ارتدى عن النافذة أو ادخلى الغرفة فإنى أرى فلانًا صاحبى يمشى على الرصيف، وقد يراك إذا ظللت مطلة أو واقفة حيث أنت .

ويسمعها تكلم جارها، فينهرها ويقول لها "عيب". وليس الكلام هو العيب، وإنما العيب الذى يعنيه الأب أو الأخ، والذى تدركه هى أيضًا، ما يخشى أن يؤدى إليه الكلام. فهنا وثبة من الكلام الذى لا بأس منه فى ذاته وبمجرده إلى مطالب الغريزة الجنسية دفعة واحدة بلا تدرج ومعنى الزجر عن الكلام مع الرجل الغريب أنه باب

يؤدى مباشرة، وبلا شك، إلى ما تقتضيه المطالب الجنسية. ومعناه أيضًا أن الفتاة التي تكلم الشاب الغريب لا يسعها إلا أن تنتهي إلى هذه النهاية وإلا لما كان هناك موجب للخوف والزجر .

والغريزة الجنسية أقوى فى نفس المرأة بطبيعة الحال منها فى نفس الرجل، فإذا جاءها هذا المدد من التربية السخيفة اضطرمت جداً، واستولت على نفس الفتاة أتم استيلاء، وصارت هي الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولست أعرف أسوأ من هذه النتيجة ولا أخبث .

وليست كذلك التربية الغربية، فإن قوامها كما قدمت الاعتراف بالحقوق والحريات والنظام، وإذا كان لا تفريق عند القوم بين الجنسين، فإن فى وسعهما أن يلتقيا وأن يرضيا غرائزهما إرضاء كافيًا بالحديث والنظر والمجالسة، وأن يعتادا الاكتفاء بذلك، وأن يألفا ضبط النفس، وكبح الأهواء والمآرب، وأن يمنعا أن تجمح بهما. وهذه هى مزية الحياة الاجتماعية عند الغرب، أما في مصر فقد فقدنا الحجاب – ولا أسف عليه – ولم نعتض منه هذه المزايا التى تنطوى عليها الحياة الاجتماعية فى الغرب، والعلة هى سوء التربية وفساد أسلوب التنشئة. وقد صار السفور لهذا السبب باب شر مفتوحًا على مصراعيه، وأحسب أن لا علاج لذلك إلا بإصلاح أسلوب التربية وتعليم الفتاة حقوقها وحرياتها وإقناعها بها، واقتلاع خوفها الموروث من الرجل .

إبراهيم عبد القادر المازنى

فى الطفولة[1]

زارني مرة فى مكتبي صديق كريم، وكان معى فى ذلك اليوم أصغر أطفالى فقد تشبث بى وأبى إلا أن يصحبنى. فلم أر بأسًا من ذلك، وسأله الصديق بعد حوار طويل لم يعلق بذهنى منه شيء: "أبوك من.." – قالها هكذا بالعربية الفصيحة – والصبى حديث عهد بتعلم القراءة والكتابة؛ فلم يفهم "من" هذه، وظنها شيئًا معيبًا أو غير لائق وهز رأسه منكرًا؛ فكرر الصديق السؤال، فقطب الصبى وقال: "توْ توْ". فنظر إلىّ صديقى فقلت: "يا صاحبى إنه يحسب أن (من) هذه مثل قولك "كلب" أو "قط" أو شيء آخر لا يليق فى رأيه أن يكونه أبوه، ولو كنت قلت له "مين" بالعامية لفهم وأجابك، وما أظن به الآن إلا أنه وقع فى نفسه منك أنك تسب أباه، وإنى لأخشى أن يحقدها عليك، ولا يكون رأيه فيك بعد اليوم إلا سيئًا، وأكبر ظنى أنه سيحدث أمه عنك حديثًا لا يسرك أن تسمعه. وانقضت هذه الحادثة وانطلق الغلام خارجًا ليلعب، فقد سم الحوار الذى ارتفعتا به عن طبقته. فقال صديقى بحق : إنه موقن أن الصبى يشعر بوحشة مع أمثالنا من الكبار لأنه يحتاج إلى صغار مثله يفهمهم ويفهمونه فيسر بهم ويأنس. فقلت له: إنى لا أظن أن أبنائى يستوحشون حين أكون معهم، لأنى أستطيع أن أنزل إلى مستوى مداركهم فأكون معهم كأنى أحدهم، فقال إن أمره ليس كذلك .

وخرج صديقى فذهبت أفكر فيما قال فسألت نفسى: "لماذا لا نحسن نحن الكبار أن نفهم الصغار كما ينبغى أن يُفهموا.. إننا لم نجىء إلى الدنيا كما نحن الآن.. ولم تلدنا أمهاتنا بأسناننا وشواربنا ولحانا ورؤوسنا الناضجة – أو التى نزعمها لغرورنا ناضجة – وإنما جئنا إلى الحياة صغارًا ثم كبرنا شيئًا فشيئًا. ولم تكن

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٦ (ص ٢١٠٦–٢١١٠) .

طفولتنا قصيرة العمر، بل كانت سنوات طويلات، وإن من الكبار لكثيرين لا يزالون أطفالاً، وإن كانوا قد شابوا وشيخوا.. وإنا لنذكر حلاوة الطفولة، وجمال عهدها، ونحنُّ إليها، ونتمنى لو أمكن أن نرتد إلى ما كنا في أيامها بكل ما حفلت به.. ومع ذلك لا نستطيع بعد أن كبرنا أن نفهم الأطفال، ونفطن إلى أساليب تفكيرهم وقد كنا مثلهم.. ومع أن الطفولة ليست غريبة عنا ولا أجنبيه منا، حتى يستعصى علينا فهمها، فأن صفحتها تمحي من ذاكرتنا كل المحو، فننقلب محتاجين إلى من يشرحها ويفسرها لنا، ويبين لنا ما فيها، ويعلمنا كيف تقرأها ونفهمها .

وأذكر أني، وأنا طالب في مدرسة المعلمين العليا، كنت أضحك فيما بيني وبين نفسي حين أسمع أستاذنا يقول لنا بلهجة الجد إن علينا أن نعنى بأن ندرس الطفل، وكنت أقول لنفسي وأى حاجة بنا إلى درس المعروف المفهوم كأنه مجهول أو غامض. فلما كبرت وصار لى ابن أدهشني أنى وجدت أنى محتاج أن أروض نفسى على النظر إلى الأمور بعين الطفل لا بعيني أنا، ولم تكن هذه الرياضة لا سهلة ولا خفيفة؛ فقد كانت تستنفد صبرى ومجهودى معا؛ ولكنى كنت مضطراً إلى ذلك بعد أن شاءت الأقدار ألا يبقى له من أبوية سواى، ولولا ذلك لنفضت يدى من الأمر كله وتركت العبء لغيرى .

ومن فرط جهلي بالطفولة وثقل الشعور على نفسى بذلك، أرانى أحيانًا أتمنى لو يرزقنى الله عشرين أو خمسين طفلاً دفعة واحدة لا لأعذب نفسى بهم، وأطير عقلى معهم، بل ليتسنى لى أن أدرس الطفولة كما ينبغى أن تدرس على نحو ما سمعت أن العلماء يدرسون مالا أدرى فى معاملهم، ولكن الحوائل دون ذاك كثيرة: منها أن المرأة ليست كالقطة أو الأرنبة، ومنها أنى لا أستطيع أن أعول كل هذا الجيش من الصغار، ومنها أنى خليق فى هذه الحالة أن أجن فلا أنا درست شيئًا ولا أنا أبقيت على عقلى .

والضرورة تفتق الحيلة كما يقولون، والحاجة أم الاختراع. وقد لجأت إلى وسيلة أخرى أخف محملاً وأمن عافية وفيها بعد ذلك لهو لا بأس به، وتلك أنى أكون مع أطفالى كما يكونون أو كما أراهم يكونون، وكما يبدو لى منهم؛ فأخلع ثوب الكبر

والوقار والاحتشام وأجعل من نفسى طفلاً مثلهم، وأحاول أن ألبس هذا الثوب الذى نضته عنى الأيام بكرهى ولم تبق لى منه إلا ذكرى السعادة، وأنا أمرح فيه. ومن العجيب أنّا لا نذكر إلا أنا كنا سعداء به، أما كيف كنا سعداء، وما كان يسعدنا، فهذا ما نتخيله فى كبرنا لا ما نعرفه على التحقيق. ولكن استعادة هذا العهد الذاهب عسيرة جداً. نعم أستطيع أن أقلدهم فيما أراهم يصنعون، فأضحك مثلا بكل جسمى لا بفمى وعينى فقط! وأسقط على الأرض متهافتًا من شدة الضحك كما يفعلون، وأقذف بالكرة بلا حساب أو تقدير فتصيب المرآة أو زجاج الصورة المعلقة أو أنف جالس يستغرقه الحديث الذى يخوض فيه مع جاره فينتفض مذعوراً، ويسبقه لسانه بما لا يُروى وما يجب أن يغتفر له، ونرى ذلك نحن الأطفال، فيترامى بعضنا على بعض من فرط السرور والجذل، وتتصادم رؤوسنا ثم نفطن إلى غضب الذى أصيب أنفه، وندرك أن هذا الغضب قد يكلفنا ما لا نحب، فنذهب نعدو ويد الواحد منا على كتف صاحبه أو ممسكة بذيل ردائه، ونتزاحم ونحن خارجون من الباب الذى لا يتسع لنا جميعًا فيقع أحدنا ويتعثر الباقون فوقه، ويصيح المتألمون من الضجة التى أحدثناها وينهروننا ويزجروننا عن هذا العبث المزعج الذى يقلق الرؤوس، ويعرض الأنوف والعيون الأنوف والعيون للاصابات المباغتة، فتخفت أصواتنا ويلصق بعضنا ببعض فى ركن من الغرفة الثانية ونكمن وراء خزانة أو غيرها مما يتفق وجوده، ونصمت برهة، ثم يشق علينا السكوت، وتمل ألسنتنا الهدوء، ويتذكر أحدنا ما أفاد من المتعة حين رأى المصاب فى أنفه يصرخ ويرفع يديه إلى وجهة ويصيح باللعنات الحرار والتهديد المرعب – يذكر أحدنا ذلك، فيغلبه الضحك فيكركر، ويساوره الخوف مما هدد به، فيتناول بعض ثوبه ويضعه على فمه ليخفض صوت السرور، ولكنا نرى ذلك منه فيعدينا فنفعل مثل ما يفعل، ونصبح نحن الثلاثة أو الأربعة كلنا ثلاثة قطط أو أربعة – قطط صغار وليدة من فرط التدانى والاختلاط، فهذا وجهه مدفون فى صدر ذاك، وذاك رأسه تحت ذقن الثالث، والثالث وجهة إلى الحائط وهو يغت ويغالب ضحكة، والرابع قاعد على الأرض ومخف وجهة فى طيات الثياب. وأحيانا أكون مع الأطفال قطاراً يسير متعرجًا بين الكراسى والمقاعد والأثاثات المختلفة، ولا يخلو سير هذا القطار الآدمى من حادثة

فيكسر كوبًا أو إبريقًا أو يقلب شيئًا؛ وقد تقع الحادثة له - فيتعثر الذى هو القاطرة وتنكب المركبات على جسمه؛ ولكن الحوادث - كائنه ما كانت - لا يراق فيها دم - إلا دم إصبع مجروح أحيانًا - ولا تمنع البشر والضحك، بل لعل هذه الحوادث هى التى تجلب السرور ولا تكون المتعة إلا بها .

أفعل ذلك وغيره وأقدر عليه، ولا يحس الأطفال الذين ألاعبهم وأغالط نفسى بأنى أحدهم ومثلهم، أن هنالك أى فرق بينى وبينهم، ولكنى أنا أحس بالفرق الذى يخفى عليهم. ومهما بلغ من استغراق اللعب لى فليس يسعنى أن أنسى أنى كبير وأنى مقلد ليس إلا. ولو نسيت لأذكرني التعب الذى سرعان ما يحل بى، وصدرى الذى يعلو ويهبط كموج البحر، ودقات قلبى السريعة، وأنفاسى المنبهرة، فلا يلبث ذلك كله أن يردنى بعنف وغلظة إلى ما أتجاهله من الحقائق؛ ولو لم يكن هناك شيء من هذا لكان حسبى من الفرق أن الأطفال يختلفون عنى فى التفكير والنظر والتقدير، وأنهم يفعلون ما يفعلون بفطرتهم، ولأن حيويتهم كلها فى أعضائهم وأنى أجاريهم متكلفًا، وهم يسرون بما يفعلون، أما أن فسرورى بمبلغ فى التقليد والتمثيل لا فى الفعل نفسه، أى أن سرورى بمحاكاتهم ومجاراتهم فنى فى الحقيقة، أما هى فالأمر عندهم طبيعى، وإفادة السرور راجعة إلى أنهم يرسلون نفوسهم على سجيتها .

ولست ألاعب الأطفال لأسرهم فقط - وإن كان هذا وحده كافيًا لتهوين ما أتكلفه من العناء والجهد - ولكنى أحب أن أدرس الطفولة بمحاولة الاندماج مع الأطفال وتمثل إحساستهم، وتصور بواعثهم على قدر ما يتيسر ذلك لى، وبمعالجة استرداد القدر على الصدور عن وحى الفطرة التى لا يكبحها العقل أو التهذيب أو العرف أو غير ذلك من اللجم التى يحسها الكبار كلما هموا بفعل شيء تغريهم به الفطرة .

ولدرس الطفولة مزايا كثيرة هى السر فى ولعى بهذا الموضوع : منها أن الطفل فى بلادنا أشقى عباد الله. وإنه ليخجلنى أن أقول إننا نعذب الأطفال ونقمع فى نفوسهم الجديدة روح الطفولة ونمنعها أن تتفتح وتزهو وتربو، وأحر بنا إذا فهمنا الطفولة أن نحسن سياستها ونسعدها ونجعل عهدها حميداً وتمهيداً صالحًا لعهد الشباب،

وأنا موقن أن خير الآباء ليس هو الذى يرضى عن أبنائه أو عما يعتقد فيهم ويظن بهم – فقد يكون مخدوعاً وهذا هو الأغلب – وإنما أحسن الآباء هو الذى يرضى عنه أبناؤه ويفرحون به ويباهون ويعتزون .

فسياستى مع أطفالى هى أن أسعى لاكتساب رضاهم عنى لا أن يكونوا بحيث أرضى أنا عنهم، والفرق دقيق ولكنى أظنه واضحاً. وقوام هذه السياسة أن تدرك أن للطفل نفساً غير نفسك، وأن لها استعداداً لعله غير استعدادك وأن مهمتك أن تعين الطفل على إنماء مواهبه الكامنة والانتفاع بهذا الاستعداد المضمر، وأن توجد الفرصة لأبراز ذلك، لا أن تأخذ عليه الطريق وتسده، وبعد أن يبدو لك ما يشى بالاستعداد تسرع فى توجيه وتقويته. ولا يمكن أن يتيسر ذلك إلا إذا تركت للطفل حريته. وكيف يمكن أن تعرف ما يخفى من أمره إذا كنت تلزمه حالة معينة، أو تحتم عليه مسلكاً لا يجوز له أن يعدوه أو ينحرف عنه؟... وكيف ترجو أن تكون له شخصية متميزة بخصائصها إذا كنت تأبى عليه الاستقلال والحرية؟... إن تربية الطفل هى فى الحقيقة تجربة يجريها المربى ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى صحة النتيجة إذا كنت تبدأ برأى معين وفكرة لا تحيد عنها وسلسلة الاختبارات المتعاقبة هى التى تشير إلى اتجاه النفس، وتدل على ناحية الاستعداد المجهول؛ فلا بد من ترك الطفل حراً، ومن تعويده الاستقلال فى النظر والعمل وفى تلقى وقع الحياة، وفى طريقة استجابته لهذا الوقع. ولا نكران أن الرقابة لا معدى عنها، ولكنها يجب أن تكون بحيث لا يشعر بها الطفل ولا يتأثر بها. وكذلك ينبغى أن يكون التوجيه حين يجىء وقته، وإلا فقد الطفل استقلاله وخيف أن يكون قد اتجه حيث أردت له لا حيث يدعوه استعداده الشخصى .

ومزية أخرى هى أن الطفل يمثل الأدوار التى اجتازتها الإنسانية والمراحل التى قطعتها كلها فى تاريخها الطويل وصحيح أنها تكون فيه – أى فى الطفل – مختزلة جداً، ولكن المرء يستطيع أن يفطن إلى بعضها وإن كان يفوته أكثرها وحسبى هذا القدر لئلا ندخل فى مباحث علمية لا قدرة لى عليها .

ومزية ثالثة لا يشق عليَّ الكلام فيها ولا يثقل فيما أرجو على القارئ، وتلك هي أن الطفولة غرائز ساذجة وعواطف وإحساسات فطرية لم تهذب ولم تصقل، ولكنا بالتربية نعود الطفل أن يكبح شهواته ويضبط أهواءه ويضع لنفسه اللجم والقيود، وهذا شبيه بما يصنعه المجتمع بنا نحن الكبار. وقد يعلم القراء – أولا يعلمون فما أدرى – أن سبيل المدينة أن تتخذ بمن النظم الاجتماعية مجارى تتدفق فيها العواطف والغرائز الإنسانية الساذجة الفطرية. مثال ذلك أن الحب هو الذى يرجع إليه الفضل فى نظام الزواج الذى صلح به أمر المجتمع إلى الآن. ذلك أن الرجل كان فيما خلا من عصور الاستيحاش تأخذ عينه امرأة فتروقه فيخطفها، أو يستحوذ عليها بالقوة، أو غير ذلك من الوسائل، ويستأثر بها ويقاتل دونها ما دام راغبًا فيها، ثم يدعها أو يبقها بعد الفتور عنها إلى أخرى تستولى على هواه، وكان الأمر كله فوضى ولكنه انتظم بالزواج، فلا خطف الآن ولا قتال ولا عنف. وقد احتفر الرقى المجرى الاجتماعى فتدفقت فيه الحياة من هذه الناحية. وكذلك الوطنية ليست فى مرد أمرها إلا مظهر أنانية وأثرة، ولكن نطاق الأثرة اتسع فشمل الجماعة المتماثلة كلها بعد أن كان قاصراً على القافلة الصغيرة مثلا أو على الفرد قبل ذلك وهكذا إلى آخر ذلك، وما من نظام اجتماعى إلا والأصل فيه غريزة من الغرائز الساذجة التى لم تهذب ولم تصقل .

ونحن نصنع بالطفل ما تصنع بنا الحياة المدنية ، نعلمه كبح الغرائز ونروضه على ضبط النفس وننشئه على إدراك الحدود والواجبات ونعده لحياة الجماعة المنظمة التى لا يسمح فيها بإرسال النفس على السجية فى كل حال بغير كابح أو رادع أو ضبط .

وشىء آخر لا سبيل إليه إلا الطفل وذاك أن من أراد أن يعرف حقيقة الإنسان فليتأمل الطفل، وأنا أو من بأن الإنسان مخلوق لا شريف، ولا كريم، ولا خيِّر، ولا فيه خصلة واحدة من خصال الخير، وأنه لا يعرف لا خيراً ولا شراً، ولا فضيلة ولا رذيلة، وإنما يعرف نفسه وأهواءها وشهواتها وما يحسه من رغباتها، وهنا موضع التحرز من خطأ، فأنا لا أقول إن الانسان خيِّر بطبعه ولكنى لا أقول إنه شرير بطبعه، وسبب ذلك أنى لا أرى الغرائز الطبيعية لا خيراً ولا شراً، وإنما هى غرائز طبيعية وكفى،

وعقلى لا يسمح لى أن أستنكر الفطرة التى]بنينا[عليها. ولا حاجة فى الحقيقة إلى الرجوع إلى الطفل للاستدلال على أن الانسان بفطرته خيراً أو فاضلاً أو كريمًا إلى آخر هذه المعانى الحسنة، فإنه يكفى أن يفكر الإنسان فى هذه الشرائع والقوانين وما إليها، وكلها حض على الخير ونهى عن الشر. ولماذا يحتاج الإنسان إلى كل هذا الحض على الخير والتزيين له والتحبيب فيه، وكل هذا الزجر عن الشر والتخويف منه والتهديد بالعقاب عليه إذا كان بفطرته خيراً عزوفًا عن النكر والسوء ؟.

ولكن الطفل مع ذلك أبرز مثال محسوس لحقيقة الفطرة الإنسانية. هات طفلاً وأعطه عصفوراً وانظر ماذا يصنع به.. يربط رجله ويشد عليها ولا يبالى ألمه، ويروح يطوح به ذراعه مسروراً بالدائرة الوهمية التى يرسمها به فى الهواء، غير عابئ بما يكلفه ويحمله من الأذى. أو يقبض على عنقه ويحبس أنفاسه ثم يلقيه على الأرض، ويغتبط بأن يراه منطرحًا على جنبه ورجلاه إلى فوق، وهو لا يحس أن هذا قسوة لأنه لا يعرف لا القسوة ولا الرحمة، وإنما يعمل ما يفيده السرور الذى يطلبه والمتعة التى يشتهيها .

وتعطيه قطعًا من الحلوى ويجيء من يطلب منه واحدة، فإذا كنت لم تعلمه ما نسميه الأدب فإنه لا شك يضم يده الصغيرة عليها، وقد ينثنى فوقها ليحجبها عنك، ويمنعك فى ظنه أن تأخذ منها ما طمعت فيه .

وتكون فى يدك موزة أو تفاحة أو ما يشبهها من الفاكهة، فإذا كنت لم ترضه على كبح النفس، فستراه يشب ويمد كلتا يديه إلى ما فى يدك ويصيح بك أن هاتها، واحرم نفسك وأعطنى .

وتكون قد وعدت أخاه بشيء إذا حفظ درسه مثلا فيحفظه فتهدى إليه ما وعدته، ويراك أخوه فيغضب ويغار وينقم منك أنك اختصصت أخاه دونه بشيء ويدعوك أن تأخذ من أخيه وتعطيه هو، ويسره أن تفعل ذلك ولا يبالى أخاه ولا يحفل أنه خطفت من يده الهدية الموعودة، بل يروح يخايله بها ويكايده ويغتبط بأن يراه منغصًا محرومًا دونه .

ولا شكر على صنيع جميل ولا حفاظ لعهد، ولا وفاء ولا ذكر. إنما له الساعة التى هو فيها، والشيء الذى يحس أن نفسه تطلبه، وفيما عدا ذلك على كل شيء وكل إنسان ألف سلام .

قد يقال إن هذا من الجهل وقلة الإدراك، فأقول: إنى أتكلم عن الأصل قبل التهذيب والصقل. أما الإدراك فهو كالرقى الذى وصل إليه الإنسان على الأيام وبعد الحقب الطويلة، وقد أسلفت أن الطفل يمثل الأدوار التى مرت بالإنسانية من بدئها إلى حاضرها. فأنت ترى فى سنة من عمر الطفل اختزالاً لما قضت الإنسانية دهوراً ودهوراً طويلة وهى فيه من الحالات. وأما التعليم والتهذيب فهذه هى اللجم والأعنة التى نضعها لضبط هذه الغرائز وكبح العواطف وتوجيهها إلى المجارى التى احتفرت على الأيام وتحدرت فيها حياة الجماعة المنتظمة المهذبة، واللجام طارئ فإذا كان يكبح بما يشد ويصد فليس معنى هذا أن ما صار إليه الأمر بعدها هو الذى كان قبلها .

ومع ذلك هل نحن الكبار المثقفون المهذبون المصقولون خير من الأطفال الصغار؟. وللجواب عن هذا السؤال أرجو أن يسأل القراء أنفسهم ماذا يكون الحال – حال المجتمع – لو أمنتم عقاب الله وسطوة القوانين وحكم العرف؟. والقوانين لا تعاقب على بعض الرذائل مثل الكذب والخداع والنفاق فانظر من الذى لا يكذب أو يخادع أو يداهن وينافق – أحيانًا كثيرة على الأقل؟ أظن أنه لو أمن الناس البطش والعقاب لما بقى شيء لا يجترحونه .

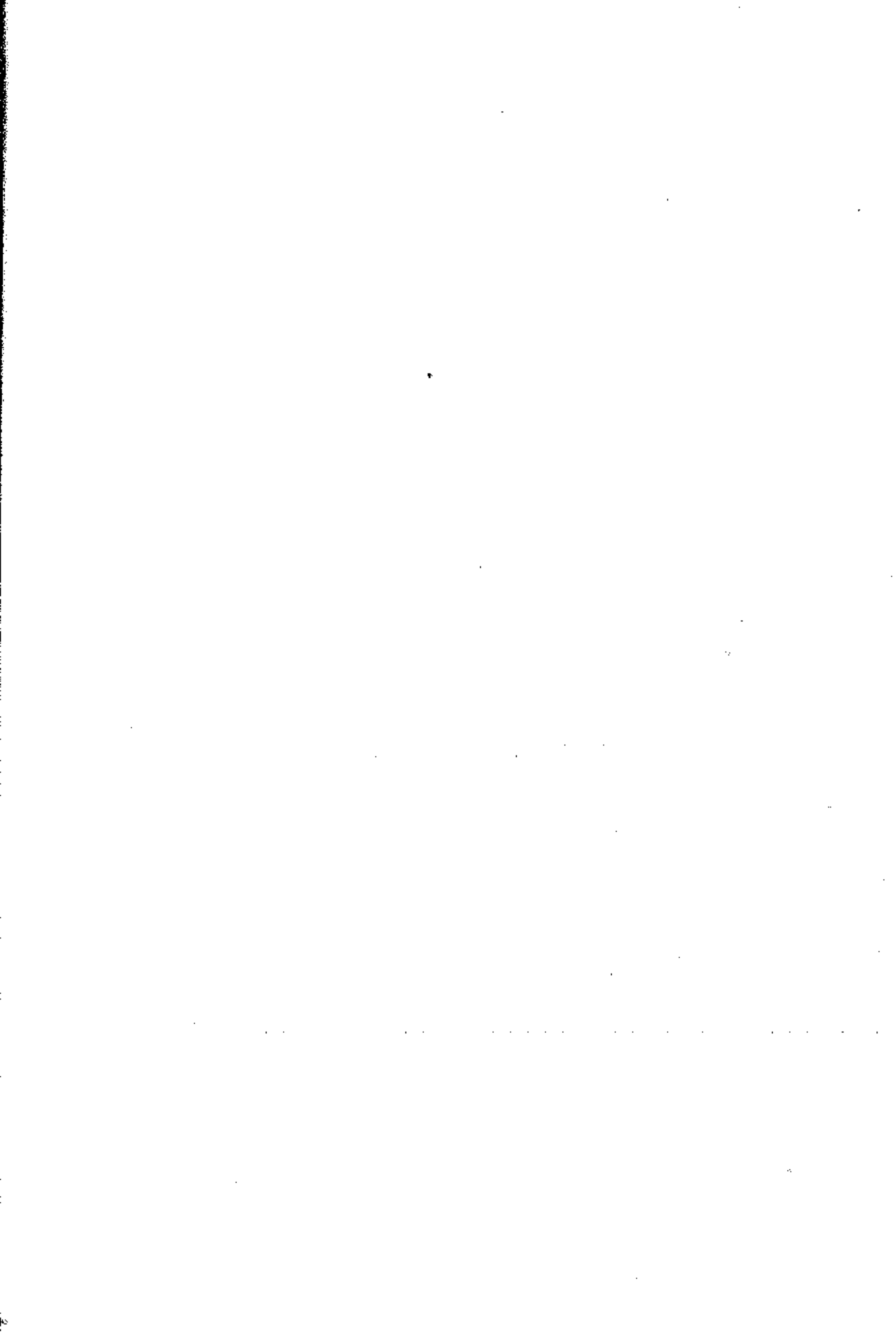
وتعال إلى الرجل الساكن الوقور الرزين الذى يملك زمام أعصابه ولا يدعه قط يفلت من يديه، وادن منه وهو بين الناس والطمه على خده لطمه قوية، ثم انظر ماذا يبقى من صقله وسكون طائره ووقاره ومن هذه القشرة التى كسته المدنية وزانته بها ؟

وأوجز فأقول إن الإنسان يرتد إلى طباعه الفطرية إذا أوجدته فى حالة تسمح لهذه الطباع بالظهور والتغلب على لجم المدينة مثل الجوع أو الغضب أو الألم أو الخطر على الحياة أو السكر. فليس الطفل وحده هو الذى يشهد أن الإنسان في الأصل لا كريم ولا ذو مروءة أو شهامة أو غير ذلك، وأنه إنما يكون كذلك اكتسابًا وبالدربة

والعادة وبفضل الرغبة والرهبة وغيرها مما يدفع إلى الحرص على المصلحة الذاتية ومن هنا كانت أهمية العناية بالطفل فما ترك طفل وشأنه بغير عناية وتوجيه إلا فسد وصار شريراً وامرء سوء. وهذه دليل آخر على أصل فطرة الإنسان. وليس معنى هذا أن أصل فطرة الإنسان سيئة، وإنما معناه أن عوامل ما نسميه الشر فى الدنيا أقوى وأشد إغراء، وأعظم استيلاء على النفس، وأن الخير مجعول لصحلة الجماعة ومصلحة الفرد ضمناً. وليس أقدر من الأطفال على التخيل. ترى الواحد من الأطفال يمشى القهقرى بحذر فلا تفهم، وتجده يحشر نفسه بين كرسيين ثقيلين ثم يعجز عن التخلص، ويضيق صدره فيصيح بك، أو يبكى فتنهض إليه وتسأله عن الخبر، فيقول لك إنه كان يدخل السيارة في الجراج فانحشرت وانكسر السلم، ويكون معنى هذا أنه عد نفسه سيارة واستولت عليه هذه الفكرة، فهى تستغرقة وتذهله عن كل شىء، فلو كلمته لما سمع، وتراه مرة أخرى يشير إلى الهواء ويكلم من لا وجود له ويدعوه أن ينزل، فلو كان رجلاً لظننته قد جن، ولكنه طفل يتصور أن فى الجو طيارة يحادث ربانها ويدعوه إلى النزول ليركب معه وهكذا .

وللطفولة أحزانها كما أن لها مباهجها ومسراتها، ولكن المزية أن الأحزان أوالهموم لا تكون إلا هموم هنيهة قصيرة تزول وتمحى، ولا يبقى لها ذكر متى عرض شاغل آخر. ويعيش المرء منا ما يعيش ويبلغ من العلم والعرفان والتجربة والفطنة ما يبلغ، ولكنه لا يستكبر أن يتمنى أن يرد على هذه الطفولة الذاهلة. فإذا كان للسعادة معنى أو كان لها فى الدنيا وجود، فهى فى عهد الطفولة ولا شك .

إبراهيم عبد القادر المازنى



الريـــف(١)

أرنى كلمـا فسـد الجو، وكثر تقلبه، وعز الاطمئنان إليه، أميل إلى الخروج إلى الصحراء أو الريف، ولا أطيق القعود في البيت؛ ولست أعرف لهذا المزاج – الشاذ فيما أعتقد – تعليلاً يسكن إليه العقل وتستريح إليه النفس. فأما أنه مزاج شاذ فأعرفه من صيـاح أهلي حين يرونني أرتدى ثيابى والمطر منهمـر، والريح تعصف، وأهم بالخروج؛ ولست أراهم يملون أن يقولوا لي: " يا شيخ، ما هذا الجنون؟ تخرج فى هذا المطر!! أما إن هذه لحكـاية! اقعد... اقعـد... نضـرم لك الفحـم ونشـوى "أبا فروة" أو نمص القصب ونحمد الله على وقاية الجدران" .

فأهز رأسي وأقول : ما أحلى هذا! ولكنى لا أطيق المكث هنا على حبى له بينكم، ولست أحب أن أفارقكم لحظة، وإنه ليعز علىّ ألا تأخذكم عيني في حيثما أكون، ولكن نفسى أمارة بالسوء، أو بالحماقة، أو بما شئتم غير ذلك. فإذا كنتم تحبونني فتعالوا معي... فإن الفضـاء رحيب، والصحراء واسعة، وهاتوا القصب معكم، وأبا فروة أيضاً... نضع هذا كله في السيارة ونمضى بها... قوموا" .

ولكنهم لا يفعلون، فأمضى وحدى وأعود بزكام أو برد، ولكنى أعود مستريح النفس هادئ الأعصاب! وقد كنت أقول لصديق لى منذ بضعة أيام، وهو من أصحاب العقول المثقفة، والنظر البعيد، والغوص الشديد :

"يا أخى لماذ لا يحب المصريون الريف؟"

قال : "وكيف لا يحبونه وهم لا يبرحونه؟"

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ١١ يناير ١٩٣٧ (ص ٤٩-٥٠) .

قلت : "إنما أعني أهل المدن – القاهرة مثلاً – قلما يخطر لهم أن يقضوا أيام البطالة والفراغ من العمل في رحله إلى الريف".

قال : "وأين تريد أن يذهبوا، وليس في الريف لغير أهله مذهب أو مقام؟"

قلت : "هذا هو سؤالي... لو كان الناس عندنا يحبون الريف، ويطيب لهم أن يقضوا فيه كل ما يسعهم أن يختلسوه من الوقت، لتغير حال الريف، وتكيف على مقتضى هذه الرغبة، وصار لغير أهله فيه مذهب ومقام" .

وقال : "ربما" وانقطع كلامنا في ذلك. ولكني لم أكف عن التفكير فيه. وقد أدرت عيني في شعوب البحر الأبيض، فإذا أكثرها كأهل مصر ليس لهم "غرام" أو "عشق" للريف أو ما يسمى الطبيعة فالروم والطليان والفرنسيون والأسبان كلهم على شاكلتنا: الحضرى منهم يبقى في المدينة ولا ينشد الريف أو يحن إليه؛ والريفي في قريته، يندر أن تنزع نفسه إلي تركها أو التطواف بعيداً عنها. ولا نكران أن هجرة أبناء هذه البلاد إلى الأقطار الأخرى غير قليلة، وفي مصر وحدها منهم عشرات الألوف أو مئاتها، ولكن الهجرة تجيء عن اضطرار لا عن رغبة، والباعث عليها الحاجة، فلا دخل لهذا فيما أقول عنهم من ضعف ولوعهم "بالطبيعة" .

وأكثر الأجانب هنا يتخذون مساكنهم في قلب المدينة ولا يبدعون بيوتهم عن أماكن عملهم بعداً يكلفهم مشقة أو يجشمهم عناء ونفقة، ما خلا الإنجليز، فإن الرجل منهم يكون عمله في شبرا، فيتخذ بيته في أطراف مصر الجديدة أو في الزمالك على النيل، أو في الجيزة على طريق الهرم، ولا يبالي ما يضيع من الوقت في الذهاب والإياب، ولا يحفل ما يكلفه هذا البعد من النفقة. وقلما يقضي يوم بطالة في بيته إلا إذا كان مريضاً. وليس بالنادر أن ترى الواحد منهم يحمل في سيارته خيمة وطعاماً وشراباً يكفيان أياماً وفراشاً أيضاً للنوم والجلوس، وأدوات للعب، ويذهب بذلك كله إلى السويس مثلاً، ولو شاء لأعفى نفسه من هذا العناء كله، فلن يعدم فندقاً يبيت فيه، ولكنه يضرب خيمته على ساحل البحر أو في الصحراء ويقضي أياماً ناعماً بالعزلة والوحدة وبما حوله من وجوه الأرض أو الماء، ويروح يمشي بضعة فراسخ في كل يوم...

وقد يكون وحده، فلا يشعر بوحــدة ولا تخطئــه سكينة النفس، وقد يكــون مـعـه غيره، فلا تراه – فيما يبدو لك – شاعراً بأنس يفتقـــده فى وحــدته، فكأن أنسه كله بالمحل لا بالرفقة.. ومن المتع التى يحرص عليها أن يكـــون له بيت أو كوخ – سيان عنده – فى مكان ريفى بعيد يذهب إليه كلما وسعه أن يخلو من مشاغل العمل. فهو فى هذا نسيج وحده. ولا يمنعه المطر أو الأعصار أن يخرج فى ثياب السهرة ليتعشى ويرقص ويحيى الليل على أسعد حال، ولا يقعده البرد فى بيته كما يقعدنا – حتى فى بلاده التى لا أعرف أسخف منها جواً، ولا أبعد عن الاعتدال، فهو هناك كعهدنا به هنا .

وأهل الشام على خلاف أهل مصر، فإنهم كثيرو الخروج إلى الرياض والبساتين؛ حتى "قهواتهم" أو "مقاهيهم" كما يريدوننـــا أن نسميها – قلما تكــون إلا فى بستان أو كما يقول ابن الرومى :

"فى" ميادين يخترقن بساتيـ ـن قس الرؤوس بالأهداب[٢]

ولا أعرف كما قلت تعليلاً لهذا الاختـلاف فى الطابع، وأحسب أن اعتدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالوجود ولا يغرى بغشيان غيره. ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس فى المدينة ما يزهده فيها، ويدفعه إلى الخروج منها، والتماس ما هو أخف محـملاً، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب؟ ومما يساعد على القناعة ويبعث على العقود أن التنوع مفقود، فالذى يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يخطئها فيها، والمناظر فى الريف واحدة أو متشابهه، فلا جبال هنـــاك ولا غابات ولا أحراج ولا غير ذلك مما يحـــرك الخيال فيحـرك النفس، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة ترجى. والريف من مصر قريب فهو معروف غير مجهول والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل، ولكن الانجليزى شأنه غير شأننا،

(٢) البيت فى الأصل "من ميادين إلخ" (المازنى) .

فإن جو بلاده دائم التقلب، وهو مع تقلبه السريع سخيف، غير مأمون؛ وقد يكون هذا مما يدفع الإنجليزى إلى اشتياق الريف، ويغريه بتصور سحره، ويبعثه على التماسه ونشدانه، حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه .

وأمم البحر بالأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج، وجوها أقرب إلى الاعتدال من جو الشمال، ومن هنا فيما أظن مشاكلتها لنا فى هذه الطبيعة، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر فى هذا .

ولا نكران أننا تغيرنا. فكثر بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن، ولكنا نفعل ذلك على سبيل التقليد، ومن قبيل المحاكاة، وبفضل التثقيف الحديث، والاتصال الوثيق بالغرب، لا بدافـع من الفطـرة وحافز من الطبيعة. ومثلنا فى هذا أمم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أمم الشمال كالإنجليز والإسكندرناويين والألمان، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طباع، وما هو بذاك .

إبراهيم عبد القادر المازنى

وفى الصيام[1]

(نص حديث أذيع فى الراديو فى يوم من رمضان)

لما شرعت فى إعداد هذا الحديث لم أجد فى رأسى شيئًا فاستغربت، فقد كنت أظن أن فيه كلامًا كثيرًا، وزاد عجبى علمي بأني لو وجدت من أكلمه فى تلك اللحظة واستطردنا في حديثنا إلى موضوع الصيام ورمضان لما عدمت كلامًا أقوله لجليسى، ولرأيت لساني لايكف عن الدوران إلا على سبيل المجاملة لصاحبى فأين يهرب الكلام يا ترى حين نحاول أن نقيده وندونه.. ولماذا يشق حين نتناول القلم، ويخف ويسهل حين يجرى به للسان بين الإخوان.. أهو الشعور بأن المرء يحاسب على المكتوب المذاع، ولايحاسب على مايقوله في المجالس.. ربما.. إن الذى أدريه هو أنى تناولت رأسي بين يدى وجسسته، ولو استطعت لقلبته وهززته كما يفعل المرء حين يشترى بطيخة، فلما لم أجد فيه شيئًا قلت لنفسي: "جاءك الموت يا تارك الصلاة .. وهل كان من الضرورى أن أختار هذا الموضوع الذى لا أجد عندى كلامًا فيه.. وتا لله ما أغرب الإنسان.. يعقد على نفسه الأمور ويزج بها في المآزق ثم يروح يصرخ ويستغيث، وهو الذى أوقع نفسه وحشرها فى المضايق.. وذلك لأن لسانه يسبق عقله، وغروره يهون عليه الأمر. والواقع أنى حين اخترت هذا الموضوع كنت أحس أن السحابة السابحة فى رأسى مثقلة بالماء، وكان يخيل إلىّ أنى لا احتاج إلى أكثر من أن أشير إليها بأصبعى، فإذا هى تسح وإذا الكلام يصطف وحده ويتراص على الورق، فلما آن أن أستمطرها إذا هى قد هراقت ماءها من زمان .

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٨ يناير سنة ١٩٣٧ (ص. ١-١١) .

والذى أعرفه عن الصيام أنه يكون فى أول عهد المرء به تجويعًا وحرمانًا . وأحسب أن هذا أول ما يعرفه عنه أى إنسان . ثم يترقى فى المعرفة فيصبح عنده عادة – كما يصبح كل شيء فى هذه الدنيا – عادة له وللناس يشق عليه أن يخالفها لطول ما جرى عليها، ويجبن عن الخروج عليها، أو على الأصح عن المجاهرة بالخروج عليها، وقد يدرك المرء – عاجلاً أو آجلاً – فى شبابه، أو فى كهولته، أن الصيام لا تجويع ولا حرمان، وأن القدرة عليه تصبح عادة، ولكنه هو رياضة .

وقد كان أول عهدى به وأنا صبى غير مكلف . ولم يكرهنى عليه أحد فقد نشأت فى ظل أهلى على الحرية التي لا تتجاوز حدودها الى التوقح وقلة الأدب . وإنما أكرهنى على الصيام أمران: أن كل من أرى حولي يصومون، وأنى لم أكن أجد طعاماً آكله .. ذلك أن رمضان عندنا، كما هو معروف، يقلب نظام البيوت، ويعكس آيتي الليل والنهار فيجعل الظهر صبحًا، والعصر ضحى، والمغرب ظهرًا، والليل نهارًا. ولا أدرى لماذا يحدث كل هذا، فإن تأخر وقت الطعام بضع ساعات لا يحوج إلى كل هذا الانقلاب، ولكن هذا هو الذى يكون ولا يكون سواه عندنا.. فترى الناس يقومون من نومهم قبيل الظهر، ويفتحون عيونهم على النهار البطيء، ويسألون عن الساعة كم بلغت فى دوراتها، فإذا سمعوا أنها قاربت الحادية عشرة خيل إليك من ترددهم بين استئناف النوم والقيام أنهم يحسبون الفجر لايزال باقيًا عليه نصف ساعة . ثم ينهضون – حين يفعلون – متثاقلين متثائبين مقطبين، كأن النوم والذهول عن الدنيا هما الحياة، صفر الوجوه كأنما صبغت فى نومهم بصبيب الزعفران والكركم، ويبدو لك من فتور نظراتهم أن الإنسان لا يعيش إلا فى انتظار الطعام ليس إلا، فإذا وثق أنه مبطئ عليه، ولو إلى حين معلوم، لم تعد الدنيا تستحق أن يفتح عليها عينه، ويشغل بقية النهار فى التفكير فيما يأكل حين يؤذن له فى ذلك، وفى ابتداع الألوان وإعداد العدة لسد هذا الفراغ المحلى الذى تفرغ الدنيا بسببه، وتفقد قيمتها من جرائه، وتزين المائدة وتصف عليها المشهيات من كل نوع، وتخرج الساعات من الجيوب، وتتعلق بعقاربها العيون، وترهف الآذان لصوت المدفع أو المؤذن، حتى إذا غابت الشمس سكنت الأصوات، وانقطعت الحركات إلا حركات الملاعق والسكاكين والأشواك،

وعادت المدينة أو القرية كأنها نائمة، وكأن هذا نصف الليل لا آخر النهار، فلو زحف جيش غريب في هذه اللحظة لما وجد فرداً يقاومه ويرد عاديته.. ثم تبدأ الحياة بعد ذلك يزخر عبابها وتصطخب أوانيها، وتعلو الأصوات وتنطلق الألسنة والأيدي والأرجل أيضاً .

وقد كان يسوءني من رمضان الجوع الذي أكابده والحيرة التي أعانيها، فأنا أصوم غير مأمور ولامكلف لأن الجو الذي أعيش فيه لا يسمح لي بالتفكير في غير الصيام، ولكن معدتي جديدة شديدة الإلحاح، لا تكف عن الطلب والصخب، ولا تعبأ بألف جو كالذي هو حولي، ولكني لا أجد ما آكل، وتحدثني نفسي أن أخرج إلى السوق وأشتري بعض القوت، غير أني أنظر في يدي فألقيها فارغة أو كالفارغة، فقد كان أهلنا يعطوننا الملاليم، ويحسبون أنهم يسرفون، ويحاسبوننا عليها آخر النهار ويسألوننا في أي شيء أضعناها، كأنما كنا نبعثر ثروات روكفلر وروتشلد، فليت أهلنا أولئك عاشوا إلى اليوم ليروا ماذا يأخذ منا أبناؤنا اليوم ولا يقنعون .

وكانت بقية من الصواب الذي يطيره الجوع تهمس في أذني أن ادخر ملاليمك إلى الليل، فإن ليالي رمضان أعياد للأطفال، وكنت أعرف أني سأحتاج إلى هذه الملاليم لأنفق منها على المصابيح والشموع والحلوى واللعب إلى آخر ذلك، وقد نأخذ الشموع من البيوت، ونقبض أثمان المصابيح ولكن الملاليم مع ذلك لازمة لأشياء أخرى كثيرة مما يُغري به الأطفال. وكان سبب آخر يدعوني إلى الضن بملاليمي على الطعام في النهار، ذلك أن روائح ذكية تفوح في البيت من الأكال الشهية التي يندر أن تصنع في غير رمضان من مثل القطائف والكنافة ومايجري هذا المجرى، وليس بطفل من لا يؤثر هذه الأطعمة على كل ما عداها. ولا أدري لماذا ينفرد رمضان دون بقية الشهور بهذه الألوان، ولكن هذا هو الواقع، وقد تصنع في غير رمضان، ولكن الناس لا يواظبون عليها، ولا يستكثرون منها كما يفعلون في رمضان. وعلى كثرة الأكال في شهر الصيام ووفرتها، كان أول ما وقع في نفسي منه أنه شهر حرمان، لأن سلوك الناس فيه – وأعني الناس الذين يكبروننا في السن – لا يدع محلاً لغير هذا الرأي. بل كان رمضان يشعرني بالحرمان في بقية شهور السنة لا من الطعام فإن الأكل أقل

ما يعني به الطفل. والطفل كل شيء يسد رمقه، وأيسر ما يجده يكفيه، وهو يستوى عنده الديك الرومي والجبن الرومي، بل لعل الجبن أحلى عنده وأشهى إليه، ولكن رمضان فيه معنى الوفرة والكثرة، وفيه يكون السهر والأنس، والنور والبهجة، والتسامح والأفضال والكرم، وهذا ما لا تجده - أو ما يندر أن تجده - في غير رمضان . وقد كان يسرنى من هذا الشهر أنه شهر الضجة المباحة في الليل، واللعب بلا زاجر أو كابح، والسهر والتسلي بلا مانع أو ضابط .

وكان البنات الصغيرات مثلنا يخرجن أسرابًا فى أزهى ثيابهن، وبعضهن يحملن على أيديهن أطباقًا فيها ما يسمينه " على لوز" ويمشين وهن يغنين، فتغلبنا روح الفروسيه الكامنة فى نفوس الرجال، ونترك ما نكون فيه من اللعب ونجعل من أنفسنا لهن حرسًا ونمضى معهن، ونحن حافون بهن إلى حيث يشأن أن يعرضن بضاعتهن التي في الأطباق إلا حين يدخلن البيوت ليبعن مما معهن، أو ليسلمن على أهلهن أو معارفهن، أو ليجئن بمدد من أترابهن، فقد كنا نصطف على الأبواب في انتظار خروجهن، وقد يسأم بعضنا طول الانتظار أو تفتر فى نفسه روح الفروسية، فيتخلى عن واجبه، ويكر إلى ما كان فيه من اللعب، ويبقى الآخرون أمناء ثابتين فى مواقفهم، حتى يخرج عليهم السرب المتدافع بوجوهه النضرة المشرقة، وعيونه الضاحكة المتلألئة، وثغوره المفترة، وشعوره المتهدلة، وثيابه الزاهية . وعلى صغرى لم يسعنى إلا أن ألاحظ أن هؤلاء الصغيرات كان يسرهن أن نكون معهن لحمايتهن وإيناسهن وأن ضجتهن تكون عالية، وضحكاتهن مجلجلة، وغنائهن غير منقطع حين نكون نحن الصغار أيضًا معهن، فإذا لم نكن معهن صارت أصواتهن خفيضة، وكلامهن همسًا ووشوشة، ويسرن متلاصقات حتى ليتعذر أن تميز جسم التي يبدو لك وجهها منهن، فهن عدة رؤوس على أجسام متلاحمة غير متميزة .

ومن أمتع ما كنت ألاحظ في طفولتي كثرة السهو عند الصائمين، وشدة الذهول أحيانًا، والأطفال دقيقو الملاحظة، وإن كان الكبار يحسبونهم عميًا صمًا لا يرون ولا يسمعون، وأحسب أن الكبار لايعنون بأن يراجعوا كتاب طفولتهم، وأكثر الناس يعدون هذا الكتاب - كتاب الطفولة - غير جدير بالمراجعة، وهؤلاء قلما يفهمون الطفولة،

أو يدركون حاجاتها ومسراتها وأحزانها، ولكني أنا معني بنفسي، وعيني لا تزال تدير نظرها بقلبي، وتجيل لحظها فيما مضى من حياتي. وقد كان يسرني في رمضان أن أرى الصائمين يعظم سهوهم، ويكثر نسيانهم ولا أدري لماذا. وما أظن الجوع وحده هو الذي يصنع ذلك، ولعل السبب أنهم في رمضان يكونون في نضال مع نفوسهم، وكفاح مستمر لأهوائهم، ومقاومة دائمة لرغائبهم، وشغل لا يفتر ولا ينقطع بهذا العراك الناشب بين عاداتهم وبين الحرمان منها دفعة واحدة بلا تمهيد أو تدرج . ولكني في صباي لم أكن أدرك هذا أو أفكر فيه، وإنما كنت أرى وأضحك وأقهقه، وكان لنا جار طرابيشي لم أر أشد منه سهواً في حياتي ومما أذكره من حوادث سهوه وأضحك منه إلى اليوم أنه نودي مرة من تحت الشباك، وكان المنادي ملحاحاً عظيم اللجاجة، وكان هو نائما فاستيقظ على الصوت الصارخ الملحف وأطل من النافذة . فأهاب به صاحبه أن ينزل بسرعة فقال: "حاضر.. حالاً.. حالاً..". وتناول طربوشًا فوضعه على رأسه، ثم نسي أنه لبسه، وكان يهم بالخروج من الغرفة، فأخذت عينه طربوشًا آخر فخيل إليه أنه نسي الطربوش فوضع الطربوش الثاني على الأول وانحدر مسرعًا؛ فلما بلغ باب البيت ارتد مسرعًا فصاح به صاحبه: "تعال.. تعال.. ". فرد عليه الطرابيشي بصوت عال: " حالاً حالاً.. بس نسيت الطربوش". نسي الطربوش وعلى رأسه طربوشان ..

وكانت لي عمة يورثها الصيام ذهولاً عجيبًا، وكانت إلى هذا كبيرة السن، ولكن الطفولة لا رحمة فيها ولاشفقة. وهي – أي الطفولة لا عمتي بالطبع كما لاأحتاج أن أقول – الدليل على أن الإنسان لا فاضل ولا كريم ولا شريف ولا على شيء من الخير في الأصل، وإنما يكون كذلك بالعادة والتنشئة وبقوة العرف وبالقوانين والشرائع الزاجرة وما الى ذلك.. ولكن هذا موضوع آخر بعيد جدا عما نحن فيه الآن وقد تتاح لي فرصة أخرى فأخوض فيه معكم. وأرجع إلى عمتي إذا سمحتم فأقول إن ذهولها كان مظهره أنك إذا جلست إلى جانبها وهمست بكلمة ما – أي كلمة – أدخلتها هي في كلامها غلطًا، فمثلا كنت أجلس إلى جانبها وأقول بصوت خفيض جداً هكذا: "مضروبة.. مضروبة.. مضروبة.." ويخطر لها هي أن تنادي أمي مثلاً في هذه اللحظة فتقول – هذا على سبيل المثال بالطبع – : "يا مضروبة على عينك يا ست أم فلان".

أو يتفق أن تكون فى حديث مع خالها - وكان حيًا فى ذلك الوقت ولا احتاج أن أقول أنه كان طاعنًا فى السن - فأُسر إليها هذه الكلمة بالصوت الخافت: "كذاب.. كذاب.. كذاب.." فما يكون منها إلا أن تقول له: "يا خالى الشيخ [يا] كذاب". فأموت أنا من الضحك، ويحدق الشيخ الوقور فى وجهها مذهولاً من هذا الاجتراء عليه، وتنهرنى أمى وهى تكاتم الضحك وتغالبه، فاقوم أجرى وأنا أتعثر كل بضع خطوات من شدة الضحك .

وكثيرًا ما كنت أرى الناس - أعنى الكبار منهم - يغلطون - أو لعلهم يتظاهرون بالغلط - فيأكلون ثم يتنبهون - بعد أن يبلعوا ما فى أفواههم - ويقولون اللهم إنى صائم أو كلامًا كهذا، وكنت أضحك فى أول الأمر منهم، وأصيح بهم كما يفعل الصبيان حين يرون الكبير يغلط، ولكنى تعلمت منهم السهو على الأيام والمعايشة تعدى، وسرت إلى عدوى الذهول فكان كثيرًا ما يتفق أن أنسى أنى صائم فآكل، ثم أتذكر فأتأسف وأقول اللهم عفوك لقد نسيت وانى لصائم والأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى وقد نويت الصيامَ من قبل الفجر وكل من فى البيت يشهد. وأحمد الله وأروح انتظر الفطور مطمئنًا هادىء النفس أو هادىء المعدة على الأصح .

وقد تغيرت الدنيا الآن - ذهبت تلك الحارات القديمة المظلمة التى لا يضيئها إلا بضعة مصابيح معلقة على أبواب من يعنون بالإضاءة ولا يبخلون بما تكلفهم من البترول، ولا يغالطون الحكومة فيطفئون المصباح ويزعمون أن الريح هى التى أطفأته . وانهدمت تلك الدور العتيقة ذات الأفنية الرحيبة والمناظر العديدة، وكانت هذه الحارات الضيقة الملتوية والأفنية والساحات الواسعة هى ملاعب الأطفال. والآن اتسعت الشوارع وارتفعت المبانى الضخمة والعمائر الشامخة التى تسع الواحدة منها أكثر مما كان يسع شارع قديم طويل فى الزمن الغابر، وضاقت بهذه السعه دنيا الأطفال، فإن الشقق لا تصلح للعب، والجيران من كل جنس وملة، وقل أن يعرف الساكن جاره المصاقب، والشوارع خطرة لفرط ما فيها من الحركة التى لا تكاد تنقطع فى ليل أو نهار، ومطالب الحياة نفسها صارت ألح وأدعى للعجلة وأنفى للراحة والفراغ، فضاق حتى وقت الأطفال عن اللعب، وفقد رمضان تلك البهجة القديمة التى كان يجدها الأطفال والفرحة التى كان يدخل بها على قلوبهم الصغيرة .

وشبيت عن الطوق - كما كان لابد أن يحدث مع الأسف ما دمت قد حييت وبقيت في الدنيا التى لا يبقى فيها شيء على حال - وصار الصيام عندى كما يصير عند الأكثرين عادة لا أقل ولا أكثر، وكنت أشعر فى صدر شبابى أنى خسرت روح الطفولة ولم أعتض منها حكمة الرجولة أو علمها وتجربتها وحنكتها وسداد نظرها، وذلك شيء لا يستفاد من المدارس، ولا يكتسب من الكتب، ولو كان إليه سبيل من هذه الطرق لفزت منه بالحظ الأجزل والنصيب الأوفر، فقد كنت شرهًا نهمًا أقرأ كل ما تصل إليه يدى وتسمح لى مواردى بالحصول عليه، ولكن كثرة القراءة بلا مرشد وسعة التحصيل بغير هاد مسدد كان من نتائجها أن قُمعت فى تفسى روح الطفولة قبل الأوان وأن تخطيت عهد الشباب ووثبت إلى الكهولة دفعة واحدة، حتى لكنت أحس - بلا مبالغة - أن نفسى شابت، وكنت أستثقل الحياة وأستهول طول مدتها، وأستبطيء الأجل وأشعر أن الدهر عمرى وأنى أخو نوح وأنى أحمل عبئًا - بل جبلاً -من السنين الثقال، وسر هذا كله أنى وثبت من الطفولة قبل أن أستوفى حظى منها إلى الكهولة النفسية، من غير أن أذوق طعم الشباب لأن بلادنا - بل الشرق كله مع الأسف - ليس فيها مجال كاف لحياة الطفولة وعهد الشباب - شباب النفس لا شباب الجسم فما لى بهذا شأن هنا - ومن أجل ذلك ترونني - إذا كنتم ترونني - أستعيد - ولا أقول أحاول فإنى أستعيد فعلاً- فى كهولتى الحاضرة هذا الشباب المفقود الذى رزئته وفجعت فيه، فما يليق أن أخرج من هذه الدنيا - حين أخرج بعد عمر طويل جداً إن شاء الله - وما عرفت هذا الشباب .

وأعود إلى رمضان والصيام فيه فأقول إنه لم يرضنى أن أجرى على حكم عادة قديمة، وأن أصوم لأن هذا هو الذى يصنعه كل الناس فى هذا الشهر، وقلت لنفسى إذا كان الأمر عادة ليس إلا فإنى لا أحب أن أعتادها، وبدا لى أن المسألة ليست مسألة جوع إلى وقت معلوم، وأكل فى ساعة معينة، فسألت طبيبًا فقال إنه يفيد الصحة إذا خففت واجتنبت هذا الإثقال الذى يقع فيه الناس فى رمضان، وزاد فقال إن الصيام راحة وإعفاء وتنقية وتطهير - أو كلامًا كهذا فإنى أخشى أن يعترض الأطباء على سوء التعبير، وكان هذا الجواب صوابًا بلا شك، ولكنه لم يكفنى فقلت

لنفسي مرة وما الحاجة إلى سؤال الأطباء.. إن الصيام يدعو إلى مخالفة العادة التي جرى عليها المرء طول السنة في كل شيء، وهو يكلف الإنسان نقض عاداته جميعًا لا يومًا ولا مرة بل ثلاثين يومًا متتابعه ومن الواضح جدًا أن هذه رياضة، وهل الرياضة – بإيجاز – إلا أن تحمل نفسك على ما لم تألف.. انتهينا إذن ولا داعي للبحث والتفكير ووجع الدماغ والفلسفة الفارغة أم لابد أن تكسو البسيط ثوب المعقد ..

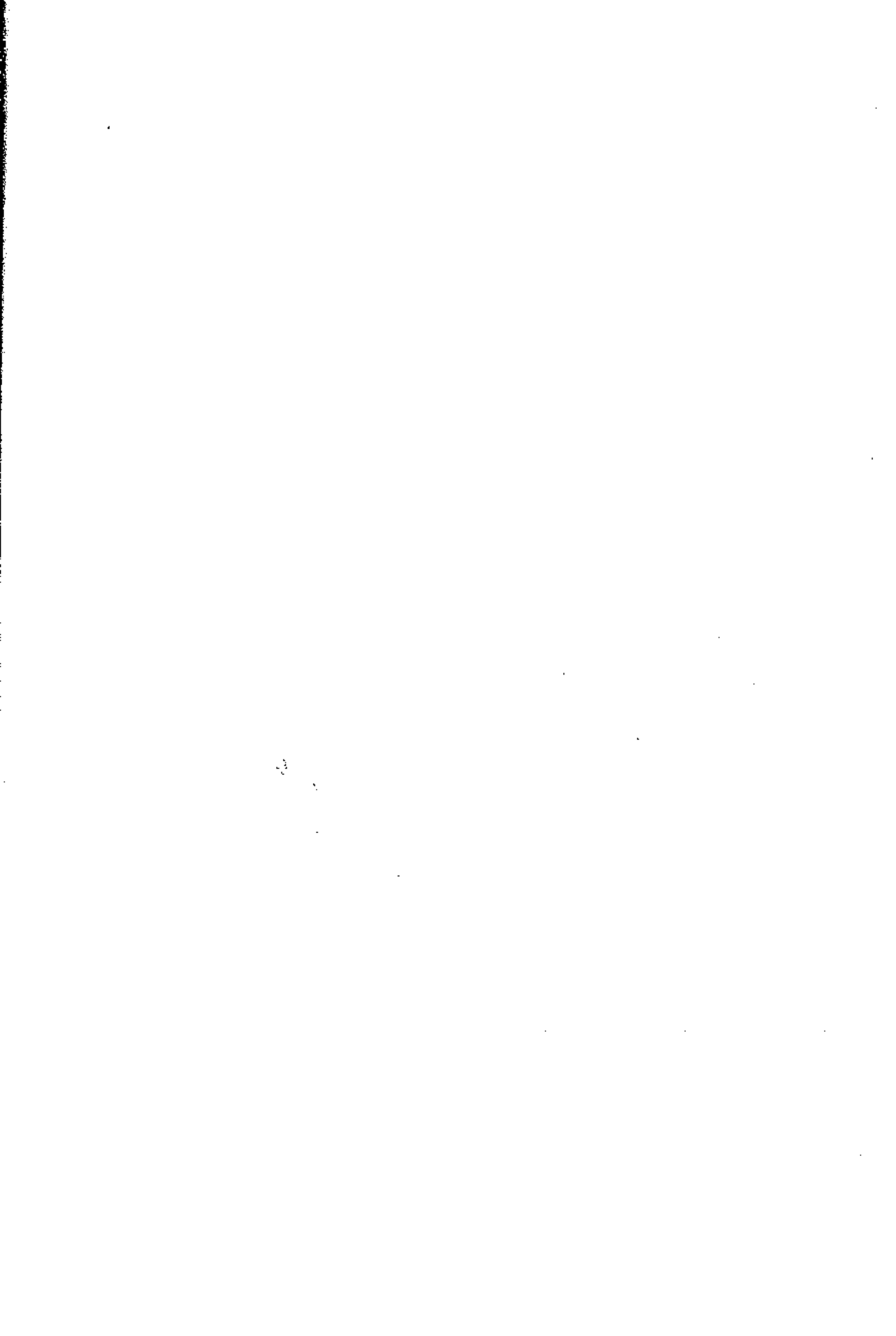
فخلاصة الصيام هو فعل ما يجب لا فعل مايروق. والإنسان الذي لا يستطيع أن يفعل ما يجب حين يجب لا يكون إنسانًا، وأي خير فيمن لايستطيع أن يفعل إلا ما يعجبه ويروقه ويطلبه ويخف عليه ولايتعبه أو يكلفه عناء.. ومن ذا الذي يعجز عن ذلك.. فالصيام من هذه الناحية رياضة وتربية تتكرر بعد فترات طويلة يفتر أثرها في خلالها فيحتاج الأمر إلى اعادتها وتكريرها، والتربية هنا شاملة للنفس والجسم جميعًا وهذا عندي خير ما في الصيام، ولهذا يوافقني لأني رجل مولع بتربية نفسي ورياضتها حتى ليخيل إليَّ أن نفسي تعتقد أني خصم لها وعدو رميت به .

ولاتخشوا أن أحدثكم عن حكمة الصيام؛ فإني لست من أهل الحكمة، ولو كنت منهم لما صرت إلى ما صرت إليه، ولا تخافوا أن أقول لكم كلامًا فيما يدفع إليه الصيام من البر والإحسان، وما يحركه في النفس من روح العطف، فإن هذا شيء لا أحسن أن أقوله إذا صح أني أحسن شيئًا، ثم إني عطوف بطبيعتي، رقيق القلب بفطرتي، والذي في يدي ليس لي، ولست أعني أنه مسروق أو مقترض، فما سرقت في حياتي إلا مرة أو مرتين: مرة في طفولتي، ومرة في شبابي، وفي كلتا المرتين رددت والله ما سرقت، وصدقوا أو لا تصدقوا فقد مضى وقت كاف، فسقطت الجريمة على كل حال. وأما الأقتراض فإني أقول مع الأسف أن إخواني عرفوا أن من مبادئي التي لا أتساهل فيها أو أتسامح أن الذي يقرض إنسانًا غيره يكون عبيطًا، ولكن أعبط منه الذي يرد ما اقترض، ومذ عرف إخواني هذا سُد الباب في وجهي. ولكني أعني بقولي أن ما في يدي ليس لي أني كريم جواد حتى لكأني من أولياء الله الصالحين الذين يقال إنهم ينفقون مما يجدونه دائمًا تحت السجادة. فلو أن كل ما في الصيام أنه يغري بالعطف والكرم والبر بالفقراء والمعوذين لما كانت بي حاجة إليه ولكان الصيام زيادة لا ضرورة إليها .

وأنا فى رمضان أكون أجوع خلق الله لأنى لا أستطيع أن آكل فى النهار كما هو معلوم، ويزين لى شيطان الجوع أن أغافل أهل البيت وآكل شيئًا، ولكنى أعود فأقول ياشيخ اختشى.. عيب.. أين الإرادة التى ربيتها.. أين رياضة النفس هذا العمر كله.. ماذا صنع الله بها.. ويصبر الأطفال والنساء – أو على الأقل أراهم يتصبرون فما أرى ما يفعلون خفية – ولا تصبر أنت".

وينطلق المدفع فأرى المائدة مزدانة بكل شهى – ومن كان لا يصدق فليتفضل، وإن كنت أخشى أن أحتاج إلى البوليس بعد هذه الدعوة – ولكن طول الجوع يكون قد فتر رغبتى فى الطعام فلا أتناول منه إلا بقدر. أما السحور فلا أمل فيه، لأن النوم عندى أحلى من الطعام، ومبدئى أن كل نومة وتمطيطة أحسن من فرح طيطة.. فأنا لا آكل فى الأربع والعشرين ساعة إلا ربع أكلة من أكلاتى العادية فى غير هذا الشهر الكريم ولهذا ترونني فيه أبداً.. جوعان..

إبراهيم عبد القادر المازنى



فى الحب أيضا[1]

أرجو ألا يتوهم أحد أن هذا حديث فى فلسفة الحب فإنه لا قدرة لى على الفلسفة. وقد فقدت إيمانى بها منذ خذلتنى وخيبت أملى وعجزت عن أن تفسر لى شيئًا مما يحيرنى فى هذه الحياة. وقد قرأت كثيرًا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمى، غير أنى لم أقتنع به ولم استرح إليه. ومن سوء الحظ - حظى أنا بالطبع كما لاأحتاج أن أنبه - أنه ليس لى فى هذا الباب تجربة تستحق الذكر حتى كنت أعرض ما يقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت وأرى إلى أى حد أصابوا ووفقوا. ولست أكتمكم أنى عاجز عن هذا الحب. وعسى أن أكون واهمًا لا عاجزًا. ولكنى ما قرأت قط شعر العشاق وما قالوه فى الصبابة والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوالج والإحساسات فى القرب والبعد، والإقبال والصد، والمواتاة والحرمان، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسى - حين أخلو بها - " اسمحى لى يا نفس أن أقول إنك - ولا مؤاخذة - بليدة، فتسألنى لماذا؟ فأقول "لأنى لا أراك تحسين شيئًا من هذا الذى أجمع على وجوب الإحساس به الشعراء والناس قاطبة. فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون؟" ولا أحتاج أن أقول أنى لا أخرج من هذا الحوار الذى يدور بينى وبين نفسى بشىء آنس به وأستريح إليه. فإنها تصر على أن الناس مبالغون وأصر أنا على منطق "قرقوش" المشهور. فقد قالوا إن ناسًا كثيرين وضعوا رجلاً من الأحياء فى نعش وحملوه فيه كالميت. فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجداً وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة، فأطرق قرقوش قليلاً، وفتل شعرات من لحيته، ثم رفع رأسه ونظر إليه

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٧ (ص٢٨٢-٢٨٤) .

وإلى الناس وقال: "أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله؟". وكذلك أنا مع نفسي لا يعقل عندي أن تكون هي وحدها على صواب، وكل هذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة، أو مبالغة .

ولا أنكر أن نفسي كانت تتحرك أحيانًا، فأشجعها مسرورًا، وأستحثها فرحًا بيقظتها بعد طول السبات، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلقي من فرط شدتها. فأفهق وتعود فتهوى به إلى قريب من حذائي، كأنما هذا ليس قلبًا وإنما ركب لي الله سبحانه في مكانه لعبة من لعب "اليويو" التي شاعت في الزمان الأخير. وأحيانًا أشعر بأن حولي فراغًا وأحس شيئًا من اللهفة وقليلاً من الشوق، ولكنه شوق هادئ ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشقى بها القلب ولا يسود من جرائها العيش. وشبيه بذلك أن يشتهي الإنسان أن يرى شريطًا من أشرطة السينما سمع عنه ثناء أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضًا كبيرًا في بلد ناء. ولا أظن أن هذا يعد حبًا بالمعنى القديم أو الحديث .

وللسامع العذر إذا تساءل : "كيف إذن كنت تقول الشعر في شبابك، وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته، وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع الى آخر ذلك، والسؤال طبيعي ولكن الجواب عنه حاضر، ولولا عادة الصدق التي اكتسبتها في الأيام الأخيرة لعز الجواب. والجواب يعرفه القراء فقد سقته في فصل سابق عن الحب نشرته لي "الرسالة" وخلاصته أنى أوحيت الحب إلى نفسي .

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك، ولكني أقول أن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الإيحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعرف. ولو خلت الكتب مما نقرأه في وصف الحب وأثره في النفس وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبًا لا يخرج بالنفس عن الاتزان لصار الحب هادئًا فاترًا كالصداقة. وأحسب أن الفرق بيني وبين غيري ليس هو أني شاذ وهم طبيعيون. بل إني تأثرت بإيحاء الجماعة وإيحاء الكتب، وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته. وأن الأكثرين يتأثرون على هذا النحو تمامًا،

ولكنهم لا يدركون أن فى الأمر إيحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه. والحياة تقوم - كما لا أحتاج أن أبين - على الإيحاء، وكل امرئ يوحى إلى كل امرىء آخر ويستوحى منه، بل نحن نستوحى الأشياء كما نتلقى الإيحاء من الناس.

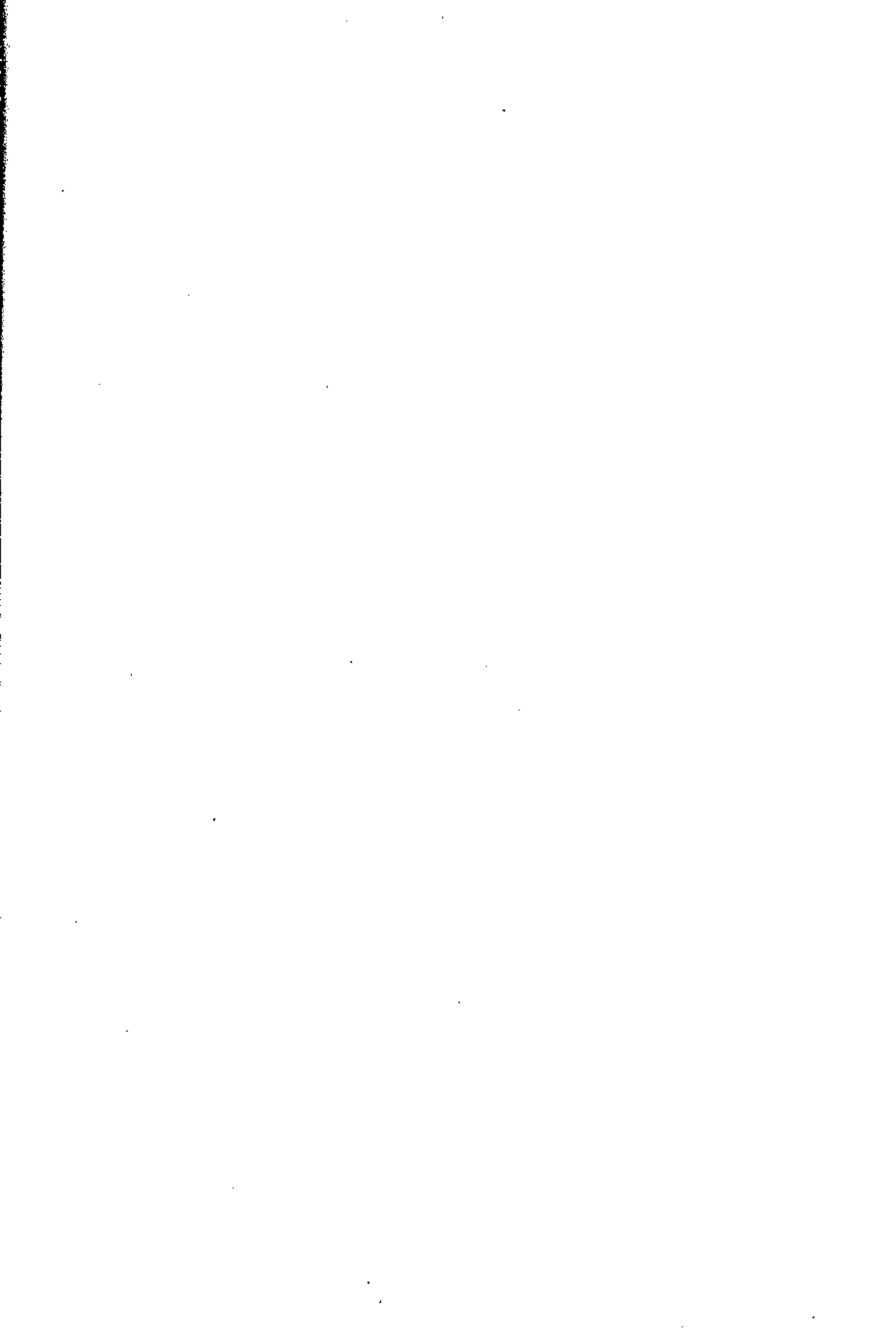
ويخيل إلى أن الحب اسمه غلط، فإنه يبدو لى أن هذه العاطفة التى نسميها الحب خاليه فى الحقيقة من الحب، والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مودة. وهذا كلام قد يبدو متناقضًا ولكنى أظنه صحيحًا، ذلك أن الحب ضرب من الجوع؛ ولا تقولوا إنه جوع معنوى فإن هذا يكون تخريفًا، إذ ليس ثم فيما يتعلق بالإنسان أو الحياة شىء معنوى. والإنسان مادة وكل مافى الحياة من المادة وإلى المادة، فلندع هذه الخيالات ولنجتزئ بالحقائق فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل. والمرء يجوع فيشتهى الطعام أى يطلبه، لا لأنه يحب الطعام فى ذاته، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة، بل ليسد الحاجة التى يشعر بها ويقضى الرغبة التى تلح به ولايستطيع أن يهدئها بغير الأكل. وكذلك يجوع جوعًا من ضرب آخر - جوعًا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعية فى النسل إطاعة لغريزة حفظ النوع، كما يطلب بالأكل إطاعة لغريزة المحافظة على الذات. وكما لا يقال إن بين الأكل والمأكول مودة، كذلك لا ينبغى أن يقال أن بين المحبين مودة. إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة فى الالتهام أو الاستحواز إطاعة للغريزة لا عن مودة. والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين، لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة؛ وهما لا يستعملان سلاحًا ولا يحدثان جراحًا، ولكن الواقع أن القبل والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين - كل ذلك ليس إلا وسائل للتليين بغية التغلب. وقد استعمل الشعراء ألفاظا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لايشعرون، فذكروا فى مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل. والحقيقة هى أن الحب حرب واقتتال وفتك، وغايته - وهى النسل - تنطوى على تعرض للتضحية الكبرى على الأقل من جانب المرأة - وسبيله الإخضاع. فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجىء

بالنسل الذى جعلتها الطبيعة أداة له. والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذى يطلبه بغريزته. والحال بينهما دائر أبدًا على الكفاح. وفى كل شعر صادق – قديم أو حديث – لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلى لها .

والحب يتخذ الصورة التى يؤدى إليها التفاعل بين عاملين: الأول وهو الدافع الغريزى للإنسان، والثانى هو مقاومة الجماعة، وهى مقاومة مرجعها إلى العرف والدين وما يجرى هذا المجرى. وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهم من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة. وقد كان التحرج شديداً فى الجيل الماضى من ذكر الحب والاعتراف به أو المجاهرة به، لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يستهان به، وكانت الجماعه تنزع إلى الاحتشام. وكانت قاعدة الحياه من هذه الناحية المثل المشهور "إذا بليتم فاستتروا" فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم القانون بل بقضاء العرف، وكان الشبان مثلاً يستحيون أن يجلسوا فى القهوات، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهينات، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا، وزلزلت قواعد الحياه فيها، وانتشر التعليم، وشاع الاطلاع على الآراء الحديثة فى الأمور الجنسية، وهدمت الهبة القومية المصرية حواجز كثيرة وفى جملتها ما كان يفصل الجنسين ويفرق بينهما، وصار الناس – شيئًا فشيئًا – يلهجون بذكر الحب ويتناولونه فى مجالسهم وفى كتاباتهم تناولاً هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمى، ولم يعد الشبان – بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون فى الأمر موجبًا للحماسة أو داعيًا للخجل أو باعثًا على الاستحياء. وجاء التطور الاجتماعى ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادمًا لحاجز منيع بين الرجل والمرأة. وفى الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها؛ فإذا لم تكن ثم ثمرة فأين الشجرة؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه فى سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر. ومن أخطار الحرية فى بادئ الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التى تقابل الحقوق. والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب

الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة. وبذلك فقد الحب الهالة التى كانت حوله وسلب القداسة القديمة، وصار على الأيام أمراً عادياً، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية، لأن وطأة العرف والتقاليد ضعفت وخفت جداً حتى ليمكن أن يقال أنها غير محسوسة فى الأغلب والأعم. وفى مثل هذه الأحوال التى يعظم فيها الترخص والتسامح يندر الحب القوى العميق الطويل العمر، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر فى ركود الشعر إلى حد كبير فى هذه الفترة من حياتنا الأدبية .

إبراهيم عبد القادر المازنى



الطين الضعيف[1]

سألني صديق عن شيء لماذا أفعله أو أتركه – فقد نسيت – فكان مما أذكر أني قلته له إني أعيش الآن كما أحب لا كما يجب، فقد جاوزت الأربعين، والذي بقي لي من العمر ستفسده الشيخوخة المتهدمة لا محالة حين ترتفع بي السن فلا يبقى لي حينئذ من لذة الحياة إلا الوجود بمجرده لو أن هذا يفيد متعة، فمن حقي في هذه الفترة – التي أرجو أن تطول قبل أن يدركني الذوي والذبول – أن أعتصر من الحياة كل ما يدخل في الطوق اعتصاره من المتع واللذاذات، فأنا أقرأ ما أشتهي، وأذهب إلى حيث أريد، وأجالس من آنس به، ولا أبالي مَن غضب ممن رضي، فما في الحياة فسحة لمبالاة ذلك، وأطلق نفسي على السجية كلما وسعني ذلك، وليس للناس عليَّ أكثر من أن أؤدي واجباتي فيما عدا هذا.

ودخل عليَّ وأنا أقول هذا لصديقي شاب مهذب فحيا وقال إنه يقرأ الآن ديواني، ففزعت ولكني ابتسمت له وقلت: "كان الله في عونك، ومن الذي ابتلاك به.." .

فأهمل السؤال وجوابه وأقبل عليَّ يسألني : "إنك تكتب بسرعة" فقلت: "إن الذي أعرفه أني أكتب في غرفة تحيط بها جدران من الحجارة لا تنفذ العين منها على خلاف ما كان يصنع ديماس الذي كان يكتب على ما يقال في دكان فيجيء الناس وينظرون إليه من وراء الزجاج.. أريد أن أعرف يا صاحبي ماذا تعني بالسرعة" .

قال : "أعني أنك تكتب إلى مجلات كذا وكذا وكذا.. وتكتب في صحيفة يومية أيضًا.. هذا كثير .. فمتى تستطيع أن تكتب كل ذلك .. إنه نشاط عجيب.." .

---

(١) نشرت في مجلة "الرسالة" في ٨ مارس سنة ١٩٣٧ (ص ٣٦٣-٣٦٥) .

فقلت : "جواب السؤال أني أكتب وأنا نائم، فالذى تقرأه لى هو أضغاث أحلامي.. وأما النشاط يا صاحبى فذاك أني مازلت في شبابي" .

فتركني وهو يقول إنه يدرس ما أكتب وإنه ينوى أن ينشر بحثًا، فاستعذت بالله وحاولت أن أصرفه عن هذا العناء الباطل فما أفلحت، فتوجهت إلى الله عسى أن يصرف عني هذا السوء بطريقة ما.. وهل كثير على الله أن يشاء أن تشب النار في كتبي التى عند هذا الشاب، أو تنقلب الدواة كلما هَمَّ بالكتابة، أو تجمد أصابعه أو يحدث له غير ذلك من أسباب التعويق والتعطيل ؟

وانفض هذا المجلس، ولكن خاطرًا ثقيلاً ألح عليَّ وظل يدور في نفسي، ذلك أن كل من ألقاهم من إخواني يذكرون هذا النشاط، ولا يكتمون تعجبهم. فلم يسعني إلا أن أتعجب مثلهم وإلا أن أسائل نفسي: "أكان هذا يبدو لهم منى مستغربًا لو أنهم كانوا يرونني شابًا في العشرين من عمرى مثلاً؟ أتراهم يستغربون لأني في ظنهم خلفت شبابي ورائي فالمنتظر من مثلي في اعتقادهم هو الفتور.." ولم يعجبني هذا التأويل فإنه ثقيل على النفس، وآثرت أن أقول إنهم هم معدومو النشاط ولذلك يتعجبون لي ثم إنيَ لا أحس إلا أني مازلت شابًا، والعبرة بالإحساس لا بهذه الشعرات البيضاء التي يقول ابن الرومي إنها تزيد ولا تبيد فهي مثل نار الحريق.. وما قيمة هذه الشعرات.. لقد ابيضت وأنا في العشرين من عمرى، وكنت يومئذ بها فرحًا مزهوًا، كنت أعدها مظهرًا للرجولة ومدعاة للاحترام، فماذا حدث حتى صرت أبغضها.. أو لا أبغضها وإنما أنظر إليها في المرآة فأزوم، وتقول شفتاى "هممممم". ثم إنى أرانى أجلد من أبناء العشرين. وأصبر على العناء والجهد، وأقدر على العمل والحركة. وأحسن تلقيا للحياة. وأسرع استجابة لدواعيها. فما قيمة هذا الذى تطالعنى به المرايا؟. وما حاجتى أنا إلى المرايا؟. ومتى كنت أنظر فيها حتى أنظر فيها اليوم؟. كلا.. إن أمامي بإذن الله حياة طويلة، وليست الحياة أن أظل باقيًا في الدنيا والسلام، وإنما هي أن أظل قادرًا على العمل وكفوًا للأعباء. وهذا ما أعتقد أنه سيكون شأني فما أشعر بدبيب الفتور ولا أرى أية علامة على ابتداء النضوب .

وضحكت وأنا أقول ذلك، فقد تذكرت أنى قلت مرة لصاحب كان يحدثنى [illegible]ذا الموضوع أو يسألنى على الأصح: "هل تعرف حكاية الذى أراد ان يتزوج بنت السلطان.. لقد زعموا ان رجلاً من الغوغاء زعم أنه سيتزوج بنت السلطان، فلما سألوه كيف يتسنى له ذلك. قال. المسأله بسيطة فقد رضيت أنا بزواجها ولم يبق إلا أن يرضى السلطان. وكذلك أنا فقد عزمت أن أعيش إلى التسعين والمائة أيضًا وأنا موافق على ذلك وراض بهذه القسمة وليس باقيًا إلا أن يمالئنى الحظ ويساعفنى القدر.." .

ويتفق لى كثيراً أن أقف بالسيارة حيث يطيب لى الوقوف، ويسرنى حين أفعل ذلك أن أنظر إلى الناس وهم يروحون ويغدون وأنا أتأمل ما يكون منهم وكيف يمشون وكيف يتحدثون ويميل بعضهم على بعض وكيف يذهلون عما يكون أمامهم لأن ما هم فيه من الحديث يستغرقهم فيصطدمون أو يحدث غير ذلك مما يضحك ويشرح صدر المتفرج. وأنظر أيضًا إلى الفتيات وهنَّ يمشين وعيونهن دائرات فى الرجال فإذا نظروا إليهن أغضين كأنما كن ينظرن عفواً. إلى آخر ما لا يسع المرء إلا أن يراه فى الطريق. فحدث يومًا أنى اشتريت شيئًا من دكان ثم دخلت السيارة وقعدت فيها وشرعت أدخن وأجيل عينى فى الناس، فكان الرجال يمضون ويمرون بى ولا يعيروننى التفاتًا، أما الشبان فكانت عيونهم ترمقنى خلسة، وأما الفتيات فكن يحدقن فى وجهى صراحة. فكنت أبتسم مسروراً بهذه المناظر. فمرت بى فتاتان بارعتا الجمال فلما بلغتا حيث كنت واقفًا مالت إحداها على الأخرى جداً وهمست وهى تنظر إلىَّ: "ده عجوز". ومن الغريب أنى سمعت الهمسة الخافتة على بعد مترين، وأحسب أنى ما كنت لأسمع ما تقول لو أنها صاحت بأعلى صوت: "ما أحلاه وأجمله وأبرع شبابه". وأكبر الظن أن الترام كان يمر حينئذ فيغرق هذا الثناء بضجته فيفوتنى ما يسرنى. أو تسقط عمارة فيفزع الناس ويذهلون ويشغل الخلق بذلك وأنا فى جملتهم.. وأنا أتكلم أولاً ثم أفكر بعد ذلك. والأولى العكس. ولكن هذا ما أصنع غير عامد. فلما سمعت الهمسة الثقيلة رأيتنى أصيح بالفتاتين: " فشرت. فشرتما. فشرتن". فضحكتا وتثنتا وذهبتا تعدوان .

ولم يسوءنى قول الفتاة إنى "عجوز" فما كانت سنها تزيد على الرابعة عشرة وأنا فوق الأربعين بسنوات فهى طفلة بالقياس إلىَّ، وليس فى وسعها إلا أن تحس هذا الفرق. وغير منتظر أن تدرك أن صباها صبى جسم لا أكثر. وأن شبابها الذى تزهى به طراوة ولين وملاسة ونعومة، وعزيت نفسى بلهجة المتشفى به بأنها ستفقد ذلك كله حين تناهز الأربعين، وأنها لن تجد يومئذ عوضًا عما فاتها، وأن نفسها ستسبق جسمها إلى الذوى. على حينٍ أظل أنا فيما أرجو شاب النفس لا يضيرنى أن الزمن يكون قد حفر على وجهى وجلدى أخاديد عميقة. ومن العدل أن تباهى الفتاة وتزهى بما لا عوض عنه، وليس من الإنصاف أن أنكر عليها ذلك أو أكرهه منها .

ثم رجعت أقول لنفسى، ولكن ما قيمة شباب النفس وحده..؟ ماجدواه إذا فقد الجسم شبابه..؟ وتذكرت أبياتا من قصيدة طويلة كنت قلتها منذ عشرين عامًا ولم أنشرها- بل نشرت بضع مئات منها فى صحيفة أسبوعية :

أيها الطينُ ما ترى بك أبغى ليست - فيما أرى - ليشىء كفاء
إن طلبتُ السماء قلت لى الأر ض - أو الأرض كنت لى عصَّاء

إلى آخر هذا الهراء.. ولم يكن هذا الطين يستعصى عليه شىء يومئذ. وما قلت ذلك إلا فى ساعة فتور شديد جعلتى كاليائس أو انسياقًا مع المعانى التى ولدتها روح القصيدة وأنا أنظمها. ولم يكن يختر لى أنى سأذكر هذه الأبيات التى رميتها وأهملتها حتى مرت الفتاتان بعد عشرين عامًا ونظرت إحداهما - وأحلاهما - إلى الشيب فى فودى وقالت وهى تميل على صاحبتها: "ده عجوز" ؟.

وإنى لأحس الحياه ثقيلة الوطأة على كاهل الصبر.. وإنى لأعود فى الليل إلى دارى فتقول لى زوجتى ألا تستريح؟ فأقول كلا.. لا راحة لحى.. وأمضى إلى مكتبى وأجلس إليه وأهم بالكتابة وأرى النعاس يثنى رأسى على صدرى، فأنهض متبرمًا، ساخطًا على هذه البلادة. وأقول لنفسى وأنا أرتمى على الفراش أترى لو كنت فى مجلس لهو وطرب أكنت أفتر هذا الفتور ؟

ويغلبني النوم قبل أن أسمع جواب النفس.. وإني ليكون أمامي الطعام الجيد المشتهى فأمد إليه يدى محاذراً وأتناول منه مترفقًا وعلى قدر مخافة الكظة أو الانتفاخ. ولم أكن أبالي تلك قبل سنوات.. وإنى لأهم بزيارة الصديق فيصدنى أن درجات سلمه كثيرة فأرتد وألعن أصحاب العمائر الذين لا يتخذون المصاعد ..

ولم يرضنى هذا السخط على نفسى فقلت وأين هذا الفتور؟ ومن ذا الذى لا يكل أحيانا؟ إنى أعمل كالحمار بالليل والنهار وأكتب فى اليوم الواحد فصولاً ثلاثة أو أربعة لأكثر من صحيفة واحدة. وأقطع بالسيارة أكثر من خمسين كليو فى نهارى. وأسهر إلى منتصف الليل. ثم أقوم فى الفجر مع الديكة والعصافير وأقصد إلى مكتبى وأروح أدق على آلة الكتابة حتى لقد غير جارى غرفة نومه لكثرة ما أزعجه وأطير النوم عنه في الصباح الباكر.. وأنا أجالس الناس وأحادثهم وأفعل ما يفعله المرء بشبابه ولا أرانى أكل أو أهى أو أمل أو أفتر.. وإن رأسى لدائب لا يكف عن العمل فى يقظة أو نوم. ولو كنت أقيد ما يدور فى نفسى لوسعنى أن أملأ الدنيا كلامًا، ولكن المصيبة أنى لا أقيد شيئًا وأنى أنسى. فالذى يبقى لى لا يعد جزءاً من مائة مما يخطر لى. كانت لى شكاة فتلك أنى أفتر ولا أرانى أقنع بما أستطيع وما يدخل فى وسعى. ولقد قال لى مرة طبيب حاذق شكوت إليه أنى لاأهدأ – إن بنائى كله من الأعصاب، وأن جسمى ليس أكثر من شبكة أعصاب ركبت لها العظام لتمسكها ووضع لى هنا قلب وهناك معدة إلى آخر ذلك، ثم كسى هذا كله جلداً رقيقًا ليمكن أن يقال إن هذا جسم إنسان، ولكن المهم هو هذه الأعصاب، فإذا كنت أشكو شيئًا فى بعض الأحيان فيحسن بى أن أعرف أنه من الأعصاب ليس إلا فأرحها حين تتعب تعد كما كانت فإنها متينة. وأكبر الظن أن هذه ليست أعصابًا وإنما هى "جنازير من الحديد" ويكفى أنها تتحملك كذلك قال. ودليل صدقه أنى لم أشك شيئًا قط منذ سمعت منه هذا، ولو كان بى شىء غير هذه الأعصاب لما نفعنى كلامه. ولقد خرجت من عنده إلى صيدلية فيها ميزان فوقفت عليه فإذا بى بثيابى الشتوية لا أزن أكثر من سبعة وأربعين كيلو، فضحكت وقلت "كم ترى يكون وزنى فى الحمام بغير هذه الثياب.. أو فى الصيف الذى يستدعى التخفيف.. صدق الطبيب الحاذق فما هذا بجسم إلا على المجاز.. ولكن هذا البناء

الواهى يحتمل النوم على الرمال وتوسد الحجارة. نعم فإنى كثيراً ما أخرج إلى الصحراء فأرتمى على رمالها ساعة وساعتين وتحت رأسى حجر صلد كبير، وفى بيتى أترك الفراش الوثير إلى الكراسى الخشنة التى لا راحة لمخلوق عليها.. وأفتح النوافذ وأقعد أو أنام بين تيارات الهواء ولا أرى ذلك يضيرنى. وأحسب هذا وراثة، فقد كانت أمى رحمها الله تنام وأنفها إلى النافذة المفتوحة- صيفًا وشتاءً. نعم أزكم أحيانًا ولكن الفيل يزكم.. وساقى مهيضة ولكن لا أتعب من المشى وإنما أتعب من الوقوف.. ولم أتخذ المدافىء قط. فإذا أوقدوا فى بيتنا نارًا تركت لهم الغرفة إلى أخرى لا نار فيها.. وما لبست معطفًا إلا فى أعقاب مرض وعلى سبيل الوقاية إلى حين.. وإنى لأرى مناعة جسمى تزداد عامًا فعامًا وأرانى كلما علت سنى أحس إنى صرت أقوى وأصح بدنًا وأقدر على العمل والحركة والجهد.. فلست بعجوز يا فتاتى الصغيرة وإنى وحياتك لأصبى من ابنى. وأن الذى فى عروقى لنار سائلة لا دماء جارية. وقد أحسنت بالانصراف بعد تلك الضحكة الفضية التى ستظل فى مسمعى تذكرنى بك وتصبينى إلى أترابك والسلام عليك والشكر لك وإلى الملتقى "وأين منى يهرب الهارب؟" ...

إبراهيم عبد القادر المازنى

فى الحب وتهيؤ النفس له[1]

أشرت فى فصل إلى الوقت الذى تكون فيه النفس أحسن تهيئًا للحب وقلت إنه وقت الفتور الخفيف، لا النشاط ولا التعب الشديد. وقد رأيت أن كثيرين استغربوا هذا؛ فيحسن أن أبين ما أعنى وأن أجلوه إذا استطعت. وخير وسيلة لذلك أن نضيق دائرة الاحتمالات وأن نسأل أنفسنا فى أية ساعة يا ترى من ساعات الليل أو النهار يكون المرء أقوى استعداد نفس للحب؟. أيكون ذلك فى الصباح حين ينهض المرء من النوم مستريحًا مجدد النفس موفور النشاط؟ أى على الريق؟. لا أظن! وأحسب أنه لو خطرت أمام المرء فى هذه اللحظة أبرع الفتيات جمالاً، وأرشقهن قداً، وأسحرهن لحظًا، وأحلاهن ابتسامة ، لما كان لجمالها من الواقع إلا أيسره. نعم يطرف المرء ويفرك عينيه ليستوثق من أنه ليس فى حلم ولا يسعه بعد أن يوقن أن عينيه لم تخدعه إلا أن يعجب بالقد الرشيق والرونق البارع. وقد ينطق فيقول: "ما شاء الله. سبحان ربى الخالق" ولكن الأمر يقف عند حد الإعجاب. أو قل إن السهم لا يستطيع أن ينفذ من اللحاف وليس أحلى من أن يستطيع المرء أن يستأنف النوم بعد أن يستيقظ فى البكور، فإن للنوم فى هذه اللحظة إغراء لا أعرفه يكون له فى ساعة أخرى؛ والرجل الذى يسعه أن يقاوم إغراء النوم فى البكرة المطلولة لا أظن شيئًا آخر يعجزه. والجسم فى هذه الساعة يكون مستريحًا إلى تفتير الراحة فيكون المرء مستيقظًا، ولكن ينقصه النشاط الكافى والتنبه التام ومن هنا لا يحدث الحسن أثره لأنه لا يلاقى وعيًا كاملاً .

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ١٤ يونيه سنة ١٩٣٧ (ص ٩٦٩-٩٧٣) .

أم ترى يكون الحب أسرع إلى النفس وأنفذ إلى القلب حين يخرج المرء فى الصباح؟ لا أظن أيضًا! فإن القوى تكون مجددة والنفس منتعشة. ومعنى هذا أن نشاط الإنسان جم وأن قدرته على المقاومة تامة؛ ففى وسع الإنسان أن يعجب فى هذه الساعة ما شاء من غير أن يقع فى الشرك أو يصاب فى مقتل. والحب مرض. ومن الحقائق التى لا مكابرة فيها أنه كلما كان الجسم أصح كانت مقاومته للمرض أو فى وأكبر؛ وما من ساعة يكون فيها الجسم أوفر نشاطًا، وأعظم استجمامًا، كساعة الصباح، بعد راحة النوم العميق الكافى. ومن كان يعرف أن أحدًا أصيب بالحب فى الفجر أو الصبح فليتفضل على بنبأ ذلك فإن العلم به ينقصنى؛ وقد قرأت كل ما وسعنى أن أقرأ من شعراء العرب والإنجليز وغيرهم، واطلعت على ما وقع لى من التراجم والأخبار ومن قصص العشاق الصحيحة والكاذبة المختلقة فلم أر أن أحدا أحب على الريق، فإذا كان هناك من اهتدى إلى غير ذلك فإنه يكون أحسن توفيقًا وأنا مستعد لتصديقه وتصحيح رأيى .

ولا أكاد أتصور أن يحب المرء وهو جائع ولا بعد أن تكتظ معدته بالطعام؛ فأما قبل أن يأكل فلأن إلحاح المعدة يشغله ويستغرق عنايته ولا يترك له بالاً إلى أمر آخر. وأما بعد الأكل فإن الامتلاء يصرف جهد الجسم إلى المعدة؛ أو إذا شئت فقل إنه يعدل المزاج فيشعر المرء أن كل شىء فى الدنيا على ما يرام. وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، فلا تكون له رغبة ولا فيه استعداد لتغيير هذه الحالة وإبدالها بغيرها مما لعله مزعج أو ناف لهذا الشعور السار الذى تسكن إليه النفس. وقد جربت - وأظن أن غيرى جرب أيضًا - أن أسباب الخلاف والنزاع وخصوصًا بين الرجل وزوجته تفتر جدًا، وكثيراً ما تزول جملة، بعد الأكل لسببين : الأول أن الجسم يشغل بما حشى به وما صار أولى بجهده؛ والثانى أن الشعور بلذة الامتلاء - وهو شعور راجع إلى الحرص على الحياة - وما يفيده ذلك من الرضى والاغتباط لا يدعان محلاً للعود إلى خلاف سخيف خليق أن يفسد هذا الشعور الجميل .

وأنا لا عـالم ولا فـيلسـوف ولا شيء على الإطـلاق مما يجـرى هـذا المجـرى، وإنما أتكلم بما أعرف وأعرف وأتحدث عما جربت؛ والذى عرفته وجربته هو أن المرء فى الصباح يحس حصانة ومناعة – من الأمراض ومن الجمال – وقلما يعنى بأن يتبع النظرة النظرة فى هذا الوقت؛ ولو أن اليـوم كـله صـبـاح لكـان على الحسب السـلام، ولكن اليوم كله صباحاً مع الأسف. والمثل يقول إذا أردت أن تطاع فمر بما يستطاع. وما من أحد يستطيع أن يكون فى الظهر كما يكون في الصباح. ولا فى التاسعة صباحاً كما يكون في التـاسـعة مسـاء. فى الصبح يكون قوياً قادراً على العمل كفؤاً لمقاومة المغريات لأنه مستجم مستريح. فإذا جاء الظهر يكون قد تعب وشعر بالفتور بالحاجة إلى الراحة والطعام – أو الطعام والراحة – ويكون العمل قد هد منه وسرق من قوته وسلبه بعض ما ادخره للكفاح والنضال. ولكن الحاجة إلى الطعام تكون أقوى ما يحس وألح ما يدرك، فيصرفه ذلك عن كل ما عداه ولا يبقى له هم إلا أن يجلس إلى مائدة حافلة بما يسكت هذه العصافير المزقزقة ويعفيه من ثقل الشعور بما يتلوى في جوفه. فإذا رأى جمالاً فبعيد جداً أن يحبه مهما بلغ من ظما النفس إلى الحب؛ وقد يشعر بالسرور وينشرح صدره ولكنه لا يتمهل فى عدوه إلى البيت أو إلى حيث يكون الطعام الذى يطلبه ما لا سلطان له عليه، وأحسب أن كل ماتؤدى إليه رؤية الجمـال في هذه الساعة هو أن السرور يزيد القدرة على التهام الطعام .

ويأكل المرء وينام ويستيقظ ويقوم متثاقلاً، وقد أصاب حظاً من الراحة – لا كل ما يحتاج إليه – ويستحم أو يكتفى بغسل رأسه ووجهه، ولكن الثقلة لا تزايله، لأنه لم يستوف نصيبه العادل من الراحة، ولم يعوض كل ما أنفقه فى يومه، فهو لا يزال متعباً ولكنه تعب خفيف لا يشق على النفس ولا يبهظ الجسم احتماله. وهذا هو الوقت الخطر على ذى القلب الحساس. ويستوى أن يكون الوقت العصر أو نصف الليل، فإن المهم أن يكون الجسم متعباً بعض التعب، وأن يكون تعبه بحيث لا يثقل عليه ولا يمنعه أن يخرج ويجالس الناس، ويشهد السينما، ويسهر مع الساهرين، ويلتمس المتع التى يلتمسها الناس فى العادة بعد أن يفرغوا من أعمالهم ويتخلوا لأنفسهم. والتعب الخفيف هو الخطر. وهذا لا وقت له على وجه التعيين، فقد يكون العصر وقته عندى فى

يوم والصباح وقته في يوم آخر. والتعب الخفيف هو فرصة الأمراض والحب لأن المرء لا يفطن إليه ولا يباليه ولا يتحرز من عواقبه ولا يحاول أن يقاوم ما يهجم عليه في فترته، فكأن المرء يؤخذ على غرة، وأهبته للكفاح والمقاومة غير تامة .

ولو عني الإنسان بأن يدرس نفسه ويتدبر حالاتها لوجد أنه لا يمكن مثلاً أن يفضي بسر له يحرص عليه وهو مستجم مستريح الجسم. وإنما يبث نجواه ويقول بسره وشجوه حين يكون متعبًا قليلاً – كائنا ما كان سبب التعب، فقد يكون ذلك من جراء العمل أو يكون بفعل الخمر أو يكون بعد المشي مسافة طويلة أو بعد جلسة يمتد زمنها، أو على أثر برد خفيف إلى آخر ذلك – وصاحب الجسم المستوفي نصيبه من الراحة لا يخطر له مثلاً أن يخوض بحثًا في نظام الكون، ويروح يجزم بما يدور في نفسه من الأوهام التي يحسبها حقائق لا تدفع، لأن صحة الجسم تساعد على إدراك القصور الإنساني. وإنما يفعل ذلك الذي به تعب خفيف لا يحسه، ولا يعرف له وطأة. والتعب الخفيف يهيج شهوات الجسم كما يتيح لجراثيم الأمراض فرصة العبث، فيلقى المرء نفسه غير قادر كما ينبغي على المقاومة، ويحس أنه أصبح طوع الجواذب؛ فإذا عرضت عليه كأسًا لم يطلي تمنعه، وقد تحدثه نفسه بأن ذلك ربما كان أجلب للنشاط وينسي رد الفعل الذي يعقب هذا النشاط المجلوب. وإذا خايله الجمال تحركت نفسه كما لا يمكن أن تتحرك وهو موفور القوة أو شديد التعب. وإذا استطرد الحديث إلى ما وراء الطبيعة جازف بالآراء وقطع وجزم بلا تردد أو تلعثم. وليس ذلك من الثقة بالنفس ولا من طول التدبر والنظر وإنما هو من الفتور الحاصل الذي يغري بالكسل واتقاء عناء البحث الذي يزيد به التعب. والمرء في هـذه الحالة لا يكسل وهو شاعر بكسله، ولا يتقي العناء وهو عارف بأنه يتقيه، وإنما يفعل ذلك بغريزته التي تدفعه من حيث يشعر ولا يشعر إلى وقاية نفسة والمحافظة عليها .

ومتى جاوز التعب – أعني الشعور به – الحد الذي يسهل احتماله ويهون الصبر عليه فقد استحال الحب. فالمتضور جوعًا والذي يرعد من البرد، والذي به مغص أوغيره من المزعجات والمنغصات، والذي يكاد يسقط من فرط الإعياء، والذي يغالبه النوم ويثني رأسه النعاس الخ الخ لا يمكن أن يجد الحب سبيلاً إلى قلبه قبل أن يزول

ذلك عنـه، وإذا اتفـق أنـه كان عـاشقًا فإنه لا شـك ينسى حبـه وعشقـه حتى يشفى أو يستريح أو يشبع، ومن كان لا يصدق فليجرب وليختبر نفسه. وفي وسع كل إنسان أن يجعل باله إلى حالات نفسه في الصحه والمرض، وفي الجوع والشبع، وأن ينظر هل يكون له عقل يفكر في حبيب وهو جائع أو بردان أو متألم أو متهافت من النصب .

والمرأة تدرك هذه الحقائق بغريزتها الذكية، فهي دليلي على صحة ما أقول، واسـألوا أنفسكم متى تـرون المـرأة تعنى بزينتهـا وعرض محـاسنها على الرجـل فلن تجدوها تفعل ذلك في الوقت الذي تحس فيه أن الرجل مستجم مستريح أي قادر على مقاومة فتنتها، وإنما نراها تفعل ذلك وتلجأ إلى معونة الثياب المنسجمة على الجسم المبرزة للمفاتن، وإلى المساحيق التي تؤكد الإشراق والنضرة في وقت التعب الخفيف لا في وقت النشاط التام ولا وقت التقوض والانهداد. وأحسب أن من المفهوم أن كلامي هو على المرأة حين تتصدى للرجـل بحكم طبيعتهـا لا عامدة ولا حين تخرج لعملها إذا كانت تعمل أو لقضاء حاجة لها فما تستطيع إلا أن تتزين إلى حد ما تبرز للناس لأن طبيعتها تغريها بأن تحشد قوتها كلها وسلاحها أجمعه على سبيل الاستعداد للمنازلة، ولو كانت فرصتها بعيدة فإن الأمر بين الرجل و المرأة أمر حرب – هي تقاتله وتحاول أن تغلبه بالجمال وهو سلاحها وهو يقـاومـها ويحاول أن يغلبهـا بقوته وجلده الخ، وقد يكون من غريب أمر هذه الحرب أن النصر فيها موزع وأن الذي يبدو فيها ظافراً كثيراً مـا يكون هو المهزوم، وأن الذي يتظاهر بالتسليم وإلقاء السلاح عسى أن يكون هو الغالب المنصور بل الفريقان المقتتلان لا نصر لهما ولا هزيمة وإنما النصر للحياه التي تسخرهما لغاياتها وتتخذ منهما أداة. ولكن هذا استطراد فلنعد إلى سؤالنا، ولنتوسع فيه قليلا. فهل يظن أحد أن من المصادفات البحتة أن المرأة لا تتزين في الأغلب إلا في العصر أو المساء أو الليل؟. إن ثياب المرأة للزينة، قبل أن تكون للمنفعة – وكذلك ثياب الرجل إلى حد كبير – ولكن الزينة مقدمة على المنفعة عند المرأة، لأن المرأة هي الشرك الذي تنصبه الحياه للرجل. والزينة تؤكد الجمـال وتبـرزه. وهل يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الثياب التي تلبسها المرأة لها أدنى نفع في وقاية أو ستر؟ ولكنها لا تعنى بالزينة في الأوقات التي تقول لها غريزتها إنها تكون زيادة لا داعي لها

ولا تأثير، مثل الصباح الباكر أو قبل الظهر حين يكون الناس جياعاً، فإذا مال ميزان النهار الذى هو وقت العمل الطبيعى وأحدث العمل اليومى أثره الذى لابد منه وأنتج السعى بالرزق أو غيره ذلك الفتور الخفيف أنشأ الرغبة فى اللهو والتسرية عن النفس والتماس ما ينسى الإنسان تعب النهار ومشقات العمل ومتاعب الحياة – إذا جاء هذا الوقت رأيت المرأة معنية بزينتها وثيابها، ومن هنا كانت ثياب السهرة وتوخى المرأة فيها أن تجعلها ثياب جلوة، تجلو محاسنها كلها وتعرض مفاتنها وتحيلها أوقع فى النفس، لو كان الأمر إلى العقل وحده وإلى الفائدة المطلوبة من الثياب لما كان الليل أحق بهذة الثياب من النهار، ولكن الغرض ليس الفائدة بل الفتنة، والفتنة تكون أسهل ومطلبها أيسر بعد تعب النهار وبعد حلول الفتور الخفيف الخفى الذى يساعد على التغلب على الفريسة .

ولنسأل سؤالاً آخر : لماذا يحلو الغزل والمناجاه فى الليل الساجى وفى ضوء القمر اللين ولا يحلوان تحت الشمس المحرقة وفى الظهر الأحمر؟. و أجمل الجواب إتقاء للإطالة فأقول: إن الليل هو وقت الفتور، وإن سهوم القمر وسكونه يزيدان هذا الفتور، وإن اجتماع الفتور الطبيعى بالليل بعد الكدح بالنهار واللين المفتر الذى يحسه الإنسان من ضوء القمر يجعل مقاومة الإغراء أضعف، لما يحدثه ذلك من استرخاء الأعصاب وكسلها: وشىء آخر أحسبه حقيقة وإن كنت لا أعرف له علة وذلك أن للقمر أثرًا محسوسًا فى حالة الأعصاب. ومن هنا يعتقد العامة أن طول النظر إلى وجه القمر يحدث الخبل ويورث الجنون؛ ولا أعرف علة لذلك، ولست أدرى أن العلم اهتدى إلى تعليل له، ولكن الذى أعرفه أن للقمر أثرًا معترفًا به فى المد والجزر، فما دام أن له هذا الأثر فماذا يمنع أن يكون أثره أبلغ وأوسع نطاقًا وأمس بحياة الجسم الإنسانى وحالاته؟ إن الماء الذى يؤثر فيه القمر ليس شيئًا أجنبيًا منا وإنما هو بعض ما نحيا به، بل هو أصل لا مكابرة فيه. ثم إن أثره فى المرأة معروف، حتى إن الدورة عندها تحسب بالشهر القمرى. والذى أعرفه أيضا أن الناس من أقدم العصور قرنوا ضوء القمر بالجنون، ولا تزال فى اللغات المختلفة ألفاظ يفهم منها اقتران معنى الجنون بضوء القمر. بل إن اللفظ الدال على الجنون فى لغات كثيرة مشتق من اسم القمر. وعسى من يسأل "ولكن ما علاقة هذا الحب؟" والجواب أن لفت النظر إلى أن الغزل

والمناجاه يكونان فى الأغلب والأعم فى الليل ويطيبان فى ضوء القمر. وقد قلت إن تجربة الناس من أقدم العصور هدتهم إلى أن للقمر أثراً سيئًا فى عقل الإنسان واتزانه؛ وقد بقى فى لغاتهم أثر هذا الاعتقاد. وقد يكون أو لا يكون هذا صحيحاً، ولكنه خلاصة تجارب الخلق ومشاهداتهم فى عصور طويلة لا يعرف لها أول، ويبعيد جداً أن يكون كله وهماً. ومهما يكن من ذلك فالمحقق أن ساعات الليل ساعات ضعف بالقياس إلى نشاط النهار بعد راحة النوم الكافى. فالتأثر بالجمال يكون فيها أقوى والمقاومة تكون أضعف .

وقد قلت إن الحب شرك تنصبة الطبيعة للإنسان لإبقاء الدنيا عامرة بنسله – لا أدرى لماذا – ولكن هذا هو المشاهد على كل حال. ففى هذا يحسن أن أقول كلمة وجيزة: سئلت امرأة عجوز عن آرائها فى بعض وجوه الحياه فقالت: إن سخافة الرجال تظهر فى ثلاثة أمور: الأول أنهم يتكلفون عناءً شديداً ليتسلقوا الشجر ويقطفوا الثمر؛ ولو صبروا وأراحوا أنفسهم وجلسوا ينعمون بالظل تحت أفنان الشجرة لألقت إليهم بثمرها فى أوانه. والثانى أنهم يذهبون إلى الحرب ليقتل بعضهم بعضاً؛ ولو انتظروا لجاءهم الموت جميعًا. والثالث أنهم يجرون وراءهم المرأة؛ ولو كفوا عن ذلك لجرت ورائهم المرأة. فهذه عجوز حكيمة. وأحسب أن حكمة الصبر هذه يرجع الفضل فيها إلى السن العالية وما تجره من العجز. ولكن الواقع على كل حال أن المرأة هى التى تطارد الرجل وليس الرجل هو الذى يطارد المرأة. وقد كنت فى أول عهدى استنكر قول ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر
بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر
فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر
تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

والشطر الأخير هو المقصود. وكنت أستثقل قوله إن المرأة تتبرج لتتصدى للرجل، ولكن المرء يزداد فهمه للحياة على الأيام. وإنه ليضحكني الآن أن الرجل يتوهم أنه هو الصائد الجريء المقدام الذي يوقع منظره الخشن الرعب في قلب المرأة المسكينة الضعيفة! وإنما يضحكني أن هذا الوهم وما يفضي إليه من الغرور هما اللذان يوقعانه في شرك المرأة. فهو ينسى لغروره أنه لا يفكر في الحب إلا بعد أن تلقحه المرأة بجرثومته. أي بعد أن يصاب به. على حين كانت المرأة تعد عدتها لهذا اليوم، وتتدرب على إجادة هذا الفن، وتدرس كل أساليب الأغراء مذ كانت طفلة في المهد. وهذه مبالغة ولكني أريد أن أقول إن الطبيعة جعلتها أداة لإغراء الرجل وأعدتها بفطرتها لاجتذابه واستدراجه وإيقاعه في الفخ، وهي في هذا لا تحتاج إلى معلم، وحسبها غريزتها هادياً ومرشداً . وهي تتقن فن الاستدراج إتقاناً عظيماً وتعرف في أي لحظة ينبغي أن تزيد المسافة بينها وبين الرجل الذي تدعه يتوهم أنه هو الذي يبدأ بمطاردتها. وتعرف متى تتباطأ وتقصر الخطو، لتزيد أمله في إدراكها، فيقوى عزمه ويشتد عدوه وراءها. والمرأة أعرف بالمرأة، أو هي أولى بذلك من الرجل وأخلق بأن تكون أقدر عليه، وقد وجدت في كتاب لكاتبة اسمها "إلينور جلين" – واسم الكتاب "العاطفة التي تدعى الحب" هذه النصيحة التي يجدر بكل رجل أن يتدبرها قالت :

"قاعدة عامة – أول ما ينبغي أن تتذكريه هو ألا تظهري رغبة شديدة أو إقبالاً عظيماً أو لهفة، فإن الغرض هو الاستيلاء على الرجل. والرجل مهما بلغ من وداعته وضعفه يجب أن يتوهم أنه هو الذي يقوم بالمطاردة. ولا بد للفتاه التي تخرج للقنص والصيد من أن تدرس أساليب الصيد ووسائله وأن تستعين على التوفيق بمعرفة طباع القنيصة. وما من رجل يعتقد أن في وسعه أن يصيد غزالاً بأن يجري وراءه ويصيح به. والأساليب التي يستخدمها لصيد الفهود والنمور غير التي يلجأ إليها حين تكون غايته الأرانب. ومتى استطعت أن تثيري اهتمامه بك فليس عليك بعد ذلك إلا أن تغذي نفسه ببواعث الرغبة فإذا هو بين يديك. واعلمي أن الرجل يجد لذة في المطاردة، ولكن حماسته تفتر متى ألفى الطريدة في حقيبته. وإذا وجد أن الصيد سهل جداً فقلما يعنى بأن يمد يده ليتناوله وقد يدعه على الأرض حيث وقع. أما إذا كان الطراد شاقاً

عنيفًا مثيراً وكانت الطريدة شديدة الحذر طويلة الصبر على جهد الطراد، فإن الرجل خليق بأن يزهى بالفوز بها وأن يروح يعـرض الصيد على العيـون مفاخراً مباهيًا" أهـ .

ولا شك أن الواجب الذى وكلته الطبيعة الى المرأة شاق، فليس من السهل أن تلعب دور الهارب وهى فى الوقت نفسه مصممة على الوقوع فى يد المطارد. فقد تطول المسافة بينها وبينه جداً فييأس وينكفئ راجعًا ويعدل عن المطاردة. فاذا تركته يدنو منها جداً ويدركها بسرعة وسهولة وبلا جهد يستحق الذكر، فقد ينفض يده من الأمر لأنه يراه أسهل عليه من أن يحس أنه يفيد منه متعة ويروح يلتمس صيداً غيره يستحق العناء. فالأمر يتطلب حذقًا فى التقدير وبراعة وسرعة فى التقرير من جانب المرأة. ومن هنا يحدث كثير من المضحكات التى يعجب لها الرجل ولايرى له قدرة على فهمها. وكثيراً ما يفوته الجانب المضحك لأنه يشغل بالفهم على طريقه هو، فيصرفه ذلك عن الفكاهة. من ذلك مثلا أن واحدة اشترطت لقبول الزواج أن يكون للرجل ألف جنيه مدخرة لأن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود، فراح المسكين يقتصد ويدخر – أو يحاول ذلك على الأصح – وطال الأمر وتعاقبت الشهور وهو يجد ولا يتكلم ولا يظهر أيضًا، وكيف يظهر لها قبل أن يجمع المبلغ المطلوب. فلقيته اتفاقًا وسألته عما صنع فقال: "لم أستطع أن أقتصد إلى اليوم أكثر من جنيهين" فابتسمت له بعد أن أطالت النظر إليه وقالت: "أظن أن هذا قريب جداً من الغاية" .

وكما أن الرجل يجد لذة فى المطاردة، كذلك تجد المرأة لذة فى أن تطارَد حتى ولو كانت نيتها معقودة على النجاة لا على الوقوع؛ وهذا معقول، لأنه يسر المرأة أن تعرف أنها جميلة وأن الرجل يريدها وإن كانت هى لا تريده. وأحسب أن المتعة المستفادة من الطراد هى كل ما فى الحب من لذاذة؛ ومتى انتهى الأمر ووقعت الفريسة، فتر النشاط والحماسة، وسكنت النفس وهدأت الأعصاب. ومن هنا يخطئ الذين يتوهمون أن للحب عمراً أكثر من عمر المطاردة، ومن هنا أيضًا يخيب أمل الذين يتزوجون وهم يحسبون أن الحب يدوم. وما أكثر من يسألون عن الوفاء والحفاظ ما فعل الله بهما. ولو فكروا لما انتظروا وفاءً ولاحفاظًا ولا خاب لهم أمل ولا ندبوا حظوظهم فى الدنيا، فإن الحب

– ككل شيء في هذه الحياة – لا عمر له ولا بقاء؛ وهو يبقى ما بقيت لذته؛ ولذته تنتهى بانتهاء المطاردة. كل شيء في هذه الدنيا إلى حين، فلماذا يكون الحب وحده هو الباقي الدائم ؟

والمرأة تدرك هذه الحقيقة بغريزتها أيضا؛ ولذلك نراها تحاول أن تستبقى روح المطاردة بعد انتهائها بما نسميه الدلال، وهو فن يراد به أن يشعر الرجل أن به حاجة إلى السعي والجهد، فيؤدى ذلك إلى شحذ الرغبة ونفى الفتور وتجدد الطلب، فالحق أن الطبيعة حكيمة وإن كانت حكمتها لا تبدو لنا في أكثر الأحيان .

إبراهيم عبد القادر المازني

الخرافات منشؤها وما بقى منها[1]

العقل لايستطيع أن يؤمن بالخرافات أو يركن إليها، ولكن الإنسان لا يحيا بعقله وحده، بل بغرائزه وعاداته وأعصابه أيضًا - بل هو يعيش بهذه أكثر مما يعيش بالعقل، فأنا مثلا أدرك بعقلى أن الموت لا دافع له، وأن المنايا - كما يقول الشاعر- خبط عشواء، وأنه لا ضابط هناك لهذا المصير، وأنه خير للإنسان ألا يعرف متى يحين حينه، وأنه لا معنى للفزع أو الجزع من الموت، وأنه لا جدوى من هذا الفزع أو الجزع حتى لو كان له معنى، وأن الواجب أن يترك المرء هذا الأمر للمقادير ويريح نفسه من عبث التفكير فيه، وعنائه الباطل، ولكنى مع ذلك أرانى حين أغمض عينى لأنام، أقرأ الفاتحة أولاً لموتاى، ثم أقرأ آية الكرسى ليحفظنى الله، ويرعانى فى منامى؛ ثم أقرأ آيات أخرى من الكتاب الكريم ويقول لى عقلى إنها لم تنزل لتحفظ أحداً أو تقيه الموت، ولو كانت تقى أحداً هذا المآل لوقت النبى عليه الصلاة والسلام، ولكن عقلى لاقيمة له، ولا اعتداد به ولا معول عليه. وما أكثر ما أضحك من نفسى، ولشد ما أستحمقها وأستسخفها، غير أن لسانى مع ذلك يأبى فى كل ليلة إلا أن يدهور فى شدقى هذه الآيات الكريمة، وأن تلاوة القرآن الكريم لخير، ولكن القرآن لم يجعل لوقاية المرء من الأسواء، ولا لدفع الردى عنه، وإنما هو تشريع وتهذيب. غير أن جدتى - لأبى - عودتنى، وأنا طفل، أن أفعل ذلك كل ليله قبل النوم، وكانت مشغوفة بى، ملهوفة علىَّ. وقد شببت عن الطوق جداً، وماتت جدتى، وكبر عقلى، ولكن العادة بقيت على الرغم مما أفادنى التعليم والإطلاع والنظر والتجربة الطويلة .

---

(١) نشرت فى جريدة "الوادى" فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٣٧ (ص١) .

وما أكثر ما أقول لنفسي إني أراني كحمار جدي، فقد كان له أعزكم الله حمار كان – أعني جدي لا الحمار – عالمًا من علماء الأزهر. فكان يركبه في كل صباح – أو كل فجر إذا أردتم الدقة – إلى مسجد الحسين، حيث كان يلقي درسه ثم يعود فيركبه بعد الفراغ من دروسه وصلواته إلى البيت. فاعتاد الحمار ذلك وألفه وصار يعرف الطريق وحده، ولا يحتاج إلى يد تلوي اللجام إلى اليمين أو الى اليسار. وألف جدي كذلك أن يمتطي حماره ويقول باسم الله ويمد يده إلى صدره – تحت القفطان – فيخرج الغيبرة – أي ملزمة أو ورقات من الكتاب الذي يدرسه – ويروح يقرأ والحمار سائر على مهل لا يخطئ الطريق أو يحيد عنه إلى سواه حتى يبلغ جدي المسجد فيقف – أي الحمار – فيتنبه جدي ويطوي الورقات ويدسها في عبه، ويترجل ويترك الحمار أمام باب المسجد بلا قيد، حتى يخرج فيجده حيث تركه، فيركبه مرة أخرى فينطلق به إلى البيت بسرعة لأن كليهما جاع. وقد رأيت جدي وحماره وتبعتهما وعاكستهما، أيضًا فقد كنت طفلاً وكنت في طفولتي كثير العبث. فأنا أذكر هذه الصورة ولا أنساها. ومن تهكم الأقدار أنها جعلت مني حمارًا لجدتي يفعل إلى اليوم بعد أربعين سنة ما عودته أن يفعل وهو طفل صغير. ولا أعلم ماذا كان حمار جدي يقول لنفسه وهو سائر بحكم العادة في طريق واحد لايختلف أو يتغير فلست إلا حمارًا مجازيًا، ولكن الذي أعلمه هو أن العادة تغلبني وإن كان عقلي ينكر ما أفعل .

واتفق أني كنت مرة في لندن ضيفًا على بعض من عرفتهم هناك، فكان مما قدم إلي في صباح يوم مع الشاي واللبن وغيرهما سمك فشرعت أشرب وآكل ثم تذكرت فجأة أن اليوم يوم الأربعاء، وأننا نقول في مصر إن من أكل سمكًا وشرب لبنًا في يوم أربعاء طار عقلة وجن. وأعترف أني أشفقت من عواقب الجمع بين اللبن والسمك في ذلك اليوم، ولكن السمك كان طيب النكهة وأنا جائع والبرد شديد، واستحييت أن أذعن لقضاء الوهم وحكم الخرافة، فأكلت وأنا أعزي نفسي وأهون عليها بأن الجنون لا ينقصني، ولا أحتاج أن أقول أنه لم يصبيني سوء، وأني مازلت سليم العقل ومع ذلك من يدري؟.. أليس السكران هو الذي يتوهم أن الناس جميعًا سكارى ما عداه ؟.

وقد نشأت الخرافات بأنواعها التى لا يكاد يكون لها آخر من عناية الإنسان بما لا يفهم من حالات الحياة ووجوه العيش وهذا الكون المهول المجهول الذى يروعه ويحيره. والإنسان فى هذه الدنيا يشبه الطفل الذى ألفى نفسه تائها فى الظلام فى غابة مخوفة، فكل ما يسمعه أو يحسه من الليل والغابة يتخذ الصورة التى ترسمها أوهامه، وتجسدها خيالاته، ويحدث أن يتفق أن يصدق التخمين ويصح الوهم، فيثبت هذا فى ذهنه، ويبقى محفوراً فيه، على حين ينسى ما لم يصدق ولم يصح من الظنون والأباطيل التى دارت فى نفسه، لأن هذه مرت وانتهى أمرها ولم تخلف أثراً. أما ما يصدق فإنه يكون من الواقع، يدعو إلى الالتفات؛ ثم إن صحة الظن تدعو إلى رضى النفس من ناحية إرضاء الغرور، فيستطيع الإنسان أن يقول لإخوانه: "ألم أقل لكم ؟" ويروح يباهى بذلك ويفخر. ويقع هذا من نفوس إخوانه، فيروح الواحد منهم يقول للآخرين "والله صحيح".

كل الخرافات مبعثها الجهل، وما وقع فى نفس الإنسان من الرهبة والحيرة، وما أحسه من العجز والضعف أمام ألغاز الحياه والموت والحظوظ – سعيدها ونحسها – وما أدركه من وجود قوى خفية لا سلطان له عليها، وأسرار عويصة فى الأرض والسماء لا يدرى كيف يجلوها بعقله المحدود، وإدراكه القاصر.

ونحن نعرف الآن أنه ليس فى الدنيا أسرار، وأعنى بذلك أنه ما من سر إلا وله حل، وإذا كنا لم نهتد إليه إلى الآن، فإنا سنهتدى على الأيام بعد البحث الكافى. فقد اهتدينا إلى الأصول والقواعد العامة والمبادئ التى يمكن الاسترشاد بها فى الوصول إلى المعارف التى تنقصنا، ووقفنا على ما فيه الكفاية لانتفاء الحيرة والرهبة والخوف والفزع من ظواهر الطبيعة وحالات الحياة ووقائع الدهر، ويبقى الجهل فنحن نعالجه بالنظر والتقصى والبحث بالوسائل التى جربناها وعرفنا جدواها فى الوصول الى المعارف التى اكتسبناها. ولكن الإنسان فى فاتحة حياته العقلية كان أشبه بالطفل، وكان الأمر كله جديداً عليه، وكانت ظلمة الخفاء شديدة راكدة، لا يخففها شعاع واحد من النور، وقد قلت مرة فى حديث سابق أن الطفل يجتاز بسرعة، وفى سنوات قليلة الأدوار التى قضت الإنسانية فى اجتيازها دهوراً وحقباً طويلات المدد، وأن تطور

الطفل هو اختزال لتطور الإنسان فى هذه الأدهار المتطاولة، فمن أراد أن يعرف كيف نشأت الخرافات التى حفلت بها حياة الإنسان، ولا تزال حافلة بها، فلينظر إلى الطفل وطريقة تفكيره وأسلوبه فى استخلاص الحقائق من مشاهداته وتجاربه، وإلى اختلاط العقل بالإحساس، وإلى وقع الظلمة والنور، والوحدة والأنس، فى نفسه. وإلى تأثير الألوان والصور والأشكال، وإلى ما يحدثه نوع المعامله التى يلقاها من أبويه، ومن الناس في روحه، وفي تقديره للأمور، وفهمه للخطأ والصواب، والحميد والمعيب، والرشد والضلال، إلى آخر ذلك. والأعوام الأولى من حياة الطفل هى وقت التجارب وجمع الحقائق واستخلاص النتائج. وصحيح أن الإنسان لا يفرغ من التجريب والجمع والاستنتاج إلا حين تنتهى حياته فلا آخر لهذه الحقيقة، ولكنى أعنى أن الطفولة هى وقت التجارب الأولى فالخطأ الناجم عن نقص التجربة، وقلة الحقائق التى نبنى عليها النتائج؛ وعدم كفايتها - هذا الخطأ يكون أكثره فى عهد الطفولة. وأنّا لنخطئ كذلك من هذه الناحية أي من نقص التجربة وعدم كفاية القواعد التى تقيم عليها النتائج، فى شبابنا ورجولتنا وفى كل فترة على العموم من فترات الحياة طالت أم كثرت، ولكن الخطأ الساذج الذى يثير ضحكنا أو ابتسامنا يكون أكثره فى الطفولة. وكذلك كان حال الإنسان فى بداية حياته العقلية. وكل تلميذ يعرف الآن أن الكون وحدة، وأن قوانين الوجود وسنن الحياة، ثابتة لا يلحقها تبديل أو يطرأ عليها تغيير، ويدرك علاقة السبب بسببه، وأن كل حقيقة [مرهونة] بما سبقها، ولها أثر فيما يتلوها، وأن النظام فى هذا الكون شامل محيط مع الدقة والضبط والإحكام، وأن الطبيعة - كما يقول أرسطو - ليست كالرواية السخيفة الملأى بالحوادث التى لا ارتباط بينها، ولا صلة، وأنها لا تعمل وثبًا وقفزًا كالجدى المرذح، وأنه ما من شىء يحدث إلا وله سبب كاف - أبناؤنا فى المدارس يعرفون هذا الآن ولا يشق عليهم أن يفهموه إذا قلته وبينته لهم، ولكن الإنسان القديم لم يكن يعرفه لأن عقله كان قد بدأ يتفتح كعقل الطفل، ولم تكن له معارف كافيه أو تجارب وافية، فكان تخليطه كثيراً، كتخليط الطفل وكان يضم المتفرق، ويجمع المختلف، ويقرن الشىء بالشىء ولا علاقة بينهما ولا صلة فى الحقيقة، فكان يتفق مثلاً أن يرى في منامه أنه يضحك، ثم يستقيظ فيتفق أن يرى أن زوجته ماتت

أو أحداً غيرها من أهله أو عشيرته، فيبكي، وطبيعي أن يتذكر أنه كان منذ لحظة يضحك في منامه، وأن يقابل الحالة السارة التي كان فيها، بالحالة المحزنة التي صار إليها، فإذا اتفق أن حدث له هذا مرة أخرى أو حدث لسواه كما وقع له، ربط الحلم الذي بدا له في النوم، بالحقيقة التي رآها في اليقظة، واعتقد أن بين الرؤيا والواقع نوعًا من الصلة، فإذا رأى بعد ذلك ما يسره في الأحلام اضطرب وتوقع السوء .

وأذكر أني منذ أكثر من خمس وعشرين سنة قرأت فصلاً لكاتب إنجليزي غاب عني اسمه الآن – ولعله شارلز لام – ولكني غير واثق – تخيل فيه إنسانًا من الأقدمين احترق كوخه وكانت فيه خنازير له، احترقت أيضًا ، فأقبل الرجل فألفى الكوخ كومًا من الرماد، فبكى، [وأقبل] على الكوم يتحسسه ليرى ماذا فعل الله بخنازيره، فوقعت يده على خنزير فلسعته حرارة جلده، فنزع يده بسرعة ورفعها إلى لسانه ليلحسها ويبردها، فأحس طعمًا جديداً هو طعم اللحم المشوي الذي لا عهد له به. وعاد إلى الخنازير يبحث عنها فإنها كل ماله، فلسعته حرارة جلدها مرة أخرى، فأسرع بيده مرة أخرى إلى لسانه ليبرد النار التي كوته، فوجد ذلك الطعم الجديد اللذيذ، وهكذا تكرر اللسع واللحس وراقه الطعم فأقبل على لحم الخنزير يلمسه ثم يلحسه. وصار بعد ذلك كلما أراد أن يذوق هذا الطعم الذي أعجبه، يجيء بالخنزير فيدسه في الكوخ ويحرقه عليه، ثم يقبل بعد ذلك على جلده يلمسه ويلحسه، وهكذا – في رأي الكاتب المازح – عرف الإنسان أكل الخنازير المشوية. وهذا كله تخيل جميل، ولكن وراءه حقيقة هي وصف طريقة الإنسان القديم في الاهتداء إلى الحقائق والمعارف، ولسنا نحتاج الآن إلى حرق الزرايب على الخراف لنأكل لحمها مشويًا؛ فإنا أهدى من آبائنا سبيلاً وأرشد. ولكنا في طفولتنا لا نكون خيراً من هذا الذي يحرق الكوخ ليلحس جلد خنزيره المشوي، وينعم بطعمه .

وأذكر أني في حداثتي كنت أرى أبي يجلس على الكنبة إلى جانب النافذة، ويشعل السيجارة، ويدخن، وكان يحلو لي أن أتبع الدخان الملتوي بعيني، وأتبع خياله على الجدار، بإصبعي، واشتهيت أن أفعل كما رأيت أبي يفعل، ولم تكن عندي سجاير، فجئت بخرقة لففتها، وبرمتها، على هيئة السيجارة وأشعلت طرفها، لأرى الدخان

الخارج منها الصاعد إلى فوق المتلوى فى الهواء، وخياله على الجدار، ووضعت الخرقة المشتعلة على الوسادة وذهبت أمتع طرفي بهذا المنظر الذى كان يفتننى، فكانت النتيجة أن شبت النار في القطن، وكثر الدخان ففزعت وهربت ولم أنبه أحداً، فقد كنت خائفًا وجلاً – خفت من النار وخفت من أبوى – فاندلعت النار بسرعة فى البيت وامتدت إلى الغرف الأخرى، ولم تكن ثم في ذلك الوقت إدارة منظمة للمطافىء كالموجودة الآن، ولا كانت أنابيب الماء ممدودة إلى البيوت كما هو الحال فى الوقت الحاضر، بل كان السقاء يمر بالقربة على ظهره ويفرغها فى الزير القناوى، فإذا قلت لكم أن النار امتدت من بيتنا إلى بيوت الجيران، وأن الحارة كلها أصابتها نكبة، فصدقونى ولا تحسبونى أبالغ. ولست أرى فرقًا بين أن أحرق بيتًا – أو حارة على الأصح – لأتمتع بمنظر الدخان المتلوى فى جو الغرفة وخياله المرتسم على الجدار، وبين أن يحرق ذلك الإنسان القديم كوخه على خنزيره لينعم بمذاق جلده المشوى .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الخرافات منشؤها وما بقى منها[1]

(بقية ما نشر أمس)

ولقد كبر الانسان – أعنى أن عقله كبر – ورحب أفق نظره واهتدى الى القواعد التى تقوم عليها المعرفة الصحيحة، ولكنه لا يزال كما كان إلى حد كبير – يؤمن بالخرافات ويتأثر بها فى حياته، وإن كان تأثير الخرافة لا يبلغ ما كان لها فى الأزمنة القديمة، لأن الإنسان – كما قلت – يحيا بغرائزه وعاداته وطباعه وأعصابه أكثر مما يحيا بالعقل. والذى أفاده من العلم غير كاف. وهبه كان كافيًا فليس من الخير للإنسان أن تخنق الغريزة وتقمع الطباع. نعم ينبغى الضبط والكبح أى وضع اللجم للغرائز، منعًا للفوضى، ورغبة فى التنظيم، وطلبًا للاعتدال والقصد، ولكن الكبح ليس معناه الخنق. وخنق الغريزة – إذا فرضنا أن هذا ممكن – يخنق الإنسان نفسه ويقضى على شخصيته، ويسلبه الخصائص التى أتته القوة، ويسرت له المعرفة، ومكنته من تحويل قوى الطبيعة التى كان يرهبها ويعتقد أنها شر ووبال عليه إلى خدمته .

فالأمر لا ينفك كما كان فى العصور الماضية، و سيظل كذلك ما دام الإنسان يعيش بأعصابه، كما يعيش بعقله، فنحن مثلاً نجرى على طريقة الأقدمين فى تأويل الأحلام، فإذا شم أحدنا فى منامه رائحة كريهة ظن أنه سيلقى ما يكره، وإذا غسل يديه كان ذلك فألاً حسنًا، [..] أو رأى أنه يخلع حذاءه، فهو مزمع سفرًا سيحول دونه حائل. وإذا بكى فهو سيسر ويفرح. وإذا سقطت له سن، فإنه سيفقد صديقًا أو قريبًا.

(١) نشرت فى جريدة "الوادى" فى ٢١ يونيه سنة ١٩٢٧ (ص١) .

وإذا رأى إحدى أضلاعه تنزع فهو ستموت زوجته (ولعل أصل هذا أن الإنسان يعتقد أن المرأة مخلوقه من إحدى أضلاع الرجل) وإذا رأى نفسه يتزوج، كان معنى ذلك أن بعض أهله سيموت، وإذا رأى دجاجات كثيرة في مكان واحد فإن تفسير ذلك هو الخلاف والجدل والغيرة، وإذا رأى ثعبانًا يتبعه فليحذر فإن له عدوًا ويبغى به شرًا، فإذا كانت حيه فهي امراة مرهوبة الأذى (وعسى أن يكون تفسير الحية بالمرأة راجعًا إلى قصة الحية التي أغرت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة في الجنة) والموت في الحلم حياة – والسباحة في الماء خير ما دام رأس السابح فوق الماء. واجتياز الجسور والمعابر معناه الانتقال إلى ما هو أفضل .

وكثيرون من الناس – حتى المتعلمين المثقفين – تراهم بعد أن يشربوا القهوة يضعون خنصرهم في الفنجان ويحملون منه بعض ما تخلف فيه ويدهنون به ما وراء الأذن لاعتقادهم أن هذا يجلب الخير. وفي الأعراس يرش الملح أمام العروس ويصيح الصائح "حسوة في عين اللى ما يصلى على النبي" ظنًا منهم أن الملح يمنع العين، ويدفع عن العروس الجميلة أذى النظرة الخبيثة والنفس الشريرة، التي تطل بما انطوت علية من قوة الشر، من العينين .

وفي أوربا كما في مصر خرافات من هذا القبيل، وعندهم هناك كما عندنا، نساء يقرأن الطوالع في الكف ومن أوراق اللعب، وعندنا ولاشك زيادة، هي معرفة الطوالع والحظوظ من آثار الأمثال [..] أو أية خرقة يكون قد لمسها، ومن البقايا المختلفة من القهوة في الفنجان ومن الودع، ومن الرمل، إلى آخر ذلك، وأكثر العامة وأشباههم عندنا على أن الزواج في بعض الشهور – المحرم على الخصوص – مكروه، والمحرم يجيء مرة في الصيف وأخرى بعد سنوات في الشتاء ولكنه مع ذلك يظل مكروهًا فيه الزواج، ولعل لاسمه دخلاً في ذلك. على أن لأكثر الأمم شهورًا تكره فيها الزواج. وقد أشار الشاعر "أوفيد" في شعره إلى كراهة العامة للزواج في شهر مايو. كان هذا قبل ثمانية عشر قرنًا، ولكن الاعتقاد بأن الزواج في مايو نحس، ولا يزال شائعًا في إنجلترا إلى يومنا هذا. وهذا شاهد على أن العادة متى استقرت تصبح كالمجرى الذي يحتفره الماء لنفسه ويظل يتدفق فيه عصراً بعد عصر. والعادة يسهل اتباعها وتشق مخالفتها .

وهناك عادة غريبة بقيت إلى الآن ولا سيما بيننا نحن معشر الشرقيين، وهي عادة التحية وشكر الله إذا عطس المرء – يعطس المرء فيقول "الحمد لله" ويقول له الحاضرون "يرحمكم الله" وحمد الله عند العطس أو غيره؛ والدعاء للمرء بالرحمة أمر حسن في ذاته، ولا بأس منه، ولكن كون العطس هو الذي اختصه الناس بهذه العبارات: هو محل المغزى وموضع النظر. والأصل فيه هو الاعتقاد بأن الروح تخرج وترجع إلى الجسم وأن أرواحًا أخرى غير روحه الخاصة تدخل الجسم أيضًا وتحدث لها الصحة أو المرض. فقبائل الزولو مثلا تعتقد أن الأرواح من طيبة وشريرة تخفق حولهم؛ وتحسن إليهم أو تسيء؛ وتبدو لهم في أحلامهم، وتورثهم الأمراض، إذا كانت أرواح سوء، والعطس عندهم دليل على أن روح الجد قد حلت في الجسم، لتفيده الصحه والعافيه والقوة والبأس، ولهذا يسرع الوجد منهم إلى الشكر على هذه البركة التي كان العطس آيتها، وإذا مرض أحدهم جاء عائدوه يسألون (ألم العطس؟) فإذا قيل نعم، كان هذا بشيرًا بالشفاء؛ وإذا قيل لا كان هذا نذير السوء، وأظن أن عندنا في مصر أثرًا من الاعتقاد – على الأقل بين العامة – في دلالة العطس على وشك الشفاء. ولا أحب أن أطيل عليكم بذكر المأثور عن غير الزولو من الشعوب عند العطس فإنه كله متشابه، ومن شاء أن يتوسع في هذا الباب فليقرأ ما كتبه كل من الدكتور "كوللاوي" و"السير توماس براون" .

ولكني أحب أن أقول أن عادة السرور بالعطس والتحية لمناسبته، ليست قاصرة على الشرق، فإن أوربا أيضًا تعرفها – عرفتها قديمًا وتعرفها حديثًا. والذين قرأوا قصة "تليماك" في "الأوديسي" يذكرون ولا شك عطسته المبروكه، هناك أيضًا عطسة الجندي والصيحة التي انطلقت بتمجيد الله من الجند وقد عدها "زينوفون" بشير خير. وهناك أيضًا قول أرسطاطاليس أن الناس يعدون العطس من الآلهة على خلاف السعال. وقد خلف الأغريق القدماء نكته في هذا الباب فزعموا أن رجلاً كان طويل الأنف جدًا فلما عطس لم يشكر الآلهة، لأنه بسبب طول أنفه لم يسمع عطسته!. وكذلك عرف الرومان العطس والشكر عليه والدعاء لمناسبته، ومثل هذا يقال عن الفرنسيين

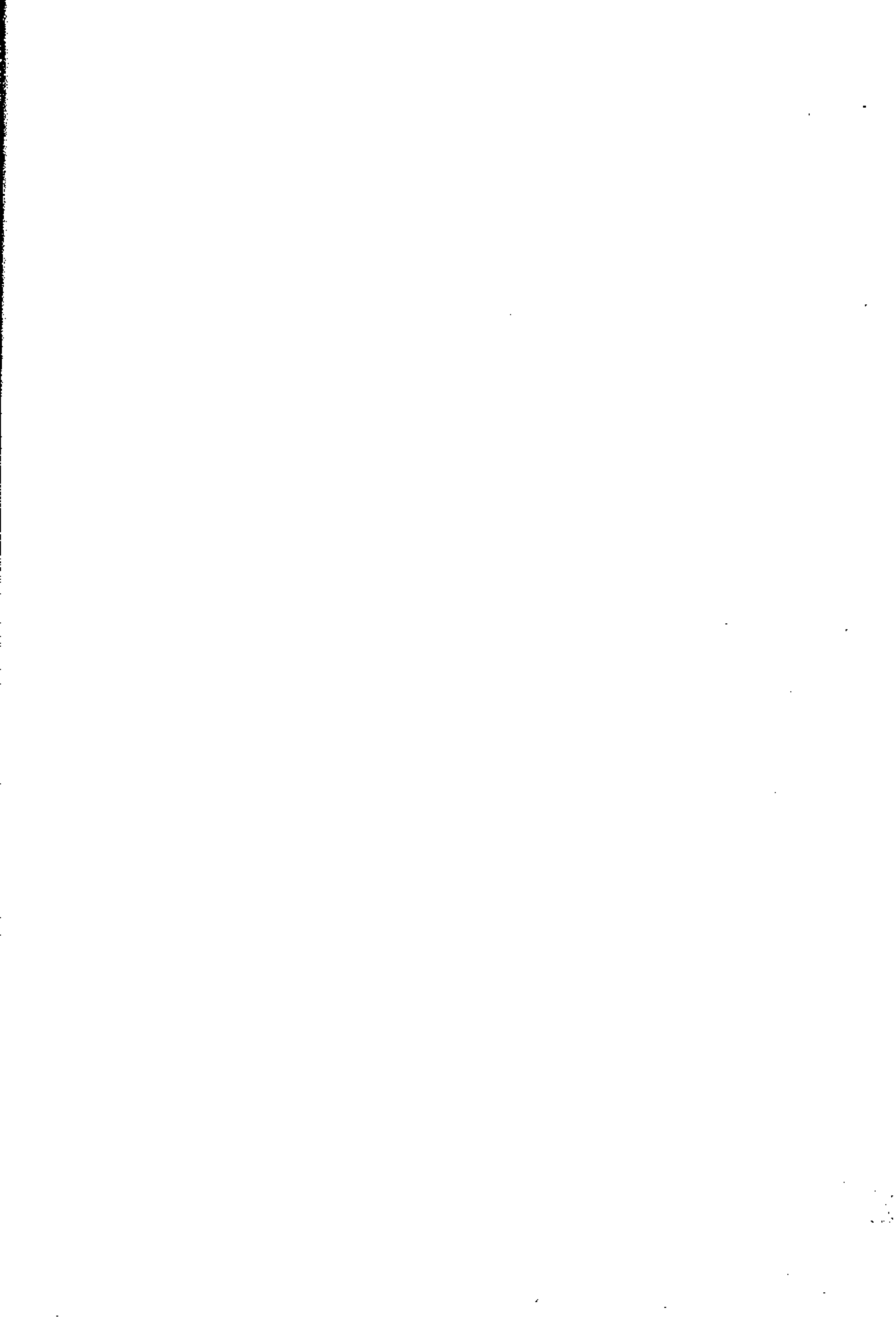
والألمان والإنجليز. وقد وجدت الفقرة الآتية منقولة عن كتاب مطبوع في القرن السابع عشر في آداب السلوك بين الفرنسيين "إذا عطس السيد فلا تصح "بارك الله فيك" بل اخلع قبعتك وانحن له وادع هذا الدعاء بصوت خافت" .

ومن العادات الخرافية التي بقيت آثارها إلى زمننا، عادة وضع أشياء تحت حجر الأساس أو قواعد البناء. وفي اسكتلندا اعتقاد بأن الأقدمين كانوا يريقون الدم الآدمي تحت القواعد. وتقول الأساطير أن مثل ذلك كان يحدث في ألمانيا وسواها. وهناك أسطورة بأنه في سنة ١٤٦٣ احتاج سد "نوجات" إلى الإصلاح والترميم، فنصح بعضهم الفلاحين بأن يلقوا تحت البناء رجلاً حيًا، فسقوا أحد الفقراء المتسولين خمراً، ودفنوه تحت الحجارة – أي وأدوه. وتقول الأساطير عن "ثورنجيا" أن طفلاً اشترى بمال كثير من أمه ورصت حوله حجارة البناء في قصر "ليبنشتين" ليصبح القصر حصنًا منيعًا. تقول الأسطورة أنه صاح بأمه بينما كان البناؤون يصفون الحجارة حوله "لا أزال أراك ياأمي". ثم قال وقد ارتفعت الحجارة من حوله "لا أزال أرى شيئًا منك ياأمي". ولما وضعوا آخر حجر قال "الآن لا أراك يا أمي". وفي بعض الأساطير أن سور "كوبنهاجن" كان يغوص في الأرض كلما فرغ الناس من إقامته، فجيء بفتاة صغيرة وأجلست على كرسي ووضعت أمامها منضدة عليها بعض الألعاب وشيء من المآكل، وبينما كانت تأكل وتلعب كان اثنا عشر من البنائين المهرة، يبنون قبواً عليها وحولها ثم أقيم السور ورفع، على أصوات الموسيقى فلم يغص ولم يتهدم بعد ذلك أبداً. وفي أساطير الصرب أن أخوة ثلاثة عملوا معًا في بناء قلعة "اشقودرة" ولكن الشياطين كانت تهدم بالليل ما يقيمه البناءون بالنهار، فوجب إرضاؤها وصرفها عن الهدم، بضحية بشرية، هي أول من تجيء بالطعام من زوجات الإخوة الثلاث، وقد أقسم الإخوة أن يكتموا هذا عن زوجاتهم، ولكن الكبيرين حذرا زوجتيهما فجاءت زوجة الأصغر، فبنوا عليها، ولكنها توسلت إليهم أن يدعوا هناك فرجة ترضع منها ولدها، فظلت كذلك اثني عشر شهراً. وإلى اليوم تزور النساء المتزوجات مكان هذه الأم الصالحة .

ويطول بنا الكلام إلى غير نهاية إذا ذهبت أورد كل ما ذكرته الأساطير فى هذا الباب فحسبي ما قلت. ولسنا ندفن أحداً تحت حجارة الأساس أو القواعد من الأحياء أو من الأموات، ولكن بقى أثر هو وضع نقود تحت الحجر الأساسى أو حجر العقبة. وقد نضع حجاباً أي ورقة يكتبها أو يخطط فيها رجل طيب. والدافع هو الاعتقاد بأن هذا يجعل البيت مباركاً ومتيناً، وهذا من ذاك وإن خلا من وحشية الوأد .

وقد يتاح لى في وقت آخر أن أواصل الحديث فى هذا الموضوع الذى لا ينتهى وحسبى الآن ما قلت وإذا كان غير كاف أو واف، فما أردت إلا أن أجعله كالفهرس للكتاب أى إشارات إلى الموضوع ليس إلا .

إبراهيم عبد القادر المازنى



فى الحب أيضًا

جواب بعض المسائل[1]

يظهر أنى لم أحسن البيان فيما كتبته عن الحب والوقت الذى تكون فيه النفس أحسن تهيؤًا له، فقد تلقيت رسائل من هنا وههنا، ومن مصر وغيرها من أقطار العرب، جملة ما استخلصته منها أنى حمار طويل الأذنين، وأن لى نهيقًا عاليًا ولكنه نهيق لا أكثر، وقد أكون كذلك فما أدرى، ولو أنى عرفت نفسى على حقيقتها لكان هذا حسبى، وعزائى، إذا كنت هذا، قولُ رصيفى الفاضل ابن الرومى :

"فى طبــع مــــــلائكى لديــه   عــــازف صــادف عن الإطراب

أو حــمــارية فــمــقــدار حظى   شـــبــعـــةٌ عنــده بلا إتعــاب

فبين الملائكه والحمارية هذه الجامعة – إن الملائكية تغرى بالعزوف والزهد ترفعًا أو استنكافًا، أو لا أدرى لماذا، فما ارتقيت قط إلى هذه المرتبة، إن الحمارية تؤدى أيضًا إلى الزهد وإن كان هذا منها عن نقص الإدراك وعدم الشعور بالحاجة. ولا تعنينى الأسباب، وإنما تعنينى النتيجة، وهى كما ترى واحدة والحمد لله، ولقد أطلت النظر إلى وجهى فى المرآة لما وردتنى هذه الرسائل ورفعت يدى إلى أذنىّ أتحسسهما، ثم قلت لنفسى إن الحمارية طبيعية لا صورة، وارتددت عن المرآة ورأسى مثنىٌّ على صدرى وأذناى مسترخيان – مجازًا .

---

(١) نشرت فى "الرسالة" فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٧ (ص١٠٤٥-١٠٤٧) .

وقال أحد الأفاضل الذين كتبوا إلىَّ، إني لو قضيت يومًا على شاطىء البحر فى الإسكندرية لأدركت أن الحب يجىء فى وقت النشاط الجم لا الفتور كما زعمت، واعترف لى غير واحد أنهم أحبوا على الريق، وذكر لى أحدهم أنه كان يلقى صاحبته كل صباح فأحبها، وقال ثان أنه سمع صوتًا فى الصباح فخيل إليه أنه يعرفه، فلما رآها عرف أن ذاكرته لم تخنه، وكان أن أحب الصوت الذى أيقظه من النوم، ولكن الله لم يكتب له الفوز بها. وذكر ثالث أن المرأة تتزين فى كل وقت - فى البيت وخارج البيت الخ الخ فما بى إلى الإطالة حاجة .

لهذا قلت إنى لم أحسن البيان، فما أردت أن أعين ساعة معلومة للحب فى الصباح أوالظهر أو العصر أو الليل، وإنما أردت أن أبين أن الحب - ككل مرض - تكون فرصته حين يكون الجسم متعبًا قليلاً، وإن كان المرء لا يدرك ذلك ولا يفطن إليه. وهذا التعب الخفيف لا وقت له، وما أكثر ما أصبحت برأس مصدع على الرغم من النوم ساعات طويلة فأضحك وأقول لزوجتى :

يا امرأة، هل رأيت أحدًا قبلى يفطر على الإسبرين ؟

فتسألنى : "أبك حاجة إلى الإسبرين؟"

فأقول : "نعم بى حاجة إليه.. إلى صيدلية كاملة من الإسبرين... ولكنى سأحاول الاستغناء عنه. إنما أردت أن أبين لك أن زوجك أعجوبة.. الناس غيرى يصبحون وريقهم يجرى على الفول المدمس والبيض والقشدة واللبن والشاى والمربات وما إلى ذلك. أما زوجك المحترم فلا يخطر على باله شىء من ذلك كل همه قرص من الإسبرين يعفيه من وقع هذه الفؤوس التى تحطم رأسه" .

فتقول : "الذنب لك.. من قال لك افعل ما فعلت البارحة؟"

فأقول : "يا ستى إن المهم الآن هو التسكين وبعد ذلك يصح أن يجىء دور الحساب... ثم إنى لا أذكر ماذا كنت أصنع البارحة.. كلا.. لا يختلج فى ذاكرتى شىء.."

وأما صاحبنا الذى كان يرى فتاته كل صباح فأحبها، فأقول له إن هذا ليس من الحب على الريق وقد وقع لى ماوقع له، أيام كنت تلميذاً فى المدرسة الخديوية، وكان بيتى فى "البغالة" وطريقى إلى المدرسة من درب "الجماميز" وكنت أرى فى كل صباح فتاة على وجهها النقاب الأبيض وحولها ذلك الإزار الأسود - وكان هذا هو اللباس الشائع فى ذلك الزمان - ومعها خادمها يحمل لها كتبها ويتبعها ويحرسها، وهى ذاهبة إلى المدرسة السنية، وعائدة منها إلى البيت، فكنا نلتقى كل يوم، واستملحت وجهها، وأعجبنى قدها، فكنت أتعمد أن أقف على أول الطريق حتى أراها مقبلة وتكرر ذلك فصار عادة .

ومضت سنوات طويلات وأصبحت مدرسا، وإنى لراكب مرة إلى الجيزة وإذا بى أرى أمامى فتاتى القديمة، ومعها طفلان فعرفتها. فما تغيرت عن العهد بها، ونظرت حولى فلم أر أحداً معها سوى هذين الطفلين فتشجعت وقلت لها: "اسمحى لى.. إننا صديقان قديمان إذا كانت ذاكرتك كذاكرتى.. هل تذكرين هذا الوجه الدميم الذى كنت لا أخجل أن ألقاك به كل صباح فى شارع درب الجماميز وأنت ذاهبة إلى المدرسة؟"

فابتسمت وقالت : "أظن أنى أذكره" .

قلت - ويداى على طفليها : "وهذان... المحروسان أهما اللذان كان يمكن أن يكونا ولدى؟" .

ففهمت وهزت رأسها أن نعم، فقلت : " وتسمحين لى أن أقبلهما. إذ كنت لا أستطيع أن أقبل غيرهما؟.

فهزت رأسها مرة أخرى، فقبلتهما وقلت كالمعتذر: "اذكرى أنهما كان يمكن أن يكونا لى"

وقصت على قصة عجيبة، فقالت : إن جاراً لها أحبها وإن أباه أبى أن يزوجه قبل أن يفرغ من المدرسة، فحاول أن يتصل بها فلم يوفق، فانتحر .

فسألتها : "أين كنت تسكنين؟" فذكرت لى اسم الشارع والحارة، فإذا الذى انتحر قريب لى! وقلت لها: أما أنا وأنت فلم ننتحر... آثرنا أن نتزوج... أظن أن الأمرين سيان..."

فأنا أيضا أحببت فى الصباح، كما أحب الفاضل الذى كتب إلىّ، ولكن الحب لم يكن على الريق بل كان بتأثير العادة وفعلها .

وصاحبنا الذى سمع الصوت فى الصباح فتذكره - هذا أيضا لم يحب على الريق وإنما استيقظت فى نفسه ذكرى، ولو كانت هذه أول مرة يسمع فيها الصوت الحلو لا ستغرب، ولكان قصاراه أن يستعذبه وأن يشتاق أن يرى صاحبته، ولما منعه ذلك أن يتثاءب ويتمطى ويشتهى أن يعاوده النوم .

بقيت الزينة وأظن أنى قلت إن المرأة تحب أن تؤكد جمالها وتبرز مفاتنها بالزينة، وأنها لا تستطيع أن تهمل زينتها حين تخرج فى أى وقت، فلا خلاف بينى وبين الناقد الفاضل فما أنكرت أن المرأة تطلب الزينة، لأن طبيعتها تقضى عليها بذلك حتى لو كان الرجال لا يرتاحون إلى هذه المساحيق المختلفه الألوان، ولو ظللت تنهى المرأة عن ذلك طول العمر لما انتهت إلا إذا كانت هى تزهد فى المحسنات من تلقاء نفسها أو تضطر إلى الزهد لمرض جلدى أو نحوه، وما أكثر من قلت لهن : "أين منديلك؟"

فتخرجه وترينه وتسألنى: "ماذا تريد أن تصنع به؟"

فأقول : "لست أحب أن أرى فمك الجميل كالطماطمة المشقوقة، فهاتى المنديل لأمسح هذا الأحمر".

فتأبى وتقاوم، فألح عليها وأقول: "ثم إن هناك داعيًا آخر هو أن هذا الأحمر يحول دون التقبيل" فيكون هذا مغريا لها بالإصرار على ترك الأحمر على شفتيها، على حين كنت أظن - لغرورى - أنى زهدتها فيه ..!!

وأحمد الله الذى أعفانى وأراحنى من سخافة المساحيق، فإن زوجتى لا تتخذها، فليس فى بيتى ذرة من الأحمر أو الأبيض، ومن القواعد المقررة عندنا أن على من

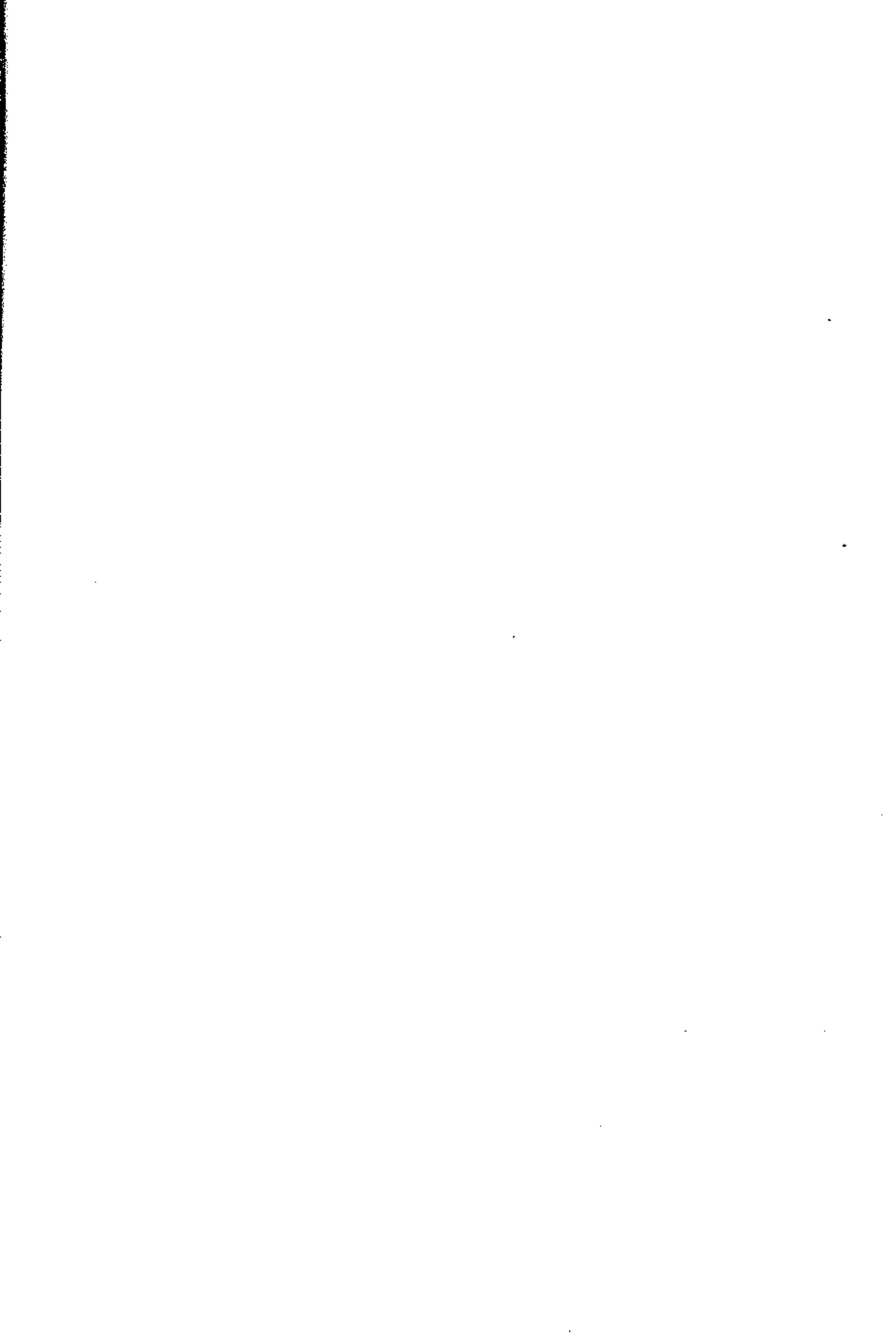
تزورنا من قريباتنا أو من هنّ في حكمهن لتقض يومًا أو أيامًا معنا، أن تجيء معها بمساحيقها. فلن تجد حتى ولا ما يُنفَضُ على الوجه بعد حلاقة الذقن. وأحسب أن زوجتي اطمأنت إلى عجز فريستها عن النجاة فهي لا تعنى الآن بشيء من هذه المزيفات ..

ولست مجنونًا حتى أقف على شاطيء البحر وأنظر إلى الفتيات الناهدات، الرشيقات، المشوقات، وهن يخرجن من الماء وقد لصق بأبدانهن القليل الذي عليها، فإني محتاج إلى عقلي كله. ولكني أحسب الفاضل الذي كتب إليّ يدعوني إلى ذلك، يدرك أن الأمر هنا أشبه بأن يكون أمر اشتهاء، لا حب، وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة، أن تدركه الحيرة، وأن يزوغ بصره، فلا يعود يدري أي هؤلاء الجميلات أولى بحبه، فان لكل جسم فتنة، ولكل محيا سحره. ولو أني وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعًا، جملة، وأن أشتهي أن أضمهن كلهن في عناق واحد، فإن الظلم قبيح. ونفسي لا تطاوعني على غمط الجمال في أية صورة من صوره. ومن يدري... لعل القدرة على إدراك معاني الجمال في مظاهره المختلفة هي التي وقتني الحب، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص أجن بها. ولكني لست واثقًا أن هذا كهذا، وإن كان يحلو لي أن أعر نفسي به والأرجح أنها بلاده، وإن جلدي سميك ...

ويجب أن نفرق بين النشوة العارضة والنشاط الصحيح، وبين الإعجاب والحب! وأن ننسى كل ما علق بالحب من الحواشي الخالية التي كان الفضل فيها لمبالغة الشعراء وهذيان المرضى، فليس الحب إلا مرضًا، فالشأن فيه هو الشأن في كل مرض. والمرء يصاب بالأمراض في حالتي الصحة والضعف، ولكنه يكون أكثر تعرضًا للمرض في حالة الفتور الخفي الذي يضعف المقاومة، لأنه يغري بالاطمئنان على حين ينبغي الحذر، أو هو في حقيقته ضرب من الجوع كما قلت. وفي الناس الشره المبطان، وفيهم القنوع الذي يكفيه اليسير الموجود. والجوع ضعف. والجائع لا يملك من القدرة على مقاومة الإغراء ما يملك الشبعان .

هذا جواب بعض ما ورد في المسائل. وقد مللت الحب وذكره، ولم أكن أظن أن الكتابة فيه تثير كل هذه الضجة، قاتل الله الشعر والشعراء !!

إبراهيم عبد القادر المازني



الجيل الجديد[1]

زارني منذ بضعة أيام عدد من شبان هذا الزمان فنظرت إلى ثيابهم الجميلة وتفصيلها المحبوك على قدودهم المشوقة وتحسرت على أيامنا. وكان بينهم واحد يلبس بنطلونًا قصيرًا فقلت له : "أتلبس هذا عادة؟"

قال : "نعم. سبور"

قلت : "في أي مدرسة أنت؟"

قال : "في الخديوية"

قلت : "اسمع. أنا أيضًا كنت تلميذًا في المدرسة الخديوية ولا أذكر أني رأيت فيها – في تلك الأيام – تلميذًا يلبس بنطلونًا قصيرًا، لا أدري لماذا؟ ربما كانت الروح "الاسبور" تنقصهم في تلك الأيام، ولكني أعرف أيضًا أني في صغري كنت لا أقبل أن ألبس هذا البنطلون القصير... كان أخي الأكبر يأخذني قبيل افتتاح المدارس إلى محل "ماير"، وكان أشهر محلات الثياب في تلك الأيام. فيعرض عليّ البائع أمثال هذا البنطلون فأقول لأخي : هذه سراويل لا بنطلون، وآبى كل الإباء أن أتخذها، وأصر على البنطلون الطويل فيضحك أخي ويقول للبائع : "هات له بنطلونًا طويلاً.. إنه يريد أن يكون رجلاً ويحس أنه رجل، فلا داعي للتنغيص عليه".. وأنا أفهم أن تلبس هذا القصير حين تلعب ولكن الحياة ليست كلها لعبًا.. فيها ساعات العمل والجد على ما أظن" .

---

(١) نشرت في "الرسالة" في ٥ يوليه سنة ١٩٣٧ (ص١٠٨١-١٠٨٣) .

فقال أحد زملائه : "إنه لا يزال صغيراً"

قلت :"لا أدرى. لقد كنت أنا أيضًا صغيرًا لما كنت أرفض ارتداء هذا البنطلون. كنت في التاسعة من عمري يومئذ وأحسب أن من كان في التاسعة جدير بأن يسمى صغيرًا.. وليس للإحساس بالرجولة وقت معين أو سن مخصوصة.. فمتى تريد يا صاحبى أن تشعر أنك رجل!" .

والتفت إلى إخوانه وقلت لهم : "ليت واحداً منكم يقول لى كيف تقضون يومكم"

فترددوا . وصار واحد منهم يبتسم، وثان يفرك يديه، وثالث يتمتم بكلام غير مسموع، فقلت لهم: "أنا أصف لكم كيف كنا نقضى اليوم في حداثتنا... كان بيتنا فى ذلك الوقت عتيقًا جداً ، وله فناء واسع كبير فيه شجرة جميز ضخمة. وكان فى الفناء "حاصل" رحيب فيه أيضًا بئر، فكنت أستيقظ فى الساعة الخامسة صباحًا – صيفًا وشتاءً – فأنحدر إلى هذا الحاصل وأدلى دلوى في البئر فأملأه وأصبه على بدنى – بعد خلع ثيابى طبعًا. كان هذا يقوم عندى مقام "الدوش" فى أيامنا هذه... فقد كان الماء يحمل إلى البيوت فى القرب على ظهور السقائين لا فى الأنابيب كما هو الحال اليوم... ثم أصعد الى المسكن فأفطر وأتناول كتابًا وأقرأ حتى يدنو موعد المدرسة فألبس ثيابى بسرعة... فى دقيقة واحدة بلا مبالغة، وما زلت الآن قادراً على ارتداء الثياب في مثل هذا الوقت القصير... أى فى دقيقة... وأحسب أنى لو عملت في فرقة تمثيلية لأدهشت المتفرجين بسرعة اللبس... ما علينا... إنما ذكرت هذا لأنى رأيت كثيرين يضيعون ساعات فى ارتداء الثياب: يقفون أمام المرايا ويتأملون أنفسهم فى صقالها من الخلف والأمام ومن اليمين والشمال كأنهم سيعرضون في مسابقة للجمال، أو كأن أهم عمل للإنسان في هذه الحياة هو أناقة الملبس وحسن البزة وجمال الهندام. إذا مالت ربطة الرقبة نصف ملليمتر كان هذا عيبًا فظيعًا؛ وإذا كانت هناك ذرة واحدة من التراب على نعل الحذاء خربت الدنيا و قامت القيامة فى البيت على الخادمة المهملة. ما علينا كما قلت. ثم أذهب أجرى إلى المدرسة أجرى بالمعنى الحرفى لأنى كنت أقرأ فلم أجعل بالى إلى الوقت وموعد المدرسة. وما أكثر ما كنت أجرى وفى

يدى ربطة الرقبة فلا يتيسر لى أن أضعها حول رقبتى إلا فى الصف أو فى المكتب. ولو تخلفت عن المدرسة لما كان فى ذلك بأس ولا منه ضير، فقد كنت أنا ولى أمر نفسى، ولكنا كنا نحب المدرسة وكانت لنا رغبة فى التعلم. وينقضى اليوم المدرسى فنكر راجعين إلى بيوتنا ثم نخرج للرياضة والنزهة والترويح عن النفس ساعة أو ساعتين .

وأذكر لكم شيئًا.. كنا ثلاثة أو أربعة لا نكاد نفترق. ولم نكن فى مدرسة واحدة ولكنا كنا نلتقي بعد المدرسة في بيت أحدنا ومعنا كتبنا أو بعضها فنتبادل الدروس التي تلقناها في يومنا، ثم نمضي إلي قصر النيل أو غيره -علي أرجلنا - فإذا كان اليوم يوم خميس ركبنا زورقًا علي النيل. وكان أبو أحدنا رجلاً فيه شذوذ، فكان يتفق أن يجيء إلى بيتى ويقف فى الفناء الرحيب تحت الجميزة ويصفق، حتى إذا شعر أن أحداً أطل من النوافذ العليا كف عن التصفيق وانطلق يصيح:" يا أهل عبد القادر.. حوشوا ابنكم عن ابنى.. أفسد أخلاقه وعلمه السهر إلى الساعة اثنين" فيخيل لمن يسمعه يصيح أننا نسهر إلى الساعة الثانية صباحًا أى بعد منتصف الليل، ولكنه كان يعنى الساعة الثانية بالحساب العربى: أى العشاء أو بعد ذلك بقليل... "

فقال أحد الشبان : "لم يكن فى أيامكم سينما ولا غيرها من الملاهى التى تضيع الوقت" .

فقلت : "إن اللهو ميسور فى كل وقت. وطالبه لا يعدمه فى أى مكان أو زمان. والمهم هو إرادة اللهو لا اللهو فى ذاته. وأنا أراكم تريدون الحياة كلها لهوًا لا جد فيها ولا عمل؛ وهذا هو الفرق بيننا وبينكم، فقد كنا ندرك أن للهو ساعات لا ينبغى أن نعدوها، أما أنتم فلا يكاد الواحد منكم يدرك أن للعمل وقتًا أو أن العمل واجب.. تريدون اللقمة ممضوغة بل مهضومة قبل أن تضعوها فى أفواهكم، بل أنتم لا تريدون أن تكلفوا أنفسكم عناء بلعها وازدرادها.. من منكم يعنى بأن يفتح كتابًا غير كتب المدرسة؟ . لقد كنا نذهب إلى المكاتب ونبحث فيها عما نريد من الكتب.. وأنتم تنشر لكم الصحف إعلانات مشوقة مرغبة مغرية عن الكتب فلا يخطر لأحدكم أن يشترى

منها كتابًا.. حتى كتب المدرسة لا تقرأونها.. وشكواكم أبدًا من الامتحان وصعوبته.. وسعيكم دائما إلى التسهيل والتخفيف والرأفة.. وما أحسبكم تطلبون إلا أن تعطوا الشهادات بلا امتحان.. والوظائف بلا استحقاق.. وقد سمعت بعضهم يقول إن الجرائد والمجلات تشغل الطلبة في هذه الأيام عن الدرس والتحصيل، وأعتقد أن هذا كلام فارغ فقد كانت في أيامنا جرائد ومجلات كنا نقرأها جميعًا.. اللواء والمؤيد والجريدة والمقطم والدستور والهلال والمقتطف، بل كنا نذهب الى دار الكتب لنقرأ فيها المجلات القديمة مثل الضياء والبيان لصاحبيهما المرحوم اليازجي... وكذاب من يقول إنكم تقرأون الصحف، فما تقرأون فيها حين ترونها إلا أخبار الامتحان والإضراب والمظاهرات الساعية إلى الوزارات تستجدي النجاح... وما تقرأون إذ تقرأون إلا المجلات الهزلية لأن حياتكم هزل بحت" .

فقال أحدهم : إن الحركة الوطنية هي المسئولة عن انصراف الطلبة عن التحصيل. فلم يقنعني قوله هذا وبينت له أن الحركة الوطنية كانت أيضًا في أيامنا... بل كانت في ذلك الوقت أحمى، وكان مصطفى كامل يقيم البلاد ويقعدها بخطبه ومقالاته اليومية، ولكن قراءة المقال أو سماع الخطبة لا يستغرق اليوم كله ولا يستنفد الجهد أجمعه... وقد كانت هناك في أيامنا جمعيات أدبية شتى وكنا نعنى بأن نشهدها كلها. ولو أن جمعية أدبية قامت في زماننا هذا لما حضرها إلا مؤسسوها... وحتى هؤلاء في مواظبتهم على الحضور شك كبير.. وفي كل أمة صحف ومجلات وأمور تشغل أبنائها، وما أظن أن أحدًا سيدعي أن مشاغلنا أكبر من مشاغل الشعب البريطاني أو الألماني أو الفرنسي.. ومع ذلك لا نرى هذه البلادة المخيفة والانصراف المونس عن الجد .

وقصصت عليهم قصة فقلت: "إني بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين العليا وأصبحت مدرسًا اتفق يومًا أن كنت جالسًا في مقهى بميدان قصر النيل – ميدان الاسماعيلية الآن – وكان معي كتاب "حديث المائدة" لويندل هولمز، وكنت أقرأ فيه حديث الشاعر على المائدة، فمر بي إنجليزي كان معلمًا لي في مدرسة المعلمين فخففت إليه وحييته، فقد كنت أحبه، فكان أول ما قاله لي : "أظن أنك لا تقرأ شيئًا في

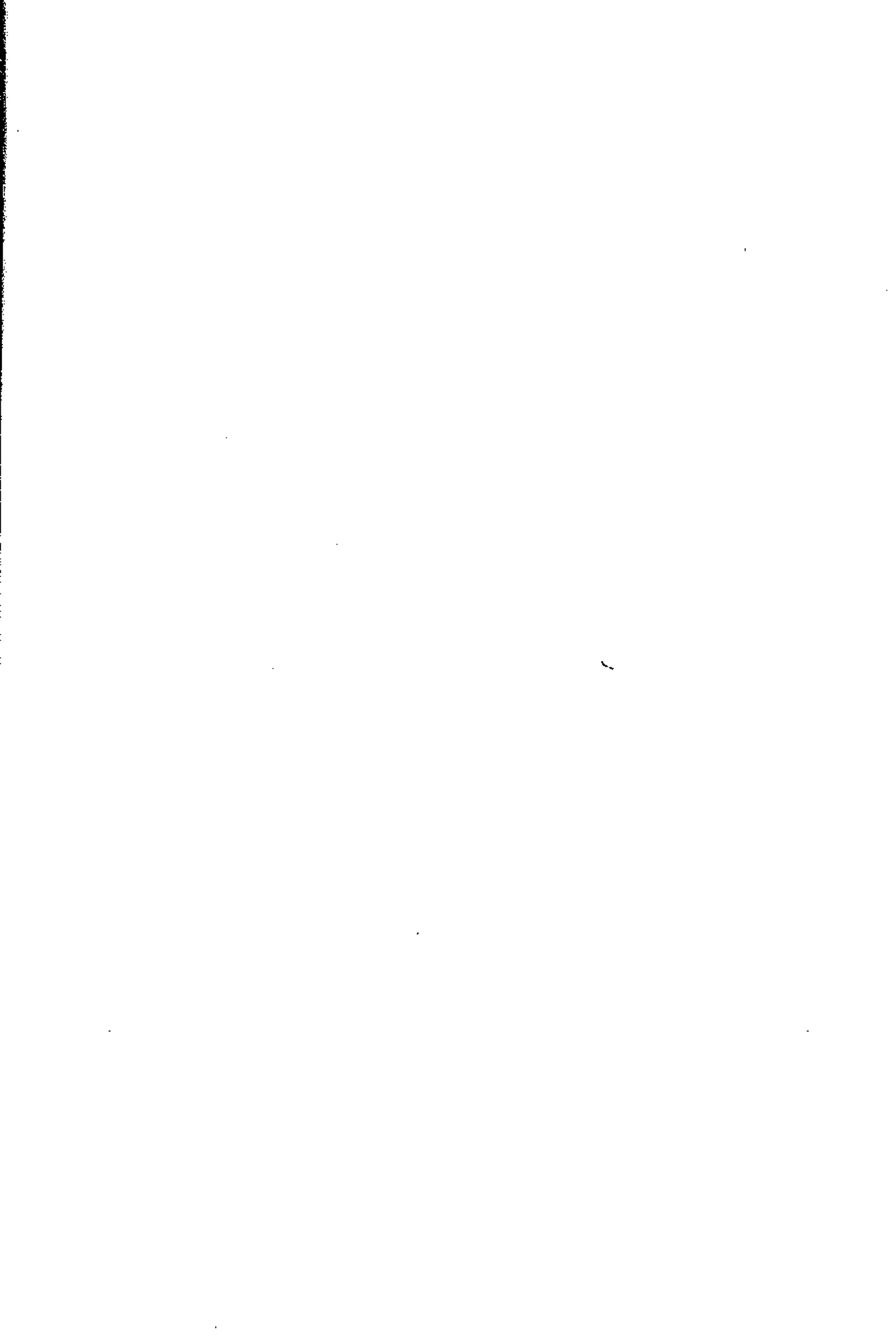
هذه الأيام؟" فسألته عن سبب هذا الظن القبيح بى فقال : "ألست مدرسًا وموظفًا ولك مرتب تتقاضاه فى آخر كل شهر؟ فما حاجتك إلى القراءة؟؟" وكان يتهكم. ولو أنى شئت لما عبأت بسوء رأيه هذا ولكنه شق على أن يتوهم أنى ماكنت أقرأ إلا طلبًا للشهادة ورغبة فى الوظيفة، فرجعت إلى حيث كنت قاعداً وعدت إليه بالكتاب الذى كنت أقرأ فيه ودفعت به إليه وقلت له: "اسألنى إذا شئت.. امتحنى.. نعم فإنى مستعد" فابتسم وقال : "إنما كنت أمزح.. لأحثك على المواظبة على الاطلاع.. وإنى لأعرف أنك تحب التحصيل للتحصيل". ففرحت بهذا جداً وعدت إلى مجلسى مسروراً مغتبطًا بحسن رأى أستاذى: وقد لقيته بعد ذلك بسنوات طويلات المدد فى إنجلترا وكنت أهم بالعودة وأتزود من مكتبة هناك فقال لى: "أراك لا تزال تقرأ؟"

قلت :"إن لنا مثلا يقول إن الزامر يموت وأصابعه تلعب.. صار الأمر عادة يا سيدى.. لا أستطيع أن أنام إلا إذا قرأت شيئًا.. لا لأنام فإن الكتب لا تنيمنى، بل لأحلق فى سماء الفكر وأرتفع لحظة عن هذه الأرض.."

فاعتذر أحدهم بأن الدروس كثيرة وأنها مضنية، وهذا صحيح، فإنها أكثر مما ينبغى، ولكنى قلت لهم: إن دروسنا كانت أقل وأفرع وكان أمرها أهون، ولكن الذى كنا نقرأه من تلقاء أنفسنا، بلا حث أو حض، كان أضعاف أضعاف ما تتبرمون منه.. لقد كان أحدنا يقرأ فى الليلة الواحدة كتابًا.. من منكم يعرف أن لداروين كتابًا اسمه أصل الأنواع؟.. أو من منكم يعرف اسم داروين؟.. لقد قرأت هذا الكتاب الجاف فى صدر أيامى.. وقرأته بلا معين وحطمت رأسى به.. وما أكثر ما حطمت رأسى بأمثاله.. الحقيقة أنكم قوم ولا مؤاخذة فارغون.. وأنتم الذين سيكون فى أيديكم زمام هذا البلد المسكين!"

ولا أعرف لماذا زارنى هؤلاء الشبا ن، ولكنى أعرف أنهم انصرفوا راضين على الرغم من هذه العلقة !

إبراهيم عبد القادر المازنى



السرقات الأدبية[1]

سأقص على القراء حادثة أعذر من لا يصدقها ولا ألوم من يرتاب في صحتها، ولكنها مع ذلك حقيقة، وبعض الحقائق أغرب من تلفيقات الخيال. وذلك أنى على أثر الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ ذهبت إلى الإسكندرية لأقضى فيها أياماً أو لأتخذ فيها مقامى – حسب الأحوال – وكنت لا أزال سقيم الأعصاب جداً. وكنا فى رمضان، فأفطرنا واسترحنا ثم خرجنا لنحيى الليل بالسهر كما هى العادة، وكنت منشرح الصدر ولكنى لم أكد أتجاوز عتبة البيت حتى وقفت وقلت لقريبى : إنى محموم، فأنا راجع. فجسنى فلم يجد بى شيئًا فأصررت على أنها الحمى، فرقدت وكنت لا أكاد أطيق الصهد الذى أحسه. وزال عنى ذلك بعد ساعة أو اثنتين غير أنى لزمت الفراش وعادنى طبيب الأسرة فى اليوم التالى فقال : إن هذه حمى عصبية. فاستغربت ولكنى عانيت من الأعصاب ما جعلنى أصدق كل شيء .

وبقيت أيامًا فى البيت زارنى فى خلالها صديقى الأستاذ العقاد وترك لى رواية روسية أتسلى بها، فأكببت عليها وقرأتها فى ساعات أحسست بعدها أنى صرت أقوى وأصح بدنًا وأقدر على المكافحة والنضال فى الحياه، وأنه صار فى وسعى ان أستخف بما يحدث لى سقم الأعصاب من الوهم. وعدت إلى القاهرة، ومضى عام فطلب منى بعضهم أن أترجم له رواية، فقلت لنفسى أنى مدين لهذه الرواية الروسية بشفائى وبالروح الجديدة التى استولت علي، فيحسن أنقلها إلى العربية عسى أن تنفع غيرى كما نفعتنى. وقد كان. نقلت الرواية بسرعة، وكنت أذهب إلى المطبعة لتصحيح المسودات فيقول لى العامل أحيانًا: إن الأصول نفدت فأقعد فى أى مكان وأفتح الرواية

---

(١) نشرت فى "الرسالة" فى ٢ أغسطس سنة ١٩٣٧ (ص١٢٤٣-١٢٤٧) .

وأروح أترجم وأرمي للعمال بالورقة بعد الورقة. وكأنني أدون كلامًا حفظته من قبل. ولست أذكر هذا لأباهي به ولا لأقول لكم إني رجل بارع، بل لسبب آخر سيأتي ذكره في موضعه. وفرغنا من الترجمة والطبع؛ ولم يعن الناشر بأن يبعث إليَّ بنسخة من الرواية ولم أعن أنا بأن أطلب أو أدخر نسخة؛ وقد نسيت أن أقول أني سميتها "ابن الطبيعة" وكان اسمها في الأصل"سَنين" وهو اسم بطلها. وليس هذا إعلانا فقد نفدت من زمان طويل. كان هذا في سنة ١٩٢٠ . وفي سنة ١٩٢٦ شرعت أكتب قصة "إبراهيم الكاتب" وانتهيت منها ولم أرضى عنها فألقيتها في درج حتى كانت سنة ١٩٣٠ فخطر لي أن أنشرها، فدفعت بها إلى المطبعة. فاتفق بعد أن طبعنا نحو نصفها أن ضاعت بعض الأصول، وكنت لطول العهد قد نسيت موضوعها وأسماء أشخاصها فحرت ماذا أصنع، ثم لم أر بدا من المضي في الطبع فسددت النقص ووجهت الرواية فيما بقي منها توجيها جديداً. ونشرت الرواية. وبعد شهور تلقيت نسخة من مجلة "الحديث" التي تصدر في حلب، وإذا فيها فصل يقول فيه كاتبه إني سرقت فصلاً من رواية "ابن الطبيعة". فدهشت ولي العذر. واذكروا أني أنا مترجم "ابن الطبيعة" وناقلها إلى العربية، وأن أربعة آلاف نسخة نشرت منها في العالم العربي، وإني أكون أحمق الحمقى إذا سرقت من هذه الرواية على الخصوص. فبحثت عن "ابن الطبيعة" وراجعتها، وإذا بالتهمة صحيحة لا شك في ذلك، بل هي أصح مما قال الناقد الفاضل فقد اتضح لي أن أربع أو خمس صفحات منقولة بالحرف الواحد من "ابن الطبيعة" في روايتي "إبراهيم الكاتب". أربع أو خمس صفحات سال بها القلم وأنا أحسب أن هذا كلامي. حرف العطف هنا هو حرفه هناك، أول السطر في إحدى الروايتين هو أوله في الرواية الأخرى... لا اختلاف على الإطلاق في واو أو فاء أو اسم إشارة أو ضمير مذكر أو مؤنث... الصفحات هنا هي بعينها هناك بلا أدنى فرق. ومن الذي يصدقني إذا قلت إن رواية "ابن الطبيعة" لم تكن أمامي ولا في بيتي وأنا أكتب روايتي؟ من الذي يمكن أن يصدقني حين أؤكد له أني لم أر رواية "ابن الطبيعة" منذ فرغت من ترجمتها، وأني لو كنت أريد اقتباس شيء من معانيها أو مواقفها لما عجزت عن صب ذلك في عبارات أخرى؟ لهذا سكت ولم أقل شيئًا، وتركت الناقد وغيره يظنون

ما يشاؤون فما لى حيلة. ولكن الواقع مع ذلك هو أن صفحات أربعًا أو خمسًا من رواية "ابن الطبيعة" علقت بذاكرتي – وأنا لا أدرى – لعمق الأثر الذى تركته هذه الرواية في نفسي فجرى بها القلم وأنا أحسبها لى. حدث ذلك على الرغم من السرعة التى قرأت بها الرواية والسرعة العظيمة التى ترجمتها بها أيضا. ومن شاء أن يصدق فليصدق، ومن شاء أن يحسبنى مجنونًا فإن له ذاك. ولست أروى هذه الحادثة لأدافع عن نفسي فما يعنيني هذا، وإنما أرويها على أنها مثال لما يمكن أن تؤدى إليه معابثة الذاكرة للإنسان. وليست الذاكرة خزانة مرتبة مبوبة، وإنما هى بحر مائج يرسب ما فيه ويطفو بلا ضابط نعرفه، ومن غير أن يكون لنا على هذا سلطان. فالمرء يذكر وينسى. ويغيب عنه الشيء ويحضر بغير إرادته وبلا جهد منه، ويعلق بذاكرته ما يعلق وهو غير دار أو مدرك لما يحدث، وتتزاوج الخوالج وتتوالد كما يتزاوج الناس ويتوالدون وهو غير شاعر بشيء مما يجرى فى نفسه من التفاعل وأثره .

ولست أحب أن أجعل من نفسي قاضيًا يحكم على هذا بالسرقة وعلى ذاك بالانتحال إلى آخر هذا، وإنما أحب أن أعلل وأفسر الحالات أو الحركات النفسية التى تؤدى إلى ما يمكن أن يسمى سرقة أو اقتباسًا أو التى تغرى إنسانًا بما فكر فيه غيره. ولا جديد فى تعليلى أو تفسيرى فإنه قائم على علم النفس، وإنما الجديد فيه هو التوجيه أو التطبيق، ولا فضل فى هذا ولا مزية له. ومن أجل ذلك أقصر هذا الفصل على الأمثلة فإن المقام لا يتسع لها ولما يبدو لى من وجوه التعليم، وأرجو أن تتاح لى فرصة قريبة أشرح فيها مذهبى ورأيى فى هذه الحالات .

وقد عنى العرب بتعقب شعرائهم، فكل شاعر ظهر له من ينخل كلامه ويغربله ويرد المعانى إلى أصحابها أى إلى الذين سبقوا إليها. والسبق فى الزمن هو الذى يكسب السابق الحق فى المعنى، وأنا أقول المعنى لأنه لم يكن ثم موضوع للقصائد غير الأغراض المألوفة مثل المدح والهجاء والفخر والغزل وما إلى ذلك. ولما كان البيت فى الشعر العربى القديم هو الوحدة فقد صارت الأبيات المفردة هى مدار هذا الدرب من النقد، فهذا أخذ معنى البيت الفلانى من فلان، وذاك نظر إلى قول علان، إلى آخر هذا إن كان له آخر. ولهم فى هذا الباب حكايات بعضها لا شك مختلق والبعض قد يكون صحيحًا،

وأعني بهذه الحكايات ما يراه المرء في كتب الأدب من أن بعض الشعراء المستهترين المستخفين بالدنيا وما فيها من مثل أبي نواس سمع شاعراً مغموراً ينشد قصيدة فأعجبه معنى بيت فيها فأخذه جهرة وقال: أيروى لك هذا المعنى وأنا حي؟.. ومثل ما يروون من أن المتنبى كان ينكر في حياته أنه قرأ شعر ابن الرومي، فلما قتل وجدوا بين أوراقه نسخة خطية بالطبع من ديوان ابن الرومي وعليها تعليقات بخط المتنبي. ولا فائدة من محاولة التمثيل لهذا النوع من السرقات فإن الكلام خليق أن يطول بلا جدوى ومن غير أن نجيء فيه بجديد، وأكثر القراء يستطيعون أن يرجعوا إليه إذا شاءوا في كتب الأدب المتداولة. لهذا أوثر أن أسوق أمثلة مما في الآداب الغربية مما يدخل في باب السرقات فإن الأمر في هذه أمر موضوع يقتبس، أو قصيدة برمتها تؤخذ من أولها إلى آخرها على طولها بالحرف الواحد، والقليلون يعنون بتعقب هذا فذكر أمثلة منه خليق أن يكون أمتع .

أشهر شعراء الإغريق هومر كما لا أحتاج أن أقول؛ وقد قرأت ترجمتين إنجليزيتين له وحطمت رأسي بهما، وأعترف أنه لم يروقني منه إلا القليل، ولكن كنت أخشى أن أجاهر بهذا الرأي لئلا يقول عني إخواني إن ذوقي فاسد أو إن بي نقصاً في الاستعداد الأدبي، أما الآن فإني أستطيع أن أجهر بذلك وأن لا أخشى تهماً كهذه. على أني لا أذكر هومر الآن لأقول رأيي فيه، بل لأروي قصتين صارتا الآن معروفتين : الأول أن الأدب الإغريقي كان في العصور الوسطى مجهولاً أو مدفوناً، وكان لا يعرفه إلا الرهبان الذين احتفظوا بنسخ منه ضنوا بها على النشر والإذاعة، لأنه أدب وثني، وفيما عدا هؤلاء الرهبان لم يكن أحد يعرف شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً عن الأدب الإغريقي، فكان من سخرية الأقدار أن الرجل الذي رد إلى العالم هومر في القرن الرابع عشر كان سكيراً نصاباً وشريراً كبيراً، وأن الرجل الذي حمله على ترجمة هومر كان من أبرع كتاب النهضة، وأن الرجل الذي آلى على نفسه أن يعمل على نشر جمال الأدب الإغريقي في العالم كان لا يعرف حرفاً واحداً من اللغة الإغريقية. هؤلاء الثلاثة الذين جمعهم الحظ هم بلاتس Pilatus وبكاكشيو Boccaccio وبترارك Petrarch .

فأما أولهم فكان مغامراً يؤثر أن يستخفى لأسباب لعل البوليس أعرف بها، وكان قذراً كثير الشعر دميم الخلقة، ولكنه كان يعرف اللغة الإغريقية فجاء به بوكاكشيو وأنزله عنده ضيفًا فبقى ثلاث سنوات. أما بوكاكشيو فمعروف مشهور، وهو عندى أنبغ نوابغ الإيطاليين، ولكنه كان سـاذجًا وكان لا يعرف قدر نفسه، وكان عظيم التوقير لبترارك، حتى لقد صار فى آخر حياته يخجل لأنه كتب ما كتب باللغه الإيطاليه العاميه لا باللاتينية. وأما بترارك فقد اقتنع لسبب لا نعرفه بأن المخرج الوحيد من السوء الذى يراه في زمانه هو إحياء درس الأدب الإغريقي، ويظهر أنه كان هناك اعتقاد بأن هذا الأدب المقبور هو القادر وحده على حل المشاكل التى كانت تواجه العالم فى ذلك الزمان، وهكذا عرف الناس هومر بعد أن قبره الزمن عدة قرون .

ومن المحقق أن هومر كان يعرف الأساطير المصريه وأنه استعان بها فى قصيدته – الإلياذة والأوديسية – وأحسب أن كثيرين قرأوا البحوث التى نشرها الأستاذ عبد القادر حمزة وأثبت فيها – استنادا إلى ما وقف عليه وكشف عنه العلماء بالآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم – أن هومر أخذ كل العقائد وكل القصص من المصريين. والمصريون كما لا أحتاج أن أقول – أسبق بآلاف السنين لا بمئاتها فقط، وهم الذين نشروا فى العالم القديم العقائد التى لا تزال باقية إلى اليوم. وهم أول من فكر في الروح والآخرة والحساب والعقاب. وقد ذهبت مدنيتهم ولكن آثارها بقيت وهى على قلتها كافية للدلالة على حضاراتهم. وقد نشر الأستاذ عبد القادر حمزة النصوص، وأثبت منها أن هومر أخذ قصصه من مصر وأن كل ما فعله هو تغيير الأسماء وقلبها إغريقية. وأنا أزيد على ذلك أن هيرودوت يقول عن هومر كلمة لها مغزاها، ذلك أنه يصف عمله بأنه "تنظيم" ويقول عنه فى موضع آخر إنه وضع "إطاراً" للقصص، وفى موضع آخر أيضًا إنه "جمع". ومعنى هذا أنه كان معروفًا أن هومر لم يبتكر قصصه وإنما جمعها ورتبها ونظمها. ويظهر أنه كانت هناك روايات متعددة مختلفة وأن هومر شعر بالحيرة بينها ولم يدر أيها يؤثر: الرواية المصرية أم الروايات المشوهة التى شاعت فى أسبارطة وأثينا وفى غيرهما؟ ولهذا اضطرب ولم يستقر على رأى فى أيهما هو البطل – هكتور أو أخيل – ويرجح بعضهم أنه لحيرته بين الروايات

المختلفة أعد نصين، واحدا ينشده على الجانب الأسيوى والآخر ينشده على الجانب الأوربى. على أن المهم أن هومر أخذ موضوعه كله بكل ما انطوى عليه من مصر، فلولا مصر لما كان هومر. وأحسب أن الدنيا ما كانت حينئذ تخسر شيئًا فقد أصبح هومر اسمًا لا أكثر .

وأدع التوافه مثل قول أكثر من ناقد واحد: إن الرومان مدينون بفكاهتهم للإغريق، وإنه ما من نكته فى الأدب الرومانى إلا وهى مأخوذة من نكت الإغريق أولها ما يقابلها عندهم، ومثل قولهم إن "الأبولوجيا" أو الاعتذار الذى كتبه سنيكا لما أمره نيرون بالانتحار ليس سوى تقليد ضعيف للأبولوجيا التى كتبها أفلاطون عن سقراط بعد الحكم على سقراط بالموت، ومثل قولهم إن وصف درع "إينياس" فى قصيدة فرجيل مأخوذ من وصف هومر لدرع أخيل، وقولهم أيضًا إن خير ما فى إينيادة فرجيل منقول بالحرف من إينيوس **Ennius** وكاتاللاس **Catallus** وأن القصيدة كلها فى الحقيقة ليست أكثر من مقاطيع منقولة من شعراء سابقين مثل هومر وأبوللونيوس **Appollonius** ورودياس **Rhodias** ولوسيلياس **Lucilius** ولوكريشلاس **Lucretius** وأن مكروبيوس ضبط كل هذه السرقات، ومثل قولهم إن الشاعر الإنجليزى "مارلو" – معاصر شكسبير – انتحل أبياتًا كثيره ترجمها عن اليونانية فى رواياته "الدكتور فاوست" .

أدع كل هذا لأنه كما قلت من التوافه وأثب إلى ميلتون الشاعر الإنجليزى المشهور، وأعترف أنى لا أحبه وأنى ما استطعت فى حياتى أن أقرأ له قصيدة مرتين. وأشهر ما لملتون قصيدة "الفردوس المفقود" وأختها "الفردوس المستعاد" والأولى لا الثانية هى التى تقوم عليها شهرته. وهذه يقول النقاد إن من المعروف أنها عبارة عن جملة سرقات من إيسكلاس ودافيد وماسينياس، وفوندل وغيرهم. ولكنه لم يكن معروفًا إن الفردوس المفقود كله – موضوعه ومواقفه وعباراته أيضًا – مترجمه ترجمه حرفيه عن شاعر إيطالى مغمور كان معاصرًا لملتون. لم يكن هذا معروفًا حتى اهتدى إليه "نورمان دوجلاس" فقد اتفق له أن عثر على نسخه وحيده من رواية "أدامو كاروتو" **Adamo Caruto** لمؤلفها "سرافينو ديللا سالاندرا" **Serafino Della Salandra** وهذه الروايه وضعت فى سنة ١٦٤٧ .

وأنا أنقل هنا ما يقوله "نورمان دوجلاس" قال :

سأسوق الآن بلا تمهيد ما يكفى لإثبات أن "الفردوس المفقود" ليس إلا نقلاً وترجمه لهذه الرواية .

محور قصيدة سالاندرا هو ما أصاب العالم من جراء العصيان الذى أغرى به الإنسان الأول، وهذا هو محور موضوع ملتون .

والأشخاص فى رواية سالاندرا هم الله، وملائكته، والإنسان الأول والمرأة الأولى والحية وإبليس وزملاؤه. وكذلك فى قصة ملتون .

وفى فاتحة القصيدة أو التمهيد لها يذكر سالاندرا الموضوع ويتكلم عن الله وأعماله وكذلك يفعل ملتون .

ثم يصف سالاندرا مجلس الملائكة المتمردين وسقوطهم من السماء فى منطقة جرداء نارية ويسوق أحاديثهم وكيف أنهم يحقدون على الإنسان ويتفقون على الاحتيال على إسقاطه ويقررون أن يجتمعوا فى الهاوية حيث يتخذون التدابير الخليقة أن تجعل من الإنسان عدواً لله وفريسة لجندهم. وكذلك فى ملتون .

وسالاندرا يجسد الخطيئة والموت ويجعل الموت ثمرة الخطيئة. وكذلك يفعل ملتون .

ويصف سالاندرا سبق العلم الإلهى بنتيجة الإغواء وسقوط الإنسان وتهيئته تعالى لأسباب الخلاص. وكذلك ملتون. ويصف سالاندرا موقع الجنة والحياة السعيدة فيها. ويفعل ملتون مثله .

ويشرح سالاندرا الإعجاز فى خلق العالم والإنسان وفضائل الثمرة المحرمة. وكذلك ملتون.

ويروى سالاندرا الحوار الذى دار بين حواء والحية ويصف الأكل من الشجرة المحرمة واليأس الذى استولى على أبوينا - آدم وحواء - وكذلك ملتون .

ويصف سالاندرا فرحة الموت بما ارتكبته حواء والسرور الذى عم الجحيم والحزن الذى انتاب آدم - وكذلك يفعل ملتون .

ويتوقع سالاندرا مجيء المخلص وهزيمة الخطيئة والموت ويتكلم عن عجائب الخلق ويصف قتل قابيل لأخيه هابيل، ويذكر الخطيئات فى الدنيا والحرب وأهوالها. وكذلك ملتون .

ويصف سالاندرا الحب الذى ينطوى عليه عيسى عليه السلام والعزاء الذى يشعر به آدم وحواء حين يبشرهما الملك بمجيء المسيح ثم خروجهما من جنتهما الأرضية. وكذلك يفعل ملتون .

فالموضوع مأخوذ برمته كما أثبت ذلك نورمان دوجلاس. ويقول برتون راسكو: "إن هذا ليس كل شيء ويحيل القارئ على كتاب اسمه "أولد كالابريا" - كالابريا القديمة - ويؤكد أنه يؤخذ منه أن ملتون ترجم قصة سالاندرا حرفاً بحرف وأن ما ليس مترجماً عن سالاندرا مترجم عن غيره من الشعراء القدماء .

والذى يجعل الأمر أغرب أن ملتون قد أعلن قبل ذلك عزمه على نظم قصة خالدة لا يسمح للناس بأن يدعوها تموت وتقبر، ويعنى بها "الفردوس المفقود". وبعد أن أعلن عزمه هذا بسط لسانه فى كل الشعراء الإنجليز الذين تقدموه مثل سوثر وسبنسر وشكسبير ومارلو وجونسون ووصفهم بأنهم صناع اليون، وانتقد هومر وفرجيل وتاسو وعاب شعرهم. ويعلل نورمان دوجلاس اهتداء ملتون إلى قصة سالاندرا بأن ملتون لقيه فى رحلته إلى إيطاليا، وأن سالاندرا يرجح أن يكون أعطاه نسخة من قصته عسى أن يعينه على ترجمتها إلى الإنجليزية. ويقول إن ملتون كان له أصدقاء يراسلونه من إيطاليا وإنه قابل جروتياس Gratius فى باريس وجاليليو Galelio فى فلورنسا وإنه يحتمل أن يكون هذان قد أعطياه نسخة من القصة لما نشرت بالإيطاليه. والمحقق على كل حال أن قصيدة "الفردوس المفقود" نسخة طبق الأصل من قصيدة سالاندرا الإيطالى .

وأنتقل الآن إلى ما هو أحدث في أثناء الحرب العظمى. لم يكن لنا عمل بعد السعي وراء الرزق إلا القراءة والإطلاع واتقاء التعرض لمكاره الاعتقال والسجن وما عسى أن يكون وراءهما. وقد وقتني الكتب ذلك مرة وجاء القوم يفتشون بيتي وكان معهم ضابط إنجليزي. فلما دخل المكتبة وأجال عينه في الرفوف وما عليها من كتب الأدب حسن رأيه فيّ ومال إلى الرفق، فانتهى الأمر بخير. ولكن هذا استطراد فلترجع إلى ما كنا فيه. والذي أريد أن أقوله هو أن صديقي الأستاذ العقاد أعارني يومًا قصة "تاييس" لأناتول فرانس فقرأتها بلهفة فقد استطاع المترجم الإنجليزي أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدره وبراعة العبارة وسحرها. ومضت بضعة شهور ثم دفع إلى الأستاذ العقاد رواية "هايبيشيا" للكاتب الإنجليزي "تشارلز كنجزلزي" فقرأتها أيضًا، ثم سألني : ما رأيك؟ قلت : غريب. قال : إن الروايتين شيء واحد. قلت : صحيح .

والواقع إن الروايتين شيء واحد وأن تاييس مأخوذة من هايبيشيا بلا أدنى شك. وفي وسع من شاء أن يقول إن أناتول فرانس ما كان يستطيع أن يكتب - أو ما كان يخطرُ له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلزي إلى الموضوع. ذلك أن تاييس في رواية أناتول فرانس هي هايبيشيا في روايه كنجزلزي. والعصر هو العصر والبلاد هي البلاد، وكل ما هنالك من الاختلاف هو أن أناتول فرانس أستاذ فنان، وأن تشارلز كنجزلزي أستاذ مؤرخ، وأنا مع ذلك أفضل رواية هايبيشيا وأراها أكبر وأعمق وأملأ للنفس وأمتع للعقل، فما لأناتول فرانس في تاييس غير براعة الأسلوب وحلاوة الفن، ولكن الصور في رواية هايبيشيا أتم وأصدق، والشخصيات أكثر ورسمها أقوى وأوفى والموضوع أحفل. وفي وسعي أن أقول بلا مبالغة إنها تعرض عليك عالمًا تامًا لا ينقصه جانب واحد من الجوانب، أما تاييس فليست سوى لمحة خاطفة من هذا العالم .

وتشارلز كنجزلزي يرسم لك الحياة في تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ما انطوت عليه ويريك الناس والأشياء والعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائعة والفردية بدقة وأمانة، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطًا سريعة تريك ما وقع

فى نفسه من ذلك العصر، فهو أشبه بالمصورين الذين يجرون على طريقة الامبرشنزم أى الذين يصورون وقع المناظر فى النفس لا المناظر كما هى فى الحقيقة والواقع .

هذا بعض ما يسعنى الآن أن أذكره، وأمثال هذا كثير فى الآداب الغربية، وليس له فى الأدب العربى نظير، وأسباب ذلك كثيرة يطول فيها الكلام فلنرجئها إلى فرصة أخرى تتسع لوجوه التعليل المختلفة .

إبراهيم عبد القادر المازنى

السرقات الأدبية[1]

عرفت صديقي الأستاذ العقاد منذ ربع قرن، فما أسرع ما تمضي الأيام علينا، وليتها تبطئ وتتلكأ حين تهم بأن تمضي بنا، فما يحس الإنسان أنه قضى وطره من الحياة أو بلغ غايته وأدى رسالته فيما يقسم له من فسحة في الأجل، وأشهد أن العقاد اليوم هو هو الذي عرفته أول يوم، وإني ليخيل إليَّ أحيانًا حين أتدبر أمره كأنه الجبل الشامخ الذي لا يتغير، ولا يختلف حاله في عصر عن عصر ولا تتبدل وجوهه إلا بزلزال يدك الأرض ويقلب عاليها سافلها. ولم يزده الاطلاع الشامل رحابة أفق وسعة عقل وعمق نظر ودقة في الإحساس، فقد كانت تلك خصائصه البارزة التي لا يسع من يلقاه إلا أن يفطن إليها ويكبرها من أول ساعة، ولم تستطع الدنيا بما يكون فيها عادة من الصروف والغير وانتقال الأحوال، أن تلين منه صلبًا، أو تثني له عودًا، أو أن تخشى جوانبه الرقيقة الملساء، أو تغلظ له كبدًا أو أن تفسد من سجاحة خلقه واستقامة طباعة ومروءة نفسه وشهامة قلبه .

وقد كان العقاد ناضجًا يوم عرفته، يكتب ويقرض الشعر ويشق لنفسه الطريق ببراعاته إلى المنزلة الملحوظة والمرتبة المحسودة التي يتبوأها اليوم ولا ينازعه عليها منازع. وكثيرون من الأدباء والشعراء، في الشرق والغرب، [اتهموا] أنهم بلغوا فوق ما يستحقون من الشهرة ونالوا أكثر من نصيبهم العادل من المجد الأدبي، وأن الحظ ساعفهم وأخطأ من لعلهم أولى منهم، وليس هذا شأن العقاد، ولا هو ممن يصدق فيهم هذا القول، فما كان للحظ عمل فيما بلغ، ولا لمؤاتاة الظروف أثر، وإنما احتل مكانه

---

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٧ (ص١) .

بالفضل الصريح والحق الواضح الذى لا يسع أحداً أن يكابر فيه بخلاف، وعلى الرغم من الظروف المعوقة، وفشو الجهالة واستفاضة التعصب القديم، ومذ حل في هذا المكان رسخت فيه قدمه، وعجز كل من تألبوا عليه من المضاولين والمناجزين أن يزحزحوه عنه قيد أنملة، بل عجزوا عن أن يرتدوا سالمين ناجين، غير مهيضين .

والعقاد شخصية لا يسع من يتصل بها إلا أن يعنى بها ويحسب لها حسابها، وقد تكرهه أو يضيق به صدرك، أو تحبه وتصفو له بالود الصادق والإخلاص الثابت، ولكنه لايسعك أن تغفله أو تتجاهله أو تغضى عنه أو تستخف به، لأن له من قوة الشخصية ما يجعل ذلك مستحيلاً، فغير ميسور مع العقاد أن تقول "دعه، ولا تجعل بالك إليه" أو أن تزعم أنك لم تنتبه إلى ما يكون منه، إلا إذا استطعت أن تزعم أن إعصارا ثار بك فلم تحسه ولم تفطن إلى ما أحدث، على أن العقاد كالإعصار من حيث القوة والبأس والقدرة على العصف، وهو لا يتخذ منها أداة للهدم إلا إذا اقتنع بوجوب ذلك وبأن الهدم هو الأصلح، وفيما عدا ذلك تراه ينفق قوته فى البناء والتشييد، ورفع الصروح، وما عرفت أن العقاد بدأ إنسانا بعدوان، أو تطوع إلى إساءة، فليس هذا فى طباعه، ولكنى ما عرفته قط نكص عن رد إساءة أو صد عدوان، أو تردد فى الكر على من يتعرض له لأنه ليس فى طباعه أن يصبر على هضيمه أو يحتمل أذى أو إساءة كائنا ما كان مصدرها أو قمتها، وهذا الإباء هو مفتاح شخصيته، وكل من يعرف العقاد يعرف أنه أسلس الناس طباعًا وأسجحهم خلقًا وأوسعهم صدراً وأعفهم لسانًا وألينهم جانبًا وأسخاهم نفسًا إلا أن يحاول محاول أن ينال منه صراحة أو غمزاً وتعريضاً، فلا ترى منه حينئذ إلا الخلق الوعر والثورة الطاغية التى لا تبقى ولا تذر، ولو أفنت نفسها فيما ثارت عليه، على أنه كثيراً ما يكبح نفسه ويؤثر الترفق إذا شفعت له الثقة بالصديق والخبرة [بخصوص] سريرته .

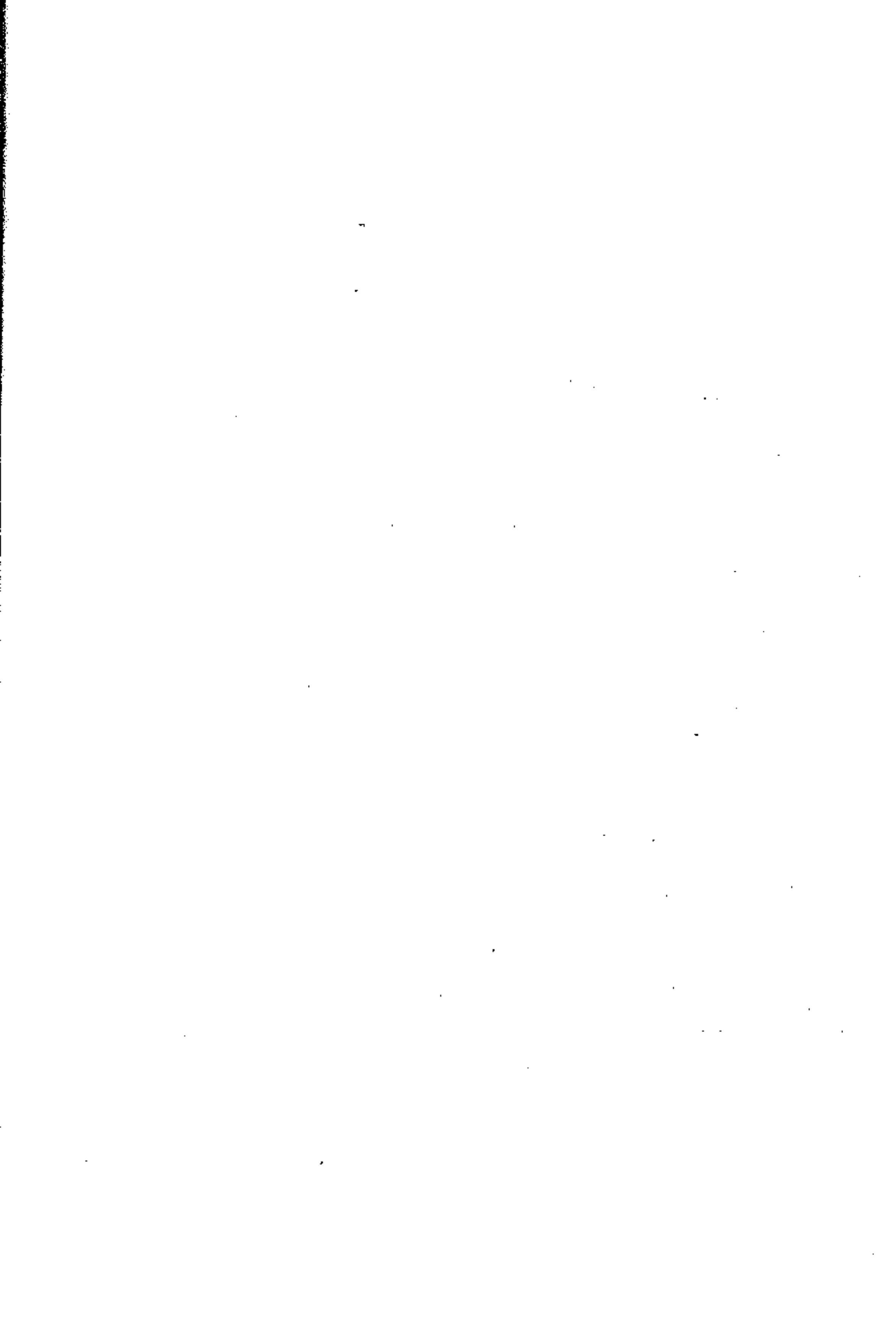
والعقاد صاحب رسالة فى الأدب، وفى الحياة، وقد أداها على أقوى وجه وبلغها فى أوسع نطاق، وقد فرغ من الدعوة إليها ومضى بعد ذلك يلقى إلى الناس خارجياته وعبقرياته وهو مطمئن وكل صاحب رساله لا بد أن يكون مؤمنًا بها ومخلصًا لها، ليتسنى أن يأخذ الناس عنه ويستجيبوا له، والإيمان والإخلاص طباع وليست من

التكلف، أو ما يكتسب بالطلب والرياضة والممارسة، وهي لا تكون في شيء دون شيء، وغير معقول أن يكون المرء مخلصاً لنفسه وإحساسه ورأيه مؤمناً بما ينطوي عليه، وأن يبدو ذلك منه في حال، ولا يبدو في حال، ولهذا كانت صفة الإخلاص ومزية الإيمان طابعاً لكل ما يصدر عن العقاد من قول أو فعل، وفي كل باب من أبواب المساعي، وفي السياسة كما في الأدب .

وكل شيء يهون عند العقاد إذا رضي عقله الكبير وارتاح ضميره الحي، واطمأن شعوره المرهف، فلا مال يحرص عليه، ولا الحياة يرى لها قيمة، ولا الحرية تبقى لها مزية، إذا أبى عقله أو وجدانه أو قلبه أن يسكن، ولست أسرف في القول حين أقول إنه يعيش لما يعتقد لا لسواه، وأنه لا يعنيه من الحياة إلا ما يؤمن به فيها. وأنه لا يجد لذة في العيش أو يعرف قيمة للحياة بغير ذلك، ومن هنا تراه يحيا بحياته بين الناس، ولكنه في الوقت نفسه كالذي يرصدها من مرقب عال ناء عنها خارج عن نطاقها، ومن هنا قدرته على النظر الشامل الذي يحيط بالكليات ولكن من غير أن تخفى عليه الجزئيات الدقيقة، ومن هنا ذلك التعدد المدهش في جوانبه .

ومن مزايا العقاد أن له من حيويته هو مدداً لا ينفد، فلا حاجة به إلى مدد يسعفه من الخارج، لأن في نفسه ذخيرة من القوة تكفيه وتكفي رهطاً معه، ومن كان في مثل غنى نفسه فكيف يشعر بالافتقار، أو يخشى عليه الضعف؟

إبراهيم عبد القادر المازني



معاملة الناس[1]

لو أني صدقت ما حدثني به شيوخ الجيل الماضي الذين هم في منزلة آبائنا وأعمامنا، وما رووه لي في وصف حياتهم المنقرضة ومعاملاتهم وعلاقاتهم، لكنت حرياً أن أعتقد أن ذلك الجيل الذي انقضى كان أفضل وكان حظه من الرجولة أعظم، ونصيبه من البساطة التي يستقيم بها النظر أوفر وأجزل: فقد كان الفقر لا يعيب أحداً في ذلك الزمان، ولا يغري الصديق بالفرار من صديقه أو اجتنابه؛ وكان حسن الأدب والتواضع ولين الجانب لا يعرض المرء للاستخفاف أو قلة المبالاة به؛ وكان للعلم شأنه وكرامته، وكانت المعاملات تقوم على الصدق والثقة ولا تحتاج إلى الصكوك وما إليها؛ وكان الصغير يوقر الكبير، ولا يغمط الكبير فضل الصغير أو يبخسه حقه، إلى آخر ذلك مما لا حاجة إلى التقصي فيه. وقد أدركت بعض ذلك ففي وسعي أن أطمئن إلى الصدق في سائره، فمن ذلك أنه بعد وفاة أبي بشهور ثقيلة، دق علينا الباب رجل من العلماء كان زميلاً لأبي، وقال إن "الأفندي" - يعني والدي فقد أتخذ زي الأفندية في آخر زمانه - ترك معه قبيل وفاته مبلغاً من المال، وإنه لا علم لأحد بذلك، وإنه يخشى أن يزوره الأجل، ودفع إلينا المال ومضى مرتاح الضمير. ولا أدري ما شأن غيري، ولكن الذي أدريه أنه لو أئتمنني أحد على مال له لكان حقيقاً أن ييأس من رده !

وقد وجدت بالتجربة أنه لا كرامة لمن لا مال له، وأن صاحب المال، وإن كان قد جمعه بشر الوسائل وأرذلها وأسفلها، قد يغتابه الناس ويبسطون فيه ألسنتهم ولكنهم لا يلقونه بغير الحفاوة ولا يبدون له غير التعظيم والتوقير، وأن من شاء أن يضمن إكبار الناس له فليشعرهم بالاستغناء عنهم، وأن الناس ينزلونك حيث أنزلت نفسك،

(١) نشرت في مجلة "الرسالة" في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٧ (ص١٤٨١-١٤٨٢) .

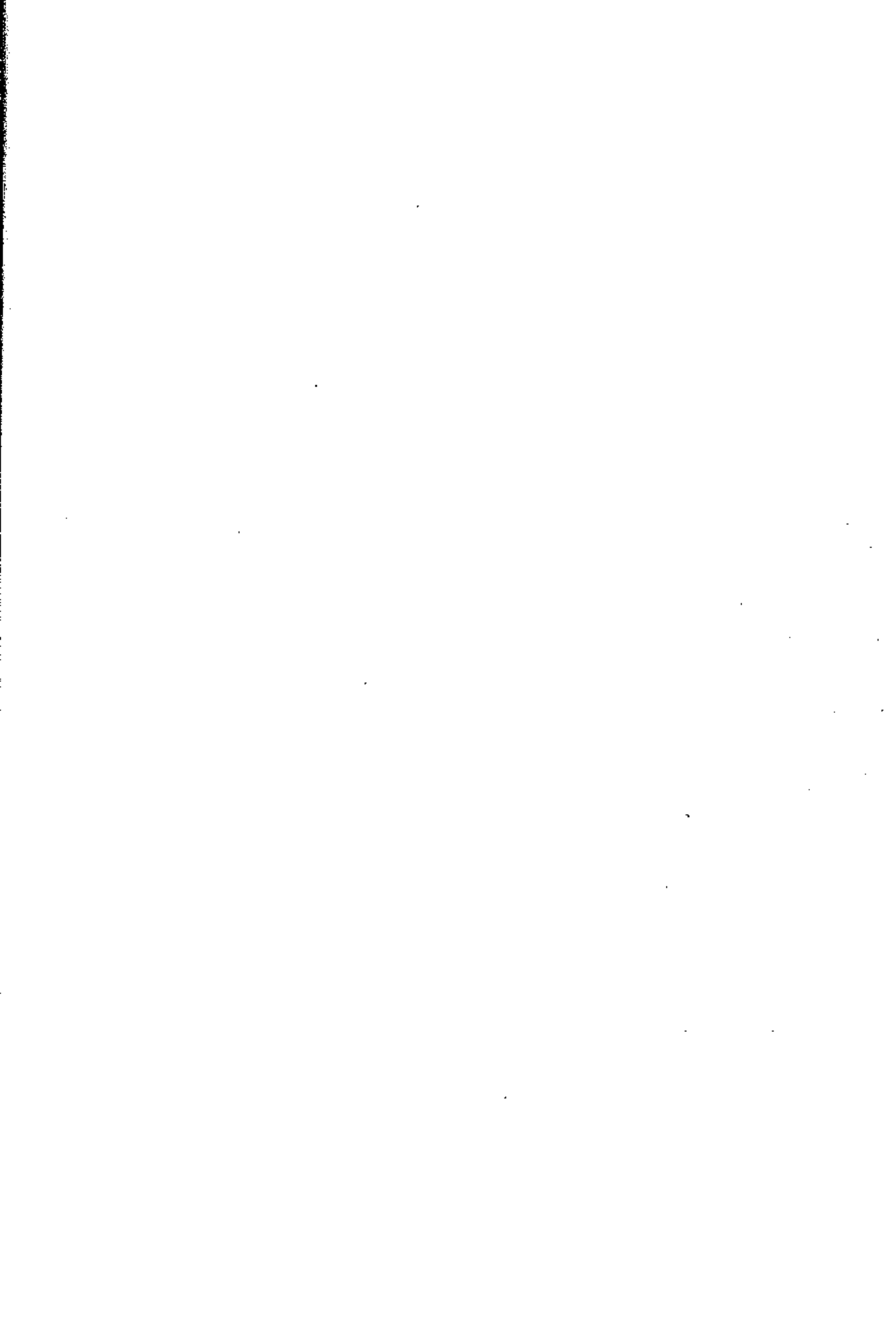
ولا يخطر لهم أن يرفعوك عنه، فإذا كنت معهم عف اللسان مكفوف السلاطة مأمون الغضب، لم يهابوك ولم يبالوك، ولم يتقوا أن يسيئوا إليك وإن كانوا يرون منك أنك تكره أن تسيء إلى نملة؛ وقد يظهرون لك الاحترام ولكنهم يعدون ذلك فضلاً منهم وإيثاراً للصنع الجميل، لا حقًا لك عليهم. أما إذا كانوا يعرفون أن أدبك لا يمنعك أن تهيج بهم وأن لينك قد ينقلب صلابة وعنفًا، ورقة ملمسك خليقة أن تحور شوكًا حاداً كشوك القنفد، إذا خطر لهم أن يجاوزوا معك الحدود التي ترسمها لهم في علاقتك بهم، وتفرضها عليهم، فأيقن أنهم لا يكونون معك في حال من الأحوال إلا على ما تحب وترضى، وقد يسخطون عليك في سريرتهم ويكتمونك ما ينطوون عليه لك من المقت والحقد، ولكن هذا لا قيمة له، فإن الخوف من عصفك بهم يظل يقيك أذاهم. وماذا يضيرك أن يجدوا ويضطغنوا إذا كانوا لا يجرؤون أن يكشفوا لك عن هذه الصفحة المستورة؟؟ وإنك لتعلم أنهم ينافقون ويبدون غير ما يبطنون، ولكن الحيلة في ذلك قليلة، والشأن شأنهم لا شأنك، وعلى أنه ما داعي الغيظ والنقمة؟ وما موجب الكراهية والمقت؟ وما الحاجة إلى النفاق؟ إن كل ما تبغيه منهم أن يجنبوا الإساءة إليك كما تجنبها إليهم، فإذا بدأوك فإنهم الظالمون، والشاعر القديم يقول :

لا تطمعوا أن تهينونا، ونكرمَكم   وأن نكفّ الأذى عنكم، وتؤذونا !

فإذا كانوا يأبون إلا أن ينتحلوا الحق في الإساءة بلا مسوغ، فذنبهم على جنبهم. وتالله ما أسرع ما يرتد الناس إلى الواجب وحسن الأدب إذا رأوا منك تمرداً على سوء الخلق وقلة الحياء!! كان كبير من الكبراء يدخل حيث أكون، فيمر بي وكأني قطعة أثاث، وكنت ألقاه كثيراً، فحملت هذا في أول الأمر على الذهول أو نحوه، ولكنه كرر وباخ وتبينت فيه سخافة الكبرياء والنفخة الكذابة، فقلت: أكيل له بصاعة وصرت أتعمد أن أدخل عليه وهو مع الناس فأحيهم وأهمله، وأتخطاه بيدي وعيني كأنه ليس هناك، ولم يكن له غير هذه النفخة، فلما خرقت القربة المنفوخة، لم يبق شيء، فلم يطق صبراً، وأقبل يوماً فهممت أن أشيح بوجهي عنه، فإذا هو يطوقني بذراعيه !!

وليست هذه المبادئ التى يُلقنها التلاميذ فى المدارس، ولكنها هى المبادئ التى أُلقنها ابنى، وأحرص على أن يفهمها ويعمل بها، وقليل من رياضة النفس عليها تكفيه، لا مثلى، فقد نشأت على غير ذلك واعتدت خلافه، فخيب الناس والدنيا أملى فى كل ناحية، وأحدثوا لى رجات نفسية أتلفت أعصابى. وكنت أعتقد مثلاً أن فى وسعى أن أسير فى الحياة من غير أن أسيىء إلى أحد أو أخشى أن يسيىء إلى أحدٌ، وأن على أن أعطى الناس حقوقهم فى صراحة وبإخلاص، وأن لى أن أثق أن سيعطينى الناس حقى ولا يقصرون فى أدائه إلىَّ كاملاً؛ فإذا الأمر على خلاف ذلك ونقيضه. أنا أكف أذاى عن الناس، ولكنهم هم لا يعنون بمثل ذلك، حتى لصرت مضطراً أن أحتال لاتقاء أذى الناس، وأنا أؤدى للغير حقه غير منقوص، ولا أبخل عليه بالإسراف فى الأداء، ولكنه هو لا يخطر له أن لى حقًا يؤدى، أو كرامة تحفظ، لا لسبب إلا أنى لا أتقحم على الناس ولا أركبهم بالغطرسة، ولا ألح عليهم ببيان ما يجب لى، ومن هنا تغير رأيى فى كل ما نشأت عليه، وأدركت أنه لا يوافق هذا الزمان؛ وتغير سلوكى مع الناس، واختلفت سيرتى وتربيتى لأبنائى، وما زلت أجنب أن أبدأ بعدوان، فما لهذا معنى، ولكنى لا أتردد فى دفع الأذى، ولهذا مزيته، وتلك أن ترغم الناس على أن يكونوا خيِّرين !

إبراهيم عبد القادر المازنى



ضبط النفس[1]

علمتني الحياه ضبط النفس، والحياه مع الأسف مدرسة ولكنها فيما يبدو لي عقيمة، فإن الدروس فيها لا تنتهي، ولا يكاد المرء يظن أنه حذق بعضها وآن له أن ينتفع بما تعلم منها حتى تسلمه الأقدار إلى العفاء! ففيم كان طول التلمذ هذا؟ وما خيره إذا كان العمر ينتهي به؟ وما الفرق إذن بين الجهل والعلم والطيش والحكمة؟ ولماذا يعني المرء نفسه بالنظر والتدبر والتحصيل ؟؟

قلت هذه مره لصديق إنجليزي فلم يستغربه، لأنه لا جديد فيه، ولكنه سألني: "أيشق عليك هذا؟" فاحتجت أن أدير عيني في نفسي لأتبين، فما أدري والله أهو يشق أم يهون. ثم قلت له : "لا أظن.. فإني حائر.. أجهل ما تنطوي عليه نفسي.. ولكني أريد أن أفهم وأن أهتدي إلى الحكمة... فإني أراني أتعب وأكد في التحصيل والنظر... وسأقضي حياتي كلها في هذا، ثم يجيء يوم فأطوي... ويطوي معي كل ما تعبت في إفادته ولم أنفع به أحداً. ولو أني كنت أموت ويبقى ما أفدت لاختلف الحال، ولكن عقلي يبطل، وإحساسي ينعدم، فكأني ما عشت ولا كنت. فما هذا الموت الذي تموت به كل المعاني الحاصلة، والحكمة المستفادة، والمعارف والإحساسات؟ هذا هو الذي يثقل عليّ، وإن كان لا مفر منه. وفي سؤالك ما يشعر أنك لا تستثقله كما أفعل، وهذا راجع لطبيعة المصري، فإنها غير طبيعتكم. نحن المصريين يختلط في نفوسنا الشعور بالحياة بالشعور بالموت، وتفكيرنا في هذه بتفكيرنا في ذاك. حياتنا كلها وآثار آبائنا الأقربين والأقدمين تثبت ذلك، ولكنكم تفكرون في الموت كأنه شيء مستقل عن الحياة، يعترضها ولكنه ليس منها، هو عندكم طارئ غريب... أو قل إنكم لا تحسون به كإحساسنا نحن..." .

---

(١) نشرت في مجلة "الرسالة" في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ (ص٢٠٨٧-٢٠٨٨) .

وقصصت عليه قصة تجلو فرق ما بيننا وبين الإنجليز فى هذا، وتلك أن سيدة استأجرتُ غرفة فى بيتها فى لندرة روت لى يومًا أن جارها توفى أبوه، وقالت إنه الآن مسجى على سريره فى غرفته ينتظر يوم الدفن، وكان الابن يحب فتاة ويشتهى أن تكون زوجته، وقد تودد إليها وأطلعها على ما يجن لها من الحب وخطبها فشكرته وأسفت واعتذرت، وكان له صديق يحب الفتاة أيضًا وينافسه عليها، وقد ظفر منها بكلمة القبول فى نفس اليوم الذى مات فيه أبو صاحبه، فزاره ليعزيه، ثم لم يسعه إلا أن يفضى إليه بما يملأ قلبه من السرور وأن يبلغه أن الفتاه رضيت أن تكون زوجته، فاحتمل الرجل الصدمتين: صدمه الموت وصدمه الحرمان، وتناول زجاجه الويسكى وناول صديقه كأسًا وتناول هو أخرى، قالت السيدة: وقد ظلا يشربان إلى الهزيع الثانى من الليل. وقد كانت تروى لى هذه القصة وهى معجبة بسعة صدر ذلك المفجوع فى أبيه وفى حبه، وعظم ضبطه لنفسه؛ ولم يكن إعجابها به لأنه استقبل صديقه وراح يسامره وأبوه الميت لا يزال فى البيت فإن الموت مألوف لا جديد فيه، ولا خير من تقطيع القلب حسرات من جرائه، وإنما كان الإعجاب لأنه احتمل الهزيمة فى ميدان الحب على هذا النحو الكريم .

مثل هذا لا يمكن أن يحدث فى مصر. ولو أن اثنين تنافسا على فتاه، لما كان من سلامه الذوق أن يذهب الفائز بها إلى مزاحمه ليطلب منه تهنئته بذلك ومشاركته فى سروره، فإن هذا فى عرفنا أشبه بأن يكون شماتة ومكايدة، فكيف إذا كان أحدهما أبوه ملفوف فى أكفانه ينتظر أن يحمل إلى قبره ؟

وأكثر ما نراه من مظاهر الحزن أو الجزع عندنا من التكلف لاسيما بين النساء، ولكن لماذا يتكلف المصريون هذا ويحرصون على إبدائه؟ أترى تكلفهم هذا يرجع الأمر فيه إلى الجهل أم إلى شعور بشىء فى الطباع؟ لا أدرى، ولكن الذى أدريه أن التجلد يكون مما يتحدث به الناس ويلهجون بذكره، كأنما الأصل هو الجزع. وإنى لا أذكر أنى تظاهرت بالاطمئنان، وتكلفت الابتسام لما ماتت أمى، بين يدى، وكنت أخادع أخى وأخادع سيدات كثيرات كن فى تلك الساعة فى البيت، وقد كرهت أن ينفجرن بالصراخ والعويل واللطم، وأمى فى ثيابها التى كانت تلبسها لما حضرتها الوفاة،

فلما عرف أخي ما دبرت ساءه هذا مني وكبر عليه أني زعمت له أنها نائمة وهي ميتة، وأني تبسمت وكان حقي أن أبكي، وبقي أيامًا لا يكلمني، وإذا لقيني ترقرقت الدموع في عينيه؛ ولا أدري ماذا كان يجديه أن يعلم أن روحها فاضت قبل ساعة أو بعد ساعة، وأحسب هذا من الحزن، ولم أكن دونه حزنًا، بل لعلي أعمق منه حزنًا عليها، ولكنه كان عليَّ ما لم يكن عليه من الواجبات في تلك الساعة فاحتجت إلى خنق شعوري حتى أفرغ من الأمر على ما أحب .

وكانت لي طفلة صغيرة ماتت، فاحتلت حتى استطعت أن أواريها التراب وأمها تعتقد أن بنتها لا تزال على قيد الحياة، وكانت الأم مريضة، وقد أوصاها الطبيب بالتزام السكون واجتناب الحركة والانفعال، فلم يسعني أن أفعل إلا ما فعلت، وكان هناك عامل آخر غير الموت يزيد في ألمي، وذاك أني موقن أن الإهمال هو الذي جر الموت، والآجال بيد الله، ولكن لكل شيء سببًا، وكانت البنت قد أصيبت بالحصبة، فاحتجنا – لمرض أمها – أن نكل العناية بها إلى خادمة كنا نظنها حاذقة ذكية، فأصيبت البنت بالتهاب رئوي قضى عليها وأودى بها؛ غير أن ما كان كان، ولا حيلة فيه لإنسان. فكظمت غيظي، وكتمت ألمي، وتشددت لأعين الأم المسكينة على الصبر. وجاءني بعض الأصدقاء يعزونني في المساء فألفوني أبتسم وأضحك وأمزح فتعجبوا، ولا محل للعجب في الحقيقة، وأحسب الأمر قد صار عندي عادة وما أظن بي إلا أني أصبحت "كالحانوتي" والمرء مما تعود .

ولم أكن هكذا في صغري. وإني لأستحيي أن أقول كيف كنت أحمق طياشًا قليل الصبر سريع التأثر، ولو شئت لقصصت على القارىء مائة حكاية وحكاية، ولكني لا أنوي أن أفضح نفسي، وقد صرت يهون علي كل شيء إلا أن يراني الناس لا أملك زمام نفسي، ولا أستطيع ضبطها وكبحها. ومن العسير أن أعرف البواعث التي أغرتني بهذا الكبح وزينته لي حتى أصبحت لا يسخطني شيء كأن يتفلت زمام النفس من يدي. وفي وسعي أن أقول في هذه البواعث، ولكني لا أحسب أني قادر على الإحاطة بها أو مهتد إلى الخفي منها. وما ذكرت الموت إلا لأنه في مصر مما يغتفر

الجزع حياله، وإن كان المرء يلقى في حياته ما هو شر منه وأدهى، وقانا الله السوء ولطف بنا. ولم تهن عليّ الحياه، ولكني مللت طول الحيرة التي يورثنيها النظر في وجوهها وأضجرني العجز عن الاهتداء والفهم، فنفضت يدي يائساً وقلت فليكن ما يشاء الله أن يكون. ولأعش كما يتيسر لي أن أعيش والسلام، ولأدع عناء التفكير والنظر لمن أراد أن يحطم رأسه، فإني أنا لا أشتهي هذا التحطيم، وقد جربته فلن أعود إليه. ومن هنا قلة مبالاتي. وماذا أبالي بالله ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

فـى الأدب وغـيـره[1]

زارنى مـرة لفيف من الشبـان قـال قـائلهم: إنهم جـاءوا ليسـألونى عن رأيى فى الأدب ويستفتونى فى مسـائل، فساءنى هذا ولم يسرنى، فقد كنت مشغولاً، وكان العمل الذى ينبغى أن أفرغ منه كثيرًا، فسـألت الذى كان يتكلم: "كم سنك؟ ولا تخش أن أذيع السر؟"

قال : "ثنتان وعشرون"

قلت : "يا أخى، إنى كنت فى مثل سنك صاحب رأى، فى الأدب وغيره، وصـاحب مذهب أدعو إليه وأحـاول هدم مـا عداه؛ وكـان لى ديوان شعر مطبوع، وزوجـة ووظيفـة أيضًا. ولا أنكر أن رأيى قد تغير فى مسائل كثيرة، ولكن هذا لمـاذا؟ إنه دليل على أنى أديم النظر والتفكير والتدبر، ولعلى كنت فى أمسى على صـواب، وعسى أن أكون فى يومى على خطأ، ولكن المرء لا يطالب بالتوفيق، وإنما عليـه أن يسـعى، وأنا أذكـر لكم هذا لأنى أتعجب لكم وأستـغرب أمـركم. فلمـاذا بالله لا تنظرون بعيونكم، ولا تفكرون بعقولكم؟ ولمـاذا ينبغى أن أتعب أنا لكم – أقرأ وأحصل وأفكر وأنخل وأغـربل، وأنتم مستريحون ليس عليكم إلا أن تتجشموا تعب الحضور إلى هنا، وإلا أن تؤدوا أجرة الترام، أو الأمنيبوس، ومن يدرى لعلكم آثرتم المشى فإنكم شبان أقوياء، الأحذية التى تبلى يؤدى ثمنها آباؤكم فلا خسارة عليكم تشعرون بهـا، وليبق القرش فـوق القرش ليتيسر أن تقضى السهرة فى مرقص!"

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٣ يناير سنة ١٩٣٨ (ص٣، ٤) .

فضحك أحدهم، وراه الآخرون يضحك، فابتسم البعض وقهقه البعض، فقلت، وأنا أحس أن عفريتًا قد ركبني: "صحيح قولوا... كم كتابًا عنيتم بأن تشتروا في حياتكم منذ عرفتم الكتابة والقــراءة إلي الآن – أعني غير الكتب المدرسية التي لا تفتحونها إلا لأداء الامتحان؟" .

فلم يجيبوا، وماذا عسى أن يقولوا، وأنا أعرف أن هذا الجيل يندر فيه من يحصل من العلوم أو الفنون أو الآداب شيئًا غير ما يتلقى في المدرسة؟ وحتى الذي يفيده في المدرسة ينساه بعد الامتحان، ولم يسعني وأنا أحاول أن أوقظ نفوسهم وأبث فيهم روح الطلب إلا أن أذكر كيف كنا في صبانا نفرح بما يجتمع في أيدينا من المال القليل ونخف به إلي المكاتب ونروح ندير عيوننا في مئات الكتب المرصوصة على رفوفها ولا نخرج إلا وقد نفد ما معنا أو كاد .

وكان الذي أسخطني على هؤلاء الشبان هذا الكسل والاعتماد على الغير، والرغبة في إفادة المعرفة – كائنة ما كانت قيمتها – بلا عناء أو مشقة. ومن أدراهم أن ما يسمعون مني أو من سواي هو الصواب؟ وهم يتلقون ما تفضي به إليهم من رأي ناضج أو فطير[٢] بالتسليم والتصديق وبلا مناقشة .

وأحسست من هيئاتهم ونظراتهم أن الأولى بي أن أدخر جهدي، فأسلمت أمري لله وقلت لهم: "تفضلوا... سلوا ما بدا لكم"

فأدنوا كراسيهم، وقد نسوا العلقة التي استقبلتهم بها، وأقبلوا عليَّ يسألونني عن الأدب والغاية منه، فضحكت وقلت: "والله ما أعرف له غاية؛ وإني لحي، ولكني أجهل الغاية من الحياة، فكيف تريدون مني أن أعرف الغاية من الأدب؟ وأعترف أني كنت قبل سنوات طويلات المدد، قد أقنعت نفسي بأن للأدب غاية، وكان الذي جسم لي الوهم هو ما قرأته في هذا الباب، فرحت أنسج على منواله وأقول كلامًا شبيهًا به؛ ويتفق أن يقع في يدي شيء مما كتبته في ذلك الزمان فلا يسعني [إلا] أن أضحك ساخرًا،

---

(٢) رأى فطير : أي أدلى به بعجلة ودون تثبت .

لأنه كان من الجهل أو التقليد - كلا. لا أعرف غاية للأدب... وقولوا ما شئتم، ولكن الحقيقة هي أني نظرت ونظرت، وحدقت وحملقت، حتى كادت عيني تخرج فلم أر شيئًا؛ وأني فكرت وفكرت، فلم يهتد عقلي هذا إلى شيء. وكل ما أعرفه هو أني أزداد حيرة كلما علت بي السن، وإن كل ما كنت أعده من الحقائق الثابتة يخامرني الآن فيه شك كبير... والسبب في ذلك، فيما يبدو لي، هو أني [كنت] أتلقى ما أقرأ بالتسليم، أما الآن فأنا أجادل وأكابر بالخلاف في كل شيء، وقد ينتهي بي الأمر إلى التسليم والموافقة، ولكني أجد لذة في هذه المكابرة" .

فسألني بعضهم : "لماذا قل الشعر السياسي في هذا الزمان؟"

قلت : "لا أدري، وعسى أن يكون السبب أن الناس صاروا أصح فهمًا للأدب، وأتم إدراكًا له، وأكبر عقولاً، وأوسع نفوسًا. نعم أظن هذا هو السبب، فقد كان الشاعر السياسي هو الذي يكثر فيه القول، وكان شعراء ذلك الزمان إذا قالوا في غير الحوادث لا يفعلون ذلك إلا على سبيل التسلي، وليقال عنهم إنهم يجيدون النظم في كل باب. ولكن الناس يدركون الآن أن شعر الحوادث ليس إلا بابًا واحدًا صغيرًا من مئات وآلاف من أبواب القول، أو من "بواباته". ولم يكن شعر الحوادث شيئًا مستحدثًا أو جديدًا لأنه لم يكن أكثر من ضرب من التقليد للشعر القديم، فكما كان المتنبي يقول في حروب سيف الدولة، كذلك كان شوقي يقول في الخديو وأعياده ورحلاته وفي السلطان وأعماله، ثم بعد ذلك في الحوادث السياسية التي يلح عليه أصدقاؤه أن ينظم فيها كلامًا. وكان حافظ يقول في العميد البريطاني وفي سياسة الإنجليز، لأنه لم يتصل بأمير كما اتصل شوقي، فحل الشعر أو الرأي العام عنده محل الأمراء الذين كان الشعراء السابقون ينظمون الشعر لإرضائهم، واقتضت المنافسة بين الرجلين أن يكون حافظ شاعر الشعب، كما كان شوقي شاعر الأمير. فقد تغير كل هذا، وزهد الأدب الحديث في التقليد، ونظر رجاله بعيونهم، وأحسوا بأعصابهم، وفكروا بعقولهم، ففتحت لهم آفاق رحيبة جدًا صرفتهم عن القول في الحوادث العارضة، وشغلتهم بما هو أعمق وأصدق في الحياة؛ فلست تراهم يقولون في الحوادث إلا إذا استفزت نفوسهم وحركتها تحريكًا قويًا يجري الشعر على ألسنتهم، لا تكلفًا ولا تقليدًا، بل لأنهم

لا يسعهم في هذه الحالة إلا أن يقولوا. ولا شك أن ثم أسبابًا أخرى، أسوق منها على سبيل التمثيل، أن الأدباء يعمل أكثرهم فى الصحف، وهم يكتبون كل يوم تقريبًا فى الحوادث، فلا معنى لأن يقولوا الشعر فيها أيضًا، إلا إذا عرضت مناسبة فذة قوية تحرك النفس كما قلت. والكتابه أسهل، والإقناع بها أقرب، والشعر لا يصلح للجدل السياسى كما تصلح الكتابة، ولكنى أعتقد أن صحة الإدراك للأدب هى السبب الأول، كائنة ما كانت الأسباب الأخرى. ولا مانع من أن يقول الشاعر فى السياسة والحوادث إذا أحس دافعًا إلى ذلك، كما يقول فى غير ذلك إذا بعثته البواعث" .

فنهضوا، ومدوا أيديهم ليصافحونى، وتمتم بعضهم بالشكر، فابتسمت وقلت لهم: "والله إنى لتحدثنى نفسى بأن أنقض لكم كل ماسمعتم منى، وأن أثبت لكم أن كل ما قلت خطأ فى خطأ، وأن الصحيح والصواب غير ذلك. وإنى لقادر على هذا. والسر فى قدرتى أنى أراكم أهملتم هذه العقول التى ركبها لكم الله؛ ولا شك أن له سبحانه وتعالى حكمة فى خلق عقول لا يريد أصحابها أن ينتفعوا بها. فليتكم تستطيعون أن تعيرونى بعضها ما دمتم لا تنتفعون بها، فإن رأسى قد كل وتعب ومل" .

فضحكوا وانصرفوا، وقعدت وأنا أهز رأسى وأمُط بوزى آسفًا متعجبًا ...

إبراهيم عبد القادر المازنى

الماضى والحاضر[1]

لقيت مرة صديقًا قديمًا أثيرًا عندى فسألنى: "يا أخى أين أنت". قلت: "حيث ترانى". قال : "إنا لا نجدك في أى مكان". قلت : "ذاك لأنك تبحث عنى فى حيث يوجد الناس عادة، وأنا لا أحب أن أكون حيث يكثر الناس ويزدحمون كالمواشى فى الحظائر" .

بعد هذه الفاتحة ذهبنا نتمشى واستطردنا فى الطريق من حديث إلى حديث فكان مما أذكر أنى قلته له أنى حُرٌ كهذا الهواء لا سلطان لأحد علىَّ غير طبيعتى – أعمل ما أشاء، وأترك ما لا أرضى، ولا أكون فى أى حال إلا على هواى. وأنا حريص على هذه الحرية الشخصية وضنين بها وفى سبيلها ومن أجلها أهمل ما يعنى به الناس غيرى، وأصرف نفسى عما تتعلق به النفوس مخافة أن يجنى ذلك على حريتى ولو استطعت أن أبت صلتى بالعالم وأحيا بمعزل عنه لفعلت .

وكان صديقى يسمعنى أفشر وأمعر على هذا النحو، فيقول : "صحيح صحيح" ولم أكن أعلم فى تلك الساعة أنى أفشر أو أمعر ولا كان قصدى إلى شىء من ذلك، وإنما كنت أتكلم بأول ما يجرى في الخاطر كما هى عادة الناس حين يتحدثون، فقلما يكلف الناس أنفسهم فى المجالس عناء يستحق الذكر فى التفكير فيما يقولون .

وعدت إلى البيت وخلوت بنفسى وشرعت أراجعها وأحاسبها قبل النوم على عادتى فإنى أعنى فى آخر كل ليلة بتدبر ما كان منى فى يومى، وأكره أن أنام قبل أن أفرغ من هذا الحساب، وما دامت صفحة اليوم قد انطوت فلماذا أبقيها مفتوحة. فأنا

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٣٠ مايو سنة ١٩٣٨ (ص٨٨٣–٨٨٦) .

كالتاجر أو البنــك الذى يحب أن يسـوى حسـابه يومًـا فيـومًـا ويصفى ما له وما عليه في آخر كل نهار .

وفي ساعات هذا الحساب الليلى الذى لا يحسه أو يدرى به أحد، يخيل إليّ أنى أخرج نفسى وأجلسها وأجلها أمامي وأقدم لها سيجارة أو أناولها فنجان قهوة وأحييها وألاطفها أولاً كما يقضي بذلك الذوق والأدب بين المتمدينين، ثم أفرك كفي وأقول لها بابتسامة عريضة: "والآن تعالى نتحاسب قليلاً" فتمتعض أو على الأصح لا يبدو عليها أنها ترتاح إلى هذا الحساب الذى لا أختار له إلا وقت النعاس، ولكنها لا تبدى لى هذا النفور بل تبتسم متكلفه مثلى وتقول :

"ألا ترى أن الوقت متأخر قليلاً"

فأقول : "أشكر لك هذا الرفق ولكنا مازلنا قبل نصف الليل فلا بأس من حديث قصير"

فتقول : "ولكنك تعبت في يومك... اشتغلت كثيراً وكددت رأسك جداً ، فخير لك أن ترتاح وفي الصباح... قبل طلوع الشمس تكون قد استعدت نشاطك وانتعشت فنستطيع أن نتحدث كما تشاء... هذا فيما أعتقد خير لك"

فأقول لها : "إنك يا نفسى طول عمرك رقيقه عطوف ولولا هذا لما رضيت أن أتخذك ولما طالت بيننا الصحبة إلى اليوم، ولكن لماذا نرجئ إلى الغد ما نستطيع أن نفعله اليوم كما يفعل التلميذ البليد"

فتقول : "إن المدارس لا تعلم حكمة الحياه وليس صحيحًا أن على الإنسان أن يتقى إرجاء ما يمكن عمله وإنما الحكمه أن يرجئ إلى غد كل ما يمكن أن يرجئه مما يريد أو يجب أن يفعله اليوم، ولا سبيل إلى الراحة في الدنيا بغير ذلك وإلا صرنا كالآلات لا نستطيع أن ننعم بحياه أو نحس لها طعمًا وأصبحنا كالذى زعموا أن زوجته فتحت له دكانًا وأقامته فيه وحده ولم يكفها هذا فجعلت تكلفه أن يعمل كل ما يخطر لها فأصبح الرجل لا يعرف رأسه من رجليه فهو أبدا رائح غاد يعمل في الدكان

أو فى البيت أو يجرى فى الطـــريق ليقضى حاجة مستعجله فشكا إلى بعض إخوانه ما تجشمه زوجته من الجـهــد والكرب وما تحرمه من الراحة فسأله صديقـة ولمـــاذا لا تطلقـها وتريح نفسك من هذا العناء كله؟ فكان رد المسكين: "وهل تركت لى وقـتًـا أطلقها فيه" .

فضحكت فقالت نفسى : "إنك تضحك ولكن هذا حال من يقبل على العمل إقبالك ويعمل بما علموه فى المدرسة من عدم إرجاء ما يمكن عمله"

وتظل نفسى تحاورنى وتداورنى على هذا النحو وبأمثال هذه السفسطة لتهرب من الحساب، فيضيق صدرى بها وأهم بزجرها بعنف لولا أن هذا لا يليق وأقول الحق إنى أساعدها أحيانًا على الهرب لأنى فى تلك الأحيان أشعر بأن الحساب سيكون عسيراً علىَّ أيضًا وأن الموازين ليست خفيفة عندى .

وفى تلك الليلة قلت لها بلهجة رقيقة: "هل كان من الضرورى جداً لسعادتك أن تجرى لسانى بهذا الكلام الفارغ"

فسألتنى : "أى كلام فارغ" فقلت: "إنى حر كالهواء وإنه لا سلطان لأحد علىَّ وإنى وإنى إلى آخر ما أطلقت به لسانى من الهراء"

فقالت متهربة : "إن هذه لهجة فى خطاب النفس لا أظنها لائقة"

فقلت بضجر : "لا تحاورينى كما يفعل هذا الضمير المتعب"

فغمزت بعينها أن هس لئلا يتنبه الضمير الراقد فتكون ليلتنا سوداء ثم قالت بصوت مسموع: "ولكن أى كلام ليس أكثره على الأقل فارغًا"

قلت : "صـحـيح ولكن إنى حـر كـالهـواء؟ هذا لا يطاق ولا أدرى كـيف أزدرده صديقى بلا اعتراض" .

قالت : "إما أن صديقك لم يفهم أو يدرك حق الإدراك وإما أنه فهم وآثر المجاملة واتقاء المصادمة أو هو كغيره يفشر ويمعر فهو يحملك جميل الصبر على فشرك لترده إليه حين يفشر هو"

فكادت تفحمنى ولكنى كابرت وقلت : "ولكنى لا أحب أن أكون فشاراً"

قالت لا عليك فما أراك كنت فشاراً جداً. إن كل ما قلته هو أنه لا سلطان لأحد عليك غير طبيعتك وهذا صحيح وهو يصدق فى كل حاله وعلى كل إنسان"

فسكت وماذا عسى أن أقول، وخطر لى أنى قد أباهى ما شئت بحريتى المزعومة فى التصرف فلن أكون إلا مخادعًا لنفسى فى حقائق الحياة وما دام أنى مسير بطبيعتى التى تسيطر علىَّ وتوجهنى فأنا لا أستطيع أن أكون إلا ما تسمح لى به هذه الطبيعة فأنا أبداً مقيد بها وفى سجن منها لا باب له ولا أمل فى فكاك أو خلاص فى هذه الدنيا. وقد تثور نفسى وتمور عواطفى وتفور خواطرى ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بالقدر الذى تسمح به طبيعتى الخاصة وإلا فى محيط هذا السجن. ومهما تكبر البحيرة وتعظم فإن لها من شطآنها جواجز ولابد من زلزال يثير معالم الأرض لتغير هذه الحواجز أو توسيعها أو إبعادها وعلى أنها تبقى بعد ذلك حواجز إلا إذا غارت البحيرة كلها واختفت من الدنيا .

وخيل إلىَّ وأنا أفكر فى هذا أن طبيعتنا أوفطرتنا تجعلنا فى حياتنا خاضعين لسلطان يد أو أيد تمتد إلينا من وراء القبور وأن الماضى هو الذى يسيطر علينا لا الحاضر وأنه ليس لنا أن نتجه فى سيرنا فى هذه الدنيا إلا إلى حيث تديرنا هذه الأيدى الخفية التى تمتد من ظلام الماضى .

وتذكرت وأنا أدير هذا المعنى فى رأسى كيف تزوجت، وأقص الخبر لأن له دلالته وعلاقته بهذا المعنى. كنت صبيًا فى الرابعة أو الخامسة – لا حين تزوجت من فضلكم – فزارنا خالى وامرأته ومعهما طفله لهما منَّ الله بها عليهما فتناولها أبى ووضعها على حجره وقبلها، وأخذ يداعبها ويلمس خدها الطرى الصغير بإصبعه الناشف الكبير لتتبسم ثم ردها إلى أمها ونظر إلى أمى وقال: "هذه إن شاء الله لابننا"

ولم أشهد أنا هذة الجلسة فقد كنت فى الكتّاب ولكنهم دعونى حين صعدت إلى رؤية "عروسى" فلم أزد على النظر إليها ثم انصرفت عنها غير عابئ بها لأنها لا تستطيع أن تلاعبنى ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت أن هذه التى احتقرتها هى التى

ستكون زوجتى يومًا ما. ولو أن أحدًا بيّن لى هذا يومئذ وكشف لى عن الغيب فيه لما فهمته. وقد قصت أمى على ما دار فى هذه الجلسة فيما بعد ولم يخطر لى قط أن أشك فى صدقها، فقد كانت رحمها الله لا تكذب. ولا تعرف المحاورة والمداورة أو اللف إلى أغراضها. وقد مات أبى بعد سنوات قليلة ولم يعش لينعم بهذا الزواج الذى رتبه وقرره لابنه الذاهل فى طفولته. ولكن ابنه - وأعنى نفسى - ظل بعد أن سمع هذا الحديث وعرف رغبة أبيه يدور فى نفسه أن أباه كان يشتهى أن يزوجه هذه الصغيرة بعد أن يكبرا فاتجهت نفسى مع هذا الخاطر وصرت أنظر إلى بنت خالى نظرتى إلى زوجتى المستقبلة. وكانت امرأة خالى على عادة بعض الأمهات - تبديها لى تارة وتحجبها عنى تارة فأثمرت هذه المحاورة ثمرتها وتعلقت نفسى بالفتاه وصبوت إليها. فلما صرتُ ذا عمل أكسب منه رزقى حققت رغبة أبى وهكذا سيطرت علىّ إرادة أب مات قبل سنوات عديدة، وقولوا ما شئتم فى تأويل ذلك، فلن تخرجوا به عن كونه مظهرًا لتحكم الموتى فى الأحياء .

ومنذ بضع سنوات قليلة دعانى صديقى الأستاذ سليم بك حسن العالم الأثرى المشهور إلى زيارة ما كشف عنه من الآثار القديمة عند الهرم فى المنطقة التى اتخذتها الجامعة لحفائرها، وقد طاف بنا ساعات طويلة وهو يشرح ويفسر، ولكنه لم يستوقفنى من كل ما رأيت سوى أثرين أو نوعين من الآثار : فأما الأول فجدران بيوت قديمه لعلها كانت سكنى لكهنة المعابد أو خدمهم، وقد وقفت مذهولاً أمام هذه الجدران فقد سكنت بيوتًا جدرانها مدهونة على هذا النحو وبهذه الألوان عينها. والذين سكنوا البيوت القديمة قبل أن ترتفع هذه العمائر الجديدة يعرفون ولا شك كيف تدهن الجدران من الداخل باللون الأبيض أو الوردى أو الأزرق، وكيف يجرى خط عريض بلون آخر كالحزام للجدار وفوقه وخط آخر، وتحت هذين على مسافة عشرين سنتيًا أو نحو ذلك خط عريض آخر، وكيف يملأ بين الخطين العريضين بالرسوم أو النقوش أو يترك ما بينهما بياضًا .

هذا الذوق فى زخرفة الجدران ليس جديداً وإنما هو ذوق انحدر إلينا وورثناه من آلاف السنين وعشرات القرون. وقد طغت علينا فى السنوات العشر الأخيرة موجة من الغرب، فنحن نقلده فى هندسة البناء وفي طراز الزخرفة، ولكنا بدأنا نستنكر أن نظل مقلدين ونستهجن أن نفقد بذلك خصائصنا القومية وذوقنا الخاص الذى نتميز به بين الأمم. وعسير أن يتنبأ المرء بما تؤدى إليه هذه النزعة الجديدة إلى التحرر من أسر الغرب والرغبة فى أن نرجع إلى ما تمليه علينا طبيعتنا ومزاجنا القوى الخاص، ولكن المهم أن هذا التقليد ليس إلا نتيجة الشعور بقوة الغرب وضعفنا حيالة وتوهمنا من أجل ذلك أن كل ما درجنا علية مظاهر للتأخر، وأن بقاء ذلك معناه بقاؤنا متأخرين فيجب إذن أن نعجل بتغييره بل بمحوه. ولكنا سنستقر على الأيام فتتغلب علينا خصائصنا أو تؤثر على الأقل فيما ننقله ونقلد به الأمم الأخرى. وما الحاجة إلى الذهاب الى الهرم للعثور على مثل لتحكم الميت فى الحى وسيطرة الماضى فى الحاضر؛ هذه الأديان كلها فى الدنيا جميعها أهي وليدة العصر الحاضر؟ الإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والكونفشيوسية وغيرها، أحدثها يرجع الى أكثر من خمسة عشر قرنًا. ولست أصدق أن فى الدنيا ملحداً بالمعنى الصحيح، ورافضاً لكل دين وكل عقيدة. كان لى صديق لا يزال يفاخر بأنه ملحد لا يؤمن بشيء، وكنت ألومه وأقول له ماذا يعنى الناس منك إذا كنت تؤثر لنفسك أن تكون ملحداً. إلحد ما شئت فإن هذه جنازتك كما يقول الإنجليز. ولكن أرح الناس من الأثقال عليهم بهذه الآراء التى لا يرتاحون إليها. فكان يضحك مني ويصر على حماقة المفاخرة بشدة الحادة. ومضت سنوات والتقينا على ظهر باخرة ذاهبة إلى جنوة، واضطرب البحر عصر يوم ورمانا لجه بالزبد، وأنا ممن لا تدور رؤوسهم فى البحر مهما بلغ من اصطخاب أمواجه، ولكن صاحبى الملحد أصيب بدوار شديد ألزمه سريره، فقلت أزوره لأطمئن عليه ولأرى ماذا أستطيع أن أصنع له، فدخلت عليه فألفيته ممتقع اللون جدا من طول ما جشأت نفسه ونهضت بلا انقطاع تقريبًا، وكان مغمض العين ولكن شفتيه كانتا تتحركان أو تختلجان بما لا أسمع من فرط الخفوت، فملت عليه لأسمع ما هو قائل حتى كادت أذني تلمس فمه، فإذا به يذكر الله ويتوسل إليه أن ينقذه ويخفف عنه.

وقد ترددت بعد ذلك، أأعيره بما سمعت منه أم أدعه لنفسه؟ ثم رأيت أن أتركه وشأنه وأن أدع الأيام ترده إلى اتزان الحكم واجتناب التطاول بعقله القاصر المحدود على ما لا يدرك .

ولغاتنا... أليست شجرة أصلها في الماضي السحيق... وكل لغة تتحكم فى عقول أبنائها وتصوغها لهم وتصبها فى قوالبها، ونحن نفكر على طريقة خاصة يضطرنا إليها احتياجنا إلى التعبير وفق أحكام خاصة للغتنا الموروثة بألفاظها ونحوها وصرفها وتراكيبها وقوالبها ومجازاتها، أى أننا نفكر على نحو ما كان يفكر الأقدمون من أبناء هذه اللغة. ولا سبيل إلا إلى ذلك ولا مهرب منه .

ونظام الوقف ماذا هو... إنه ليس إلا نظامًا يستطيع به رجل مات أن يحكم إرادته بعد زواله وخروجه من الدنيا فى أجيال متعاقبة من الأحياء. ومن كان يشك فى أن الموتى يتحكمون فى الأحياء فليذكر هذا الوقف. رجل له مال سيتركه ويرحل عن الدنيا وكأنما يعز عليه أن يده سترتفع وأن ماله ستتولاه أيد غير يديه فينشىء وقفًا يقضى فيه بأن يرث الذكور ولا يرث الإناث أو يرث الإناث ولا يرث الذكور، ويخرج طبقة ويدخل طبقة ويهب من يشاء ويحرم من يشاء، ويتحكم بهذه الوسيلة فى إرادات ناس لم يرهم فى حياته ولم يعرفهم ولم يحببهم أو يكرههم... أليست هذه يدًا ممتدة من وراء القبر توجه الأحياء إلى حيث تريد، وتصرفهم عما لا تريد؟ وهنا موضع التحرز من خطأ قد يسبق إلى الأوهام، فلست أحاول أن أنتقد نظام الوقف أو غيره من النظم، وإنما أنا أسوق مثالاً لسيطرة الماضى على الحاضر وخضوع إرادات الأحياء لإرادات من أدرجوا فى القبور. ولعلى لو كنت ذا مال لسرنى أن أنشئ وقفًا وأن أعطى وأمنع، وأنعم على هذا وأبخل على ذاك، فإن السرور بذلك التحكم طبيعى والأمم التى لا تعرف الوقف تعرف ما يشبهه مثل الوصية، وليس الوقف إلا ضربًا من الوصية أو لعل العكس هو الأصح .

ولا يتسع المقام لتقصى وجوه الحياة ومبلغ السيطرة الواقعة عليها من الماضى، ثم إن هذا لا ضرورة له فإنى أظن الأمر واضحًا وفى وسع من شاء أن يقيس على ما ذكرت .

وليس معنى هذا أن حياتنا [لا] تتغير وأن الحاضر صورة دقيقة من الماضى وأن عصراً يذهب وآخر يجىء، بلا اختلاف ولا تفاوت ولا تقدم. كلا فإن القول بهذا لا يكون إلا سخافة. ونحن نشهد التطور بأعيننا فى زماننا فمن التعنت أن يحاول أحد أن ينكر أنه لا يزال يحدث في الدنيا. وإنما معنى ما أسلفت من الأمثلة أن الكتلة البشرية لا ترمي بزمامها إلى كل من يدعوها إلى تغيير حالها وذلك بأن تقاومه وتناهضه ما وسعتها المقاومة لأنها تجرى على عادة، والحرص على العادة أسهل من الأخذ بالجديد غير المألوف، ولكنها مع ذلك تتزحزح شيئًا فشيئًا عن مألوفها ولكن ببطء شديد، أو قل ببلادة إذا شئت. فلا يستطيع من يدعوها إلى الجديد أن يحملها على الأخذ به كلا، فإنها لا تستطيع ذلك ولا تقوى عليه، ولهذا نرى الدعاة إلى الجديد يسرفون فى الطلب ونرى الجماعة البشرية تسرف في الرفض أو المقاومة وبذلك ينتهى الأمر بالوصول إلى حد وسط معقول .

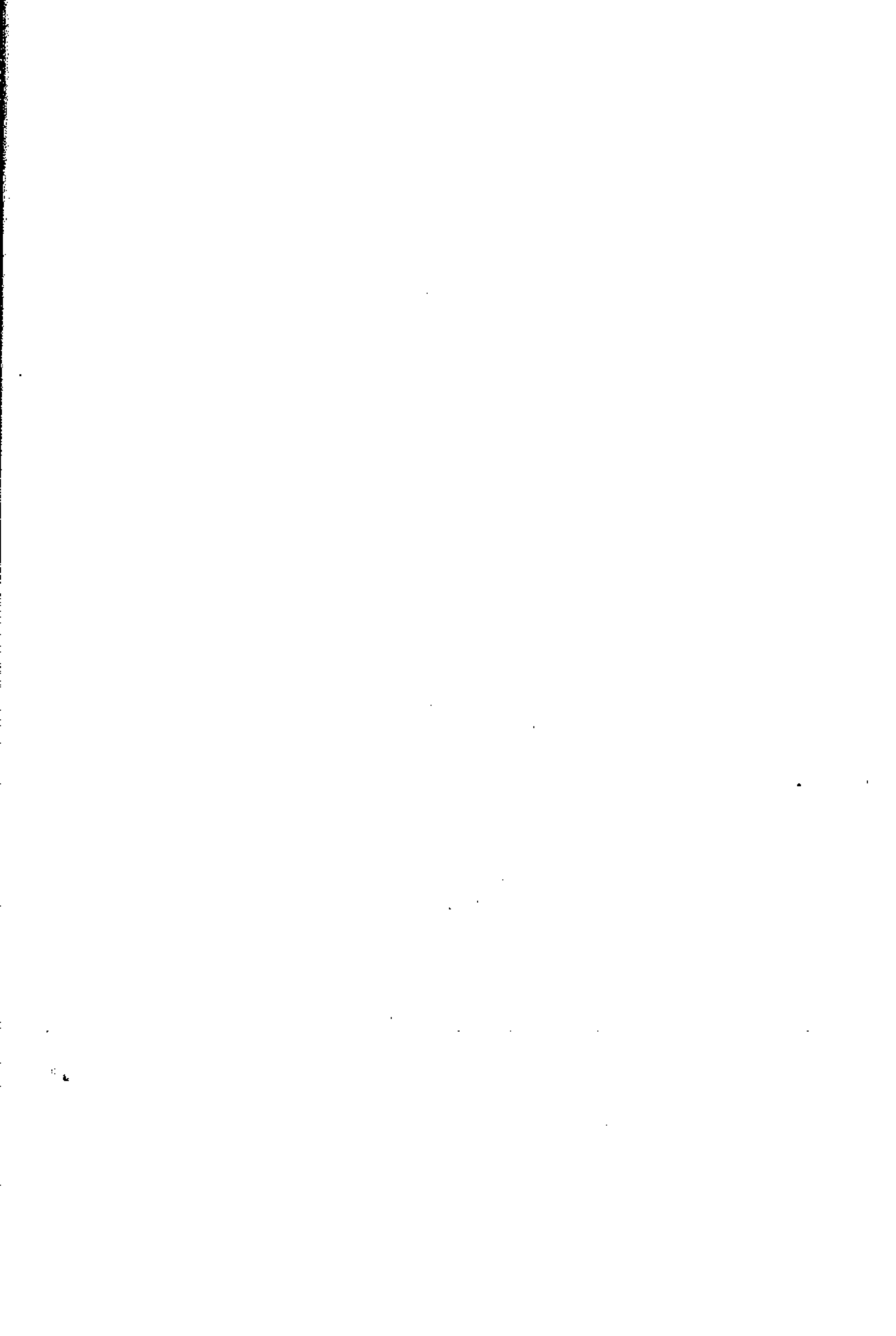
وقد كانت الكتل البشرية فيما مضى تنتظر أن يجىء الدعاة إلى التغيير من أبنائها، ولكنا صرنا فى زمن توثقت فيه الصلات بين الأمم قاطبة وصرنا لفرط السهولة فى الاتصال وسرعته كأننا أمة واحدة، فإذا قام داع إلى جديد فى إنجلترا فإن صوته يسمع في الوقت نفسه فى مصر والصين، وقد لا يحدث فى مصر والصين مثل الأثر الذى يحدثه في بلاده؛ والأمر في هذا يرجع إلى درجة التهذيب في كل شعب ومبلغ استعداده لتقبل الدعوات الجديدة لا إلى بطء وصول الدعوة، ومن هنا قلت حاجة الأمة إلى داع خاص من أبنائها، لأن كل داع إلى جديد في أى قطر تبلغها دعوته كما تبلغ أهله، ومن هنا أيضًا صار التطور فى زماننا أسرع لأن وسائل التبليغ والإلحاح على الشعوب صارت أسهل وأسرع وأقوى وأفعل، وحسبنا الصحف والمطابع والإذاعة اللاسلكية مما لم يكن وجود فى الماضى .

رأيت منذ أيام سيدة عجوزًا من معارفنا تمشى فى الطريق مع زوجها الهرم وفتاتها الناهد، وكنت أعرف هذه الأسرة شديدة الحرص على تقاليد الحجاب. ولكن الزمن جرفها بسرعة التطور الحادث فيه فخرجت الأم العجوز سافرة تنافس بنتها

الحديثة فى الزينة وسار معهما الأب الهرم لا ينكر شيئًا من هذا الذى كان مثله قبل عشر سنوات يدفعه إلى التفكير فى القتل. فهذا مثال بسرعة التطور من جراء السهولة التى تصل بها الموجات الجديدة من الأمم الأخرى .

وأعود الآن إلى بداية الكلام فأقول إن هذه الخواطر وأمثالها أرتنى أن الحرية التى أزعمني ناعمًا بها فى حياتى أكثرها وهم ومغالطة للنفس فى حقائق كبيرة، والقصد على العموم أولى وأسلم، وإن الحياة لأسر، وكثير على الأسير أن ينادى أنه حر طليق وفي يديه الحديد وله حين يتحرك صلصلة ورنين .

إبراهيم عبد القادر المازنى



الأصل وغيره[1]

أرانى أحد الإخوان رواية لكاتب إنجليزى معاصر اسمها "مذنبون بكرههم" وقال اقرأها. وقد اقتنيت نسخة منها، ولكنى مازلت محجمًا عن قراءتها وإن كان قد مضى يومان وهى على مكتبى تخايلنى كلما جلست إليه. وأحسب أن فى اسمها ما يصدنى عنها. ولست أعنى أنى أكره القصص التى تتناول الخطيئات والذنوب والآثام، فقلما تخلو رواية من شيء من ذلك، بل يندر أن تخلو حياة من هذا، فإن العصمة "عليا مراتب الأنبياء" وإنما أكره ما يبدو لى من النفاق أو المغالطة أو الجهل أو المداجاة فى هذا الاسم. ولو قال إنهم أخيار أو أطهار أو طيبون بكرههم لكان أشبه بالحق. فإن رأيى أن الإنسان مطبوع على ما نسميه الشر، وليس بمفطور على ما ألفنا أن نسميه الخير وما إلى هذين من صفات قبيحة وطيبة. والذى نعده خيراً ليس أكثر من عادة أو ضرورة، ولكن الذى نقول إنه الشر أصل. وقد صدق النواسى فى قوله :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النـ ـسك وعودتنيه، والخير عادة

وقد سألت نفسى غير مرة لو كنت، ومعى ابنى - والأبناء فيما يعرف الناس ويحسون أفلاذ أكبادهم - فى صحراء جرداء لا ماء فيها ولا شجر، ولم يبق معنا من الزاد إلا كسرة، ومن الماء إلا قطرة، وبرح بنا الجوع والظمأ، فماذا كنت عسى أن أصنع؟؟ أأوثره على نفسى، أم أوثر نفسى عليه ؟

وآثرت الإخلاص وصدق السريرة فى الجواد فقلت أن أول ما كان خليقًا أن يدور بنفسى هو أن أوثر نفسى على ابنى، ولعلى حقيق إذا ثقلت وطأة الاحتمال علىّ أن

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٨ (ص٣٠٠٤-١٤٠٤٠١٤) .

أقاتله على اللقمة أو قطرة الماء. ومهما يكن من ذلك فإن المحقق عندي – فيما أشعر وأعلم – هو أن الخاطر الأول يكون هكذا، أي أن تحدثني نفسي بالاستئثار دون ابني بما بقي لنا. وقد يتغلب العقل وعادة الكبح والنظام الذي نجري عليه في حياتنا المتحضرة فيحدث أحد أمرين مثلاً: أن يكون الباقي مما يحتمل القسمة، فأقترح اقتسامه ومن يدري؟ لعلي وأنا أكسر اللقمة الباقية أجور عليه في القسمة وإذا كان الأمر لا سبيل فيه إلى مشاركة، فقد أقول لنفسي إن من قلة العقل أن أخطف الكسرة والماء فأطيل بذلك عمري ساعات، وما يبدو لنا أمل في نجدة قريبة، وأنا قد عشت أكثر مما عاش، وسيقضي كلانا نحبه فليس بضائري أن يبقى بعدي ساعات؛ وهب ناساً أدركونا وأنقذونا فإن الباقي من عمري دون الذي مضى وانقضى، وهو على كل حال شيخوخة وتهدم، وأمراض وعلل، وأوصاب وعجز، فما حرصي على ذاك؟ ولكن هذا صغير ولا يزال أمامه شباب طويل وريف فهو أولى بالحرص على الحياة والتعلق بها وأحق بذلك مني، وقد أكره أن يرى أثرتي وقبحها وشناعتها، وأخاف أن يعرف ذلك عني بوسيلة ما، فأناوله الماء وأجود عليه بالخبزة الناشفة، وأتظاهر بالرحمة، وأتكلف الإيثار وأقول له : إنك ابني وفلذة كبدي، فبقاؤك استمرار لحياتي وامتداد .

وفي الدنيا عشاق مجانين غير قليلين وقد يهم الواحد منهم بالانتحار إذا ضنت عليه حبيبته بابتسامه أو أعرضت عنه في مجلس، أو أبت عليه قبله وضمه. خذ هذا العاشق الولهان، المدله، المزدهف اللب، المشغوف القلب، وأجلسه إلى جانب حبيبته المعبودة في البرد القارس والمطر المنهمر، وانظر ماذا يحدث ؟ أتظن أنهما يتناجيان في تلك الساعه بحبهما؟؟ أتراه يشتهي حين أن يقبلها أو يضمها، أو يبالي ابتسامها أو إعراضها، أو يحفل ما يكون من ذلك منها؟ بل سل نفسك أيخطر له الحب وهو ينتفض من البرد و المطر ويرعد؟؟ وقد يندفع بحكم العادة فيخلع سترته ويضعها على كتفي المحبوبة المعبودة، ولكنه لا يفعل ذلك إلا وهو كاره له، وساخط عليه، وناقم على الضرورة التي تدفعه إلى ذلك. ويزداد البرد مع طول الجلسة، ويعانيان منه ما لا طاقة لهما به، فلا يبقى لهما هم إلا في هذا وفي ما يمكن أن يصنعا لاتقاء عواقبه، أو النجاة منه، ويذهب الحب وتذهب دواعي الانتحار، وتهبط قيمة ذلك كله إلى الصفر. فليت العشاق الذين يسلب الحب عقولهم، يكابدون شيئًا من هذه المكاره ليعلموا أن في الوسع

أن يقل احتفال المرء بابتسامة حبيبته، وتفتر الرغبة في ضمها وتقبيلها، بل إن في الوسع أن يحيا بغير هذه الحبيبة، ولا يفكر فيها، ودع عنك الانتحار من أجل قبلة أبتها عليه !

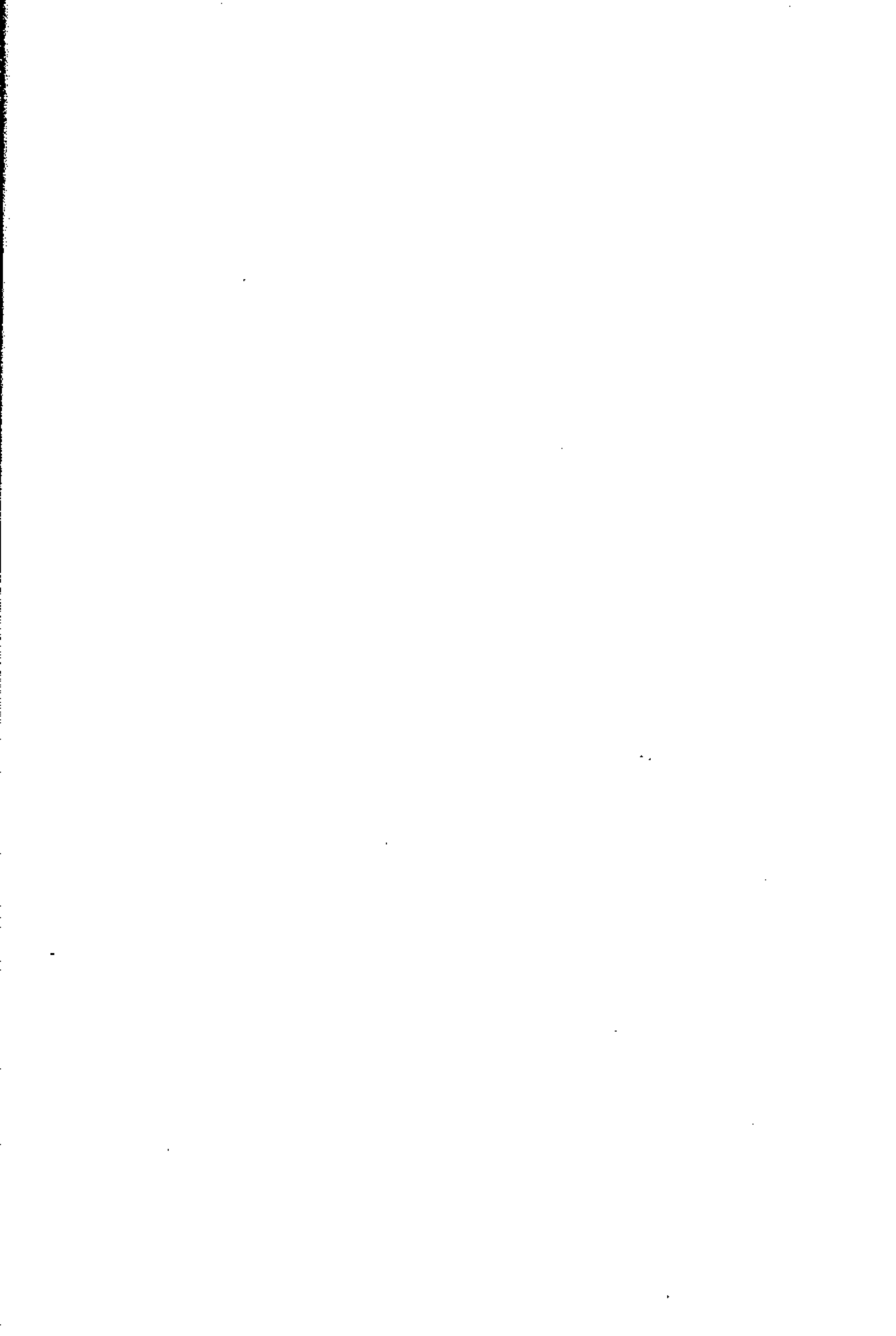
وهذه الشجاعة ماذا هي؟ إن الأصل في الإنسان الجبن لا الشجاعة، لأن غريزة المحافظة على الذات تقضي بذلك، ولكنه يتشجع، ويحتمل التعرض للمكاره أو المعاطب، ويلقي بنفسه في التهلكة، مرغمًا، فقد يكون الذي يفر منه شرًا مما يرمي نفسه عليه، أو يكون في الجبن الهلاك فيستوي الأمران، وإذن تكون الشجاعة أولى، وأجلب لحسن السمعة وطيب الأحدوثة، ففيها حتى مع الهلاك عزاء أدبي. أو يكون الموقف من شأنه أن يورط المرء فلا يبقى مفر من الإقدام، والأمر معه. وقد يكون المرء ضعيف الخيال أو قليل الإدراك فهو لا يحسن أن يقدر الأمور، ولا يبالغ في توهم الأخطار وتجسيدها؛ أو يكون على نقيض ذلك كبير العقل واسع الخيال فلا يرى بأسًا من الجرأة لأن فرص النجاح أو السلامة كفرص الإخفاق والتلف، أو أكثر، إلى آخر ما يمكن أن يكون باعثًا للإنسان على مقاومة الحرص الطبيعي على الحياة والضن الفطري بها .

ولا أعرف ما شأن غيري، ولكني أعرف نفسي على قدر ما يتيسر لي ذلك، وأعلم أني أشتهي كل ما يُشتهى في الحياة، وإذا كنت لا أواقع كل لذة أشتهيها، أو أطلبها، أو أحلم بها، فما هذا مني عن عفة فطري، وزهد في طباعي، فإن كل حالة من حالات الحرمان علة لا تخفى عليّ، ولا أستطيع أن أغالط نفسي فيها، وإن كنت أغالط الناس، ولو سألني ربي – كما سيسألني بعد عمر طويل – لأقررت بذنوب لم أقارفها، وخطايا لم أرتكبها، وشهوات تبحث نفسي عنها، أو استعصى عليّ إرضاؤها، ولطال بي الاعتراف، والخلائق ورائي تنتظر دورها تحت الشمس المحرقة في تلك الساعة التي تُذهل الأم عن ولدها، فأشفق عليهم، وأوجز وأقول إن ربي أدرى بي وأعرف بالظاهر والباطن، فلا حاجة إلى الإفاضة في الإعتراف. وإني، على الجملة، ومع تفاوت واختلاف قليلين لكما قال السمير رحمه الله :

فتراني طول عمري تائبًا من غير عفة

فلا نجاة لنا إلا برحمة من الله ومغفرة .

إبراهيم عبد القادر المازني



الشباب الثانى[1]

يقول مثلنا العامى أن لكل شيخ طريقة ولست بشيخ لا فى السن ولا فى الشكل وإن كانت تردنى وسائل كثيرة يخاطبنى فيها كاتبوها بالشيخ. وما أكثر من يتوهموننى رجلاً طويلاً عريضاً ضخماً ثم يروننى لسوء الحظ فيذكرون تمثلى بقول ابن الرومى :

"أنا من خف واستدق فما يثقل أرضاً ولا يسد فضاء"

وإن كان أضخم ما فى الدنيا لا يثقل أرضاً ولا يسد الفضاء، ولكنى أحسب الشاعر أراد أنه لا وزن له ولا حجم. وليست لى طريقة أعرفها فى الكتابة وإنما أقول ما يحضرنى وأتناول الكلام من حيث يسلس. هكذا كنت فى صدر أيامى وكذلك أرانى بعد أن استدبرت من الشباب ما كنت أستقبل والشاعر يقول : "إن الشباب مطية الجهل"[2] ، وهو لا يعنى الجهل بالجغرافيا والتاريخ والرياضة وما إلى ذلك وإنما يعنى الجهل بالحياة. وما أظن به إلا أراد أن يسوق هذا الكلام مساق الاعتذار مما فعل فى حداثته ثم ندم عليه فى ساعة من ساعات المراجعة للنفس. أو لعله أراد أن يفيء بأمير أو وزير إلى الرضى بعد السخط، فإنى لا أظن أن الشباب أجهل جداً بالحياة من الكهولة. ولا شك أن الكهل – فى الأغلب والأعم – يكون أعرف بالناس وطباعهم وأساليب تفكيرهم وأدرى بالضار والنافع وأعلم بما يحسن وما لا يحسن وأقدر على صحة الحكم وأدق فهما للأمور وأفطن لآخرها بأول الظن، وعسى أن يكون هذا كل ما عناه الشاعر

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٨ (ص٤–ص٥) .

(٢) الشعر لأبى نواس وهو من الكامل ونصه :

كان الشبابُ مطيةَ الجهلِ ومحسّنَ الضحكاتِ والهزلِ

فإن الحياة شيء آخر لا أرى الشيخ الذى علت به السن أحسن فهمًا له من الطفل. على أنى أظن الشاعر أراد بالجهل اندفاع الشاب وركوبه الحياة بعاطفته وإحساسه أكثر مما يركبها بعقله، فإذا كان هذا هو المقصود فهو صحيح. والشباب لا يكاد يملك إلا هذا، لأنه صاحب حيوية دافقة، يحس دفعها وقوتها وما تغرى به، ولا يحس الكوابح والصوارف، وشبيه بذلك أن يرزق المرء فى الحداثة كنز مال عظيم. ينظر إليه فلا يسعه إلا أن يرى أنه قادر به على كثير مما يخطر على البال ويدور فى النفس ويحس لفرط كثرته أن نفاده شيء بعيد. وأقرب شبهًا بحيوية الشباب ماء الفيضان. وعسير جدًا حجز الماء أيام الفيضان وصده عن التحدر بالسدود، فإنه خليق أن يكسرها أو يعلو فوقها فلا يعود لها غناء. إنما تجدى الأسداد والخزانات بعد أن يفتر الفيض ويقل المدد. وهذا الجهل الذى يحدثنا عنه الشاعر سببه فيض الحيوية وقلة جدوى الضوابط والكوابح معها. فإنها لا تغنى غناءها المرجو إلا بعد أن يذهب الكثير من هذا الفيض كما لا تنفع السدود إلا بعد أن يهبط الماء ويتحدر فيضه إلى البحر. وأن أكثره ليذهب عبثًا أو على الأصح يعود إلى مصادره الأولى، وكذلك فيض حيوية الشباب يبدو لنا أنه يذهب مع الرياح الأربع من غير أن ينتفع به الشاب أو الناس. ولكن من يدرى؟.. هذا سر الحياة .

وثقة الشباب بنفسه، وغروره وتهوره وطيشه وجرأته. إلى آخر ذلك تكون على الأكثر نتيجة هذا الفيض فى حيويته. وليس كل طيش أو جرأة أو غرور أو ثقة أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى من فرط الحيوية، فقد يكون ذلك من قلة فى العقل، وضعف فى الرأى، وفساد فى التقدير، أو جهل أو بلادة أو شيء آخر من هذا القبيل، ولكن كلامنا على الشباب السليم من هذه الآفات وما إليها .

على أنى لا أدرى فلا ينتظر القراء منى جزمًا بشيء أو رأيًا حاسماً قاطعاً فى موضوع وحسبهم منى أن أسوق ما أعرف فقد أصبحت كالذى سئل "من أى شيء كثرة شكك؟. فقال من محاماتى عن اليقين" وفى العبارة لعب بالألفاظ، ولكن المعنى فيما أعرف صحيح، وأنا أحد الذين طال إخلادهم إلى ما كانوا يظنونه يقينًا، ودفاعهم عنه، وتأييدهم له، حتى ساورتهم الشكوك من كل جانب. وليس هذا لأن اليقين يفضى

إلى الشك، بل لأن طول النظر فى الأمر يحير، ولأن الحقائق أكثر من جانب واحد، فالذى ينظر إليها من جانبها البادى له، يصدق، ولكن هناك جوانب أخرى ينظر إليها غيره وهم أيضاً يصدقون، ولسنا فى الحياة إلا كأولئك العميان الذين صادفوا فيلاً فجعل كل واحد منهم يصفه بما لمس منه، وإنا لنختلف فيما هو دون الفيل، أكثر مما اختلف العميان فيه .

* * *

لما بنيت مدينة الملاهى بمصر الجديدة - وكانت تسمى لونابارك - ذهبت إليها مرة وحدى فلم يرقنى منها فى تلك المرة إلا التيه أو "بيت جحا" كما كان يسمى ولا أدرى لماذا يعتقد الناس أن بيت جحا لا بد أن يكون تيهًا مضلاً. ولكن هذا هو الذى كان. ودخلت أول مرة ودرت دورة وإذا بى أخرج من حيث دخلت بلا مشقة أو عناء فاعتقدت أن الأمر سهل، وأن الطواف بهذا البيت العتيق هين. ودخلت مرة أخرى ولم أجعل بالى إلى الطريق فتهت. ولقيت في بعض المنعطفات قومًا حائرين، وسمعت أحدهم يقول أن ساقيه أصبحتا لا تحملانه، وأن رأسه يدور ويدور، وأنه لا يحب أن يقضى الليل هنا وأنه يخشى لطول ما غاب أن يلجأ أهل بيته إلى البوليس، وأن نهاره سيكون أسود على كل حال. فابتسمت وربت له على كتفه وقلت له: "هون على نفسك فالأمر أيسر من ذلك، تعالوا معى.. اتبعونى فإنى أعرف المداخل والمخارج" ففرحوا وتبعونى وهم يدعون لى فدرنا دورتين وإذ بنا نرجع إلى حيث كان يبكى صاحبنا ويصف ما سيلقاه من زوجته حين يعود إليها، فتلفت مستغربًا - ولكنى لم أتوقف. ومضيت فى طريقى فدرنا وقطعنا بضعة كيلو مترات ثم عدنا إلى حيث بدأنا، فقال الذى كان يبكى : هذه ثانى مرة نرجع فيها إلى هذه النقطة، فتلجلجت ولكنى كابرت وقلت له "لاحظ أن الطريق متشابه" فصاح بى "لقد رأيت هذا البيت من الخارج قبل أن أدخله وهو أمتار فى أمتار، فكيف نطوف نصف ساعة ولا نبلغ آخره، أليس هذا لأننا نسير فى دائرة لا نخرج عنها؟؟ فطمأنته واستأنفت السير وتوخيت أن أعدل عن المنعطفات التى تردنا إلى حيث كنا، فأبى سوء الحظ إلا أن نرجع إلى مكاننا الأول، فطار عقل الرجل ولكنى استطعت أن أتألفه وأن أرده إلى الهدوء وقلت له أن الغضب

لا ينفع، والبقاء هنا أقل نفعًا، ولا بد من السير على كل حال، وسرنا والتقينا في طريقنا بتائهين وتائهات مثلنا، ثم بغيرهم وبغيرهن، حتى لأظن أننا اجتذبنا إلينا كل تائه وتائهة في هذا البيت المسحور، وسمعت فتاة تقول: لابد أن يكون هذا أكبر بيت في العالم. فقال صاحبنا الذي فقد الأمل في العودة إلى أهله وأصحابه : طبعًا فقد قطعنا مائة كيلومتر. فوجدت لساني وقلت : في نصف ساعة؟ معقول. ورأى بعضهم أني أبتسم وأن ثقتي بنفسي عظيمة وخاف على ما أظن أن يفقدني في هذا الزحام فلا يخرج أبدًا، فتناول ذراعي وتأبطها، ومضينا على بركة الله، فلم نجد لا مخرجًا ولا مدخلاً وإنما وجدنا مكاننا الأول بعينه، فاقترحت أن نعود إلى مدخل البيت ثم نبدأ من جديد. فأمّا أن نعود إلى المدخل فقد رحب به كل من حف بي، وأما الابتداء مرة أخرى من جديد، فقوبل اقتراحه بالصمت والتقطيب. وشرعنا نمشي في اتجاه جديد ومضى نحو عشر دقائق وإذا بنا نلقى أنفسنا في وسط البيت ومركز الدائرة فيه، وقد هممت بأن أزعم أن هذا ما قصدت أن أهتدي إليه، ولكن نظرات القوم ردتني إلى ما هو أسلم، فقلت إننا ضالون ولكنا نعرف الآن أين نحن، وأخذنا نمشي من هناك وضاعت دقائق عرفنا بعدها أننا عدنا إلى المركز، فارتبكنا جميعًا واضطربت أعصابنا وعجزنا عن اتقاء العودة إلى هذا المركز وصار كل طريق نأخذه يردنا إليه، وأصبح هذا أمرًا معروفًا مقررًا في الأذهان حتى إن بعضنا كان يبقى في هذا المركز انتظارًا لعودة الباقين وثقة بهذه العودة التي لا مفر منها، وغلبنا اليأس آخر الأمر فصحنا جميعًا بصاحب هذا البيت المسحور، فأطل علينا شاب من عماله وجعل يشير إلى اتجاهات لا نراها وكنا قد تعبنا وأصبحنا عاجزين حتى عن الفهم، فأمرنا أن نبقى حيث نحن ووعد أن يجيء ليخرجنا. ولكنه كان حديث العهد بالبيت فتاه قبل أن يصل إلينا، وكنا نراه من حين إلى حين يجري هنا وههنا، ونسمع كلامه وسؤاله عنا، أين نحن، ولا أطيل. جاء أخيرًا صاحب البيت وأخرجنا بسلام. ولكنه لم يشفع لي عند رفاقي حسن نيتي معهم وشدة اجتهادي لهم .

ويخطر لي الآن أن الحياة كهذا البيت، وأني بدأتها هذه البداية، واغتررت بحسن التوفيق فيها في أول الأمر، ولا أعلم وأحسبني لا أحب أن أعلم، كيف أخرج منها، فإن البقاء هنا أحب وأشهى على ما فيه من التعب .

وقد جربت الفقر بعد موت أبي وكان في حياته مسرفًا ولكنه ترك لنا مالا أتى عليه أخ "كان" أكبر مني – وأقول كان لأنه لحق بمن عبر – فكدنا نلصق بالتراب من شدة الفاقة، وكان لا بد أن نأكل ونشرب ولا بد أن نتعلم أيضًا، وكانت أمي تبيع ما عندها من الحلي وما إلى ذلك لتنفق علينا وأخونا لاه عنا بتضييع مالنا وكنت أنظر إلى الجهد الذي تتجشمه أمي في تدبير الأمر، وإلى حال أخي ولهوه فأحس باليأس من الخير في الطبيعة الإنسانية، ويخامرني من المرارة ما يكاد يفيض على لساني، إلى أن كان يومًا أسودًا بلغ الضيق والكرب فيه ما لا سبيل بعده إلى الاحتمال، وإني لواقف في ساحة البيت وظهري إلى الحائط وعيني إلى الأرض وإذا بشيخ من العلماء أعرفه كان صديقًا لأبي وزميلاً له وتلميذًا لجدي في طلب العلم فأحسست بقلبي يهبط إلى حذائي وأنا أتقدم إليه لأحييه وأرحب به، فما كان في البيت حبة من البن أو قطعة من السكر – ولا غيرهما أيضًا – ودار رأسي وأنا أفكر في فضيحتنا مع هذا الضيف الكريم الذي لا نملك من الطعام والشراب ما نكرمه به. ودعاني أن أصعد إلى جدتي وأن أقرئها سلامه وأن أستأذن له عليها فقد كان كابنها وكان يلازم جدي أيام التحصيل والطلب. وجلس إليها وأقبل عليها يسألها عن الصحة والحال وهي تحمد الله الذي لا يحمد على المكروه سواه. وأنا واقف أنظر ولا أكاد أرى أو أعي شيئًا وإذا بي أسمعه يقول لها إن "الأفندي" – يعني أبي – كان قد ترك معي قبل موته مالا مخافة أن يبقى معه فينفقه وكان في نيته أن يعطيه غيره وغيره لأحفظه له أيضًا ثم يشتري بها أرضًا أو عقارًا ولكن أجله وفاه قبل أن يتيسر ذلك فبقي المال عند هذا الشيخ الجليل لا يعلم به أحد وقد خاف الشيخ أن يموت فيضيع على ذوي الحق حقهم فهو يريد أن يرده إلينا لتبرأ ذمته. وقد عشنا بهذا المال حتى استطعت أن أكسب رزقي بعرق جبيني. وكانت هذه الحادثة هي التي ردت إلى نفسي الإيمان بالخير في الدنيا .

ولم نصبح بهذا المال أغنياء ولكنه كان حسبنا مع حسن التدبير. وكانت حياة شظف ولكنها كانت محتملة مع الأمل والكد، غير أن الحرمان كان فيها كبيراً. وكانت النفس تشتهي أحيانًا ولا تجد، والعين ترى وترتد إلى القلب بالأسف والكمد، وكان هذا يشق على أحيانًا فينفد صبري ثم لا أجد لي حيلة إلا الجلد حتى أفرغ من التعليم.

وكان أقوى ما أعانني على الاحتمال شاب هزيل معروق بادى السقام كنت أراه فى وقدة الظهر الأحمر على حجارة مكبسة فى الحارة وهى بقايا بناء فكان هذا الفتى المسكين يسويها ويرصها ويرقد عليها ويتخذ منها سريراً له، وكانت الشمس الحامية تقع على رأسه العارى وهو راقد لا يبالها أو لا يملك ما يتقيها به، فكنت أتعجب له، ثم صرت أقتدى به – أعنى أنى صرفت نفسى عن طلب المتع واللذاذات ووطنتها على حياة الخشونة والجلد، وعلى الأيام تساوت عندى الأحوال وصرت إذا يسر الله أمراً فبها وله الحمد، وإذا حرمته فلا جزع ولا أسف. وقد فقدت حتى القدرة على اشتهاء ما يعده الناس من اللذاذات المطلوبة، وفقدت السرور بها حين تتاح، وأعفيت من الأسف واللهفة عليها إذا عز منالها واستعصت على الطلب. ولست زاهداً ولكنى رضت نفسى على الزهادة عند الحاجة واتخذت من القدرة عليها، ملجأ اعتصم به من الاضطرار إلى ما لا ترضاه النفس ويرتاح إليه الضمير، وقد أفادنى شعورى بالقدرة على الاستغناء فأصبحت لا أبالى أى حال أكون فيه، لأنى أحس أن فى وسعى أن اتجرد واتجرد حتى أصبح كالعود النابت فى الصحراء ليس عليه ورقة واحدة، وهو مع ذلك حى، فى جوفه نضارة كامنة وتكفيه قطرة واحدة من الماء لينبت فيه الورق الأخضر .

ومن أجل ذلك صار المال لا قيمة له عندى. ولست أجهل أن له فى الحياة شأناً، وإنى لأعرف أنه هو الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وأنه لا كرامة لإنسان لا مال له، وأنه باختصار عصب الحياة وزندها ولكنى أعرف أيضاً أن قدرة المرء على الاستغناء تجعله كالذى يحلق فوق الحياة الأرضية فيرى الناس تحته لا حيث يتوهمون أنفسهم، لهذا أنفق ولا أبالى – آخذ من غير أن أعنى نفسى بالحساب، وأعطى – إذا اتفق أن يبقى معه شىء بلا مبالاة أيضاً بالحساب – أى أن روحى وروح المليونير وإن كان لى حال المساكين، ولهذا أيضاً أستغرب وأنكر أن يطالبنى أحد بشىء وكثيراً ما أقول للدائنين أنه ليس أعبط ممن يقرض إلا من يرد القرض .

والفقر فى أيام الصبا هو الذى جعل منى مدرساً ورجل أدب وصحافة بدلاً من طبيب كما كنت أريد أن أكون، ولكنهم طردونى من مدرسة الطب ورموا لى أوراقى فى الشارع بعد أن قدمت طلب الالتحاق بأيام، لا لسبب سوى أن الناظر لم يعجبه شكلى،

فحملت أوراقي وخرجت ساخطًا على هذا الاستبداد، وتلك العجرفة، واتهمت الإنجليز في أخلاقهم وعقولهم وتحولت مكرهًا إلى مدرسة المعلمين العليا، فما بقي أمامي غيرها، وهناك حدث أن تحقيقًا جرى معي لأني ألقيت خطبة سياسية في تأبين المرحوم مصطفى كامل، وكان ناظر المدرسة الإنجليزي ووكيله المصري يحضران التحقيق، فكان الناظر الإنجليزي هو الذي يحاول أن ينقذني، والوكيل المصري هو الذي يحاول أن يوقعني، وفاز الناظر فبقيت في المدرسة وصلح عندي بذلك ما فسد بسبب طردي من مدرسة الطب .

وكانت مساكننا في الأحياء الوطنية المهملة، فكنا نعد القاهرة مدينتين – الأولى ذات الأوحال والظلام والثانية تلك التي تبدأ من ميدان الأوبرا، وكنا نشعر بالآن تقال إذا نتخطى الاوبرا فنتلفت ونحن نمشي، ونصعد عيوننا ونصوبها، ونتأمل الأرصفة اللامعة، والأنوار المتلألئة والعمارات الشامخة، والواجهات التي تبدو من وراء بلورها المصقول، المعروضات المغرية، ونتأمل الرائحين والرائحات في ثياب السهر، وننظر إلى من في المطاعم والمقاهي الغاصة بالخلق فنتهامس وينبه بعضنا بعضًا، ثم نستأنف السير ونروح نعقب على ما رأينا ونصف إحساسنا به ووقعه في نفوسنا. وتكل أرجلنا من المشي فنعقد على دكة بواب إحدى العمارات .

ولم تكن المرأة عاملاً له أثر في حياتنا وتربيتنا فأخذنا طريقنا في الحياة بغير معونتها، وكانت تربيتنا تقضي علينا بأن نعد المرأة مخلوقا ينبغي غض البصر حين نلقاه، فنقصت حياتنا بذلك وحرمت الامتلاء والسعة واللين والمرونة، وعرفنا الحب كلامًا يقوله الشعراء ويهذي به المساكين المحرومون الأشقياء. والجمال نعمة وري، ولكن هذا الفصل بين الجنسين إحالة أكلة تشتهي، ومتعة تختلس. وعلى ذكر الجمال أقول أني لا أنكر أني رأيت في بيتنا أو بيت واحد من أهلي أو أصحابي في ذلك الصدر من حياتي، زهرًا على مائدة أو رف. وكان يجيء شم النسيم في أوانه من كل عام فإذا أصبح الصباح وفتحنا عيوننا على يومنا الجديد، جاءونا بالبصل نشمه. ومما هو خليق أن يعين على تصور هذه الحياة الناقصة أني بعد أن شببت عن الطوق جدًا استأجرت بيتًا رقعته واسعة وفي أرضه أشجار فاكهة شتى فأحببت أن أزرع شيئًا في

هذه الأرض، فاستشرت من الأقرباء والمعارف من لهم دراية أو خبرة بهذه الشؤون فأجمعوا على اقتراح الفجل والجرجير والخس والفلفل وما إلى ذلك، ولم يخطر لواحد منهم أن الأزهار يمكن أن تغرس أعوادها، فقلت لهم أنى لا ينقصنى ما يملأ المعدة، وإنما ينقصنى ما يجلو البصر وترف له الروح .

وجربت الناس وبلوتهم فى حالات شتى فإذا هم قلما يفرقون بين العاطفة والشهوة، أو يفقهون ما يسميه "جرالد كابرلاند" "نعيم الحياة" – ووجدت حياة الأكثرين خطأ مركبًا وسلسلة من الشهوات تتكرر كالكسر الدائر لا تبعث على الرضى ولا يظفر المرء منها بالسكينة. وخيل إلى – ولا يزال يبدو لى – أنى أرى آيات ذلك فى الوجوه وأسمعها فى الأصوات وألمحها فى سلوك الناس الذى تحيط به أسلاك شائكة مما تقضى به تقاليد الحرمان فهم أرقاء فيما أرى وعبيد للخوف والخرافة وما إليها. وأكثر من أرى أموات وإن كانوا يروحون ويجيئون على ظهر هذه الأرض أما النساء فلسن موتى فقط، بل هن أيضاً دفينات .

ومن أعاجيب تجربتى للحياة فى هذا البلد أنك تحتاج أن تحصل على رخصة للحب كرخصة الكلب أو الراديو أو السيارة وكأنى بتقاليدنا توحى إلى الناس أن يقولوا أن هنا اثنين يحاولان أن يعيشا سعيدين فامنعوهما ولا تمكنوهما من ذلك" .

وقانوننا الأخلاقى وقف على الجنس وكلمة الأخلاق لا تكاد تعنى سوى التزام هذا القانون. أما النفاق والكذب وفساد الذمة وموت الضمير فلا يلم بها قانون الأخلاق .

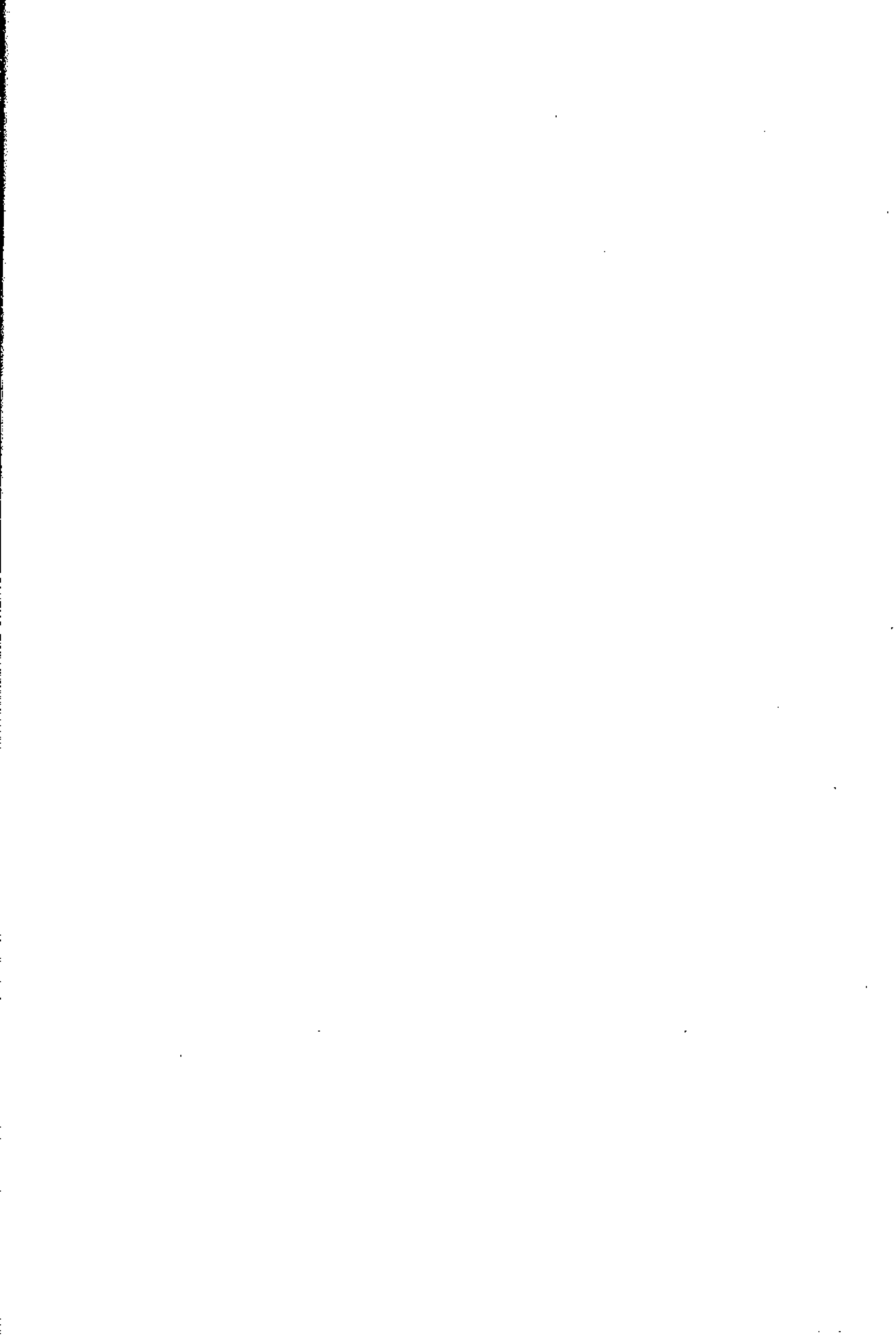
وجربت الحياء فإذا هو ضعف يدفع المرء إلى الوراء ويحرمه حقه. ولم أر أن ضعف الجسم وضآلته يمنعان أن يخوض المرء المعارك، فقد كنت فى حداثتى مايسمى "جر الشكل" أعنى أنى كنت أفتتح الشر بين الفتوات، وكنت لا أحجم عن ضرب من يتعرض لى ولو كان هائل الجسم وكنت ألجأ إلى الحيلة فأرميه مثلاً فى عينيه بالتراب فأعميه وأربكه وأنهال عليه بعد ذلك بما أشاء حيث أشاء. ولم أكن أتقى أن تقع العصى أو الحجر على مقتل لأن الحرب حرب فكنت لهذا وأمثاله قلما أنهزم .

وجربت حمل الهم فإذا هو أثقل من معاناته بعد وقوعه. وكان يخيل إلى فى بعض الأحوال أن الأزمات النفسية أو المادية ستقضى علىّ وتقتلنى فإذا بها تمر وتتركنى سليمًا معافى فعلمت أن كل شيء يزول في أوانه ووطنت نفسى على ذلك فلست أجزع الآن لما يصيبنى، أو أخاف أن يصيبنى لأنى عهدت كل شيء يمر ويتركنى، ووثقت من ذلك حتى لأرى الفرج في الضيق وأحس الصحة فى المرض .

وخالطت الناس من كل الطبقات فإذا هم مثلى - لا أنا خير منهم أو أفضل ولا شر منهم وأرذل. وكل ما فىّ من العيوب وجدته فيهم، وكل ما أباهى به من الفضائل لم أعدم نظيره عندهم وكنت أعرف لنفسى عذرها، حين أزل أو أخطئ، ولا أدرى ما عذر الناس غيرى، فصرت أضع نفسى في مكانهم فأحس أنى كنت خليقًا أن أفعل كما فعلوا، فاتسع صدرى وكثر تسامحى .

وأوجز فأقول أنى لم أكن أحيا فى أيام الشباب وإنما كنت أرهب الحياة وأتناولها بحذر وخوف وإشفاق، ولهذا كنت في ذلك الصدر من العمر متشائمًا يؤوسًا، فلما أدبر وولت أيامه، قويت إرادة الحياة وزال عنى الخوف منها، ولم تعد تخامرنى تلك الرهبة القديمة، وأقبلت على الدنيا وأنا أحس أنى استأنفت شبابى الذى لم أنعم به. فكأنى وثبت من الطفولة إلى الكهولة ثم عدت أدراجى إلى الشباب الذى خادعتنى عنه وغالطتنى فيه، نشأتى وبيئتى وتربيتى الأولى - وأقول تربيتى الأولى لأنى ربيت نفسى تربية أخرى مختلفة جداً .

إبراهيم عبد القادر المازنى



فـى الأدب ولماذا تركـت الشـعر؟[1]

منذ شـهرين – أو حوالى ذلك – أذعت كلمة وجيزة أجبت فيها عن أسئلة وجهت إلىَّ، من بينها سؤال عما أختار من شعرى. وقد قلت فى الجواب – على ما أذكر – أنى لست بشاعر، ولست أنكر أنى عالجت الشعر زمنًا ولكنى أخفقت فيه، فكففت عنه، فيحسن أن يسأل غيرى، وإن الاختيار على كل حال صعب لأن كلام المرء كأبنائه – يعرف عيوبهم ومزاياهم ولا يخفى عليه ما بينهم من تفاوت ولعل بعضهم آثر عنده من بعض ولكنه لا يحب أن يعترف بهذ المفاضلة .

وقد تلقيت بعد ذلك رسائل ممن أعرف ومن لا أعرف، يسألوننى فيها لماذا تركت الشعر... ويتعجب بعضهم لهذا ويعتقد البعض أنى ما زلت أقوله وإن كنت لا أنشر منه شيئًا، ويذكرنى بما أتمثل به أحيانًا من أن الزمار يموت وأصابعه تلعب. وسأموت يومًا ما – ما فى هذا شك – وإنى لأرجو أن يكون ذلك اليوم بعيدًا ولكنى، قرب ذلك اليوم أم بعد، لا أحب أن تضطرب فيه شفتاى بكلام لى – شعرًا كان أو نثرًا، فما يليق أن يكون ختام الحياة ثرثرة فارغة .

ومنذ بضعة أيام كنت ذاهبًا مع إخوان لى إلى القناطر لنقضى يومنا فيها فسألنى أحدهم ونحن فى الطريق :

"هل تؤمن بتناسخ الأرواح.... أو بعودة الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا فى أية صورة من الصور؟"

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٨ (ص٥) .

وكان هذا آخر ما كنت أتوقع أن يجرى بيننا الحديث فيه، فقلت بإيجاز: "لست أحب أن أؤمن بشيء من ذلك - حسبي حياة واحدة في هذه الدنيا" .

قال "دع ما تحب وما لا تحب، وأجبني - هل تؤمن أو لا تؤمن بما أسألك عنه؟"

قلت مراوغًا "لابد من الجواب؟"

قال ؟ "لابد" .

قلت "يؤسفني أن أخيب أملك ولا أسعدك بصداقتي مرة أخرى فوق ظهر هذه الأرض. ثم إني لا أحب أن ألفي نفسي ذات يوم في جسم حمار أو قط أو فأر فليس همي الحياة ذاتها كيفما اتفق أن تكون. وماذا أصنع بالحياة إذا عدت إلى الدنيا في جسم حمار مثلاً؟. لا يا سيدي.... يفتح الله. خل هذا لك إذا شئت" .

قال "أشكرك. إنما كنت أريد أن أبشرك بأننا جديرون أن نكون - حين نعود إلى هذه الدنيا - أسعد مما نحن الآن وأن نكون أوفر حظًا من مناعمها وخيراتها، فقد عرفنا، وجربنا، وبلونا الحياة، فأحرى بأن ننتفع بعملنا وخبرتنا في كرتنا إلى هذا العالم" .

قلت "أشكر لك حسن نيتك ولكن هذا ليس سوى وهم ليس فيه أدنى عزاء فأنت أولاً لن تعود إلى هذه الدنيا فأطعني وأرح نفسك من عناء الأمل الباطل وتذكر قول البحترى :

"واليأس إحدى الراحتين ولن ترى تعبًا كظن الخائب المكدود"

وثانيًا هبك أمكن أن تعود فإنك لا تأمن أن تعود متقمصًا جسم خروف يذبح ويؤكل .

وثالثًا لو ضمنت أن تعود إنسانًا كما أنت الآن لما وسعك أن تنفع بتجربتك السابقة لهذه الحياة ذلك أنك خليق أن تجد نفسك في عالم جديد غير عالمنا هذا، تحتاج إلى تجربته من جديد وإلى اكتساب المعرفة به والهداية، ولن ينفعك يومئذ

ما عرفته – أو ما تظن أنك عرفته – فى حياتك الحاضرة كما لم ينفع أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة قضوها نياماً ما كانوا قد عرفوا فى زمانهم. كلا يا صاحبى. إن معرفتك وخبرتك وغير ذلك مما تحسب أنه يكون لك ذخراً فى حياة دنيوية ثانية سيكون كالعملة الزائفة لا يقبلها أهل الزمان المقبل ولا تستطيع أنت أن تديرها فى أسواق الحياة" .

قال "إذن ما فائدة الخبرة التى نكتسبها الآن بالحياة" .

قلت "يا أخى فلقتنى. أين هذه الخبرة التى اكتسبناها بالحياة ونحن أخيب الخياب وأفشل الفشلة. وإذا كنا لم نستطع أن ننتفع بما علمنا، الآن، فهل تظن أن هذا يشير بإمكان الانتفاع به فى زمان آخر؟"

قال "إنك تجزى الحسنة بالسيئة – أنا أريد أن أشرح صدرك بالأمل، وأنت تسود الدنيا فى عينى باليأس"

قلت "يا أخى إنك ظالم. فإنى أسوق سيارة فى طريق غاص بالناس والبهائم والمركبات المختلفة فهل تظن أن مما يشرح الصدر، ويثبت اليد، والرجل، والجنان، أن تذكرنى بالموت وبخيبتنا فى الحياة؟. ثم إنك ظالم مرة أخرى لأنك تطالبنى بالجد فى يوم خرجنا فيه لنلهو ونلعب وننسى هذا الجد. وستحطم لى رأسى طول النهار بالجدل فى الدين والأدب والفلسفة والسياسة والفنون ثم تسمى هذا يوماً حميداً قضيناه فى رياض القناطر" .

قال "فى أى شىء نتكلم إذن.."

قلت "لماذا يجب أن نتكلم؟ الكلام فى الحقيقة جهل فاسكت" .

فأنكر هذا القول منى فشرعت أشرح له رأياً لى وأبين أن الإنسان إنما يتكلم ويشعر بالحاجة إلى الكلام لأنه جاهل، لا يعرف، وإنه لو عرف، وفهم، وتبين ولم يخف عليه شىء، أو وجد وسيلة أجدى وأوفى من الكلام للتفاهم، لما احتاج إلى هذا الكلام. وحاجة الإنسان إلى الكلام راجعة إلى حاجته إلى المعرفة وإلى البيان. والمرء أحياناً يتكلم لا لأن عنده ما يقوله بل لأنه يريد أن يعرف ماذا عنده – فى رأسه أو فى نفسه،

كالتاجر الذى "يجرد" أو يفحص دكانه، ليرى ماذا فيه من البضائع أو كالذى يفتح الصنبور "الحنفية" ليرى هل هناك ماء أو يضغط زر الكهرباء لا ليضيء فقد يكون الوقت نهاراً بل لينظر هل انقطع التيار أو هو متصل. وكذلك الإنسان - كثير من كلامه اختبار لنفسه وإن كان هو فى الأغلب الأعم لا يدرى أنه يختبر نفسه ويفحصها ويحسها. ولا أعرف شيئًا عن غيرى من الكتاب ولكننى أعرف أنى أنا كثيراً ما أتعمد أن أدير الحديث على ما يخطر لى أن أكتب فيه فأجد أن الكلام فى ما يدور بنفسى، أعون لى على جلاء الغامض وجمع المتفرق وحسن الإحاطة بالجوانب المختلفة، وأرانى بعد أن أتكلم فى موضوع، أقدر على تناوله، وأحسن فهمًا له، وأسدى رأيًا فيه. وأكبر الظن أن كثيرين غيرى جربوا هذا وعرفوا كيف يفتح الكلام الأبواب الموصدة، ويبين الخفى، ويكشف عن المستور، ويبرز المطوى، ويعين بالإيحاء وتداعى الخواطر على الضبط والإحكام والاهتداء إلى الحقيقة أو الصواب أو المراد .

ويحسن أن أقول أنى أعنى بالكلام كل ما يدور به اللسان أو يجرى به القلم، فأنا أطلق اللفظ هنا على الحديث والكتابة والشعر. والآن ما هو الغرض من الكلام؟ أحسب أن الجواب هو أن الغرض هو الفهم والإفهام. والكلام يكون أحيانًا نوعًا من التفكير بصوت عال. والمرء يحدث نفسه - فى سره تارة، أى بصوت باطنى يسمعه هو، أو على الأصح يحس دورانه فى نفسه ولا يسمعه غيره. وربما حدث نفسه بصوت مسموع. وكذلك يفعل الإنسان حين يفكر فيكون التفكير تارة صامتًا أى لا يسمع صوته أحد. وتارة أخرى يكون بواسطة الكلام المسموع أو المكتوب. وفى وسع كل إنسان أن يجرب هذا - أى التفكير بالكلام المسموع، وما عليه إلا أن يشرع فى الكلام - بقصة يتخيلها وهو يرويها، أو بموضوع يتناوله من غير أن يسبق له بحث فيه، فإذا فعل ذلك فإنه خليق أن يرى كيف يعمل عقله فى صوغ القصة وسبك موضوعها وسرد الحوادث التى يخترعها أولاً فأولاً، على البديهة، ومن غير تحضير سابق - أو كيف يطرق الموضوع من هذه الناحية أو تلك ويعمل لسانه وعقله فى وقت معًا. كما يفعل المرء حين يرتجل خطبة .

والواقع أنه لا فرق بين التفكير بصوت مسموع والتفكير بصوت غير مسموع لأن الإنسان إنما يفكر بواسطة الألفاظ في الحالتين، وبغير الألفاظ لا يستطيع الإنسان، إلى الآن ، أن يفكر، وما من فكرة يمكن أن تحصل في الذهن، أو خالجة يتصورها أو يحسها، إلا إذا جعل لها ثوبًا من اللفظ. فالألفاظ هي أداتنا الوحيدة إلى الآن ، للفهم والإفهام وللتصور والتصوير – حتى حين ينظر المرء إلى صاحبه ويغمزه بعينه ويدعوه باللفظ إلى فعل شيء أو ينهاه عن شيء يحصل في نفسه الإحساس بصوت الكلام الذي يعبر به في العادة عن هذه المعاني، فإذا كان يقول له بعينه "قم" فإنه إذا جعل باله إلى ما يحصل في نفسه يستطيع أن يشعر بالحركة التي تحدث عندما ينطق بلفظ "قم" .

والإنسان يرتقي، وهو يستطيع أن يعبر عن بعض مراده بعينه أو حاجبيه أو بهزة رأس أو تحريك إصبع، ولكن هذه الإشارات تكون مصحوبة بصوت باطني، أي بالألفاظ المألوفة للتعبير عن المعاني التي عبر عنها بالإشارات. ولكن في وسعه أن يعتاد الاستغناء عن الألفاظ، وأن يألف التعبير بغير واسطتها، فإن الأخرس الذي لم يتعلم، لا يعرف الألفاظ ولا مدلولها، فهو لا يمكن أن يقال إنه يقرن المعاني بالألفاظ، إذ كان يجهل هذه الأداة، ولا يعرفها، وقد استطاع أن يعتاض من الألفاظ الإشارات والنظرات والحركات المختلفة. وهو يحس ويفكر ويشرح ويبين بغير الألفاظ، وما يستطيعه الأخرس لا يجوز أن نشك في قدرة غيره عليه. فمن الممكن إذن أن نتصور أن الإنسان سيجيء يوم يستغني فيه عن الألفاظ للتعبير عن مراده، وللتفكير فيما يشاء، وللفهم والإفهام على العموم. وقد لا يحدث هذا ولا يرتقي الإنسان إلى هذه المرتبة – إذا جاز أن نعد هذا رقيًا – قبل بضع مئات أو بضعة آلاف من السنين، ولكن هذا اليوم سيجيء على التحقيق، قرب أم بعد، فإذا احتاج الإنسان إلى الإفضاء إلى آخر برأي أو تصوير إحساسه له، بعث إليه بموجة من نفسه، فيرد عليه بموجة أخرى صامتة مثلها وهكذا. وحينئذ ماذا يكون مستقبل الأدب كله لا الشعر وحده؟، وماذا يكون مستقبل الصحافة والطباعة والتأليف والترجمة والإذاعة وغير ذلك ما هو من هذا كله بسبيل؟ – أو بعبارة أدق مما يقوم على اللفظ المسموع أو المكتوب؟.. أظن أن من

الواضح أن المصير الوحيد هو زوال هذا كله، فما بأحد حاجة إليه ، وقد يبدو المتأمل أن هذا العالم الصامت سيكون مملاً. ولكنى لا أظن ذلك، وتجربتي تقول لي إن الصمت أشهى وأمتع من الثرثرة التى تضطرنى إليها المجالس. وأنا أستطيع، وأنا صامت، أن أنعم بما لا أنعم بعشر معشاره حين أتكلم أو أسمع. وأحرى بموجات النفس أن تكون أوفى فى التعبير من هذه الألفاظ التى تخذلنا فى أكثر الأحيان. وكل كاتب وكل شاعر جرب هذا القصور فى الألفاظ، وعجزها عن العبارة الدقيقة عما تجيش به النفس أو يضطرب به الخاطر، وما من كاتب أو شاعر إلا وقد ترك معنى، لأنه لم يستطع أن يؤديه أو يعبر عنه التعبير الذى يرضيه أو يجعله واضحاً مفهوماً. وكثير من الكلام الغامض الذى نقرؤه للكتاب أو الشعراء سببه أن أداة اللغة، على سعتها، قاصرة غير وافية. أما موجات النفس فخليقة أن تكون أوفى وأقدر وأكشف، وإن كان الفهم والإفهام سيظلان رهناً بعاملين أولهما قدرة النفس التى ترسل الموجة، على جعلها وافية وثانيهما قدرة النفس التى تتلقى هذه الموجة على حسن التلقى. النفوس فى هذا كالآلات منها الضعيف والفاسد، والقوى والصالح ولا حيلة فى تفاوت النفوس .

كان هذا المصير الذى إقتنعت بأن الأدب صائر إليه لا محالة عاجلاً أو آجلا، أكبر ما زهدنى فى الشعر. ولو استطعت أن أستغني عن الكتابة أيضاً لكففت عنها، ولكنها مرتزقى الذى لا أعرف لى مرتزقاً سواه، وقد أخفقت إلى الآن فى كل ما حاولته من ترك الكتابة والاشتغال بغيرها وكسب الرزق من طريق غير طريقها، ولم يؤسنى هذا الفشل فإنى مؤمن بأن الفرصة ستتاح لى فى حياتي لترك هذا الأدب جملة .

ولا أحتاج أن أقول أن هناك أسباباً كثيرة أخرى منها أن ما قلته من الشعر لا يرضينى ولا يبلغ المبلغ الذى كنت أطمع فيه. ومنها أنى أصبحت أستهجن أن أفتح قلبي للناس وأتركهم يحدقون فيه بكل ما فيهم من الفضول. وما دخل الناس فى آرائى وإحساساتى وعواطفى ونظراتى فى الحياة؟ ولماذا أبيحهم من نفسى ما لا يبيحونني من نفوسهم؟ وماذا يعنيهم هذا على كل حال؟ وحدث أن ماتت أمى وهى أقدس إنسان عندى، وقد كنت فى حياتها، وما زلت بعد موتها، ولا أعدل بظفرها هذه الدنيا بكل ما فيها.

ونازعتني نفسي أن أقول فيها شعراً، ولكني صرفتها لأني لا أستطيع أن أحسن التعبير عن عاطفة طاغية مستغرقة كهذه، ولأني خفت ألاّ يكون لكلامي فيها الوقع الذي أريده، أو أن لا يتلقى الناس كلامي فيها بمثل العاطفة التي أصدر عنها فقلت لنفسي إذا كنت لا أستطيع أن أنصف أقوى ما أحسست من العواطف في حياتي كلها فخير لي وأولى بي أن أكف عن هذا العبث كله .

ولست أطيق الشعر الآن – حتى قراءته أصبحت عسيرة عليَّ، وما فتحت ديوان الشعر إلا رأيتني أتساءل أترى هذا الشاعر مثلي – خير شعره الذي لم يقله؟ وهل هذا الديوان يمثل نفس الشاعر أو لا يمثل منها إلا الجانب الذي اطلع عليه هو، وأدركه وفطن إليه، أو الذي وسعه أن يرسمه ويؤديه بالألفاظ؟ وهل ترى يمكن أن نقول إنه أكثر من فهرس ناقص لروح الشاعر أو أنه أكثر من إشارات كإشارات الخرس تومئ إلى المعنى ولكنها لا تبين ؟.

أظن أن هذا أكثر ما يمكن أن يقال في ديوان شعر، فهناك أولاً أن النفس الإنسانية تخفى على صاحبها في أكثر الأحيان، فأحرى أن تكون نفوس غيره أخفى عليه، وهناك ثانيًا أن اللغة – كل لغة – ليست سوى أداة ناقصة غير وافية بالحاجة، حتى لو استطاع فرد أن يحيط بها أتم إحاطة. وهناك ثالثًا أن القدرة على التفطن إلى الحقائق، شيء، والقدرة على العبارة عنها، شيء آخر مختلف جداً. والناس يتفاوتون في القدرة على التعبير كتفاوتهم في الفطنة والإدراك. واللغة أداة للتعبير بالألفاظ كما أن الألوان أداة للتعبير بالرسم، وكما أن المصورين يتفاوتون في القدرة على التعبير بالألوان، وإن كانت واحدة، كذلك الكتاب والشعراء أو الأدباء على العموم. ومتى كانت النفس تخفى على الإنسان إلى حد كبير، واللغة ليست أداة كاملة للعبارة عما تحيط به منها، والقدرة على التعبير بهذه الأداة الناقصة تتفاوت، فما مبلغ حظ هذا الديوان أو ذاك من دقة التصوير لنفس صاحبه، واضع الديوان الذي يتفق أن يكون بيدي وأنا أهز رأسي أسفًا ؟.

ولو طاوعت نفسي لكففت عن كل قراءة ولكنها عادة، وما لا يدرك كله لا يترك كله؛ فأنا أقرأ وأنا مدرك للقصور الإنساني، ولا يمنعني إدراكي هذا أن أعجب بمحاولة التغلب على هذا القصور الطبيعي، ومبلغ النجاح في ذلك، وأن أتمنى لو كان لي مثل هذا الاقتدار ولكني لم أرزق هذه المقدرة؛ ولهذا أيقنت أني لست بشاعر ناطق، ومن أجل ذلك اقصرت من تلقاء نفسي ولم أنتظر حتى يقول لي غيري هذا .

إبراهيم عبد القادر المازني

الأدب والمدرسة[1]

"هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في إظهار مواهبك الأدبية؟" .

سؤال انتقل به صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم إلى "برجه العاجي" من مجلة أدبية فرنسية ألقته على طائفة من أدباء بلادها فكان جواب أحدهم : "يخيل إلى أن الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسميًا في المناهج المدرسية" .

ويقول الصديق فيما عقب على هذا الجواب "ولو سئلت لما خرجت إجابتي عن هذا المعنى" .

وكنا نتحدث في هذا قبل أن أقرأه في البرج العاجي من الرسالة، قصصت على الصديق بعض ما أذكر من عهد المدرسة ووصفت له أساتذتي في اللغتين العربية والإنجليزية وتوخيت الإنصاف وتحريت الحق، فسألني أن أكتب هذا وأنشره، فوعدت أن أفعل. وقد بدأت أكتب وفي نيتي أن أبر بالوعد، ولكن بعد أن بلغت هذا الموضع أراني أميل إلى الإخلاف فما أحب أن أسيء إلى أحد بلا موجب وبغير حق، أو أن أرمي بالجحود والكفران. وأكبر الظن أن الذين علموني نسوا – أو هم لا يدرون – أني كنت من تلاميذهم، فلو قلت فيهم ما قال مالك في الخمر ما عرفوا أنهم هم المعنيون، ولو أثنيت عليهم لتعجبوا وراحو يتساءلون "ترى من كانوا معلميه؟" ولعل أكثرهم قد عاد إلى التراب الذي جبل منه ولكني مع ذلك لا أراني أقدر أن أضعهم في الميزان إلا إذا وضعت نفسي معهم .

---

(١) نشرت في مجلة "الرسالة" في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٩ (ص١٩٣– ١٩٤) .

أنا أيضًا كنت تلميذاً ثم مدرسًا لسوء الحظ. وكانت ميزتي المحتمة في أيام التلمذة "الغباء وفقر الذهن وضعف التصور" يضاف إليها الفقر. وكان يبلغ من فاقتي في ذلك الزمان أن كنت أحتاج إلى القميص الأبيض لألبسه مع البذلة فلا نجد ثمنه، فتعمد أمي المسكينة إلى ما خلف أبي من قمصان فتصلحها فتضيق من هنا وتقصر من هناك، ولكن الياقة أو البنيقة كانت تعييها فتلبسنيها كما هي؛ ولو جعلت لي منها حزامًا لكان هذا أصلح. فتصور هذا الطوق العظيم على عنقي. وكنت إذ أمشي بها لا أدري ماذا أصنع وكيف أبلغ المدرسة، لأني كنت أحتاج إلى كلتا يدي لأهوى بجانبي الطوق عن أذني، ولكني محتاج أيضًا إلى حمل الكتب والكراسات فكيف أصنع وليس لي غير يدين اثنتين ..

ولا أدري كيف نجوت من العمى فقد كانت عيناي ترمدان فلا تعبأ بي المدرسة. نعم كان لها طبيب يحضر كل يوم لعيادة المرضى منا فكنا إذا سمعنا ناقوسه نجري إليه فيصفنا أمامه ولا يجشم نفسه عناء السؤال أو الفحص، بل يقول وهو يشير إلى كل واحد منا على الترتيب: "شربة، لبخة، قطرة" فيتفق أن يكون من حظك "القطرة" وشكواك أن رجلك مهيضة، أو اللبخة وبك زكام. وكنت أذهب إليه لعلاج عيني ولكني كنت أخرج مأموراً بالشربة أو اللبخة ولا أخرج قط بالقطرة. أما في البيت فكان كل ما أتداوى به من الرمد الماء البارد .

وآية غبائي وبلادتي أني كنت في كل فرقة الأخير، – حتى مقعدي كان الأخير في الحجرة – وكنت لصغر جسمي وقماءتي لا أكاد أبدو للمدرس، فهو لا يراني ولا يحس بوجودي ولا يعنى بي، وأنا أغتنم هذه الفرصة فأتشاغل عن درسه بما يخطر لي من العبث. وكان جاري في بعض الفرق ضخم الجسم كأنه الفيل الصغير، وكان لجسامته يحتاج حين يقعد أن يتكئ على الدرج بكلتا يديه، وكانت عادته أن يمسح وجهه بكفيه بعد ذلك ويتمتم بقوله: "خيبة الله عليكم" – يعني زملاءه التلامذة لأنهم كانوا لا يكفون عن ركوبه بالعبث، فاشتريت مرة قليلاً مما يسمى "بودرة العفريت" ونثرتها على الدرج فاتكأ عليه ومسح وجهه ثم ذهب يحك كفيه وخديه حتى دمي وجهه وانقطع عن المدرسة أيامًا حتى شفي. ففطن المدرسون إلى وجودي بعد ذلك وصرت أتهم بكل ما يحدث في

المدرسة ولو وقع فى فرقة غير فرقتى، فأنا عندهم المحرض أو الموسوس بالعبث إذا لم أكن أنا الفاعل .

أما الدروس فما كنت أفهم منها شيئًا؛ ولم يكن هذا ذنب المعلمين فما كانوا يقصرون في الشرح والبيان، ولكنى أنا كنت لا أستطيع أن أنتفع بذلك لأنى أكون قاعداً على ركبتى - فوق البلاط - عقاباً لى على ما لم أصنع فى الغالب - أو واقفاً ووجهى إلى الحائط أو مطروداً من الحجرة كلها. وكيف يمكن بالله أن يفهم شيئًا من لا يزال هكذا - ركبتاه على الأرض أو أنفه على الجدار أو هو يتمشى في الفناء أو الدهليز ...

وكان أرق المدرسين معى وأظرفهم وألطفهم على العموم إنجليزى أنيق كان إذا رآنى - وما أكثر ما كان يغضبى - أخرج على النظام يدعونى أن أقف ويطلب منى أن أتهجى كلمة "مجنون" أو "شقى" وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى. ويكتفى من العقاب بهذا .

وكان لنا معلم للغة العربية غريب الأمر - كانت حجرتنا مجاورة لحجرة الناظر الإنجليزى، فكان هذا المعلم يفرغ من إلقاء الدرس وشرحه ومن التطبيق أيضًا فى خمس دقائق على الأكثر ثم يقول: "اغلقوا النوافذ كلها" فنفعل ثم يأخذ فى حديث سياسى يذم فيه عهد إسماعيل ويلعن فيه أيام توفيق ويثنى على الإنجليز أطيب الثناء. ولم يكن أعجب من صنيعه هذا إلا إغلاقه النوافذ ليوهمنا أن الناظر الإنجليزى يسوؤه أن يعلم أنه يثنى على قومه... وكنا نناقشه ونجادله ونخالفه فيوسع صدره ويروح يحاورنا ويداورنا ليقنعنا بأن ما خرب من نفسه عامر. وكانت تلك أيام مصطفى كامل وكنا نقرأ "لواءه" ونسمع خطبه. وأحسب أنى لا أبالغ إذا قلت أنى تلقيت دروسى الأولى فى اللغة العربية من اللواء والمؤيد لا من معلمىّ فى المدارس، وتصور أن منهم معلمًا كان يكلفنا أن نحفظ كتاب النحو عن ظهر قلب... بل تصور أنه كان يثنى على التلميذ الذى يقول له فى جواب سؤاله عن الفعل اللازم "ما هو" - "هو ما ليس كذلك" - كما فى الكتاب بالحرف الواحد. ولم أستطع قط فى حياتى أن أحفظ شيئًا عن ظهر قلب إلا إذا جاء هذا عفواً وعن غير قصد، فكانت درجتى فى اللغة العربية هى الصفر دائمًا .

وكل ما حفظته من الشعر العربي في المدرسة قصائد قليلة مثل :

إذا المرءُ لم يُدنَس من اللؤمِ عرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ[٢]

وما إليها – وحتى هذه يخيل إليّ أني ما حفظتها إلا فيما بعد – لما كبرت، ولكني أذكر على كل حال أن المدرس الذي كان يغلق النوافذ ويهجو المصريين ويمدح الإنجليز هو الذي كان يتقاضانا أن نحفظ : "إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه، فكل رداء يرتديه جميل". وقد يكون هذا اتفاقًا محضًا .

وكان أساتذتنا في اللغة الإنجليزية على عكس ذلك، فكانوا يرشدوننا ويساعدوننا ويقرضوننا الكتب إذا آنسوا منا ميلاً إلى القراءة، ويصحبوننا إلى مكتبة المدرسة، ويتخيرون لنا ما يوافقنا وما يسعنا أن نفهمه، ولا يبخلون علينا بالتفهيم والشرح حتى في أوقات الفراغ إذا طلبنا منهم ذلك، ولكن بعضهم كان عجيب الشذوذ. أذكر منهم واحدًا كان يعلمنا الجغرافيا الاقتصادية فكان يكتب على السبورة رقمًا يبلغ من طوله أن بقيته تجيء على الجدار! وكان هذا مبلغ علمه بهذه الجغرافيا. ومنهم من كان يعطينا الدرجات على الخط وجودته ولا يبالي أصبنا أم أخطأنا في الموضوع، فأجودنا خطًا أعلانا درجة ولو كان أجهل مني .

أظن أن المدرسة لا تستطيع أن تعلم الأدب، وكل ما يسعها ويجوز أن يطلب منها هو الترغيب والتوجيه والتسديد، وحسبها أن توفق في هذا، وأكاد أقول حسبها ألا تنفر من الأدب وتزهد فيه .

إبراهيم عبد القادر المازني

---

(٢) البيت من الطويل وهو للسموأل .

نقص أم ماذا ...؟[1]

كان معي – وأنا مدرس في مدرسة دار العلوم – أستاذ إنجليزي كانت بيني وبينه صداقة وثيقة. وكنا نعلم الطلبة مبادئ اللغة الإنجليزية، فأقبل علي يومًا يقول : "لقد أخفقت وأحسب أن من واجبي الآن أن أقنع رؤسائي بنقلي إلى مدرسة أخرى، فما في بقائي هنا خير، ولست أدري كيف تصنع أنت، ولكن الذي أدريه أني أنا أخفقت" .

فقلت له وأنا أمازحه : "اقعد، اقعد، وحدث (عمك) المازني بما تعاني وتكابد. ما هي الصعوبة اليوم؟" .

قال : "سأخبرك. إن كل طالب يسألني مثلاً عن الفعل **"sit"** – يجلس – كيف انقلب فصار **"sat"** جلس – فلا أستطيع أن أجيب بكلام معقول مقبول يرتاح إليه العقل. هم يريدون سببًا ويطلبون تعليلاً، وأنا لا أعرف إلا أن هاتين صيغتاه في الحالتين. وقس على هذا" .

قلت : "هل تطيعني إذا أشرت عليك بأمر؟"

قال : "أتمزح؟"

قلت : "أمزح... أجد... سيان. المهم إنقاذك من الورطة. اسمع يا صاحبي. لقد كنت أظن أنك أفدت شيئًا مما تعلمته من قواعد اللغة العربية. وكنت أحسب أن ذهنك مرن، وأن لك قدرة على الاقتباس والقياس. وكنت أتوهم أنك تستطيع أن تخاطب كل فريق من الناس بما يفهمون" .

---

(١) نشرت في مجلة "الرسالة" في ١٢ فبراير سنة ١٩٣٩ (ص٢٨٩–٢٩٠) .

قال : "لست فاهماً"

قلت : "ألم يعلمك شيوخك فى اللغة العربية أن (قال) أصلها (قَوَلَ) وأن الواو فُتح ما قبلها فصارت ألفًا؟"

قال : "نعم"

قلت : "هل تستطيع أن تزعم أن هذا كلام معقول مقبول يستريح إليه العقل؟"

قال : "لا"

قلت : "ولكنك سلمت به بلا جدال، وأخذته عن مشايخك بلا مناقشة أو تفكير، وأجبت به فى الامتحان بلا تردد، وأنت تزعم اليوم أنك تعرف العربية حق معرفتها، وأنك أخذتها عن أهلها" .

قال : "ولكن ما دخل هذا فى موضوعنا؟"

قلت : "كنت أحسبك ذكيًا ولبيبًا، فإن هذا هو حل المُشكل. بهذه العقلية التى جعلتك تسلم بأن قال أصلها قَوَلَ، فُتح ما قبلها فانقلبت ألفًا، يجب أن تخاطب الطلبة. فاذهب وقل لهم إن "sat" أصلها "sit" – وإن حرف العلة فُتح ما قبله فانقلب "sat" فسترى أن هذا يسرهم ويكفيهم، وستجد أنك استرحت بعد ذلك من كل عناء" .

فصاح بى : "ولكن هذا غير معقول"

قلت : "إنه معقول كقولك إن قال أصلها قَوَلَ وأن الواو فُتح ما قبلها إلى آخر هذا الهراء. ولا تحتقر تلاميذك حين تراهم يصدقون أن "sat" أصلها "sit" وأن حرف العلة فُتح ما قبله إلى آخر هذا الهراء، أو حين يتوهمون أنهم فهموا. فلست خيراً منهم، وما أكثر ما يتوهم الإنسان أنه فاهم، وهو غير فاهم شيئًا. اذهب وافعل ما أشير به وأخبرنى بالنتيجة، وإن كنت أعرفها من الآن كلها. لن تقول لى بعد الأن إنك أخفقت، وإنك ستطلب من الوزارة النقل إلى مدرسة أخرى" .

وقد كان، وسكنت الثورتان : ثورة الطلبة على المدرس، وثورة المدرس على نفسه .

وهذا استطراد بدأت به، أما ما كان العزم أن أقوله فهو أن هذا الصديق المدرس سألني يوماً وقد علم أني رُزقت طفلاً :

"حدثني عنه. صف لي كيف تحبه!"

قلت : " لا أعلم أني أحبه"

قال : "لا تتكلف الفلسفة"

قلت : "الحقيقة أني حائر، لا أشعر بأية عاطفة، ولا أحس أن لي به سروراً كذاك الذي أسمع وأقرأ أن الأدباء يحسونه ببنيهم؛ وإني لمستغرب" .

قال : "أتتكلم جاداً؟"

قلت : "إني جاد جداً، وثق أني حائر"

قال : "لعل العاطفة راقدة، وعسى أن تكون محتاجة إلى ما يوقظها وينبهها" .

قلت : "عسى"

وانتقلنا إلى حديث آخر، ومضت الأيام وماتت البنت – فقد كانت بنتاً – فلم أرني حزنت أو جزعت، ولم يكن هذا كافياً لتنبيه عاطفة الأبوة التي قال لي صاحبي أن أكبر ظنه أنها راقدة. ولي الآن من البنين ثلاثة، وقد استطعت أن أوحي إلى نفسي حب بنتي التي ماتت، وحب أخرى جاءت وذهبت مثلها، وحب البنات على العموم دون البنين، أو أكثر من البنين، ولكني أدرك أن هذا فعل الإيحاء لا فعل الطبيعة، وأعرف من نفسي أني لا أعرف لبنيّ مثل ما يعرف الآباء غيري. نعم أشفق عليهم وأعنى بهم، ولكني لا أشعر لهم بتلك الرقة التي أسمع بها. ويخيل إليّ أن العادة هي منشأ ما أحسه لهم، وأني أرحمهم لأنهم صغار ضعاف، وأعنى بهم لأني جئت بهم فأنا مسئول عنهم. وكثيراً ما أضجر وأمل، وأسأل نفسي متى يكبرون ويستغنون عنيّ، فأحط عن كاهلي عبئهم، وأرتاح منهم، وأعيش وحدي مستقلاً عنهم؛ وأرحل وأغيب، فلا أحن إليهم إلا حنة المرء لعشيره وصديقه، ولمألوفه .

وكان لى أخ أسن منى، وكنت أوقر سنه، ولكنى لم أكن أشعر له باحترام أو حب، كالذى يكون بين الأخوين عادة. ولم أبكه لما مات، وإنما سخطت على ضعفه الذى قتله، فقد كانت امرأته تركبه كالحمار، وكان يشكو لى هذا، فأضجر، وأقول له: "ما الفائدة؟ إنك ضعيف، وهي تركبك، ولا أمل فيك ولا خير فى الشكوى، فاحتمل على قدر طاقتك، فما خلقك الله لغير هذا". فيقول : "نعم. صدقت. يجب أن أحتمل". فانهض من مجلسه مشمئزاً، وإن كنت فيما عدا ذلك أستظرفه وأستخف ظله، وأحب فكاهته، ولكن ضعفه كان يهيج نفسى عليه، وقد مرضت جدتنا فلم يعدها لأن امرأته أبت عليه ذلك، فلما ماتت جاء ليمشى فى جنازتها، فأبيت عليه ذلك وقلت له: "كان الأولى أن تعودها فى حياتها لتسرها على الأقل ولتعفيها من شعور الحسرة، أما الآن فأولى بك أن تذهب إلى بيتك" ففعل .

وانقطع ما بينى وبينه سنوات لم أشتق إليه فيها قط، ثم التقينا اتفاقاً فتصافحنا فى صمت ثم نزعت يدى، ومضيت لشأنى ومضى فى سبيله. وقد قصصت هذا لأصف شعورى الحقيقى .

فهل هذه بلادة؟ أو هى نقص فى بعض جوانب النفس؟ أم ذاك لأن عاطفتى الأدبية تستغرق نفسى كلها؟ أم لأن حبى لأمى استنفد ذخيرة النفس من هذا الحب؟ فقد كان حبى لأمى – وما زال – أقوى ما استولى على نفسى، وكان هو العامل المؤثر فى سيرتى، فكنت إذا هممت بأمر أسأل نفسى : "ماذا ترى يكون رأى أمى فى هذا؟" فإذا كان الجواب خيراً أقدمت، وإلا صددت نفسى وكبحتها عن مرادها، وصرفتها عما تحاول، أم ترى التعليل الصحيح أن البنين والإخوة والأقرباء على العموم نتيجة المصادفة، ليس إلا ؟

لا أدرى. وأكبر الظن أن بى نقصاً، فإنى فيما عدا حبى لأمى، لم يغلبنى حب قط – لا حب امرأة، ولا حب أحد من البنين أو الأقارب. ولست أرى الناس كذلك، وليس من المعقول أن أزعم أن الناس غيرى شاذون، وأنى أنا وحدى الطبيعى، والأولى والأقرب إلى العقل أن آخذ بمنطق "قراقوش" فأصدق الناس، وأرفض زعم الفرد .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الشهرة والجماهير[1]

في سنة ١٩٠٩ كنت ألازم من الأدباء صديقنا المرحوم الأستاذ محمد السباعي صاحب كتابي "الصور" و"السمر" ومترجم قصة "المدينتين" لدكنز و"الأبطال" لكارليل و"التربية" لسبنسر وعشرات من الكتب الأخرى. وما أظن بأبناء هذا الجيل إلا أنهم يجهلونه ولا يعرفونه ولا يخطر لهم أنه عاش على ظهر هذه الأرض، وكان له فضل على الأدب الحديث. وأحسب أنه سيكون عليَّ أن أعرفهم وأذكرهم به إنصافًا له وقضاء لحقه عليَّ فإن له دينًا في عنقي .

وكان السباعي – رحمه الله – منهومًا بالأدب لا يشبع، وعاشقًا لا يسلو؛ وقلما رآه أحد إلا وفي يده كتاب أو كراسة. ولا أدري ماذا لفته إلى ابن الرومي، ولكن الذي أدريه أنه كان يذهب إلى دار الكتب وينسخ ديوان ابن الرومي في كراسات ويحفظ أكثر شعره عن ظهر قلب فأعداني بحب هذا الشاعر المنكود الحظ فقلدته واستنسخت شعره؛ فلما كملت عندي نسخته شرعت أبيضها في كراسات بعد تصحيح ما يوفقني الله إلى تصحيحه من الأغلاط التي لا آخر لها في نسخة دار الكتب .

وكان صديقنا الأستاذ السيد عبدالرحمن البرقوقي قد أصدر مجلة البيان فاقترح علي أن أكتب عن ابن الرومي ففعلت؛ وكان هذا حافزًا آخر لدرسه، ولكن الحرب صرفتني عن مواصلة الكتابة فانقطعت عنها إلى سنة ١٩٢٤ . وفي أثناء ذلك ظهر الجزء الأول من ديوان ابن الرومي شرح المرحوم الشيخ شريف ثم الثاني بعد وفاته، ومختارات من شعر ابن الرومي جمعها الأستاذ كامل الكيلاني، فوصلت ما انقطع

---

(١) نشرت في مجلة "الرسالة" في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٩ (ص٣٨٥-٣٨٦) .

وعدت إلى الكتابة عن ابن الرومي في جريدة الأخبار وجمعت ذلك كله ونشرته في كتابي "حصاد الهشيم" وكان من توفيق الله بعد ذلك لهذا الشاعر المغمور أن عني به صديقنا الأستاذ العقاد فتناوله بالبحث الوافي والدرس الدقيق في كتابه الجليل عنه.وهكذا برز ابن الرومي من ظلمة الخفاء ونضيت عنه الأكفان التي ظل ملفوفاً فيها أكثر من ألف سنة .

خطر لي وأنا أدير هذا في نفسي أن في العالم من أبناء اللغة العربية أكثر من مائة مليون، وأن من هؤلاء نحو عشرة ملايين يقرأون ويكتبون، فكم من هؤلاء يقرأ ابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف وأبا تمام والبحتري وأبا نواس وغيرهم وغيرهم؟.. لا أكثر من بضعة آلاف قليلة. وجل هؤلاء يقتنون الكتب كما يقتنون التحف ويرصونها للزينة لا للاطلاع، ويتخذونها كما يتخذون السجاجيد والزهريات والصور وما إلى ذلك. والذين يفتحونها، ومنهم من يفعل ذلك للتسلي وتزجية الفراغ، والأقلون هم الذين يعنون بالدرس والتحصيل؛ فهم في هذا العالم العربي الطويل العريض لا يعدون بضع مئات. فكأن خلود الأديب في أخلاد الناس ليس معناه أن السواد الأعظم منهم يعبأون به، بل معناه أن قلة ضئيلة هي التي يرجع إليها الفضل في بقاء اسم الأديب مذكوراً وآثاره منشورة .

وهذا هو الخلود – ثلاثة أو أربعة أو أكثر من المجانين بشيء لا يزالون يقرعون الطبول باسم من الأسماء ويلحون به على الناس حتى يوقظوا النفوس لهذا الاسم ويوحوا إليها أن صاحبه جدير بالذكر وأن آثاره تستحق الاقتناء .

ومن كان لا يصدق فليسأل نفسه: هل شهرة المتنبي مثلاً ترجع إلى تعلق رجل الشارع به... أليس الواقع أنه لو كانت شهرته رهناً بعناية الرجل العادي به لما طال عمرها أكثر من بضعة أيام – أسبوع على الأكثر... والمتنبي مع ذلك أشهر شعراء العرب، وحكمه لا تزال تدور بها الألسنة وتجري بها الأقلام، وديوانه يعاد طبعه كل بضعة أعوام مرة. ولكن كم نسخة تطبع من ديوانه في كل مرة؟ ألفان.. ثلاثة آلاف.. أربعة آلاف.. في عالم عربي يبلغ عدد القراء فيه عشرة ملايين أو خمسة على الأقل إذا جادلت... فما ظنك بحظ الذين هم أقل منه شهرة ...؟

والمدارس والجامعات تخرج فى كل عام – فى هذا العالم العربى – عشرات من الآلاف تلقوا دروساً فى الأدب، وعرفوا أسماء الأدباء وألموا إلى حد ما بخصائص فنونهم ومميزات آثارهم، ومع ذلك تبقى ثلاثة آلاف نسخة من ديوان شاعر كالمتنبى محتاجة إلى أكثر من عشر سنوات لتنفد... ولولا أن فى كل جيل بضعة مجانين بالأدب لا يكفون عن الصياح بأن المتنبى شاعر فحل وأنه رجل عظيم، وأنه جدير بأن يقرأ ويدرس لبقيت هذه الآلاف القليلة من نسخ ديوانه مكدسة فى مخازنها لا تجد لها طالباً .

هؤلاء المجانين القليلون هم الذين ينقذون الشهرات من الفناء ويبقونها حية جيلاً بعد جيل. فإن لكل جيل مجانينه الذين لا يزالون يبحثون وينقبون حتى يعثروا على عظيم مقبور كما يفعل المنقبون عن آثار المدنيات التى عفى عليها الزمن – لا يعروهم فتور ولا يدركهم ونى؛ حتى ليكاد المرء يعتقد أنه لا خوف من بقاء عظيم مدفوناً وحقه مهضوماً وفضله مطوياً أو مجحوداً. وقد لا يكون فى هذا ما يعزى العظيم، ولعله شبيه بمنح القتيل فى ساحة الحرب وساماً على سبيل الاعتراف ببسالته، والشهادة بحسن بلائه، ولكنه على كل حال يجدى بأن يمنع اليأس من إنصاف الدنيا ولو بعد الأوان .

وحتى حين يفوز المرء فى حياته بالشهرة التى يستحقها – أو لا يستحقها كلها – عند الجماهير يكون الفضل فى بقاء هذه الشهرة للقلة المتحمسة، لا للكثرة التى لا تلبث أن تذهل عما أحبت ومن أحبت. وبهذا وحده تظل الجماهير تذكر وهى لا تفعل ذلك عن اقتناع أو فهم وإدراك صحيح لاستيجاب الشهرة، بل لأن هؤلاء المجانين الذين لا يخلو منهم زمن يقولون لها عشرة آلاف مرة أو عشرين ألف مرة إن فلاناً عظيم وحقيق بالذكر والتخليد، فتصدق وهى لا فاهمة ولا مدركة. ويقصد آحاد من هذه الجماهير التى فعل الإيحاء فى نفوسها فعله – إلى المكاتب ويشترون ديوان المتنبى ويضعونه على الرف ويفركون أيديهم وهم فرحون باقتناء هذه التحفة التى آمنوا بأنها خالدة وأنها أبقى على الزمن من الزمن .

وتسأل : لماذا يجن هؤلاء الأقلون بخارجيات السلف، فلا تجد جوابًا يقنع العقل وتسكن إليه النفس. ولن تعدم من يقول لك إن سر هذا الجنون هو ما في هذه الآثار من الحق والحكمة والفكاهة والجمال، ولكن هذه لا تزال ألفاظًا تتطلب معانيها التحديد، ومن العبث أن تلعب لي بها وتصنع لي منها توافيق وتباديل، وتزعم أن هذه هي المعاني التي تفهم من هذه الألفاظ التي تشعر بدوران معانيها في النفس وتعيينا العبارة الدقيقة عنها... أو هذا على الأقل حالي أنا معها. وإذا كان شاعر مثل "كيتس" يستطيع أن يقنع نفسه بأن الجمال هو الحق، وأن الحق هو الجمال، ولا يحتاج بعد ذلك إلى كلام أو شرح أو بيان، فإني أنا مع الأسف لا يكفيني هذا وإن كنت آنس من نفسي حب كلمته هذه والسرور بها سرورًا ليس مرجعه إلى الفهم .

إبراهيم عبد القادر المازني

الطفل وحقيقة الإنسان[1]

زارتنى، ذات يوم، سيدة، ومعها طفلة تناهز الرابعة، فسقيتُ السيدة القهوة المرة التى تحبها، وحرت فى الطفلة : ماذا أسقيها أو أطعمها، أو بماذا ألاعبها، وليس فى مكتبى ما يصلح لها؟ ثم خطر لى أن أبعث بالخادم ليشترى لها "شكولاتة" .

فقالت السيدة : "إنك تدللها وتفسدها" .

قلت : "دعيها تتدلل وتفسد – على قولك – فلن ترى أرغد من أيامها هذه" .

قالت: "وستحبك بالشكولاتة!"، وضحكت .

قلت : "هل تعلمين أن كل حب لإنسان آخر هو من حب النفس؟" .

ولم أطل فى هذا المعنى فإنى أعرفها تكره الفلسفة وإن كانت ذكية لبيبة. وجاءت الشكولاتة فأخذتها الطفلة من الخادم وابتسمت له مسرورة .

فقالت لها السيدة – وأشارت إلىّ : "إنه أولى بابتسامتك، فقومى إليه واشكريه بقبلة" .

فانحدرت عن مقعدها خفيفة ضاحكة ولثمت خدى. وعادت إلى الشكولاتة، وهمت أن تنزع عن بعضها الورق وتأكل؛ فنهتها السيدة عن ذلك وقالت لى إنها ستدخل طعامًا على طعام، وليس هذا بمحمود أو مأمون. ولفت لها الشكولاتة فى ورقة وناولتها إياها وربتت لها كتفها وقالت : "أبقيها معك إلى ما بعد" .

---

(١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ١٧ إبريل سنة ١٩٣٩ (ص ٧٥٢-٧٥٤) .

فأطاعت الطفلة ووضعت اللفافة فى حجرها، وجعلت تقلبها وتعبث بها، وذهبنا نحن نتكلم، وإذا بالسيدة تغمزنى بعينها مشيرة إلى طفلتها، فنظرت فألفيتها قد فكت الورقة وأقبلت على قطع الشكولاتة تحركها بإصبعها، فهززت رأسى مستفسراً .

فقالت السيدة : "إنها تعدها" .

قلت : "لعله يفرحها أن تعرف عددها" .

قالت : "لا" وهزت رأسها : "ما أظن بها إلا أنها تعدها للمرة الثانية" .

قلت : "ماذا تعنين؟" .

قالت : "أعنى أن أكبر الظن أنها عدتها حين أخذتها. ثم أخذتها أنا منها ولففتها فى هذه الورقة، فهى تعدها مرة ثانية لترى أنقصت أم بقيت كما كانت" .

قلت : "اتقى الله!"

قالت : "لك رأيك، ولكنها بنتى فليس تَخفى علىّ من أمورها خافية" .

وصارت الطفلة تعرفنى بعد ذلك "بابا شكولاتة" وهى خليقة أن تعرف اسمى، وأن تستطيع النطق به، فما هو بأثقل أو أصعب من لفظ شكولاتة، ولكن الشكولاتة حلواؤها الأثيرة، وأنا أتحفها بها كلما لقيتها، فهى تهمل اسمى وتطلق علىّ ما تحب، ولو أهملت أن أقدم لها الشكولاتة، أو قصرت فى هذا الواجب، لزهدت فى لقائى وانصرفت عن ذكرى، وتركت حث أمها على زيارتى .

وليست هذه الطفلة بالشاذة، فإن كل طفل على غرارها، حتى ولدىّ أراهما أحق بأمهما منهما بى، لأنها لا تنسى أن تزودهما بما يحبان، وإن كنت أنا المتعب المكدود والذى لا يزال يسعى ويشقى ليسعدا .

وأحسب أن الإنسان يبدو على حقيقته فى طفولته، أى قبل أن يصبح إنساناً مصقولاً منجوراً أو مهذباً كما نقول، والطفل أثرة مجسدة، يحب ويكره، ويقبل ويدبر، تبعاً لما يلقى منك. وقد يكون أبوه أحنى عليه، وأعمق حباً له، وأعظم شغلاناً به، ولكنه

لا يلاعبه، ولا يعنى بأن يحشو له جيوبه باللطائف المشتهاة، ولا يجيئه كل بضعة أيام بلعبة، فلا يعبأ به الطفل أو يجعل إليه باله، على حين تراه يتعلق بأهداب صاحب لأبيه لأنه لا ينسى حين يجىء فى زيارة، أن يحمل لهذا الطفل ما يسره، أو لأنه يشغل نفسه معه بضع دقائق بالهذر الفارغ .

وكان صديق لى يقول: "إنك سيىء الظن بالإنسان" فكنت أبتسم ولا أجيب، وأنتقل به إلى موضوع آخر استثقالاً لهذا البحث الذى لا يطيب للنفس فى كل وقت، حتى لفتتنى تلك السيدة الذكية إلى المظهر الحقيقى للإنسان، فدرسته فى أبنائى، وانتهيت إلى أن كل ما فى الإنسان من خير وفضيلة اكتساب وليس بطباع فيه؛ والطفل - قبل أن نعلمه خلاف ذلك - لا يعرف إلا نفسه، ولا فرق بينه وبين الوحش فى الفلاة أو الغابة. وعجيب أن ينسى الإنسان أنه حيوان؟! فهو يضرب أخاه، ويمزق له ثيابه، ويريق الحبر على أوراقه أو كتبه، ويحطم له لعبه، أو يتلفها، ويغضب أو يستاء إذا رآه يلبس الجديد قبله أو دونه، ويعذب العصافير والقطط، ويذوى الورود والأزهار، ولا يقف فى العبث والإتلاف عند حد؛ ولا يدركه عطف على أحد، ولا يشعر برقة لإنسان أو حيوان. ولسنا نحن الكبار خيراً منه، وإنا لأحسن ضبطاً لأنفسنا، وكبحاً لأهوائها ونزعاتها، ولكنا نحتاج إلى الضبط والكبح لأن النزعات موجودة تلج بنا وتدفعنا؛ ولو أمنّا العاقبة لأطعنا أهواء نفوسنا وأملينا لها فيها. ولو جمحت بنا لما نفعتنا اللجم والأعنة التى اعتدنا فى حالة الاتزان أن نصدها بها عما تهم به. ونحن فى كل حال نراقب ما هو أوفق لنا وأصلح، والأمر فى الأطفال أوضح وأبين، لأن اللجم الكابحة ليست هناك، أو لأن التدريب عليها ناقص، ونمو العقل مع التجربة يساعد على حسن استخدام اللجام، ورياضة النفس على طاعته .

ولست أقول إن الإنسان شرير بطبيعته، فليست المسألة مسألة خير أو شر، وإنما هى طباع فيه وفطرة يبنى عليها، والطباع لا خير ولا شر، وإنما هى طباع. وقد احتاج الإنسان إلى مقدار من النظام لما احتاج أن يعيش فى جماعته، والجماعة لا تصلح بالانطلاق مع السجية، وإنما تصلح بإقامة حدود .

وعلى أن روح الجماعة ليس فيها لا خير ولا رحمة ولا رفق ولا شيء مما يجرى هذا المجرى، والشر الذى يذعر الفرد مجرد التفكير فى ارتكابه تقدم عليه الجماعة وهى ترقص وتباهي، وهذا ما يحدث فى الثورات. وقد رأيت بعينى جماعة حانقة فى إبان الثورة المصرية تمزق رجلاً بأيديها فوليت هاربًا من هذا المنظر. وما أظن أن أقسى فرد يستطيع أن يفعل ذلك وهو وحده. وأحسب أن الذى يرد الجماعة إلى الطبيعة الحيوانية هو أن الطباع الحيوانية المشتركة – وهى واحدة – تتغلب على المزايا المكتسبة التى نزعمها صفات إنسانية – وهى متفاوتة .

وما زالت القاعدة الحسابية هى الصحيحة، أعنى أن الذى يقبل الجمع هو المتشابه لا المختلف؛ ولست تستطيع أن تقول إن عندك أربع تفاحات وأنت تعنى أن عندك تفاحتين وبرتقالتين. ومن هنا ذهب ماكس نوردو بحق إلى أن برلمانًا من أعاظم الرجال مثل جوته وشكسبير ونابليون إلخ لا يكون خيراً من برلمان من الأوساط العاديين، لأن برلمانًا كهذا يكون مؤلفًا من مائة صفة مشتركة تتغلب على كل مزية مفردة لكل واحد من هؤلاء العظماء .

ولست أذم أو أمدح، وإنما أصف الواقع، والواقع أيضًا أن المدنية معناها التنظيم، أى الكبح والصقل ودفع الحياة فى المجارى التى هى أصلح للجماعة وأجلب لخيرها .

إبراهيم عبد القادر المازنى

أسطوانة ... ذات وجهين؟!(١)

سأقص على القراء، في هذه الكلمة، قصة أرجو أن يجدوا فيها من الطرافة والمتعة ما لم أجده فيها في وقتها..! كنت يومئذ أتولى رياسة التحرير في جريدة مسائية حزبية وكنت مستقلاً بالتحرير أتم استقلال فلا رأى لأحد سواى فى المحررين والعمال ولا فيما يكتب أو لا يكتب. وكان الحزب فريقين: واحداً يناصرنى وهم الأقلون، وقد زادوا على الأيام قلة حتى صاروا واحداً ليس إلا..!! وفريقا آخر يكرهنى أو يستثقلنى، ويتبرم فى كل حال، ولا يرضى عنى ساعة واحدة، ولا يقول فيَّ كلمة خير مفردة. وشرهم على، رجل كان لا يفتأ يكيد لى، ويدس الدسائس فى حيث يتوقع أن تعصف بى، وتريحه منى.. لله فى لله، لا لأى شىء راجع إلى سلوكى معه، أو موقفى منه، فإنى لا أخلق الخصومات، وإن كنت لا أستطيع أن أمنع وجودها !

وكان نصيرى فى الحزب، على إخلاصه، وصدق سريرته، وحماسته فى شد أزرى، عظيم الحظ من البلاهة وضعف الإرادة، ومؤدى هذا أنه كان نصيرى ما دام لا يحاول أحد أن يقلبه على!! أما خصمى فكان ألد الخصوم، لا يكل ولا يمل، ولا يتعفف عن كيد مهما سفل. وكان ذكيًا وقويًا، وله مقامه فى الحزب، فكيده لا شك يخشى، ولكنى كنت أؤثر الإغضاء، والتجاهل، طلبًا للراحة، ولأن هذا يطير عقله ويزيد غيظه .

وإنى لجالس ذات يوم إلى مكتبى بالجريدة وأمامى أحد زملائى المحررين، وإذا بنصيرى يدخل عليَّ كالقنبلة ويقول قبل أن يجلس : "يا أستاذ المحررين اللى عندك دول لمامة يا أخى! شوف لك طقم غيرهم" .

---

(١) نشرت فى مجلة "روزاليوسف" فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ (ص٢) .

فاضطرم وجه زميلي، وصعد الدم إلى رأسي، ولكني ضبطت أعصابي، وكبحت نفسي بجهد شديد، وغمزت زميلي فتركنا، ذلك أني أدركت أن هذا كيد جديد من صاحبنا الذي لا يكل ولا يمل، ولا يتعفف. وأيقنت أنه أغرى نصيري بهذه الحماقة، ليفسد ما بيني وبينه، وفي مرجوه ولا شك، أن تثور نفسي، فيعنف ردي، فينتهي الأمر بالاستقالة، وهذا مَا يبغي! وقلت لنصيري : "طبعًا. طبعًا! أو تحسبني لا أعرف؟ إن كل ما أرجو هو أن يهديني البحث الذي أجريه إلى موظفين أفضل ممن عندي، فأمهلني والله الموفق!"

قال : "انتهينا! ما دام الأمر كذلك! فلا كلام لي، والأمر كله متروك لك والسلام عليكم" وخرج .

وتناولت التليفون، ودعوت ابنه أن يوافيني "حالا" لأمر لا يحتمل أقل تلكؤ أو إرجاء. وجاء الابن الفاضل، فقصصت عليه ما كان من أبيه، وقلت له : "لقد ملأ فلان هذه الأسطوانة التي هي أبوك، فأدارها علينا، فعليك الآن أن تقبض على والدك المحترم، وتملأ الوجه الثاني من الأسطوانة على هوانا نحن، ثم نطلقه، يديرها على صاحبنا في الحزب!! مفهوم؟"

وذهبنا إلى نادي الحزب ننتظر مجيء الأسطوانة، ونسمع اللحن الذي فيها حين يدور، ونشهد دهشة ذلك الخصم اللدود حين يرى الأمر قد انقلب عليه !

ولا أستطيع أن أثبت هنا، ولا كلمة واحدة مما دارت به "الأسطوانة" ولكني أقول أن خصمنا اللدود، رفع عينيه إليّ - وكان يصعد درجات السلم - فهز رأسه وفهم !

كانت هذه الحوادث وأمثالها من أكبر ما زهدني في العمل في الصحافة الحزبية.. وقد مات الثلاثة، فعليهم جميعًا رحمة الله .

إبراهيم عبد القادر المازني

الطربوش لا يصلح إلا للزينة ![1]

لا أدري من الذى رزأنا بالطربوش وجعله لباسًا قوميًا، ولكن الذى أدريه أنه لباس يونانى انتقل إليها – كما انتقل إلى الأتراك – فى العهد التركى وأعنى به الفترة الطويلة التى كانت مصر فى خلالها داخلة فى ملك بنى عباس[2] ، ولا نزال نرى اليونانيين يتخذون هذا الطربوش فى بعض احتفالاتهم القومية التى يحرصون فيها على الزى القومى القديم .

وقد رأيت جدة أمى فى آخر حياتها وكانت تلبس طربوشًا محلى بخيوط الذهب والفضة وله زر طويل؛ بل وكانوا يسمون هذا النوع من الطربوش عزيزية. والواقع أن الطربوش قد يصلح أن يكون زينة، ولكنى لا أراه يصلح أن يكون غطاء للرأس، فما فيه وقاية من شمس أو مطر فلا خير فيه فى صيف أو شتاء. وسواد الشعب لا يتخذه وإنما يتخذه "الأفندية" وحدهم فى المدن فهو ليس باللباس العام ولا محل إذن لعده "قوميًا" وخصوصًا إذا اعتبرنا أصله اليونانى .

ولا شأن للدين بالقبعة والطربوش وإذا قيل إننا نتشبه بغير المسلمين حين نلبس القبعة قلنا إننا نلبس الثياب الأفرنجية وهى لباس غير المسلمين– ولا نعد متشبهين بغير المسلمين .

إن الثياب لا تصنع الرجال وليست عنوانًا على الدين. وفى أقطار الأرض ملايين من المسلمين غيرنا يلبسون ما يلبس غيرهم من أبناء الأديان الأخرى فلا محل للتشبث بهذا الطربوش الذى لا معنى له ولا فائدة .

---

(١) نشرت فى مجلة "العزيمة" فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٤٠ (ص ١٤) .

(٢) ربما يعنى [بنى عثمان] (المحرر) .

وكل ما يمكن أن يحصل من الاعتراض هو أن استبدال القبعة بالطربوش يخشى أن يضر بتجار الطرابيش وبهذه الصناعة على العموم. وهذا خوف فى غير محله فإن مصانع الطرابيش تصنع القبعات واسألوا مصنع طرابيش القرش يقل لكم ذلك وهو يصنع القبعات الآن كما يصنع الطرابيش. أما التجار فلا ضير عليهم وما عليهم إلا أن يحلو القبعات محل الطرابيش على رفوفهم. وكثير من القبعات يحتاج إلى الكى أيضًا فلن تبور صناعتهم .

الواقع أنه آن نتخلص من هذا العبء الثقيل الذى نحمله على رؤوسنا ونشقى به بلا أدنى موجب. وقد بدأنا نستبدل القبعة بالطربوش "رسميًا" فاتخذه بوليس المرور ولا أرى أى سبب يمنع من تعميم ذلك ولا أى حكمة فى قصر الانتفاع بالقبعة على رجال المرور. والخطوة الأولى هى الشاقة التى يطول قبلها التردد وقد خطوناها ولله الحمد. فخليق بنا أن يسهل علينا المضى فى الطريق .

إبراهيم عبد القادر المازنى

حديث الأحد : جماعة غير مؤتلفة[1]

منذ عشر سنوات أو أكثر زار مصر المستشرق الأسباني المشهور الدكتور (يهودا) فاجتمعت به وحدى بضع مرات ومع غيرى من الإخوان مرة، وكان ذلك فى ليلة شتوية وكنا أربعة من المصريين. وأذكر أن الحديث كان يدور بثلاث لغات أجنبية لأن منا من لا يعرف من هذه اللغات إلا الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية وقليلاً من الفرنسية أو الإنجليزية، وكان الدكتور المسكين يعيد ما يقول بهذ اللغات كلها ليفهم عنه السامعون جميعًا ولا يضجر منهم أحد وأحسب أنه كان حقيقًا أن يمل لولا أن حظه من الفكاهة جزيل، وقد اقترحت أن يدور الكلام بالعربية فكان نصيب اقتراحي الإهمال. فكانت تلك جلسة من أثقل الجلسات وأخفها، ومن أحفلها ببواعث الملالة وبواعى التسلية فى آن معًا، كان يتفق مثلاً أن يرسل أحدنا نكتة فيضحك الذى فهم عنه، أما الباقون فيظلون وجومًا حتى تترجم لها ثم يقهقهون استظرافًا للنكتة أو مجاراة لمن سبقوا إلى الضحك، وقد قال الدكتور يهودا فى تلك الليلة أن الغريب الذى يغشى مجالس المصريين يحتاج أن يكون (دوليًا) – أى عارفًا بأكثر من لغة أجنبية واحدة .

ومنذ بضع ليال زارنى ثلاثة من المصريين الشبان فتذكرت تلك الجلسة مع الدكتور (يهودا) فقد شعرت ونحن نتكلم أننا نتحدث بلغات مختلفات، وأن الفهم الصحيح يتطلب الترجمة والشرح والتفسير، لقد كان الزوار الثلاثة خليطًا عجيبًا – شيخًا مكور العمامة يقرأ ويكتب ولكنه لا يحسب فى المتعلمين إلا عند الإحصاء – ومعلمًا فى مدرسة يعرف أشياء وتغيب عنه أشياء وطالبًا فى إحدى كليات الجامعة مسرفًا فى العكوف على كتبه حتى لقد كبر فى وهمى وأنا أحادثه أن من السهل جدًا

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٠ مارس سنة ١٩٤١ (ص٣) .

أن يجلّد ويوضع على رف من رفوف هذه الكتب في حجرتي. وقد كنت أحاول جاهداً أن أهتدي إلى موضوع يستطيع الثلاثة أن يشتركوا فيه بلا عناء فلم أوفق فظللنا نحن الأربعة جماعتين - كل اثنين يتكلمان معًا .

وكثيراً ما يجتمع عندي من أهلي خليط أعجب من هذا في اختلافه وتعذر ائتلافه - شيخ أمي له احترامه لسنه وتجربته، وفتاة ممن أخرجت المدارس المصرية فهي كثيرة الغرور قليلة الصواب ضئيلة التحصيل شديدة الاندفاع والتهجم على ما تعرف وما لا تعرف، وشاب ممن حصلوا بعض المعارف في أوربا، وآخر ممن تعلموا في المدارس الفرنسية، وأزهري عالم واسع الإحاطة بدينه وعلومه، وطلبة وطالبات وآخرون من الجنسين لا يدري المرء أيضيفهم إلى الجهلاء أم إلى المتعلمين .

وأرى هؤلاء - كلهم أو بعضهم - فأدير عيني فيهم وأسأل نفسي "كيف يمكن أن يفهم بعضهم عن بعض؟" أو أسأل "إن هذا الخليط الذي أراه صورة مصغرة من الخليط الأكبر - أي أمتنا، فهل هذا الخليط المتنافر يصح أن يعد أمة واحدة، من أجل أنه محشود في صعيد واحد؟". وأراجع نفسي، كراهة مني للإسراف والشطط، فأقول إن ثم عناصر كثيرة جوهرية تحدث التماثل اللازم الذي تخفيه هذه الأردية التعليمية المتباينة، وأن المعول في النهاية على هذا التطابق الباطني وعلى المادة التي بني منها كيان المصري، لا على ما ألبسته - ونكرته بلبسه - المدارس المختلفة. لكني أعود فأهز رأسي، غير مقتنع، وأحدث نفسي أن ضروب التعليم المختلفة تفرق بين الناس وتتركهم شيعًا متباينة، لا يتماثلون في أساليب تفكيرهم، ولا في طريقة تناولهم للأمور، وتلقيهم للحياة، واستجابتهم لوقعها ولا في آمالهم ومساعيهم فيها، ووسائلهم إلى غاياتهم منها. فليس التعليم كسوة ومظهراً فما أهون شأنه وأقل غناءه لو كان كذلك. وهذا التفاوت يحسه كل امرئ في بيته، إذا جعل باله إليه، وإن كان يألفه ويخلد إليه ويسكن مع الزمن، فإن العادة ضرب من التبليد ولكنه موجود وله أثره وفعله، على الرغم من اعتياده وألفته، ومن اضطرار المرء إلى رياضة نفسه على الإغضاء عنه ليمكن أن تسلس له الحياة، وتطيب، وتخلو على قدر الإمكان من الرجات المزعجة. وأكثر من ترى يعيش وحده، أو مع كتبه، ليس إلا، في بيته، وبين أهله مثل زوجته وأخوته من إليهم

لأن التفاوت بين العقليات المجموعة في دار واحدة يمنع أن يوجد ميدان مشترك تلتقى فيه وتتفاهم وتتعاون. حتى التوافه أو ألزم ما يلزم للحياة لا يكاد يقع عليه الاتفاق بين هؤلاء المختلفين الذين غربتهم وفرقت بينهم النشآت المتباينة – حتى ترتيب الأثاث وألوان الطعام ونظام المعيشة اليومية في البيت لا يتفق عليه الرأى ولا تلتقى حياله الرغبات، ولا تتقارب فى شأنه الميول والعادات الموروثة والمكتسبة. وأكثر من ترى أيضاً تطردهم بيوتهم إلى الشارع وما فيه من مقاه ومسارح وملاه لقلة ما فى هذه البيوت مما يجذب ويغرى بالبقاء .

والمعرفة واجبة التحصيل ولكن أوجب من تحصيلها هضمها والاجترار من أعون الأشياء على هذا الهضم. والحديث ضرب من الاجترار. وبالحديث يتناول المرء ما عرف وشاهد وجرب ويديره على لسانه ويقلبه ويعيد فيه نظره من هنا وههنا ويسمع الرأى فيه، والاعتراض عليه، ويقيس هذا إلى ذاك، فيخرج من هذا بالوزن الصحيح والقيمة الحقيقية. والحديث المفيد متعذر فى جماعاتنا لشدة التفاوت وبعد المسافات وفرط الاختلاف، وهو لهذا لا يدور فى الأغلب والأعم إلا على التافه والسطحى والذى لا يقدم أو يؤخر، ولا يمس الحياة والمعرفة والتجربة إلا من قشرتها الظاهرة ولا ينفذ إلى اللباب، ومن هنا يبقى ما حصل المرء من معرفة وما جرب وشاهد وخبر مكدساً مخزوناً كأنه بين دفتى كتاب على رفه – ينقصه الامتحان والوزن والتقليب والتفلية والجس والفحص الذى يعين عليه الحديث وما يستدعيه من العرض والمقابلة والقياس وإعادة النظر. والإيحاء أصل تقوم عليه الحياة بين الناس والحديث إحدى وسائل الإيحاء. ولكن الإيحاء الذى له قيمة لا يتأتى فى حديث تافه .

ومن الممكن أن يستغنى المرء عن حديث المجالس بتحديث نفسه وإدارة عينه فى جوانبها والغوص – أو محاولة الغوص – إلى أعماقها، وتقليب ما يلقاه هناك وفحصه، غير أن هذا شاق، ومطلبه غير هين، إلا بعد رياضة طويلة، ثم إنه على ما فيه من الخير والفائدة يترك المرء محدوداً محصوراً فى نطاق نفسه، ولا يعين على رحابة الأفق وسعته. ومن واجب الإنسان أن يعرف نفسه، بالعكوف على درسها وإدمان النظر فيها، ولكن معرفة النفس لا تتأتى إلا بالمقابلة والقياس والمقارنة – أى بدرس النفوس الأخرى،

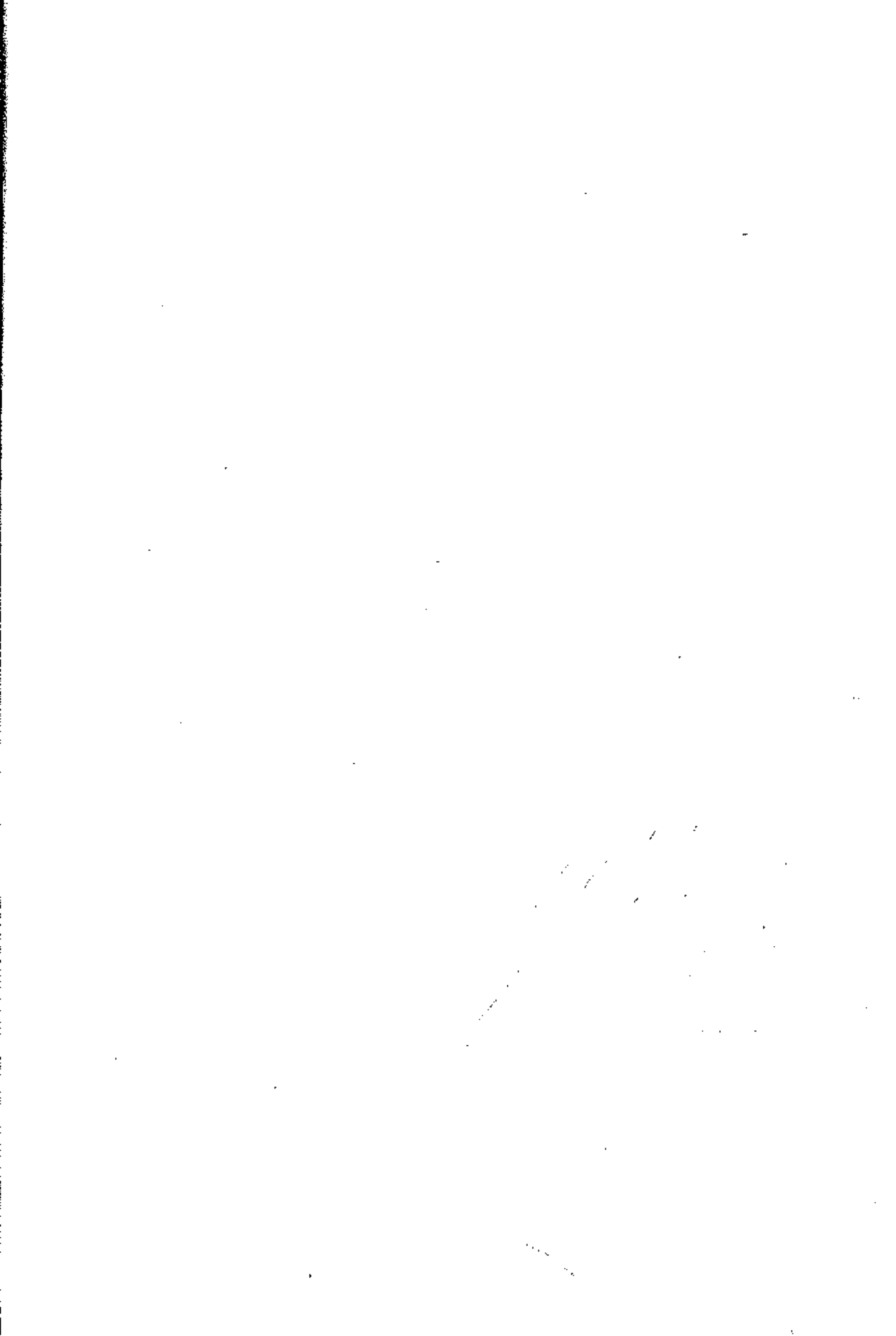
والمخالطة هي السبيل إلى ذلك، ونفس الإنسان الآخر تتكشف بسيرته وحديثه، وقد يكشف عنها الكلام أكثر مما يكشف عنها العمل. ورب كلمة أنارت ما لا تنير سيرة طويلة حافلة. ولكنه لا سبيل إلى هذا إذا ظلت النفوس مغلقة محجوبة لا يفتح اللسان المنافذ المفضية إلى أعماقها .

وقد قلت مرة لصاحب لي، إني أحيانا أتكلم - كما يقول وندل هولمز - لا لأن عندي ما أقوله، بل لأعرف هل في رأسي أو ليس فيه شيء كما تفتح الصنبور لترى هل يخرج الماء أو لا ماء هناك. وقد استظرف صاحبي هذا الكلام وعده من المزاح ولم يره من الجد في شيء ولكنه مع ذلك صحيح. ولعل الذي غلط صاحبي وأوهمه أنه هزل تشبيه ما وراء الوعي بالماء المحبوس في أنابيبه. غير أن الحقيقة أن كثيراً مما هو وراء الوعي يظل راكداً أو كامنًا، حتى يحرك اللسان، بدورانه، ما في النفس فيطفو إلى السطح بعض ما هناك ولولا هذه الحركة لبقي راقداً مستكنًا كالرواسب في قاع الماء الساكن. والنفس تحتاج إلى هذا التحريك لتتغير مواضع ما فيها ويتسنى للمكنون أن ينتقل وتزاح عنه الحجب ويبدو. وهذا هو معنى قول هولمز إنه يتكلم ليعرف ماذا بنفسه. ويشعر الإنسان أحيانًا أن معنى من المعاني يدور في رأسه ولكنه يحسه إحساسًا ولا يدركه إدراكه، كما تحس المرأة في الشهور الأولى من الحمل بالاضطراب الأول الخافت للجنين فلا تدرى أهو جنين يتحرك أم هو اختلاج شيء آخر في بدنها. وقد جربت أن التحدث إلى الغير بهذا المعنى الغامض ومحاولة التعبير عنه، يجلوه ويحدده، ويبرزه، ويعين على استقصائه. لأن محاولة التعبير عنه تحملك على بذل الجهد حتى تفهم أنت ما في نفسك قبل أن تنقله على غيرك، وهذا الجهد الخفي الذى تبذله هو الذى يعينك على إزاحة الأستار واستيضاح هذا المعنى العائم الغامض. ولو أنك تركته عائمًا ولم يدفعك الإحساس به إلى التحري والفحص. ولم تحاول أن تجلوه لنفسك بالتعبير الذى لا يتسنى إلا بعد الاستبانة، لكان الأرجح فى الاحتمال، والأغلب فى الظن، أن يظل غامضًا أو يهوى إلى القاع، فيخفى جملة، ولا تعود تحسه، فتفقده، لأنك لم تتبينه. وفقدانك إياه آت من أنك سلبته الحياة أو القدرة على الحياة التى لا تتاح له إلا بالاستبانة التى تشبه إزالة الأنقاض عن دفين .

وعلة ذلك أننا لا نزال عاجزين عن فهم المعانى وإدراكها ما لم تكسها الألفاظ. وكسوة الألفاظ هي التى تحدد المعنى للذهن، وتبين له معالمه، وترسم له خطوطه وبغير ذلك لا نستطيع الفهم والإدراك. والأداء - أى التعبير عن المعنى الذى فى الخاطر - ليس مجرد رصف للألفاظ وإنما هو تجديد للمعنى الذى يدور فى النفس، فإذا لم تستطع تحديده فلست بمستطيع فهمه وإدراكه، ولا بمستطيع نقله إلى غيرك أى إفهامه إياه. ومن هنا يضيع المعنى إذا لم تلبسه ثوبًا من اللفظ - أى إذا لم تكتبه أو تتحدث به. وقد يجيء زمن يستغنى فيه الإنسان عن أداة اللفظ. ولكن هذا الزمن لم يجيء، فلا غنى بالإنسان - للفهم والإفهام - عن اللفظ. ونستطيع أن نقول أن الغموض يرجع إلى أحد سببين أو إليهما معًا - أن المعنى ذاته غامض في نفس صاحبه لأنه لم يعن باستيضاحه وتبينه، أو أنه لم يحسن اختيار الألفاظ الكفيلة بالعبارة عن هذا المعنى. وليس من الضرورى أن يكون سوء اختيار الألفاظ راجعًا إلى قلة البضاعة منها فإن الأمر فى هذا الاختيار يرجع إلى الملكة فيه، لا إلى وفرة المحصول اللفظي أو قلته. وكما أنه فى التصوير ليس المعول على كثرة الألوان بل على حسن المزاوجة بينها، ووضعها فى مواضعها كذلك المعول فى الأداء ليس على كثرة الألفاظ بل على اختيار الصالح منها وربط بعضه ببعض على نحو يكون أكفل بجلاء المعنى وإبرازه .

دارت بنفسى هذه المعانى وغيرها وأنا أتأمل طوائف جماعتنا المتباعدة غير المتماثلة أو المتقاربة، فإذا كان أحد ينكر منى، أو علىّ، دخولى فى نفسى كالسلحفاة، فليفكر فى هذا، فإنه خليق إذا أخذ الأمر مأخذ الجد، أن ينتهى إلى ما انتهيت. وعسى ألا يفعل، فما أشتهى لأحد هذه الغصة .

إبراهيم عبد القادر المازنى



حديث الأحد : الشجاعة (١)[١]

"ما هى الشجاعة؟"

سؤال ألقيته على نفسى فى ليلة صيفية مقمرة. وكنت على الشرفة أنعم بسجو الليل، ورقة النسيم الذى حسبه الشاعر يجىء بأنفاس الأحبة نُعما!! فتذكرت ما أنذرتنا به مراراً من الغارات فى الليالى المقمرة وما اضطررنا إليه من إطفاء الأنوار وإغلاق الشبابيك والقعود انتظاراً لفرج الله وعفوه، وكيف أنى كنت فى تلك الليالى أتجلد، وأتشدد وأتظاهر بالاطمئنان ورباطة الجأش وسكون الطائر، وأعالج تقصير الوقت الذى يطول ويطول حتى لكأنه يوم الحشر، بالحديث، وأمازح أهلى وأتفكه معهم لأسرى عنهم وأذهب الروع الذى لعله داخلهم من هول ما يسمعون عنه من وصف الخراب والدمار والقتل الذى تصبه الطائرات على الآمنين غير المحاربين والعزل المسالمين. وكنت أقول لنفسى فى أمثال تلك الساعات إذا كان الله قد كتب علينا شيئًا فلن ندفعه بالفزع والذعر، ولخير للمرء أن يكون من الصابرين، وحسبنا بلاء واحد حين يشاء الله أن ينزل وعسى ألا يشاء، فلا نضيف إليه بلاء آخر بالخوف والجزع مما نتوقع. وتنقضى فترة الغارة وأنا هادئ المظهر وتنطلق الصفارات مؤذنة بعود الأمن والسلام، فأتنهد، فى سرى، ويصيح الأولاد فرحين .

فهل هذا من الجبن؟ لقد كنت وأنا صبى صغير أخاف الظلمة وأشعر حين يطوينى سواد الليل أن كابوسًا يجثم على صدرى، فأستثقل الخروج أو السرى فيه، وكنت أرانى أفزع إلى الله وأتلو بعض ما أحفظ من آيات الكتاب الكريم، وما أنزل الله كتابه لهذا ولكنى كنت أشعر بالاطمئنان ما دام لسانى يدور بكلماته تعالى، ولا أحتاج

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٢ إبريل سنة ١٩٤١ (ص٣) .

أن أقول أنى كنت أتوهم أن كل ركن مظلم فيه عفريت كامن متربص. ولم يكن خوفى من شيء بعينه. وما كان الموت يخطر لى على بال، ولا كان هذا الموت يبدو لى شيئًا مرعبًا حين يجرى بخاطرى، بل لعلى لم أكن أستطيع تصوره على نحو واضح أو مفهوم. وأذكر أن قريبة لى ماتت فلبست قفطانًا زاهيًا كانت أمى قد اشترته لى وسرتنى به فى عيد، ورحت أخطر فيه بين المعزين وأنا مغتبط بهذه الفرصة التى هيأت لى لبسه. وأحسب أن خوفى كان معظمه من الصورة المرعبة التى ارتسمت فى أذهاننا نحن الصبيان لمناظر العفاريت، ومن قدرة هذه المخلوقات الجنية على مسخ الإنسان حجرًا أو حيوانًا أو طيرًا أو غير ذلك، ومن فقدان المرء نفسه التى عرفها وألفها بهذا المسخ .

وشببت عن الطوق شيئًا فشيئًا وبدأت أقرأ وأنظر وأفكر، وصرت رجلاً يؤدى عملاً ويعول أسرة، وفى عنقه أمانات، ولكن هذا الخوف القديم الصبيانى من الظلام والشياطين بقى كامنًا فى نفسى لا يزايلها وإن كان قد وسعنى أن أستره بالإرادة النامية، وجاءت الحرب الكبرى الماضية وظلت أخبار الهلاك والدمار تترى إلينا، أربع سنوات طويلات، وواجهت بعض الأخطار، فسكنت نفسى قليلاً، وأخذت تتبلد. ثم احتجت إلى سكنى الصحراء وكانت المقابر فى طريقى إلى البيت واضطرت أن أعتاد السرى فى الليل واجتياز مناطق الموتى فى الظلام الدامس، والضرب فى الصحراء ليلاً ونهارًا فانقطع دابر الخوف من الظلمة والشياطين وجاء نمو القدرة على التفكير السليم مساعفًا لفعل العادة .

وقد ربيت إرادتى، وتعهدتها بالرياضة وألححت عليها باللجم والأعنة، فقلما تخوننى فى المواقف التى يحسن فيها الجلد والاتزان، كائنة ما كانت هذه المواقف، فالغضب أكتمه وأكبحه ولا أبديه، والحزن أطوى أضالعى عليه ولا أتركه يرتسم على وجهى أو تفصح عنه وتنطق به العين، والوجل أشعر بخفق القلب منه حتى لتكاد ركبتاى تصطكان، ولكنى أعالجه حتى تنتظم أنفاسى وأفيء إلى السكون الظاهر، وهكذا فى كل شيء .

وليس معنى هذا أنى لا أضطرب ولا أقلق ولا أجزع ولا أفزع، وإنما معناه أنى اكتسبت القدرة على إخفاء ذلك وحجبه عن العيون، وقد قلت أن الرياضة والتفكير ساعدانى على ذلك ولكن هناك عونًا آخر ومددًا قويًا تلقيته من نفسى هو شعورى بذاتى، وهذا الشعور بالذات يمنعنى أن أبدو على نحو يخجلنى، أو أن أفعل ما عسى أن يكون فيه غضاضة أو ما من شأنه أن يحط من قيمة نفسى فى نظرى، ووكدى فى كل حال – على قدر ما يدخل ذلك فى طوقى – أن أجعل سيرتى فى الحياة وفق الإرادة المثقفة، لا الشعور، ولا الغريزة، ولا أول ما يجرى فى الخاطر، ودأبى أن أحافظ على اتزانى ما وسعنى ذلك، ولذتى أن أقهر نفسى وألزمها الحالة التى يقول لى عقلى أنها أولى بى، وأحجى، وأليق، وهذا كما أسلفت لا ينفى الاضطراب الباطنى، وإنما يمنع أن يظهر الاضطراب. فثم معركة تدور فى كل موقف من مواقف القلق والفزع والحزن وغير ذلك وهمى أن تنتصر الإرادة الذكية .

فإذا كانت الشجاعة كما يفهمها الناس فأنا أقل خلق الله شجاعة وأضالهم حظًا منها، وإذا كانت "عادة" – وهو ما أفهمه منها فإن نصيبى منها جزيل .

والواقع أن الشجاعة "عادة ورياضة" لا أكثر ولا أقل، وكل امرئ مما تعود كما يقول المتنبى، حتى الخير عادة كما يقول النواسى، "أنت يا بن الربيع علمتنى النسك وعودتنيه، والخير عادة"، والمعول على النشأة والتربية والأحوال المحيطة بالإنسان فى حياته، فالذى يعيش فى صحراء جرداء لا ينتظر أن تكون للحياة عنده قيمة كقيمتها فى نظر رجل ميسر الرزق موفور النعمة فى بلد خصب كثير الخيرات. والأمة التى تضيق بها رقعتها تكون أكثر إقدامًا على الأخطار من أمة فى بلادها من السعة والخير فوق الكفاية أو حتى الكفاية ليس إلا، وهكذا .

والحرص على الحياة لا علاقة له بالجبن أو الشجاعة، فإنه فطرة وطباع، إلا أن يكون المرء بليدًا أو غير مدرك. والشجاع يحرص على حياته كحرص الجبان، والفرق بينهما فى نوع الحرص لا فى الحرص ذاته، والذى يتأخر استبقاء للحياة قد يكون أغبى وأسخف وأولى بأن يفقد ما يضن به ممن يتقدم ويقدم ويجازف، والمعول على الظرف والموقف ومطالبه، والرأى كما يقول المتنبى، قبل شجاعة الشجعان .

وليست الشجاعة بالإقدام وحده، بل أخص خصائصها الثبات والجلد والاتزان، وكثيراً ما يكون الإقدام عن جهل أو قلة إدراك للخطر، أو وزن صحيح لما تنطوى عليه المجازفة. وهذا شبيه بإقدام الحيوان الأعجم الذى لا يدرى على أى شىء يقدم ولا يدرك ما هو متوقع، وليس لمثل هذا قيمة، وقد ضرب المثل بالأسد في الشجاعة، ولكنه ليس أشجع من سواه من الحيوان وإن كان فاتكاً، ولا فضل له فى قدرته على الفتك. فمزية ما يسمى الشجاعة، الثبات ورب ثبات على بأساء كان أمجد من إقدام كتب له الفوز. وقوة النفس - أو إن شئت فقل عظمتها فما بى بخل بهذا اللفظ - من مظاهرها القدرة على الاحتمال - احتمال الفوز واحتمال الخيبة على السواء - وربما كانت القدرة على احتمال الفوز أعظم من القدرة على احتمال الخيبة لأن الفوز خليق أن يدير الرأس ويغرى بالبطر والتجبر والخروج عن الطور ومجانبة الاعتدال وكبح النفس عن هذا ليس من الهينات .

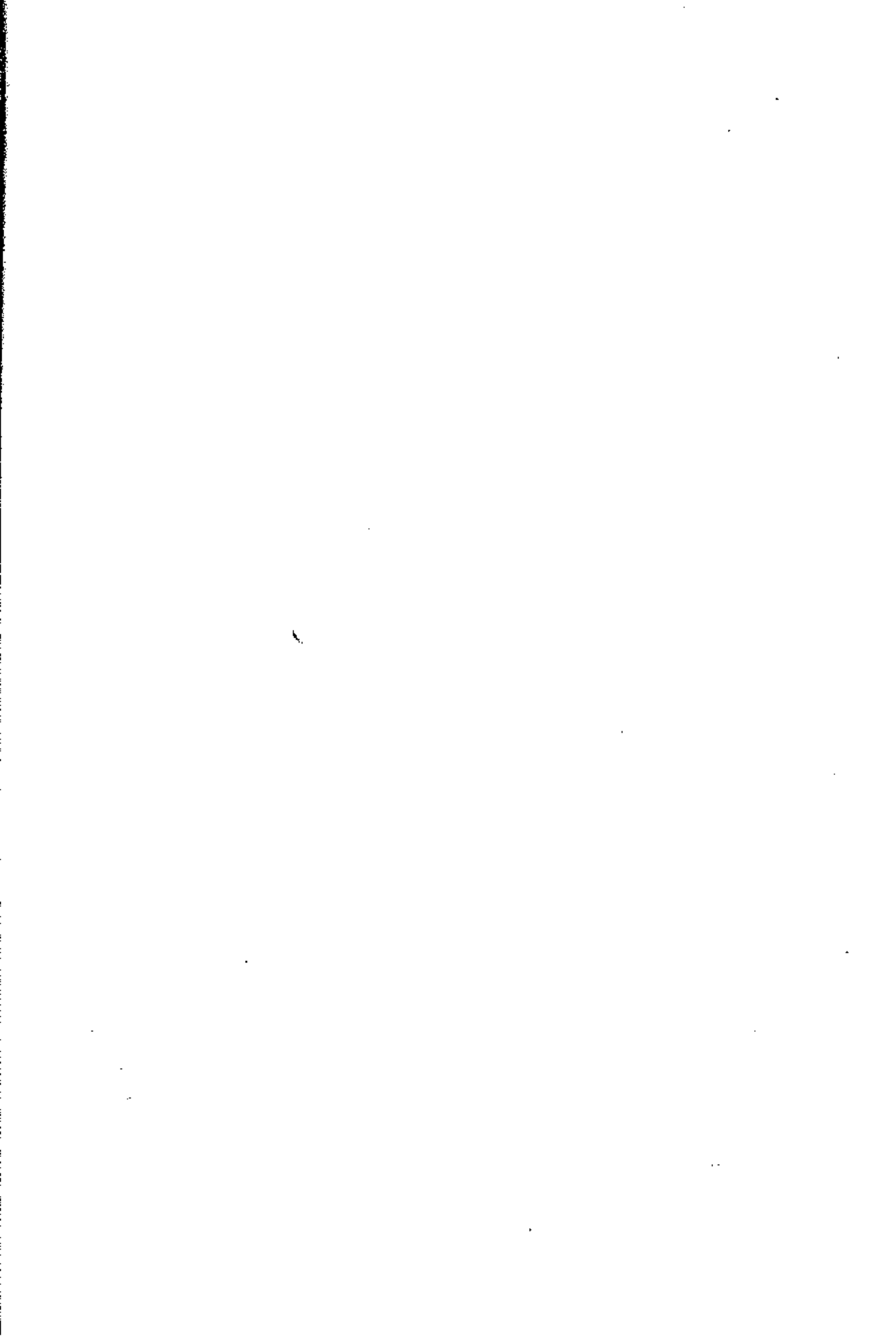
فكرت فى هذا وما إليه وأنا فى الشرفة أنظر إلى السماء الصافية وأنعم بالليل المقمر، فانتهيت إلى أن الجبن أصل، وأعنى بالجبن الإحجام عما يدرك المرء بغريزته أو عقله خطره والرغبة فى الفرار منه أو اتقاؤه - وأن الشجاعة اكتساب - وأعنى بالشجاعة الصبر فى مواقف الشدة والاحتمال والاتزان - وما يقال غير ذلك لا يعدو أن يكون كلاماً ألفنا أن نلغط به بلا تفكير .

إبراهيم عبد القادر المازنى

حاشية – ما كتبته عن الحب في الفصول السابقة لا يعدو أن يكون محاولة لتصوير ما أفهمه منه ومن حالاته، وشبيه بهذا أن يرسم مصور صورة، ويقول هذا ما يتمثل لي حين أفكر في الحب، أو الحرية، أو غير ذلك. وأنا أشكر للصديق الأستاذ سيد قطب وغيره من الإخوان ما تفضلوا به من البيان لمناسبة ما كتبته، وما بعثوا به في رسائل خاصة ليست للنشر، وما يخلو كلام من مواضع للنظر، وأخشى إذا شرعنا في المساجلة أن نظل ندور حول موضوع واحد لا نفرغ منه ولا نتحول عنه، وهمي في هذه الفصول تدوين ما يجول بنفسي ولست أفرض رأيي على أحد، ولكل صاحب رأي احترامه الوافي عندي .

المازني

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٢ إبريل سنة ١٩٤١ (ص٢) .



حديث الأحد : فى الشجاعة أيضًا (٢)[١]

جادلنى بعضهم - غير واحد - فيما قلت من أن الحرص على الحياة ليس من الجبن. والذى أعرفه أن الحرص على الحياة والضن بها فى الطباع. وليس الشذوذ والعيب أن تحفظ بحياتك بل ألا تفعل. وأنت خليق أن تتعجب إذا رأيت إنسانًا لا يأخذ حذره حين يوشك أن تدهمه سيارة أو يسقط عليه حجر، ولست تتعجب إذا رأيته يقفز أو يفعل غير ذلك مما يلهم فى التو والساعة، ولو كانت حركته المباغتة مما يغرى بالضحك. والجمود فى مثل هذه الحالة لا يعد شجاعة أو ثباتًا أو شيئًا مما يجرى هذا المجرى بل عسى أن يكون عن بلادة أو ذهول أو ما هو من هذا بسبيل. ولا خير فى الشجاعة - أو ما يسمى شجاعة - ولا فضل ولا مزية لها إذا كانت لا تنفع الناس ولا صاحبها، والقائد الذى يتوقى وينأى عن الخطر لا يفعل ذلك ضنًا بحياته بل بحياة جنده ومصلحة قومه. وليس الجندى التى يقاتل فى الصف الأول بأشجع أو أجرأ منه. ومثل القائد، السياسى أو العالم أو الأديب أو الفنان ومن إلى هؤلاء ممن يخدمون الدنيا ببقائهم أحياء أصحاء يعملون. ولعل الذى يتقى الخطر لأنه يرى حياته ألزم وأنفع - أشجع مما يتهجم عليه بلا مبالاة أو حساب أو وزن لقيمة الحياة .

فالذى نسميه "جبنا" هو الطبيعى أو الأصل ومنشأه الخوف والحذر. وعلاجه الرياضة والمعرفة والتفكير السليم ومكافحة الخيال الجامح، فإن أكثر ما يخاف منه أوهام، ومن هنا قالوا إن توقع الشر أو انتظاره أشق من معاناته. وقد وجدت بالتجربة أن التشاغل بشىء نافع يضعف شعور الفرق، ويمنع الجزع، ويحول دون تفاقم الإحساس الذى يغرى الإنسان بما لا يحسن أو لا يليق أو مالا خير فيه، فالمغيظ

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٧ إبريل سنة ١٩٤١ (ص٣) .

المحنق أو الحزين المفجوع أو الخائف المرتعد يستطيع أن يسرى عن نفسه إذا تلهى بالحديث أو العمل، أى إذا صرف نفسه بوسيلة ما عما كان علة غضبه أو حزنه أو خوفه وأخذ على هذا الشعور متوجهه .

وقد وقع لى ولطائفة من الإخوان حادثة منذ عهد قريب تثبت ذلك. ذلك أنّا كنا فى فلسطين خارجين من فندق إلى فندق آخر لا يفصلهما إلا عرض الطريق، وكانت الليلة قمراء وليس فى الطريق ديار سوى شاب مستند إلى جدار وإحدى يديه على صدره تحت السترة والأخرى فى جيب البنطلون ولم يكن بالنا إليه ولا كان يدور لنا فى خاطر أن هذا الشاب متربص لنا وكنا نتحدث ونمرح ونضحك، ولكن أحدنا تنبه وأوجس خفية من وجوده ووقفته وكان هو ابن البلاد. أما نحن فضيوف وإن كنا نعد فلسطين موطنًا ثانيًا لنا، فاتجه صديقنا إليه فتنبهنا نحن أيضًا إلى وجوده وتبعنا صاحبنا ووقفنا أمام الفتى على صورة نصف دائرة أو قوس وشرع صديقنا يسأله عن اسمه وقومه وما يصنع فى هذه الساعة المتأخرة هنا. وإذا بالشاب يثب من بيننا ويصيح بما لا أنكر ويخرج مسدسًا ويشهره ويصوبه، وكنا قد تفرقنا حين وثب واندفع ثلاثة منا إلى الطريق، وتراجعت أنا خطوات ولكنى بقيت على الرصيف لأنى لا أصلح للجرى إذ كانت ساقى مهيضة. وكانت عينى على الشاب فرأيت وجهه إلى الشارع – لا إلى ناحيتى – وذراعه ممدودة بالمسدس على من يجتازونه. فشعرت بالاطمئنان ووسعنى أن أفكر على مهل إلى حد ما وبدا لى أن خير ما أصنع فى هذا الموقف هو أن أقف خلف عمود من الحجر قريب منى، فإن فيه وقاية كافية ففعلت وصرت فى أمن، واستطعت من وراء هذا العمود أن أرى كل ما يحدث وكأنى متفرج على حادث يجرى وكأنما لا شأن لى به ولا يعنينى منه إلا أننى مشاهده اتفاقًا ومصادفة، وكان الشاب يعدو ثم يتوقف ويستدير ويطلق الرصاص وكان إخوانى قد أخذ كل منهم حيطته على قدر ما وسعه فلم يصبهم سوء ولله الحمد. وقد نجا الفتى ولم تدركه الشرطة فى تلك الليلة ونجونا بأعجوبة وقضينا ساعة أو ساعتين فى حديث وتحقيق وما إلى ذلك ثم صعد كل منا إلى غرفته وذهب إلى بيته من له بيت .

لما وقعت الحادثة كنت مشغولاً برصد حركات الفتى وجعل سلوكي وفق ما يبدو لي منه فلم أشعر في تلك اللحظة الوجيزة بالخوف أو الاضطراب لأني في شاغل عنهما بما أنا فيه من العمل، ولكنني لما صرت في غرفتي وأغلقت بابي وانطرحت على الفراش ورحت أعرض الحادثة على نفسي كما رأيتها تقع وأفكر في هذه المباغتة وفيما كان يمكن أن يصيبنا، وفي أن الذي أنجانا هو تنبه أحدنا إلى وجود الفتى واشتباهه في الأمر، وإنه كان من الممكن ألا نفطن إليه وأن نمضي إلى فندقنا، فيسهل عليه أن يضربنا جميعًا من الخلف ويغتالنا – لما فكرت في ذلك اضطربت جداً وأرقت مع حاجتي إلى النوم حتى لقد رفعت ملاءة السرير ونظرت تحته مخافة أن يكون تحته أحد مختبئًا. ولقد أوصدت الباب بالمفتاح في تلك الليلة على خلاف عادتي فإني أكره أن أشعر بأن الغرفة موصدة عليّ. ثم لم أجد خيرًا من أن أتناول كتابًا وأعالج أن أقرأ فيه، وبعد لأي ما استطعت أن أفهم ما أنا قارئ، فلما صرت معنيا بالقراءة غلبني النوم، وأصبحت وقد زايلني ما عانيته في ليلتي تلك .

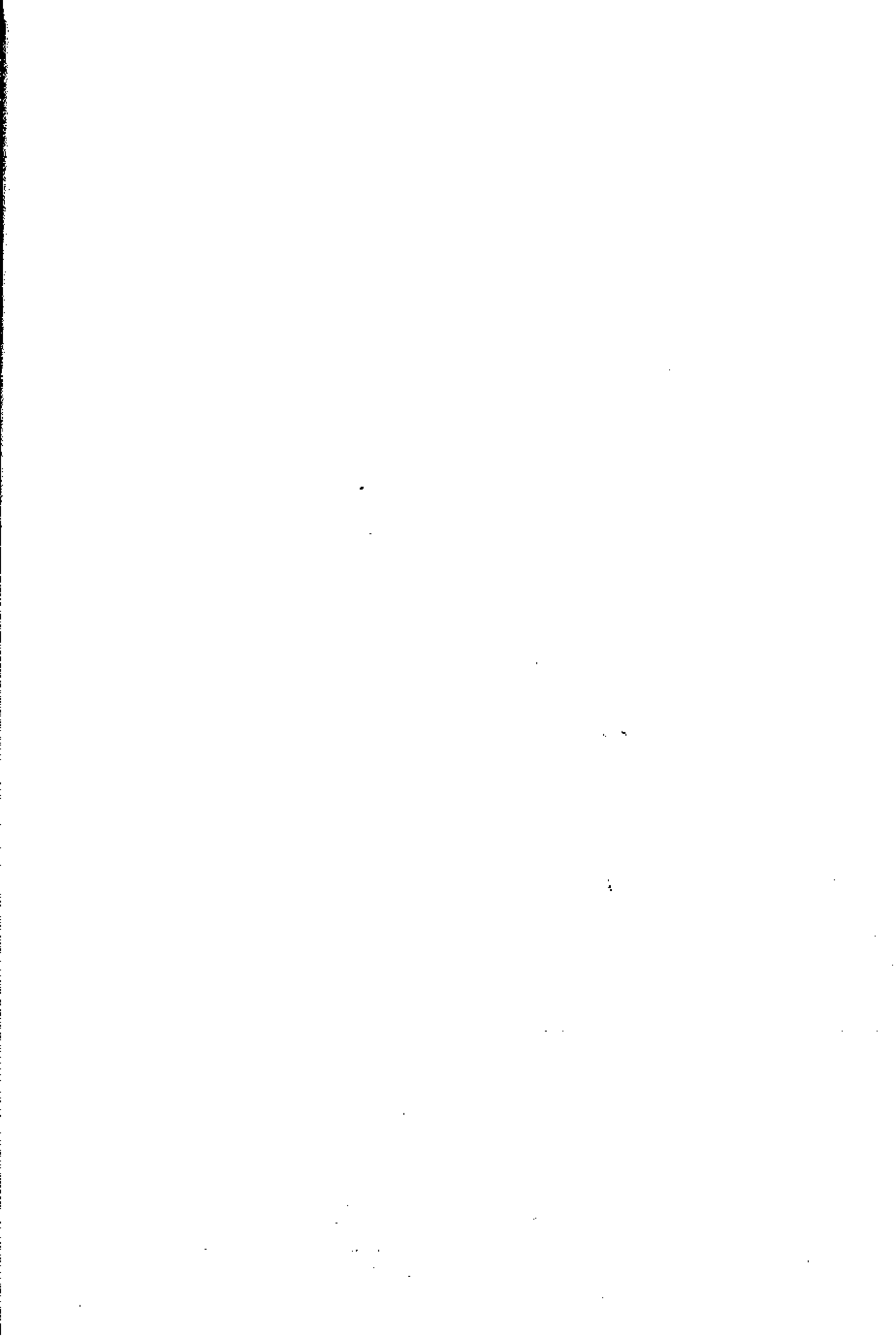
وقص علي مرة أحد الذين اشتركوا في المعارك التي دارت في الصحراء الغربية أن الطائرات المعادية كانت تحلق فوق رؤوسهم وهو وزملاؤه يضحكون ويشيرون إليها ساخرين فتعجبت وظننت إن هذا من الإسراف في إدعاء الشجاعة والتظاهر برباطة الجأش ولم أكتمه رأيي وقلت له أن الواجب عليه في مثل هذه اللحظة هو أن يختبئ وأن هذه ليست شجاعة بل تهور وحماقة فضحك وقال إن الطائرة لا خطر منها ما دامت فوق رأسك وعالية، لأنها من هذا العلو لا تستطيع أن تضربك بالمدافع الرشاشة وإذا ألقت قنبلة فإنها تسقط على بعد بضعة كيلو مترات منك. لهذا كان محدثي مطمئنًا لأنه يعرف، ولو كنت مكانه لجزعت وذهبت ألتمس الوقاية لأني لا أعرف. وقد لقيت في حياتي كثيرًا مما أخافني وأفزعني لأني أجهل كنهه ولا أعرف ما هو فأروح أتوهم شر ما يمكن أن يقع. حتى إذا تكشفت لي الحقيقة خجلت، ولا داعي للخجل فإن هذه مصيبة الجهل. وأنا الآن كثير القراءة لما يكتب عن الحرب وأساليبها وفعل أسلحتها الحديثة لأني أريد أن أعرف مبلغ ما يحق للمدني المسالم أن يتوقعه من شرها وفتكها وأن أعد نفسي لمواجهة ذلك وأنا مدرك له عارف به فيكون ذلك عونًا لي على الثبات والتصرف الرشيد .

وأنا بطبيعتي أميل إلى التطـير فمـا توعـك ولد لي - ولو كان الوعـك زكامًا - إلا حدثت نفسي أنه هامة اليوم أو الغد على الأكثر، فأعد نفسي لأسوأ ما يتصور ويهون عليّ بالقياس إلى ذلك كل ما تجيء به الأقدار فأتلقاه بالصبر والاحتمال. وقد كان من جراء ذلك أني وجدت البون شاسعًا في كل حال بين الواقع والمتوقع. وصرت أقيس هذا إلى ذاك فانتهيت إلى الاستخفاف بكل ما يعرض لي مما كان خليقًا أن يخيفني ويرعبني أو يخرجني عن طوري أو يحرمني الاتزان. وكان خاطر الموت يزعجني ويتلف أعصابي ويؤرقني ويسود عيشي ثم حدثت نفسي - وألححت عليها - بأن الموت غاية كل حي وأن لا مهرب منه أو مفر طال العمر أم قصر فمن العبث إضاعة الوقت في التفكير فيه ما دام محتومًا والمناص منه معدومًا. والموت يسلب المرء الإحساس والشعور بالذات وغيرها لأنه فناء فهو أرحم من كوارث كثيرة تقع على الإنسان في حياته وهو محس مدرك. وقد استطعت أن أحجب خاطر الموت عن عيني وأن أنحيه وأن أمنع أن يفسد عليّ متعتي بالحياة. ولكنه مع ذلك كامن وراء الوعي وأثره في تفكيري وسلوكي بيّن وأنا أعرف ذلك معرفته، غير أني لا أرى لي حيلة إلى الآن فيه، وإن كنت لا أكف عن المجاهدة. وأحسبني حين أفارق الدنيا ستكون على وجهي ابتسامة وفي قلبي غصة .

ومما يدخل في معاني الجبن الشائعة ما هو أولى بأن يكون من اضطراب الأعصاب. أو الحياء أو ما أشبه ذلك. فثم مثلا أناس تنخلع قلوبهم إذا اضطروا أن يقوموا خطباء. بل يضطرب البعض جدًا حين يدخل على فرقة من التلاميذ الصغار ليلقي عليهم درسًا. ثم يزول ذلك عنه متى ألفه وهنا تحضرني كلمة لكاتب نسيت اسمه قال إن مما يعين على الاجتراء في مثل هذه المواقف، ويحول دون الرهبة والتهيب، أن تحتقر الناس ويساعد على ذلك أن تجعل بالك إلى ما يبدو لك موجبًا للسخرية، كأن ترى أحدهم مثلا يتناول الحساء فتبتل شعرات شاربيه وتسقط قطرات على ثيابه أو أن تسمعه يتكلم فيخيل إليك أن صوته خارج من أنبوبة ماء أو أن يبلغ من ذهوله أن يلبس جوربين مختلفين. إلى آخر ذلك. والكاتب لا يعني الاحتقار بالمعنى المعروف وإنما يعني أن الناس الذين تضطر إلى مواجهتهم مثلك لا خير منك، وأن لهم عيـوبهم كما لك،

وأنه لا داعى على العموم لتهيب لقائهم أو رهبتهم فإذا ألححت على نفسك بهذا وقررته فيها، فأنت خليق أن تتشجع، وهذا صحيح وقد جربته وأنا معلم ولم أكن أتهيب التلاميذ، ولكنى كنت فى بداية عهدى بالتعليم أشعر بشىء من الاضطراب الخفى حين يدخل علىَّ مفتش ثم قلت لنفسى أنى أعددت درسى أما المفتش فلم يعدده فهو خالى الذهن منه، وأنا على كل حال أعلم بما أعلم وأوفى إحاطة، فهو الخليق أن يضطرب دونى وأنا جدير بأن أنظر إليه نظرتى إلى تلاميذى وقد كان. وأسرفت فى هذا حتى كنت أذهب إلى حد التحدى الصريح والإحراج البين بعد أن وثقت من تمكنى من بابى. وقد أسأت إلى نفسى بهذا فعدنى رؤسائى من الثقلاء المشاغبين. ولكنه لا أسف على ما فات. وعذرى أنى كنت شابًا غريرًا مغرورًا مغرى بالشطط قليل البصر بالعواقب أو المبالاة بها .

إبراهيم عبد القادر المازنى



حديث الأحد : النسيان[1]

كان العزم أن أتناول في هذا الحديث كتاباً أهداه إليّ صديق، وأويت البارحة إلى الفراش وأنا على ذكر منهما، حتى كدت أأرق، فلما طلع الفجر، وتنفس الصبح ألفيت نفسي قد نسيت كل شيء - أنسيت أي صديق هو المتفضل بالهدية، وأنسيت الكتاب واسمه وموضوعه، وأنسيت أين وضعته أو تركته - أعني الكتاب لا الصديق - وكان آخر عهدي به - الكتاب أيضاً - قبل أن أذهب إلى مرقدي بدقائق معدودات، فلم أدر ماذا أصنع؟ وفي أي شيء غير هذا أكتب؟ وهممت أن أسأل من في البيت أين تركوني في ليلتي قبل أن يتفرقوا ليناموا، ولكن هذا قليل الجدوى، فإني قلما أبقى في مكان واحد، ولا أزال أتحول من غرفة إلى أخرى، وأجلت عيني في المكتبة فارتعت، فإن العثور فيها على كتاب بعينه أيسر منه - جداً جداً - الاهتداء إلى إبرة في كوم من القش، أو الالتقاء بصديق على غير ميعاد في هذه المدينة الصاخبة المائجة. ومن كان مثلي آفته النسيان، فأخلق به أن يحرص على اتخاذ مذكرة يثبت فيها ما يريد قبل أن يطير من رأسه ولكني لا أفعل، وإني لأحمل دفتراً صغيراً - أحمله منذ سنوات - وأدون فيه أحياناً بعض ما يخطر لي، ولكني لا أعرفني رجعت إلى هذا الدفتر، وقلما أنتفع به إذا راجعته، لأن ما أكتبه فيه لا يزيد على بضع كلمات تكفي للتذكير في وقتها، ولكنها بعد أسابيع أو شهور تفقد قدرتها على ذلك، وتنقلب أشبه بالألغاز، وعلى أني أنسى الدفتر كله فما خير أن أكتب فيه شيئاً .

ولا ضير من هذا النسيان لو كان الناس يعذرون، ولكنهم يقضون في أمرك بالقياس على أنفسهم، فيظلمون، غير عامدين، فإن هذه سبيل الإنسان في كل حال،

---

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ١٢ إبريل سنة ١٩٤٢ (ص٢) .

وفي وسعك أن تسغنى عن إنصاف إخوانك، ولكن كيف السبيل إلى الاستغناء عن إنصاف ذويك – أمك، وزوجتك، وأبنائك؟ إنك معهم أبدًا، وأنت الموكل بهم، وعليك بعد الله معولهم، فإذا كنت معهم، شاهدًا كغائب وسامعًا غير واع، وناظرًا يرنو بعيني نائم فكيف تكون حياتك بينهم، وكيف تستقيم وتطيب حياتهم معك ؟

وكل يوم يسألني منهم سائل – واحد على الأقل – (كيف نسيت هذا؟ كيف يمكن أن تنسى؟) كأن لي يدًا في هذا، أو كأن لي فيه حيلة وقصرت!! و (هذا) يكون حينا كتابًا يطلبه أحد الشيطانين الصغيرين الموكلين بامتحان صبري لحاجته إليه في دروسه التي يهملها ويتظاهر بالانكباب عليها، وهو مشغول الذهن – واليد – بالقطة الراقدة في حجره، وأحيانًا يكون (قرطمًا) لعصفور (كان هنا ثم غاب) وأنا في حياتي ما استطعت أن أعرف أين تباع هذه الأشياء – وأعترف أني ما حاولت قط أن أعرف، وما أكثر ما أنسى طعامي وأذهل عن جوعي فكيف أذكر طعام القطط والعصافير؟ على رفقي بها ورحمتي لها، وعطفي عليها. ويراني أحد العفريتين ألاعب القطة فيقول لي وهو يبتسم، وفي عينيه نظرة خبيثة :

"يا بابا.. يسرك أن تلاعبها، وتنسى طعامها"

فأستثقل الشرح والاعتذار وأدفع بها إليه وأقول له :

"خذها عني، فإني أريد أن أشتغل في المكتب"

فيذهب بها ويقول لها، وهو يمسح لها شعرها، بصوت أسمعه :

"لا تلومي بابا، فإن بابا لا يلام... هو هكذا أبدًا... وستعتادين سهوه كما اعتدناه؟" .

وكثيرًا ما أقف على إحدى درجات السلم وأسأل نفسي "أين كان العزم أن أذهب" لأني أكون قد نسيت، وأكثر ما يحدث لي ذلك، حين يكون العفريتان في البيت، في يوم الجمعة أو غيره من أيام البطالة – يريان أني أهم بالخروج فيقبلان عليَّ بمائة طلب وألف سؤال، فأحس أن عقلي سيطير، وأقول لهما :

"اسمعا. صبراً حتى ألبس ثيابي، على مهل، وفي هدوء، حتى لا أنسى شيئًا... ثم بعد ذلك أجلس إليكما ونتحدث في سكون، وبغير ضجة"

فيقولان : "طيب"

ولكنهما لا يكفان عن اللغط فتتبعثر خواطري وتتشتت أفكاري، ويصبح رأسي كالشجرة أطار الفزع عنها العصافير. والغريب، مع ذلك أني أستطيع أن أقرأ وأكتب مهما بلغ من الضوضاء حولي، ولو كان في الغرفة معي ألف يتلاغطون لما عبأت بهم شيئًا ماداموا لا يوجهون إليّ كلامًا، وهي مزية، ولكنها تكلفني شططًا، وقد أخطأت في رياضة نفسي على الإنصراف عن الناس وأنا بينهم، وكان خيرًا لي لو نشدت الوحدة وحرصت عليها عند القراءة أو الكتابة، وحسب الكاتب ما يبذله من جهد التفكير، وما أغناه عن جهد آخر يتكلفه ويضني به أعصابه لينصرف عما يدور حوله، وليمنع الأصوات المضوضية أن تشغله عما هو فيه، وقد لا يشعر أنه يتجشم في ذلك عناء، ولكنه يتجشمه، شعر به أم لم يشعر، وآية ذلك أن القليل من العمل بين الناس يملني ويتعبني كما لا يتعبني أو يملني الكثير من العمل في حال الخلوة، وأنا أستطيع أن أقرأ مائتي صفحة في سكون الليل، ولا أستطيع أن أقرأ ربع هذا القدر في ضجات النهار، وإذا تناولت القلم في بكرة الصباح المطلولة فإني أسترسل ولا أمل ولا أتوقف، ولا يورثني طول العكوف على الكتابة تعبًا، فإذا أدركني النهار بضوضائه وزواره قبل الكتابة، فترت وتحطل بي الإعياء بسرعة .

وقد عودت نفسي الذهول عن الناس وأنا بينهم، ورضت نفسي عليه، فأجناني هذا النسيان، ذلك أني أحب العزلة، وأوثر الوحدة والخلوة بنفسي، ولا سبيل إلى ذلك إذا كنت تريد أن تكسب رزقك، فلم يبق لطالب العزلة – مثلي، إلا أن يغيب عن الخلق بنفسه، وهو حاضر بجسمه، ولم أزل أعالج ذلك حتى صار – على الأيام – أيسر ما أتكلف، وليس في الوحدة ما يشق عليّ، ولو طالت، فإني أنعم بخواطري وأزجي الفراغ بما يدور – أو بما أدير أنا – في نفسي من خوالج وخيالات، وحواري مع نفسي أمتع لي وأحلى عندي وأطيب من كل ما عسى أن يدور بيني وبين غيري، ولهذا يطول صمتي مع الناس، أو يقل كلامي، وإن كنت ثرثارة، لا يكف لساني عن الدوران حين يطيب لي

الكلام، وهو يطيب فى المجالس الصغيرة، أما إذا كثر الناس، فإني أشعر بالضيق ويمثل كرب الاختناق، وأعاني وطأة الرغبة الملحة فى الفرار، ومن أجل هذا أتقى الزحام، ويندر أن أغشى محفلاً أو أشهد اجتماعًا كبيرًا، لأن شهوده يتعبني، والكلام بصوت عال يضنيني. ولعل خفوت صوتي بعض ما صرفني عن التعليم وقد يشكو إخواني أن صوتي خفيض لا يكاد يسمع، ويقول بعضهم لي مازحًا إنه إنما يفهم عني بالنظر إلى حركة الشفتين ولكنهم يحمدون مني حسن الإصغاء، لأني أوثر الصمت، وإن كانوا لا يعلمون أن معظم ما يقولون يفوتني، لكثرة شرودي عنهم .

على أن نسياني مقصور على جانب السمع دون جانب البصر، وأعني بذلك أني أنسى ما يصافح أذني، ولكني لا أنسى ما تأخذه عيني، فما أقوله أنا، أو أسمعه، يذهب، ويندر أن يبقى منه شيء، ولكن ما أراه يبقى ولا يضيع، ولا تفتر صورته، أو تبهت ألوانها، ومن الممكن أن أقول أن ذاكرتي فوتغرافية، أي أنها تتعلق بالمناظر وصورها، وتحفظها، ولكنها تهمل الأصوات ولا تثبتها أو تحرص عليها، وقد أنسى اسم الإنسان، بل أنا سريع النسيان للأسماء، حتى ليكبر فى وهمى أحيانًا أني سأنسى اسمي يومًا ما، فلا أعود أعرف من أنا، أو ماذا أدعى، ولكني لا أنسى صورة إنسان، وجهه وثيابه وألوانها وحركاته ونظراته، وهيئته على العموم .

ومن خوفي أن أنسى اسمي، أحمل معي بطاقات به، لأراجعها إذا كان ما أخشى أن يكون!! ومن يدري؟؟ لعلي حينئذ، أنظر إلى البطاقة وأتعجب لصاحب هذا الاسم، من هو يا ترى ؟؟

وما حمل البريد إليَّ، رسالة إلا دسستها فى جيبي لأرد عليها "فيما بعد" وتظل الرسائل فى جيوبي، شهرًا بعد شهر، وأغير البذلة، وأحرص على نقلها إلى الجيوب الجديدة، وحشوها بها، ولكن الشهور تمضي والرد لا يكتب، ولا ترضى زوجتي عن منظر الجيوب المنتفخة، فتفرغها وتضعها فوق الأكوام السابقة، وتقول بحق "سيان أن توضع هنا أو في جيوبك ما دمت تنساها" .

وهذا عذري على الإخوان الذين يحسبون أني أهمل رسائلهم أو أقصر فى الرد عليها أو يتوهمون غير ذلك، فهل يعذرون؟ عسى ولعل .

إبراهيم عبد القادر المازني

قصة كتاب يأبى أن يصدر[1]

هي قصة كتاب أريد له الظهور، ويأباه كل الإباء! ومن الكتب ما له سيرة عجب !!

قلت لنفسي بعد أن أخرجت "إبراهيم الكاتب" يحسن بك يا هذا أن تنحو في الرواية التالية نحواً آخر، حتى لا يجيء ما تكتب من ذاك على غرار واحد، فيمل القراء، وصح عزمي على هذا التنويع، فتوكلت على الله، وشرعت في فترات النشاط القليلة أكتب رواية فكاهية. والفكاهة - كما تعرف أو لا تعرف - تتطلب حذقًا وأستاذية لا يتطلبها الجد وإرسال النفس على السجية، حتى ولو كانت في الطباع، فإن لفظة واحدة تزيد أو تنقص، يبوخ بها المعنى، أو تفضي به إلى الغثاثة .

بدأتها في مصر، ثم سافرت إلى لبنان طلبًا للراحة والاستجمام، فحملت مسودتها معي، وعكفت عليها في البكرات الندية حتى فرغت منها، ففركت كفي، وتشهدت، وحمدت الله، فقد أتعبتني، وبقي أن نطلق اسماً على هذا المولود الجديد، والأسماء آخر ما أختار لكتبي، واختيارها يكلفني شططًا، فإن لي فيها لمذهبًا خاصًا، وأنا أتحرى فيها ما لا يتحراه غيري، وقد لبث كتاب "خيوط العنكبوت" حولاً وزيادة، لا يصدر حتى اهتديت إلى اسمه، وأسميت كتابًا آخر "عابر سبيل" فأبى العقاد إلا أن يسبقني إلى إخراج كتاب له بهذا الاسم فحرمنيه، ونزلت عنه غير شاكر له، واحتلت على المعنى حتى أسميته "في الطريق" ولكن هيهات !

---

(١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٤ يناير سنة ١٩٤٢ (ص٤) .

ويأبى العقاد إلا أن يتعقبنى فيفسد على أسمائى! وهو لا يدرى! فقد أطلقت على روايتى الجديدة اسم "الدكتورة سارة" فسبقنى مرة أخرى وأخرج رواية "سارة" فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله! هذا اسم آخر يضيع بفضل العقاد! فماذا أصنع؟ أترى ينبغى أن أسجل فى المحكمة ما يخطر لى من أسماء لكتب أنوى إصدارها ؟

وبدا لى أن أراجع الرواية عسى أن يلهمنى الله اسمًا جديدًا لها، فرأيتنى أغير وأبدل، وأضيف وأحذف، حتى فشا علىّ الأمر، واختلط فلم أعد أدرى أين الأصل فى هذا الكوم كله. فجمعته ودسسته فى درج، وقلت إلى أن يجىء أوان الطبع، نستريح من وجع الرأس. ورحت أكتب رواية أخرى أتممتها بلا عناء فى بضعة أسابيع، وكانت عندى كتب أخرى لا ينقصها إلا أن أهيئها للطبع، أى أن اختار لها أسماءها، وأنسخها، فقد صرت أحرص على نسخة من الأصل غير التى أقدمها للمطبعة، حتى إذا ضاعت ورقات – كما حدث فى رواية إبراهيم الكاتب – وجدنا صورة منها .

وفتح الله علىّ باسم صالح للرواية المهملة، ففرحت وقلت هذه آية، وبعثت بالاسم إلى الخطاط، وأنستنى الفرحة بموافقة الاسم، وجمال الخط، أن أؤدى للرجل حقه، فمعذرة يا صاحبى فإن حقك "فى الحفظ والصون" ولست آكل الحقوق، ولكنى أنساها، وتلك آفتى فاعرفها، وليعرفها غيرك أيضًا، فإن معرفتها أجلب للاطئمنان، وأنفى للقلق والهواجس .

وكنت غير راغب فى الطبع على نفقة غيرى، ولكنى لست بذى مال أو أنا لا أحسن تدبيره، أو لا أدرى ما العلة، فما يتلبث معى شىء مما يصل إلى يدى، قل أو كثر، ويخيل إلىّ أحيانا أنى أنفق المال حتى فى المنام. وكثيرًا ما ألح على صديق كريم أن أقيد فى دفتر صغير ما أكسب وما أنفق، فأقول له :

"ولماذا أجشم نفسى هذه المشقة كلها؟ هل تقييد هذه الأرقام وإثباتها فى ورقة، يحفظها فى جيبى أو يدى؟ إن كل ما أعرفه، وما أحتاج أن أعرفه، هو أنى كسبت رزقى وقضيت به حاجاتى، وذاك حسبى، ولا حاجة بى إلى زيادة علم" .

فيقول : "إن هذا التدوين يضبط الحساب ويعين على الاقتصاد" .

فأقول : "أي حساب تريد أن تضبطه يا أخي؟ إنك تشترى ما تشترى بثمنه، وتنفق المال في وجوهه، فكيف يكون عناء التدوين ضابطًا للحساب؟ ولماذا تكلفني العد والحساب، والجمع والطرح؟ ما خير أن أعلم أني كسبت كذا، وأنفقت كذا؟ إن فائدة المال أن الحاجات تقضى به، وهذا هو الحاصل، والاقتصاد الذي تشير به يمنع المال أن يدور في الأيدي دورة تامة، وهذا شر، ثم إني لا أقدر عليه ولا أحسنه حتى لو أردته، وإني لأجد في الإنفاق لذة لا تعدلها لذة، ويؤرقني، ويتلف أعصابي أن لا أجد وجهًا أنفق فيه ما معي، ويكربني ذلك ويضيق له صدري جدًا" .

فيقول : "وأولادك؟ ألا تترك لهم شيئًا؟" .

فأقول : "يكفي أن أربيهم، وعليهم أن يكسبوا رزقهم بعد ذلك بعرق جبينهم" .

فيقول : "وإذا لم تكف فسحة الأجل؟" .

فأقول : "سبحان الله العظيم يا أخي! وهل أولادي نزلوا من السماء، فهم فوق البشر ولا ينبغي أن ينالهم مكروه أو يتعرضوا لما يتعرض له الخلق جميعا؟ ولماذا يجب أن ينفرد أولادي دون هؤلاء الملايين بالنعمة والترف؟ إنهم ناس كسائر الناس فإذا جرى عليهم ما يجرى على سواهم، فلا ظلم هناك، ولا حق لهم في الشكوى والتذمر إلا من النظام الذي يسمح للأقلين أن يثروا ثراءً عظيمًا لا داعي له ولا انتفاع به على حين تلصق بطون الجمهور والأعظم بالتراب من الفاقة، وسيتغير هذا كله، عاجلاً أو آجلاً فاطمئن، وسيحمي أولادي وأولادك وأولاد الناس قاطبة أن يتمرغوا في المتربة المذلة الأليمة، وإلى أن يعتدل ميزان الحياة لا أرى أن مما هو خليق أن يكرب النفس أن يكتب الله الشقوة والفقر لأولادي، ولخير من المال يرثونه ويتطرون به، ولا يعولون إلا عليه، رجولة يرثونها، وجلد يعتادونه، وقوة نفس يفيدونها، وصلابة عود تنفعهم في الكفاح اللازم في الحياة، والمال يضيع ولكن هذه تبقى. فدع الخوف على أولادي وأولادك، فإن هؤلاء الأثرياء لا خير فيهم لأنفسهم ولا للناس، وإنما معول الدنيا

على أمثالنا المكودين المرهقين الذين يكسبون الرزق بعرق الجبين. نحن الناس يا صاحبي لا أولئك الضعاف المهازيل الذين يرثون ما لا يتعبون فيه، ولو فقدوه لحاروا من أين يجيئون بكسرة من خبز ناشف. كلا! لست أحمد توريث المال فإنه مفسدة" .

وأعود إلى ما استطردت عنه فأقول أنى آثرت أن أطبع الرواية على نفقتي، وأشار على صديق أن أشترى من ورق الصحف وأقصه وأسويه "رزمًا" وأنا، على كثرة ما طبعت من كتب، من أجهل خلق الله بهذه الأمور. وقد قال أن هذا أرخص، فصدقته، ودلني على مطبعة في صاحبها قناعة عظيمة، وكان مطلبي أن أنفق على الطبع أقل ما يمكن ليتسنى أن أبيع الرواية بأزهد الأثمان، فاستخرت الله وصدرت عن رأى الصديق ودفعت الأصول إلى المطبعة، وسارت الأمور في البداية على ما يرام... ببطء، ولكنه لم يكن بطئًا مزعجًا، ثم إني غير مقيد بموعد، فلا ضير من ذلك .

ولم يخل الأمر من مضحكات. ذلك أنى أسميت الرواية "ميدو وشركاه" وقد آثرت هذا الاسم على غيره مما خطر لي، للدلالة على النحو الفكاهي فيها، فسمع بعض رجال البوليس أن "المازني" يطبع رواية غريبة الاسم في مطبعة صغيرة في حارة مجهولة، فارتاب في الأمر، وخشي أن يكون كتابًا سياسيًا يطبع سرًا، فداهم المطبعة بسرية من الجند والمخبرين، وجعل يسأل "يعني إيه ميدو وشركاه فهموني!" ولا يكلف نفسه عناء القراءة ليفهم، فأطلعوه على الإذن بالنشر، فانصرف ولم ينقض عجبه .

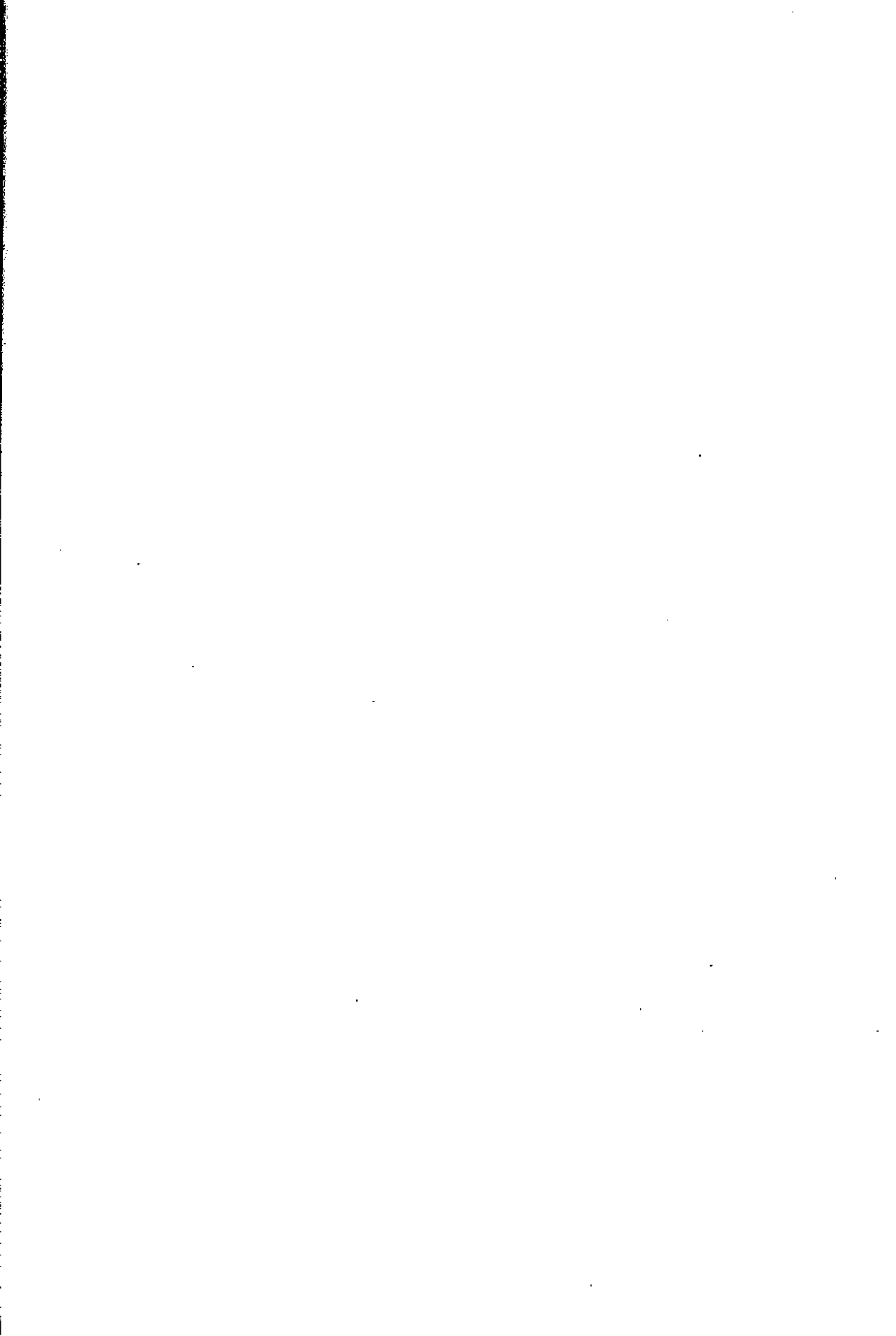
ووجدنا أن شراء الورق على نحو ما أشار صديقي قد كلف فوق ما كان في الحساب، وكنت أتلقى مسودة الملزمة من المطبعة لتصحيحها فأنساها هنا أو هنا، أسبوعًا، وشهرًا، وأعديت صاحب المطبعة بالنسيان فأخذه عني، وأسرف فيه، وكنت ربما أصبحت ذاكرًا، فأبحث عنه لأستعجله فلا أجده، وصار مثلي ومثله كمثل الذى قال فيه الشاعر أنه يذهب في أمر فيغيب حولاً ويسب العجلة، أو كالخادم الذى قال فيه ابن الرومي :

لي خادم ما أزال أحسبه   يغيب حتى يرده سغبه

والكتاب فى المطبعة منذ ثمانية شهور أو تسعة، وما أنجزنا منه إلا ثمانى ملازم أو تسعًا، ولولا أنى اعتدت أن أنظر إلى الأمور من ناحيتها المضحكة، وأتناول الحياة برفق، ولا أهول على نفسى، لطار عقلى من الغيظ. ولكنى أضحك وأقول "وافق شن طبقه" ووقعت الرحى على قطبها، وقد كان العزم أن أصدر كتبى واحداً تلو الآخر – كل بضعة أسابيع كتابًا – فالآن صرت أخشى على ما طبع من الملازم من الفيران وغيرها مما هو مغرى بقرض الورق، وسيتغير لون الورق، ويحول، فيخرج حين يقسم له أن يخرج أعجوبة الأعاجيب .

وأقول الحق إنى مللت الأمر كله، فلست أبالى أظهر أم لم يظهر، وأكبر الظن أنى سأدعه وآخذ فى طبع غيره، فإنه يخيل إلىَّ أن سراً خفيًا يعطل فلكه عن الدوران .

إبراهيم عبد القادر المازنى



عيـــوبى !(١)

لما تلقيت دعوتكم إلى الكتابة فى هذا الموضوع، حرت ماذا أصنع؟ أأعتذر؟ أم ألبى؟ فليس من الهين أن أكشف للناس عن كل هذا الحشد من العيوب ومواطن الضعف، وإنى لأعلم أن النقص أصل فى الإنسان، وأن الكمال – أو مراتبه – اجتهاد واكتساب، غير أن هذا العلم لا يسهل الأمر. وإن المرء ليشفق من مصارحة نفسه بعيوبه، فكيف بمصارحة الناس ؟

على أنى قلت لنفسى، بعد طول التردد، إن العيوب ضربان: واحد لى فيه حيلة، وفى وسعى علاجه، فأولى بى أن أضرب عن ذكره، وآخر لا حيلة لى فيه، لأنى لم أخلق نفسى، ولم أختر أبوى، ولا كان لى رأى فى بيئتى، فلا بأس من تناوله لأن العذر فيه واضح .

وأبرز عيوبى، فيما أعلم، أنى أعرف بها جملة وتفصيلاً، وأشد تفطنًا لها، وأعمق إحساسًا بها، من أن يسعنى الإغضاء عنها، أو مغالطة نفسى فيها، ويا ربما تعجبت للناس كيف يطيقوننى؟ وتثقل على وطأة هذا الإحساس فأحمل تسامحهم على محمل الكرم، فأتطامن، وأثور، فى آن معًا. أتطامن لأنى أرى الدنيا تتسع لى، ولا تضيق بى صدور الناس، وأثور لأنه لا ذنب لى فيما ابتليت به، ولأن "العطف" ثقيل، بغيض، لا يطاق إلا بمشقة، ولأن التمرد ضرب من الدفاع عن النفس، ووسيلة إلى إنصافها. وقد كان شعورى بعيوبى بعض ما أغرانى باعتزال الناس، على قدر ما يتيسر ذلك، والزهد فى مخالطتهم، ورياضة النفس على احتمال الوحدة الموحشة .

---

(١) نشرت فى مجلة "الهلال" فى مارس سنة ١٩٤٢ (ص٦٠–٦٣) .

وقد هيضت ساقي في شبابي، فظلعت، وما كانت لي في هذا رغبة، ولا كان من حق الناس أن يثقلوا عليَّ بفضولهم، فما بعجيب، ولا من ذنوب الإنسان، أن تكسر ساقه فتقصر، ولكن ماذا تقول في قلة الذوق؟ وصار الناس، كلما ركبت الترام، أو سرت في الطريق، يومئون إلى قدمي – فقد احتجت أن أجعل أحد الحذائين أعلى من الآخر، وأشبه بحذاء السيدات – ويتغامزون، ويتهامسون، كأنما يبصرون عجباً، أو يتحدثون عن تمثال لا يحس ولا يدرك، وقاومت ذلك زمناً طويلاً، ثم ضقت ذرعاً بهذا الفضول، فاتخذت سيارة. والآن، وقد تعطلت السيارة لأني لا أجد لها عجلات، فإني أواجه، واحتمل ثقل هذا الفضول مرة أخرى، والله المعين. وقد أورثني قلة حياء الناس وسوء أدبهم، خجلاً من لقاء السيدات، وخوفاً وفزعاً من أن يلقينني "بالعطف" عليَّ من جراء ساقي المهيضة. بل أورثني ما هو شر، فصرت بليداً متغطرساً، أغضي عن تحية من أعرف من السيدات، حتى يبدأنني هن بالتحية، ولا أقبل عليهن، بل أدعهن يقبلن عليَّ إذا شئن، وإلا فالله الغني، وعليهن السلام !

ويلي ذلك في المرتبة أني سريع النسيان، وهي آفة قديمة، أذكر أني بعد أن تخرجت في مدرسة المعلمين العليا، وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية، وكان ذلك في سنة ١٩٠٩ – اتفق معي زميل فاضل من أساتذة المدرسة، عرف كرهي للعلوم الرياضية ونفوري منها، وعجزي عنها، أن يعطيني كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، طبعة ليدن، وأن أعطيه ما نسج العنكبوت عليه خيوطه، أو بيوته، من كتب الرياضة عندي. وأصبح فجاء بالكتاب الذي وعدنيه، وظل يتقاضاني إنجاز وعدي إلى آخر العام – ومن يدري؟ لعله لا يزال ينتظر؟ وإن كانت مكتبتي خالية من كتب الرياضة .

وما ظنك بحياة رجل يصبح ذاكراً ويمسي ناسياً؟ كانت أمي – رحمها الله – تقول لي كل يوم – أي نعم كل يوم – "يا ابني ماذا أخذ عقلك؟" لأنها كانت تكلمني في الأمر صباحاً، فأقول لها، وأنا مشغول بارتداء ثيابي، مشفق من نسيان بعضها : "الظهر تعود إلى هذا". فإذا جاء الظهر استأنفت الكلام ووصلت منه ما انقطع، فلا أفهم عنها، وتحتاج أن تبدأ من البداية، والغريب أن أذكر هذا، فلماذا لا أذكر ذاك ؟

وكل كلام أسمعه يدخل من أذن، ويخرج من أذن، فكأن إحداهما مجعولة للتلقى، والأخرى للإرسال، ولكنى لا أنسى الصور مهما طال عليها الزمن، فكل ما تأخذه عينى يبقى ماثلاً، محفوراً على لوح الصدر، ويبقى هناك لا يذهب أو يبهت من ألوانه شىء، أما الكلام فيذهب كله، فذاكرتى يمكن أن توصف بأنها "فوتوغرافية".

وأحسب أن من كان هذا حاله لا يصلح للحب، فإن إنصاف المرأة المحبوبة يتطلب ذاكرة مؤاتية، لا غربالا واسع الخروق لا يمسك شيئًا .

وشر ما أعانيه من ضعف الذاكرة أني أنسى الأسماء، أول ما أنسى، حتى ليكبر في وهمي أنه سيجيء يوم أنسى فيه اسمي! ويغيب من أعرف، سنة أو سنين طويلة، ثم ألقاه فلا أنسى وجهه، ولكن ذاكرتي تخونني وتخذلنى فلا تسعفنى باسمه! وآه، إذا أقبل علينا ثالث، وصار الموقف يقتضى منى القيام بواجب التعريف !

وأقرأ الكتاب، ثم أنساه، ثم أراه على رفه فأستغرب، وأتساءل متى اقتنيته؟ وأعود إليه فكأنى اشتريته الساعة، وكأن عينى ما وقعت عليه من قبل .

وأهم بالرقاد، وأستلقى على السرير، وأشعل سيجارة، فيخطر لى معنى يبدو لى جميلاً، أو عميقًا، أو جديراً بالتدوين على كل حال، فأفرح، وأقول "فى الصباح نكتبه إن شاء الله" ولكن الله لا يشاء لي أن أفعل مع الأسف، ويطير المعنى الذى نمت به قرير العين .

ومن العجيب بعد ذلك أني أعتمد على الذاكرة! وأنى لا أدون أو أثبت شيئًا فى دفتر أو غيره! فإذا لم أكن أنا أحمق الناس، فمن ترى يكون غيرى ؟

ومن مزايا هذه الآفة ومحاسنها – فما في الدنيا شر صرف – أنى أنسى حتى غضبي، وحقدى، وموجدتى، وأنسى أحلامى فى منامى، فأصبح غير ذاكر شيئًا منها، فلا أعنى نفسى بها، ولا يقلقنى ما يزعج منها، وأنتقل من أية حالة نفسية إلى أية حالة أخرى بلا عناء، وفى أوجز وقت. بل تكفى كلمة واحدة لنقلى من حالة إلى أخرى. فأكون محنقًا مغيظًا فأسمع كلمة مضحكة، فأذهل عما كان قد استثارنى، وأذهب أقهقه !

وأنا أتفاءل وأتطير، وفي بيتي وجهان أكره أن أصبح عليهما، أحدهما وجهي أنا، والثاني وجه خادمة لا أذم عهدها، ولا آنس إلا بها، وإلا أحمد إلا خدمتها، ولكن وجهها أعوذ بالله منه! ومن أجل هذا لا أنظر في مرآة، وأحتال كل صباح حتى لا أرى وجه هذه الخادمة أول ما أرى، ومن عادتي أن استيقظ في البكرة المطلولة – قبل الفجر في الأغلب – وليس من اللائق أن أزعج أحداً في هذه الساعة المستحيلة، ولاسيما في الشتاء، فتراني أمشي على أطراف أصابعي – حافيًا – وأحسر عن وجه زوجتي، في رفق حتى لا أوقظها، وأتملى بالنظر إليها هنيهة، ثم أفرك كفي وأقول الآن لا بأس من رؤية أحد الوجهين الآخرين، أو كليهما !

ويشرح صدري جداً أن أرى الهلال في أول الشهر القمري، ومعي شيء من الفضة، وأوثر أن يحدث ذلك عفواً، لا عمداً، ولا بتدبير. وأستبشر بذلك، ويشيع في نفسي الاغتباط، وأحس أني أواجه الدنيا بأمل جديد، ولا أعرف تعليلاً لهذا الشعور، ولكني أرى القمر يحدث في البحر مداً، وأرى المرأة تتأثر به، وأعرف أن كثيراً من اللغات اقترن فيها لفظ القمر بمعنى من معاني الخبل والجنون، وهذا بعض ما عرفنا من أثره في الأرض وحياة الإنسان عليها. فليس من السخف أن أسر بهلاله، وأن أتقي إدامة النظر إليه في الليل .

ومن عيوبي التي تثقل على غيري، ولا تثقل عليَّ، إسرافي وجبني، فكل مال أفيده "يجب" أن تخلو منه يدي في أقصر وقت، وإلا شقيت، واضطربت أعصابي، أقول هذا جاداً، لا مازحًا، ومن أجل هذا جعلت وكدي كلما عدت إلى البيت أن أفرغ فيه جيوبي، هو مال مقضي عليه بالضياع على كل حال – قل أم كثر – فضياعه في البيت أولى وأرشد من إنفاقه في "الفارغ البطال" كما تقول العامة .

شهدنا مرة رواية لنجيب الريحاني موضوعها أنه ألفى نفسه مكرهًا على انفاق مائتي جنيه كل يوم، فحار كيف يفعل، فالتفتت إليَّ امرأتي وقالت "علمه!" قلت "يا امرأة هذا في الطباع، وليس باكتساب – موهبة من الله كالشعر والفلسفة وجمال الصوت، فلا تكوني جاهلة!"

وأما الجبن، فإني أشتهي كل ما يشتهيه البر والفاجر، ولكني أفطم نفسي، جبنًا، واستحياء، وإشفاقًا من سوء وقع الخيبة، فأنا كما يقول ابن الرومي :

"حريصًا، جبانًا، أشتهي - ثم أنتهي بلحظي جناب الرزق، لحظ المجانب"

وبعد فهل يكفي هذا القدر؟ إن كنتم تريدون الزيادة، فليس فيَّ بخل، فقد أوسعت نفسي بحثًا، وتمحيصًا، وأرحت الملكين الموكلين بي - لإحصاء خيري وشري، وحسناتي وذنوبي! أو لعلي غالطتهما !

إبراهيم عبد القادر المازني

من أخلاق الناس[1]

حدثني بعض الإخوان أن رجلاً نعرفه لا يزال يغضب لكرامته غضباً شديداً في مجالس زملائه وأنداده، فهم معه أبداً في هم مقيم مقعد، فتذكرت أني رأيت هذا الرجل الماجد الكريم في مجلس يدعى إلى التليفون لمحادثة وزير، فينتفض قائمًا كالجندى دخل عليه قائده، ويتناول السماعة بيد، ويدخل زرار السترة في عروته باليد الأخرى، وصار ابتسامنا قهقهة لما رأينا ان كل ما يجيب به هو "تمام يا أفندم! حاضر يا أفندم!" وكان يسمع ضحكنا ويهمله، لفرط التزامه ما يقتضيه خطاب وزير من الأدب وحسن الإصغاء، فلما فرغ خيل إليَّ أنه تشهد، فقد فك الزرار وانحط على الكرسي، ثم أطلقها ضحكة عالية مقرقعة وقال : "إحنا جماعة فلاحين واخدين على احترام الحكام!" .

ثم دار الزمن، وقسم له أن يكون يومًا ما، واحداً من هؤلاء "الحكام" فكثر غضبه، وتلاحقت ثوراته، وشقي به زملاؤه، ولم يطل عهده بالحكم، ولكنه بلغ مرتبة الذين يرجون ويخافون، ويقف "المحكومون" في حضرتهم مؤدبين، فخرج من طبقة "الرعية" التي ينبغي أن تلتزم حدود الطاعة، وتروض نفسها على طول الاحتمال، وتؤدي واجب الاحترام، ولو نفاقًا، لطبقة "الحكام" التي دخل فيها. وذاك حسبه! حتى وسعه بعد ذلك أن يستغني عن الحلم وحسن المواطنة .

وذكرت بصاحبنا هذا غيره، وغيره [لما] عملت زمنا في جريدة "السياسة" فاحتجت يومًا إلى بيان حقيقة، ففعلت، وبعد أيام، دخل عليَّ في مكتبي فراش النادي

---

(١) نشرت في "البلاغ" في ١٤ مارس سنة ١٩٤٣ (ص٤) .

– نادى الأحرار الدستوريين وكان فى نفس البناء – وكان يلبس بدلة مزركشة تشبه ما كان يلبسه "قواصو" المفوضيات والقنصليات الأجنبية، قبل إلغاء الامتيازات، وقال لى : "فلان بك يدعوك إليه" فتعجبت، فما كنت أعرف هذا البك، فقلت له : "خله يتفضل" فذهب وعاد يبلغنى إنى أنا المدعو إلى النادى لمقابلة هذا البك، فزاد تعجبى لهذا الرجل الذى يرى أنه يجب أن أسعى أنا إليه، وآثرت الحلم، فصرفت الفراش بإشارة، وأهملت البك ودعوته، وبعد دقائق أقبل البك نفسه، بطولة وعرضه، وجبته وقفطانه وعمامته المكورة، وقال – على سبيل الاعتذار – إنه إنما كان يدعونى ليشكرنى! لأنى دافعت عنه ضمنًا حين بسطت الحقيقة التى أشرت إليها، وعلى وجهها، فكدت أخرج عن طورى، من الغيظ، ولكنى أفهمته برفق إن هذا حال مقلوب، وإن كونه عمدة ومن البكوات لا يمنع أن عليه هو أن يسعى إلى من استحق شكره، وقلت له إنى لا أعرفه، ولم أقصد إلى الدفاع عنه، وأن أمره كله لا يعنينى، وما قصدت إليه هو تصحيح ما نشر مشوها عن عمل من الأعمال العامة. فانصرف متعجبًا، وعلمت فيما بعد أنه كان يريد أن يعطينى مما أعطاه الله مكافأة لى على حسن صنيعى معه، ودفاعى عنه !!

ووقعت بينى وبين أحد رجال الدولة، فى فترة من فترات العمل فى الصحافة، خلافات شديدة لم يكن لها آخر، وكنا نلتقى كل يوم فنختلف، وضاق كلانا بصاحبه ذرعًا، ولم أكن أتعمد أن أخاشنه، ولكنى على فرط رغبتى فى محاسنته وإيثارى [للمساناة](٢) لم أكن أرى أن فى وسعى أن أسايره، وكان لا يرضيه إلا ذلك، ولم يكن هذا فى طاقتى، فلما تفاقم الأمر بيننا واستحال الاتفاق، نفضت يدى من العمل واستقلت فما بقيت لى حيلة غير ذلك، ومضت شهور، واتفق أن عزا بعضهم إلى نفسه عملاً طيبًا لهذا الرجل الذى أتعبنى، فكرهت هذا الظلم وكتبت أرد الحق إلى صاحبه، ولم أوقع المقال، فبكر الرجل إلى صاحب الجريدة التى نشرت مقالى ليشكره، وأدهشه أن يعلم أنى الكاتب، ولم ينقص عجبه لذلك، لأنه يتوهم أن طول خلافى معه يحول بينى وبين إنصافه، وأن الحق يكون تارة حقًا، وتارة باطلاً، على حسب العلاقة الشخصية !

---

(٢) هكذا فى الأصل .

وممن بلوتهم أيضًا رجل كانت صلتي به على أوثق وأطيب ما تكون، ثم افترقنا لسبب لا يرجع إليه، وبذل هو أقصى جهده لإقناعي بالبقاء معه، ووسط بعض كرام الإخوان والزملاء، ولكنى أنكرت من غيره أمورًا فى سلوكه معى لم أطق عليها صبرًا، فتركت العمل غير آسف إلا على فراق هذا الصديق الكريم الذى لا أزال أحمد عهده وأشكره، وأعده من خير ما مر بى، وأولاه بحسن الذكر .

ودارت الأيام، وحدث ما عده أحد المعارف، خطأ، تقصيرًا من صديقى فى حقى، أو غمطًا له، فعاتبه فى ذلك على غير علم منى أو موافقة، ثم انقلب إلىَّ يروى لى الخبر قال : "قلت له كيف تتخطى المازنى وهو كيت وكيت" .

قال : "هل تريد أن تعرفنى بالمازنى؟"

قال : "إذن كيف حدث هذا؟"

قال الراوى فضحك الصديق ثم قال: "يا أخى وما العمل؟ إن المازنى رجل طيب عفيف اللسان لا يشتم أحداً ولا يخيف أحدًا" .

قال الراوى : "فاستغربت وأنكرت أن تكون العفة والخير من ذنوب الناس!" .

ولكنى أنا لا أستغرب، فقد وطنت نفسى من زمان طويل على أن يكون جزاء الإحسان غير الإحسان، ولم أتعقب الموضوع ولم أحاول أن أستثبت، وأغنانى الواقع من سلوك الصديق فى أمور أخرى عن الحاجة إلى التبين، ولست ابالى هذا كله أو أعبأ به شيئًا إلا من ناحية الدلالة المستفادة منه على طبيعة النفوس، ورحم الله ابن الرومى فقد كنت أتهمه بالإسراف والشطط فى قوله :

والناس إن فكرت من طينةٍ	يصدق فى الثلب لها الثالبُ
لولا علاجُ الناس أخلاقهمُ	إذن لفاح الحمأ اللازبُ

ولكنى الآن لا أراه قال إلا حقًا .

ولم يصب صديقي، عليه السلام، في قوله عني إني رجل طيب لا أشتم ولا أبسط لساني في الناس، فما أنا بخير من غيري، وإنه ليغريني ما يغري سواي بالسلاطة، ولكني رضت نفسي على غير ما كان مني في صدر حياتي ولست أرى الآن أن أبادر الناس بالعدوان، ولن كفاني شره حقيق أن أكفيه شري، ولعلي لو كان لي مأرب لا ينال إلا بطول اللسان والتوقح لأطلته وتوقحت، فما تسهل العفة مع الشهوة، ولك أن تقول أن بي كسلاً عن التهجم الذي لا موجب له أو لا خير فيه أو ترفعًا إذ شئت، أو استغناء ورحم الله ابن الرومي مرة أخرى فقد ذمه بعضهم وهجاه، فقال أبياتًا في بعضهم هذا - فقد نسيت اسمه - يتمنى فيها أن يرزقه الله بمن يهجوه عنه - بدلاً منه - "فبي عن عرضه كسل" .

وقد أكرمت نفسي بإقصائها عمن كرهت من سيرته شيئًا، فكيف أرجو أو أرتقب أن يذكرني ولا ينساني من لا أراه ولا يراني؟ على أني مع ذلك أحسب أن الوفاء طباع لا اكتساب، ومثلها الكرامة، وليس بكريم أو سيد من تشتمه فيقربك ولا يزال دائبًا بعد ذلك يخلق الفرص خلقًا، ليتملقك ويرضيك .

وأكبر ظني أن طول ما منيت به مصر من عصور الظلم والاستبداد قد أورث أبناءها هذه الأخلاق. ومن السهل أن تعلم الناس كل ما يعلم، أو أن تبعث بهم إلى أوربا ليرووا هناك شرعة العلم، ولكن ميراث القرون الطويلات المدد لا يمحوه ويعفي عليه، إلا عصور طويلات أخرى من الحرية والإيمان بالحق والثقة بالعدل واحترام الكرامة الإنسانية، ليتسنى طبع النفوس من جديد على أخلاق الأحرار .

إبراهيم عبد القادر المازني

ذكــريات[1]

كان أحد أساتذتنا في مدرسة المعلمين العليا – كما كانت تسمى فى ذلك العهد البعيد – لا ينفك كلما عرضت مناسبة، ينفى لنا أن الإنسان يولد مفطوراً على الشر. وكنت – لما وقر في نفسي من توقير المعلم – أصدق هذا ولا يخطر لى أن أكابر بخلاف فيه على الرغم مما لقيت في حداثتي من الشر الكثير والأذى الشديد من بعض أهلي خاصة، بل من أقرب ذوى قرابتي وأولى خلق الله بأن أكون عندهم موضع الرعاية والتعهد والإيثار بالخير، ولكنى كنت صغيراً لا يطول تفكيرى ولا يعمق، وكانت أمى قد عودتنى أن أتلقى ما تجيء به الأيام بالجلد والتشدد والأنفة من الشكوى أو إظهار الألم أو الضعف، وحسن التوكل على الله والصفح عن المسيء. وكان الصفح أثقل ما أرضى عليه نفسي، فقد كان الانتقام – أو الانتصاف – فى طباعى. ولكن أمى كانت تصدنى عن ذلك، وتفيء بى إلى الحلم والصبر والتجاوز، وكان أخى الأكبر رحمة الله قد أفقرنا وضيع ما ترك لنا أبونا وجدنا، ثم أهملنا ونسى أننا على قيد الحياة، فلولا أن رجلاً فيه ذمة وتقوى رد لنا مالاً لأبى كان وديعة عنده، لما أمكن حتى أن أتعلم، ما زلت كلما ضاق صدرى بالشر فى الدنيا أذكر هذا الرجل الأمين فيردنى ذكره إلى حسن الظن، وسجاحة الخلق، ويطيب لى أن أعرّف الناس به وإن كان قد انتقل إلى رضوان ربه، فهو المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة من هيئة كبار العلماء، ووالد الشيخ أحمد بصيلة من رجال القضاء الشرعى الآن .

وكنت أؤدى نفقات التعليم فى المدارس، ولم تكن جسيمة، ولكنها كانت على قلتها وهوانها على سواى، عبئًا علينا فى ذلك الوقت، فأقبل علينا ذات يوم واحد من أقرب

---

(١) نشرت فى "البلاغ" فى ٤ إبريل سنة ١٩٤٣ (ص٤) .

أقربائنا وقال إنه اتفق مع ناظر المدرسة - وكان صديقًا لوالدى - على السعى لإعفائى من نفقات التعليم، إذا طلبنا ذلك، على أن ندفع له "قرشين"! فاستغربنا فقد كنا نعرف أن الناظر نزيه عفيف، ولكن قريبنا لم يزل بنا حتى نزلنا على رأيه، وأنقدناه الرشوة المطلوبة! ولا أحتاج أن أقول أن هذا كله كان "نصبًا" من القريب الفاضل لم يستح منه حتى بعد أن افتضح، وقد شق عليَّ الأمر يومئذ - من وجهين، أنه رمى الناظر الطيب الكريم بما ليس فيه وأنه سلبنا مالنا ونحن أحوج ما نكون إليه، ولكن أمى لم تزل تداورنى حتى فاءت بى إلى سكينة النفس والإغضاء عما كان، وقالت لى ما معناه إنه ما ضاع من مالك ما علمك، وأنه أكرم لى أنى لا أتعلم بالمجان. وأنه خير لى أن أتبين أن الناظر نزيه شريف، وإنها كانت حقيقة أن تكون نكبة لو تبينا أن الناظر مرتش سافل. فجملة الخير هنا أرجح من جملة الشر .

فاعتدت بعد ذلك هذه الموازنة بين الخير والشر فى كل ما يعرض لى فى حياتى والفضل لهذه الأم التى لا ينقضى عجبى لها كلمة تذكرت سيرتها معى، وما أوتيت من حكمة الطبع وأصالة الرأى .

والشر الذى لقيته، على كثرته، شر ضئيل الشأن لا ينبغى أن يجاوز أثره يومه إلا إذا شاء المرء أن يهول به على نفسه، ولهذا تعودت أن أنساه أو أتناساه وأكبح لسانى عن الدوران به، إلا أن يكون فى ذكره خير، أو فائدة تستفاد، أما الخير الذى كان من حظى أن أفوز به فكان - على قلته - أبلغ أثرًا فى حياتى .

وقد ذكرت الشيخ بصيلة عليه رحمة الله، وأحب هنا أن أذكر شيخًا آخر لا أنسى مروءته، التى يزيد فضله فيها أنه تطوع لها وتبرع بها على غير موجب، أو معرفة. وكنت يومئذ مدرسًا فى المدرسة الخديوية الثانوية، فنقلتنى الوزارة إلى دار العلوم مدرسًا للغة الإنجليزية مع ثلاثة آخرين من مدارس شتى، اثنان منهم إنجليزيان، فلما ذهبت إلى دار العلوم استقبلنى الطلبة بحفاوة تعجبت لها، ثم علمت أن المرحوم الشيخ أحمد السكندرى وكان أستاذًا بها ما كاد يعلم أنى منقول إلى دار العلوم حتى راح يثنى عليَّ، ويذكرنى للطلبة بما لا أستحق، ويصفنى بما أستحيى أن أثبته هنا. ولم يكن

لى فى باب الأدب يومئذ، سوى مقالات نشرت فى مجلة "البيان"، وبضع قصائد وكلمات فى "الجريدة" وغيرها من الصحف. فأكبرت الشيخ السكندرى وطبت نفسًا بالعمل فى مدرسة من أساتذتها مثل هذا الرجل العجيب المروءة .

واتفق يومًا أن جاءنى أحد المدرسين الإنجليز - وكانت بيننا صداقة - وقال لى :

"إنى يئست!"

قلت : "لماذا؟"

قال : "كنت أعتقد أنى رجل أحسن التدريس، ولكنى فشلت. وأرانى عاجزًا عن ضبط أمر الطلبة أو إفادتهم".

وقال لى فى شرح ذلك إن الطلبة ينتظرون منه أن يبين لهم ويفهمهم لماذا اختلفت صيغ بعض الأفعال فى الماضى عن صيغها فى المضارع على خلاف القاعدة وضرب مثلا بالفعل يجلس sit فإن صيغة الماضى هى sat والطلبة يريدون أن يعرفون لماذا تغير حرف العلة على هذا النحو، ولا سبب هناك، فإن الأمر كله سماعى .

فضحكت وقلت له : "لقد خيبت أملى فما أراك أفدت شيئًا من كل ما تعلمت من اللغة العربية ونحوها وصرفها إلخ" .

فاستغرب وسألنى : "وما دخل اللغة العربية فى هذا؟"

قلت : "يا مولانا ألم تتعلم أن قال أصلها قَوَلَ، وأن الواو فتح ما قبلها فصارت ألفا؟"

قال : "نعم، ولكن هذا كلام حفظته على علاته"

قلت : "إن الطالب الذى تعلم - وصدق- أن قال أصلها قول، مستعد أن يصدق أيضًا ويفهم عنك أن حرف العلة فى الإنجليزية فتح ما قبله فصار ألفا، وأن يقتنع بذلك أيضًا"

قال : "هل تتكلم جادًا؟"

قلت : "جاداً أو هازلاً – سيان – إنما أبين لك كيف تستطيع أن تقنع الطلبة بالتسليم بالأمر وتريح نفسك من العناء الذى تشكوه" .

وقد كان، وفرح الرجل .

وجاءنى الشيخ السكندرى عليه رحمة الله ولامنى فى ذلك وعاتبنى عليه أرق عتاب وأكرمه، فقصصت عليه الخبر، فابتسم وقال : "ولكن صاحبك زادها، وتوسع فى هذه المقارنات إلى حد جعل اللغة العربية أضحوكة الأضاحيك" .

فوعدته أن أكبح من جماح صاحبنا الذى كان قد استحلى هذه المقارنات فلج فى عقدها. وخلا بى مرة أخرى فقال لى: "إنى لا أرضى أن يقول عنك أحد أنك سئ الأدب" .

فوجمت، ولكنى كنت أعرف عطفه علىَّ وحبه لىَّ، ولا أنسى مروءته معى، فسألته عن السبب فقال إن الناظر – وكان مصريًا – شكا إليه أنى أحتقره، وسرد ما زعم الناظر أنها مظاهر احتقارى له، وكان هذا كله كذبًا، فرجوت منه أن يصحبنى إلى الناظر لأعتذر له، فلما صرنا إليه وأخذنا فى الكلام تبين الشيخ السكندرى أن كل ما زعمه الناظر لم يكن سوى تجن واختراع، فما راعنى إلا ثورة الشيخ السكندرى على الناظر، وقوله له وهو يوبخه: "يا رجل ألا تتقى الله؟ تقول لى كلامًا يحملنى على اتهام هذا الرجل الفاضل بقلة الأدب؟ كيف أريه وجهى بعد اليوم؟ كيف أكفر عن ذنبى إليه؟" إلخ .

فهونت عليه الأمر حتى هدأت ثورته، ولكنه ظل إلى آخر عهدى به لا يلقانى إلا اتقد وجهه المشرق الديباجة، كأنما كان قد أساء إلىَّ، وهو صاحب فضل كثير علىَّ، علمنى وأنا صغير – فى المدرسة الابتدائية – وأحسن إلىَّ وأنا كبير إذ أنا معلم معه، وما ذكرت قط على مسمع منه إلا ذكرنى بخير، ولا ظهر لى كتاب فى حياته إلا بعث إلىَّ بما يسرنى ويشجعنى .

وقد يكون الناس مفطورين على الشر، ولكن فيهم أخياراً إذا كانوا قلة فهم يرجحون عندى بكثرة الأشرار .

إبراهيم عبد القادر المازنى

أسئلة وأجوبتها[1]

يحمل إليّ البريد فى هذه الأيام رسائل كثيرة عن بعض ما فى كتابى الجديد "عود على بدء". وخليق بالإجابة عن بعض ما أسأل عنه أن تجلو أموراً تحتاج إلى الجلاء .

على أنه يحسن بى أن أقول على سبيل التمهيد أن فكرة الكتاب لا جديد فيها ولا ابتكار، فكل من جاوز الشباب يحلم به وبالطفولة، وأقاصيص العجائز حافلة بذلك، وقد قصت زوجتى علىّ إحداها - كما ورد فى الكتاب - وكان ما سمعت منها هو الذى أوحى إلىّ فكرة الكتاب، وأخطرها ببالى وأغرانى بها .

وقد عثرت منذ بضعة أيام على كتاب للمستر ثورن سميث اسمه : (The Glorious Pool) . وخير ترجمة لهذا الاسم "عين الحياة" لأن الكاتب يزعم أن هذه العين أو البركة ترد المرء شاباً إذا استحم بمائها، أو سبح فيها، بل هو حقيق إذا طال مكثه فى مائها، أن يظل يصغر حتى يعود جنيناً، فالحذر واجب إذن !

وما زال مطلب الإنسان أن يحيا أتم حياة وأرغدها، وهو يتوهم أن ما استدبر خير مما يستقبل، وكلما شارف الختام زاد حنينه إلى الماضى، وبدا له هذا الماضى أبهى وأفتن وأحمد من الحاضر، وليس هذا بصحيح فى كل حال. وليس فى الحياة مع الأسف أو لحسن الحظ، رجعة ولا توقف .

ويحسبنا هذا التمهيد الوجيز .

* * *

(١) نشرت فى "البلاغ" فى ١٨ إبريل سنة ١٩٤٢ (ص٤) .

وقد سئلت عن كثير، وهذا بعضه :

سألني أحدهم عن "الشيخة صباح"، وقال بعضهم لابني الأكبر – محمد – إن أباك لابد أن يكون هرمًا جدًا لأن الشيخة صباح توفيت من زمان بعيد بعد أن بلغت سنًا عالية، فإذا كان أبوك قد أدركها فإنه لابد أن يكون قد جاوز التسعين أو بلغ المائة .

وإذا كان العمر بالإحساس فإني كما قلت قديمًا – قبل ثلاثين سنة – فيما طبعت من شعري :

أحس كأن الدهر عمري وأنني   أخو مغرق الأرضين بالفيضان

أي نوح. وإن كنت أحس أحيانًا أني أصغر من بني. أمّا الشيخة صباح فشخص حقيقي، ولكني لم أرها ولم أعرفها، وليست هي المعنية في كتابي وإنما كان اسمها هو الذي خطر لي لأني سمعت بها من أمي، وقد حدثتني عنها ووصفتها لي بالتقى والورع، والكرم وطيب السيرة، وقالت لي إن أبي كان صديقًا لها وكان يوقرها، ويكبرها ولا يفتأ يزورها في طنطا ويقضي في ضيافتها أيامًا لا لأنها شيخة أو ولية من أولياء الله، بل لأنها سيدة فاضلة بخير معاني الكلمة. وهذا هو الذي جعلني – بعد أن استعرت اسمها – لا أذكرها في الكتاب إلا بخير ولا أخلع عليها إلا كل وصف حسن وكل ما وصفتها به متخيل كما لا أحتاج أن أقول .

فهذا جواب السؤال الأول .

وكتب إلي أديب فاضل يبين الفرق بين "الواقع المطلق" و"الواقع المقيد" ويذهب إلى أن "المطلق" أولى بعناية الفنان لأن الواقع الخاص أو المقيد بزمنه قد تخفى دلالته على الأجيال المقبلة، وضرب مثالا لذلك ما ورد في الكتاب من ذكر لزمارة الإنذار، ولعبة اليويو .

وأنا أشكر للأديب الفاضل بيانه هذا، ولكنه لا يسعني إلا أن أعترف بأني عاجز عن التفريق بين واقع مطلق وواقع خاص أو مقيد بزمنه، ولست أدري كيف يستطيع إنسان محدود أن يخرج من زمنه. بل إن لفظ "المطلق" لا معنى له عندي، أو قل إن

مدلوله غامض غير واضح، على أنى لا أحب المكابرة، فأنا مستعد أن أفهم رأة [illegible] إذا تفضل علىَّ أحد بالبيان المقنع .

وقد ذكرت فى كتابى زمارة الإنذار وكان يمكن أن أذكر غيرها، مما يفعل فعلها فى النفس، فلا قيمة لزمارة الإنذار، بمجردها، وليس القصد إليها بالذات، وإنما المراد هو نشوء حالة تثير الخوف أو الجزع أو الإشفاق أو الاضطراب، فزمارة الإنذار هنا عرض يستطيع القارئ أن يضرب عنه صفحًا. أما الجوهر والذى إليه القصد فهو الحالة التى يعقل أن تجعل المرء يوجس شرًا. وعلى هذا يمكن أن نعد إمكان نشوء الخوف أو الجزع من الواقع "المطلق" إذا كانت "زمارة الإنذار" من الواقع المقيد بزمنه. وأحسب أن هذا هكذا فى كل شىء. ونجارى الأديب الفاضل فى تفريقه بين "الواقعين" فنقول إن الحب فى ذاته من الواقع المطلق، أى مما يقع فى كل زمان ومكان ولا ينفرد به جيل دون آخر، ولكن حب رجل معين لامرأة معينة فى مكان وزمان معينين من الواقع الخاص أو المقيد. وليس المهم فى قصة تدور على الحب أن فلانًا أحب فلانة وإنما الذى له قيمة هو أن الحب حصل، وكانت له دواعيه ونتائجه المعقولة المنطقية، وأحوال الزمان والمكان هى التى تتيح لهذه العاطفة أن تنشأ بين إنسانين على التعيين. وليس فلان الفلانى أو فلانة، بمخلوق مطلق، وليست الأحوال الخاصة التى تجمع بينهما وتؤلف بين قلبيهما بأحوال مطلقة. وإنما المطلق - إذا كان لهذا اللفظ معنى - هو قانون الحياة الذى يفعل فعله كلما تهيأت الأسباب لذلك .

ومثل هذا يقال عن تشبيه اضطراب القلب بلعبة "اليويو" وهى كرة صغيرة مشدودة إلى حبل مطاط، فلا تزال تعلو وتهبط، وفى التشبيه مبالغة ولا شك، والمبالغة هنا مقصود بها لفت النظر إلى شدة الاضطراب والذى أعرفه أن التشبيه لا يكون إلا بمعهود، وما زلت أجهل كيف يكون التشبيه بما لا يتقيد بزمان أو مكان. بل أنا من الجهل بحيث لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يكون شىء فى هذه الدنيا غير مقيد بزمان أو مكان .

وأحب أن أقول في ختام هذه الكلمة أني لا يخطر لي مطلقًا أن أكتب للأجيال المقبلة، وأنا أومن إيمانًا مستغرقًا لنفسي أن الأجيال المقبلة ستستغني عما خلفت لها، وأنها ستجتزئ بمن سينجبه زمانها، وأنا ابن زمني، فهو أولى بي، وأنا قانع به، وراض عنه، وليته هو يرضى عني ويقنع بي !

إبراهيم عبد القادر المازني

حديث الأحد : من ثمرات العصور الماضية[1]

أشهد أن "الصدق" متعبة، وأنت تعتاده إذا كانت نشأتك طيبة و"حرة" على الخصوص، وأعنى بكونها حرة أن أهلك لم يربوك بالخوف، ولم يحوجوك بسلوكهم معك إلى الحذر والتقية والمكر وتوقع الغدر بك والقمع لما عسى أن يبدو من ميولك ونزعاتك، ولم يحملوك على ما يشبه اليأس من العدل والخير والشك في قيمة الحق - يقابل هذا من الطرف الآخر الإغراق في التدليل وما هو خليق أن يورث من فساد. وليس اعتياد الكذب بأسهل من اعتياد الصدق ولكنك تعتاد هذا أو ذاك فتنشأ عليها ويصعب عليك مطلب ضده، إلا إذا أدبت نفسك أدباً جديداً وهذا يتطلب رياضة طويلة وإرادة ثابتة. والمعول الأول في هذا كله على الأم فإنها ألصق بالبنين وأوثق اتصالاً بهم من الأب، ولو كان الأمر إليّ في هذا البلد لعنيت بتربية البنت قبل العناية بتربية البنين فما أشك في أن هذا أقوم طريق للإصلاح .

تعتاد الصدق - كما قلت - فتلفى نفسك في بلد معظم أهله قد ورثوا من آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم سوء الظن بالناس، وخاصة بكل ذى شأن أو سلطان، وهذه هى الثمرة المرة التي أجناها إياها عهد الاستبداد الظالم الطويل الذي عانيناه فيما مضى، ومن السهل جداً أن تعلّم الأمة كل ما في الدنيا من علوم ومعارف فما بك حاجة إلى أكثر من المال والوقت، ولكنه ليس من السهل أن تقتلع الجذور المعرقة التى غرستها عصور الظلم الماضية. وليس يكفى أن تقرر العدل وتقيم قواعده بين الناس ولا حتى أن تقنعهم بأنك تلتزمه ولا تحيد عنه قيد شعرة، بل لابد أن تقنعهم بالعطف

---

[1] نشرت في "البلاغ" في ٤ مايو سنة ١٩٤٣ (ص٣) .

عليهم والرحمة لهم وصدق السريرة فى إرادة الخير بهم، وإلا أساؤوا الظن بعدلك الذى تحرص عليه وسلكوه والظلم فى نظام واحد .

ولست أكتب بحثًا اجتماعيًا ولكنى لا يسعنى إلا أن أعذر المصرى حين أراه يتوجس ويستريب ويأبى له ما ورث من آبائه أن يطمئن إلى إخلاص الغير – ولا سيما الحكام منهم – أو يثق بهم أو يحمل ما يكون منهم على محمل حسن. وقد طرحت مصر نير الاستبداد القديم، وقام فيها حكم عادل على الجملة وأطلقت حرية الرأى والعمل في حدودها الرشيدة وجاء الدستور بحكم الأمة لنفسها بنفسها، ولكن الرجل من الأوساط العاديين فى قريته ما نصيبه من كل هذا الخير ؟

إنه لا يزال يظلم ويهان – يضربه ويهينه ويظلمه العمدة وشيخ البلد وكل ذى جاه أو نفوذ فى القرية، ويضربه ويهينه ويظلمه رجال الإدارة والصحة ومن إليهم من أكبرهم إلى أصغرهم، ويضربه ويهينه ويظلمه المعلم فى المدرسة والأب والعم والخال والأخ الأكبر فى البيت. يقول الحق فيضطهد، ويعالن بالرأى الذى يراه فيؤذى، ويشكو فلا يجد منصفًا، ويطلب فلا يفوز بحقه، ويكد ويشقى ثم يمطل أو يسلب جزاؤه، ويتلفت فإذا الذى يفوز بالطيبات القوى أو الغنى أو المنافق. أفغريب بعد ذلك أن تراه ينزع إلى سوء الظن والحذر ويؤثر فى سلوكه مع الناس المكر والكذب، وينطوى على مخبر يخالف مظهره؟؟. حدثنى محام قال إن الفلاح لا يعترض على أى شرط تشترطه فى عقد الإيجار ولا يحجم عن التوقيع أو الختم أو البصم، مهما بلغ من قسوة الشروط وما فيها من الحيف عليه لأنه موطن نفسه من البداية على نقض كل هذه الشروط وهو ذكى واسع الحيلة. قلت فإن له لعذره – أعطه العدل وأذقه طعم الرحمة وانظر بعد ذلك كيف يكون .

وهنا فى المدن كيف الحال؟ لا أدرى ولكن الذى أدريه أن الولد يذهب إلى المدرسة فيعامله بعض المعلمين كما يعامل مأمور المركز الفلاح العامل فى الحقل – بالضرب والشتم القبيح والظلم. والتلميذ الصغير يخطئ ويطيش، ومن أولى منه بالعذر؟ وهو ذاهب إلى المدرسة ليتعلم لا لأنه متعلم مجرب. ومع ذلك يعاقب على الخطأ والجهل

والطيش ولا يجد - إلا في الندرة القليلة والفلتة المفردة - من يعالجه بالإفهام برفق وأناة .

حدثني بعضهم قال: "عاد ابني يومًا من المدرسة وهو يبكي، والدم يسيل من ساقه، فنهيته عن البكاء، ومسحت له دموعه، وسألته عن الجرح ما سببه؟ فقال إن المعلم سأله عن كراسته فقال له: "إن أبي أخذها مني البارحة ليراجعها ونسي أن يردها إليّ ولا أعلم أين وضعها". وكان هذا صحيحًا فما كان من المعلم إلا أن ركله برجله - عاقبه على خطأ أبيه - فأحدث له هذا الجرح. فطهرته بصبغة اليود وسألت الله في سري أن لا يكون حذاء الأستاذ الفاضل ملوثًا. وفي صباح اليوم التالي كتبت إلى الناظر كلمة في هذا لا على سبيل الشكوى بل لمجرد لفت النظر إلى قبح هذه المعاملة وسوء أثرها ورجوت منه أن لا يعد هذه شكوى تستوجب تحقيقًا ومؤاخذة ولا أكتمك إني خفت إذا أنا أجريت الأمر مجرى الشكوى الرسمية أن تكون النتيجة أن يحقد المعلم على ولدي فيضطهده فيكون ولدي هو الخاسر .

وقد كان الناظر الفاضل عند ظني فاعتذر وأسف وبعث إلى المعلم ليعتذر. وقد هالني حين جاءني المعلم أن أراه كالفيل الصغير فابني إلى جانبه فأرة. وهالني أيضًا أن أسمعه يعتذر بعبارة ذليلة وهالني أخيرًا أن يخبرني أنه، وهو تلميذ، ضربه معلمه فأحدث له عاهة وأفقده الانتفاع بأحد أصابعه، فلم أعد أدري ماذا أقول له، فصرفته بسرعة وحدثت نفسي لما خلوت بها أن تعليمًا يتولاه أمثاله لا يمكن أن يثمر خيرًا .

أقول وصاحبي هذا على حق، فإني أنا أيضًا أعالج أن أصلح ما تفسده المدرسة، وأحسب أن الحظ أعفاني من كثير من أسباب الشكوى والتذمر، ولكني مع ذلك لا أعدم أن أقع على ما أنكر وأستهجن. مثال ذلك أن التلاميذ دعوا أمرة إلى الاشتراك في رحلة إلى السويس، فطلب ولداي أن يشتركا فأجبتهما إلى ذلك، فأديا قيمة الاشتراك، وفي صباح اليوم المعين ذهبا إلى المدرسة ليركبا السيارة فتعجل الموكل بالرحلة وتحكم، وأخذ أحد الولدين وترك الآخر كما ترك غيره، لا لضيق في السيارة أو اكتظاظ بل لأن صدره ضاق بالأطفال. وفي الطريق الطويل - وهو يقطع في قرابة ساعتين -

بدأ الأطفال يتلاغطون على عادتهم، فنهرهم وزجرهم وألزمهم الصمت طوال الطريق، وهو عسير على الرجال فكيف بالأطفال؟ وهذه رحلة للرياضة والنزهة! وبلغوا السويس فأوصد الباب - باب السيارة - على الصبية وقضى عليهم بالبقاء فيها لا يبرحونها وهددهم وأنذرهم وذهب هو إلى شاطئ البحر ليستحم ولما انقضى النهار وقضى هو وطره عاد بالأطفال في السيارة التي لم يغادروها مذ ركبوها ..

وجاءني الولد يشكو فقلت له ضاحكًا إنه كان يدربكم على ضبط النفس، فلم يقتنع الولد بهذا الكلام الفارغ، وظل يسأل لماذا ذهبنا إذن إذا كان علينا أن لا نتكلم ولا ننزل من السيارة ولو لقضاء حاجة فلم يسعني إلا أن أعترف له أن الموكل بالرحلة كان سخيفًا وأن أدعو الله أن يوكل بغيرها في المقبل من الأيام أو الرحلات .

أظن أني معذور إذا قلت أنه لا الحال في القرى ولا في المدن يساعد على اعتياد الناس الصدق والذمة والثقة المتبادلة. ولهذا يتعب الصادق المخلص أليس هذا كذلك ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

السيارات والحمير[1]

ترى ماذا يصنع الموسرون والمترفون، ومحدثو النعمة إذا ظلت الحرب تدور بضع سنوات أخرى، وعزت أسباب الترف، وتعطلت السيارات ؟

سؤال سألنيه أخ كريم قبل يوم أو يومين، فخطر لى أن لعل الأمر يكون أشق وأثقل على محدثى النعمة منه على سواهم، فإن هؤلاء همهم المظهر، وبه سرورهم، وعليه حرصهم، وإنك لتستطيع أن تعرف الرجل وقرب عهده بما هو فيه من خير وثراء، من نظرة واحدة تلقيها على ثيابه، أو أثاث بيته، بل من الفنجان الذى تقدم لك فيه القهوة .

شهدت مرة مزاداً عرضت فيه سيارات "مستعملة" للبيع، وكانت عينى على واحدة منها لصديق لى أوصانى أن أتخير له سيارة صالحة، وكان ظنى أنه يستطيع أن يشتريها بمائة جنيه، أو حوالى ذلك، وإذا ببعضهم يثب بالثمن إلى حوالى خمسمائة، فتعجبت لهذا الأحمق، ثم عرفت أنه كان مشفيًا على الإفلاس فأنقذته الحرب، وجاءته بما لم يكن له فى حساب من الربح، وكثر المال عنده، فهو لا يدرى ماذا يصنع به، فهمه أن يقتنى ما كان يرى الأغنياء – دونه يقتنونه، واشتهى أن تكون له سيارة تمرق به فى الشوارع وهو مضطجع فيها وإحدى ساقيه على الأخرى، والسيجارة فى فمه، وماذا يصنع إذا لم يشتر سيارة؟ وما قيمة خمسمائة جنيه يكسب أضعافها من صفقة واحدة يعقدها وهو فى المقهى ؟

(١) نشرت فى "البلاغ" فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ (ص٤) .

وحدثني صديق أنه كان ذات ليلة في مقهى على البحر في الإسكندرية وإذا ببعضهم يصيح بصاحب المقهى ويدعوه إليه، ويخرج حزمة من أوراق النقد يلقي بها أمامه، ويقول له: "اطرد كل هؤلاء الناس والمقهى كله على حسابي"! غضب الأحمق لأمر ما، فصب سخطه على الزباين المساكين الذين لم يربحوا مثل ما ربح من الحرب .

أمثال هؤلاء يشقون ولا شك إذا عزهم أن يتخذوا مظاهر البذخ، لأن انعدام هذه المظاهر يتركهم حيث كانوا - يسيرون على أقدامهم، أو يركبون الترام أو ما هو إليه كما كانوا يفعلون، ويرتدون ثياباً لا يبدو عليها أنها جيدة أو نفيسة أو غالية الثمن - وهو المهم - وتخلو بيوتهم مما كانوا يتمنون أن تكتظ به من الأثاث والأدوات والمواعين، وهكذا، فما خير المال الوفير إذن ؟؟

وكيف يطيقون أن يظل مظهرهم كما كان قبل أن تنتقل بهم الحال من الضيق إلى السعة؟ إن للغنى الحادث فجأة وبسرعة وعلى غير انتظار، فعلاً يدير الرأس، ويخرج بالمرء عن القصد والرشد في أحوال كثيرة، وما رأيت واحداً ممن فعل بهم المال المكسوب على هذا النحو، فعله هذا إلا ضحكت ورثيت له، وإلا ثارت نفسي أيضاً على النظام الذي يباعد بين الإنسان والإنسان، وبين المرء وعقله، إلى هذا الحد. ولكن هذا موضوع آخر فيحسن أن أقصر .

وتمثلت لعيني، وأنا أدير في نفسي سؤال الأخ، صور من الماضي كانت مألوفة قبل ربع قرن أو أقل .

لم تكن هناك يومئذ سيارات تخطف، ولكن كانت هناك مركبات خيل، ودواب كالحمير والخيل والبغال والجمال. وكانت الجمال تنقل الحاصلات من القرى إلى المدن، وتسير على الطرق الزراعية قوافل، قوافل، وكانت مركبات الخيل للأثرياء، والسكارى. وكانت الحمير (لأولاد البلد) وللأوساط العاديين حين يذهبون من حي إلى حي، لا يجري بينهما الترام. وكان "الشيخ" - العالم أو شبهه - يؤثر ركوب "البغلة" .

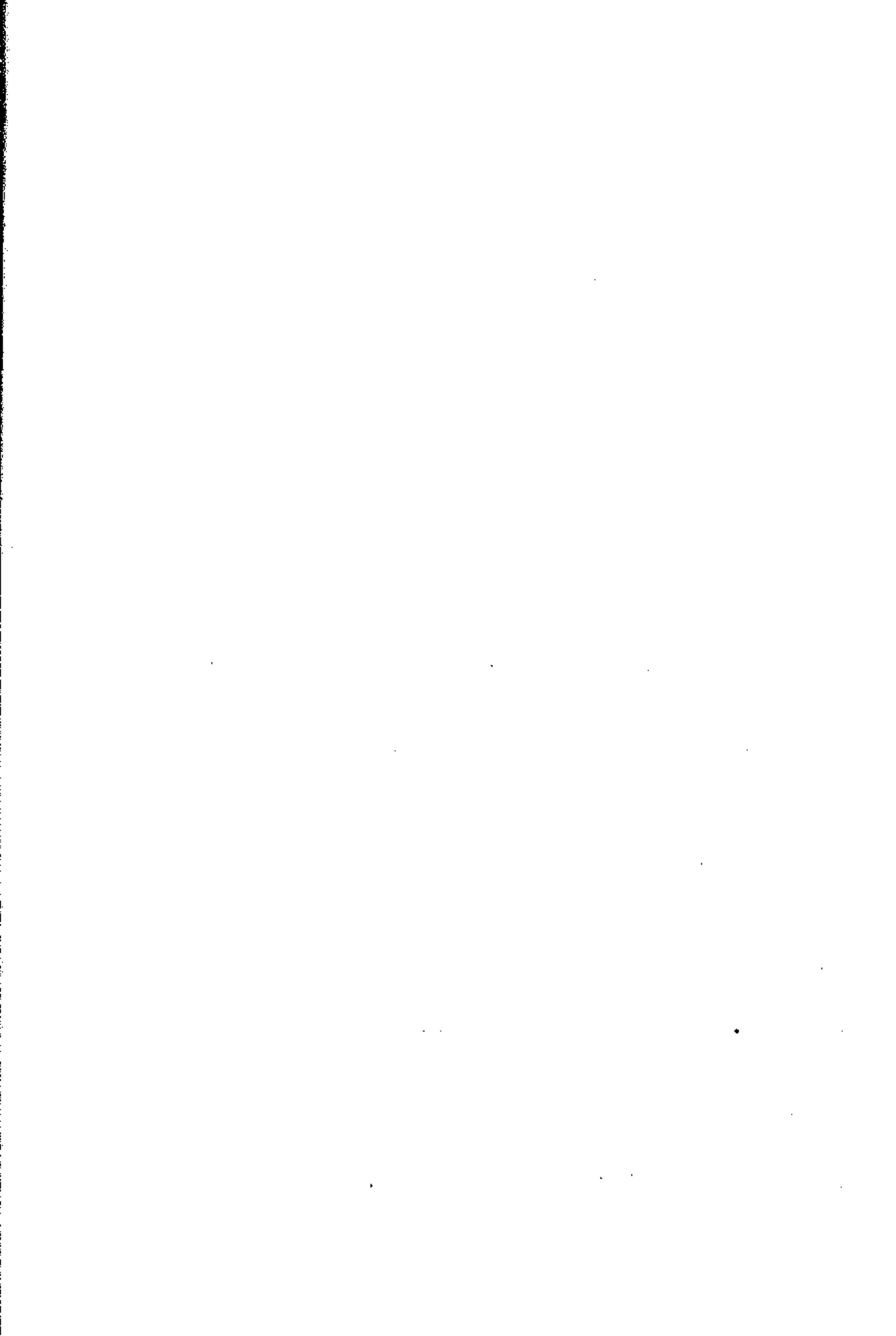
وكان هواة الحمير يعنون بها ويدللونها ويتخذون البرادع الموشاة، واللجم الأنيقة ويجعلون لها عُذراً من فضة على خديها، وتجافيف نفيسة كالحلى لها. فإذا كان يوم الخميس ارتدى الرجل من أولاد البلد أفخر ثيابه وامتطى حماره، وثبت على ظهره، وجذب رأسه إليه ليرجع القهقرى أولاً ثم أرخى له العنان قليلاً ليعدو، ولا يضطرم، وهو معجب بسعة خطوه، وجودة عدوه وحسن سبحه في سيره، حتى إذا صار قريبًا من حى "المحمدى" همزه همزًا خفيفًا فانطلق يرجم الأرض بحوافره، ثم يترجل، ويشد اللجام إلى السرج، ويذهب يمشى إلى جانبه وكلاهما مزهو مختال .

وكان فى كل يوم من أيام الأسبوع "حضرة"، ففى يوم الأحد، حضرة السيدة نفيسة، وفى يوم الاثنين "حضرة" الحسين، وفى يوم الثلاثاء حضرة السيدة زينب، وهكذا وكان هواة الحمير من أولاد البلد – أعنى أولاد البلد من هواة الحمير – يعرضون دوابهم هذه فى الساحات الرحيبة أمام المساجد، وربما ذهبوا يتسابقون أيضًا وكانت حميرهم أعز عليهم من ولدهم، أو هى صنوهم أو عدلهم عندهم؟ ومن يدرى؟ عسى أن يعيد التاريخ نفسه، فتعود الحمير سيرتها الأولى، وترتقى بعد [أن] انحطت؛ ويعلو نهاقها بعد طول الخفوت، وتحلى بعد عطل، وتسمن بعد هزال، وتعز بعد ذل .

لقد كانت للحمير فى الجيل الماضى دولة، وما أظن إلا أن دولتها ستعود بإذن ربك إذا طالت هذه الحرب. ومن أدرانا أن هذا لا يكون خيراً؟ إن الفرق بين حمار وحمار لا يدركه إلا خبير، ولا يحسه إلا الراكب المطمئن أو القلق، وهى رخيصة، وكلفتها هينة، أما الفرق بين سيارة وسيارة فأوضح من أن يخفى، فلعل دولة الحمير إذا عادت تكون إيذانًا بعهد من المساواة بين الناس لا سبيل إليه فى دولة السيارات والله الغنى عن السيارات التى تتلف فلا تصلح وعجلاتها التى تبلى فلا تعوض ولا تزال تنفق عليها ما كانت جملته تكفى لابتناء دار لك ولولدك بعدك .

ألا قاتل الله السيارات، وبارك الله فى الحمير .

إبراهيم عبد القادر المازنى



فى الكتابة والكتب(١)

كتب بعض الأفاضل يسأل عن "المازنى" ما له لا يخرج للناس كتبًا فى هذه الأيام. وكتب إليَّ بعض الإخوان – قليل منهم – يسألنى عن السر فى هذا الصمت أو الكسل، أو عن داعيه، ويحضنى على التأليف والإنتاج. وروى لى أصدقاء أوفياء أحاديث بهذا المعنى دارت فى مجالسهم .

فالمسألة إذن تستحق أن أقول فيها كلمة على سبيل البيان، لا الدفاع، فما يحتاج من لا يصنع شيئًا إلى دفاع، أو هو عسى أن يكون الدفاع منتظراً منه، ولكنه يستطيع أن يلزم الصمت بلا ضير عليه. وأحسب أن السؤال لم يبق له محل بعد أن أخرجت ثلاثة كتب فى شهرين، دفعنا اثنين منها إلى السوق وهما "عود على بدء" و"إبراهيم الثانى" وفرغنا من أمرهما وحبسنا الثالث وهو "ميدو وشركاه" بضعة أيام لسبب خاص ثم نلقى به فى الموعد الذى آثرناه له .

غير أن هذا لا ينفى أنى لبثت زمنًا لا أخرج شيئًا من كتبى فهل كان لهذا داعيه ؟

ويحسن قبل كل شىء، أن أتقى تهمة الكسل، وإن كنت أعترف أنى أكسل خلق الله، وأزهدهم فى كل عمل وأرغبهم فى راحة، فإن عندى بضعة كتب أخرى – خمسة إذا أردت الدقة – لا ينقصها إلا أن أجد ما يشجع على تهيئتها للطبع كأن أجد الورق، أو المال الجم الذى يكفى لاقتناء ضيعة، فأشترى به هذا الورق العزيز الذى صار يساوى وزنه ذهبًا، أو يتيح الله لى ناشراً ظريفًا منصفًا لا يغبن، وقنوعًا لا يطمع،

(١) نشرت فى "البلاغ" فى ١٢ يونيه سنة ١٩٤٣ (ص٤) .

ولا يجعل همه وكده أن يقنع المؤلف بالاكتفاء بفرحته بظهور كتابه! أو ناشراً يتحلى بهذه الصفات الحميدة، وعنده فوقها الورق الكافي. وما أكثر الناشرين الظرفاء، ولكن البلاء هو الورق، وأنك لا تعرف هؤلاء الناشرين، أو لا تستطيع أن تعرض نفسك على من تعرف منهم، أو أنا على الأقل لو يدخل هذا في طاقتي، وإني لأوثر للكتاب أن يحرق على أن أعرضه فيعرض عنه من تخاطبه فيه. وعسى أن تكون هذه أنفة لا مسوغ لها، ولكن الله يخلق الناس كما يشاء هو لا كما يشاءون .

وليس بكسلان فيما أظن من يستيقظ قبل الطير وقبل أن يتنفس الصبح صيفًا وشتاءً ثم يتوكل على الله ويجلس إلى مكتبه من الخامسة إلى ما بعد التاسعة، ويقضي هذه الساعات الطوال التي يطيب فيها النوم، في قراءة أو كتابة، ثم يغدو على "البلاغ" فيؤدي له حقه، ثم ينصرف إلى غير ذلك مما يكون عليه عمله، ثم يتغذى متوخياً التقليل والتخفيف، ويستريح نصف ساعة، ويقوم مرة أخرى إلى كتبه وأوراقه، حتى إذا كانت السادسة تمشي قليلاً، أو باشر أمراً آخر، ثم عاد في الليل على مكتبه فيبقى فيه إلى منتصف الليل وزيادة، إلا أن يسقم فلا يبقى له معدى عن الكف .

وليس معجب، وهذا ما وصفت من سيرتي على الجملة، أن ينتابني الملل أحياناً حتى لأهم بأن أوقد ناراً ألقي عليها كل ما عندي من كتب وأوراق. وأراني في هذه الحالة لا أكاد أطيق النظر إلى كتاب، وأروح أتساءل "ما الفائدة؟ فيم كل هذا العناء؟" لن تنقص الدنيا شيئًا إذا نقصت هذا المازني، فما أراها زادت به، وإنها لتستغني عن أجيال متلاحقة من الكبار والصغار، والصالحين والطالحين، وكأنهم ما كانوا عليها ولا دبت بهم الرجل فوقها! أأقول فوقها؟ وما فوقها هذا أو تحتها، وأين هو؟ وما هذا الإنسان، وما خيره على كل حال؟ وليس هذا من الشك في حكمة الله سبحانه، ولكنه من فرط الإحساس بالنفس، واستهوالها أن يكون شيئًا، ثم يصبح لا شيء، وعدمًا مطلقًا إذا كان هناك عدم مطلق وعدم غير مطلق، أو من العجز عن فهم ذلك، أو عن رياضة النفس على السكون إليه .

وأسأل نفسي أيضًا وهبني لم أكن كتبت أو نشرت شيئًا، فماذا كنت خليقًا أن أخسر، أو ماذا كان الناس خليقين أن يخسروا؟ لا شيء فأما أنا فكنت آكل وأشرب، وأعيش كما يعيش الأكثرون، ولا أرفع عيني عن الأرض، ولا أصعد طرفي إلى السماء، وكفى بهذه نعمة، وبحسب المرء من المتاعب والمنغصات، ما يكابده أمثاله ولا حاجة به إلى زيادة تجيء بها القراءة والكتابة والتفكير. وتالله إن الإنسان لمسكين! صار إنسانًا لما استطاع أن يقف على رجلين اثنتين، ووسعه بفضل ذلك أن يجيل عينه فيما حوله وأن يرفعها أيضًا إلى فوق، وقيل أنه ارتقى، ولكن ارتقاءه حرمه ما كان ينعم به وهو حيوان يمشي على أربع كغيره من الحيوانات لأنه صار الحيوان الوحيد في كل هذه الدنيا الطويلة العريضة الذي لا مفر له في العمل والكدح ليأكل ويشرب، فهو لا يأكل إلا إذا سعى وكد، ولا ينال إلا بقدر ما أوتي من القدرة، وهو الحيوان الوحيد الذي يعقد الأمور على نفسه ويخلق لها المشاكل ويمنيها الأماني، ثم يروح، يعالج أن يحل هذه العقد، أو يدرك مناه، أو يحقق ما يحلم به، ولو ذاق في سبيل ذلك الأمرين !

على أن هذا استطراد مغر لم يكن في النية، فيحسن أن أقصر، وإلا اتسع مجال القول فلا ننتهي في يومنا هذا .

وأعترف أن أول كتاب لي أخرجته – وكان ديوان شعر سامحني الله وعفا عني – أفرحني، فكنت لا أنفك أتناوله وأتأمل غلافه وورقه وأقلب صفحاته وأقرأ فيه وأنا جذل مزهو، وأستقصي أن أسمع مدحه والثناء عليه، فإذا فاتني ذلك اشتهيت أن أسمع ولو قدحًا، فإن كل ذكر له ولو بالسوء خير من الإهمال كأنه لم يكن. ولكني الآن أتناول الكتاب من كتبي الحديثة فأقول له: "يا هذا إني كتبتك – صنعتك – في عشرة أيام أو عشرين مثلاً، (فإن صبري قليل وسريع النفاد، ولست أطيق أن يستغرق مني الكتاب – يشغلني بنفسه – أكثر من شهر) وها أنت ذا قد خرجت إلى الدنيا، كنت مستكنًا في رأسي، بل لم يكن لك وجود أحسه وأفطن إليه، ثم صرت كقطع السحاب السابحة وأكبر الظن أن ليس فيها ماء ولكن خاطراً خطر لا أدري كيف أو لم؟؟ فضمت قطع السحاب وكسفه بعضها إلى بعض وصارت متراكمة، حتى سدت الآفاق فيما أحس، فإما أن يخرج الودق من خلالها ويسيل وإلا اختنقت، كالحبلى جاءها المخاض،

وإمّا أن تضع وإلا هلكت، والآن وقد صرت شيئًا يا هذا، فما أدرى لماذا تعبت فيك، ولا ماذا أفيد منك؟ وليس وجودك - بعد أن وجدت - وعدمك كما كنت، بسيين فيما أرى أو أشعر، ولكن لماذا أجشم هذا العناء كله، ما قيمتك؟ ما محلك بين مخلوقات الخيال أو العقل من أمثالك؟ إني لأخشى أن تصبح صعلوكًا بين ملوك الكتب، فأكون قد جنيت عليك، كما جنيت على أولادى "الآخرين"؟ ومن أدراني أنك لا تحس؟ أمن أجل أنك لا تنطق، تكون غير محس مدرك؟ وعجيب أمرك! إنك إبانه، ولكنك مع ذلك أخرس لا يبين عن نفسه، وما هى نفسك؟ أهى ما صنعت أنا بما كتبت، أم لك نفس أخرى قائمة بذاتها بعد أن صرت شيئًا قائمًا بذاته؟" .

وأظل أعذب نفسي بأمثال هذه الخواطر حتى أنتبه، فأكف وأهم بأن أرمى الكتاب ثم أشفق أن يكون قد أوتي الحس ورزق الشعور، فأترفق به وقد أربت عليه، ويا ربما تبسمت له ملاطفًا مجاملاً، كأنه يفهم عنى، وأتركه وقد كبر في ظنى، أو وهمى، من يدرى؟ لعله يستوحش وحده فى هذه الغرفة، وعسى أن لا يجد الخل الموافق له وإن كثرت الكتب حوله! وأقوم، حين يخطر لى هذا، فأرتب الكتب ترتيبًا جديدًا يضم المؤتلفة منها حتى لا تشقيها الفرقة أو تثقل عليها صحبة المخالفين .

ويخيل إليّ أحيانًا أنى أسمع لغطًا فى المكتبة، كأنما تتحادث الكتب وتتحاور أو تتهامس فأبتسم وأقول ليتها تفعل. وكثيرًا ما أجلس وأروح أتصور حوارًا دائرًا بين كتابين، ويطيب لى هذا حتى لتمضى الساعات وأنا ذاهل إلا عن الحديث الذى أجريه بينهما، ولست أذكر من هذه الأحاديث إلا طيب متعتها، ولولا نسيانى وكسلى لسقت لك بعضه، على أنى أرجو أن أنشط فأثبته .

وأقول الحق أني ما استطعت قط أن أسلك الكتب مع الجماد، فإنها عصارة العقول والنفوس، وإنها لورقات ولكنها أيضًا معان حية تلاقى عندك ما يوائمها فتتزاوج هذه وتلك وتتولد معان جديدة حية، وهل يجىء الإنسان إلى الدنيا إلا على هذا النحو؟ وما أكثر ما تثير هذه المعانى التى تقرأها فى الكتب من معارك فى نفوسنا وتعقد من مؤتمرات تطول أو تقصر، وتثمر أو تعقم. فكيف تعد من يفعل هذا جمادًا؟ حاشا لله .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الفضول وحد ما بين العام والخاص[1]

زرت بلاداً كثيرة فلم أر في بلد منها مثل فضول الناس في مصر، والفضول في الطباع، فهو غير مستغرب في ذاته، ولكن في الطباع أيضاً كثيراً مما نعده نقائص وعيوباً ونعالجه ونهذبه ونصقله أو نكبحه، أو نوجهه وجهة عامة نافعة، وسبيل المدنية أن توجه الغرائز والنزعات الإنسانية هذا التوجيه الذي يصلح به حال الجماعة ويستقيم أمرها .

وقد كان الفضول، في الأصل، بعض ما أعان الإنسان على الرقي، ويسر له أسبابه، ورفعه منازل عديدة فوق منزلة الحيوان الأعجم الذي لا تزال عينه على الأرض لا يرفعها ولا يديرها فيما حوله، ولا يستغرب شيئًا، ولا يحس دافعًا إلى التأمل والتنقيب، والاستطلاع والاستكناه، والتجريب .

وقد كانت هذه النزعة في الإنسان إحدى البدايات التي أبلغته هذه المرتبة الرفيعة في عالم الحيوان ولكنها ككل نزعة إنسانية تحتاج إلى التهذيب والكبح والتوجيه وإلا انقلبت آفة. فنحن الآن لا نخطف ولا نسرق ولا ندخل بيوتنا حتى يؤذن لنا، ولا نفعل غير ذلك مما كان سكان الكهوف من أسلافنا الأقدمين يفعلونه، أو لا ينبغي أن نفعله، ولكنا نشتري ما نريد بمالنا من مكسوب أو موروث، ونتزوج المرأة برضاها أو رضى وليها، ونستأذن فيما ليس لنا فيه حق صريح، ونعرف حقوق غيرنا ونحترمها، ونعرف واجباتنا ونؤديها . وليست هذه العادات والتقاليد والقوانين على اختلافها إلا وسائل لتنظيم أمر الجماعة وسلوك أفرادها، أي لتنظيم غرائزها وطباعها ونزعاتها وما إلى ذلك.

---

(١) نشرت في "البلاغ" في ٢٠ يونيه سنة ١٩٤٢ (ص٤) .

حتى الحيوان نروضه كما نروض أنفسنا ونعوده عادات نفرضها عليه ونحمله عليها شيئًا فشيئًا حتى يتطبع .

وقد يكون الفضول الملحوظ فينا نحن المصريين بشير خير، فإنه كما أسلفت، باب على المعرفة، ولكنه يحتاج إلى الكبح والتنظيم والتوجيه إذا أريد أن تتحقق بشراه، والمعرفة تتفاوت، وليست كل معرفة بذات قيمة. وماذا يفيد إنسانًا أن يعرف أنك تلبس كذا، أو تأكل كيت وكيت، أو تجلس جلسة خاصة أو تضحك كثيرًا أو قليلاً، أو يطول نومك أو يقل، ويثقل أو يخف، أو أنك أنت وزوجتك على وفاق أو خلاف ؟

ولا نكران أن للقدوة فضلها ومزيتها، ولكنه لا خلاف أيضًا، في أن هذا إنما يكون كذلك فيما له قيمة. ثم إن هذا الضرب من الفضول فيه جور شديد على الحقوق الشخصية والحريات الخاصة، وهو يترك المرء كأنه يحيا حياته الخاصة في الطريق العام، وما أظن أن إنسانًا يدرك قيمة الحق الشخصي والحرية الخاصة يطيب له أن يحيا على هذا النحو. وليس كونك رجلاً عامًا بمجيز أن يُسلب حقك في الحياة الخاصة .

ومن سوء الحظ أن صحفنا أو مجلاتنا تغذى هذا الفضول في الناس وتقوى نزعته، ولا تساعد على تهذيبه وصقله وتوجيهه. ولا يثقل قولي هذا على الزملاء الأفاضل، فإني أعرف عذرهم، ولكني أصارحهم أني لا أقر ما هم مغرون به، ولا يسعني إلا أن أنكره وأستهجنه، وأرجو أن يزجروا أقلامهم عنه، فإنه يجني على قرائهم وإن كان يفيد صحفهم رواجًا .

ويحسن أن نقيم الحدود للفصل بين الخاص والعام. فأما الخاص فلا يجوز أن يتعرض له مخلوق بقلمه أو لسانه، وأما العام فهذا هو الذي يجوز تناوله بما يشاء الراغب في هذا على أن يكون التناول للرأي دون صاحبه، وللفعل دون فاعله، وباللفظ العفيف الذي لا سبب فيه ولا غمز ولا تعريض .

وينبغي أن نروض أنفسنا على ما يقتضيه ما يسمى "الروح العام". وأضرب مثالا لذلك ما حدث في إنجلترا، فقد كانت الصحف هناك تفيض وتسهب في أخبار الجرائم وكيف ارتكبت، ثم تبين الكتاب أن هذه الإفاضة ساعدت على ازدياد الجرائم والافتنان

فى ارتكابها، فاتفقوا فيما بينهم على الكف عن ذلك من غير أن يدعوهم إليه داع من رجال الأمن أو القضاء. وكانت الصحف تنشر أيضًا أخبار الطلاق مفصلة، فعدلت عن ذلك من تلقاء نفسها أيضًا لما رأته من سوء أثره .

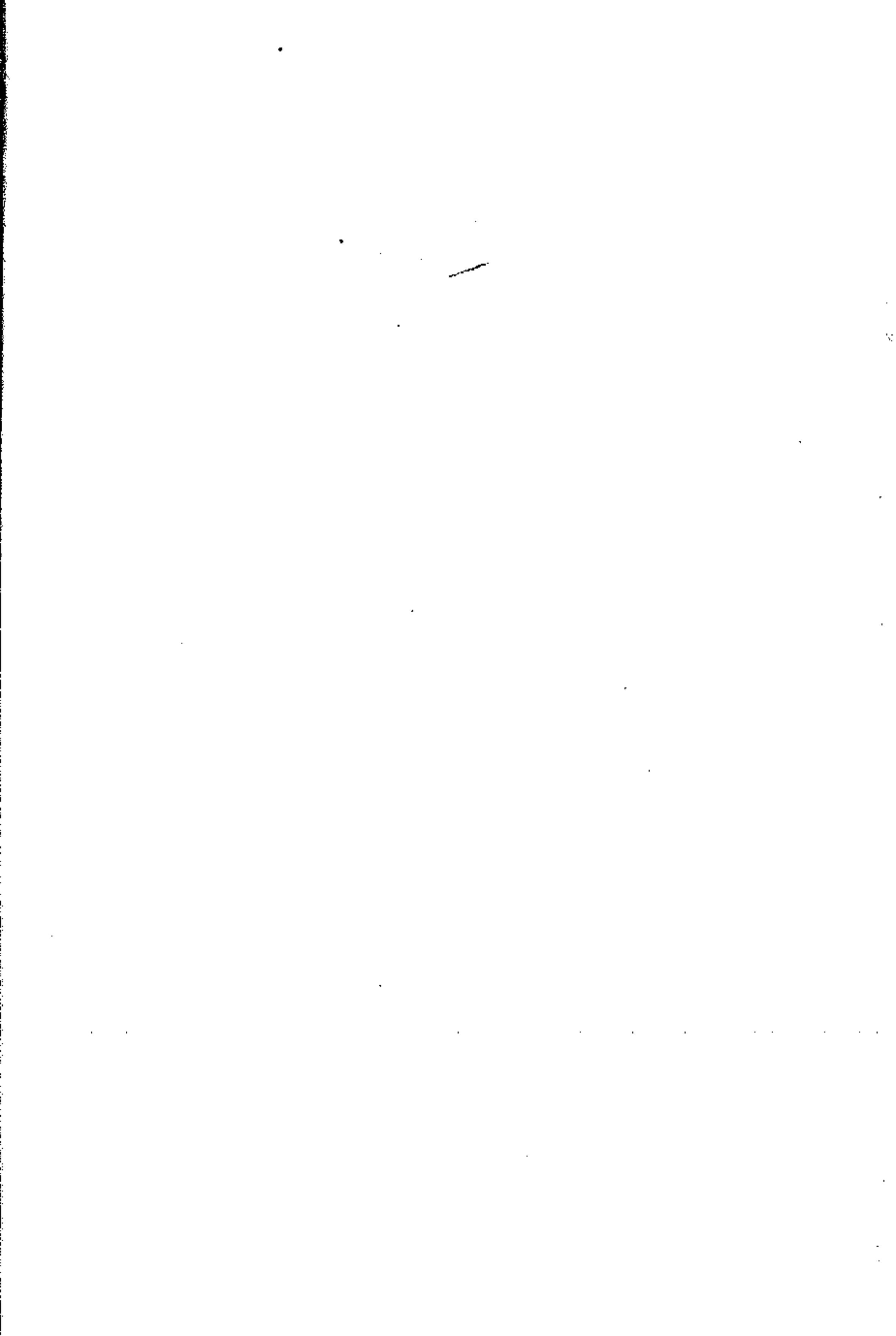
فهذان مثلان لما يقتضيه "الروح العام" أى إيثار المصلحة العامة بالرعاية. وقد كنت فى عهد صدقى باشا فى الحكم من معارضيه، وساقتنى وزارته غير مرة إلى النيابة للتحقيق، وإن كان الأمر لم يبلغ المحاكمة والإدانة، وأعترف أنى حمدت له بعد انقضاء عهده، مع الأسف أنه ألزم الأقلام العفة والقصد، والاكتفاء بتناول العام من الأمور دون الخاص.

وموضع أسفى أنى لم أنصفه فى عهده، وما كنت أضن عليه بالإنصاف أو أجبن منه، ولكن "الجو" الذى كنت فيه منع أن أدرك فضله فى هذا الباب، فلما تغير الجو، وانتقلت بى الأحوال إلى ما هو أعون على صحة الحكم تنبهت إلى ما كنت غافلاً عنه. ولأن يجىء الإقرار بالفضل متأخرًا وبعد الأوان خير على كل حال، من أن لا يجىء، وما كنت جاحدًا وإنما كنت غير مدرك، وهذا عذر بين .

وليس نهجنا فى السياسة خيرًا من نهجنا فى سواها، فنحن نخلط خلطًا مستهجنًا بين الخاص والعام، وبين مالنا، وما ليس لنا حق فيه، حتى صرنا فى هذا أضحوكة وصدق فينا قول أبى الطيب "يا أمة ضحكت من جهلها الأمم". وما أظن إلا أن أممًا كثيرة تضحك منا وتعوذ بالله من مثل سيرتنا، ونسأل الله لنا السلامة إذا كانت تنطوى لنا على مودة .

ولا يؤاخذنى الذين لا يخف عليهم قولى هذا، فما أرجو به إلا الخير لنا جميعًا، ومن حسن الحظ أنى أستطيع أن أجهر بالحق فما لى مطمع، ولا أنا أرهب غير الله، وقد آن لكلمة الحق أن تلقى، ولشد ما أتمنى لو كان صوتى أعلى وأقوى! إذن لرجوت أن أسمع! ولكن الله قادر على أن يضع سره فى أضعف خلقه .

إبراهيم عبد القادر المازنى



العظماء الذين علمتهم ![1]

حاولت أن أهرب من الكتابة في هذا الموضوع، لئلا يساء تأويل ما أكتب، أو يحمل على غير محمله، ولكن الأستاذ رئيس التحرير لم يترك لي مهربًا، وأين منه يهرب الهارب، وهو لاعب كرة قديم وقد حذق فنون المحاورة والكر والشد؟ لا حيلة لي إذن ولا مفر، ويحسب بي أن أذكر في مستهل الكلام أني لا آمن أو أدل على أحد يأتي كنت معلمًا له، فما علمت أحدًا شيئًا يستحق الذكر .

ومن سوء الحظ أن ذاكرتي ضعيفة جداً وأن الأسماء أول ما تخونني فيها، حتى ليكبر في وهمي أني سأنسى اسمي يومًا ما، فلا أعود أعرف من أنا، ومن أجل هذا أحمل بطاقة باسمي وعنواني، ولا أعرف ما خيرها إذا كان ما أخاف أن يكون ونظرت إلى البطاقة متعجبًا متسائلاً من ترى هذا المازني؟ ولماذا أحمل بطاقته؟ وما شأني به ومتى عرفته ؟

لهذا قلت للأستاذ فكري أباظة لما كلفني كتابة هذا الفصل : "ذكرني بتلاميذي هؤلاء" فوعد، وأخلف، سامحه الله !

وقد قال لي يوم حادثني في ذلك أنه كان من تلاميذي صاحب المقام الرفيع شريف صبري باشا. فتعجبت، ثم تذكرت بعد لأي، أنه لا يعد تلميذًا لي إلا على التسامح، نعم كان تلميذًا بالمدرسة السعيدية، ولكن غيري كان أستاذه في مادة الترجمة، ودخلت "فصله" مرة بدلاً من مدرس غائب، وكان هذا تكليفًا ثقيلاً، فقلت للتلاميذ اصنعوا ما بدا لكم، وعكفت على كراسات تلاميذي أصححها، واستطعت أن ألاحظ مع ذلك

---

(١) نشرت في مجلة "المصور" في ٦ أغسطس سنة ١٩٤٣ (ص٥) .

– فقد كانت عيني على التلاميذ على الرغم من الكراسات حتى لا يفسدوا النظام – أنه يجلس في الصف الأول، والذي لفتني إليه خاصة إنه كان لا يزال يبتسم، وأنه ينظر خلسة إلى اليمين والشمال، ولا يرفع رأسه إلا وفي ظنه أني غير ناظر إليه، ولكني كنت في ذلك الزمن كأن لي ألف عين. فوقع في نفسي أنه شديد الحياء، وأن أدبه جم، ولم أعرفه يومئذ وإنما عرفت فيما بعد أن اسمه شريف صبري .

ويزعم الأستاذ فكري أباظة أنه كان من تلاميذي، ولا أدري ما خير أن يحاول إقناعي أنا أنه أصغر مني؟ فإذا صح زعمه فليعلم أني لما توليت التدريس في المدرسة السعيدية، كان من تلاميذي كثيرون أكبر مني سنًا، وكان المعروف في ذلك الوقت أن "أشقياء" المدارس الأخرى في القاهرة يحولون إلى السعيدية لأن ناظرها ووكيلها كانا مشهورين بالدقة والشدة. على أني أذكر غيره من "الأباظية" مثل السيد بك، وكان عريف فصله – "الألفا" – كما كان يسمى، وكان مثال الأدب. ومنهم أيضًا، في مدارس أخرى، صاحب المعالي الأستاذ محمود سليمان غنام، وعبدالفتاح الطويل باشا، أما كيف كانا فلا أدري، وأحسب أن ذلك لأن تلاميذي جميعًا كانوا مؤدبين – على الأقل معي – ولم يقع منهم ما يسوءني ولا مني ما يسوءهم فيما أظن، وأحسب أن "شقاوة" التلميذ أقوى مذكر به، لا الذكاء ولا الاجتهاد، ولا الأدب وحسن السلوك. على أني أذكر – فإن مزية ذاكرتي أنها فوتوغرافية تحفظ الصور وتلقي ما عداها – إنهما كانا كما هما الآن، فما يبدو عليهما أثر للزمن الطويل الذي انقضى منذ كانا تلميذين. فلو أمكن أن يجلسا في "فصل" وأدخل عليهما لما أحسست فرقًا ولتوقعت أن ينهضا لتحيتي كما كانا يفعلان، فأشير إليهما بأطراف أصابعي أن اجلسا، فقد كان دأبي أن أستغني عن الكلام إذا كان في الإشارة أو النظرة الكفاية. كلا، لم يتغيرا، ولا عجب أن يكونا قد أثرا دراسة القانون، واشتغلا بالمحاماة، فقد كانا – على قدر ما أذكر – من ذوي الفصاحة واللسان الذرب، وكانا أشد احترامًا لنفسيهما وحرصًا على كرامتهما من أن يعبثا عبث التلاميذ .

وقد ذكرني أحد تلاميذي – وقد استحلفني أن أكتم اسمه لأنه اليوم من الكبراء – بحادثة طريفة، لست ناسيها لأنها مما تعمدته. وذلك أني لم أرض عن ترجمته لقطعة من القطع، وخفت عليه عاقبة الاستهانة وقلة العناية، فأردت أن آخذه وأنبهه وأوقظ

نفسه، فقلت لنفسي إن "الصفر" وإن كان لا شيء، لا يغني هنا، ولو أعطيته "صفراً" لقال إني ظالم، ولذهب يتعزى بالمشهور من تقتيري في الدرجات، وكان التلاميذ على حق في اتهامي بالمبالغة في التدقيق، فقد كنت أتوخى هذا معهم أثناء الدراسة، أما في الامتحان فقد كنت أحنى عليهم وأرفق بهم من آبائهم، ولكنهم ما كانوا يعرفون هذا. وأعود فأقول إني حدثت نفسي أن "الصفر" يثير سخطه عليّ، ولا يجدي في تنبيهه إلى تقصيره، فخير من ذلك أن أعطيه ما هو في الواقع أقل من الصفر، أي جزءاً من عشرة من درجة واحدة! فدهش وثار وقال الصفر خير من هذا، فقلت له بل إنك لا تستحق الصفر، ثم ذهبت أحاول أن أبين له أن فيه أملاً إذا بذل العناية الكافية، والأمل الآن قليل ولكني أرجو أن يكبر، وقد كان. ونفعه ما استثرت به نفسه .

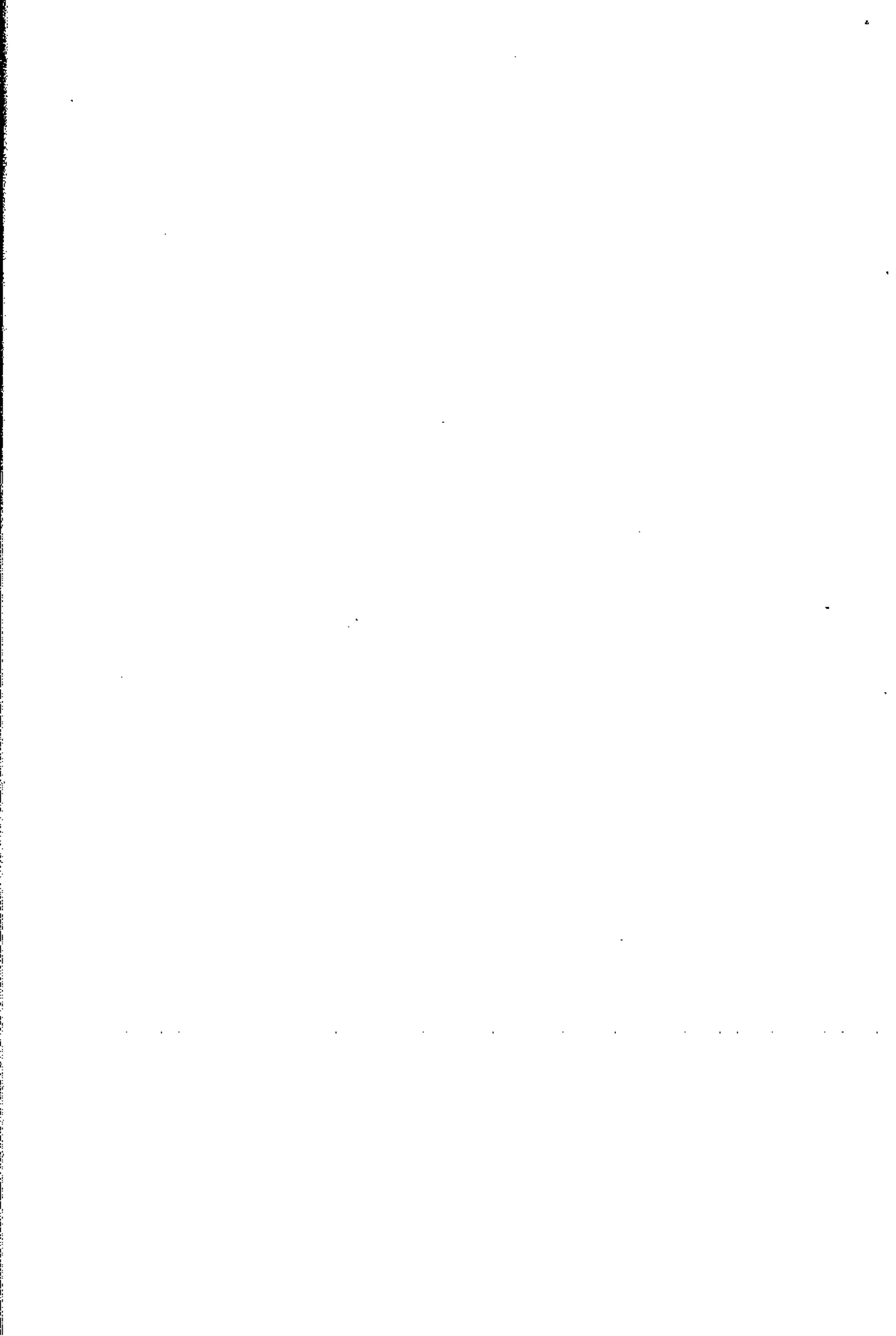
وبعد فأي عجب في أن يكون من تلاميذي وزراء وكبراء؟ إن المعلم كصاحب زورق أو معبر على نهر، يمضي به من ضفة إلى ضفة، وقد اشتغلت بالتعليم عشر سنوات، وكان لي من التلاميذ في كل سنة نحو أربعمائة، فمن الذي يستغرب أن يبرز من أربعة آلاف، عشرة أو عشرون أو مائة فيهم الوزير، والقاضي، والأديب ؟

وسألني الأستاذ فكري، وهو يسرد لي بعض تلاميذي : "ألم يكن منهم حسين سري باشا؟"

قلت : "كله إلا هذا يا فكري! من تظنني؟ نوحاً؟"

والواقع أني لما اشتغلت بالتعليم كانت سني تسعة عشر عاماً، فإذا صدق القارئ فبها، وإلا فأمري معه إلى الله!

إبراهيم عبد القادر المازني



رسالة وجوابها[1]

تلقيت هذه الرسالة قبيل العيد :

"حضرة الأستاذ الكبير

بعد التحية أرجو أن لا تغضب إذا قلت لك إنك رجل غشاش تستغل حسن سمعتك الماضية في عالم الكتابة والتأليف لتدس على القراء كتبًا سخيفة مملولة ممجوجة لا معنى لها ولا فائدة فيها، وهى أشبه بلغو المجانين منها بتأليف كاتب كبير عرف بالبساطة والسهولة وحسن الأسلوب. لقد دفعت أربعين قرشًا ثمن كتابيك الجديدين "ميدو وشركاه" و"إبراهيم الثانى" وأنى مستعد لبيعهما بالأقة إلى بائع الفلافل، ليلف فيهما بضاعته القذرة، فإن هذه الصفحات المجنونة لا يليق بها إلا هذا المصير القذر. ولست أدرى كيف تسوغ لك نفسك أن تقذف بها من سماء المجد الأدبى الذى استحوذت عليه وبلغته بعد جهاد العمر الذاهب، إلى هذا الحضيض السحيق. وقد قيل لبعض الشعراء استر شعرك كما تستر عورتك، وأقول لك اسحب كتابيك هذين من السوق لأنهما عورة لك سافرة. لقد حاولت أن أفهم لهذين الكتابين مغزى ولو فكاهيًا أضحك منه فعجزت عن ذلك فلم أجد إلا أنك محتال سرقت نقود القراء. لو أن فى مصر محكمة أدبية تحاكم السخفاء من الشعراء والمؤلفين لحكمت عليك بما لا أدرى من العقوبات القاسية لهذين الكتابين السخيفين. وها أنا أرسل إليك هذا الخطاب لتعلم سوء ما قدمت إلى القراء ولا جفى غيظ نفسى وخسارة الأربعين صاغًا التى ضاعت هباءً والتى زادت بثمن البريد قرشين آخرين. أيها الأستاذ الكبير اتق الله واسحب

---

(١) نشرت فى "البلاغ" فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٤٣ (ص٤) .

كتابيك هذين من السوق فإن فيهما القضاء المبرم على سمعتك الأدبية، وكفى ما أصبت من ضحايا الأربعين" .

كفر الزيات فى ٢٤ رمضان سنة ٦٢

المخلص

فلان المحامى الشرعى

وأود أولاً أن أؤكد للقارئ أنى لم أخترع هذا الكتاب، وإنما حذفت اسم صاحبه الفاضل لأنى قصرت فى استئذانه في نشره، ولأنى لا أحب أن يتوهم هو أو سواه أنى أضعه موضع التشهير. فليس هذا جزاء الرجل، وإنما جزاؤه الشكر .

ولقد كنت أيام كنت معلمًا، أأبى كل الإباء أن أعاقب تلميذاً من أجل أنه أساء أو تطاول أو غلط أو قصر، وكانت حجتى أن التلميذ إنما يجيء إلى المدرسة لأنه ينقصه أن يتعلم وأن يتهذب، فإذا كان جاهلاً أو سيء الأدب، فإن هذا هو المفروض أو الذى ينبغي أن يكون مفروضًا وعلى المعلم أن يعلمه ويهذبه لا أن يضربه أو يعاقبه، وقد توليت أمر مدرسة ثانوية فى آخر عهدى بالتعليم، فكان أول ما صنعت أن ألغيت العقوبات جميعًا، وأن انتقيت أساتذة لا يحتاجون إلى العقاب، ولولا الثورة المصرية التى قامت بعد ذلك لمضيت فى هذه التجربة إلى نهايتها المقدورة .

ولست أشبه الأستاذ الفاضل بالتلميذ فما إلى هذا قصدت، وعلى أنى لو قصدت إلى هذا لما كان فيه غض من قدره أو غمط لفضله، فإن الحياة مدرسة لا تنتهى ولا نزال نتعلم فيها حتى يوافينا الأجل. وعسى أن يكون من خير ما نتعلمه فيها الرفق وسعة الصدر وإيثار الإنصاف والمعدلة وتوخى النظر إلى الأمور من الجوانب المختلف لا الاقتصار على جانب واحد .

ومن بواعث أسفي أن أرى مثل الأستاذ فى مثل علمه وفضله وعقله يتلهب به غضبه فيجرى قلمه بألفاظ لا أقول نابية ولكن أقول ظالمة فيقول أنى غشاش وأنى أدس على الناس كتبًا سخيفة. وليس الذى يؤسفنى أنه يرى أن كتبى سخيفة فإن لكل امرئ رأيه، ومن ألف فقد استهدف، وفى وسعى أن أتعزى فأزعم أن هذا عيبه لا عيبى،

وأنه لا حيلة لي إذا كان القارئ لا يفهم عني ولا يفطن إلى ما في كتبي من آيات العبقرية، وقد أحتدم غيظًا مثله فأثور به كما ثار بي وأقول له كما قال ابن الرومي :

شعري شعر إذا تأمله الإنسـ ـان ذو العقل والحجى عبده

لكنه ليس منطقًا بعث الله به آية لمن جحده

ولا أنا المفهم البهائم والطير سليمان قاهر المردة

ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة

وقد يسعفني الغرور فأقول وما ذنب الكاتب إذا كان يبسط أمام قارئه مائدة حافلة بأطيب الآكال فيجتويها لا لأنها مما يزهد فيه بل لأن الجالس إلى المائدة ضعيف خالف لا يشتهي الطعام أو لا يقوى على هضمه :

كما تعاف الجيد المشتهى من الطعام المعدة الفاسدة

ورحم الله ابن الرومي فإنه يخف اليوم لنجدتنا .

ولكني على جزالة حظي من الغرور لا أقول هذا للأستاذ، ولا أرى من حقي أن أتطاول عليه بهذه البذاءات المقذعة، ومن السهل أن يطاوع المرء نفسه، ولكن المزية أن تكبحها ولهذا أقول له أن الإنسان يحسن ويسيء ويصيب ويخطئ، وليس بإنسان من ليست له عثرة، ومن خير ما يقال في هذا المعنى ما رد به ابن الرومي على عائب شعره، قال جزاه الله عنا في هذه خيرًا :

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر ؟

ركب فيه اللحاء والخشب اليابس والشوك دونه الثمر

وكان أولى بأن يهذب ما يخلق رب الأرباب لا البشر

فليعذر الناس من أساء ومن قصر في الشعر، أنه بشر

مطلبه كالمغاص في درك اللجة من دون درها الخطر

وفيه ما يأخذ التخير من غا ل ثمين وفيه ما يذر

وليس بد لمن يغوص من الجر ف لما يصطفي ويحتقر

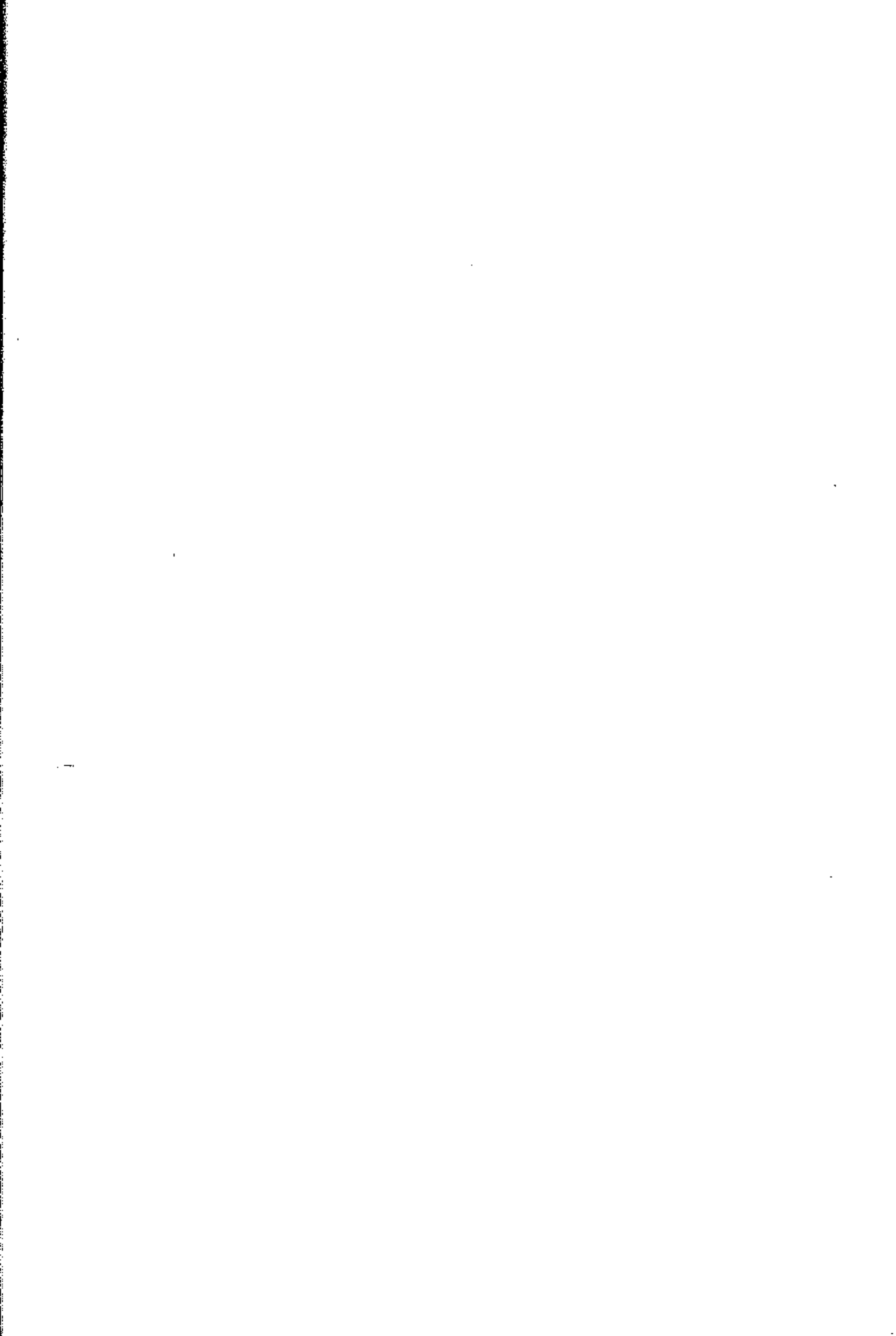
أى والله فليعذر الناس من أساء ومن قصر فإنه بشر! وهذه هى فضيلة الفضائل، وأمها ورأسها، ولا محل للقول بالغش والدس فما يبغى أحد لنفسه أن يسوء رأى الناس فيه، ولا يتعمد التقصير وهو قادر على الإحسان إلا مجنون. والناس أجيال تجيء وتذهب فليس أحمق ممن يعتمد على سمعته فى جيل من الخلق لا يلبث أن يمضى ويخلفه جيل جديد ينظر بعين جديدة ويزن كل شيء بميزانه هو لا بميزان أسلافه .

ويا سيدى الأستاذ إن الأسف لا يكون على المال يذهب قل أم كثر، وليست خيبة الأمل أن قروشًا ضاعت، فليس منا إلا من يقتنى كل يوم كتبًا يجد بعضها غير أهل لما أنفق فيه، ولو ذهبت أنا أحصى ما ضاع من مالى فى كتب رديئة لجاوز ذلك ما يكفى ثمنًا لعمارة كبيرة! وإنما يكون الأسف - أو ينبغى أن يكون - على العجز عن الخروج بفائدة حتى من الغث السخيف، أو الذى يظن المرء أنه لا خير فيه. ولقد أخطأ ابن الرومى حين قال ما يفهم منه إن اللحاء والخشب اليابس أقل قيمة من الثمر، فما من شيء إلا وله قيمة والقيم نسبية، ولعل انتفاع العقل حين يستخلص الفوائد من كتاب رديء أو غث، أعظم من انتفاعه بكتاب يقرؤه وهو مطمئن إلى جودته، لأن العبرة هنا بعمل العقل ومجهوده، والجُهد الذى يبذله العقل حين يقرأ كتابًا وينقده ويميز غثه من سمينه ورديئه من جيده، أكبر كثيرًا من جهده حين يأنس بالكتاب ويثق بكاتبه ويأخذ عنه أخذ التسليم فلا يحاسب ولا ينقد ولا ينخل ولا يغربل، ومن أفحش الخطأ أن يتوهم متوهم أن مجالسته العلماء مثلاً أعود بالفائدة من مجالسة العامة والأميين، فإن الثقة بعلم العلماء تورث عقل مجالسهم الكسل، أما مجالسة العامة فتنشط الذهن وتبعثه من رقاده، وتفتح له آفاقًا جديدة من النظر والتأمل والقياس. فهبنى من هؤلاء العامة يا سيدى وأكسب صحبتى فلن تندم على أربعين قرشًا أنفقتها فى ذلك إذا عرفت كيف تستفيد، ولا أشك فى إنك عارف حاذق، ولكنى أرجو حين تقرأ كتابًا جديدًا أن تخلى ذهنك من الرأى فى صاحبه، كائنا ما كان هذا الرأى، وأن لا تقبل عليه وأنت فى حاشية من الآراء والتقاليد التى نشأت عليها، فإن ذلك يحول بينك وبين الوزن العادل لما عسى أن يصدمك منه .

وكنت أود أن لا أرى منك كل هذا الامتهان لبائع الفلافل، ولفلافله – وهى "الطعمية" بلفظ آخر – وأن تقول عنها أنها "بضاعة قذرة" فما هى بالقذرة ولا بالتى يجوز فى حقها التحقير. وإنها لطعام جيد نافع، وما أظن بك إلا أنك تستطيبه مثلنا نحن أبناء الشعب الذين لا يترفعون عن طعامه ولا يدعون الزهادة فيه والاحتقار له .

ولا تحسب أنى أنا الذى يقبض كل ما يبذله قارئ ثمنًا لكتاب لى، وليتنى كنته إذن لوسعنى أن أنصفك من نفسى وأن أرد إليك ما ضاع من مالك الذى لا أجهل شقوتك فى اكتسابه، وإنه لجميل منك أن تحرص على اقتناء الكتب وتطلبها بالبريد، وفى هذا تشجيع لنا على المضى فى الكتابة والتأليف، وسأبعث إليك بكل كتاب جديد أخرجه بعد اليوم ولا أتقاضاك ثمنه، تعويضًا لك عن الخسارة التى أراها ثقلت عليك جداً، ومعذرة إذا كنت قد خيبت أملك، فى كتابىّ الأخيرين، فما قدرت على خير من ذلك وقصرت، ولا تنس اعتذار ابن الرومى فإن أبياته هذه رقية نافعة من الغضب الجامح والسلام عليك والشكر لك. ولا تحرمنى لواذع قلمك فإنها أندى على كبدى من ثناء المنافقين .

إبراهيم عبد القادر المازنى



من ذكرياتي السياسية[1]

طلب مني "المصور" الأغر أن أكتب له طائفة من ذكرياتي السياسية، فقبلت، وكان القبول مني تسرعًا، فإن من العسير أن تنشر ذكريات صريحة لا يزال معظم الذين لهم اتصال بها أحياء والله الحمد، ثم إن المرء يعرض له السهو، ولا سيما إذا كان مثلي لا يعني بتدوين شيء مما وقع له أو مر به، لأن اشتغالي بالسياسة والصحافة إنما تفرع على اشتغالي بالأدب وجاء بسبيل منه، ومن تهكم الأقدار أني من أضعف الناس ذاكرة، وأني مع هذا أعول على ذاكرتي! وياما أكثر ما أقرأ الكتاب مرة، وأخرى، وثالثة، فيكون في كل مرة كأني ما اشتريته ولا رأيته إلا الساعة. وكل كلام أسمعه يدخل من أذن، ويخرج من أذن، فلا بقاء له ولا تلبث، ولكن الصور تبقى ولا تبهت ولا يغيب شيء من معارفها، حتى القديم البعيد الذي يرجع إلى أيام الطفولة، ولعل قدرة ذاكرتي على الاحتفاظ بالصور وألوانها هي التي تغريني بالاعتماد عليها، فإذا أضفت إلى هذا أني معجل في حياتي، كأني أساق بالسياط، وأني مشغول أبداً بأمور شتى، وأني لا أطيق المكث في مكان واحد أكثر من دقائق معدودات، وأن أعصابي لا تحتمل الصبر على الكتابة إلا للنشر فوراً - إذا أضفت هذا إلى ذاك عرفت لماذا لم أعن بإثبات شيء مما بلوت في الصحافة والسياسة .

على أني قد تخيرت لكم ثلاث ذكريات ليس في نشرها ضير .

فأما الأولى فمتصلة بحادث أليم، وكنت يومئذ أعمل في جريدة الأخبار مع المرحوم أمين بك الرافعي. وكان المرحوم عبد القادر حمزة باشا كلما رأى سياسة جريدته متفقة مع سياستنا المستقلة في "الأخبار" يدعوني إلى الكتابة في جريدته فأفعل.

---

(١) نشرت في مجلة "المصور" في ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٣ (ص٧) .

ولكن بتوقيع مستعار لأن عملي لحزبهم، ولجريدتهم [لم يكن أمرًا] استقر عليه الرأى. وكان رأيي أن الحال لا تدعو لظهور الأحزاب وتعددها، فقاومت حركة تأليف حزب جديد في سلسلة مقالات نشرتها بجريدة البلاغ بتوقيع "مطلع". وكان الأستاذ العقاد يكتب في البلاغ وكان يحمل من ناحيته على الحزب الذي يراد تأليفه، ولكن باسمه الصريح .

ولم تكن تلح في هذه الحملة، وإنما كان كل منا يكتب في هذا كلما دعت مناسبة .

ومضت الأيام، وقام الحزب، وإذا ببعض الحمقى يغتالون المرحومين حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدي على باب الأحرار الدستوريين، وقد عرفوا فيما بعد، ونالوا جزاءهم، وتبين أنهم مجانين لا علاقة لهم بصحافة أو أحزاب. ولكن ثروت باشا أراد أن يعد البلاغ وصاحبه ومن يكتبون فيه مسئولين "أدبيًا" عن الجريمة. وكان هذا خطأ بينًا، فأما صاحب البلاغ فمعروف، وأما الأستاذ العقاد فيكتب باسمه الصريح وأما "مطلع" فلم يعدم ثروت باشا من يدله على أنه "المازني" .

ودعاني المرحوم أمين بك الرافعي وقال: "اسمع. أخبر صاحبك أنكما ستنفيان من مصر" – يعني بصاحبي الأستاذ العقاد. ولا أحتاج أن أقول أني لم أقصر في إبلاغه. ولا في الاستعداد للنفي وتدبير الأمر مع أمين بك على ما يكون وأنا منفي، ولاسيما بعد أن رأيت النيابة تستدعي الأستاذ عبد القادر حمزة للتحقيق معه. ولكنا لم ننف، لأن وزارة ثروت باشا استقالت وقامت وزارة نسيم باشا فصرفت النظر عن هذا الذي لا صلة له بالجريمة. ولست أحتاج أن أقول أنا جميعا من ألد خصوم الإجرام السياسي في أية صورة من الصور .

وأما الذكرى الثانية، فحكاية فرار المرحوم الشيخ جاويش من تركيا، ودخوله مصر في غفلة من الحكومة المصرية وكان على رأسها يومئذ الرجل الطيب المرحوم يحيي باشا إبراهيم .

دعاني المرحوم أمين بك إليه ذات صباح ودفع إلي كتابًا وقال اقرأ، فإذا هو مقال من الشيخ جاويش يعلن فيه أنه دخل مصر، ويسوغ اضطراره إلى التنكر والدخول خلسة،

فأشرت عليه بنشره ففعل، فقامت الدنيا وقعدت، واضطربت الحكومة، وانطلق البوليس السرى فى كل مكان، يتجسس ويتحرى، وصار الناس يفدون علينا زرافات ووحدانا يسألوننا أين هو؟ وكلهم يعتقد أننا قد خبأناه فى دار الأخبار .

وكان الدستور قد صدر، وهو يحرم نفى المصرى من بلاده، ولكن الانتخابات لم تجر للبرلمان الأول، ونحن نخشى التعسف والاعتداء على الدستور، فأشرت عليه بمقابلته يحيى باشا نفسه، وقلت إنه قاض، قبل أن يكون رجل سياسة، وضمير القاضى لا يسمح بالعدوان على القانون الأساسى للبلاد، ولا سيما إذا كان قد صدر فى عهد الرجل نفسه، فصدق ظنى ولم يخب فى هذا الرجل عليه رحمة الله، واعترف بأن الدستور لا يبيح نفى المصرى، وأنه لا يملك أن يمنع الشيخ جاويش من التمتع بالحق المكفول لكل مصرى، قلنا :

"هل للشيخ جاويش أن يظهر وهو آمن؟"

قال : "نعم، بلا مراء"

فصدرت الأخبار وفيها دعوة له أن يظهر ففعل! والظريف أن مدير الأمن العام، وكان إنجليزيا، سأل أمين بك :

"بذمتك قل لى، أليس الشيخ جاويش عندكم فى الأخبار؟"

حتى هو كان يعتقد أننا نخبئه فى دار الأخبار! ولكن الحقيقة أنه نزل المنزل الوحيد الذى لا تتجه إليه الظنون ولا تحوم حوله الشبه، وهو منزل أصهاره وآله فى الإسكندرية !

أما كيف فر من تركيا ودخل مصر متنكرا، فتاريخ لا سبيل إلى نشره الآن .

والذكرى الثالثة التى أختم بها هذا الفصل لا تخلو من فكاهة، ومن عظة أيضًا. وكنت يومئذ أتولى رياسة تحرير جريدة "الاتحاد"، وكانت وزارة زيور باشا الثانية قائمة، فذهبت إلى دار الحزب عصر يوم وصعدت إلى طبقته العليا حيث يجلس الأعضاء ويسمرون ويجتمعون، وكان التليفون على رأس السلم الخشبى، فلما صرت

على آخر درجة من السلم رأيت أحد الوزراء يتكلم فى التليفون وسمعته يقول : "تقول الوزارة استقالت؟ يا خبر أسود!" وترك السماعة معلقة بحبلها متدلية فى الهواء، وراح يضرب كفًا بكف .

فربت له على كتفه وقلت : "حلمك يا باشا! هل يعقل أن تستقيل الوزارة وأنت لا تعلم؟"

فأفاق وقال : "أى والله صحيح، ولكنى نسيت من صدمة الخبر"

قلت : "والله لتمنيت أن يكون الخبر صحيحًا!" وكنت برمًا بالوزارة كثير الإلحاح على الاتحاديين أن يخرجوا منها .

فصاح بى : "أيه؟ بتقول أيه؟"

قلت : "لا شىء! لا شىء! اطمئن فلست أنا الذى يعين الوزراء ويقيلهم" .

فأدهشنى أنه قال وهو يدخل الصالون : "الحمد لله!" .

وكان - كما هو ظاهر - يحمد الله على كذب الإشاعة، ولكن عبارة الحمد جاءت بعد كلامى أنا فلم يسعنى إلا أن أضحك .

إبراهيم عبد القادر المازنى

من ذكرياتي عن :

سعد زغلول باشا والحركة الوطنية[1]

رأيت سعداً أول مرة، وأنا طالب في مدرسة المعلمين العليا، وكنا يومئذ ثلاثة عشر في الفرقة النهائية، هم كل من بقوا، أو تخلفوا من سبعة وعشرين دخلوا هذه المدرسة أول من دخل بعد أن أعيد فتحها. وكان هو وزيراً للمعارف – أو ناظراً لها كما كان الوزير يدعى في ذلك الوقت – ولم نسع نحن إليه، لحاجة لنا، بل سعى هو إلينا ليرى هذه المدرسة التى كانت تهم أن تخرج أول فوج من المعلمين فى عهدها الجديد. وكانت الزيارة مفاجئة. وإنّا لجالسون فى حجرتنا نصغى إلى أحد المدرسين وهو يلقى درسه – وكان أساتذتنا جميعًا من الإنجليز إلا أستاذ اللغة العربية أو أدبها وأستاذ الترجمة – وإذا به داخل علينا بقامته المديدة وطلعته المهيبة وعينيه الضيقتين البراقتين، وكانت معه عصا يتوكأ عليها فى غير ضعف. فنقر على الباب مستأذنًا فى الدخول وترك العصا إلى جانب الباب من الخارج كما يترك الداخل إلى ساحة القضاء ما يحمل من مثل ذلك. فكان هذا أول درس تلقيته بما يجب لحجرة الدرس من التوقير والاحترام .

وقد حدث بعد ذلك بحوالى ثلاث سنوات، وأنا مدرس في المدرسة الخديوية أن دخل عليّ مفتش جديد لا أعرفه بغير استئذان أو نقر على الباب. فتذكرت هذا الدرس ولم يسعنى إلا أن أطرده لأصون للمعلم كرامته، وللعلم توقيره. ولم يصبنى أذى بل اضطر المفتش إلى الاعتذار بفضل رجلين، ناظر المدرسة مستر فرنس ووكيلها المرحوم على بك عمر .

---

(١) نشرت في "البلاغ" فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٣ (ص٦) .

وكنا نسمع عن سعد وشدة شكيمته فى الوزارة. ونظرنا فلم نجد معه إلا رجلين ناظر مدرستنا المرحوم إسماعيل حسنين باشا ووكيلها المرحوم على بك عمر! فهو لم يجىء إذن كما يجىء من سبقه ومن خلفه من الوزراء فى حاشية من المستشار والمفتشين الإنجليز .

وكان لابد أن يقول شيئًا لهؤلاء الذين يوشك أن يصبحوا مدرسين. فماذا نطقه قال؟ قال آخر ما كنا نتوقع أن يقول، فقد ابتدرنا بسؤال عن الحرية ما هى؟ وما مداها؟ وما حدها؟ وكانت ابتسامته وبشاشته وحلاوة صوته تغرى بالاجتراء عليه بالكلام، فقلنا وقال، وأجبنا واعترض، وتذكر بعضنا ما قرأه فى كتاب جون ستيوارت ميل عن "الحرية" فأجمله فى عبارة وجيزة لم تخل من الاضطراب والقلق والتفكك، وأدرك سعد ما تنطوى عليه من صواب فراح يحاور حتى استقامت العبارة وارتفعت المعالم، وبرزت "الحقوق والواجبات" وقضى فى ذلك معنا نصف ساعة وزيادة، ثم حيّا وانصرف .

* * *

وتألف الوفد المصرى، وانتشرت "التوكيلات" له، وذاع أنه طلب أن يؤذن له فى السفر إلى باريس ليبسط قضية مصر ويدافع عنها أمام مؤتمر فرساى. وكنت يومئذ ناظر مدرسة ثانوية، فخطر لى خاطر أجبت ما يهيب بنفسى منه فى غير روية أو تدبر، فدعوت صديقا لى وقلت له "تعال معى" قال "إلى أين؟" قلت "إلى بيت الأمة؟" قال "ماذا نصنع هناك؟" قلت "صبراً وسترى" .

وقصدت إلى بيت الأمة، وأنا لا يختلج فى نفسى شك فى أنى على صواب، ودفعت ببطاقتى إلى أحد الخدم وقلت إنى أريد مقابلة سعد باشا، فاستقبلنى محمد بك بدر – ولعله يذكر ذلك – وسألنى عما جئت له. فقلت له فى صراحة وبساطة أنى رجل معلم، وأن هذه الحركة المباركة ينبغى أن يكتب تاريخها على وجهه الصحيح مصرى نزيه قبل أن يشوهها ويمسخها قلم أجنبى متحيز أو جاهل بالحقائق، وأنا لا أرى لى عملاً يكون خيراً من كتابة هذا التاريخ، ولابد لهذا من أن أصحب الوفد فى سفره إلى باريس

ومقامه فيها لأكون على صلة به، وإني لفقير ولكني لا أعدم من يقرضني ما يكفي من المال، وقد جئت لأرجو من سعد باشا أن يأذن لي في السفر مع الوفد لهذه الغاية .

ألقيت عليه هذه الخطبة الوجيزة، ولم يخطر لي قط أن من الممكن أن يساوره شك في أمري، وكان الرجل ظريفًا كيسًا ولبقًا ذكيًا، فلم يبد عليه شيء مما عسى أن يكون قد جال بخاطره، ووعد أن يعرض الأمر على سعد وأن يرد عليّ، فشكرته، وتركت له عنواني .

وما زلت إلى اليوم أنتظر الرد !

* * *

ولعل القراء يذكرون المقال المشهور الذي نشرته جريدة مصر للمرحوم سينوت بك حنا بعنوان (إني أتهم) فقد كانت له ضجة عالية يومئذ، ولكن ما أقل من يعرفون أنه كانت لي صلة به، أو أني كنت السبب المباشر فيه !

ولهذا المقال قصة لا بأس من روايتها، وكانت "لجنة ملنر" قد جاءت وعادت إلى لندن وذاع أنها ترغب في الاتصال بالوفد المصري وكان معظم أعضائه لا يزالون في باريس، وكنت يومئذ في الإسكندرية، ذلك أن المرحوم الأستاذ عبدالقادر حمزه كان يصدر "الأهالي" هناك، فكتب إلي يقترح أن أعاونه في تحريرها، فكتبت إليه أني مرتبط باتفاق "شفوي" مع المرحوم أمين بك الرافعي على العمل معه في جريدته حين يتاح له أن يصدرها، فقبل رحمة الله أن أعمل معه حتى يدعوني أمين بك .

وعلمت وأنا في الإسكندرية، من مصدر لا يرتقي إليه الشك، أن هناك فريقًا لا يرضون عن مفاوضة الوفد للجنة ملنر، وكانت الأخبار قد تواترت بأنه مستعد لذلك، وأن هذا الفريق يسعى لتأليف وفد جديد، حتى إذا ثبت أن الوفد المصري قبل مفاوضة لجنة ملنر، ظهر الوفد الجديد وأعلن خلع القديم من الوكالة .

ورأيت أن هذا خطر على القضية، لأنه يفضي إلى انقسام في ساعة الحاجة إلى اتحاد الكلمة وتصافق الأيدي وتضافر الجهود، وما كان لنا من سلاح إلا هذا الاتحاد،

ولا كان نفعنا حيال لجنة ملنر إلا ما رأته من اجتماع كلمتنا، وإلا ما صارحها به المرحوم رشدى باشا من أنها لن تجد فى مصر قطتين تقبلان مفاوضتها فلتذهب إلى الوفد إذا شاءت أن تجد من يحق له أن يكلمها باسم الأمة .

ولم أر بأسًا من مفاوضة الوفد للجنة ملنر، فإن هذا لا يقيده، وهو حر فى رفض ما ينافى مطالبه، وهذه المفاوضة بعض السعى الذى وكل الوفد فيه حيثما وجد إليه سبيلاً، ثم إنها خير من القعود بلا عمل، وأخلق بالوفد أن يعرف من طريق هذه المفاوضة الاتجاهات الرئيسية للسياسة البريطانية حيال قضيتنا، وهذا ربح لا يستهان به .

فماذا أصنع؟ استخرت الله، وكتبت إلى أمين بك بهذا كله، وكان هو السكرتير العام المساعد للجنة الوفد المركزية بالقاهرة، وعنده الشفرة التى يخاطب بها الوفد، ورجوت منه أن يبلغ الوفد فى باريس حكاية الوفد الجديد ليكون على بينة من الأمر، وليعرف ما تستهدف البلاد له من الانقسام إذا لم يتوخ الحذر الشديد، واقترحت عليه أيضًا أن يتهيأ لإحباط السعى الخفى لتأليف وفد جديد، [.. وأبلغته] أن الأمر كاد يتم، ووعدت أن أصنع أنا واجبى فى الوقت نفسه .

وقد كان. أعد المرحوم سينوت بك حنا مقاله "إنى أتهم" لينشر فى جريدة مصر، وأعددت أنا مقالاً لينشر فى جريدة الأهالى، وصارحت المرحوم الأستاذ عبدالقادر بالأمر كله، فألقى لى حبلى على غاربى. وفى يوم واحد، صدرت جريدة مصر فى القاهرة، وفيها يهاجم سينوت بك المساعى لتأليف وفد جديد، وجريدة الأهالة فى الإسكندرية وفيها مقالى بتوقيعى وفيه أدافع عن مفاوضة الوفد للجنة ملنر وأسد عنها بكل ما أوتيت من قوة. وبهذا أوصدت الأبواب فى وجه الوفد الجديد، وفقد كل أمل فى إيجاد صحيفة واحدة تؤيده .

* * *

وهذه ذكرى أخرى أسوقها لطرافتها .

عاد سعد من أوربا أول ما عاد فخرجت الأمة كلها تستقبله وتحييه، وليس في قولي "الأمة كلها" مبالغة، فما رأيت شبراً من الأرض بين الإسكندرية والقاهرة خالياً من الناس، وقد قطع القطار المسافة في ثماني ساعات وزيادة، لأن الناس كانوا يلقون بأنفسهم على القضبان في طريقه ليقف ولأن عمال الإشارة كانوا يرفعون إشارة الوقوف في كل محطة صغيرة .

وكنت مع أعضاء الوفد في صالونه، وكان ذا شقين – أحدهما يستريح فيه سعد بين المحطات، أي دقائق، والآخر فيه بقية الوفد فأخبرني مصطفى بك النحاس (وكان يومئذ سكرتير الوفد) أن سعد باشا أوصاه أن يراجع خطبه، فإنه يرتجلها، وأن يحذف منها ما يرى حذفه مما قد يعد تهييجاً، حتى لا يؤخذ عليه شيء أو يظن أنه جاء لإثارة البلاد على الوزارة – وزارة الثقة كما كانت تسمى – وطلب مني أن أحذف نحو سطر من خطبة سعد باشا في حفلة الطلبة بالإسكندرية فقلت له أني أمليتها على أمين بك بالتليفون بعد منتصف الليلة البارحة وأني أخشى أن لا نصل إلى مصر قبل صدور "الأخبار" فقال "اصنع ما تستطيع" فوعدت .

وبلغنا القاهرة حوالي المغرب، فأسرعت إلى الأخبار – وقولي أسرعت يحتاج إلى إيضاح، فقد خلا ميدان المحطة وكل شارع بعده من الخلق جميعاً لأن الخلق جميعاً تبعوا سعداً، فلم أجد مركبة أو حماراً أو غير ذلك مما يمكن أن يركب، وقطعت المسافة إلى جريدة الأخبار بميدان الأزهار، مشياً على القدمين .

وأخبرت أمين بك بما طلبه مني النحاس بك، فقال اصنع ما بدا لك، فذهبت إلى الرقيب – وكانت الرقابة التحفظية لا تزال قائمة – وطلبت منه حذف العبارة التي يراد حذفها فأبى وقال "إن الأوامر صدرت إلى الأخبار من عدلي باشا شخصياً بأن لا يقرأوا خطب سعد باشا أو أحاديثه وأن يتركوها تنشر كما هي". فقلت له : "إن سعد باشا نفسه هو الذي يريد هذا الحذف". فقال: "أما وهذا هكذا فلا بأس"، وحذف العبارة .

وفى صباح اليوم التالى كنت واقفًا أنتظر الترام - وكان مسكنى يومئذ فى صحراء الإمام الشافعى "على تخوم العالمين" - وإذا بالمرحوم "عبد الخالق الطحاوى" شيخ التربية يقول لى وهو يركب سيارته أن سعد باشا سيحضر لزيارة مقابر الشهداء، فأمرت غلامًا هناك أعرفه أن يسرع إلى البيت فيجيئنى بورق وقلم، ووقفت أنتظر مقدم سعد، ثم إذا هو مقبل فى سيارة ومعه واصف غالى باشا، وخلفهما سيارة أخرى فيها محمد أمين يوسف بك والمرحوم سينوت حنا بك - فأشرت إليهما فحملانى معهما، وزار سعد مقبرة صهره، ثم مقابر الشهداء من المسلمين، وألقى كلمة وجيزة كتبتها، ثم ذهب إلى مقبرة شهيد قبطى فى شارع الملكة نازلى وكانت موصدة، فوقف فى طريق ضيق أمام نافذة وألقى كلمة أخرى حيا فيها ذكرى الشهداء، وكنت أضع الورق على الحائط وأنا أكتب ما يقول وظهرى إليه، فلما فرغت ودرت ألفيته واقفًا ومعه سينوت بك، فسلمت عليه لأول مرة فى ذلك اليوم، فسألنى عن العبارة التى حذفت والرقيب الذى حذفها، وكان بادى الغضب، فقلت له : "إنك أنت يا باشا الذى حذفت العبارة". فاستغرب، فقصصت عليه القصة كلها فعادت إلى وجهه الطلاقة، وقال حسنا صنعت إذ بينت لى الحقيقة فقد كان هذا خليقًا أن يكون مثار أزمة مع الوزارة .

والظريف بعد ذلك أنه قال لأمين بك أن المازنى أبرع صحفى فى العالم، لأنه ما من إنسان غير الطحاوى كان يعرف وجهته حين خرج من بيت الأمة - فكيف عرف هذا العفريت ؟

فسألت أمين بك : "وماذا قلت له؟"

قال وهو يضحك : "كل شيء يا سيد إبراهيم إلا أنك تعيش بين المقابر" .

فضحكت - ما وسعنى أن أضحك - وحمدت الله الذى سترنى ولم يفضحنى !

إبراهيم عبد القادر المازنى

عبد القادر حمزة باشا[1]

(محاضرة فى نادى نقابة الصحفيين أمس أول)

نظمت إدارة النادى سلسلة محاضرات فى موضوعات صحفية. وقد افتتحها فى الأسبوع الماضى الأستاذ الجليل خليل ثابت بك – بمحاضرة نفيسة كانت فائدتها جزيلة لنا جميعًا. وقد شكره عنا الأستاذ النقيب وأثنى عليه بما هو أهله. ولكنى أرى من واجبى أن أقدم له شكرًا شخصيًا خاصًا. فقد ألهمنى ما سمعت منه فى محاضرته القيمة أن أنهج فى هذه المحاضرة غير النهج الذى كنت عقدت العزم عليه. وأنا أعلم أنه ليس بيننا اليوم. فقد تفضل وبعث إلى يعتذر من اضطراره إلى التخلف لأن عليه أن يلقى محاضرة فى هذا الوقت عينه بالنادى الشرقى. فله منى شكران – شكر على ما أفادنى، وشكر على تلطفه وتفضله بالاعتذار. وإنه ليؤسفنى أن لا يكون موجودًا هنا اليوم. فإن وجود مثله تشجيع عظيم لمثلى. ولكن أسفى أشد لأنى لا أستطيع، وأنا ألقى هذه المحاضرة، أن أذهب لاستماع محاضرته .

والآن أستأذنكم فى الدخول فى الموضوع .

كان أول ما قرأت للأستاذ عبد القادر حمزة رواية مترجمة عن الفرنسية إسمها على ما أذكر (ضحايا الأقدار) نشرتها له مجلة مسامرات الشعب سنة ١٩٠٧ أو ١٩٠٨ وكنت يومئذ طالبًا بمدرسة المعلمين العليا. فراقنى أسلوبه. ولم أكن أقرأ مما تنشره هذه المجلة من الروايات المترجمة إلا ما كان ينقله المرحوم السباعى لجودة لغته وجزالة عباراته. وكانت قاعدتى ألا أقرأ – بالعربية أو الإنجليزية – إلا ما كانت لغته جيدة.

---

(١) نشرت فى "البلاغ" فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٤ (ص٤) .

وذلك لأنى كنت فى أولى مراحل التحصيل الأدبى. فخفت أن أتعود الركاكة والضعف، وآثرت التوقى من البداية، والتحصن من أول ساعة .

وسألت عن عبد القادر حمزة فعلمت أنه محرر بالجريدة التى كان يصدرها حزب الأمة ويتولى تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد بك تعاونه نخبة من الفضلاء والأدباء أمثال يوسف البستانى ومحمد السباعى ونجيب شاهين وعبد القادر حمزة، وكنت مواظبًا على قراءة الصحف كلها – اللواء والمؤيد والمقطم والجريدة وغيرها – وكانت الجريدة أول صحيفة ناصرت مذهبنا الجديد في الأدب .

ثم كرت الأعوام، وقامت الحرب العظمى الأولى، وكنت قد تركت التعليم بوزارة المعارف وبقيت أزاوله بالمدارس الحرة حتى كانت سنة ١٩١٨ فتوليت نظارة مدرسة ثانوية، وإذا برسالة ترد إلىَّ من الإسكندرية من الأستاذ عبد القادر حمزه يقترح فيها أن أكتب على جريدته الأهالى مقالين فى السنة، ويخبرنى أنه سيبعث إلىَّ بجريدة الأهالى طوال العام. وكنت أعلم أن صديقى الأستاذ العقاد يعاونه فى تحريرها، فلم أشك فى أن استكتابى كان ثمرة المشاورة بينهما. والأرجح أن الذى خطر له أن يستكتب كتاباً من الخارج هو المرحوم عبد القادر حمزه، وإن الذى اقترح اسمى على الأقل هو الأستاذ العقاد .

ثم كانت الثورة فانقطعت عنى الأهالى حتى هدأت الحال فسافرت إلى الإسكندرية، وزرت الأستاذ العقاد في جريدة الأهالى، وقابلت الأستاذ عبد القادر حمزة للمرة الأولى فألفيته على خلاف ما كنت أتخيله رزينًا، رصينًا، ساكنًا، بطيء الحركة، مهيب الطلعة، يزن ألفاظه وزنًا دقيقًا، فللكلمة على لسانه وقع أعمق من وقعها حين يدور بها لسان غيره .

ولم أكن أعرف شيئًا عن الصحافة سوى أنها لشأن الشعب المغلوب على أمره، الثائر نشدانًا لحقوقه. وكان خير الصحف عندى أعلاها لسانًا وأقواها بيانًا فى الدفاع عن هذه الحقوق. ولم تكن للأنباء الخارجية أو الداخلية من قيمة إلا بمقدار اتصالها عن قرب أو بعد، بقضية الاستقلال المصرى، والوفد الذى وكلته الأمة يومئذ للسعى فى سبيلها. وكانت الصحافة فى تلك الأيام عبارة عن نشرات كلها مقالات وطنية وكان كل

ذى قلم يجريه بالدفاع عن قضية وطنه، وكل ذى لسان ذرب يخطب، وكل ذى حنجرة قوية يهتف، وكل من تحمله رجلاه ولا تخذلانه يمشى فى مظاهرة. والكلمة كلها واحدة، والإجماع تام، ولا أحزاب ولا هيئات ولا أحد يجرؤ أن يشذ عن الجماعة بخلاف .

وعدت إلى القاهرة وشرعت أنشر فى جريدة النظام لصاحبها المرحوم الأستاذ سيد على، مقالات فيما يعن لى، فتلقيت من الأستاذ عبدالقادر حمزة كتاباً ينبئنى فيه أنه يحرر الأهالى وحده بلا معين، وأنه يرجو أن أبعث إليه بمقال كل يومين ففعلت ثم عاد فكتب إلىَّ يدعونى إلى العمل معه فى الإسكندرية، وكنت قد اتفقت مع المرحوم أمين الرافعى على العمل معه فى جريدته حتى يتيسر له إصدارها، وكان يوشك أن يفعل، فأنبأت الأستاذ عبدالقادر حمزة بذلك وقلت له إنى أقبل العمل معه على أن يعفينى منه متى صدرت جريدة الرافعى، فقبل وعملت معه شهرين وبعض شهر، وكانت هذه أول مدرسة لى فى الصحافة، وكان هو أول أستاذ لى فيها .

كانت حالة الأهالى سيئة، وحروف المطبعة شر ما رأيت فى حياتى حتى كنت أعجز عن قراءة مقالى فى الأهالى بعد طبعها، وكنا نتناوب الكتابة فى الشؤون الداخلية والخارجية. وكنت أذهب مبكراً إلى مكتبى ومعى مقالى. فقد كان على أن أترجم البرقيات. وأن أنقل إلى العربية ما يكتب فى الصحف الإنجليزية عن مصر وقضيتها . ولم يكن يثقل علىَّ إلا هذه الحروف التى لا تقرأ. ويا ما أكثر ما خاطبته فى ذلك وألححت علىَّ أن يغيرها. فكان لا يزيد على الابتسام وهز الرأس. وماذا يقول لغرير مثلى لم يجرب الحياة تجربته ؟

وقبل أن أترك الأهالى بنحو أسبوع قامت فى صحف القاهرة حملة من أعنف الحملات على عبد القادر حمزة وجريدته، اتهم فيها بأنه آلة يحركها محمد سعيد باشا وأنه يدس للوفد المصرى، وأن سعيد باشا يؤلف سراً وفداً ثانياً وأن النية متجهة إلى المناداة بخلع الوفد المصرى ورئيسه سعد زغلول. وأن الغاية هى شق الأمة. وإحباط سعيها للاستقلال .

وكانت تلك تهمة من أخطر التهم. وكانت الصحف التى تلقفت التهمة ونشرتها من أقوى صحف القاهرة وأعظمها رواجاً - جريدة مصر وجريدة النظام - وكانت الأهالى

جريدة تصدر في الإسكندرية ولا تكاد تقرأ في القاهرة. فلم يخالجني شك في مصير الأهالي وصاحبها. وإذا بعبد القادر حمزة يكتب ثلاث مقالات على ثلاثة أيام. فيخرج من هذه المعركة ظافرا أتم ظفر – أماط عن نفسه هذه اللوثة الفظيعة، وبرأ سعيد باشا عرضًا مما عزى إليه من السعي والدس. وانتهى الأمر بأن اعتذر إليه الذين اتهموه، وأن عرف الوفد قيمة عبد القادر حمزة. كما عرفتها أنا أيضًا .

ولم يكن عبد القادر حمزة في تلك الأيام السوداء يبدو عليه قلق أو اضطراب أو خلاف ما عهدناه من أناته وسكونه. فكان يقبل على مكتبه في موعده المألوف لا قبله ولا بعده، ويجلس إلى مكتبه، فيخرج المنفضة، فيزيل بها ما عسى أن يكون هناك من تراب، ويرتب أوراقه، ويبرى أقلامه، وتجيئه القهوة فيحتسبها.. ويرشفها. وهو يقرأ الصحف ويدون مذكرات. ثم ينظر في شؤون جريدته. وقد يبرحها ساعة أو نصف ساعة ثم يعود. ويشرع في الكتابة والرد على مهاجميه. وكانت تلك أيام معركة جدية. لها ما بعدها. فإذا لم يكسبها فهو مقضي عليه لا محالة. ولكنه كما قلت لم يضطرب ولا جزع. ولا فقد اتزان أعصابه المشهور .

وعاد سعد باشا بعد ذلك. فاتفق مع الأستاذ عبد القادر على أن ينقل جريدته إلى القاهرة. مركز الحركة كلها والجهاد أجمعه. وأن تكون لسانًا للوفد المصرى، ولم يكن هذا عجيبًا فقد كان الوفد هو الهيئة السياسية الوحيدة في البلاد، وكان يضطلع بأعباء وكالة شعبية لا شك فيها ولا مراء وكانت الصحف كلها معه، والأمة بأسرها وراءه، ولكن سعد باشا مع هذا كان بعيد النظر في الاتفاق مع عبد القادر حمزة .

وكانت الصحافة في ذلك الوقت تقود الشعب بالمعنى الصحيح. فقد كان الشعب معظمه من الأميين – ولا يزال كذلك إلى حد كبير – وكان السواد الأكبر والجمهور الأعظم من المتعلمين يقرأ ويكتب. ولكنه لم يتعود التفكير الحر المستقل وكان يصعد طرفه إلى الصحفيين الذين يكتبون تلك المقالات الحامية. ويرى أنهم أحكم منه وأرشد. وأرقى منه ثقافة. وأعلم ببواطن الأمور. وكان هذا صحيحًا إلى حد ما. وكان الذى ينشر في الصحف يؤخذ مأخذ التسليم. فالذى تقول الصحيفة أنه الحق، لا يكون إلا حقًا. كان هذا موقف أنصاف المتعلمين من جمهور الأمة من الصحف قبل ربع قرن.

وقد آذنت هذه الحالة بالتغير. لأن هذا الجمهور من أنصاف المتعلمين قد بدأ يشب عن الطوق. ولأن ما بلاه في ربع قرن قد خيب أمله في أمور كثيرة وأورثه الشك فيما كان يخلد إليه بالثقة. وفي كل ناحية من نواحي المجتمع تطور - أو على الأقل مخاض شديد - والعوامل من كل جانب تبني وتهدم وفي كل جانب من جوانب الحياة انقلاب مضمر يوشك أن يعفي على الآراء ومذاهب الفكر والتقاليد الموروثة. ولا يخلو هذا التطور الذي نجتاز مرحلته الآن من سخافة ودجل وغفلة ولكنه لا يخلو أيضًا من مساع جليلة واتجاهات مرضية .

كانت الصحافة في زمن عبد القادر حمزة تقود الأمة وتأخذ بيدها وتوجهها وجهتها. أما الآن فإنها تصانع الجمهور لأن المنافسة بلغت حداً أغرى بذلك. وقد أصابت الصحافة نجاحًا لم يكن معهوداً من قبل. ولكنه نجاح لا يبعث على الاطمئنان. وصحيح أنه نجاح من الوجهة المادية أو الحسابية ولكنه من الوجهة الصحفية الفنية لا يعد كذلك. ذلك أن الصحيفة يجب أن تعتمد على نجاحها على قيمتها الصحفية. ولكن الصحف تنال الرواج - أي النجاح المادي - بوسائل لا علاقة لها بوظيفتها أو مزيتها الصحفية وقد رأينا قبل الحرب كيف لجأت الصحف إلى الجوائز والمكافآت والمسابقات واليانصيب وغير ذلك مما لا صلة له بالصحافة. ولست أستنكر ذلك أو أذمه وأعيبه. فإني أستطيع أن أدرك أن هذا إنما كان لشدة المنافسة. ثم لأني أدرك أيضًا أن هذا كان له بعض النفع. فقد أدت هذه الوسائل إلى انتشار الصحف. ومعنى انتشارها أن الناس تعودوا قراءتها وهذا ربح ولا شك .

ولعل من الأسباب أيضًا أن نفقات إخراج الصحف أصبحت باهظة. فلا مفر من الاعتماد على الدخل الذي يجيء من الإعلانات. ومن المعروف أن قيمة الإعلان رهن بمبلغ رواج الجريدة .

بعد هذا الاستطراد أقول أنه في القاهرة أصدر صحفًا مختلفة الأسماء ولكنها كلها تعد صحيفة واحدة، وكان السبب في ذلك اضطهاد الحكومات المصرية المتعاقبة لمخالفيها أو معارضيها في الرأي من أصحاب الصحف، وتلك إحدى جنايات هذه الحكومات على الصحافة الوطنية. وما كسبت تلك الحكومات التي كانت تضرب بسيف

التعطيل والإغلاق شيئًا ولا أجدى عليها أنها حاربت الرأى المخالف أو المعارض. وكل ما أثمرته خطة العسف هو الإساءة إلى الصحافة الوطنية. فما يمكن أن تقوى أو تغنى صحيفة تعطل مرة ومرتين فى كل عهد فتفقد مواردها من إعلانات وبيع واشتراكات وقراءها الذين يضطرون أن يتحولوا إلى غيرها، فلا عجب إذا كانت صحف الرأى ومن بينها جريدة الأستاذ عبد القادر حمزة باشا عانت متاعب جمة. ولا أعرف أحدًا قاسى ما قاساه من هذا العسف إلا أن يكون الحزب الوطنى قبل الحرب الماضية. فقد عطلت له نحو أربع عشرة صحيفة. ومع ذلك لم تنقطع صحيفته عن الصدور فكان يستأجر الصحف أو يستصدر رخصًا بأسماء صحف جديدة حتى البلاغ اضطر أن يصدره مرة باسم (البلاغ الجديد) .

وقد عملت معه فى كل صحفه تقريبًا من الخارج وكنا نتفق ونختلف فى السياسة، فإذا جاءت الحوادث مما يدعو إلى الاتفاق استكتبنى حتى إذا آذنت الأحوال بوشك الاختلاف اعتذرت إليه وكففت. وهكذا دواليك إلى أن وسعه أن يجعل جريدته مستقلة سياسيًا. فانضممت إلى زملائى فيها. ولى فيها الآن حوالى إحدى عشرة سنة أو أكثر. فما أذكر فى كل هذه المدة – إلى أن وافاه الأجل – لا أذكر أن صوته ارتفع، أو أن وجهه اربد من غضب، أو أن لسانه جرى بكلمة نابية أو جافة فى خطابه مع أحد من مساعديه. ولم أعرفه قط غمط أحدًا فضلاً. أو قصر فى الثناء على محسن. وكان البلاغ، وما زال ولله الحمد، جمهورية صغيرة ليس فيها كبير وصغير، أو رئيس ومرءوس، ولم يكن عبد القادر باشا فى هذه الجمهورية إلا أكبر أعوانه سنًا وأرشدهم، وإلا والدًا أو أخًا أكبر، وأوفى من سواه علمًا وخبرة، وأحرى من أجل ذلك أن يكون أسدّ رأيًا، وأقوم سبيلاً. وعلى الرغم من الواقع كنا أحيانًا ننسى أنه صاحب الجريدة. همّ ذات يوم بالاستغناء عن زميل لنا، فذهب إليه أحد أعضاء هذه الأسرة واحتج عليه، وأنكر حقه فى ذلك، وقال له فى جملة ما قال – وأنا حاضر – إن البلاغ ليس لك وحدك. بل كل أعوانك هنا شركاء لك. وجهدنا المجتمع هو البلاغ. فاستمع إليه وطيب خاطره وسرفه مطمئنًا. وعدل عما كان هم به .

وكان لا يستبد برأى أو ينفرد بتقرير خطة. وكان دأبه أن يشاور أعوانه جميعًا أو من تتيسر مشاورتهم. فى النهج الذى يعن له أن ينهجه والرأى الذى يراه. وكان كثيرًا ما يعدل إذا اقتنع بأن الصواب فى العدول ولم يكن يأنف أن ينصرف عن الكتابة. ويلقى القلم إذا أبدى له وجه يدعو إلى الانصراف والكف. ولم يكن يطوى شيئًا أو يكتم حقيقة .

ولم تكن الصحافة عنده تجارة، ولا كانت غايته منها المال يفيده ولو كان الأمر كذلك لوسعه أن يخلف ثروة ضخمة. ولكنه لم يكن يحفل بالمال أو يعبأ به شيئًا. وكان إذا أيسر ينفق بغير حساب. وإذا أعسر آثر التجمل. وأبى أن يضعضعه الضيق. وحزم أمره وتجلد وتشدد حتى يفرجها الله. ولم يكن يقعد منتظرًا الفرج. بل كان يعمل ويكد ويتصرف حتى يخرج من المأزق الذى زجت به فيه الظروف .

وكانت الصحافة عنده أداة لخدمة بلاده، فجريدته من هذه الناحية تعد من صحف الرأى. وما زالت كذلك. ولم يكن يتجر برأيه أو يضع قلمه فى سوق الدلالة. وأنا أعلم علم اليقين لأنى كنت من الشاهدين أنه خوطب مرة فى التحول عن رأيه أو على الأقل فى الكف عن الجهر به والإلحاح فى إبدائه، فأبى، فعرض عليه قدر من المال ظل رقمه يكبر حتى دار رأسى وهو يأبى ولا يتردد أو يتلجلج أو يستأنى أو يستمهل حتى يشاور نفسه، وأنا ألومه على الرفض، وأثقل عليه بالإلحاح أن يقبل، فلا يزيد على أن يهز رأسه ويقول "إن شر ما يمكن أن يحدث هو أن أعطل البلاغ، ولست أول من اضطر إلى مثل ذلك وهذا خير عندى مما ترى لى أن أقبل"، وكنت فى قرارة نفسى أوافقه على ذلك فأمسكت. ولم يكن هذا بالعرض الوحيد الذى تلقاه وأباه .

ولكنه على كونه صاحب رأى أولاً وآخرًا لم يكن يغفل الجانب الصحفى، وإن له لابتكارات فى الصحافة لم يسبقه إليها أحد، فمن حقه أن تذكر له .

كان يدرك أن الصحيفة إنما تكون صحيفة بالأخبار فكانت عنايته بها لا تدانيها إلا عنايته ببث رأيه. وكان هو هو المخبر الأول يدور على مصادر الأخبار ويستقيها ويتحراها ويكتبها بنفسه. وكان بارعًا فى صوغها ووضع العناوين الدقيقة المشوقة لها. وقلما كان يسلم عنوان يضعه غيره من تبديل وتنقيح. ومن أجل هذا كانت شكواه منى

لا تنقطع، فإنى لا أحسن أن أكتب عنوانًا، فكنت أكتب المقال وأدفعه إليه بلا عنوان فيضطر أن يقرأه ويضع له العنوان الموافق. وأتعبه ذلك وكانت صحته قد ساءت. وتكرر عتبه عليّ، فخجلت ورأيت أن أبرئ ذمتى بأن أكتب أى عنوان يخطر على بالى، فلا يرضى عنه، ويحتاج أن يقرأ المقال ويقول لى: "يا أخى هذا مقال آخر وليس بعنوان" ولكنه لم تكن لى حيلة ولقد أخرت كتابًا لى فى المطبعة عامًا حتى أهتدى إلى اسم له .

ومن ابتكاراته أنه أول من عنى عناية جدية بالأحاديث السياسية والاقتصادية وغيرها. وأول من استكتب لصحيفته بانتظام أدباء وعلماء وفنانين وإخصائيين، كلا فى بابه، فجعل من جريدته صحيفة يومية ومجلة فى آن معًا.

وكان يدرك أصح الإدراك أن الجمهور شريك مسيطر على العلاقة بينه وبين الصحيفة، وأن الوقت الذى كانت فيه الصحافة توجه فيه الجمهور كما تحب يوشك أن ينقضى، وقد تستطيع الصحف أن تخدر الجمهور وتضله وتشوه رأيه وتهبط به أيضًا، ولكنها لا تقدر على ذلك إلا إلى حين وسيكون عليها آخر الأمر أن تتوخى ما يوافق ذوقه وما يلائم مبلغ ذكائه، والذوق العام يرتقى شيئًا فشيئًا، وهناك عوامل كثيرة تؤدى على ذلك مثل انتشار التعليم ونشر الثقافة، ولكن أكبر عامل شعبى هو الراديو، والراديو أقوى أداة عامة للتهذيب والتثقيف، وما زال الآن قاصرًا أو مقصرًا على الأقل فى بلادنا، ولكن الاحتمالات لا آخر لها وما يدرينا؟ لعل يومًا يجيء يضطلع فيه الراديو بنصيب من تعليم الأمة وتربيتها على أن هذا لا يعنينا الآن، وإنما أردت أن أقول أن عبد القادر باشا كان يدرك أن تأثير الراديو يعظم يومًا بعد يوم، وأن على الصحافة أن تفتح عيونها وتحذر فإن للراديو من الحرية والاستقلال ما ليس للصحافة، وفى وسعه أن يجازف ويتعرض لسخط فريق من جمهور المستمعين إذا اعتقد رجاله أنهم على الطريق السوى، كما لا تستطيع الصحافة أن تفعل، فإن الصحيفة التى تنفر قراءها تدفعهم إلى صحيفة أخرى. أما المستمعون فلا يسعهم أن ينصرفوا عن الراديو إلى سواه لأن كل بلد تقريبا قد جرى على الاستئثار بجوه. فإذا كره المستمعون برنامجًا لم تكن لهم حيلة لأنه ليس ثم محطة محلية أخرى، وكل ما يسعهم هو أن يكفوا عن الاستماع ولكن إلى حين، وقد يشكون إلى الصحافة ولكنهم لا يعدمون فريقًا من الجمهور يرضى عما يسخطهم، وقد يبلغ من غضبهم أن يحطموا جهاز الاستماع

ولكنهم يعودون فيشترون غيره، وفى هذا نفع لصناعة أجهزة الاستماع وخسارة عليهم. ومن مزايا الراديو أنه يستطيع أن يقسم المستمعين طوائف لخير الجميع فيذيع لكل طائفة ما يوافقها ويرتب برامجه بحيث يرضى كل فريق بدوره، وليست الصحافة كذلك ولا هذا فى وسعها. والراديو يستطيع أن يعرض كل مسألة عرضًا موضوعيًا يورد فيه الحقائق الثابتة من كل جانب. فيفهم السامع الموضوع على وجهه ويتسنى له أن يكون رأيه الخاص. أما الصحف فالأغلب والأعم أنها تعرض الحقائق من جانب واحد بحسب وجهتها الخاصة .

كان عبد القادر باشا يدرك هذا أصح إدراك. ولهذا كان يعنى بأن يدعو الإخصائيين فى أبواب شتى أن يكتبوا إليه بتوقيعهم. والذى يراجع أعداد البلاغ يجد فيه مقالات منوعة لرجال بارزين أو أحاديث لكبراء أو وزراء قالوا أو فعلوا أو حاولوا شيئًا حرك الجمهور أو خياله أو اهتمامه .

ولم يكن فى صحف مصر فى عهده صحيفة أخرى تجد فيها كل يوم صفحة كاملة مفردة لموضوع خاص يكتبها له فى الأغلب رجل اختاره هو للموضوع. وليس من الشطط فى التخيل أن نتصور الصحف بعد الحرب وقد عادت إلى مثل هذه السنة وتوسعت فيها، وأن ترتقى فى ذلك حتى تنافس معاهد العلم والأدب والجامعات. وأن نرى الصحف تقدم لقرائها بسلسلة مباحث منظمة فى الدراسات الجامعية، وأن تستعين فى ذلك بأساتذة من الجامعات تفرد لكل منهم أعمدة خاصة يشرحون فيها موضوعاتهم ويبسطون نظرياتهم ويوجهون فيها القراء الراغبين فى التحصيل من هذه السبيل. ولا يبعد أن تعقد امتحانات لهذا الفريق من القراء وأن تمنح درجات أو دبلومات وأن يصبح من مفاخر كل جريدة أن لشهادتها قيمة ويكون موضوع التنافس أن دروس الأساتذة الصحفيين فى هذه الجريدة أجود أو أن الشهادة التى يمنحها الطالب أرقى. ولعل هذا كله شطط ولكن من الذى يسعه أن يجزم بأن هذا لن يكون بعد نصف قرن مثلا ؟

ولم يكن لعبد القادر باشا سوى همين اثنين: جريدته وبنيه. وكان دائم التفكير فى هذين صبحًا ومساءً. كل ما يكمل لجريدته القوة والاحترام على الخصوص لا يحجم عنه ولا يتردد فيه. وكل ما يكفل لبنيه السعادة لا يدخر فى سبيله مالاً أو جهداً .

سمع مرة أن الطيار "حاذق" يريد أن يقوم برحلة إلى العراق فإيران فالهند. فدعاه إليه واتفق معه على أن يشترك البلاغ فى هذه الرحلة واقترحت أنا أن أرافقه فيها باسم البلاغ. فأشفق علىَّ لأن الوقت كان شتاء والطائرة طائرة تعليم صغيرة مكشوفة، ولكنى أصررت. فشرع يعد العدة مثل الاتفاق مع شركة الايسترن وماركونى والتأمين على حياتى ثم حدث خلاف يسير بينه وبين "حاذق" على بعض التفاصيل، وخوفه مدير الطيران المدنى يومئذ علىَّ فخرج من الأمر. وقام "حاذق" برحلته وحده ووفق فيها أتم توفيق وأظن زميلنا الأستاذ عزيز طلحة يعرف هذه القصة .

ولما أتم الأستاذ محمد حمزة تعليمه وتخرج فى كلية الحقوق، وآنس منه ميلاً إلى الصحافة ألحقه بتحرير البلاغ ودربه على كل باب من أبواب العمل فيه مبتدئًا بإعداد صحيفة الصور حتى صار الأمر إليه كله فى حياته.

وكان البلاغ مقدماً عنده حتى على نفسه وكانت صحته مضعضعة فى السنوات الأخيرة. فكان يحتاج إلى الراحة والاستشفاء. فسافر مرة إلى أوروبا لهذا الغرض، وما إن بلغ مرسيليا حتى عرف أن تغييراً سياسيًا وقع فى مصر فأشفق منه على جريدته، ولم ير أن يتركنا وحدنا فى هذا المأزق فعاد إلى مصر على نفس الباخرة التى أقلته إلى مرسيليا. وكان منهكًا فاضطر إلى ملازمة الفراش فى الإسكندرية أكثر من أسبوع. ولكنه على كل حال قريبًا من جريدته مطمئنًا عليها وإن كان المرض يحول دون العمل.

وكانت كل مهمة صحفية خارج القطر يوفد إليها ابنه الأستاذ محمد ليزيد تجاربه ويوسع نطاق خبرته. دخلت عليه ذات صباح فالفيته على خلاف المعهود فيه من الأناة والسكينة وقلة العجلة فقلت: "خيراً إن شاء الله". قال: "محمد عائد من إيران بالطائرة". قلت: "الحمد لله على السلامة". قال: "وأنا ذاهب لاستقباله". قلت: "إن هذا يدعو إلى السرور ولا يدعو إلى الاضطراب". قال: "اسكت يا شيخ، مات له اليوم ولد". ثم كأنه كره هذا التعبير الذى يوقع فىَّ الروع أكثر من الحقيقة وغلبته دقته المعهودة فقال: "إنه لا يعلم أنه رزق ولداً مات". يعنى أن الولد ولد ميتًا. ومع ذلك كان قلقًا مكروبًا مضطربًا لأول مرة فيما أرى وأعلم، وإن كان ابنه لا يدرى، وكان كل شىء غير احتساب هذا الجنين يدعو إلى الرضى وحمد الله. وهذا يريكم مبلغ حنوه ورقته لبنيه .

وعلى الرغم من ضعف صحته، ونصح الأطباء له بالراحة، لم يكفه العمل نهاره فى البلاغ، فكان لا ينفك على اتصال وثيق بكل مصادر الأخبار فى البلاد. وكان فوق هذا يدرس ويفكر ويؤلف كتابه (على هامش التاريخ المصرى القديم) وكان بحثًا مضنيًا، لأنه يحتاج فيه إلى مثل دراسة العلماء بالتاريخ المصرى القديم والآثار الباقية من ذلك العهد السحيق. ثم إنه يحتاج إلى جهد عقلى مرهق. ولأنه لم يكن يكتب تاريخًا، وإنما كان يستخلص نتائج مما كشف عنه البحث والتنقيب. ولا حاجة بى إلى الإطالة فى الكلام فى هذا الكتاب، وحسبى أن أقول أنه مفخرة باقية له، وأنه نشر به ما طواه الزمن من مدنية مصر، وأنه إحياء لخير ما فيها وأمجد ما تدل عليه، وهو فوق ذلك تزويد للأجيال الحاضرة ببواعث الهمة وحوافز العزم والطموح .

ومما يجب أن يذكر له كدليل على نفاذ بصيرته أنه كان يريد أن يكتب بحثًا يثبت به ما ثبت عنده من أن الديانة اليهودية مستمدة من الديانة المصرية وعلى الخصوص من الدين الذى جاء به إخناتون ولكنه كان يخشى أن يساء تأويل ذلك وكان يكره بطبيعته أن يتعرض للمسائل الدينية، ولم يجد معه إلحاحى عليه أن يقدم ولا يتهيب.

وبعد وفاته رحمة الله بعامين أو أقل قليلاً، ظهر كتاب لفرويد العالم النفسانى الإسرائيلى المشهور يذهب فيه إلى أن موسى عليه السلام مصرى، وأنه اتخذ اليهود شعبًا له وخرج بهم من مصر ولقنهم دينه الذى هو دين اخناتون .

* * *

وبعد فقد أطلت عليكم وأخشى أن أكون أمللتكم وإن كان مجال الكلام ما زال ذا سعة عظيمة فيحسن أن أكتفى بهذا القدر، ولكنى أحب أن أقول قبل أن أترك هذه المنصة. أنى لا أزعم – ولا أحد يزعم – أن إنسانًا ما يخلو من مآخذ، ولم يكن عبد القادر حمزة بدعًا، ولكن هذا لا قيمة له فإن الناس تختلف آراؤهم فى النظر إلى الأمور والسلوك والسيرة على العموم والذى تعده أنت عيبًا قد أعده أنا مزية، والذى تراه أنت ضعفًا فى قد أراه أنا فضيلة أباهى بها وأزهى، فليس ثم ضابط فى الحقيقة أو ميزان دقيق يجيز البت والجزم. وأعدل نهج فيما أرى هو أن ننظر إلى جانب الفضل والمزية وجانب النقص أو القصور، فتضع هذا فى كفة وذاك فى كفة. فإذا رجح جانب

الفضل وجب الحكم بالمزية بلا تردد وإهمال الجانب الآخر؛ فإن النقص أصل فى الإنسان وقديماً قال الشاعر كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه، وحسب أى امرئ ألا تكون له معرات، أما الهنات اليسيرة التى لا تخلو منها الطباع الآدمية فلا يتعلق بها ولا يعتى بحسابها إلا ظالم أو جاهل أو متعسف .

وإذا كان لعبد القادر باشا هنات أو أخطاء فإنها كانت قليلة وهينة، لا تحسب إلى جانب فضائله ومزاياه. وعلى أنى لا أعرف أحداً جنى عليه عبد القادر باشا ولو كنت أعرف لما ترددت فى الجهر بذلك، وإنما الذى أعرفه أنه ما جنى إلا على صحته ولا كلف شططاً إلا جسمه .

كان يسعه أن يكون كما يشاء – وزيراً أو رئيس وزارة أو ثريا واسع الغنى، فلم يعبأ بهذا كله ولا ألقى إليه بالاً وآثر أن يكون صحفيًا يخدم قضية بلاده بقلمه وإخلاصه. فهو ينبغى أن يسلك فى نظام واحد مع شيوخ الصحافة المصرية مثل مصطفى كامل وعلى يوسف وأمين الرافعى وتقلا، ومع الرعيل الأول من الوطنيين أهل التضحية والإيثار مثل مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وأمين الرافعى، ومع رجال العلم الذين خدموا بلادهم بالتوجيه الثقافى، ثم مع الأدباء الذين رفعوا الأسلوب الصحفى ورقوه وأدنوه من لغة الأدب. وقد كان صاحب أسلوب فذ يمتاز بالدقة والإحكام وإشراق الديباجة ونصاعة البيان ومتانة البنيان .

هذا فيما أعتقد هو التقدير الصحيح لعبد القادر باشا. فإذا كنت قد وفقت فى بيان حقه فيه فلله الحمد والمنة. أما إذا كنت قد قصرت – وهو ما أخشاه – فعذرى أنى إنسان محدود الطاقة .

إبراهيم عبد القادر المازنى

عبد الرحمن البرقوقي[1]

رحم الله البرقوقي! قضى نحبه فى جيل أكبر الظن أنه لا يعرفه معرفته، وكان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه، بل كان يمثل عهداً من عهود الأدب، ولكن التيار نحاه عن مجراه، فقعد على الشط، ينظر ويتأمل، ويعجب ويدهش، ويهز رأسه – يمنة ويسرة على عادته – هزة من يفهم ويعذر – لأنه مدرك – ولا يستنكر ويتسخط، وفى يده قلمه، وأمامه محبرته، وفى حجره صحيفته، فما هـراق الزمـن من مداده، ولا كسر قلمه ولا بعثر أو أطار كراريسه حين دفعه إلى الشط، أو حين ونى هو وكل عن مسايرته فمال عن طريقه، وآثر أن يلقى العصى ويقعد مطمئناً .

وكان زميلنا السباعى رحمة الله يمزح فيسميه "الشيخ شرف" ولكنه مزح مبطن بجد، وكان الشيخ البرقوقى يومئذ قد أعد العدة لإصدار مجلته المشهورة "البيان" واتخذ من السباعى عوناً له وقال له فى جملة ما قال: "أوصيك بالحرص على شرف الديباجة" فضحك السباعى ضحكته القوية ذات الترجيع وقال: "أهلا بالشيخ شرف" وصار بعد ذلك يعرفنا به بهذا الاسم، والبرقوقى لا يغضب ولا يزيد على الابتسام وهز الرأس، فقد كانت فيه فطنة إلى الفكاهة، وحسن فهم لما يحول دون الغضب أو الاستياء .

و "شرف الديباجة" هو ما كان المرحوم البرقوقى يتوخاه فيما يكتب، وقد أنشأ مجلة البيان لخدمة الأدب كما يفهمه هو، ولعلة كان يطمع أن يحل بها محل المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى، فقد كانت له مجلة بهذا الاسم. وكان البرقوقى واسع الإطلاع على الأدب العربى، حسن الفهم له، وقد درسه على الشيخ المرصفى فى الأزهر،

(١) نشرت فى "البلاغ" فى ٤ يونيه سنة ١٩٤٤ (ص٤) .

واستفاد من دروس الشيخ محمد عبده وعنايته بدلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة للجرجاني، وتوسع هو بعد ذلك في التحصيل والدرس، ولكن الأدب الغربي كان يخايله، فيود لو تيسر له أن يطلع عليه، ولا يجد إلا ما نقل منه إلى اللغة العربية، وما أقل ذلك، وكان يعرف للمذهب الجديد في الأدب العربي بمصر حقه وفضله، ويكبره ولا يغمطه، وكان رجلاً أوتي حسن الفهم وصحة الإدراك، وسعة الصدر التي تدفع إلى سرعة الإقرار لكل ذي فضل بفضله، في غير تردد أو تحفظ، ولهذا بريء من المكابرة والتعصب .

وكانت بينه وبين المرحوم مصطفى صادق الرافعي صلة نسب أو قرابة – لا أدري – وكان يعده أكتب الكتاب وأفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء، وأخرج الرافعي كتابه "حديث القمر" فرأيت فيه غموضاً كثيراً في مواضيع عدة، فقلت للبرقوقي يوماً: "هذا صاحبك ماذا تفهم من كتابه؟" فنقل هذا إلى الرافعي، فرأيت أن أكتب إلى الرافعي في ذلك اتقاءً للغلط في النقل أو المبالغة فيما قلت فيه. واتفق أن قدم الرافعي، فاجتمعنا به عند البرقوقي – الأستاذ العقاد، والمرحوم السباعي، وأنا – وكان الرافعي حريصاً على نفي الغموض، وكنا نحن حريصين على إنصافه، فتناول نسخة من كتابه "حديث القمر" وانطلق يقرأ ويفسر، على غير جدوى في الأكثر، وماذا يمكن أن يفهم إنسان من مثل قوله "التراب الأبدي الذي يتساقط به الليل؟" وطالت الجلسة، وكاد ينتصف الليل، وأذكر أني قلت للبرقوقي قبل أن ينفض ذاك السامر: "ما رأيك؟" فهز رأسه وقال: "والله غامض!" وأذكر أن بعضنا – لا أدري أينا – سأله: "وهل يكون الغموض بياناً وفصاحة؟" فهز رأسه ثانية وقال بلا تلعثم: "أبداً". وما سقت هذا الحديث لأغض من قدر الرافعي فإني أعلى به عيناً من أن يخطر لي ذلك، وإنما سقته لأقول أن البرقوقي كان رحيب النفس لا يتعصب ولا يكابر ولا يأبى الاقتناع .

ومن تلهفه على الإطلاع على أدب الغرب وكل إلى السباعي ترجمة ما يختار من آياته لمجلة البيان، فنقل إلى العربية كثيراً من هذه البراعات، وكان وهو يكتب "حضارة الإسلام في الأندلس" يسألني أحياناً عما قرأت في نشوء الحضارات باللغة الإنجليزية، فأفضي إليه بخلاصة ما اتفق لي قراءته فيحسن الإصغاء ويدون ما يراه جديراً بالتدوين ويحاول أن ينتفع بذلك فيما يكتب عن حضارة الإسلام .

كان يرجو أن يكون "بيانه" خلفا لبيان اليازجي، ولكنه أراد شيئًا وأراد الله خلافه، فصارت مجلة البيان صحيفة لأهل المذهب الجديد في الأدب – العقاد وشكري، والسباعي، وهيكل، وكاتب هذه السطور وغيرهم – ولم يكن ذلك التحول برغمه، أو على غير هواه ولا كان بادي الزهادة فيه أو قليل الرضى عنه، فما كان له هو مذهب خاص في الأدب يدعو إليه، ولا كان له هم إلا جودة العبارة وجزالة الأسلوب، ومن حسن الاتفاق أن دعاة المذهب الجديد يعنون بإحكام الأداء ودقته ووفائه كعنايتهم بالإخلاص وصدق السريرة وصحة النظر واستقامة الفكر والتنزه عن التقليد والمحاكاة .

وهكذا صار للبرقوقي فضل يذكر فيشكر على الأدب العصري والمذهب الجديد الذي جاء به دعاته. وقد ضيع الرجل ماله في هذه السبيل، حتى كاد ينزف. وكان غير حكيم في أمر المال، وكان يضع كتبه الخاصة في مكتبة "البيان" وينسى فيبيع من كتبه، وبينها طائفة نادرة، ثم يفطن إلى ما كان منه فيضرب كفًا بكف ويتحسر، وكان استرد بعض ما باع من هذه، ولكن بأضعاف ما قبض من ثمنها .

وكان ذا مرح ولهو، ولمجلسه إيناس ولحديثه إمتاع، كان إلى هذا ذا جلد عظيم، مصدره صحة إدراكه لقيمه ما يعرض للإنسان من خير وشر، فكان إذا أصاب خيراً، لا يخرج عن طوره، ولا ترى أثر ذلك إلا في لمعة العين وإشراق الوجه وافترار الثغر، وإذا نزل به مكروه لم يزد على هز الرأس، وتلك كانت عادة له .

وليست مجلة البيان كل ماله، من آثار، فقد شرح ديوان المتنبي، وديوان حسان وأخرج مجلداً ضخماً، سماه "الذخائر والعبقريات" وهو مختارات مما استجاد من أدب العرب، وهو جزء أول كانت نيته أن يتبعه أجزاء أخرى، ولكن أجله جاء فجأة على ما يقال، فقد كان قوى البدن صحيحه، ولكن المنايا لا تحتاج إلى استئذان أو تمهيد، أو تسويغ لموافاتها. وما أحسبه عبأ بذلك شيئًا، فإن عهدى به أنه كان يتلقى كل شيء بالتسليم، ويؤثر ذلك على عناء المجاهدة والمقاومة، لأنه كان بطبعه مسالمًا غير محارب، ومن أجل ذلك كان طويل الصبر .

ومن العسير أن تعين للبرقوقي مكانًا بين رجال الأدب، ونقول هنا محله دون غيره بلا مراء، فقد كان بفضل تربيته وتحصيله من أهل الرجعة إلى القديم، وكان بأسلوبه متكلفًا، ولكن ذلك غلب عليه حتى صار طباعًا فيه، غير أنه كان يحب الجديد ويكبره ويحاول أن يقيس عليه ولا يقعده عن ذلك إلا أن الأداة لا تؤاتيه أو تسعفه، وكان نصيرًا للأدب الحديث، وإن كانت مناصرته له تجرى مع ما فطر عليه من إيثار المسالمة والدعة والراحة وإدراكه أن الدنيا يطيب فيها الجديد كما يطيب القديم المألوف، وتتسع لهما معًا ولا تضيق بهما. ولعله لو كان درس لغة أوربية لاختلف مذهبه، ولكنه لم يفعل فبقى على النهج الذى شب عليه، فظلت له قدرة على معالجة القديم دون أن يستفيد قدرة على خلق جديد. وقد كنا نذكره قبل وفاته بأيام، فقال الأستاذ سلامة موسى، إن مجلة البيان كان ينبغي أن تبقى، فإنها تمثل أسلوبًا خاصًا. وهذا صحيح إذا اعتبرنا أن صاحبها كان له أسلوبه الذى يتفرد به ولا يقلد فيه كاتبًا قديمًا بعينه، وإنما يدخل فى باب التقليد لأنه يجرى فيه على النهج القديم في الاستعارة والمجاز وقوالب التعبير الموروثة على العموم من العصر الذى صار فيه تأليف الكلام صناعة، ولكنه ليس بصحيح إذا اعتبرنا أن البيان كان مسرحًا للأقلام، ولم يكن كبيان اليازجي لا يكاد غيره يخط فيه حرفًا إلا فى [الندرة] القليلة .

وقد أسفت لأن نعيه لم يبلغني إلا فى المساء، فلم يتسن [لى] أن أقضى حقه علىّ، وأشترك في تشييعه، وإن كان من رأيى أن الاحتفال بالتشييع عبث وباطل، وأنه ينبغى أن نكون أفهم للموت من أن نتكلف هذا المحال، وأصح إدراكًا لمعناه من أن تقيم الدنيا ونقعدها حين يدرك بعضنا قبلنا .

ونحن نسميه الموت، ولكنى لا أظن "الحياة" تعرفه بهذا الاسم، وهل هو فى حقيقته أكثر من تحول تقتضيه سنتها و [آيتها] من مادة فى صورة ما إلى مادة أو مواد فى صور أخرى، وتبقى بذلك، ويعد ذلك الحياة مستمرة فيما يتيسر لها من صور وفق قانونها الأبدى؟ ولكنا أوتينا الشعور بالذات وآلة الفكر، فصارت مصيبة الفرد كبيرة، وإن جنت جملة الإنسانية من هذه المصيبة خيرًا جزيلاً. ولو حرمنا الشعور بالذات دون العقل أو العقل دون الشعور بالذات لكان الخطب أهون. والله أعلم .

إبراهيم عبد القادر المازنى

أولادى(1)

لم يرزقنى الله غيـر البنين، ولو وهبنى البنات لكان أشـرح لصـدرى وأبعث على رضاى، فأنا على خلاف أبى حمزة، الذى تقول امرأته فى أرجوزة لها أنه :

"يظل فى البيت الذى يلينا
غـضـبـان أن لا نلـد البنينا
تـالله مـا ذلك فى أيـديـنـا
ونحن كـالأرض لزارعـينـا
ننبت ما قـد غرسـوه فينا"

ولكنى لا أغضب كأبى حمزة، ولا أهجر البيت كهجره، من أجل أن امرأتى لا تلد لى البنات. وقد رضينا قسمة "الجبار" فينا، وحمدنا الله عليها، وكففنا عن الاستزادة منها، وفى ثلاثة من البنين الكفاية لمن يبغى "الذرية الصالحة" وهم فوق الكفاية لمن كان أولى به وأرشد له أن يعيش مستفرداً واجداً، ولكن هيهات أن يؤتى الشباب حكمة الكهولة، وأن ينظر الفتى الغرير إلى الحياة ومصائر الأمور فيها بعين المجرب المحنك .

وما من واحد من هؤلاء الملاعين إلا وقد سألنى هذا السؤال المحرج، وهو مازال طفلاً سانجاً: بابا !

– نعم

– أنت بابا ؟

---

(1) نشرت فى مجلة "الاثنين والدنيا" فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٥ (ص١١) .

– أتشك في هذا يا خبيث ؟

فيكركر، ولعله لم يفهم المراد على وجهه، وإنما أدرك من قولي له "يا خبيث" أن في الأمر ما يضحك أو أنه قال شيئًا يبعث على الضحك .

– لا والنبي يا بابا

– لا تحلف

– طيب. بس قل لي يعني إيه بابا

وبالله كيف أشرح لطفل في الخامسة أو السادسة معنى أني أبوه؟ هذا شيء أعترف أنه فوق طاقتي، وما زلت إلى اليوم يدور في نفسي هذا السؤال، ولا أهتدي إلى الجواب الذي يصلح لعقل طفل في هذه السن الغضة. فمن كان يعرف الجواب الموافق فلينشره ولينفع به الآباء الحائرين .

ولست أستحي أن أعرف أبنائي معنى الأبوة، ولا أنا أخجل أن أكون مرشدهم وهاديهم في الأمور "الجنسية"، فإني أؤمن إيمانا قويًا بأن من واجب الآباء – بل من أقدس واجباتهم – أن يعرفوا بنيهم وبناتهم بكل هذه الشؤون، بالتفصيل الوافي الشافي. وإذا لم ينفع الرجل بنيه بعلمه وخبرته فمن ينفع بسواهم؟ وما خير أنه تعلم وجرب؟ ولقد عنيت باختيار مدرسة جميلة لأكبر أولادي تعلمه الفرنسية، وأوصيتها به خيرًا، وبينت لها أني إنما اخترتها لجمالها قبل علمها، فإن اليسير من علمها كاف ولاسيما في البداية، ولكنه غلام مراهق، وأنا أخشى عليه أن تزوغ عينه، وأحب له أن يأنس بها، وأن يعتاد رؤية الجمال دون أن يهيجه إلى ما به من فورة الشباب. ولم يخب أملي فيها ولا فيه ولا أراني أخطأت وإن كانت التجربة دقيقة.

وصنعت غير ذلك أيضًا، اغتنمت فرصة لاحت لي فشرحت له العلاقات الجنسية على درجاتها ووجوهها المختلفة ودفعت إليه كتابًا في الأمراض التناسلية ليقرأه فيكون أقدر على الحذر والتوقي. ولم أشعره فيما عدا ذلك بالحرمان، ووكلته إلى رأيه، وحريته، وألغيت الأوامر والنواهي، وجريت معه على التفاهم والإقناع، فكان من أثر ذلك كله أن

شب معتدلاً لا يسرف في شيء ولا يتهور تهور الشباب، ولا يفتنه شيء عن عقله، وتعود الاستقلال والاعتماد على النفس، ولم أخسر أنا توقير الوالد. وهو يستشيرني في كل ما يعنيه، ويشعر أن له أن يعتمد على "صداقتي" .

أما الآخران فما زال أصغر من أن يحتاجا إلى مثل ذلك، ولو كانا أكبر لكان أمرهما أهون، وهما مختلفان جداً، فلا يصلح لأحدهما ما يصلح لأخيه .

أحدهما يحب الموسيقى حبًا جمًا، وما سمع قط صوتًا أعجبه إلا حفظه من أول مرة، واستطاع أن يعيده عليك بتوقيع مضبوط، ويعكف على دروسه إلى ما بعد منتصف الليل، ويصبح ناسيًا كأنما لم يمر به شيء مما قرأ. ويؤثر عبدالوهاب على سواه، ويكون مستغرقًا في نومه وتدار أسطوانة لعبدالوهاب فيتنفض قائمًا من تلقاء نفسه. وغير أن هذا الحب لا يعفي عبدالوهاب من نقده، وكثيراً ما قال لي إنه يكرر نفسه، وأنه أخذ هذا الصوت أو ذاك، من فلان أو علان من الموسيقيين الأتراك أو الغربيين. وقد قلت له مراراً إني مستعد أن أبعث به إلى أوربا ليدرس الموسيقى فيها، ولكني لا أحب له أن يكون موسيقيًا جاهلاً فليحرص على التعلم أيضًا. وهو يحب اللعب، ولا أكرهه له، وإذا لعب لم يعبأ شيئًا بأن يكون أو لا يكون معه سواه، إنما همه اللعب ذاته، فإذا تيسر له صار من نفسه في فرقة كاملة. ويعجبني منه هذا الاستغناء عن الناس أو القدرة على الاستغناء عنهم .

أما أخوه الأصغر فله شأن آخر: ذلك أنه ذكي وقد سمع من أهله ثناء كثيراً عليه، وآنس منهم حبًا له وإقبالا عليه وحفاوة به، فاغتر، ولست أكره له الغرور، فإنه خير من الحياء الذي يضيع المرء في هذه الحياة، وكل ما أحرص عليه هو أن لا يسرف فيه فيثقل على الناس. وهو يقرأ الصحف والمجلات وبعض الكتب، ويتتبع الأخبار والحوادث، ويستخبر ويستفهم ويدقق، ويحسن الإنشاء قليلاً، ويتكلم بسرعة فيسبق لسانه عقله، وكان في الرابعة من عمره مغرم بأن يدس يده فيتحسس الصدر، فصرفناه عن ذلك بالحسنى مخافة أن يورثه الزجر الخشن رغبة مكبوحة، وجعلت بالي إليه بعد ذلك لأرى ما يكون من أمر هذه الظاهرة الغريبة، فلم أر أنه كر إليها، أو أن

النزعة عاودته، وأثرت السلامة فشجعته على مزاولة الرياضة. وآنست منه ميلاً إلى الشعر فشق عليّ الأمر، غير أني سكت، فلا أنا شجعته، ولا أنا صرفته، وهو مرهف الإحساس سريع الغضب، والبادرة، وعبرته قريبة، وأنا أكره جداً أن أرى رجلاً يبكى وإن كانت الدموع رحمة وغوثًا، وليس ذلك لأنى أكره الرقة في الرجل، بل لأنى أكره ظهورها، وأن تكون عاطفة الرجل مرتسمة على وجهه، وليس فى وسعى أن أكثف له إحساسه، ولكن في وسعى أن أروضه على الحلم والصبر والتشدد، وهذا ما أعالجه .

والبلاء أن الوالدين قد ورثا ضعفى في العلوم الرياضية، وهذا يكلفنى شططًا، ويكلفهما مشقة بالغة وجهداً عظيمًا، ويضيق وقتهما، ويمنع أن يتوفرا على تحصيل العلوم الأخرى. ولا أعرف لى حيلة في ذلك، سوى أن أنفق على تعليمهما، وأشدد عزائمهما. ولو كان الخيار إلى، لما أسقطت العلوم الرياضية مما يتعلمان، فان اعتياد الصبر على المكاره واجب، ونافع في الحياة، ومن الخير أن يتعلم المرء فى صغره مغالبة الصعاب، ولو برحت به، فإن طريقنا فى الدنيا ليس مفروشًا بالورد .

وليس لى مال، ولا أنا أطمع، ولا هم يطمعون أن أورثهم مالاً، ولحسبى وحسبهم أن يكونوا غير مدللين، وأن ينشئوا نشأة استقلالية قوامها الثقة بالنفس والاعتماد على الذات، والاستعداد لتلقى ما تجيء به الحياة بالصبر والجلد، وعدم الاستنكاف من العمل كائنا ما كان، ما دام شريفًا، وقلة المبالاة بالمظاهر .

إبراهيم عبد القادر المازنى

أيام الشباب .. هل ولت ؟[1]

أيام الشباب !

هل ولت ؟

ركبت الترام مرة، وكان لا موضع فيه لقدم، ولكنى تعلمت أن أزاحم، ووقفت وظهرى إلى باب، وإذا بفتاة صغيرة تنهض عن مقعدها وتقول "تفضل" فشكرتها، وقد ظننت أن محطتها أقبلت، غير أن المحطة جاءت، ومضت، وهي واقفه لا تنزل فأردت أن أردها إلى مقعدها فأبت وقالت إني رجل كبير كوالدها! ولم يكن فى هذا مبالغة فقد كانت غضة السن جداً، وبنى كلهم أكبر منها، وكان المعقول أن أرضى عن هذا الأدب، ولكنى امتعضت، وتعجبت ومازلت الى الساعة، بعد أكثر من عام مغيظًا محنقًا لما سمعت منها .

لم يغضبنى أن أكون كوالدها، فإنى مستعد أن أكون أبًا لجيل بأسره، وقد خلقت لتعمر الدنيا بنسلى، وإنما ثقل على نفسى أن أسمع أنى "رجل كبير". وأنا أكره المغالطة والمكابرة، وعلى الخصوص مغالطة النفس، ولكنى أرى أن سنى التى ترتفع على الأيام قد جعلتنى "كبيراً" ولا أشعر أنى "كبرت" وإن كان مظهرى قد اختلف، من هنا كان امتعاضى من وصفى بالكبر، لأنه كان منافيًا لشعورى، أو صدمة كما يقولون .

ولا حاجة بى أن أقول إن المعول ليس على عدد السنين، بل على مبلغ امتلاء العمر، ونوع الشعور بالذات، وأنا أحس إحساسين متباينين: إذا اعتبرت ما مر بى وما حفل به كثير من أيامى، فأنا أحس أنى أعلى سنًا من نوح الذى يقال أنه عمر ألف سنة،

---

(١) نشرت فى مجلة "الاثنين والدنيا" فى ٢ إبريل سنة ١٩٤٥ (ص٦، ص٢٠) .

أو أن الدهر كله عمري، وإذا اعتبرت إحساسي بنفسي فأنا مازلت مجتمع القوة لا أعبأ بشيء، ولا أجعل بالي إلى هذا الشيب الذي شاع في رأسي "كنار الحريق ذات الوقود". وما أراني في الحالتين إلا مبالغًا – كذلك يقول لي عقلي – فما اكتظت حياتي الاكتظاظ الذي يسوغ الشعور بأني قديم كالجبال، وقد استبانت فيّ السن بلا مراء فليس في وسعي أن أزعم أني مازلت شابًا أو فتى يافعًا. ولكن كلام العقل غير الشعور المستفيض المالئ لشعاب النفس، وهذا شعوري الذي يستغرقني قد وصفته في الحالتين .

قبل أن أعود من بغداد بيومين أقيمت لي حفلة في نادي المحامين، وكان من خطبائها الأديبة "نزيهة أديب" فكان مما قالت: "أحسب أن المازني يقول اليوم ألا ليت الشباب يعود يومًا". وقد هممت بالرد عليها حين نهضت لأشكر القوم، ولكني كبحت نفسي، لأني تعودت أن أنام على الخاطر ليلة أو ليلتين لأرى ماذا يكون من أمره. وعلى أني قلت لها بعد الحفلة، إني لو خيرت لاشترطت أن أعود إلى الشباب بعقلي هذا وبما أفدت من خبرة وأكسبت من تجربة، غير أني لما عدت إلى الفندق في تلك الليلة ألفيتني أتناول القلم وأكتب :

"فتحت عيني – أول ما فتحتها في حداثتي – على دنيا تنزع الكرة من يد الطفل وتقول له "أتظن نفسك طفلاً، له أن يلهو ومن حقه أن يلعب! لشد ما ركبك الوهم يا صاحبي! لا كرة ولا لعب وعليك أن تثب الآن وثبًا من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها، إلى الكهولة دفعة واحدة – حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثبًا أيضًا .

كلا، ولم تكن لي طفولة، لأن الأيام أبت إلا أن أشب عنها فجأة، وإلا أن تقلع ما نجم من عودي من منبتة، وتغرسه بين الربوض[٢] والدوحات وتكلفة أن يغالب مثلها الرياح، وأن يعجل بالتنوير والإثمار والينع .

(٢) وصف للشجرة العظيمة الغليظة. (المحرر) .

ولا كان لي شباب لأني قطعته وثبًا كما قلت، وماذا يبقى من الطفولة أو الشباب لغلام احتاج في صدر حياته أن ينظر بعينه، ويفكر بعقله، ويتدبر مصائر الخلق، وأرغم على أن يدرك أن عليه تبعات يجب أن ينهض بها غير متململ، وأن له غايات ينبغي أن يدركها بسرعة البرق الخاطف، وأن له شأنًا غير شأن الناس - غلام لم يسع أمه إلا أن تقول له وقد سألها ألا يلعب؟ "بلى، ولكن بغير كرة يضيع فيها مال في حاجة إليه لقوتنا. إن الكرة تشجع على الركض، وتغرى بالنط، فاركض بدونها ونط بغيرها وستري أنك لن تخسر شيئًا" .

وقد نط الغلام وركض ولعب بغير كرة، ولم يحل نزع الكرة من يده دون ذلك، ولكنه خسر، لأنه صار ينط ويلعب لأن هذا واجب، لأنه ما تتطلبه الحيوية التي لا تزال مقصورة على أعضائه، على حين كان يركض غيره لاهيًا متسليًا غافلاً عن معنى الواجب فيما يفعل أو يترك، وخسر لأن نفسه امتلأت مرارة ولأن الحوادث أرهفت إحساسه حتى صار كما المبراة يخز قلبه ويقطعه. وخسر لأنه ثار على دنيا يستطيع فيها واحد أن يجني وهو آمن على جماعة لا ذنب لهم. ولأن ما أصابه وهو طري العود أورثه عقده نفسيه أو "مركب نقص" كما يقولون .

وصارت حياته، في شبابه، وما زالت على الأرجح خليطًا متنافرًا متناقضًا. وهو متمرد، يعد الذين نشأوا في حجر النعمة ولم يمتحنوا مثله، من "المنبوذين" لأنهم يتكلفون غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم ولأنهم مترفون، متطرون، خرعون يعيشون عيشة الفضول والتطفيل، ولا يحيون حياة صحيحة ملأى بحركة العقل والشعور. ويرى أن الدنيا لا احتفال بها، والحياة لا قيمة لها، وأن له أن يستمتع بما شاء كيف يشاء، وأن لا يبالي بمخلوق أو يعبأ بعرف، أو يكترث لرأي الناس .

ولكن المحنة التي أفادته صلابة وعزمًا وثقة بالنفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها، أفادته أيضًا الاتزان واحترام النفس والاعتزاز بالكرامة، والحرص عليها، ورحبت أفقه ووسعت نفسه وعمقتها، وحمته أن يسرف على نفسه وعلى الناس، وعرفته بالقيم الحقيقية لمتع هذه الدنيا ولذاتها، ورققت قلبه وإن كانت قد جففت عبراته، وأرضته عن

الحياة، وشرحت صدره للناس، وعلمته التسامح الذى مبعثه الفهم وصحة الإدراك، فصار يعذر ولا يستنكر، ويسكن أكثر مما يثور ويسره أن يرى الناس مغتبطين راضين .

وصارت مشكلته الكبرى أن يفهم نفسه لكثرة ما يرى من تناقضها - أى إنسان هو؟ إنه نافر ناقم، ولكنه راض جذل، ورشيد متزن إلا أنه طياش، وجاد ولاه فى آن معًا، صارم العزم، ولكنه لين سهل الانقياد، جداً، يضحك كثيراً ومن أعماق قلبه فيما يخيل إليه وإذا به يقطع الضحكة ويتساءل فيما بينه وبين نفسه "أكانت هذه الضحكة من القلب؟ أتراني مسروراً حقًا؟" ويشرب ويسكر ويجعل همه أن يضحك من الناس وأن يركبهم بالسخر والعبث، وإذا به يدرك أنه هو أضحوكتهم، فيفيق جداً كأنما ما كان ذاق شيئًا. ويشتهي ثم ينتهي، ولا هو راض عن الاشتهاء، ولا هو ساكن إلى الانتهاء، ولا هو مقتنع بالصواب أو الخطأ فى الحالين .

ومتى راح الشاب يفكر ويتساءل على هذا النحو فماذا يبقى له من هذا الشباب ؟

ولم تكن الحياة في ذلك الزمن السالف تعين على ازدهار عود الشباب. وتفتح أكمامه. فكان قصارانا أن نتمشى على شط النيل، أو نركب زورقًا نقضى فيه ساعة، أو نشرب بضع أقداح من البيرة الألمانية ثم نكر راجعين إلى بيوتنا لنعكف على كتبنا عكوف العابد على صنمه، ثم ظهرت "الزحلقة" بالقباقيب فصارت مسلاتي الكبرى. وكان شغفى بها هو الذى هاض ساقى اليسرى ومهد لما أصابها فيما بعد، فأورثنى هذا العرج المزعج، لا لأنى أعرج فما أبالي هذا، بل لأنى أتأذى منه .

ولم يكن للمرأة وجود فى هذا الصدر من حياتنا. فقد كانت تحتجب ولا تبرز، فكانت الحياة ذات صفحة واحدة مملة، وكان أحدنا ربما غالط نفسه وأوهمنا أنه يحب. وماذا بالله يحب؟ ملاءة وبرقعًا؟. وأذكر أنى كنت ألتقى فى طريقى إلى مدرسة المعلمين العالية - وكنت طالبًا بها - بطالبة يمشى وراؤها خادمها الزنجى يحمل لها كتبها وكراساتها، فأنظر إليها بمؤخر عيني، وتلحظنى هى من خلل البرقع، وحرصت على لقائنا كل صباح وكل عصر، فقد كان طريقنا واحداً، ولكنا لم نكن نزيد على هذا

اللحظان في استحياء، ولم يخطر لي قط أن أتبعها لأعرف بيتها، ولو كنت فعلت لكان من الممكن أن أمنع وقوع مأساة، فقد أحبها قريب لنا كان بيته أمام بيتها، وانتحر المسكين لأن أباها لم يرضه لها زوجًا!! وكانت هي تراني أزور قريبي هذا فعرفت أني من أهله. ومضت أعوام فركبت الترام مرة فإذا أمامي سيدة سافرة خيل إليّ أني أعرفها أو أني رأيتها من قبل، وكانت هي أيضًا ترمقني وتحدجني بالنظر حين يكون وجهي إلى غيرها، وأخيراً تشجعت وسألتها "هل أعرفك؟"

فتبسمت وقالت : "أنا أيضًا أسأل هذا السؤال" ؟

فقلت : "هذا موضوع يستحق البحث"

وقد فعلنا، فتبينت أنها هي الطالبة القديمة، التي انتحر قريبي من أجلها فسألتها: "لماذا رفض أبوك أن يزوجه منك؟"

فكان جوابها الذي يكشف عن عقلية ذلك الزمان: "لأنه رآه "يشاغلني" فخشي المعرة" .

قلت : "أي معرة في أن يحبك شاب ويخطبك؟"

قالت : "خاف أبي أن يظن الناس أنه كان بيننا علاقة" .

* * *

وأنا الآن في كهولتي، كما تقولون، أو في شباب الشيخوخة أو الشباب الثاني، وقولوا ما شئتم فإني لا أحس بعبء السنين. فما زال قلبي فتيًا، ونفسي صبية، وأنا راض عن الدنيا مغتبط بالحياة، ولكني أشعر كلما اختطف الموت واحداً من لداتي، كأن شجرة حياتي تتقصف أغصانها واحداً بعد واحد، ويسقط عنها الورق والنور، وأمد بصري، فأستغرب أني سأقضي نحبي يومًا ما، ولا أكاد أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا! أنا المحس المدرك أصبح لا شيء؟ وعدمًا مطلقًا؟ وأفنى ولا أعود موجوداً؟ يعني ماذا؟ ولست أجزع من هذا الموت، ولكني أراني عاجزًا عن تصوره، ومن هنا

أتفلسف فلسفة يطول شرحها، وأقول إن المادة ليست مادة، وإنما تتبدى لحواسنا القاصرة ومداركنا الناقصة كأنها مادة، ولست أنوى أن أثقل على القراء بهذه الفلسفة فما هي بأكثر من وسيلة للتعزى عن الفناء المحتوم .

وأحسب أن مخامرة هذا الخاطر لي، هو الدليل على أني جاوزت الشباب، وصحيح أني كنت في شبابي طويل التفكير في هذا الموت، ولكنه كان تفكيراً لا يخلو من تكلف، وكان لا يورثني غماً ولا هماً ولا حيرة ولا شعوراً بالعجز عن الفهم .

وعسى أن يكون من مظاهر الكهولة أيضًا أني صرت لا أشبع، ولا أقنع، ولا أكتفى بأى قدر من أى شيء، وأني أحس أني مستعجل، أريد أن أعلم كل علم، وأن أجرب كل شعور - كل ذلك في أوجز وقت، حتى أصبحت كمن يقول :

وكنت إذا أرسلت عينيك رائدًا	أمامك يومًا أعجبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر	عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وقد قال في بعضهم "إن للمازنى جانبًا ملائكيًا، وجانبًا شيطانيًا، وجانبًا صبيانيًا" وأنا أقول إن الناس كلهم كذلك. فأما الملائكية فعلمها عند ربي، وأما الجانب الشيطاني فأنا أحمد الله عليه فما تطيب الحياة إلا به، وحسبنا إن شاء الله بعد عمر طويل جنة لا نشيب فيها ولا نهرم - والعياذ بالله، من الهرم والشيب لا من الجنة من فضلك! وأما الصبيانية فأعترف بها، فما كنت قط صبيًا حين كان ينبغي أن أكون، فصبيانيتي المكبوتة تظهر إلى الآن كلما سنحت لها فرصة، وهذا طبيعي والله أعلم .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الحياة المصرية ينقصها المرح[1]

لا أعرف كيف حياة أهل الثراء والسعة والخفض فإنى لست منهم، ولا عهد لى بهم، وإنما أنا من الشعب وإليه، وقد نشأت فقيراً، ومازلت بحمد الله أفقر الفقراء إلى الله وعونه، وأبغض الناس إلىّ وأثقلهم على نفسى المتطرى المتدلل .

ولكنى أعرف حياة الأوساط العاديين من أمثالى، وهى فى الأغلب والأعم جافة قابضة خانقة مع الأسف لأن القاعدة التى تقوم عليها مقلوبة، والقضية فيها معكوسة، فالرجل يعتقد أنه ينبغى أن يكون فى بيته السيد الآمر المطاع، ولست أنكر عليه ذلك فإن هذا حقة على أن يعرف كيف يستعمله دون أن يغفل واجبه فإن كونه هو رب البيت أو سيده ليس معناه أن الذين معه فيه عبيد أرقاء وخدم أذلاء. وما أكثر ما يكون معنى السيادة علو الصوت، وكثرة الصياح، وسرعة الغضب، وعنف المقال، وشدة الزجر. ونرى الرجل يكون فى بيته ومع زوجته وبنيه كالح الوجه مقطب الجبين، شكساً شرساً، حتى إذا خرج تطلق وجهه، وأشرقت ديباجته، وكثر ضحكه، وصار خير أنيس وأظرف جليس. فالنفخة الكذابة والمرح للإخوان دون الأهل .

وهذا الحال المقلوب يرجع إلى أمرين على الخصوص فيما أرى: الأول الخطأ الشائع بين الأوساط العاديين وخلاصته أن المرأة لا يجوز معها إلا الشدة، وأن ذلك أجدى، وطريقة أقصر من تكلف سياستها بالحكمة والحسنى. ومازلت أذكر قصة قصها على قريب لى وأنا حدث، وأكبر ظنى أنه أراد أن يعظنى ويدلنى على النهج الأقوم، قال إن "جندياً" من الأتراك القدماء تزوج، فلما كانت ليلة الجلوة، ودخل على امرأته،

---

(١) نشرت فى جريدة "الوادى" فى ١٩ يوليه سنة ١٩٤٥ (ص٤) .

وجلس معها إلى المائدة رأى قطة، فاستل سيفه وضرب به عنقها، ثم مسح الدم وأغمده فريعت المرأة المسكنية واستقام أمرها بعد ذلك! وأحسب أن كثيرين، حتى ممن لم يسمعوا بهذه القصة، يؤثرون أن يكونوا مع زوجاتهم على هذا النحو أى وحوشا تخشى ويتقى شرها لا بعولاً تحب وتحترم .

وقد يستطيع الرجل أن يكون مرهوب الجانب كهذا "الجندى" السياف، ولكن امرأته إذا كانت ذكية أديبة تستطيع أن تركبه كالحمار وتدعه يتوهم أنه هو السيد الذي تفزعها نظرته، وتصعقها صيحته، بل لعلى لا أعدو الحقيقة والواقع حين أقول إن مثل هذا الرجل لا يكون زمامة إلا في يد امرأته وهو لا يدرى - أو يدرى ولكنه لا يعرف له حيلة إلا أن ينقاد - ثم يروح يتعزى بأن يظهر الغطرسة والتجبر من حين إلى حين وهو واثق أن امرأته لا يشق عليها أن تلين له مرة وتسايره وتحاسنه ليسلس لها قياده في غير ذلك وفيما هو أهم عندها.

والأمر الثانى الذى يرجح هذا السلوك الأعوج هو ظن الكثيرين أن الاحترام لا يكون إلاّ بالجهامة والشتامة، وأن التبسط أو المرح يضيع الهيبة وأن التفكه ينافى الوقار، وأنا ما أظن إلا أن العكس هو الصحيح - أى أن تكلف الجهامة بلا موجب تغرى بالسخرية، وأن الحرص على مظاهر السمت والأبهة فى غير موضعها - أو ما يسميه العامة النفخة الكدابة - تجعل المرء عرضة استهزاء وعبث. وما على من يشك فى ذلك إلا أن يجعل باله إلى الأطفال فى البيوت وكيف يقلدون الكبار، فلن ترى طفلاً يقلد كبيراً من أهل الظرف والدعابة والمرح، وإنما يقلد من يتكلف الوقار وصرامة الجد ومن ينفره بالعبوس والزجر .

وقد كنا تلاميذ صغاراً فلم يكن أبعث لنا على التشيطن من المعلم الصخب الذى لا يقدر على كف جفوته وشراسته وصلفه. فكنا نرسمه على السبورة على هيئات مضحكة، ونكتب له بالطباشير الملون على الجدران كلامًا مزريًا، ويقف بعضنا فى الصف أو الفصل فيروح يقلد حركاته وإيماءاته ولهجته ومشيته ونفخته، وكنا قلما نهدأ أو نحسن الإصغاء إلى درسه، وكنا ربما بلغ من اجترائنا عليه أن نقلده على عينه فإذا

دعا أحدنا إلى القراءة مثلاً أو ألقى عليه سؤالاً، نطق كما ينطق، ونفخ أوداجه كما ينفخها فينفجر التلاميذ ضاحكين، ويطير عقل المعلم ولكن ماذا يصنع؟ وكنا ربما ركبناه بشر من هذا العبث الخفيف المحتمل، فيستجير ولا يجير، ويلجأ إلى الناظر شاكيًا متسخطًا فلا يجديه ذلك بل يؤذيه أن يعرف الناظر أنه لا يستطيع أن يحفظ النظام وأنه لا احترام له عند التلاميذ. أما المعلم الظريف اللطيف فكنا نقبل على دروسه ونطيعه لأنه يشعرنا أن بيننا وبينه صلة مودة، ولأنه ينعش نفوسنا بما يفيضه على درسه من المرح الخفيف .

وما يقال عن الرجل يقال مثله عن المرأة، فإنها لا تبرأ من التبعة عن ثقل وطأة الحياة في بيتها وجفافها ويبسها. والبيت مملكة المرأة كما يقولون لأن الشأن فيه كله أو معظمه لها، فكيف تسوس هذه الدولة الصغيرة؟ لا شك أن هناك سيدات فضليات يحسن سياسة هذا الملك الصغير، ولكنه لا شك كذلك في أن اللواتي لايحسن السياسة أكثر من اللواتي يحسنها، ولك أن تقول أنهن هن الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، ومنهن من تؤدى عملها المنزلي بنفسها ولا تكله إلى خادمة أو خادم، ولكنها قلما تبدو في بيتها إلا في مباذلها، فلا ترتدى ثوبًا مقبولاً إلا لتخرج أو لتستقبل ضيوفها، وقلما تكف عن الشكوى مما تعاني، وقلما تجلس إلا على هيئة منفرة، وخدها على كفها، وقد تكون معذورة إذ هي ضجرت وسئمت واشتكت من التعب والعناء ..

ولكن الرجل ليس أحسن منها حالاً، فإنه هو أيضًا مكدود مرهق سأمان وليس مما يخفف عنها أو عنه أن تتلقاه هكذا: الثياب رثة، والخد على الكف، والعين كالزجاجة لا معنى فيها ولا حياة، والوجه ساهم والشفتان مطبقتان، فإذا نطقت تأففت وتوجعت وتكلمت بكلام الضجر والتعب، وإذا حاول أن يلاطفها ويمازحها رجت منه – إذا كانت فيها رقة وأدب – أن يدعها لحالها، وإذا كانت طويلة اللسان شكسة الطباع أسمعته ما يكره، وألطف ما تقول له: "اذهب إلى غيرى فمازحها فإنى لا أحب المرح". ويدور الرجل ينشد ما يسليه ويرفه عنه فلا يجد شيئًا – حتى الحديث الطيب لا يفوز به أفليس معذورًا إذا فر من البيت إلى المقاهى ؟

ولست أبرئ الرجل فإنه شر من امرأته، وفي وسعه أن يروضها على ما يوافقه ولكنه نشأ فألفي البيت هكذا قابضاً خانقاً فجرى على سنة أبية وراح مثله يعد البيت سجناً أو فندقاً للنوم ومطعماً على أحسن الوجوه .

والبنون والبنات مصيبتهم كبيرة : لا يسمعون إلا الشتم والتوبيخ واتهامهم بقلة الحياء وسوء الأدب كلما تحركوا أو ضحكوا أو لعبوا كأنما لابد أن يكونوا دمى وأصناماً فى السن التى تكون حيوتهم فيها مظهرها الأكبر حركة البدن .

ونحن أمه فيها فكاهة قوية، ومع ذلك نحيا حياة تقصر العمر. ومن الخطأ أن يظن أحد أن المرح خارج البيت يغنى عنه فى داخله، لأن البيت هو الأصل والحياة فيه هى التى عليها المعول، أما ما يظفر به خارجه فبمثابه "التصبيرة" أى شىء يستعين به الإنسان على الاحتمال والصبر حتى يعود إلى بيته فيظفر بما كان يتطلع إليه ويتشدد ويتجلد حتى يجىء أوانه .

والمرح يطيل العمر – هذا ظنى، بل يقينى – والأعمار بيد الله، ولسنا نعرف ما كتب الله لنا فى لوحه وغيبه، ولكنا نعرف أن المرح يشرح الصدر ويصلح ما يتلفه الكد من الأعصاب، ويجعل المرء أصفى ذهناً وأقوى على العمل ومواصلة الكدح وأكثر جلداً وأقدر على المقاومة والكفاح وأقل استعداداً للتهافت والتضعضع .

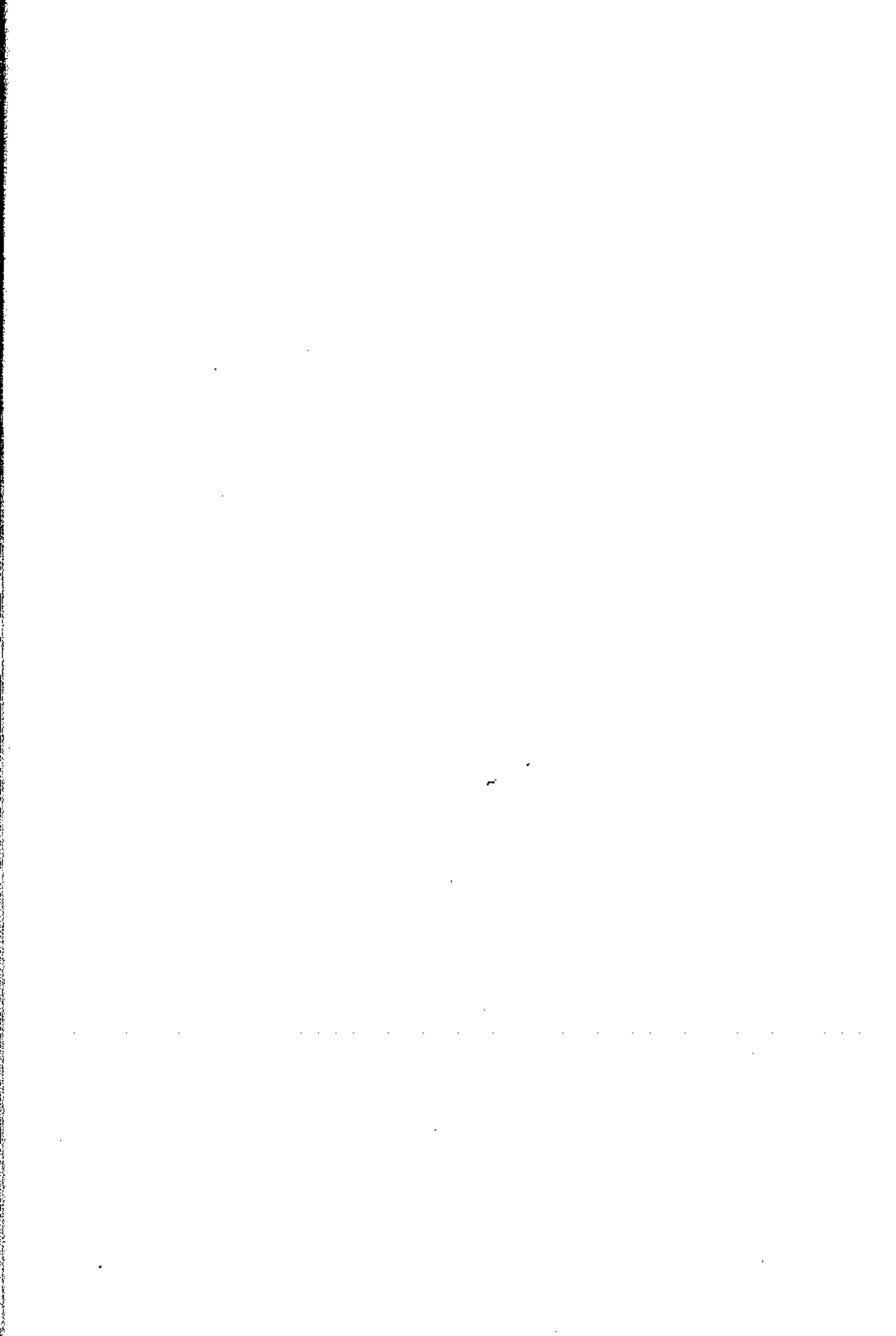
وليس المرح من الاستخفاف، فالرجل المرح لا يعد قليل الاحتفال بالأمور الجدية أو سيئ التقدير لها، لأن صحة التقدير لا تنافى إعطاء النفس حقها من السرور الذى يشد الأعصاب ويصلحها ويعالج تلف الأنسجة فى البدن. ولماذا نسمع الموسيقى والغناء ونشهد الروايات الفكاهية، وما إلى ذلك؟ ولماذا نقسم حياتنا هذه القسمة العجيبة، فنجعلها فى البيوت كرباً عظيماً وهماً ثقيلاً، وخارجها مرحاً وطرباً، والعكس أولى فإن البيت سكن، والذى فيه أعز الناس علينا وأحبهم إلينا، فهم أحق بأن نجعل حياتنا معهم كلهم بهجة وبشاشة وسرور. كان لى صديق أغناه الله عن الكدح فى سبيل الرزق، وكانت داره من الطراز القديم، "فالحريم" له جناح، والرجال لهم جناح مستقل، وكان يندر أن يبرح بيته، ولم يكن له أولاد، فليس فى البيت إلا زوجته وخدمه

من النساء والرجال: فكان إذا استيقظ ضحى، يخرج إلى جناح الرجال فيبقى فيه إلى الهزيع الثالث من الليل. يتغدى وينام، ويشرب قهوة العصر، ويقبل زواره فيجالسهم ويحادثهم ويمازحهم، ويتعشى وحده أو مع من يشاء من ضيوفه، ويقضي بقية السهرة مع من يبقون ممن يطيقون السهر، أو بمفرده، ثم يدخل لينام .

وكنت أستغرب حياته هذه وأستهجنها ويدركني العطف على زوجته المسكينة، وألومه على ذلك، وأقول له فيما أقول إنك لا تعدها زوجة وإنما تعدها "أنثى" اتخذتها في بيتك، وإني أخشى عليها، فيسخر مني ومن فلسفتي، غير أن زوجته المسكينة جنت؟ ولعله لم يكن يحبها، فما أدري، ولكن لماذا كان يمسكها إذن؟ وقد كان بادي الرضى بحياته هو، ولكن الزواج مشاركة، وليس من العدل أن يستأثر الرجل بما فيه له رضوان فإن لامرأته حقًا في ذلك .

احرصوا على المرح في بيوتكم، فإنه لا يغني عنه ما تظفرون به خارجها .

إبراهيم عبد القادر المازني



التوحيد فى الحب .. أكذوبة ضخمة ![1]

بعد عشر سنين، أو عشرين، أو أقل أو أكثر، هل سيكون قانون الأخلاق الحالى - أو العرف الأخلاقى إذا شئت - هو المسيطر على علاقة الرجل بالمرأة ؟

هذا سؤال أرى أنه ينبغى أن نلقيه على أنفسنا، وأن نتلمس جوابه قبل أن نعالج بعض الشئون بما نروم عن إصلاح مزعوم، كتعدد الزوجات وتقييد الطلاق وما إلى ذلك .

وفى جواب هذا السؤال أرجع إلى الأصل أولاً ثم إلى الواقع فأقول: إن الإنسان لا يعرف التوحيد فى الحب. لا الرجل يعرفه، ولا المرأة تعرفه. لأن التوحيد فى الحب أكذوبة ضخمة وخرافة يلهج بها اللسان ولا يصدقها القلب. وأنا أعرف أن كثيرين جداً من الرجال يضعون اللجم لأنفسهم ويكبحونها كبحًا شديداً، ويفرضون على أنفسهم هذا التوحيد. وأعرف أن النساء اللواتى يلتزمن حدود التوحيد أكثر من الرجال الذين يقضون على أنفسهم به، ولكن هذا معناه ماذا؟ معناه أن الإنسان يروض نفسه على هذا التوحيد ويتكلفه. وفرق ولا شك بين التكلف وما تدفع إليه وتغرى به الفطرة.. ومعناه أن المرأة أقدر على الرضى برجل واحد لأنها أضعف من الرجل وأطول إخلاصًا - أقول "أطول إخلاصًا" ولا أقول "أخلص". فالرجل يخلص والمرأة تخلص، ولكن عمر الإخلاص عند الرجل أقصر فى الأغلب من عمر إخلاص المرأة، ثم يعرو الملل، وقد يستطيع المرء أن يحجبه ويخفيه فلا يتبدى فى قوله أو فعله، ولكن هذا ليس معناه أن الملل غير حاصل، وإذا سلك المرء سلوك المخلص، وسار سيرة الوفى فليس معنى هذا أن الإخلاص فى قلبه، فيجب التفريق بين السيرة والمضمر المطوى فى السريرة .

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٢١ يوليه سنة ١٩٤٥ (ص٨) .

ويغالط نفسه – أو يغالط الناس – من يتوهم أو يزعم أنه يجرى على التوحيد فى الحب ويتوخاه لفضيلة أصيله فيه، أو خُلق عظيم بنى عليه – تلك عليا مراتب الأنبياء لا مراتبنا نحن الأوساط العاديين أى الحيوانات الأصيلة التى احتاجت إلى كل هذا الحشد من الزواجر والروادع التى تضمنتها القوانين والشرائع، وإلى صور شتى من الترغيب والترهيب، ليتسنى أن تنظم الجماعة وتستقر أحوالها وشئونها على قواعد معروفة ولا أقول مريحة أو مرضية، فما يشعر بالراحة إلا نادراً ولا يرضى عن النظام الاجتماعى أحد – كائنا من كان – إلا مضطراً. أما فى سريرته إذا واجهها فى صراحة وإخلاص فلا رضى ولا راحة، لأنه ما زال كما أسلفت، حيواناً أصيلاً، والحيوان لا يعرف فضيلة ولا مروءة ولا شراً ولا غير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

والواقع بعد هذا أنه ما التزم الإنسان التوحيد فى الحب إلا لعلة، وإن الحروب – ومتى خلت منها الدنيا؟ – تترك الرجال دون النساء فى العدد، وتفضى إلى قدر لا يستهان به من الترخص والتسهل والتسامح الأخلاقى، وإنه لأعمى العين والقلب ذلك الذى لم ير مظاهر الترخيص فى زماننا هذا .

أضف إلى هذا تقدم العلم، ولا سيما الطب، وأن تقدم الطب خاصة يسر مخالفة القانون الذى يحظر بعض الجراحات، وجعلها بحيث تؤمن عواقبها ولا يخشى افتضاح الأمر فيها، بل كان مما أثمره تقديم الطب أن صار يسع الجراح أن يرفو ما تلف وأن يرد الأمر إلى ما يشبه الطبيعة ويجعل التمييز صعباً. وأضف إلى هذا أيضاً فساد النظام الاجتماعى واضطرابه وسوء النظام الاقتصادى وثقل وطأته على كواهل الأكثرين .

ويكفى أن يتأمل الإنسان هذه العوامل كلها ليستشف من خلال أستار الغيب حالة اجتماعية تقوم على مبادئ أخلاقية جديدة لا تطابق مبادئنا الأخلاقية الجديدة كل المطابقة، ومن الواجب أن نجعل بالنا إلى هذا التطور المرتقب، وأن لا نلج فى صيحات الاعتراض على تعدد الزوجات أو الطلاق من غير أن نجعل بالنا إلى هذا التطور ونتدبره التدبر الذى يستحقه .

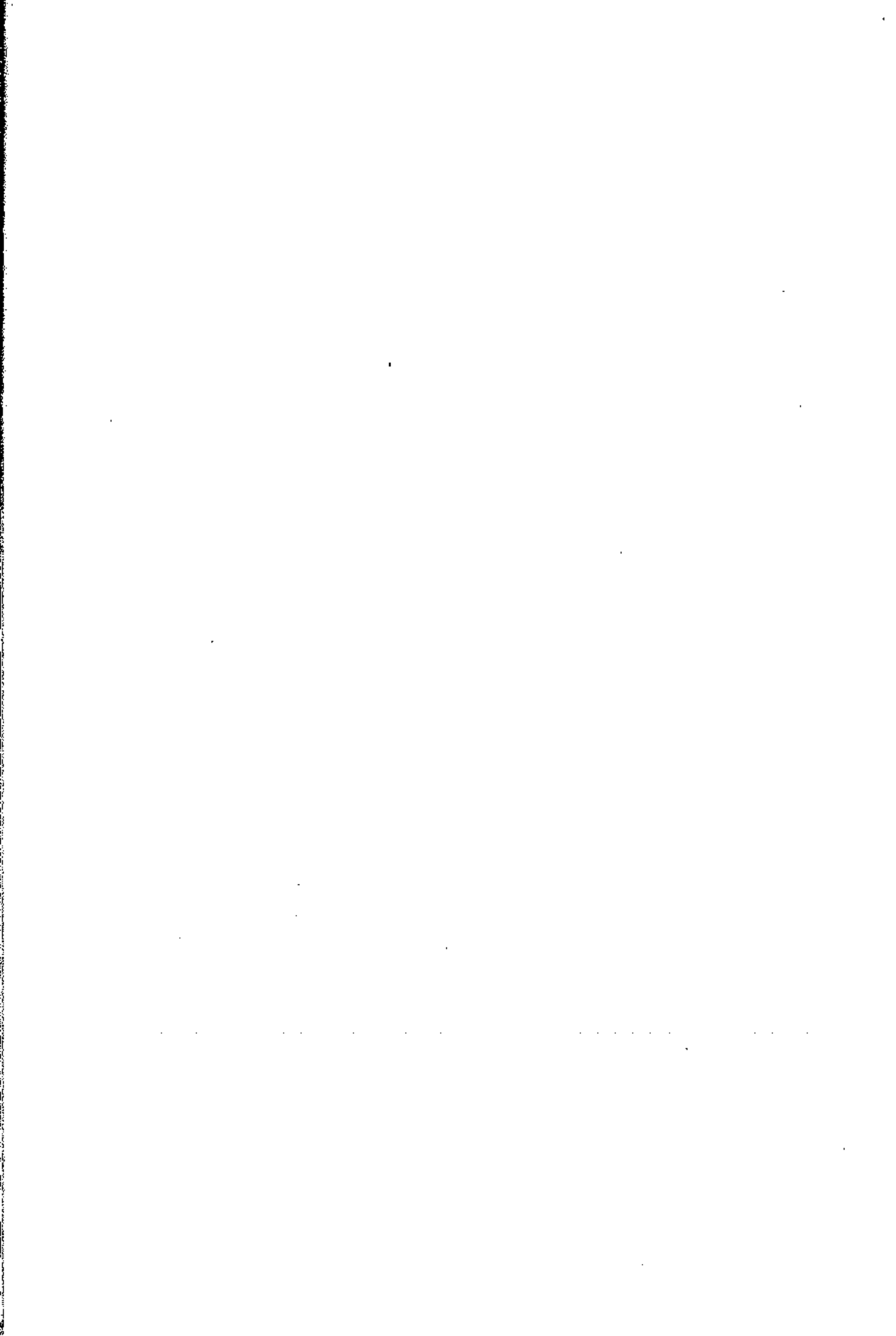
ويحسن بنا – لأن هذا أرشد – أن نسأل أنفسنا كيف ترى ستكون علاقة الرجل بالمرأة في الغد القريب؟ إن الرجل ينعم الآن بحرية لا تنعم بمثلها المرأة، ولكنها تتحرر شيئًا فشيئًا، وقد شرعت تتعلم وتكسب رزقها بكدها، فلها به قدر من الاستقلال لم يكن لها من قبل، ولم يبق الزمام كله في يد الرجل. وأخلق بالمرأة التي تشاطر الرجل تكاليف العيش أن لا تخضع له كخضوعها قديمًا حين كان هو الذي يسعى ويكسب وحده، وهي التي تقعد وتتلقى كسبه ولا تحسن أن تفعل مثله. وقد غيرت الحرب الحالية على الخصوص نظرة الإنسان إلى العلاقة بين الرجل والمرأة – أكرهته على ذلك الضرورات التي فرضتها أحوال الحرب، وأعان على تقبل النظرة الجديدة ما يسره العلم وسهل أمره. فالبيت الجديد سيكون في المستقبل – كما بدا يكون بالفعل – شركة حرة بين رجل وامرأة يتفقان على الحياة والتعاون ماداما متحابين وعلى الفرض من هذه الحياة، وفيما عدا ذلك يكون كل منهما حرًا فيما يفعل أو يترك على شرط أن لا يذهب في استعمال حريته إلى حد يحمل شريكه تبعة لا يجوز عدلاً أن يحملها .

هذه هي أسرة المستقبل والبوادر ظاهرة بجلاء من الآن، وقد تجيء نظم جديدة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية فتجعل بناء الأسرة على الطراز الجديد أيسر وأسرع، وتعجل بالفصل، إلى حد ما، بين الزواج وبين السيرة الشخصية لكل من الزوجين، فيصبح اتفاقًا على المعاشرة لا أكثر ولا أقل .

وقد يستهوى القارئ ذلك إذا كان ممن لا يفكرون ولا ينظرون إلى ما هو أبعد من أنوفهم، على أني أحب أن أقول أني لا أصف ما أحبه أنا أو أرتضيه، وإنما أصور ما استجليه وأعتقد أن الزمن ماض بنا إليه بعد قليل أو كثير .

وكل تشريع يوضع فهو للمستقبل، فمن الخطل وضلال الرأي، أن نتعجل فنسن القوانين لهذا المستقبل سواء أكانت تقيد مباحًا أو تبيح مقيدًا، دون نظر وتدبر دقيق لهذا المستقبل، والعوامل التي سيكون من أثرها إيجاد الأوضاع الجديدة في هذا المستقبل .

إبراهيم عبد القادر المازني



صحتك بالدنيا[1]

صحتك بالدنيا !

يسمع أحدنا هذا فيكون أول ما يجرى فى خاطره أن القائل جاهل أو عاقل، أو بليد، أو مغرور، أو ممن لا خير فيهم ولا زيادة بهم إلا حين يكون إحصاء. ولا يخطر له أن الجهل الأكبر، والغفلة العظمى، والغرور الأفحش أن يتوهم الإنسان أنه شيء له قيمة فى الحياة، وأن الأرض إنما تتخذ زينتها له، وأنه هو - بإيجاز - مركز الدائرة وقطب الرحى فى هذا الوجود !

نعم، صحتك بالدنيا! لأن صحتك والدنيا - كلتيهما - لا تساويان شيئًا. وكل صفر ككل صفر آخر، وإنما هول الأمر علينا وعظم قدر الدنيا وقيمة الحياة عندنا، شعورنا بذاتنا. ولست أنسى فعل الغريزة الذاتية التى تدفعنا من تلقاء نفسها إلى المحافظة على حياتنا، ولا أنا أهمل أثر العقل الذى تخدعه وتضله قدرته اليسيرة المحدودة. ولكن ما العقل؟ إنه لا أكثر من "مسطرة" طولها شبر أو شبران، تحاول أن نقيس به - لغرورنا - كونًا لا أول له يعرف، ولا آخر له يوصف. وحتى الكون الذى استطعنا أن نهتدى إلى وجوده - وإن كان جهلنا به ما زال عظيمًا - ليس إلا بعض المجهول المهول. وما أكثر ما نجهل من أرضنا التى ندب عليها ونحيا فوقها وندس بعد موتنا فى ترابها! بل ما أكثر ما نجهل من أنفسنا التى نعتز بها ونغرق فى الحرص عليها ونغالى بشأنها. أما الغريزة فنحن والحيوان فيها سيان. وفرق ما بيننا وبينه فى هذا أننا نشعر بذواتنا، وأنه غير شاعر بذاته، فهو مستريح من هذا الهم .

---

(١) نشرت فى جريدة "الوادى" فى ٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ (ص٤) .

تعجبني قصيدة الشاعر الإنجليزي توماس هاردي، أو أبيات منها إذا أردت الدقة، يقول فيها ما معناه، إذا كانت ذاكرتي لم تخنى على عادتها - فإن بي كسلاً عن مراجعتها؟ ولم أجشم نفسي هذا العناء؟ - إنه صعد إلى السماء موفداً من بني الأرض، فلما صار بين يدي الرب شكا إليه ما هو فيه من كرب وبلاء. فقال الرب متعجبا: "أتقول الأرض؟ الجنس الإنساني؟ وإني خلقتهما، حظهما سيئ؟ كلا! لا أذكر مكانًا كهذا؟ لم أخلق عالمًا كهذا" .

فيقول الشاعر : "غفرانك اللهم؟ ولكنك قلت الكلمة فكان ذلك كله" .

فيقول الرب : أرض بني الإنسان دعني أتذكر؟ نعم.. أتذكر.. أني أنشأت كرة صغيرة كهذه من زمان بعيد بين ملايين من أمثالها. لا شك أنها هلكت ولم يبق منها أثر؟" .

وتنتهي القصيدة بأن يقول الرب إنه لا يرضى أن يرى السوء قد حاق حتى بمثل هذا الشيء الحقير؟ فيبعث الرسل ليضعوا حداً لما يعانيه الشر. ويفتح الشاعر عينه كل مطلع فجر وفي مرجوه أن يرى واحداً من هؤلاء الرسل واقفًا على كثب. ويستسخف ظنه أو أمله، ويصفه بأنه "صبياني"، ولكنه أمل يساوره كلما شارفه الهم !

* * *

كنت مرة أتمشى في الصحراء أيام كان بيتي على تخوم الأبد، فرأيت جماعة من النمل كدت أطؤها بقدمي مستخفًا بحيويتها، غير عابئ بها، ولكني رددت نفسي وملت عن طريقها وأنا أقول لنفسي: "حرام؟ عالم النمل هذا ما فضل بني الإنسان عليه؟ يكد مثلنا ويشقى ويبني بيوتًا، ويفتح طرقًا ويمدها، ويقيم حصونًا ويجمع ويحشد ويدخر، وله ملكات وشرط وحجاب وجيوش، وفيه عمال مجاهيد، وسادة رؤساء، ولعل له وزراء ودواوين وكتابًا وجباة، ومن يدري؟ عسى أن يكون فيه قوم علماء وأدباء، فنانون وصناع، ومهرجون ودجالون، وعنده مدارس، وله مصانع ومعامل، واختراعات. أمن أجل أن دنياه صغيرة بالقياس إلى دنيانا نحتقره ونظن به العجز عن مثل ما قدرنا عليه؟ أليس مثالاً للكد والدءوب والنظام؟ وهل عالمنا نحن إلا شيء ضئيل أو ذرة، إذ قسناه إلى هذا الوجود الذي يعي العقل أن يتصوره؟"

ولم أمحق النمل يومئذ لأني رأيت حياته كحياتنا نحن بني الإنسان بلا فرق، ولأنه خيل إليَّ أني أترفق بنفسي وببني جنسي إذا ترفق به. ولكني الآن لو مررت ببيت من بيوت النمل لوطئته غير متحرج أو متردد. والذي يغريني الآن بترك التأثم - أن حياة النمل كحياة الإنسان. وإني حين أعصف به وأسحقه تحت قدمي لست إلا كالأقدار حين تعصف بنا نحن بني آدم، وتطلق علينا البراكين تدفن مدننا العامرة بنا، أو تجرى علينا السيل متراكماً متبطحاً فيغمر مساكننا ويغرقنا، أو ترمينا بالطواعين والأوبئة أو السنين فتلوى بنا، أو تسلط بعضها على بعض فتسوى المدن بالتراب ويصبح عاليها سافلها، وأهلوها أشلاء. وما قيمة أن تبيد أمة بل أمم؟ وما ضير أن يمحي هذا العالم من النمل الذي نسميه الإنسان؟ أيقف الفلك الدوار من أجل أن هذا الإنسان المغرور باد، أو أرضه كلها صارت هباء؟ أيختل شيء في الكون أو يضطرب له نظام أو يقول أهل كوكب من الكواكب الأخرى إن كان فيها أمثالنا من الحمقى "خسارة!" لا أظن .

ليس أسخف ممن يبالي هذه الحياة أو [يأبه] بها مثقال ذرة؟ فما لها قيمة إلا في رأيه وحسابه هو. أما في حساب غيره من الناس ورأيهم فلا، وأما في حساب الحياة فهو بعض ما يكون أو لا يكون - سيان؟ وكل ما تعرفه الحياة - إن كانت قد أوتيت المعرفة، ومن أدرانا وما نحن إلا بعض مظاهرها؟ - فهو أنها قانون يجرى مجراه، وقد أبى الذي سنه أن يملك أحد أو شيء خلافه أو اعتسافه. ونحن في هذا كالرياح والرمال والماء والنبات والطير والحيوان. السنة واحدة والقانون لا يختلف. ولما كان هكذا، ولا قيمة لنا في نظر الحياة أكثر من قيمة الذرة من الرمل أو القطرة من الماء، فما العمل ؟

العمل أننا أعطينا الحياة لنحياها. فعلينا أن نحياها على خير وجه ميسور، ولنغتر كما نشاء، فما في الغرور بأس، ولا سبيل إلى احتمال العيش بغير جرعة كافية أو قدر واف منه، وليتوهم من شاء أنه شيء عظيم، وأنه خلق ليؤدي عملاً جليلاً في الحياة، وأنه أهل لكل ما يطلب أو يتطلع إليه من المنازل الرفيعة، فما من ذلك كله ضير - أو فائدة - ولكنه لا داعي أن يعذب الإنسان نفسه، ويقطع قلبه حسرات. يحزن

الإنسان لفقد عزيز، وما حزنه فى الحقيقة إلا على فقد ما طاب هو به نفسه، لا على أن العزيز فقد نفسه، فلو كان لا يعرفه ويرضى عنه لما حزن عليه ولا اكترث لموته أو حياته، ولكن أليس هو سيموت كما مات العزيز ويلحق به ويأسف ويألم وتسود الدنيا فى عينه لأن خير كان يطمع فيه ويسعى له فاته، وسيخرج هو من الدنيا بكرهه فلا يعود يطمع أو يسعى أو يحس، فما معنى الأسف على عرض زائل على كل حال؟ ولماذا "يجب" أن يكون أبداً على حال واحدة لا تتغير؟ ولماذا يعجز عن التكيف على مقتضى ما يكون؟ من الذى خوله الحق فى النجاح والتوفيق فى كل حال؟ إن أمور الدنيا خبط عشواء، والمصادفة هى العنصر الأكبر والأهم فى كل ما يقع للإنسان فى حياته. والأمر أشبه بالمقامرة، والتوفيق والخيبة حظوظ. وما أغبى ما يطمع أن يكسب دائماً ولا يخسر أبداً، ولا بأس بالطبع، ولكن ما أسخف من يسوؤه أو يغضبه أن لا يجيء الربح والخسارة على ما قدر. أو يطير عقله ويفقد رشده لأنه خاب فى حبه. سبحان الله العظيم؟ أليس فى الدنيا الطويلة العريضة الزاخرة بالنساء، غير امرأة واحدة موافقة؟ ما أفقرها من دنيا إذن وأقل استحقاقها للمبالاة بما يكون فيها.

لقد سعدت وشقيت مراراً، وسررت وحزنت عدد شعر رأسى، فأما ما يسرّ ويسعد فكنت أتلقاه شاكاً مرتاباً كأنى لا أصدق أن الحياة يمكن أن تجود على الإنسان بخير، وأما ما يكرب النفس فكنت أستقبله بهزة رأس العارف الموقن أن هذا هو الذى لابد أن يكون فى هذه الدنيا، وفى ظنى – أكبر ظنى – أنى لن أقوى على احتماله. ثم تعلمت على الأيام بالتجربة أن من خطل الرأى أن أسيء الظن بالحياة، وأن من الحماقة أن آخذ بالرأى الشائع فى الخير والشر، وفى بواعث السرور والحزن، ودواعى الرضى والسخط، فإنى أنا الذى سيحس ويتأثر، فينبغى أن أتولى أنا ترجمة الحوادث لنفسى، وشرحها وتفسيرها لقلبى وعقلى، ولكل شيء فى الحياة أكثر من جانب واحد، فمن الغفلة أن يتعلق المرء بناحية مفردة ويغضى عن النواحى الأخرى التى لعل فيها ما يشرح الصدر. وكل شيء نسبى كما يقولون. ثم إن من قصر النظر أن يتوهم المرء أنه لا يقدر على المقاومة، فليس أقدر من الإنسان على الاحتمال والتكيف وكل شيء يمضى ويزول ولا يخلف إلا أثراً هيناً معقولاً إذا نظر إليه المرء من الناحية التى هى أضوأ له.

ومما ساعدنى أيضًا على حسن الاحتمال أنى أدرك الآن إدراكًا صحيحًا أن الدنيا ليست لى وحدى، وأنى استطعت أن أروض نفسى على مقتضى ذلك، وأنه صار فى وسعى أن أجرد من شخصى إنسانًا آخر يتدبر الأمر وكأنه لا يعنيه، ولم يقع له، وإنما هو شىء يقرأه فى كتاب أو يقصد عليه سواه. ومن هنا صار يسعنى أن أكون كالواقف على ساحل البحر يتفرج على السابحين فيه. فأنا على الأكثر فى موقف "المتفرج" حتى على نفسى؟ ومن هنا يسعنى أيضًا أن أضحك كثيرًا، وأن لا أحزن إلا حزنًا هينًا رقيقًا لا ينفذ إلى حبة القلب، وأن لا أعذب نفسى بالخوف مما عسى أن يكون. وماذا أخاف؟ الموت؟ المرض؟ الفقر؟ الخيبة؟ الناس؟ ومن ذا الذى لا تتنقل به الأحوال؟ وما الناس؟ ذرات مثلى، وهباء. إن مبالاة الإنسان بهم هى التى تورثه الحيرة والضعف والجبن .

فأنا لهذا أقول إن "صحتك بالدنيا" وأعنى صحة النفس والأعصاب واستقامة النظرة، وسداد الرأى، وحسن الإدراك للحقائق وللجوهر لا للغرض والأكاذيب والأوهام التى لا تلبث على التدبر. أما صحة البدن فشىء ليس فى أيدينا كله، وهو قسمة وحظوظ وأرزاق ككل شىء فى الدنيا، وما يملك الإنسان الرشيد أكثر من العناية فى غير إفراط وإلا جعل من بدنه "صنما" معبوداً بغير حق. وخير للبدن أن يهمله الإنسان بعض الإهمال فإنه يقوى بذلك ويشتد ويصلب، ولا يهن أو يفتر .

إبراهيم عبد القادر المازنى



درسـان مـن دروس الحيـاة[1]

من أول مـا تعلمـتـه فـي حيـاتـي أن الدنيــا لـي ولغـيـري، وأني لم أعطـهـا وحدي، ولا أعطيها سوای ملكًا خالصًا له، ونحن جميعًا شركاء متكافئون في الحقوق، وعلينا من أجل ذلك واجبات متماثلة. وما دمنا شركاء إلى حين، ومادام أن المقام في الدنيا على كل حال قليل، فإن من الحماقة أن ننغص على أنفسنا هـذه الحياة القصيرة بالعنت، أو أن نؤثر التي هي أخشن على التي هي أحسن في سيرتنا. وقد كنت أحمق الحمق في صدر حياتي، وما زالت بي بقية غير هينة من الحماقة، فما انفكت الدنيا تنفضني كما ينفض الأسد فريسته، وتشيلني وتحطني، وترجني وترميني من هنا وهنا، حتى فاءت بي إلى الرفق والهوادة فأرحت واسترحت .

أي نعم، تتسع الدنيا لي ولغيري وتستغني عنا جميعًا! وليس أضل رأيًا ممن يتوهم أن الحياة لا تطيب له إلا إذا خلا طريقه فيها من الناس. وما أحكم قول الإنجليز في أمثالهم: "عش ودع غيرك يعش"! وما على المرء إلا أن فكر فيما عسى أن تخسر الدنيا إذا هي خلت من الناس وعادت خرابًا يبابًا؟ لا شيء! لن يكف الفلك المسيّر عن الدوران، ولن يعوّق الشمسَ شيء عن الطلوع والأفول، ولن تعدم الحياة على الأرض مظهرًا آخر تتبدى فيه كما تبدت فينا نحن بني آدم! وهل نحن إلا صورة من صور الحياة؟ وهل أعظم غرورًا أو أقل عقلاً ممن يكبر في وهمه أن الحياة تنعدم إذا انقرض الإنسان وتقلص ظله عن الأرض ؟

ولا يتوهم البعض أن هذا كلام زاهد متزهد، فما أنا بهذا ولا ذاك، وإني لمن أشد الناس رغبة في الحياة الرضية، ونشدانا للعيش الرغيد، وطلبًا لأطايب الدنيا، وعكوفًا

---

(١) نشرت في "الرسالة والرواية" في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ (ص٩٩٥- ص٩٩٦) .

على متعها المشتهاة، وكل ما فى الأمر أنى أرى أن فوزى بما أبغى لا يستوجب أن يحرم الناس غيرى ما يطلبون، أو أن يخيبوا ويخفقوا. وأى دنيا تكون هذه إذا كان نجاح فرد فيها وتوفيقه فى إدراك آرابه لا يتسنى إلا بخيبة الباقين؟ ثم إنى لا أحس أن الناس ينافسوننى أو يزحموننى أو يضيقون علىّ المجال، فإن الأرض رحيبة ومجالاتها لا آخر لها، وما رأيتنى عجزت قط عن اختراع طريق بكر، أو الاهتداء إلى ميدان جديد، إذا شعرت بالحاجة إلى ذلك .

وصحيح أن الحياة جهاد - مع الطبيعة ومع الإنسان - ولكنا لسنا من الحيوان، فنضالنا لا ينبغى أن يكون بالأنياب والمخالب، بل بالعقول، ونضال العقول متعة، وليس يعنى به أو يستثقله أو يضجر منه إلا من لا يصلح لغير حمل الأثقال كالدواب. وليس أمر الدنيا إلى هؤلاء المساكين المستضعفين الذين يساقون ويسخرون، بل إلى أصحاب العقول. حتى حين تقوم الثورات لا تكون الثورة في حقيقة الأمر من الجمهور الأكبر والسواد الأعظم الذى يسفك الدماء ويعيث بالخراب والدماء، بل ممن يدفعونهم إلى ذلك ويغرونهم به ويحضونهم عليه صراحة وتلميحًا، وعفوًا أو عن عمد، أى من أصحاب العقول. ولست تستطيع أن تعطل عقول الناس أو تعقل ألسنتهم. وخير وأرشد - لك وللناس - ألا تفعل حتى إذا استطعت. وتصور دنيا ليس فيها من يفكر بعقله وينظر بعينه غير واحد ليس إلا! أى مزية يستفيدها هذا الفرد؟ وأى متعة أو نعيم له فى حياته مع أشباه البهائم ؟

إنما المتعة والنعيم فى هذا النضال الذى تتصفح فيه عقول منافسيك وتضيفها إلى عقلك، وأنت بذلك تكسب أبدًا ولا تخسر، وتضم كل يوم ثروة ذهنية إلى ما أوتيت من ذلك، وتمنع عقلك أن يصدأ، لأنك لا تنفك بفضل النضال الذى لا مهرب لك منه، تجلوه وتشحذه وترهفه .

ولكن المرء لا يستطيع أن يناضل بعقله الفطرى، وأعنى بالفطرى الذى لا زاد له من العلم، ولا مدد من المعرفة. وشبيه بذلك أن تقاوم مقذوفات المدافع بالحجارة. فلا معدى لنا عن تعهد ملكاتنا وتزويدها بالأداة التى تجعلها أمضى وأكثر غناء .

وعلمتني الحياة الابتسام! وإنه لعجيب أن يحتاج المرء أن يتعلمه! ألم يقل بعضهم في تعريف الإنسان إنه حيوان يبتسم؟ وأدعى إلى العجب من ذلك أن تكون المحن والشدائد هي التي علمتنيه وعودتنيه! أي والله! فقد كان صدري يضيق ومرارتي تكاد تنشق، من الغيظ، وكنت أجزع إذا حاق بي ما أكره، وأقنط من قدرتي على اجتياز المحنة، حتى تلفت أعصابي واسودت الدنيا في عيني، بل كاد نور عيني يخبو وينطفئ لفرط ما كنت أعانيه من الاضطراب والألم والكمد، ثم لطف بي الله فتمردت على نفسي، وصرت إذا عراني ما كان يعروني من الجزع أو الخوف أو الاضطراب أقول لنفسي: قد جربت مثل هذا من قبل، وعرفت بالتجربة أنه كله يمضي ولا يخلف أثرًا ولا يورثني إلا الأسف على ما أنهكت من أعصابي في احتماله، وقد لدغت آلاف المرات، فلا يجوز أن ألدغ بعد ذلك أبداً، وخليق بي أن أتلقى كل ما يجيء - لا بالصبر والتشدد، فقد كان ذلك ما أفعل ولم يكن يكفي - بل بالسخرية والتهكم - سخرية العارف وتهكم المدرك للقيم الحقيقية للأشياء - وبالابتسام الذي يهون كل صعب ويحيل كل جسيم ضئيلاً .

وإذا بالابتسام له فعل السحر بل أقوى. تفتح حنكك ربع قيراط، وتكلف عينك أن تومض قليلا فتتغير الدنيا كلها! تجف الدموع إذا كنت تبكي، وينضب معينها، وينشرح صدرك إذا كان منقبضًا، وتشعر بخفة في بدنك بعد أن كان على كاهلك وقر ترزح تحته، ويزايلك ما كنت تحاذر كأنما كان ظلاً ارتمى عليه نور فنسخه، ويتجدد الأمل الذي كان قد استحال إلى يأس، وتنشط للعمل والسعي والجهاد وأنت مفعم بالرجاء، بعد أن كانت رجلاك كأنما قد شدتا إلى قنطارين من الحديد، ولن تعود تبالي أنك في ضيق، أو أنك عاطل، أو مريض، أو أنك فقدت عزيزًا، أو أن تجارتك بارت وخسرت ألف ألف جنيه! كل ذلك الكرب الممض يصبح غير ذي قيمة لا لشيء سوى أنك استطعت أن تبتسم! ولست أتمنى للقراء إلا الخير محضًا، ولكنه ما من حياة تخلو من دواعي الانقباض أو الألم أو الحزن، فليجربوا الابتسامة إذا مر بهم - لا قدر الله - شيء من ذلك، وليتأملوا فعل سحره، فقد وجدته في كل حال وصفة نافعة .

وليس الابتسام سهلاً في مثل هذه الحالات، فإنه مغالبة للنفس، ومغالبتها تتطلب جهداً عظيماً، ولكن الثمرة تستحق العناء، والمثوبة على قدر المشقة. وأول ما يكون على المرء أن يتغلب عليه، هو الاستحياء من أن يبتسم في موقف حزن أو كرب شديد مخافة أن يقول الناس إنه يسرف في التكلف. وما من شك في أنه لا يتأتى في أول الأمر إلا بتكلف شديد، ولكنه لا يلبث بعد أن ينجح في تكلفة أن يصبح طبيعياً، لأن مجرد الابتسام يفجر ينابيع البشر في النفس فتفيض. ولأن يتكلف المرء بالابتسام خير – وأسهل أيضاً – من أن يحتمل ما هو فيه من آلام، وما يساوره من المخاوف والوساوس والأوهام .

ومتى ابتسم المرء في الشدائد والمحن، فإن الميزان يعتدل من تلقاء نفسه، فيفطن المرء إلى القيمة الحقيقية – لا المتوقعة – لما هو فيه أو لما يخشى أن يكون. فتراه يقول لنفسه إذا كان قد فقد عزيزاً : "لقد مات، وكان لابد أن يموت يوماً ما، وسنموت جميعاً متى وافانا الأجل، فلا حيلة في هذا. وصحيح أنه مات في وقت أنا أحوج ما أكون فيه إليه وإلى عونه، ولكن إطالة عمره لم تكن في يدي، واستغراق الحزن ليس من شأنه أن يجعلني أقدر على النهوض بالعبء الذي انتقل إلى كاهلي" .

وكان قبل أن يبتسم يقول : "يا ويلتاه! وا مصيبتاه! ماذا أصنع الآن! لقد فقدت المعين، فأنا ضائع لا محالة! وكيف تطيب الحياة لي بعد؟ إلخ إلخ". نعم، هو سحر ولكنه سحر في وسعنا جميعاً أن نعالجه ونوفق فيه. أقل شيء في مبتداه عسير، ثم يهون بالدربة والمرانة ويصبح عادة وأشبه بالطباع، ويكسب المرء مناعة وحصانة، فلا تعود ظروف الأيام قادرة على تقويض كيانها ونقض بنيانها. فجربوا هذا كما جربته، واشكروني .

إبراهيم عبد القادر المازني

مشقة التحصيل[1]

منذ ربع قرن تقريبًا، زارني شاب في جريدة الأخبار وشكا إليَّ المرحوم شوقي الشاعر وقال : إنه ذهب إليه يستشيره فيما يحسن به أن يقرأ من الكتب العربية، فأشار شوقي عليه بدرس كتابين وجدهما الشاب من كتب النحو وفقه اللغة، فاعتقد أنه أضاع ماله، وأن شوقي أخطأه التوفيق. فقلت له: إن شوقي لم يخطئ، فإن النحو والصرف وما يجرى هذا المجرى لابد منه، ولا غنى عنه، ولكل لغة قواعدها وأصولها وأحكامها وفقهها، والإحاطة بهذا كله واجبة إذا كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداة للكتابة، وإلا فكيف تكتبها وأنت لا تعرف قواعدها؟ وصحيح أن الكتب الغربية القديمة تحتاج إلى تيسير مطلبها، ولكن التيسير ليس معناه الإلغاء، فاعرف لغتك أولاً، وادرس أدبها، ثم عالج بعد ذلك ما شئت من فنون الكتابة، واعلم أنه لا مطمع لأحد في بلوغ مرتبة ملحوظة من مراتب الأدب إلا بالاطلاع الوافي، ولما كانت لغتنا العربية، فهي أداتنا التي لا أداة لنا سواها، ولا سبيل لنا إلى البيان إلا بها، فلا مهرب لنا إذن من تحصيل هذه اللغة والتوفر على درسها .

وقد حدثت شوقي – رحمه الله – بهذا، فقد كنا نلتقي في "الأخبار"، ونتذاكر على الرغم من رأيي المعروف في شعره، فقال لي: يا أخي قد كنت في بداية عهدي بالشعر، بعد أن عدت من أوربة، ألحن وأخطئ فيسلقني الناقدون بألسنة حديدة، فالآن أنصح للشبان المبتدئين أن يعرفوا لغتهم فيشكونني ويعيبونني بذلك !

وقد قلت أيضًا لذلك الشاب المتذمر: إني لا أرى الاقتصار على درس اللغة العربية وآدابها، فإنه لا يكفي طالب الأدب، بل لابد من التوفر على درس الآداب الأخرى،

(١) نشرت في "الرسالة" في ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٥ (ص١٠٧٩– ص١٠٨١) .

ولا سيما الغربية منها. وحسب طالب الأدب لغة واحدة كالإنجليزية مثلا، فإن يراعات الآداب الأخرى مترجمة إليها، وقد كان العرب حصيفين حين عنوا بنقل الفلسفة الإغريقية فاتسعت آفاقهم. ولسنا نستطيع في عصرنا هذا أن ننقل خارجيات الغرب في الأدب والفلسفة، فإنها شيء لا آخر له، ولكن في وسعنا أن نطلع عليها ونلم بها إلمامًا كافيًا بإحدى اللغات الغربية، ونحن نلقح الشجر ليثمر، ونطعمه ليؤتينا ما هو أطيب، ويجنينا ما هو أشهى، فلنلقح عقولنا ولنطعمها بما عند الغرب، ليعود أوفر إنتاجًا وأحلى جني. ونحن آدميون، والشجر نبات، ولكن سنة الحياة واحدة، وقانونها لا يختلف، وهو واحد في كل مظاهر الحياة على السواء، وما يصير به النبات أقوى وأزكى، يصير بمثله الحيوان - ونحن منه - أقدر على معاناة الحياة وأصلح لها وأنجب. وليس مما يصح في الإفهام أن نكون في القرن العشرين، ونقنع بأن نعيش بعقول القرون الخالية. وأخلق بهذا الكسل أن يحيلنا خلقًا - متخلفًا من الأزمنة البائدة، وأن يجعلنا غير صالحين للزمان الذي خرجنا فيه .

وأنا أعرف أن في هذا مشقة عظيمة، ولكن الثواب على قدرها، والحياة نفسها لا متعة ولا نزهة، بل كد وتضال وكفاح، وما يبلغ المرء في دنياه غاية أو يدرك شيئًا إلا بالكفاح وعرق الجبين المتفصد، فلماذا نستثني الأدب ونراه أهون شأنًا وأيسر مطلبًا من أن يحتاج إلى عناء ؟

وليعذرني القراء الأفاضل إذا رأوني ألح على شبابنا أن يعكفوا على التحصيل ويجدوا فيه ويشقوا أيضًا، فقد رأيت شبابًا كثيرين في مصر أكبر ظني أن لهم أندادًا في غيرها يستثقلون الطلب، ويستطيلون مدته، ويستكثرون الجهد الذي يقتضيه، ويستخفون بالأمر كله ويحاولون أن يرقوا بغير سلم، وأن يبلغوا الغاية بدون أداة أو وسيلة، فلا يأتون إلا بأغث الغثاثة وأسخف السخف، ثم يروحون يتذمرون ويجأرون بالشكوى ويزعمون أنهم مغبونون مغموطو الأقدار، وأن الشيوخ يأخذون عليهم متوجههم ويعترضون سبيلهم حسدًا، إلى آخر هذا الهراء. وتقول لهم: إن كل علم وفن مثل الطب والهندسة والتصوير والموسيقى، إلى آخر ذلك يحتاج إلى درس طويل وتحصيل واف، فإن الملكة وحدها لا تكفي، والاستعداد بمجرده لا غناء له، ما لم تؤازره

المعرفة الصحيحة، فلماذا يعدون الأدب بدعًا يرونه مما يمكن الاستغناء فيه عن الآلة والأداة؟ فلا يقتنعون، أو على الأصح، لا يستطيعون أن يروضوا أنفسهم ويوطنوها على احتمال المشقة .

وأوثر أن أكون صريحًا فأقول : إن هذا تطرٍ لا يعجبني، وكسل لا أراه بشيرًا بخير، فيحسن أن أورد طائفة من الأمثلة تبين أي مشقة احتملنا، وأي عناء صبرنا عليه، وأي جهد تكلفناه في حداثتنا وصدر حياتنا قبل أن نتطلع إلى منازل الأدباء .

وقبل ذلك أقول : إن مما نفعني وأغراني برياضة نفسي على التشدد والتجلد كلمة قرأتها ومنظر رأيته، فأما الكلمة، فقول كوبيت في كتابه "نصيحة إلى الشبان" إن على الشاب إذا أراد أن يكون رجلاً كاملاً لا نصف رجل أن يحلق ذقنه كل صباح بالماء البارد في الشتاء، وجو إنجلترا من أقسى الأجواء. فقلت لنفسي: إن مصر جوها معتدل، فأنا أولى بهذه النصيحة وأقدر على العمل بها. وتوخيت بعد ذلك أن لا أستعمل إلا الماء البارد في كل حال فنفعني هذا وقواني على احتمال المؤثرات الجوية وإن كان بدني خرعًا .

وأما المنظر، فكان شابًا من العمال راقدًا على الحجارة في وقدة الظهر وشمس الصيف تضربه، وكنت يومئذ في السابعة عشرة من عمري، فقلت لنفسي: أنا أتململ لأن وسادتي ليست محشوة بريش النعام، وسجادتي ليست من صنعة العجم، وهذا الغلام ينام على الحجارة ولا يتأفف ولا يشكو ولا تمنعه خشونة المضجع أن ينام ملء جفنيه... أما والله لا اتخذت بعد اليوم شيئًا وثيرًا! وما زلت إلى اليوم أوثر الخشن على الرقيق، وليس في بيتي كرسي مريح أو فراش لين، لأني أخجل أن أكون مترفًا .

ورضت نفسي على الجلد، فاتفق في أول عهدي بدرس الأدب أن وقعت في يدي نسخة من ديوان "الشريف الرضي" مطبوعة في الهند، ليس فيها بيت واحد يسلم من التحريف، فما استطعت أن أفهم شيئًا، وكدت أيأس، ولكني تشددت وأقبلت عليه أعالج تصحيحه، وقضيت في ذلك قرابة عامين وأنا أوفق قليلاً وأخفق كثيرًا، حتى هداني الله إلى ديوانه المطبوع في بيروت، وهو أصح وأسلم من الخطأ، وإن كان لا يخلو منه، فتشهدت واسترحت .

وحبب ابن الرومي إليّ ما قرأته له مبعثرًا في كتب شتى، فطلبت ديوانه، فلم أجد إلا مخطوطًا – أعوذ بالله منه – في دار الكتب المصرية، وكان فيها مخطوطان آخران، ولكني لم أعط إلا أسوأ الثلاثة وشرها، فاستنسخته وعكفت عليه سنوات طويلات المدد أحاول التصحيح والضبط، فلم أبلغ من ذلك ما أريد، ولكني بذلت غاية ما يدخل في الوسع .

وكان من أول ما اقتنيت، الأغاني طبع الساسي، وهي نسخة محشوة بالغلط، ففككت الأجزاء "ملازم"، وجعلت أحمل الملازم معي واحدة واحدة إلى دار الكتب في أوقات فراغي، وأراجع النصوص نصًا نصًا، وبيتًا بيتًا، وأدون التصحيح، أو التكملات على ورق أبيض أعددته لذلك، وصرت ألصق الورق المكتوب بين الصفحات المطبوعة، حتى إذا انتهيت من جزء جلدته وانتقلت إلى ما يليه. وهكذا حتى أتممت الكتاب كله، فصار ضعفي حجمه الأصلي. وحدث لسوء حظي في أيام الحرب الماضية أن رقت حالي فجأة، واحتجت إلى مال، وأنا امرؤ ربتني أمي – رحمها الله – على الاعتماد على النفس والاستغناء عن الناس، وبغضت إليّ الاستدانة وكل ضروب الاستعانة بالغير فلم أجد لي حيلة إلا أن أبيع ما اقتنيت من كتب، ورأى بعضهم عندي نسخة الأغاني هذه، فألحف في طلبها، فأبيت أن أبيعها، فلم يزل يزيد في الثمن ويرتفع به، حتى أغراني، وما كاد يخرج بها، حتى طار عقلي، وندمت أشد الندم، فإنها ثمرة تعبي سبع سنوات، ولكن أمي قامت بي إلى السكينة وقالت لي : "ألست قد قرأتها؟ انتهينا إذن ولا داعي للأسف"! فجعلت بعد ذلك أعزي نفسي بقولي : إن فائدة القراءة كفائدة الطعام، والمرء يأكل ليصح بدنه، ولو أني نسيت اليوم ما أكلت في أمسي، لما منع ذلك أن الفائدة قد حصلت، وأن جسمي انتفع بما طعمت وكذلك العقل : يقرأ المرء ليستفيد علمًا ويقوي مداركه وينمي ملكاته، ولا يمنع حصول الفائدة أنه نسي ما قرأ أو أن الكتاب غير موجود.

وحسبي هذه الأمثلة القليلة، والحقيقة أننا أعطينا الحياة لنحياها، لا لننعم بها أو نسعد، ومعنى أن نحيا أن نعمل، ومؤدى العمل أن نكدح ونتعب، والأدب مطلب كسائر المطالب له وسائله، فلا معدى عن العناء في سبيله .

إبراهيم عبد القادر المازني

فى عالم الكتب

أبدًا يسطر - ما شاء - القلم[1]

(عمر خيام)

مللت أن أكتب كل أسبوع عن كتاب. وهممت بالكف ثم استحييت أن أخذل إخوانًا وأخيب أملهم بلا موجب، وقد سبق منى الوعد بأن أتناول كتبهم بالحق، ثم إنى إذا لم أكتب فى هذا فسأكتب لا محالة فى غيره، فما تبقى أصابع الزمار ساكنة أبدًا، وإنه ليموت وهلى تلعب. أو هكذا يقول المثل، والعهدة على مرسله، فما رأيت قط زمارًا يموت، على أنى مطمئن إلى صحة المثل فإنه يقال أن الكف آخر ما يموت من البدن، أى آخر ما يظهر أثر الموت فيه ومن هنا راح قراء الكف أو علماؤه يزعمون أن هذا علم صحيح والله أعلم، فقد قرأت كتبًا - بالإنجليزية والعربية - فى هذا العلم فما اقتنعت بشىء، وحدثنى غير واحد من أهل هذا العلم فكنت أصغى وأهز رأسى وأقول "ظاهر، ظاهر" وأقول لنفسى "رزق العبط على المجانين". وما دامت غفلة الناس درجات متفاوتة؛ فيستظل بعضهم يأكل بعضًا، وقد أكون أنا المخطئ، وهم على صواب، ولكن الحقيقة أنى عاجز عجزًا تامًا أن أفهم كيف تفشى بضعة خطوط فى الكفين سر الحياة كلها، وكيف يدل غلظ إصبع أو طوله أو سهولة ثنيه أو غير ذلك من أشكال الأصابع وحالتها على شىء ما، من الطباع أو الميول أو الاستعداد. غير أنى أشهد أن القوم حاذقون فيهم فصاحة وقدرة على السح بالكلام الذى يقع من النفس. أضف إلى ذلك أنهم يقبلون على كفك جادين، ويتأملون ويتفرسون، ويلطخون لك يدك بالحبر ويطبعونها، ويعكفون على هذا "الطابع" يدرسونه ويدرسون خطوطه ويقيسونها ويتدبرون دلالات

---

(١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٥ (ص٤) .

تلاقيها أو تباعدها أو تقاطعها أو تقطعها، ويعدون، ويحسبون، ويضربون ويقسمون ثم يجيئونك بكلام مونق محتمل التصديق. فماذا تفعل إلا أن تصدق؟ ولا سيما إذا كنت امرأة، أو مكروبًا، أو عاشقًا، أو متعلق النفس بأمل، ومن الذى لا تكون عاطفته أو رغبته في بعض الأحيان أقوى من عقله؟ وهب عقلك كان هو المسيطر فى كل حال على نفسك فما قيمة هذا العقل في دنيانا، وما مبلغ ما يدرك ؟

ولا يخفى على صاحب الكف أحيانًا أن ما يقوله له قارؤه هسراء في هسراء، ولكنه يسمع منه كلامًا يروقه ويرضى غروره فيؤثر الاستنامة إليه لأن هذا أجلى وأشرح للصدر وأندى على القلب. قال لى مرة واحد من هؤلاء الحذاق أنى قوى الإرادة! فقهقهت، فاستهجن ضحكي وأظهر الغضب وراح يريني أمسارات ذلك في كفي. وأنى لأعلم أني أضعف خلق الله إرادة، ولكن ما حيلتى وهو يسرنى بهذا الكلام؟ ولست أتهمه بتعمد الكذب، فلعل هذا ما خيل إليه، والكلام على كل حال جميل، وقد ذهبت بعد ذلك أغالط نفسي وأزعم أن قوة الإرادة ليست صفة ثابتة في كل حال وكل وقت، فقد يكون المرء قوى الإرادة فى حال ووقت، وضعيف فى حال ووقت آخر، فيلقي عزمه بين عينيه إذا كان الأمر جدًا يستحق هذا العناء، ويتسهل ويفتر إذا كان الأمر مما لا يقدم أو يؤخر، وليس من المعقول أو الطبيعي أن يعيش المرء طول عمره وكأنه قضيب من الحديد لا ينثني أو يلين، ولا معدى عن فترات فتور لعلها أدل على "إنسانية" الإنسان .

وقال لى آخر أنى لا أستطيع أن أعيش بغير المرأة، فضحكت أيضًا، ومن ذا الذى يستطيع أن يعيش بغيرها إذا لم يكن فيه شذوذ يصرفه عنها أو يفتر شعوره بالحاجة إليها أو ينفره منها؟ فليس فى قوله ما لا يصدق على كل إنسان طبيعى، بل على كل حيوان، ولكنه كلام طيب يحسن وقعه فى النفس وإن كان فارغًا .

وزعم غيره أنى ميدان معركة دائرة الأرحاء أبدًا، وبين عقلى وقلبى وجسمى، لأن عقلي وقلبي كبيران – هكذا قال والعهدة عليه – وجسمي خرع ضعيف. فتبسمت مسرورًا. ومن ذا الذى يسوءه أن يقال له أن عقله وقلبه كبيران؟ وما جاء الرجل بجديد، فإن كل إنسان هكذا – فى نزاع أو عراك مستمر بين العقل والقلب والبدن.

وسلوك الإنسان وتصرفه رهن بما تسفر عنه هذه المعركة وينكشف عنه غبارها، كلما دارت، وهى تدور كل ساعة فى ميدان جديد لغاية جديدة. وقديماً قال المتنبى :

"وإذا كانت النفوسُ كباراً   تعبت فى مُرادِها الأجسامُ"

على أن التعب حاصل، والمعركة دائرة أبداً، سواء أكبرت النفوس أم صغرت .

الحقيقة أن هؤلاء القوم ليسوا علماء كف أو قدم، وإنما هم علماء بمواطن الضعف فى الإنسان، بل إنى لأذهب إلى أنهم هم وأضرابهم ممن يدعون العلم بالمستقبل أو القدرة على معرفته، أعلم خلق الله بطبيعة البشر وبنواحى الضعف فيها على الخصوص، وقد تكون أنت أذكى منهم وأعرف بالطبيعة الإنسانية وأحسن درساً لها، ولكنك لا تستطيع أن تقوم مقامهم أو تحسن مثل كلامهم الذى يمكن أن يعنى أى شىء أو لا يعنى شيئاً على الإطلاق، والذى يدعون لك تفسيره على هواك. ومتى ذهبت أنت تفسر قولهم على هواك – وهذا هو الذى يحدث – فإنهم هم الرابحون. وفى كل زمان وكل مكان أشباه لهم – كالكهان والمنجمين والذين يقرأون فنجان القهوة والذين يستنبئون ورق اللعب، والذين يضربون الرمل أو يخططون فيه أو يستخدمون الودع إلخ إلخ – وما أظن أن الدنيا تخلو من أمثالهم، فإن الإنسان ضعيف، بل أضعف مما يعرف .

وعندنا فى حينا رجل كنت أراه مسنداً ظهره إلى سور بيت وأمامه ما يسمونه "تخت الرمل" وكان قلما يقف عليه أحد. ومررت به يوماً فإذا به قد فتح الله عليه فاستغربت، وتمهلت، فالفيته قد جاء بموقد وحق بن وقليل من السكر، فأنت تنقده القرشين – فقد رفع السعر – فتشرب فنجان قهوة مرة أو بسكر (وهى بالسكر أغلى) ويحدثك عن ماضيك (كأنك لا تعرفه!) وينبئك بالمستقبل، ويطمئنك على زوجتك اللعوب، أو القضية التى لك، أو غير ذلك مما يقلقك، ولا يذكر الزوجة أو القضية أو غيرهما صراحة، وإنما يقول لك كلاماً عاماً يحتمل كل ما لعله يدور فى نفسك، ثم تقوم وتنصرف راضياً وقد نعمت بشرب القهوة واطمأن قلبك، وكان الله يحب المحسنين .

كان عندنا قريبة لنا شابة، فزارتنا ذات يوم عجوز شهرتها أنها تحسن قراءة الفنجان، فطلبت الفتاة قهوة وشربتها وقلبت الفنجان فى طبقه وانتظرت لحظة ثم ناولت العجوز الطبق وعليه الفنجان المقلوب ودعتها إلى قراءته. فسمعت العجوز تقول "يا بنتى العالم هو الله" فألحت الفتاة، وأنا أبتسم وأنتظر ما يكون، فتمتمت العجوز بكلام خفى ثم تناولت الفنجان وحدقت فى قاعه وجوانبه ثم ردته وهى تتنهد، وأبت أن تقول شيئًا، فانزعجت الفتاة إذ توهمت أنها رأت شراً مستطيراً وأصرت العجوز على الصمت، فبكت الفتاة واضطربت، فلم يسعنى إلا أن أصيح فى هذه العجوز "قومى، قامت قيامتك" وأخرجتها، وسلقت الفتاة بأحد لسان وأقساه حتى فاءت إلى رشدها. وكان لا مفر من هذا الزجر الصارم فما كانت الملاطفة تجدى فى هذا المقام .

وللقصة بقية تستحق التدوين فقد حدث أن صدم الفتاة موتوسيكل (أو طعطعان كما يسميه أهل نجد) فانكسرت ذراعها، وقد برئت ولكنها اعتقدت أن هذا ما تبينته العجوز فى الفنجان وكتمته وزادت إيمانًا بهذا الدجل.

حاشية – كان العزم أن أتحدث فى هذا الأسبوع عن كتاب "أبى حنيفة" للأستاذ عبدالحليم الجندى، ولكنى استطردت لا أدرى كيف، فمعذرة وإلى الأسبوع المقبل أحيانا الله وأحياكم .

إبراهيم عبد القادر المازنى

خـواطـــر ...[1]

كتب إليّ بعضهم يستشيرني في العيد كيف يقضيه! حتى عن هذا يسأل بعضهم! وقد حرت كيف، وبماذا أجيب؟ ثم خرجت من المأزق الذي زج بي فيه سؤاله بكتاب وجيز، هذا بعض ما فيه :

"والشرط في العيد أن يشترى لك سواك كسوة، فإذا لم يوفقك الله لهذا، أو كنت ممن يَشترون ولا يُشترى لهم، فلا عيد لك. ويجب أن يكون مع الكسوة لعبة – أي لعبة – كرة ملونة مخططة، أو زمارة، أو حصان خشبي، أو ما شئت غير ذلك، على أنك سألتني فأنا أختار لك "البارود" إذا كنت غلامًا، وإذا كنت لا تعرفه فأعلم أنه "فتيل" ملفوف عليه ورق أحمر، وبعضه في سمك القلم، والبعض أسمك من ذلك جداً، والأول يُرَصُّ في علبة، والثاني فرادى لضخامته. وإذا أشعلت النار في هذا أو ذاك، انطلق منه مثل أصوات البنادق والمدافع. أما إذا كنت "بنتًا" فأنا أشير عليك بما يسمى "على لوز" وهو سكر يُحل ويُعقد، ويزين باللوز والبندق والفستق، وما إلى ذلك، وتحمله الفتاة في طبق – بعد أن يبرد لئلا تحرق أصابعها الناعمة – وتدور به على الصبيان تبيعهم منه، كل ملء ملعقة صغيرة بمليم، وهذا هو السعر القديم، وزيادته جائزة .

"واحرص على أن تُعطى في العيد بلا تقتير أو حساب، فتأخذ باليمين لتنفق بالشمال، وكلما فرغت يدك وذهب ما معك، عدوت إلى أهلك تطلب منهم أن يعطوك، وتبكي وتصيح وتدبدب برجليك – وبيديك أيضًا إذا شئت – وتتمرغ على البساط، أو البلاط وهو أفضل – إذا أبطأوا وتلكؤوا في العطاء، أو بخلوا به. فإذا ملأوا جيوبك

---

(1) نشرت في "الرسالة" في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٤٥ (ص١٢٤٧– ص١٢٤٨) .

قروشاً ذهبت إلى الأراجيح، وبعضها خيل تدور براكبيها حتى تدور رءوسهم، والبعض "دكك" أربع كل اثنتين منها متقابلتان، تدور كالساقية وأنت معها، فتسر أو تخاف، وتصرخ أو تغني على هواك، والدكك دائرة كالأيام، صاعدة بك طوراً، وطوراً هابطة، لا تبالي - كالأيام أيضاً - أضحكت أم بكيت، وفرحت أم جزعت. ومن الأراجيح أيضاً نوع لا أشير به عليك إذا كنت فتاة، فإنه يعرّيك ويطير ثوبك عما تحته، وهو عبارة عن لوح مشدود من الجانبين إلى حبلين معلقين، يقف عليه الفتى ويمسك الحبلين بيديه، ويروح يدفع اللوح بقدميه، فيندفع من الخلف إلى الأمام، ومن الأمام إلى الخلف، فإذا كنت قوياً أو مدرباً، بلغ بك علواً كبيراً .

"وإذا لم يعجبك هذا الذى أقترح فإنه لا يبقى لك إلا أن تذهب إلى القبور فتزور موتاك، وتترحم عليهم وتستغفر لهم، والسلام" .

وقد ندمت بعد أن وضعت الكتاب فى صندوق البريد، لأني خفت أن يصدر عن رأيي، فيفعل ما أشير به! ومن الغريب أن هذا هو الرد الوحيد الذى بعثت به على ما جاءنى من الرسائل فى شهر كامل !

صدق من قال : يُشاب المرء رغم أنفه!

* * *

ما أعجب غرور الإنسان! وما أحوج الإنسان إليه !

لى صديق - وفى هذا مبالغة قليلة ولكنه لا ضير منها - ليس بينه وبين الغوريلا فرق، وقد اعتاد أن يتخذ مكانه كل يوم على مقهى يكثر مرور الناس - رجالاً ونساء - على رصيفه، وهو على طريقى فى أغلب غدواتى وروحاتي. ومن عجيب أمره أنه شديد التأنق فى ملبسه، كأن من الممكن أن يحجب حسن الهندام قبح الوجه وسخافة القوام. وكان أولى به فى رأيي أن يتوارى عن العيون فى مقهى فى زقاق ضيق إذا كان لابد من الجلوس فى مقهى. وقد سألته مرة وقد ألح علىّ فى مجالسته :

لماذا تؤثر هذا المكان والضجة فيه عظيمة !

قال : "أتفرج على الناس"

قلت : "أو يتفرجون عليك!"

فلم يسؤه قولى بل ضحك وقال: "لا بأس: يتفرجون وأتفرج"

قلت "أواثق أنك تحمد العاقبة!"

قال "لا شك! أنظر إلى هذه الفتاة التى ترشقنى بنظرتها الحلوة"

فأحنقنى واستفزنى هذا الغرور وقلت: "لعلك تظن أنك فتنتها بجمالك؟"

فما انهزم والله، بل قال: "وهل فى هذا شك؟"

فلم أطق صبرا على هذا الغرور فانصرفت عنه، وإنى لأدرى أن بالإنسان حاجة إلى قدر من الغرور يعوذ به ويعول عليه، ويستمد منه القدرة على احتمال حياته، ولكن هذا قد جار على نصيب جيله كله من الغرور .

وقد تعجبت فى مستهل هذه الكلمة لغرور الإنسان، وأنا أختمها بالتعجب من المرأة: فقد رأيت أجمل امرأة أخذتها عينى فى حياتى، تتأبط ذراع هذا الغوريللا، وتثنى إليه محياها الصبيح وهو ينضح بشراً وابتهاجاً، وفى عينيها وميض الحب، وقد خيل إلى، وأنا أنظر إليهما كأنها تشتهى أن تأكله !

وقد سلم على يومئذ بغير استخفاف، وبغير احتفال كذلك. ولم يتمهل إلا ريثما يهز يدى، ويسألنى عن صحتى، كعادته كلما لقينى، ولم يستعجل أيضًا، ولم أر على وجهه ولا فى سلوكه ما يدل على أنه مزهو بمصاحبة هذه الحسناء الفاتنة. فكأن هذا أمر عادى جدا! فسبحان ربى القادر .

* * *

وعلى ذكر التعجب أقول إن عجبى لا ينقضى من عجز الإنسان وجهله. نعم استطاع أن يخترع اللاسلكى مثلاً، فهو يرسل الموجة من جهاز فتمضى فى الجو إلى أطراف المعمورة، ويلتقطها جهاز آخر فتستحيل كلاماً وغناء وموسيقى. وهذه الأجهزة مصنوعة

من مواد يستخرجها الإنسان من الأرض التي يعيش عليها، وهو أيضًا مخلوق من طينها، وفي بدنه كل عناصر هذه الأرض، ومع ذلك لم يخطر له أن يحتال حتى يتخذ من بدنه جهازين للإرسال والتلقي، أو أن ينمي قدرته على ذلك، فإن الناس يتفاهمون بالنظر إلى حد ما، فماذا يمنع أن يتسع نطاق التفاهم حتى يشمل كل شيء، فيستغني الإنسان عن أداة اللغة التي قل أن يحسنها والتي هي عنوان العجز والقصور ؟

وأمر آخر : حطم الإنسان الذرة، وهي لا ترى لا بالعين ولا بالمجهر. وأطلق بتحطيمها قوة مهولة مفزعة، استخدمها أول ما استخدمها في التدمير، وسيستخدمها - إذا لم تقض عليه قبل ذلك - في التعمير. وما من شك في أن في الإنسان طاقات محبوسة أو مستكنة أو راكدة لو أطلقت بحساب وقدر - حتى لا تعصف به - لبلغ من القوة والاقتدار درجة يعجز الخيال عن تصورها. ولكنه لا يفعل، ولعل العلماء الذين حطموا الذرة لم يخطر لهم أن يعالجوا القيام بشيء من التحطيم في جسم الإنسان وقد يحتاج ذلك إلى زمان طويل، وقد يستغرق الاهتداء إلى وسيلة مأمونة لتحطيم ذرات الإنسان وإطلاق طاقاتها بقدر إلى قرن أو أكثر، ولكن ما قرن إذا قيس إلى هذه الغاية التي تقلب الإنسان ماردًا جبارًا ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

على القهوة[1]

إذا أردت أن تعرف أى حياة يحياها المصريون، وكيف حالتهم الاجتماعية، فانظر إلى هذه المقاهى الغاصة، ومواقعها، وتدبر أمر روادها؛ فإن دلالتها الواضحة إنه ليس لنا بيوت فنحن مشردون فى الشوارع .

وقد طوفت فى بلاد العرب جميعًا، فما رأيت كمصر فى كثرة المقاهى وكثرة الذين يختلفون إليها، ويطيب لهم أن يقضوا الوقت فيها . ويكفى أن أذكر على سبيل المثل ما حدثنى به ضابط بوليس من أن شارع الأمير فاروق طوله كيلومترين وبه مائتا مقهى !

ولا شك أن لجو البلاد دخلاً فى هذا، ولكنى أعتقد أن الحياة الاجتماعية هى العامل الأكبر والأقوى .

كان الناس قبل ربع قرن يسمرون فى بيوتهم إذا كان فيها سعة أو مكان منعزل يصلح أن يجتمع فيه الضيوف بمنأى عن النساء – من مثل منظرة، أو [نختبوش][2] ، أو سلاملك – وكان الأوساط من الناس يحرصون على أن يفردوا غرفة للضيوف أى لاستقبال من تقضى العادات باحتجاب النساء عنهم. وهذه الطبقة المتوسطة التى تضيق مساكنها بالضيوف ولا تحتمل مواردها توالى استقبالهم – مضافة إليها الطبقات الفقيرة – هى التى كانت، وما زالت، تزود المقاهى بالكثرة من روادها .

وقد تغير طراز البناء، وصار المبنى الواحد يتسع لأكثر مما كان يتسع له شارع قديم بأسره وذهبت "المناظر" وما إليها، فإمّا أن يحيا الناس حياة اجتماعية جديدة يختلط فيها الرجال والنساء، وإمّا أن تبقى النساء فى البيوت ويخرج الرجال إلى المقاهى .

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ١ ديسمبر سنة ١٩٤٥ (ص٨) .

(٢) كذا فى الأصل (المحرر) .

وهم يخرجون لأسباب ودواع شتى أهمها أن البيوت مملة، وأن كثرة المصريين لم تتعود أن تقضى وقت الفراغ فى رياضة عقلية أو بدنية، ولا تحسن توزيع الوقت بين العمل واللهو، فكل وقت فراغ هو وقت لهو، وأين يكون اللهو أو كيف يكون إلا فى المقهى ؟

فأما أن بيوتنا مملة، فأظن أن القارئ يوافقنى على ذلك. فالسواد الأعظم من بيوتنا لا ترى فيه وردة، ولا تتبدى فيه المرأة، فى الأغلب، إلا فى مباذلها لأنها لا تتأنق إلا للغرباء! أليست قد تزوجت رجلها وانتهى الأمر؟ إنما حاجتها الى الزينة والتجمل كأنما هى ستخطب من جديد؟ وهبها تجملت فإنها لا تحسن الحديث، ولا تعرف الكلام إلا فيما يعنيها من شئونها وحدها، والرجل ليس خيراً منها فى هذا، وقلما ينتهى حوار بين رجل وامرأته إلا إلى شجار ونقار. وليس فى بيوتنا مواعيد للزيارة أو نظام لها، لأننا لا نعرف قيمة التنظيم ولا نحسنه، وإذا كان فى البيت أطفال فلا آخر للصياح والصراخ والبكاء، حتى الخدم لا ندرى كيف نعاملهم بالحسنى .

والواقع أن الرجال يفرون من بيوتهم، لأنهم لا يفهمون المعنى الصحيح للحياة الزوجية أو الاجتماعية، وليست المرأة فى نظرهم أكثر من "أنثى" وخادمة نظيفة، وليس البيت إلا مطعماً وفندقاً للنوم، ولم تبلغ المرأة عندنا درجة من الرقى تعينها على تغيير هذا الحال .

سألت صديقاً ذات يوم : ماذا يغريك بهذا المقهى ؟

قال : إن موقعه يجعله مكاناً للعرض.

قلت : "أى عرض؟"

قال : مواكب النساء !

فهو يتخذ مكانه من المقهى على الرصيف ليرى النساء فى غدوهن ورواحهن، وهن فى حفل من الزينة. وله العذر، فلو كان ينعم بمثل هذه المناظر أو بعضها فى بيته، لما أغرى بالمقهى .

فقلت له : أما سمعت قول الشاعر :

وكنت إذا أرسلت عينيك رائدًا أمامك يومًا، أعجبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

ولكنه معذور، كما قلت، لأنه لا يجد الروح والريحان فى البيت، فهو يتعزى بالشارع وإن كان لا ينال سوى متعة النظر، "وهل ذاك نافع؟" كما يقول شاعر آخر لم يفز أكثر من وقوع العين فى العين[٣] .

ولست أذم المقاهى أو أعيب ارتيادها، فإنى أغشاها فى بعض الأحيان، وإن كنت لا أطيل المكث بها، ولا أجعل ارتيادها عادة، وإنما الذى أعيبه أن تكون حياتنا كلها أو معظمها فى المقاهى دون البيوت، لأن ذلك دليل على فساد الحياة الاجتماعية وقيامها على قواعد غير صالحة، ولأن المقاهى تباعد ما بين الرجل والمرأة، وتترك حياة الأمة شطرين مفصولين. ومن السهل أن تقول لا تفرقوا بين الرجال والنساء، واجمعوهما، وليس من العسير أن نفعل ذلك ونروض أنفسنا عليه، فأنا بسبيل منه الآن، ولكن الصعب هو تأديب النفوس بالآداب الاجتماعية القويمة، التى لا يصلح الأمر بغيرها، وإكساب الرجل والمرأة الفضائل الحقيقية. وأقول "الحقيقية" وأنا أعنى ما أقول، فإن فضيلة المرأة عندنا مازالت فضيلة الجدران الأربعة، أى الفضيلة الحاصلة ولا أقول المستفادة بالاحتجاب عن الرجل، على الرغم من سفورها وتحررها فى الظاهر، وستحتاج المرأة إلى زمان طويل حتى تكتسب الحصانة عن طريق الاستقلال أى المعاناة والتجربة، وسيحتاج الرجل إلى زمان طويل حتى يألف النظر إلى المرأة دون أن يستثيره جمالها ويهيجه إلى ما به، وحينئذ يتسنى أن تكون الحياة الاجتماعية فى مصر صالحة، ومأمونة أيضًا .

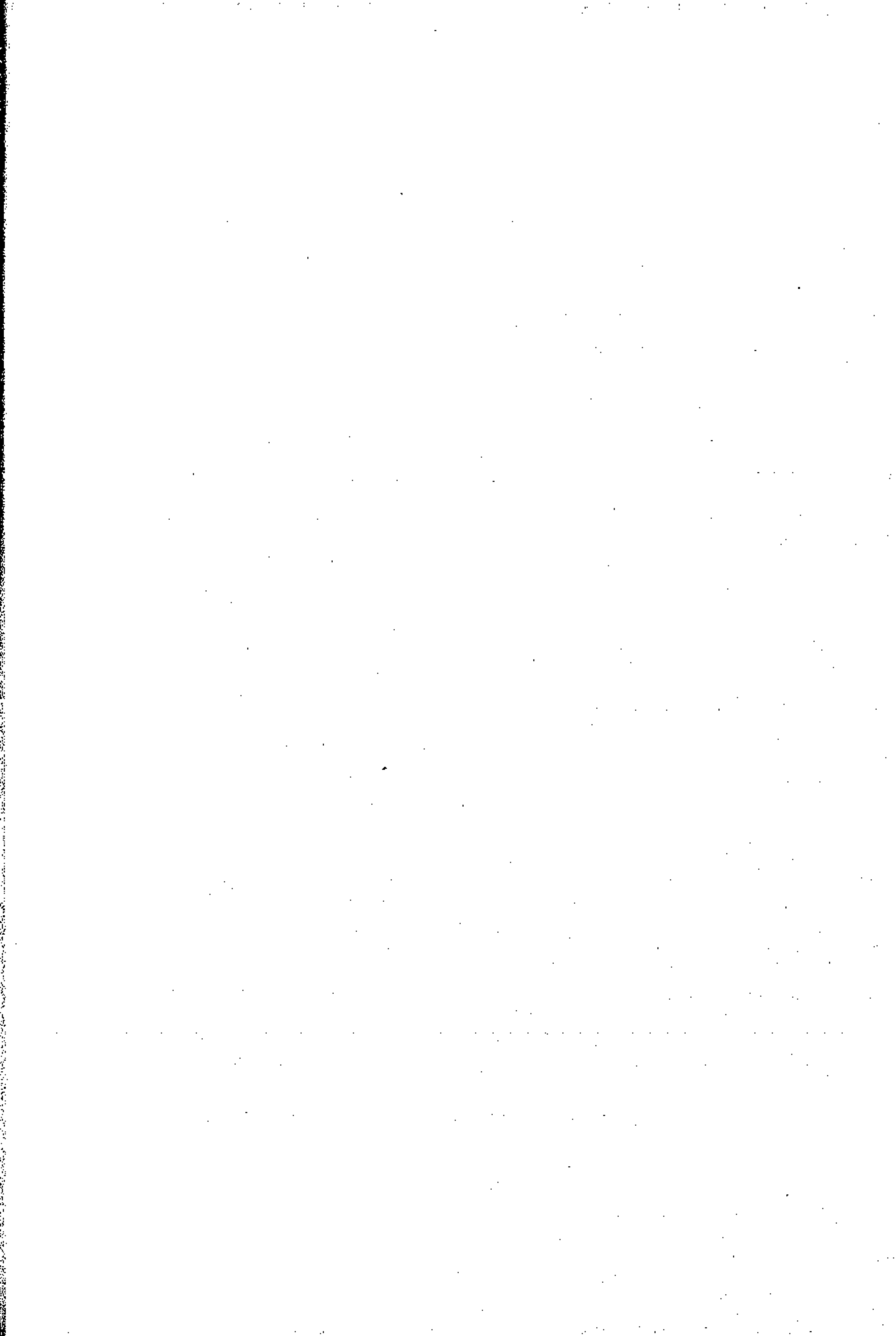
وحينئذ لا يحتاج الرجل أن يهرب إلى المقهى كلما فرغ من عمله، أو استيقظ من نومه .

إبراهيم عبد القادر المازنى

---

(٣) ربما يعنى ذا الرمة وبيته من الطويل الذى يقول فيه :

قف العيسَ ننظر نظرةً فى ديارها فهل ذاك من داءِ الصبابةِ نافعُ



من أنا ؟[1]

سألت نفسي مرة : ماذا أنا؟

وأني لأدري أني صحفي، وأني معدود من رجال هذه المهنة. ولكنني لست كذلك في الحقيقة. وأي صحفي هذا الذي لا يعرف دواوين الحكومة أين هي أو بعضها على الأقل، ولا يطيب له أن يلقى الناس، ولا يعنى بتقصي الأخبار، ولا يثقل عليه أن يبيت جاهلاً بما هو حادث في الدنيا، ومبدأه الذي لا ينزل أو يحيد عنه هو "خبر بفلوس، بكره يبقى بلاش"؟ كلا، لست صحفياً إلا على التسامح، وإنما أنا رجل كاتب، أو أديب إذا شئت. فهبني أردت أن تكون لي بطاقة تذكر فيها مهنتي الحقيقية أو أن أثبتها في جواز سفري، فماذا أكتب؟ أأقول أني "كاتب"؟ هل يكفي هذا في تعريف من يطلع على بطاقتي أو جوازي أني رجل صناعته الكتابة؟؟ أو لا يخشى أن يتوهم أني "كاتب" في دكان أو نحوه؟ أم أقول "أديب"؟، ولكن هذه صفة لا صناعة، فقد يكون الرجل أديباً ولا يكتب شيئاً. أم أقول أني "مؤلف" فإني أترجم أيضاً، وليس عملي في الترجمة بدون عملي في التأليف .

حدثت بهذا "رصيفاً" أديباً. فقال إنه وقع في مثل هذه الحيرة يوم أراد السفر إلى خارج مصر بعد أن اعتزل وظيفته الحكومية واحتاج أن يجدد جواز سفره أو يغيره، فلم يدر كيف يصف مهنته. "موظف سابق" من "الأعيان"؟ من "أرباب المعاشات" – كاتب – ؟ – أديب – ؟ – مؤلف – روائي – ؟ وأخيراً حل العقدة هو وموظف الجوازات بإيثار كلمة "المؤلف" .

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٥ (ص٣) .

وغريب ولا شك أن يحتار كاتب أديب في وصف مهنته والتعريف بنفسه، وإنما لحيرة تريك أن "الأديب" ليست له منزلة اجتماعية مقررة معترف بها، كالتاجر، أو الميكانيكي، أو الجزار، وأكبر الظن أن كثيرين من الناس لا يزالون يعتقدون أن الأدب والتسول وحياة التطفيل مترادفات، على نحو ما كان مألوفًا منذ بضع عشرات من السنين، أيام كان الشاعر يعيش على ما يجود به عليه أهل الخير من ممدوحيه أو الجبناء ممن يهجوهم .

وقد غبر زمان كان الناس فيه يعدون الصحفي متسولاً، وبهذه العين كان الناس ينظرون إلى معظم الصحفيين فكان إذا أقبل صحفي على جماعة استعاذوا بالله في سرهم، وراحوا يفكرون هل ينقدونه "شلنا" أو حسبه "نصف فرنك" أم تراه يرجى أن يكتفي بفنجان من القهوة يشربه ويتوكل على الله ويريهم قفاه! وكان الخوف من طول لسان الصحفي - لا احترام عمله وتقدير مهمته - هو الباعث الأكبر للناس على إظهار التوقير له اتقاء لشره، ثم ارتقت الصحافة ودخل فيها لفيف من أهل الفضل وذوي المقامات الملحوظة فرفعوا من شأنها وأعلوا قدرها، حتى لقد أصبحت تسمي نفسها "صاحبة الجلالة" و"السلطة الرابعة" .

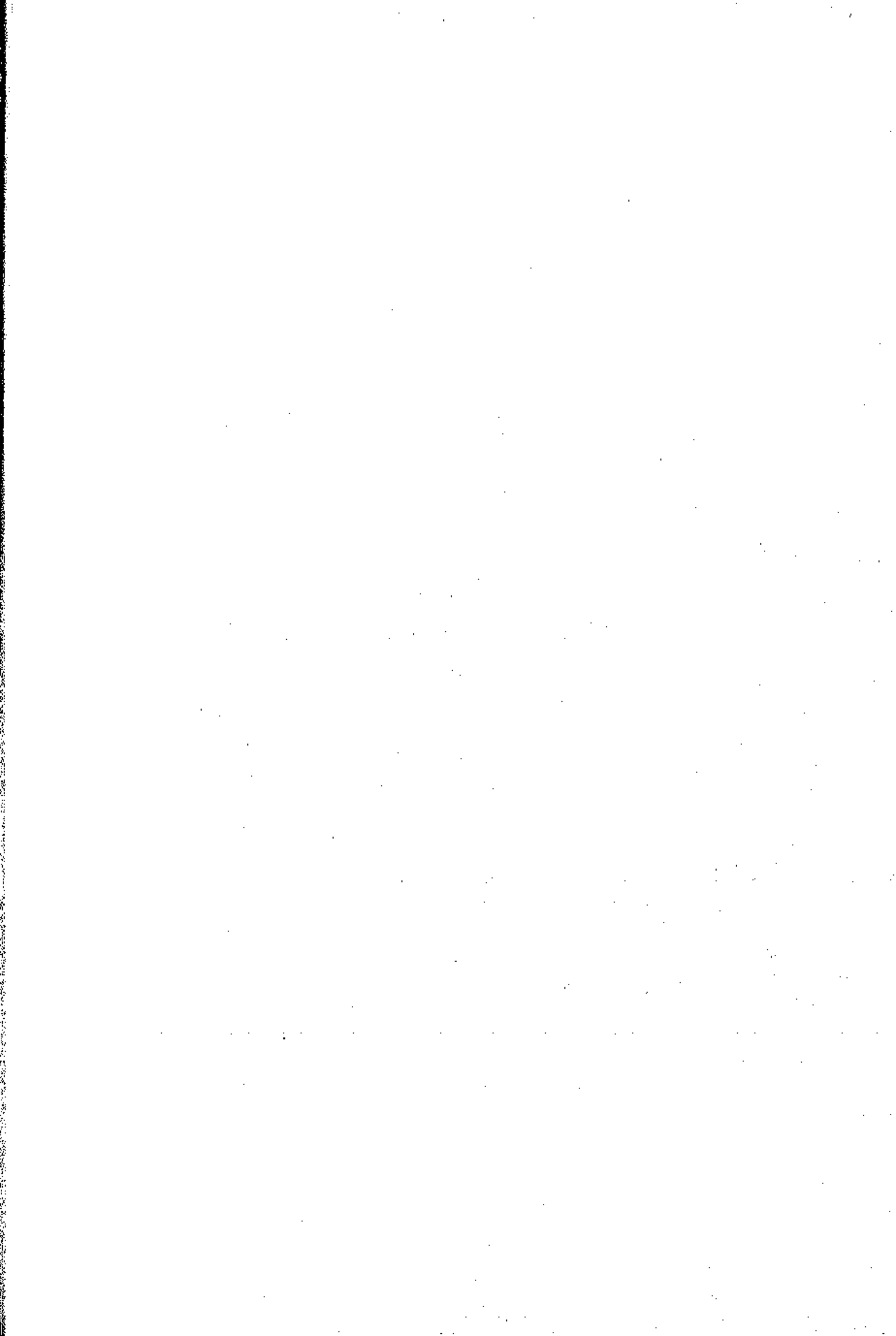
أما الأديب فلا يزال مركزه الاجتماعي قلقًا، وصفته يشاركه فيها كل من هب ودب. وسواد الناس يختلط عليهم الأمر حين تقول لهم أن فلانًا أديب. ولعل منهم من يتوهمه من جماعة الشعراء الذين كانوا قبل ربع قرن يقعدون على دكة عالية في المقاهي ومعهم الربابة، ويروون للناس قصة أبي زيد، أو عنتر، أو سيف "اليزل" كما تسميه العامة. ولعل منهم من يتذكر حين يسمع بأديب أولئك الذين كانوا يسيرون في الشوارع يستجدون، وقد وضعوا على رءوسهم طرابيش واسعة طويلة الأزرار، تختفي فيها الآذان. ثم يصفع بعضهم بعضًا وهم ينشدون ما عندهم من هزل فارغ، ويرددون كلمة "كعكم" إن صح أن تسمى هذه كلمة، ويهزون رءوسهم بعنف فيدور "الزر" في الهواء. ألم يكن هؤلاء يدعون "الأدباتية" ؟

ويخطر لك أن تبعث برسالة إلى تلميذ صغير فتكتب له في العنوان "حضرة الأديب الفاضل" وإن كان ما يزال يتهجى، كأن من العيب في حقه أو الحطة له والغض من قدره أن تقول "حضرة الطالب أو التلميذ"، وتكون أنت أديبًا له شهرة في مصر والأقطار العربية كلها شرقًا وغربًا، ويرى مركز البوليس أن يدعوك ليسألك عن شيء، فتتلقى منه دعوة هي عبارة عن قصاصة كتب عليها "مطلوب حضور النفر فلان" فإذا بدا له أن يتأدب معك أسقط كلمة "النفر" واكتفى باسمك مجرداً .

ولا ترى أحداً يذكر طبيبًا إلا مقرونًا – بلفظ الدكتور، أو محاميًا أو مدرسًا إلا حرص على أن يقول الميتر أو الأستاذ" وهكذا، إلا الأديب والكاتب فإن الناس يبخلون عليه بصفته الحقيقية، أو لعلهم لا يبخلون بها وإنما يستصغرونها ويستقلونها، ويرون غيرها أدل على التكريم .

ترى لو أراد في زماننا هذا أديب لا عمل له غير الأدب، أن يتزوج، وتقدم إلى أسرة يطلب مصاهرتها وسألوه عن عمله أو صناعته، فقال لهم إنه "أديب" فماذا يكون رأيهم فيه؟ وظنهم به؟ أما أنا فأرجح أن يتوهموه عاطلاً ويحسبوه قد جاء يطلب مصاهرتهم ليسرق مالهم .

إبراهيم عبد القادر المازني



الزواج ليس لعبًا أو تجارة![1]

أغرب العادات التي لا تزال مرعية في الأقاليم، وعند الأسر التي توصف بالقدم، أنهم يأبون أن يزوجوا البنت الصغرى قبل أختها الكبرى، وإذا كان في البيت فتى وفتاة أحجموا عن تزويج الفتى، حتى يمن الله على الفتاة بمن يحملها ويمشي عنهم بها. وقد يفعلون ما يغلب أن يكون شراً من ذلك، فيجعلون الأمر مقايضة ومبادلة، فيأخذون بنتك لابنهم، ويعطونك بنتهم لابنك، ويحلون الإشكال على هذا النحو المرذول الذي قلما يجر غير المتاعب. وأنا أعرف أسراً شقيت بناتها وتعس بنوها زمنًا لأن الآباء لم تطاوعهم نفوسهم على تزويج الصغيرات قبل الكبيرات، ولأن الشبان انصرفوا عن الزواج دعاية منهم لأخواتهم، وجرياً على هذه السنة العتيقة. وقد يكون هذا مظهر رفق محمود، وحنو كريم، ولكن الأمر مرجعه إلى العادة، والعادة هي التي تغري البنت الكبرى بالاعتقاد أن من الإساءة إليها أن تسبقها أختها الصغرى إلى الزواج، فإذا تغيرت العادة وأصبح مألوفًا أن تتزوج البنت حينما يقسم لها الزواج، تغيرت النظرة والاعتقاد تبعًا لذلك، ولم ير أحد بأسًا أن تتقدم هذه أو تتأخر .

ومعقول، ومقبول أن يحرص الأب على تزويج بناته، ولو أخر بنيه من أجلهن، فإنهن أضعف، وحياتهن في الأقاليم على الخصوص خالية من الفرص، وقد تتعبهن، وتتغص حياتهن زوجة أخيهن، فإننا ما نزال في الأغلب والأعم نحشد في بيوتنا الأزواج، ولا نفطن إلى مزايا الحياة المنفصلة لكل زوجين، أو لا تساعدنا الموارد على هذا الاستقلال، وليس بالنادر أن نزوج أبناءنا قبل أن يفرغوا من الدروس والتحصيل، أو قبل أن يخرجوا إلى الحياة، ويكسبوا أرزاقهم فيها بكدهم وحدهم .

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٢٦ يناير سنة ١٩٤٦ (ص٨) .

ولكن سلوكنا هذا مبنى على أخطاء شتى، منها الظن بأن التعجيل بتزويج البنت خير، وأن بقاءها بغير زوج، بلية، وأنه يخشى عليها العنس، وأن كل رجل يصلح أن يكون زوجًا لبنتك مادام مشهوداً له بحسن الخلق واستقامة السلوك، ومعروفًا أنه قادر على الإنفاق على امرأته.

وهى جملة أخطاء متراكبة، فليس التعجيل خيراً أو أرشد، لأن زماننا يتطلب أن تكون الزوجة على حظ من التعليم، وقدر من الاتزان، وأن تكون حسنة الإدراك لمعنى الزواج ومقتضياته. وملمة إلمامًا كافيًا بالحقائق والخصائص والجنسية. وليس هذا – أو بعضه – بالذى يتيسر فى سن غضة .

وليس مطل الأيام بموجب فى كل حال أن تعنس الفتاة. وصحيح أن كل شىء فى هذه الحياة، قسم وأرزاق، ولكن من الصحيح أيضًا أن للمرأة فى كل سن مزيتها الخاصة التى لا تكون لها فى سن أخرى. فليست المرأة فى عنفوان الصبى خيراً فى كل حال منها فى الثلاثين أو حتى الأربعين، وإن كانت أفتن وأقوى إغراءً. ومثلنا العامى يقول أن كل فوله لها كيال، فلا ضير فى ارتفاع السن فى ذاتها، فإنها خليقة أن توفق إلى الرجل الصالح لها فى كل سن تبلغها فإذا لم يقيض لها الله الرجل الموافق، فلا حيلة، فإنها حظوظ .

وأما الاستقامة وحسن السلوك، فكل الناس مستقيم، وعلى خلق عظيم بشهادة الإخوان ووسطاء الخير! فلا قيمه لهذا، ولا تعويل عليه. ولو كان لى بنت وأردت تزويجها لما عبأت شيئًا بهذه الاستقامة، ولآثرت لها رجلاً مجربًا خبيراً، يستطيع أن يملك زمامها، وأن يسعدها، بعد أن قضى وطره قبل ذلك من دنياه، وشبع من إرسال نفسه على سجية الشباب .

والمثل العامى – وما أحكم أمثالنا وأعمقها! – يقول : "امشى فى جنازة، ولا تمشى فى جوازة" وذلك لأن المشى فى جنازة مظهر عطف كريم، ومجلبة ثواب، أما المشى – أى السعى – فى تزويج اثنين، فكثيراً ما ينتهى بجمع المتنافرين اللذين لا يأتلفان، فيسخطان على الذى جمع بينهما بلعناته. وإنما يكون هذا هكذا لأنه قلما

تراعي الحقائق الأساسية في الزواج. فليست المزية أن تكون الزوجة رشيقة خفيفة، ومليحة جذابة، بل أن تكون فاهمة مدركة لمهمتها وللطبيعة الإنسانية. وما أكثر ما يتعجب الناس لرجل يرونه سعيداً بزوجة دميمة. والحقيقة أن جمال المرأة يفتر وقعه على الأيام، وأن الألفة وطول العهد به يورثان الرجل الملل، أو على الأقل يضعفان الإقبال والرغبة، فإذا الرجل والمرأة يعيشان على الذكريات، لا في حاضرهما، فإذا ضعف الرجل عن احتمال الفتور والملل، وكانت فيه بقية من حيوية، وعجزت الزوجة عن تجديد نفسها له، واقتناصه مرة أخرى، فإنه خليق أن يغوى، ويروح [ينشد] خارج بيته، ومع غير امرأته، ما ينقصه في بيته ومعها .

ومن هنا قال بعضهم – مازحًا على ما أظن – أن الزواج – سبيل إلى الغواية وهو مزج مبطن ببعض الجد، والجد الذي فيه هو أن الزوج الذي لم يتبلد خليق أن يجمح وينبو في العنان إذا عجزت الزوجة عن استدامه رغبته فيها وإقباله عليها – أي عن مكافحة الملل الطبيعي الذي يجره طول الألفة. وليس كل الرجال سواء، فإن منهم من يستطيع أن يروض نفسه على السكون إلى ما يفرضه الواجب ويحتمه الإنصاف للمرأة، وإلى ما يهيب به من ضميره، ولكن هؤلاء الأقلون، فلا قياس عليهم .

ولست ممن يذهبون إلى أن كل زواج يجب أن يكون مبنيًا على الحب ولا أنا ممن يقولون بجواز زواج اثنين لا يعرف أحدهما الآخر، ولا شك أن الحب أساس متين، ولكن كل نار إلى رماد، إلا إذا وجدت من لا يزال معنيًا بإلقاء الحطب عليها لتظل مستعرة، وقلما يتفق هذا، والأغلب أن تخمد بعد زمن طويل أو قصير. وكثيراً ما يسعد زوجان ما رأى أحدهما صاحبة إلا ليلة الجلوة، غير أن هذا لا يطرد، ولا ثقة به، ولا اعتماد عليه، والأشيع هو الفشل. وعندي أنه يكفي في البداية أن يكون هناك قدر معتدل من الإقبال والرغبة، متبادل بين الرجل والمرأة، والمعول بعد ذلك ليس على قوة الحب الذي أفضى إلى الزواج، بل على نوع الحياة بين الزوجين، وأساسها أن يكون كلاهما على علم واف بالحقائق الجنسية، فإنهما إذا لم يعرفاها، أو لم يحسنا تطبيقها، لم يغن عنهما شيء آخر .

أقول هذا عن تجربة شخصية، فقد تزوجت، أول ما تزوجت، إحدى قريباتي، وكان بيننا حب، أو على الأقل مودة، وكنت شابًا جاهلاً، لا عناية لي إلا بكتب الأدب التي كادت تسلبني نور عيني حتى احتجت إلى علاجها ستة أعوام متواصلة، وبعد زواجنا بقليل توالت الخلافات والمنازعات والشقاق بلا سبب ظاهر، أو علة مفهومة، حتى كاد عقل يطير، وحتى تلفت أعصابي ومرضت بالنيرستانيا، ثم اتفق أن وقعت على مجلة فيها شيء عن الجنس تبينت فيها بعد أنه خطأ محض. ولكنه أعجبني وأغراني بدرس هذا الموضوع، فأقبلت عليه، وخرجت منه بعلم نافع عملت به، ففزت بسعادة لا أقول أن غيري لم يفز بها، ولكنما أقول أني كنت أستحقها بمجهودي، وهو مجهود لا سبيل إلى مثله إلا بالعلم. ومما أذكره لأن له دلالته، أني عانيت في تلك السنين أزمة شديدة، أحوجتني إلى بيع كتبي كلها تقريبًا، ثم نفد المال مرة أخرى، ومرض ابننا مرضًا شديداً، ولم يكن في بيتنا من القوت غير الملح وكسرات ناشفة من الخبز، فجلسنا إلى المائدة – أي والله إلى المائدة! – وأمامنا الملح وكسرات الخبز اليابسة، فكانت تلك أطيب أكلة. ولست أذكر أني نعمت في حياتي بأحلى أو أشهى منها! وقد ماتت تلك الزوجة الكريمة، بعد أن شقيت معي، لجهلي ثلاث سنوات، وسعدت بعدها بسبع سنين، ومازلت بعد هذه التجربة ألح في الدعوة إلى تعليم أبنائنا وبناتنا الحقائق الجنسية، لأنها هي التي عليها المعول الأول، والأكبر. وقد يفيد القارئ ويريه أن الزواج ليس لعبًا أو تجارة، أن أقول أني لما تزوجت مرة أخرى شرعت من أول يوم في درس دورة النشاط والفتور الجنسيين في كل شهر قمري، ووضعت لذلك رسمًا بيانيًا، وواظبت على الملاحظة والدرس عامًا كاملاً حتى اقتنعت واطمأنت نفسي إلى صحة ما انتهيت إليه .

إبراهيم عبد القادر المازني

الصحافة والأدب[1]

كانت معرفة أخبار العرب مقرونة فيما مضى بحفظ الأشعار، وإن لم يكن للفظ "الأخبار" هذا المعنى الحديث الذى صار لها وغلب عليها، فقد كان أقرب إلى معنى التاريخ وأشبه به، وكان الشعر نفسه يعد ديوانًا لأخبار العرب، وسجلاً لأيامهم ووقائعهم، وقد اقترن الأدب بالصحافة فى زماننا هذا اقترانًا يظهر أنه لا حيلة فيه ولا مهرب منه .

وقد يسأل القارئ : هل فى هذا الاقتران ضير؟ والجواب الذى أستطيع أن أدلى به هو أنى أرجح أن لا ضير من ذلك. وأقول "أرجح" لأنى أرانى أزداد على الأيام زهدًا فى الجزم، ونفورًا من البت، وترددًا بين النفى والإثبات، وإيثارًا للتريث لعل وجهًا أو جانبًا آخر للأمر يتبدى، فأعرف ما كان غائبًا عنى، وما عسى أن يكون للإلمام به أثر فى الرأى الذى أذهب إليه، حتى صرت أتقلب بين الرأى وخلافه مرات قبل أن أستقر، ولست أحس بعد طول التردد بالاطمئنان إلى الصواب، وما أظن إلا أن هذا التردد قد أورثنيه ما وقعت فيه من الخطأ، وما ركبنى مرارًا من الجهل، وما كثر تورطى فيه بالتسرع وقلة الأناة .

وأوثر قبل الجواب المفصل أن أصف للقارئ ما كان من أمرى بين الأدب والصحافة، وأحسب أن هذا الوصف يصلح أن يكون بيانًا كافيًا، فقد كنت أديبًا قبل أن أكون صحفيًا، وكنت فى ذلك الصدر من حياتى معلمًا أيضًا، ولكنى كنت أشعر أن التعليم

---

(١) نشرت فى مجلة "الكتاب" فى مارس سنة ١٩٤٦ (ص٦١٧– ص٦١٩) .

لا يلتقي بالأدب في ملتقى واحد، أو يعين عليه، أو ييسر أمره، وكنت أرى أن الوقت الذى أنفقه في التعليم، كان الأدب أولى به، أو هو مقتطع من حق الأدب، وكنت أحس أن التعليم لا يصلني بالحياة الصلة اللازمة لفهمها، وكان تلاميذى لا هم من الأطفال فأدرس فيهم هذا الطور الحيوى من حياة الإنسان، ولا هم رجال كبار ناضجون، وإنما هم بين بين، فكأني معهم في برزخ، ولهذا كان أدبى نظريًا بحتًا، أو قل إنه الأدب الذى يعتمد على الكتب، ولا يستمد من الحياة إلا قليلاً، لأن صاحبه لا يعانيها معاناة وافية، وكنت أقول الشعر أيضًا في ذلك الزمان، وأرى الآن أن ما قلت لم يكن سوى توليد من القديم كنت أحسبه جديداً أو تجديداً، لأنه لم يكن مظهراً لاستجابة النفس لما يهيب بها من الحياة إذ تواقعها، وكنت متكلفًا في أسلوب الشعر والنثر جميعًا، لأنى أعيش بين الكتب ولا أكاد أعرف سواها إلا ظنًا على الأكثر. ولهذا كان أدبى في ذلك العهد دراسات فى الأغلب، قوامها القراءة وحدها تقريبًا، وشعراً لا يصور النفس على حقيقتها ولا يعبر عنها تعبيراً صحيحاً، لأن الاقتباس فيه بالقديم – من شرقي وغربي – أكثر من الاستمداد من التجريب. وكنت بطيئًا في الكتابة والنظم، معنيًا بالتجويد كما كنت أفهمه، وكنت مع عنايتي بالمعنى لا أرضى إلا عما ترضى عنه أذنى حين أعرضه عليها .

ثم كان ما صرفنى عن التعليم وألحقنى بالصحافة، فكابدت في أول الأمر شدة عظيمة، لأنى اعتدت الكتابة على مهل، وألفت ما كنت أتكلفه من الجزالة والفخامة، ولا يكاد ذلك يتسنى في الكتابة للصحف لأنها في عجلة، وهى تأبى أن تتمهل أو تمهل، وآلاتها تدور فى أوقاتها بلا تقديم ولا تأخير، فكنت أكتب في البيت لأكون في فسحة من أمري، ولأتقى عواقب هذه العجلة الشيطانية، وتأثيرها السيئ – فيما كنت أرى – فى أسلوبى الفخم. وعلى ذكر الأسلوب أقول إن الظن الشائع هو أنى كنت متأثراً في البداية بالجاحظ، وهذا صحيح، ولكن أصح منه فيما أعلم أنى كنت مفتونًا بأسلوب الجرجاني – عبدالقاهر – صاحب "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة". على أن هذا شيء قد مضى، وعهد قد انقضى ولله الحمد .

ووجدت على الأيام أن الكتابة فى البيت لا تتفق ومطالب العمل الصحفى، وأن ما أتكلفه من التجويد، وأعنى بتأخيره من الألفاظ يجعل ما أكتب نابيًا قلقًا فى موضعه وسط هذا الخضم الزاخر، ولم أكن راضيًا عن الأسلوب الذى تكتب به الصحف، ولكن عدم الرضى عن لغة الصحافة لا يستوجب أن أذهب إلى الطرف الآخر، وفى الإمكان التوسط، وتبينت على الأيام أن لغتى القديمة فاترة أو خامدة. وأنى كأنى قطعة متخلفة من زمان مضى، وأن الحياة الجديدة لها لغتها، وأن اتصالى بحياة الناس بفضل الصحافة، قد فجر فى نفسى ينابيع جديدة، وأكسب أسلوبى نبضانًا ليس من الوجع بل من الحيوية، وأفدت مرونة كانت تنقصنى أنا وتنقص لغتى وأسلوبى، وأصبحت قادرًا بفضل الصحافة أن أكتب فى أى وقت وفى أى موضوع، وفى خلوة أو بين الناس، وأن أحصر ذهنى فيما أنا فيه، فلا تشتت خواطرى الضجات التى تكون حولى .

وأقول بإيجاز : إنى كنت كالراهب أيام كان التعليم عملى، فلما زاولت الصحافة خرجت من العزلة القديمة – عزلة الفكر والنفس – ونزلت إلى الحلبة. أو خضت العباب، فكأنى انتقلت من عالم إلى عالم، أو هبطت من كوكب إلى كوكب، فى هذا الفلك الدوار .

وقد لا أرضى عما أخرج فى هذا العهد الثانى، ولكنى ما أخرجه هو، على كل حال، وسواء أأرضانى أو لم يرضنى، ثمرة التجربة للحياة، ومشاركة الناس فيها، أما فى العهد الأول فقد كان ما أخرج هو ثمرة القراءة والتحصيل مع تعذر التجربة الشخصية .

فأول ما يفيده الأديب من الصحافة هو اتصاله بالحياة – حياة الجماعة وحياة الفرد، وفهم هذه الحياة على قدر ما يتيسر له ذلك بحسب استعداده وما رزق من المواهب والملكات .

وتفيده الصحافة أيضًا أن أسلوبه يصبح حيًا، وتقول لى تجربتى إنى كنت قبل العمل فى الصحافة أشبه بمومياء محنطة، فلما دخلت فى الصحافة أحسست بالدماء

تجرى فى عروق هذه المومياء، وأنها أصبحت قادرة على موافقة الحياة فى أكثر من موضع واحد، وأنها صارت تنظر وتحس وتفكر وتنطق كما ينطق الأحياء، ولا تكتفى بأن تتبدى للناظرين إليها - كما كانت تفعل إذ هى مومياء - وتوحى إليهم أو لا توحى شيئًا .

وتفيده كذلك مرونة فى الأسلوب - أسلوب الكتابة وأسلوب التناول - فهى مدرسة نافعة، أو أقل لازمة للأديب، وإن كانت مشغلة شديدة، على أن ما تأخذه من وقت الأديب ليس شر ما فيها، وإنما شره أنها قد تغريه بأمرين على الخصوص :

السطحية، أو بعبارة أخرى اجتناب الغوص والتعمق والاكتفاء بأول وأسهل ما يرد على الخاطر ابتغاء التخفيف عن القارئ واتقاء الإثقال عليه، ومن هنا يخشى أن يعتاد الأديب الكسل العقلى .

والأمر الثانى : أن الصحافة قد تدفع الأديب إلى توخى مرضاة القارئ العادى فيحرص على ذلك حرصاً قد يفسد عليه أدبه، ويضيع مزيتة، ويفقده قيمته .

وقد كنت وأنا معلم - أُدرِّس الترجمة - أخشى على نفسى أن أهبط إلى مستوى التلاميذ، وأن أتعود التسامح والتسهل، فأعالج ذلك بالعكوف على قراءة الأدب القديم، وعسى أن يكون هذا هو الذى يرجع إليه أنى كنت أتكلف الجزالة والفخامة فى صدر حياتى، ولكن لابد من علاج لأثر الصحافة السئ فى أدب الأديب. فلا مفر له من دوام الاطلاع على الآثار الخالدة، ليعتدل الميزان ويستقيم الأمر، ويتقى السطحية من ناحية، ومصانعة القارئ من ناحية أخرى .

إبراهيم عبد القادر المازنى

تربيتنا لا تزال على الأساليب القديمة[1]

أجود الجود أن تعطي والذى عندك قليل، أو لا يكاد يجاوز حد الكفاية، فما بغريب، ولا مما يستحق ثناءً كثيرًا أو إعجابًا، أن يسخو من أوتي مالاً لا يخاف فناؤه. وقل مثل ذلك في كل فضيلة، وخلة كريمة، وصفه من صفات الخير .

وليس هذا مقالاً في الكرم أو الشجاعة أو غيرها من الصفات المستحسنة المحمودة، وإنما أردت أن أقول أن كل ما في الإنسان من عيب ونقص يستطاع علاجه، وتقويمه، وتهذيبه، وتثقيفه – إلى حد ما على الأقل – إلا ما خرج خلقة وفطرة عن حد الصحة كل الخروج فلا علاج له ولا سبيل إلى إصلاح فيه، فإنك لا تستطيع – مثلاً – أن تذهب حدبة الأحدب، أو أن توسع الرأس إذا جاء ضيقًا بالخلقة، ليتسنى لحشوة أن يبلغا الغاية من النماء، ولكنك فيما عدا هذا الذى تقل فيه حيلة الإنسان، لا يعجزك أن تصلح وتهذب على قدر ما رزقت من فطنة وقدرة وحسن تدبر .

وأردت أن أقول شيئًا آخر أرجو أن يشفع لي فيه عند القراء الإخلاص، وحسن الطوية، وإرادة الخير، وذلك أننا معشر المصريين أسوأ الأمم تربية وتنشئة، وأنا مثال حى لهذه التنشئة السيئة، فما رباني أبي، لأنه فارق الدنيا وأنا طفل في التاسعة، وأكبر ظني أنه لو كان عاش لما أحسن تأديبي فقد كان مشغولاً بنسائه وبما أقبلت عليه الدنيا من نعمة زائلة. وما أكثر من حرموا مثلي مزية تأديب الوالد، لموته في صباهم، أو لقلة غنائه وجهله بأساليب التأديب. وإنما ربتني أمي، وكانت أمية لا تقرأ ولا تكتب، ولكنها على هذا ذكية حاذقة، وقد ربتني على الصدق، والأمانة، والوفاء،

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٦ إبريل سنة ١٩٤٦ (ص٣) .

واحترام الذات. وأنا شاكر لها وداع. وأعتقد مخلصًا أنها ما رأت مني قط عقوقًا، ولكنها – رحمها الله – لم تكن تستطيع أن تعالج النقص الذى أشعر به، والذى يثقل على نفسي ويحدث أثره فيها وأنا لا أدرى، فكثرت عندى – على الأيام – العقد النفسية، أو مركبات النقص كما تسمى، فأنا فقير والفقر يشعرني ذلة، وقصير قميء، والقصر يوهمنى أنى هين تتخطاه العين، وضعيف خرع، والضعف يورثني خوفًا وجبنًا، وقد كسرت ساقي بغير ذنب جنيته – فما كسرها إلا الذى حاول أن يجبرها – على حد قول المثل "جاء يكحلها فأعماها" – فقوى شعوري بالنقص من كل وجه، وزدت جبنًا، وتحفظًا، وانطواءً على نفسي، ولبثت زمنًا طويلاً أحرم نفسي ما يفوز به البر والفاجر، وكنت أتمرد أحيانًا على نفسي، فأسطو وأتقحم وأتطاول، وأخرج عن كل طور معقول أو رشيد، وهذا من الاختلال لا الصحة، وإنى لأعرف ناسًا كثيرين يصفوني – جزاهم الله خيرًا – بالتواضع والحياء، ولكنى أعرف من نفسي أن هذا من الضعف والجبن، ولو وجدت من يهذبني ويصلح من حالي لتهذبت وصلحت، ولعدت أكفأ للحياة، وأقدر على معاناتها والجهاد فيها، وإنى لأعالج نفسي بعد أن كبرت وعلمت وجربت، ولكن العلاج على الكبر شاق مضن، وإن كان لا يخلو من توفيق. وما زلت إلى اليوم كافرًا بما يسمى "الحب" لأني لما أشعر به من نقص لا أقدر أن أتصور أن امرأة ولو كانت دميمة مشوهة يمكن أن ترى فيَّ ما يغريها بمبادلتي هذه العاطفة، وشديد النفور من المجالس الحافلة، والانقباض عنها، لأنى أحس أن نقي مجسم مجسد لكل ذى عينين، فأنا أوثر أن أتقي أو ألقى ما أكره. وإذا كانت فيَّ عفة أو نزاهة فهى عن جبن، وحسبك من جبني أني أمر بمراكز البوليس أو الشرطى فى الطريق فأقرأ فى سرى الآية الكريمة ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2] وما ارتكبت جرمًا ولا خطر لى ارتكابه! وإنى لأغالب نفسي، فأنجح حينًا وأخفق أحيانًا لأنه استقر فى أعماقها من أيام الصبى ما يعز اقتلاعه، ولأنى لم أجد من يهدني ويرشدني ويوجهني وجهة صالحة – لا فى المدرسة، ولا فى البيت، ولا من الإخوان. وما أقل ما يفيدني فهمي وعلمي بعد

---

(٢) سورة البقرة / آية ١٣٧ . (المحرر) .

أن ارتفعت بي السن، وصرت كما يقول بعض الكتاب الإنجليز "حزمة من العادات" وإني لأروض نفسي على الشجاعة والإقدام، وإني لأتشجيع أحياناً ولا أتهيب، فأحمد العاقبة ولا أندم ويسرني حمل نفسي على ما كانت تفرق من مثله وتجانبه، ولكن هيهات أن أبلغ من ذلك ما أريد، أو ما أقدر عليه من الرياضة وإن كنت لا يائسا ولا مقصراً في الاجتهاد .

وأمثالي كثيرون، عدد الحصى والرمال، فما أنا ببدع ولا شذوذ والأكثر فيمن ترى تنقصه الشجاعة. وذلك هو العيب الأكبر الذي يورثنا إياه نحن المصريين المساكين سوء التربية. وليست الشجاعة أن تكون وقحاً سليط اللسان متقحماً على الناس، ولا أن تجترئ حين تكون آمناً مطمئناً ولكن الشجاعة أن تقدم وأنت عارف بالصعاب، ومدرك [النقصك]، وأن تكون حسن التقدير دقيق الوزن للقيم الحقيقية للأمور والأحوال، وغير مغال بما تتوقع أن تلقاه، وموطناً نفسك على أمر ولو كان فيه مما تخاف أو ترجو أن لا يكون .

وتربيتنا سيئة – بل غاية في السوء – لأنها تفقدنا الشجاعة وتسلبنا الثقة بالنفس، وتزيد شعورنا بالنقص قوة وعمقاً، وتقضي على احترامنا لأنفسنا، وتنسينا الواجبات إذ تعرفنا بالحقوق، وتعودنا التحقير والإذلال، وتروضنا على السكون وانحطاط الشأن، وهوان الحال، وتضعف – بل تمحو – إيماننا بأن لنا – جماعة وأفراداً – قيمة في الحياة وأملاً في إدراك الآمال وتحقيق المقاصد. اجلس إلى من شئت، واستدرجه إلى الإعراب عن دخيلة نفسه، واسمع ما يقول في بني قومه، وفي آمال بلاده وفي مساعي أبنائها، وما يتوقع لها، تسمع عجباً!! وهل تسمع إلا طعناً وتنقصاً واستبعاداً لنجاح المسعى؟ ولماذا؟ لا لأن الأمل بعيد، بل لأن الثقة بالنفس ضعيفة، ولأننا تعلمنا – علمونا في المدارس وفي البيوت – أن نحتقر أنفسنا ونستصغر شأننا ونبالغ في احترام الأجنبي وإكباره. ألا ترى كيف أننا ما زلنا نسمي الأجنبي – حتى الجرسون الذي يخدمنا في المقهى – "الخواجة" ؟

كان لنا – وأنا طالب في المدرسة الخديوية – مدرس مصري يخرج عن موضوع الدرس ويستطرد إلى الكلام في "مصطفى كامل" الزعيم الوطني في تلك الأيام، وكنا جميعًا شبانًا متحمسين، فيغلق النوافذ أولاً ثم يسرع في وصف مظالم الحكم المصري، وعدل الإنجليز بعد أن احتلوا البلاد وكيف قضوا على هذا الظلم. فكنت أستغرب أن يغلق النوافذ، ولو سمعه الإنجليز الرؤساء لرضوا عنه ورقوه وأغدقوا عليه نعمهم!! وقد أفضيت له ذات مرة بعجبي هذا، فكان جزائي، أن خاطب الناظر الإنجليزي في أمري فعاقبني بالحبس بقية أيام السنة كلها !

في هذا الجو في الذل واحتقار النفس وتفضيل الأجنبي والإقرار العملي واللفظي بالعبودية له – ولو كان من هلافيت أوربا وصياعها – نشأنا، وقد خلصت لنا أمور التعليم، ولكن تربيتنا لا تزال تجري على الأساليب القديمة التي لا يمكن أن تخرج للأمة إلا ضعافًا مهازيل. والتلاميذ والطلبة يتمردون ويتركون الدرس ويقومون بالمظاهرات. فهل يدري القارئ لماذا يفعلون ذلك؟؟ لو كانوا يثقون بأنفسهم وبمواطنيهم ثقة حقيقية غير زائفة أو فاترة، لاطمأنوا، ولما أحسوا بحاجة إلى الخروج والمظاهرات. ولكنهم لا يثقون، لأنهم لم يتعودوا الثقة لا بالنفس ولا بالغير، فهم قلقون غير مطمئنين. وليس العلاج أن يضربوا ويمنعوا بالقوة، فإن جدوى هذا لا تتعدى المحافظة على الأمن والنظام – وهي واجبة ولا شك – ولكن العلاج أن تهذب أساليب التربية والتعليم بحيث توجد الثقة بالنفس وبالغير، فيوجد معها الاطمئنان والسكينة وتنتفي بواعث القلق والجزع التي تغري بغير السداد .

سيقول القارئ ما هذا المقال الذي يبدأ بشيء فيخرج إلى خلافه، وهو على حق، ولكني ما قلت إلا ما أعتقد أنه صحيح، فلعل ذلك يشفع لي .

إبراهيم عبد القادر المازني

مساكين تلاميذ هذه الأيام !(١)

لم نكن نتعلم في حداثتنا كما يتعلم أبناؤنا الآن. فقد كانت المواد قليلة وأمرها هين ومدة الدراسة وجيزة في كل مرحلة - أو أقصر مما هي الآن حتى لقد استطعت أن أفرغ من التعليم في المدارس - من ابتدائية وثانوية وعالية - في عشر سنوات ليس إلا، ولم يكن هذا لأني كنت نابغة أو ذكيًا أو مجتهدًا، كلا، فقد كنت أغبى التلاميذ وأكسلهم، وأبلدهم، وآخرهم في كل فصل - ولا فخر! وكان التعليم كله باللغة الإنجليزية، إذا استثنينا اللغة العربية، حتى الترجمة كان يتولى تدريسها أحيانًا أستاذان - واحد مصري للترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وواحد إنجليزي للنقل من العربية إلى الإنجليزية. وكان الأجانب الموظفون في الحكومة المصرية محتمًا عليهم أن يتعلموا اللغة العربية، وأن يؤدوا فيها امتحانات متتالية، وإلا فصلوا وردوا إلى بلادهم وجيء بغيرهم. وقد يحب القراء أن يعرفوا مبلغ اقتدار هؤلاء ومقدار علمهم بالعربية، فأقول أن أحدهم كان يدرس لنا الترجمة في المدرسة الثانوية، فدق الجرس، وأقبل الأستاذ على الفصل الذي أنا من تلاميذه، وكان معه زميله المصري، فقد كانا يحضران معًا ويتعاونان على تثقيف عقولنا الجاهلة، وكان الصيف قد جاء، واشتد حره، فظمئت، ورأيت قلة على شباك في الردهة، فملت إليها لأشرب قبل الدخول في الفصل، ورآني أستاذنا الإنجليزي، وكان فخورًا بأنه يعرف تلاميذه جميعًا بأسمائهم ووجوههم، ولكن ذاكرته خانته في تلك اللحظة، فنسي اسمي، فصاح بي: "أنت هناك اللي بتاكل ميه!"

فلا عجب إذا كنا قد نبغنا على أيدي هؤلاء العلماء الفطاحل!

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٦ إبريل سنة ١٩٤٦ (ص٣).

وكان يندر أن يرسب أحد في امتحان ما، وما أكثر ما انتقلت من "سنة" إلى "سنة" على وجه الاستثناء، وليست هذه دعوى أدعيها، فقد كانت أسماء المنقولين بحقهم، والمنقولين على وجه الاستثناء تعلق على باب المدرسة، ولو أنه كان لابد من النجاح في امتحان كل مادة، بالحق والعدل، لبقيت إلى اليوم تلميذًا بالمدارس، أو لما أمكن أن أتخرج فيها، وقد كنا نتلقى في مدرسة المعلمين العليا علوم الجبر العالي والهندسة الفراغية، وحساب المثلثات، ولا أدرى ماذا أيضًا، وكل هذا مما يعجز عقلي عن فهمه ومع ذلك نجحت في امتحان هذه العلوم، فهل هذا معقول؟ إنه الاستثناء المسعف ولا شك !

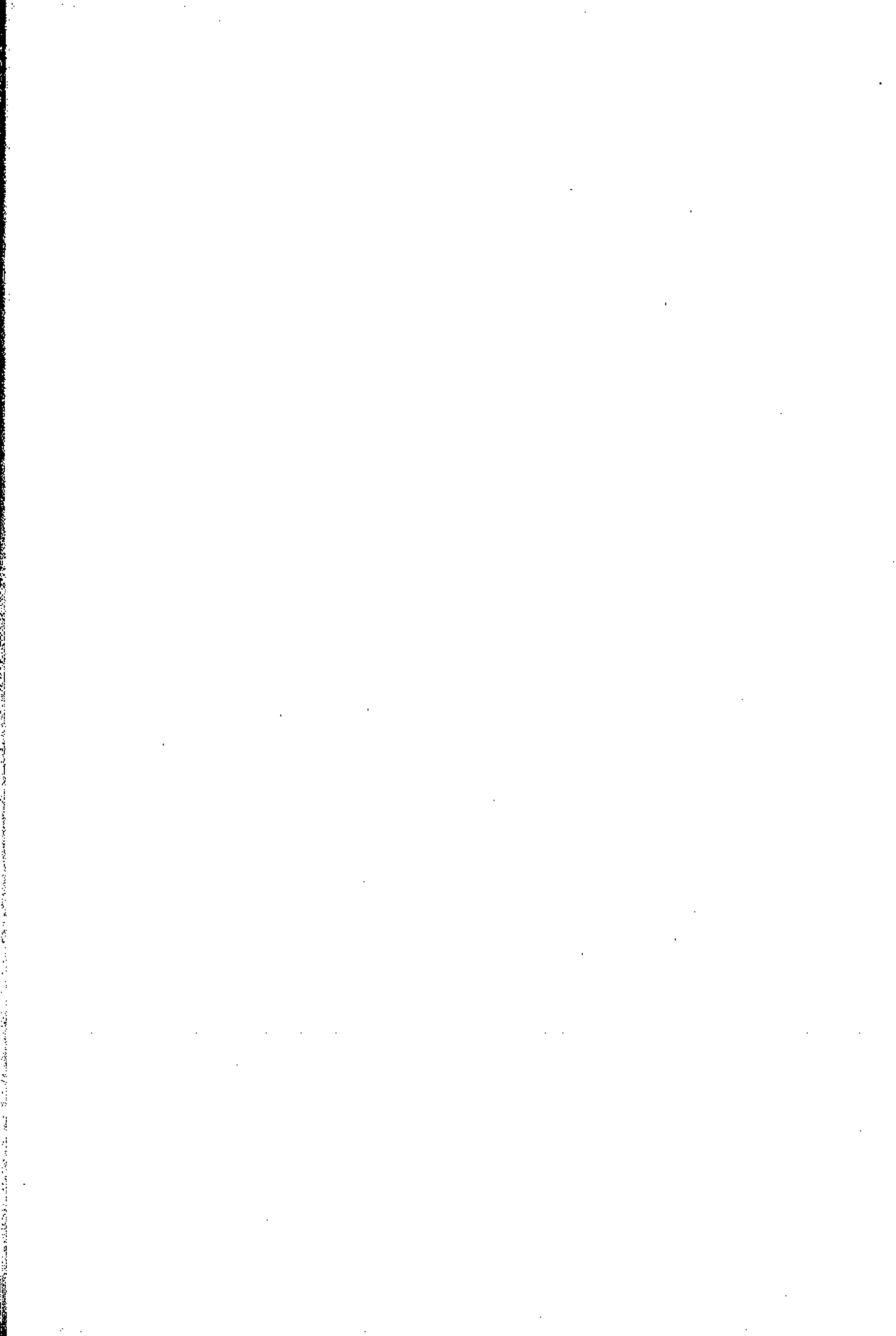
وكنا لا نحتاج إلى دروس خصوصية لسهولة الأمر أولاً، ولفقر الأكثرين ثانيًا، ولأن معظم المدرسين كانوا يكرمون أنفسهم، وينزهونها عن الكسب من الدروس الخصوصية، وقد كان كثيرون من تلاميذى فيما بعد، يلحون علىَّ أن أكون معلمًا خاصًا لهم في بيوتهم، فلا أقبل، وأنف أن أذهب إلى بيت أحدهم فيقول خادمه "جاء المعلم" كما يقول "جاء الفقى" .

ولكن أساتذتنا على قلة ما كانوا يعلموننا، كانوا يحثوننا على القراءة والاطلاع، ويعيروننا حتى كتبهم الخاصة وكانت هذه القراءة أهم فى نظرهم ونظرنا من الدروس التى نتلقاها، وأذكر أنى، بعد تخرجي، كنت جالسًا ذات يوم فى مقهى وكان معى كتاب لأوليفر وندل هولز، فلمحت أستاذى فى اللغة الإنجليزية بمدرسة المعلمين، فخففت إليه لأسلم عليه وأحييه، ورأى يدى فارغة، فقد تركت الكتاب فى المقهى، فكان مما قال لى "طبعًا أنت الآن موظف، فكفاك ما قرأت، ولا حاجة بك إلى زيادة!". فآلمنى هذا التهكم، وأصررت أن يجيء معى إلى المقهى ليرى الكتاب الذى تركته فيه ففعل، واعتذر، [وحمدت] الله الذى أعفانى من سواد الوجه واستحقاق اللوم .

واليوم يتعلم أبناؤنا فى المدارس فوق ما تعلمناه، وأضعافه، حتى لأرتاع إذ أرى هذه الكتب الضخمة المقررة فى كل مادة، وأروح أتساءل : متى يستطيع التلميذ أو الطالب أن يحفظ كل هذه الدروس فى كل مادة؟ ومتى يرتاحون، أو يخرجون للرياضة والتنزه؟

وكيف يتسنى لأساتذتهم أن يشرحوا لهم هذه الدروس كلها الشرح الواجب، وهم مرهقون بالعمل؟ ثم ما الفائدة التى ترجى من هذا الحشو كله؟ إن التعليم ليس الغرض منه التوجه إلى الذاكرة وحشوها بالمعارف المختلفة، وإنما الغرض منه تزويدها أولاً بما لا غنى عنه من المعارف الضرورية، وإيقاظ الذهن وإنماؤه وتدريبه، وإعطاء التلميذ ما يصح أن يسمى "مفتاح" المعرفة، بعد تعويده النظام فى التحصيل، ليتيسر له فيما بعد، أن يدخل من الباب الذى أعطى مفتاحه، ويتوسع على هواه. والمشاهد الآن أنه قل بين التلاميذ من يفتح كتابًا غير الكتب المدرسية، لأن وقته مكتظ، ولأن أسلوب التعليم يزهد التلميذ فى القراءة والتحصيل، وينفره منهما ولا يغريه بهما، وليس العيب عيب المدرس، بل عيب النظام كله.. ولهذا يكثر الرسوب، وتتكرر الامتحانات، ويشتد الطلب على الدروس الخصوصية، حتى صارت مورداً ثرًا للرزق، وسبب إرهاق شديد للآباء. ولهذا أيضًا صار التعليم فى مصر يستغرق نصف عمر المرء. فيا لأبناء هذا الجيل الجديد من مساكين !!

إبراهيم عبد القادر المازنى



نسـاء فـي حيـاتـي !(١)

نساء في حياتي أنا؟؟ يا خير أبيض!! والله يا ناس إني رجل طيب! ولست أخشى أن يؤاخذني الله بهذه اليمين، فإني صادق فيها أو على الأقل هذا اعتقادي ورجائي .

ومعنى أن تكون هناك نساء في حياة رجل، هو أن هذا الرجل ذو "ماض" يقول المحدثون، ولكل امرئ ماضيه ولكني أنا أنفر من الالتفات إلى ما مضى وانقضى، ولا أعده شيئًا ذا قيمة، وإنما الوزن والقيمة عندي للحاضر، وللمستقبل الطويل المحمود بإذن الله. وما خير أن يكون الإنسان كبعض البهائم لا يزال "يجتر" ما في جوفه، وأن يعيش على ما فات أي على الذكريات ؟

حسبي من الماضي عبرته، وعبرته التي استخلصتها بإخلاص، وبعد الكد والعناء هي أني كنت ساذجًا، أو - بلغة هذا العصر- مغفلا ! أي والله كنت مغفلاً! ولي العذر، ومن آيات غفلتي، أو تغفيلي أن أول امرأة دخلت حياتي توهمتها عفريتًا !!

ولم أكن يومئذ صبيًا غريرًا حتى يركبني مثل هذا الوهم العجيب، فقد كنت في السابعة عشرة من عمري - الطويل بمشيئة الله - وكنت طالبًا في مدرسة المعلمين العليا، وكنت قد اجتزت مرحلة التعليم الثانوي قبل ذلك بعام. وفي مثل هذه السن - وفي زماننا هذا - يصنع الفتيان ويصنعون! أما أنا فهذا ما كان من أمري :

كنا في رمضان، فخرجت بعد الإفطار أتمشى، ثم عدت بعد العشاء بقليل ولولا رمضان وثقل أكله لما أبحت لنفسي أن أتأخر إلى ما بعد العشاء. ومما يستحق الذكر لهذه المناسبة أنه كان لي صديق أمير - رحمه الله - أبوه غريب الأطوار، فكنا نخرج

---

(١) نشرت في مجلة "روزاليوسف" في ١٩ يونيه سنة ١٩٤٦ (ص١٤، وص ٢٦) .

أحياناً للتمشي والتنزه على النيل، ولا نتأخر عن العشاء. فأقبل أبوه على بيتنا ذات يوم ووقف في فنائه - في ظل شجرة جميز عظيمة كانت هناك - وراح يصفق حتى إذا رأى رءوساً تطل من الشبابيك، صاح: "يا أهل عبد القادر - حوشوا ابنكم عن ابني - خسّر أخلاقه وعلمه السهر الى الساعة اتنين!" وانصرف راضياً مرتاحاً .

ولا أحتاج أن أقول أن "الساعة اتنين" لم تكن الثانية بعد نصف الليل، بل الثانية بالحساب العربي - أي بعد الغروب بساعتين !

وأعود إلى قصتي مع تلك المرأة فأقول أني أقبلت على الحارة، وهي ضيقة مظلمة لا تتسع لأكثر من اثنين يمشيان جنبًا إلى جنب، وقد وصفتها في كتابي "خيوط العنكبوت". وما كدت أدخل في الحارة وأخطو بضع خطوات حتى التف عليّ ذراعان بضتان، واحتضنني جسم جمع اللين والترجرج والامتلاء، وأنا كما يعلم القارئ أو لا يعلم صغير الجسم دقيقه، فكدت أختنق من شدة هذه الضمة المفاجئة التي دفنت وجهي في صدر المرأة وسدت فمي وأنفي وحبست أنفاسي وكنا كما أسلفت في رمضان، والعفاريت تختفي في هذا الشهر المبارك، ولكن المباغتة والضيق الذي كنت فيه أطارا هذه "الحقيقة" من رأسي، فكبر في وهمي أن هذا عفريت أو على الأقل "عفريته" وصار همي أن أنجو بجلدي، فجعلت أدفع في صدرها بجمع يدي - وأركلها أيضًا - وهي تتراجع بي خطوة خطوة، حتى صرنا أمام الباب - باب بيتنا نحن - فأخلت سبيلي، وفكت أساري، فاندفعت داخلاً كالصاروخ، ثم سكنت نفسي، وارتد إليّ عقلي، فخرجت أبحث عنها! ولكنها كانت قد اختفت - كالعفاريت !

وياما أكثر ما ارتدت هذه الحارة، بعد ذلك في الليل والنهار، حتى صرت أعرف كل شبر فيها وعدد الحجارة في بناء كل حائط وعدد "المسامير" الغلاظ في كل بوابة فقد كان للبيوت في هذه الحارة بوابات تعد صوراً مصغرة من بوابة المتولي - ومن أجل هذه المرأة التي توهمتها عفريتًا، أحببت العفاريت كلها، وصرت أهجم على الليل الحالك، وأغشى الخرائب والمقابر عسى أن يوفقني الله فيظهر لي عفريت - أو على الأصح عفريتة !

وامرأة أخرى كان لها في حياتي شأن – ولكنه شأن من نوع آخر: كنت في السنة الثالثة – الأخيرة – من مدرسة المعلمين العليا. وكنا قد انتقلنا من هذه الحارة إلى بيت في أول شارع درب الجماميز من ناحية السيدة زينب، وكنت في صباح كل يوم وأنا ذاهب إلى المدرسة، وفي عصر كل يوم وأنا عائد منها، ألتقي بفتاه هيفاء رقراقة، ليس لها لحم يركب بعضه بعضاً – كتلك التي استولت عليّ في الحارة – وفي أعطافها استرسال، وفي وجهها بياض وحسن، وفي عينيها عذوبة وحلاوة. ومعها خادم زنجي يحمل لها كتبها وأدواتها – فقد كانت تلميذة في المدرسة السنية – وعلى محياها البرقع الأبيض الشفاف، وعلى بدنها "الحبرة" أو الملاءة السوداء اللامعة، فلا أكلمها ولا تكلمني – وكيف أجرؤ أو تجرؤ! – ولكن أنظر وتنظر، وظللنا على هذا الحال طول العام الدراسي لا أنال منها إلا أني أنظر إليها، "وهل ذاك نافع؟" كما يقول شاعر مسكين مثلي؟ وواظبت في ذلك العام على المدرسة مواظبة أدهشت أساتذتي، فقد كنت كثير الغياب والتخلف عن الدروس .

واتفق يوماً أن كنت واقفاً في الشارع أمام المدرسة ومعي زميل لي، فمرت الفتاة بنا – ولم يكن هذا موعد إيابها – فاصفر وجهي، وخفق قلبي ورأى زميلي تغير وجهي فأشرت إليها، فما كنت أستطيع الكلام، وأعاد السؤال بعد أن أفقت، فقصصت عليه القصة، فما كان منه إلا أن قهقه ثم قال "حب؟ أنت تعرف تحب؟ أنت إيه انت اللى تحب؟" بهذا الاحتقار!

وقد يستغرب القارئ أن أقول إن هذا الاحتقار الذي بدا من زميلي لي، ولما كنت أشعر به يومئذ من الحب – كانت له نتيجتان: أولاهما أني تعلقت بالشعر وقلته وأبيت إلا أن أكون شاعراً، وكنت أعنى على الخصوص بما يسمى "الشعر الغنائي" – الغنائي بموضوعه ومعانيه وأوزانه، وأظن أني نجحت في نظم بضع قصائد لا بأس بها على العموم وإن كنت الآن لا أرضى عما قلته من الشعر ..

والنتيجة الثانية التي قد تبدو لأول وهلة مناقضة للنتيجة الأولى، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، أني أصبحت أستحيي أن يقال أني أحب، وأحرص على كتمان عاطفتي،

ولا أكشف عنها لإنسان، كائنًا من كان، إلا من أثق بمودته وكبر قلبه، وآمن احتقاره، بل رضت نفسي على كتمان كل شعور وخالجة لأن الصدمة التي أصابتني من زميلي القديم أورثتيني خوفًا شديدًا، وجزعًا عظيمًا من أن أكون موضع استهزاء أو أورثتني ما يسمى في زماننا الجديد "مركب نقص".

وانتقلت بي وبالفتاة الأحوال. وصرت مدرسًا، وتزوجت، وصارت هي لا أدري ماذا؟ وبعد سنوات طويلات ركبت ترام الجيزة ذات يوم فإذا بي أمام شابة إلى جانبها طفلان جميلان وإذا هي فتاتي القديمة بلا أدنى شك، ولا أدري من أين جاءتني هذه الشجاعة، فإني من أجبن الناس عن مخاطبة من لا أعرف، ولكن الذي أدريه أني قلت لها :

"أظن أننا أصدقاء قدماء – من أيام المدرسة !"

فتفرست في وجهي ثم ابتسمت عيناها، فتشهدت، وقلت: "هل تذكرت؟"

فهزت رأسها فقلت: "شارع الخليج، والزنجي معك يحمل عنك الكتب والكراسات؟"

وتفتحت أبواب الكلام، فحدثتني أنها تزوجت فلانًا وأن هذين ولداها، وحدثتها أني تزوجت ولكني لم أرزق لا ولدًا ولا بنتًا، ثم قلت لها: "ولداك الجميلان هذان – كان يمكن أن يكونا ولدينا، ولكنها القسم والحظوظ – بارك الله لك فيهما، وجعلك من السعيدات دائمًا!".

وكان هذا آخر العهد بها. ولست أحب أن أراها أو تراني الآن، فقد كبرنا جميعًا وشوهتنا الأيام، وأنا أضن بصورتها القديمة المرتسمة على قلبي أن تفسد أو تمسخ.

هاتان امرأتان كانتا في حياتي، وكان لهما أثر في هذه الحياة، أرجو أن أكون قد استطعت تبيينه.

فهل يكفيكم هذا؟ أرجو ..

إبراهيم عبد القادر المازني

تخطب لرجل وهي زوجة لرجل آخر[1]

أعرف حادثتين متماثلتين مع اختلاف يسير، أكبر الظن أن لهما – على غرابتهما – نظائر غير قليلة. أولاهما كنت من شهود العيان فيها. والثانية وقفت عليها من شاب بعث اليّ برسالة يشكو فيها ويطلب الرأى والنصيحة. وسأقص الحكايتين أولاً .

وخلاصة الحكاية الأولى أن شاباً رشيداً خطب فتاة من بنات معارفة الأقربين الذين لا يخفى عليهم حاله، ولا عليه حالهم، فرحبوا به وعقدوا له عليها، ولم يقبلوا مهراً، واتفقوا معه – كما يحدث كثيراً – أن يعد البيت ويؤثثه، وعليهم هم أن يتولوا جهاز عروسه. ففعل وفعلوا ولم يبق إلا أن تنتقل إلى بيته، وهو ملكه، فيدخل بها ويتم الزواج. ولكن القوم جعلوا يسوفون ويماطلون، وهو يتعجب، ويستعجلهم بلا جدوى وذهب يزور عروسه ذات يوم ومعه بعض ما يهدى في أمثال هذه المناسبات، فألفاها في حجرة الاستقبال مع شاب وسيم أنيق زعمت أمها أنه من ذوى قرابتها، فزاد عجبه فإنه يعرف أهلهم جميعاً، ولا يعرف أن هذا منهم وتكرر هذا، وكان مرة في دار من دور السينما فرآها معه، على حين كانت أمها تأبى عليه أن يخرج بها إلى السينما أو غيرها، وإن كان زوجها فضاق صدره ومضى إلى الأم – فقد كانت هى صاحبة الأمر والشأن دون الأب – يسألها عن الخبر، فما راعه إلا قولها له "هذا خطيبها!" .

خطيبها الذى انتقته لها أمها، وإن كانت قد زوجتها صاحبنا!! وأغرب من هذا أن الأم صارحت الشاب الجديد بأن بنتها متزوجة، ووعدته بتطليقها، وقد قبل الشاب هذا وارتضاه، ووافق على أن يكون خطيب فتاة متزوجة وأن يكون معها كأنها له دون زوجها .

---

(١) نشرت فى مجلة "روزاليوسف" فى ١٩ يونيه سنة ١٩٤٦ (ص١٤، وص ٢٦) .

ولم يسع صاحبنا المنكود الحظ - أو السعيد الحظ في الحقيقة - إلا أن يطلق فتاة ارتضت لنفسها أن يخطبها رجل غير زوجها .

والحكاية الثانية أن شاباً خطبت له والدته فتاة من أسرة تقيم في بعض مدن الأقاليم وتمت الخطبة والعقد أيضاً، وأدى الشاب المهر وراح ينتظر أن يفرغ القوم من الجهاز، وكان يبحث في خلال ذلك عن مسكن صالح فلا يهتدي، وله العذر، ويزور عروسه من حين إلى حين وعرض عليهم أن يدخل بها عندهم ويقضي معها يومين كل أسبوع يعود بعدهما إلى عمله في القاهرة، حتى يوفقه الله إلى بيت لائق، فأبوا وأبوا أيضاً أن يحملها إلى البيت الذي هو فيه، واتهموه بالتقصير في البحث، جهلاً منهم بأزمة المساكن في مصر، ثم صاروا يحجبون عنه زوجته، ويمنعونه أن يراها أو تراه، ويبدون له التأفف والضجر والجفوة والنفور، وهو يتعجب ويجادلهم ويحاورهم ويداورهم ويجتهد في مرضاتهم عبثاً، ثم قالوا له في صراحة تامة أنهم يبغون تطليقها، وأنهم وفقوا إلى شاب آخر هو في رأيهم خير منه وأولى بها. ويأبى الشاب الطلاق لأنه أحب الفتاة، وأحبته فيما يقول، ولأنه يرى في هذا ظلماً له ولها، ولأن عمل أهلها أقل ما يوصف به أنه لا لائق ولا كريم. فماذا يصنع ؟.

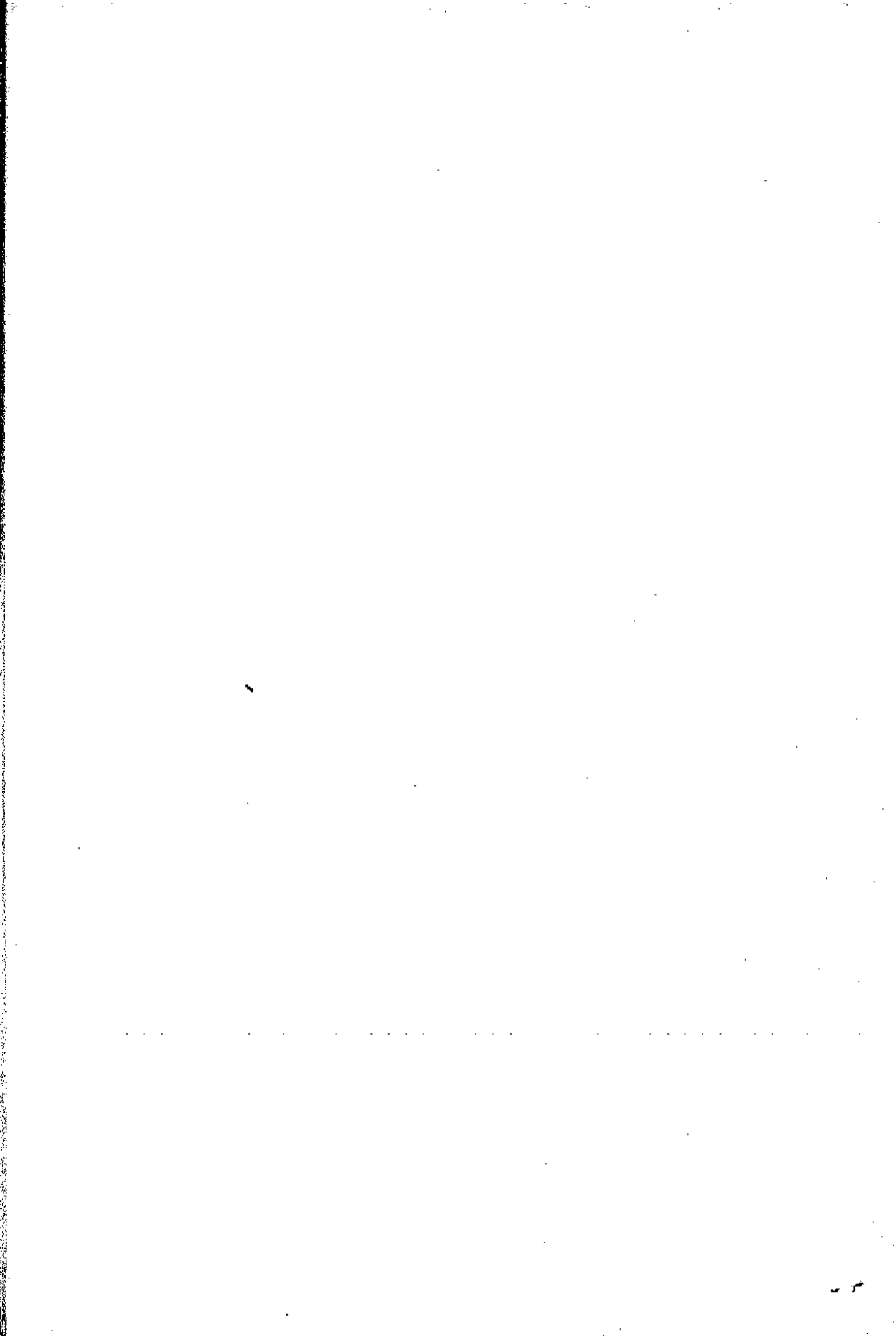
هذه هي المسألة - كما يقول هملت - ولا أعرف أن عندي جواباً لمسألته، والطباع تتفاوت ولو كنت أنا مكان هذا الشاب وكنت أحب الفتاة وهي تحبني، لوضعت أهلها أمام الأمر الواقع الذي لا حيلة فيه لأحد - أعني أني كنت أحتال حتى أدخل بها، فيتغير الموقف كله. أو كنت - على الأقل جداً - أطلبها إلى محل الطاعة، أو كنت على كل حال أسعى جهدي لإحباط سعي أهلها، ما دمت واثقاً من حب الفتاة وإيثارها لي، فإن أهلها ظالمون فهم غير أهل للحسنى. ولكن الطباع كما قلت تتفاوت، ومن الناس من يركب رأسه مثلي إذا استثاره ظلم، أو يضع رأسه على كفه، ويمضي مشاكساً معانداً غير عابئ بما كان أو يكون .

ولقد قامت في طريق زواجي عقبات، فقلت لامرأتي - ولم تكن يومئذ امرأتي - سآخذك برضاهم أو كرههم، وأخطفك إذا احتاج الأمر إلى الخطف، فوطني نفسك على

هذا ولا تكترثى لما يكون منهم. وقد كان. ولم أحتج إلى الخطف، ولكنى أخذتها والسلام. ولكن الناس ليسوا جميعًا من هذا الضرب الثقيل المتعب. فلست أستطيع أن أشير بشيء قد لا يوافق طباع غيرى .

وقد قصصت هاتين القصتين لأقول أن هذا عبث مستنكر، يقلب الزواج لعبًا وتجارة ويؤدى إلى فساد الأخلاق، والاستخفاف بالحياة الزوجية، وبقيمة الأسرة ولا يثمر فى أى حال إلا شراً، وما ظنك بفتاة تغريها أمها بجهلها وحماقتها بأن تقبل أن تكون مخطوبة لرجل وهى زوجة رجل آخر؟ وماذا يكون رأى فتاة فى الزواج وقيمته ومعناه إذا كان أهلها يزوجونها رجلاً، ثم يؤثرون غيره ويسعون لتطليقها، كأن الأمر أمر سلعة تشترى ثم ترد ويعتاض منها سواها؟ والبلاء أن هذا السلوك ليس بالنادر – وقانا الله السوء !

إبراهيم عبد القادر المازنى



النفخة الكدابة .. واغتياب الناس[1]

علمونا فى المدارس أن فردريك الكبير أو الأكبر ملك بروسيا كان حاكمًا بأمره وكان فيه شذوذ يغريه بإيثار الطوال، بل العمالقة وجلبهم من أنحاء أوربا ليؤلف منهم حرسة أو ليتخذهم زينة، وليس هذا هو الذى يعنينى فإنه كان شأنًا خاصًا به، وإنما الذى يعنيني هو أنه جعل قاعدته فى الحكم أن يفعل ما يشاء، وأن يدع شعبه يقول ما يشاء، فكان الناس يتندرون عليه ويصورونه صوراً هزلية مضحكة. فلا يحفل هذا ولا يجعل إليه بالاً، وروى أنه كان يسير فى الشوارع – أو يركب إذا شئت – ومعه سوط أو درة – كما كان يفعل الخليفة عمر الفاروق رضى الله عنه – فإذا رأى رجلاً متبطلاً ضربه بالسوط أو خفقه بالدرة، ومن طرائفه أنه مر يوما فألفى رجلاً يعلق صورة هزلية له على جدار، ولكن فى مكان عال جداً فانتظر حتى هبط الرجل فدعاه إليه وقال له : "يا أحمق! ما خير أن تضع الصورة التى تعبت فى رسمها حيث لا يمكن أن يراها أحد؟"، وضربه على حماقته وأمره أن يضعها فى مكان قريب ليتسنّى أن يراها الناس، ثم انصرف !

ويظهر أن الإنجليز تتلمذوا على فردريك البروسى هذا، فقد رأيناهم فى مصر بعد فترة من دخولهم يطلقون حرية الصحافة والاجتماع والخطابة، فكان المصريون يكتبون ويقولون ما يعن لهم – وأكثره طعن فى الإنجليز وذم لعدوانهم – وكانوا هم أى الإنجليز يفعلون ما بدا لهم كأنهم لا يقرؤون أو يسمعون شيئًا مما يلغط به المصريون. وكان الوزير المصرى – أو عطوفة الناظر كما كان يسمى – يذهب إلى الديوان فى مركبة فخمة يجرها جوادان مطهمان والمستشار الإنجليزى يرتدى ثيابًا باهته اللون (لو كانت لمصرى لعدها من "الروبابيكيا")، ويركب – إذا ركب – دراجة عتيقة، وهو صاحب الأمر والنهى، والوزير أو عطوفة الناظر صاحب التوقيع ليس إلا .

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٢٠ يوليه سنة ١٩٤٦ (ص٨) .

ويبدو لى أن تاريخ مصر – قديمه والحديث – يثبت أن لأهلها مزيتين: الأولى أنهم يحبون النفخة الكذابة، والثانية أنهم لا يعدلون بالحرية الشخصية شيئًا مهما جل، فإذا أنت يسرت للمصرى أن ينتفخ كالديك الرومى على هواه وأبحت له أن يفعل ما يحلو له مما لا يعنى بسواه – أو لا يعنيك أنت يا من تتولى الحكم – وأن يقول ويثرثر ويغتاب ويطعن ويذم كما يحب حتى يكل لسانه عن الدوران، فكن على يقين جازم من [أنك] تسطيع أن تكون حاكمًا بأمرك مثل فردريك الأكبر .

أصغر موظف يجلس إلى مكتبه كأنه فى قاعة عرش، ويستدين ليتأنق فى ملبسه، ويخاطب أصحاب الحاجات وهو زام أنفه زهوًا ولا يمد لحافه على قدر رجليه .

ويموت الفقير، ويعلم الله كيف يدبر له أهله أمر الكفن، ولكن الكفن يجب أن يكون نفيسًا – كأنه مبعوث إلى معرض، أو كأنما سيثاب أو يعاقب تبعًا لقيمة ما يحشد ملفوفًا عليه – ثم لا بد أن يشيد له قبر من رخام إذا أمكن، يزار فى المواسم وتوضع عليه الرياحين ويفرق عنده الخبز والفطير وبواكير الفاكهة على "الفقراء" ولا عجب فإن جدوده الأعلين هم الذين بنوا الأهرام بلا موجب وأتعبوا الخلق وسخروا عباد الله فى زمانهم لا لشىء سوى أن ينعم بضعة رجال بأن يعلموا أنهم سيدفنون فى هذه الصروح العظيمة !

ومن حب المصريين لحرية القول – أو حرية الاغتياب على الأصح – ثاروا على نابليون؟ ودع ما يقول المؤرخون غير ذلك، فإن الذى أقوله أنا هو الصحيح، وما عليك إلا أن تقرأ الجبرتى فإنه حافل بالآيات الدالة على صحة رأيى .

كان نابليون يريد أن يوجد شيئًا من النظام، وينظم الشوارع التى تغوص فى ترابها القدم، ويضيئها، ويريح نفسه من ألسنة المصريين الطويلة، فأمر بأن تغلق بوابات الأحياء فى الليل ليحفظ الأمن ويحصر من يخلون به فى أضيق نطاق، فتذمر المصريون وقالوا: "أنحبس فى أحيائنا، ويحرم علينا الانتقال إلى سواها لنزور ونزار ونستمتع بليالى القاهرة وسهراتها الجميلة؟ أما إن هذا لاستبداد لا يطاق!".

وأمر أن يعلق الناس على بيوتهم مصابيح تضاء ليلاً ويعاقب رب البيت إذا هي انطفأت وأن يرشوا الأرض في حاراتهم صباحاً ومساءً، فإن قصروا عوقبوا فضج المصريون بالسخط وقالوا: "إن هذا ابتزاز لأموالنا وماذا نصنع إذا قامت الريح وأطفأت المصابيح؟ أنظل طول الليل مطلين من النوافذ؟ ونحن نرش الأرض أمام بيوتنا حين نشاء أن نجلس أمام البيت، وهذا شأننا وحدنا فما دخل هذا الغريب فيه؟ إنها حيل لسلب الأموال ليس إلا!" ..

ولكن هذا وأمثاله كان كله مما احتملوه حتى قضى بونابرت بعقاب من يغتاب الجنرال العظيم! وكان الناس يجتمعون في "مناظر" البيوت أو أفنيتها ويبسطون ألسنتهم فيمن يشاءون من بشاوات الترك، وبكوات المماليك، والشيوخ والكبراء – ويجدون في ذلك لذة لا تعدلها في الدنيا لذة. فتلهبت نفوسهم غضباً، وصاحوا صيحة رجل واحد "حتى الكلام نُحرمه؟ إذن لماذا خلق الله لنا هذه الألسنة في حلوقنا؟ كلا! كله إلا هذا فإنه لا يطاق!"

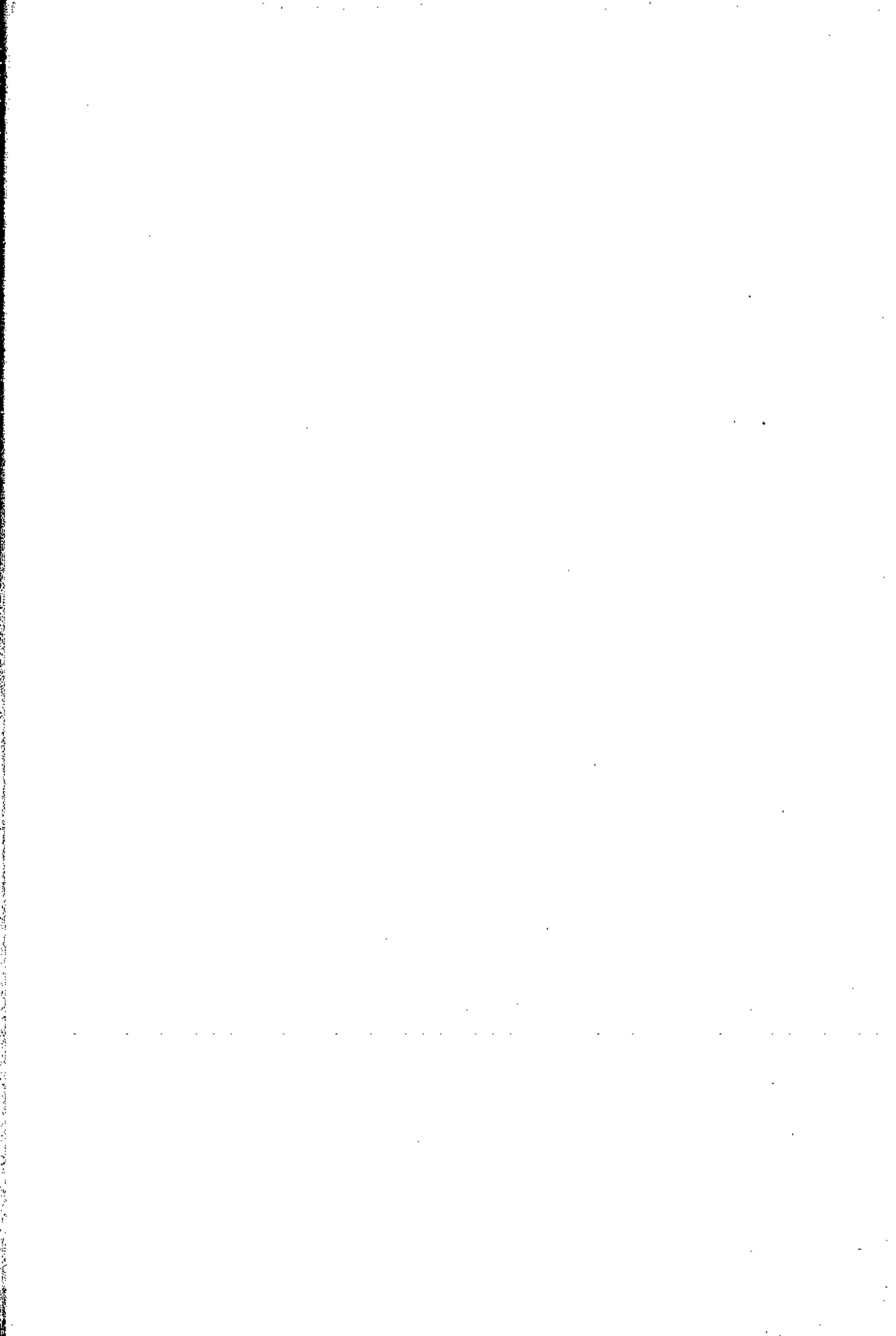
ولم يطيقوه، فثاروا ثورتهم الأولى – فإن لهم لثورة ثانية على من خلف نابليون على الجيش – ولم يكن معهم سلاح ولا كانت لهم دراية بالحرب، وكان بين طلاب الأزهر أو "المجاورين" طائفة من المغاربة، فأقام المصريون هؤلاء المغاربة ضباطاً عليهم!! مساكين لا الضباط ولا الجنود ذاقوا طعم النوم مخافة أن يفاجأوا وهم نيام !

أي نعم، هم المصري النفخة الكذابة، وحرية الاغتياب على الخصوص، وهي لا تتيسر إلا بحرية الارتياء على العموم، ألست ترى في مصر الحديثة أن المعارضة تكون دائماً أربح وأوفر عائدة من التأييد؟

وأحسب أن فردريك البروسي لو كان قد ظهر في مصر لا في بروسيا، لأصاب فيها نجاحاً، فإن قاعدته في الحكم ليس ثم أشد منها موافقة لمزاج المصريين .

بل ما أظن المصريين يعنيهم من الدستور إلا كفالة تلك الحرية التي لا يصبرون على تقييدها. ويجب أن يلاحظ القارئ أن النفخة الكذابة وحرية الاغتياب فرعان من أصل واحد فإن من اغتابك فكأنما استعلى عليك .

إبراهيم عبد القادر المازني



سيدنا فى العيد[1]

أرسلنى أبى أول مـا أرسل إلى كـتـاب قـريب من دارنا ، وكـان الكتـاب فـى ذلك العهد هو روضة الأطفال التى نقلناها فيما بعد عن الغرب بغير فهم أو حذق فى التقليد، ولقد أردت أنا أن أسـاير الزمن فبعـثت بابن لى إلى روضـة أطفـال بقى فيها عـامين فلم أر أنه استفاد شيئًا من علم أو أدب، فأخرجته منها وأدخلته فى كتاب أحسن تعليمه فى ثلاثة شهور .

وأعود إلى ذلك الزمن الموغل فى القدم الذى يخيل إلىّ حين أحاول أن أدير عينى فيه، أنه زمن طوفان نوح، وذلك من إحسـاس النفـس، فليست العبرة بعـدد السنين بل بشعور القلب، وأنا أحس كأن الدهر كله عمرى لشدة امتلاء الأيام والنفس .

ولم أكن فى ذلك الوقت فقيراً فقد كان أبى فى سعة عظيمة من الرزق، ولكنه كان متلافًا، وكان كأنما يرى المال شرًا أو بلاءً. وكان بعض المحسنين قد وقف على هذا الكُتاب قدرًا من المال فالأطفال يتعلمون فيه بغير أجر ويعطون فى العيد كسوة هى مقدار "جلابية" من البفتة إلا الذين يقول "سيدنا" – أى الفقى – أن أباءهم موسرون، وكنت أنا من هؤلاء المحرومين التعساء .

وكانت العادة إذا أقبل العيد أن يقبل أولاد الكُتاب فى نظام تام وعلى رأسـهم "سيدنا" والعريف إلى دائرة الوقف وهناك يدعو سيدنا لأصحاب الوقف بطول العمر وبغيره، فيرد الأولا بصـوت واحد "آمين". ثم توزع عليهم الكسوة، وكنت أعلم أنه لا نصيب لى منها فحدثت أمى بذلك وشكوت إليها بثى وحزنى، فطيبت خاطرى وأوعزت

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٤٦ (ص٢) .

إلى أبى فغلط واشترى لى "قطنية" نفيسة ظن أن نعومتها وحسن ألوانها سيخلبان لبى ويملآن قلبى غبطة .

وقد سررت، ولكني قبل أن أذهب بها إلى الكُتاب وأمضى فى صفوفهم إلى دائرة الوقف، وقبل أن يتلقوا هذه الأكسية البيض ويضعوها تحت آباطهم، فلما فعلوا ورأيتهم كلهم يحملون "البفتة" وأنا وحدى أحمل هذه "القطنية" الزاهية البراقة، حزنت وانكسر قلبى، وفاضت دموعى وأرفضت على خدى خيوطًا متصلة، ثم ألهمنى الله شيئًا، فملت على ولد إلى جانبى يحمل قطعة "البفتة" وعرضت عليه أن يبادلنى، فيأخذ القطنية والله يبارك له فيها، وآخذ "البفتة" وأقر بها عينا، ولم أزل به حتى رضى، وكان الذى يحمله على التردد خوفه أن أرجع فأعدل عن المقايضة، فطمأنته .

وسرت بعد ذلك فى الصف متعدل القامة، مرفوع الرأس، مشرق الوجه، وقد غاضت الدموع وحل البشر محل الاكتئاب .

وعدت إلى البيت وليس على ظهر الأرض أسعد منى، ودرت بالبفتة على كل من فى البيت أعرضها عليهم وأشركهم معى فى فرحتى بها، حتى صرت إلى أبوى فسألنى أبى :

"ما هذا؟ أين القطنية؟" .

فكذبت وقلت : "أعطونى هذا بدلاً منها" .

فقالت أمى تنهرنى : "لا تكذب!" .

قلت : "قايضت ولداً".

فضرب أبى كفًا بكف وقال "أما إنك لمغفل! تأخذ بفتة الصدقة، وتزهد فى قطنية غالية من حر مال أبيك؟".

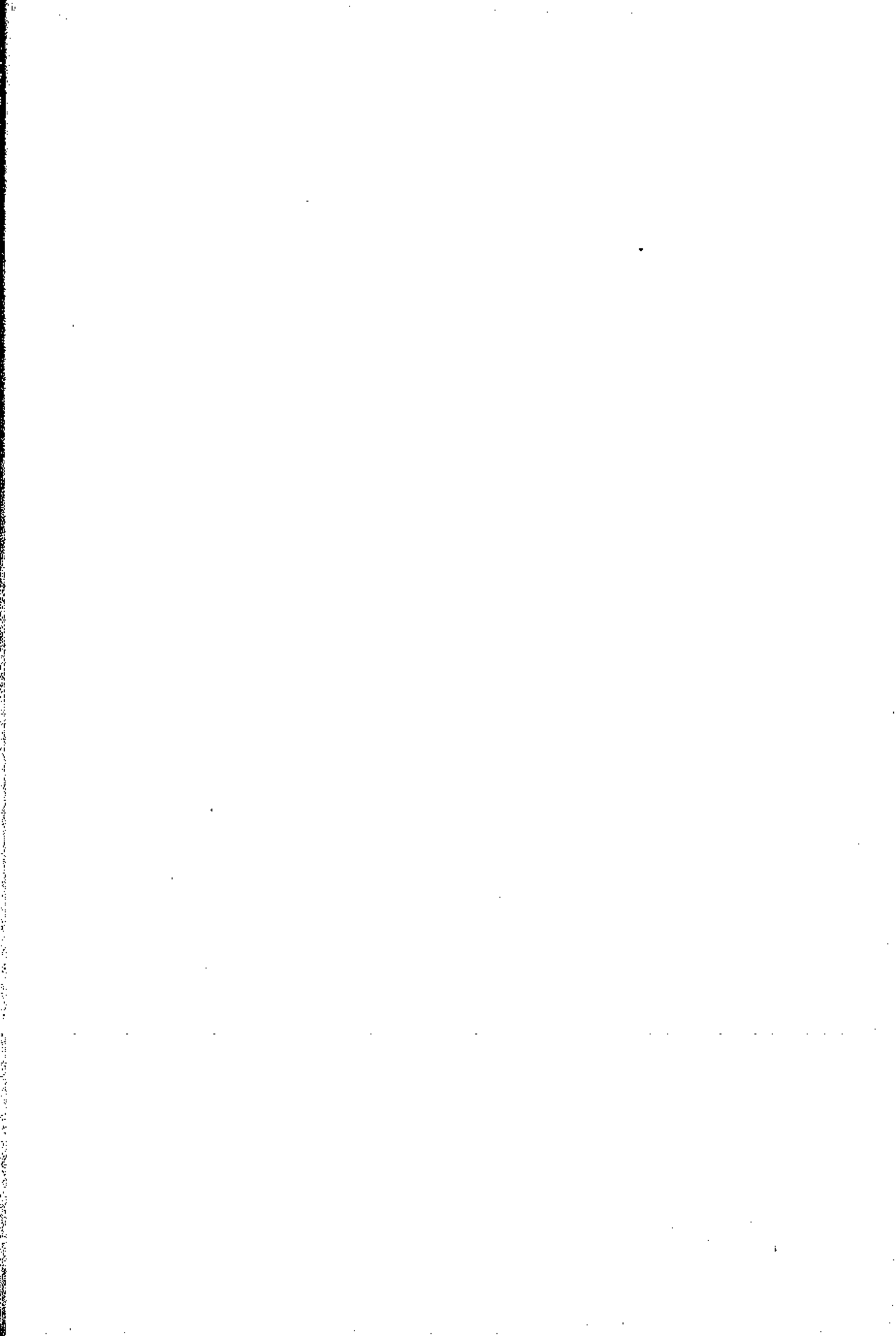
فأخجلنى توبيخه، وإن كنت لم أندم على ما فعلت، وكنت أصغر من أن أفهم معنى الصدقة ودلالتها، وكل ما كنت أعرفه أن هذه هدية، وأنى حُرمتها لغير سبب أدرية فشق ذلك علىَّ، وأصلحت الأمر على النحو الذى خطر لى .

وتركت البفتة بين أيديهما، وخرجت ورأسي مثني على صدري، وبي خوف أن يبعثا بها إلى "سيدنا" ليسترد القطنية، ولو فعلا لذهبت بهجة العيد، ولكن الله سلم، ولا أدري ماذا كان مصير البفتة غير أني نعمت بالشعور بأني فزت بالهدية ولو بحيلة .

ومات أبي، وذقنا طعم الفقر سنوات طويلات، وسعى أهلي لتعليمي بالمجان فلم يوفقوا، فلما عرفت معنى الفاقة أدركت معنى الصدقة، فصرت إذا أعطاني أحد غير أمي في العيد قرشًا أو لعبة رخيصة، أنفر وأرفض، وأعد ذلك من الصدقة التي استهجن أبي أن أقبلها. وقد عشت ما عشت إلى الآن فما أذكر أني تلقيت هدية في عيد أو موسم، واعتدت هذه الحرمان حتى لا يستغرب الآن – ولا يسرني – أن يبعث أحد إليَّ بهدية وأروح أتساءل : لم ولماذا؟ وما الباعث؟ ولماذا يختصني بهذه الهدية؟ وبأي شيء أستحقها؟ ولا يمنعني من ردها إلا الحياء وعلمي أنها لا تدخل في باب الرشوة أو الصدقة .

وهكذا يكون ما يتقرر في نفس الطفل وهو غض أعمق جذوراً وأبلغ أثراً في حياته من كل ما عداه فليت الآباء يدركون هذا ويجنبون أولادهم هذه الآثار التي تخفى في الحداثة ثم تتبدى شيئًا فشيئًا على الأيام وكثيراً ما يجهلون علتها ويعييهم علاجها .

إبراهيم عبد القادر المازني



كما أراهم : على ماهر[1]

اتصلت به نحو ثلاث سنوات، وكان هو وكيلا لحزب الاتحاد، أو رئيسه الفعلى، أما رئيسه الاسمى فكان المرحوم يحيى باشا إبراهيم، وكنت إذا استغربت أن يتولى رياسة الحزب ولا يكون له فيه عمل يذكر أو اهتمام بأمره، يقول لى، عليه رحمه الله: "يا بنى أنا طول عمرى رجل قاض، والناس جميعًا أمام القاضى سواء، فلست أستطيع أن أفرق بين مصرى ومصرى أو أفاضل بينهم تبعًا لأحزابهم .

على أنى واثق أن على ماهر قادر على أن يكون الرئيس الحقيقى لأية جماعة يدخل فيها كائنا من كان الرئيس الرسمى، لأن له من قوة الشخصية واللوذعية، وسرعة الفطنة، وحضور الذهن، والإقدام، وحسن الإبانة ما ييسر له الاستعلاء وتبوأ المكان الأول .

وكنت أنا يومئذ رئيس تحرير الجريدة التى تنطق بلسان الحزب – أو لا تنطق – فكان يندر أن نختلف فى الرأى. ويكثر مع ذلك أن نختلف فى كل شىء آخر حتى كادت تتلف أعصابى من كثرة الخلاف وتكرر المشادات، فآثرت اعتزال العمل، وعلمت بعد ذلك أنه كان يمهد لعزلى فأغناه الله عن هذا العناء باستقالتى. ولم أره بعد ذلك إلا مرة أو مرتين فى عشرين عاما !

ذكرت هذا ليطمئن القارئ حين يرانى أنصفه ولا أبخسه حقة أو أغمط فضله، وحين أقول أنى أنطوى له على تقدير دقيق لمزاياه وفضائله، وإن كنت لا أرتاح إليه من الوجهة الشخصية؛ فأنا معه على حالين : شعور شخصى أورثتنيه معاشرته، وهذا

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٦ (ص٤، ٧) .

لا أقيم له وزنًا لأن أمره انتهى حين انبتت صلة العمل، وتقـدير عقلي لمزاياه وهذا هو الذى أجعل بالى إليه حين أزن عمله أو مساعيه أو مواقفه وقد أنصفته من خصومه مرارًا على غير انتظار منه في الأغلب .

ويبدو لى مما تبينته من اتصالى به قديمًا ومن تتبعى لسيرته العامة، أن فيه جرأة تبلغ أحيانًا مبلغ الاندفاع، ولكنه يجفل إذا واجه ما لا يأنس من نفسه قدرة عليه، وربما كانت سرعة التراجع فى بعض الحالات عن إيثار للصبر وانتظار فرصة أوفق .

وهو لفرط اعتزازه بنفسه ومواهبه العديدة كثيرًا ما يمضى لرأيه بغير مشاورة، ومن مزاياه أنه إذا اتجهت له خطة أو عنّ له مع رأى، أحسن النضال عنه ووقف دونه مدافعًا ببيان قوى ولسان عال ذرب .

وهو عملى وسريع البت، وليس أبغض إليه من البلادة والتلكؤ وطول الإجراءات الحكومية، ولعله أول من تولى منصبًا وزاريًا وأبى أن يكون "باشكاتبا" وهو وزير يقرأ كل ورقة ويراجع كل ملف ويقضى برأيه في كل تافهة من توافه العمل، ولهذا كان رأيه أن يوزع الاختصاص على معاونيه، ويمنحهم ثقته على أن يظلوا أهلاً لها وجديرين بها، مكتفيًا بالإشراف والتوجيه ورسم الخطوط الرئيسية وتقرير المبادئ العامة. وهذه هى مهمة الوزير الصحيحة .

ووسيلته أن يعد عدته ويهيئ مشروعاته، حتى إذا ولى الحكم وضعها موضع التنفيذ ومضى فى إخراجها بسرعة البرق فيدهش ويروع .

ومن مزاياه أنه لا يكف عن الاطلاع والدرس فذكاؤه يعاونه علمه، وعقله يتلقى مددًا لا ينقطع من العقول التي يتصفحها فى آثارها. وهو من فقهاء القانون، ولكنه لا يحتزئ به أو يقتصر عليه، بل لا يزال يزود عقله بغيره من المواد، ولهذا يعد من أصحاب الجوانب المتعددة .

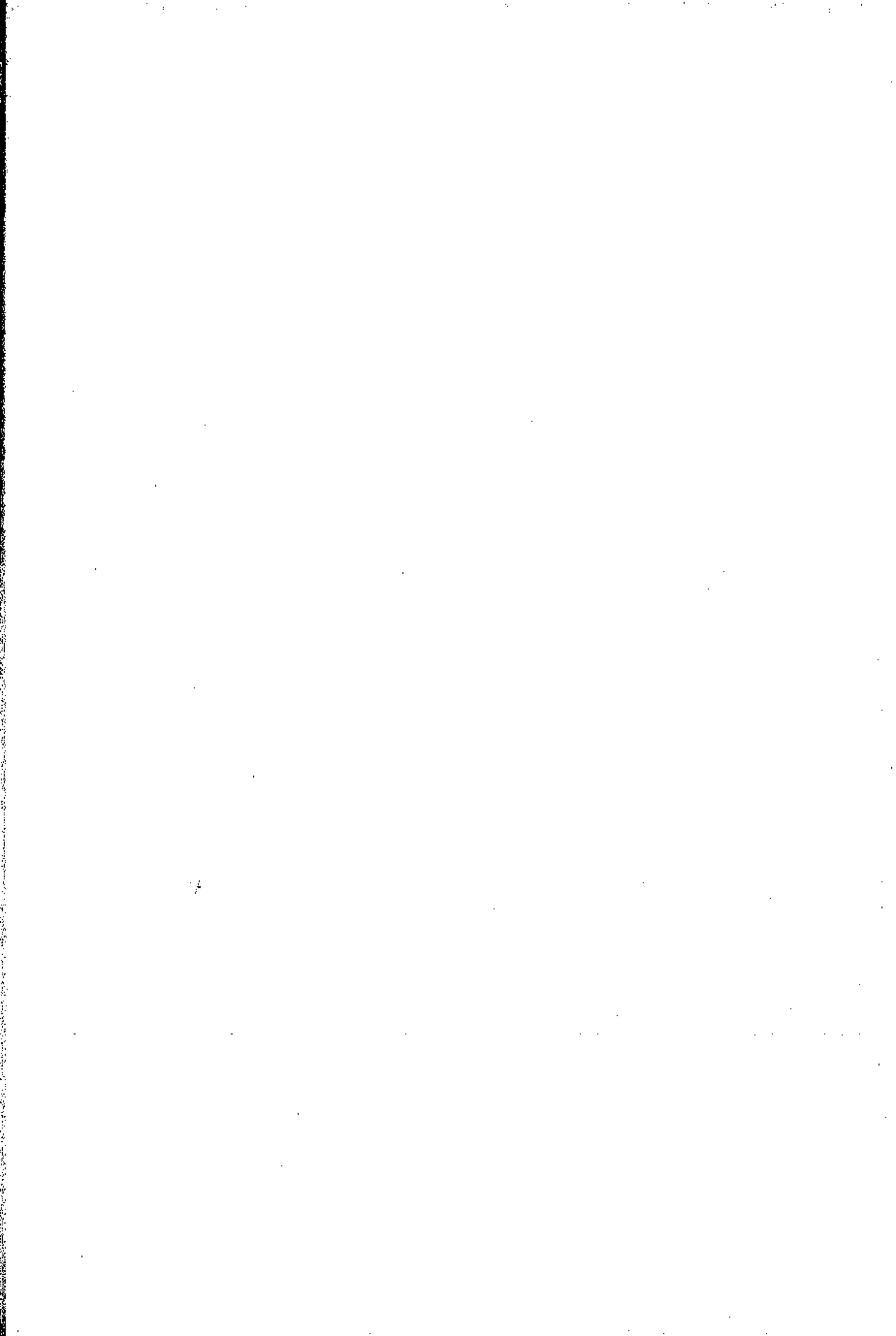
وحيلته واسعة، وسرعة خاطره فى حل المعضلات من أوجز طريق وأيسره، مشهورة، فهو لا يكاد يعبأ بشيء، ولكل مشكل عنده تدبير .

ومع علمه بالقانون وتضلعه فيه لا يأنف أن يستشير أهله، وينزل على رأيهم إذا رآه أولى بالاتباع ولا أعرفه ينكر الحق أو يكتم الشهادة به أو يأبى الإقرار بالفضل لذويه، ولكنه يحب ويكره، ويستخف ويستثقل، ويستريح أو يطمئن إلى هذا وينفر من ذاك، فتخرجه العاطفة إلى الهوى أحياناً، وأكثر ما يكون هذا إذا كثرت المخالفة له فى نهج أو رأى، لأن فى طباعه كما أسلفت اعتزازاً بنفسه ونزوعاً إلى السيطرة والانفراد بالرأى والعمل جهره أو بلباقة وحسن تدبير .

وتاريخه الوطنى حافل، وصفحاته غاصة منذ قامت الحركة الوطنية إلى اليوم، يعرفها الذين عاصروها من بدايتها، ومما ينبغى أن يذكر له أنه من أكثر رجال مصر آثاراً فيما تولى من وزارات وقد كدت أقول أكثرهم على الإطلاق لولا خوفى أن أظلم سواه، والمرء عرضه للنسيان. ولو كانت ظروفه حين تولى الحكم غير ما نعرف، لكان حقيقا أن يسدى إلى بلاده خيراً كثيراً، على أنه ضرب مثلاً فى المرتين اللتين تولى فيهما الحكم، سيظل مذكوراً.

ومما ينبغى أن يذكر له أيضاً أنه لم يكن قط رجلاً حزبياً بالمعنى الصحيح لأنه له من مرونة عقله وحسن فهمه لواجبه الوطنى ما يمنعه أن يكون جامداً متحجراً، وعندى – وأحسب أن عند القراء الشواهد على ذلك ولكن المقام لا يتسع لها .

إبراهيم عبد القادر المازنى



أظرف من عرفت !![1]

والله إن كل من عرفت لظريفات! ولماذا أقبل أن أعرف من لسن كذلك؟ أليس المرء حرًا في الاختيار؟ ولكنك قد تقول أنك لا تستطيع أن تعرف أن هذه المرأة بعينها ظريفة حتى تعرفها. فأقول أن هذا ليس بصحيح، وغير منكور. إن الظُرف في الأصل متعلق بالكلام – كما يزعم أهل اللغة – ولكني لا أعبأ شيئًا بأهل اللغة، ولا يدخل في عقلي أن تكون المرأة ظريفة الكلام، وأن لا يكون فيها شيء يدل على ظرفها دون أن تنطق بحرف. وأنت يكفيك أن ترى امرأة لتعرف أهي ظريفة أم ثقيلة، لأن خفة الدم لا تخفى وثقله لا يستتر، ولو وضعت على وجهها ألف حجاب وحجاب. ومحال أن تكون امرأة خفيفة على القلوب وأن تكون مع ذلك غير ظريفة. فدعنا من أهل اللغة فإنهم "وراقون" ليس إلا، وأنا استعمل كلمة "الوارقين" وأنا أعلم أن أهل اللغة يريدون بها معنى غير الذي أعنيه، وهو أن هؤلاء القوم الذين لا يفتأون يقولون لك أخطأت، إنما يعيشون بين أوراقهم، ولا يعيشون بين الناس، ولا يدركون أن الألفاظ – كالأحياء جميعًا – تتطور معانيها، وتضيق وتتسع، وتسمج وتحلو وتندثر وتبقى على الأيام وبحسب الذوق العام في كل زمان .

والمرأة – كل امرأة – لا تخلو من ظرف، وإلا فهي ليست بامرأة، وإن كانت على صورتها، لأن فقدانها الظرف يفقدها بعض الجمال – أو مزيته كلها – وهذا هو سلاحها الماضي الوحيد في الحياة فماذا يبقى للمسكينة إذن إذا هي كتب عليها – لشقوتها – أن تحرم مزية الظرف ؟

---

(١) نشرت في مجلة "الهلال" في فبراير سنة ١٩٤٧ (ص٧٨– ص٨٠) .

عرفت مرة امرأة دميمة، وفي قولي أنها دميمة بعض التسهيل، فما رأيت في حياتي أقبح منها وجهًا، ولا أسخف قوامًا، ولم تكن لا مثقفة جدًا ولا فنانة – وكيف يمكن أن تكون؟ – وكان شعر حاجبيها رقيقًا من جانب وكثيفًا جدًا من جانب، وإحدى عينيها أعظم من الأخرى، وفي كلتيهما جحوظ شنيع، كأنما تريد المقلتان أن تخرجا أو تسقطا، وكنت إذا نظرت إلى وجهها الشتيم هذا، أحس أن عيني أنا قد ورمتا أو انسلقتا أو على الأقل احمرتا. فأتعجب لقدرة الله الفنان الأعظم الذي وسعه – سبحانه – أن يخلق كل هذه الدمامة وأن يحشد كل أصنافها في صعيد واحد – أو وجه واحد، سيان – ولكني مع هذا كنت أستطيب مجلسها، وأشتاق إليها إذا غابت، وأتفقدها. ولم يكن حالي معها كحال ابن المعتز مع تلك الجارية القبيحة السوداء التي كان يغازلها فلما سئل عن ذلك قال: "وأرحم القبح فأهواه"، فما كنت أهواها، ولا كان يخطر لي أن أغازلها، ولا كنت أشعر أن بها حاجة إلى رحمة من إنسان كائنًا من كان. فحسبها ما تفردت به، وهو شيء عظيم لا أظن أن أحدًا غيرها فاز به في الحياة. ولشد ما كنت أتمنى لو كنت مصورًا فأثبت على اللوح أو الورق أو لا أدري ماذا، كل هذه الدمامة النادرة المنقطعة النظير، فيخلد اسمي على الزمن بلا نزاع، وأستغني عن كل هذا الهراء الذي كتبته ولا أزال أكتبه .

وكانت ضحكتها فضية، لا كركرة فيها ولا ترجيع ولا طخطخة. وصوتها تسمعه فيخيل إليك مرة أنه خفيف، وأخرى كأنه رنة، وتارة تحب أن تغمض عينيك وتسمع هذا الصوت المصوغ العجيب الذي كأنه مصوغ مرقوم على نغمات مختارة. وكانت إيماءاتها – بحاجبيها المخيفين، أو جانب شدقها الغليظ، أو يديها المعروقتين – مبينة جدًا. حتى لقد كانت تستغني بها عن كثير من الكلام، وكان من عجيب أمرها أنه ما من حادث يقع أو كلام يدور في أقصى الحي، إلا وتراها أعرف به وبتفصيله ممن وقع لهم أو دار بينهم، وإلا وهي ترويه بإسهاب قبل أن ينهض أصحاب الشأن من مكانهم. ومن أجل هذا كنت أسميها الست "رويتر". وكان زوجها – نعم، فإن لها لزوجًا كريمًا وسيمًا أيضًا في الرجال – يحبها بل يعبدها ولا يزال همه ووكده أن يدخل السرور على نفسها بما يطيق وما لا يطيق. وله العذر، إذ من ذا الذي يجد مثل هذه المرأة

– أو يقع له مثل هذا الكنز – ويفارقها أو يملها؟ على أن أعجب من هذا كله أن جاذبيتها الجنسية – مع دمامتها المفرطة – كانت فى غاية القوة، بل أنا لا أبالغ حين أقول أنى ما رأيت امرأة لها مثل شدة جاذبيتها، والعياذ بالله! وكان إلى هذا طيبة القلب واسعة المروءة، رقيقة الفؤاد على خلاف تلك التي يقول فيها مهيار:

آه على الرقـــة فى خـــدودها لو أنهــا تســــرى إلى فـــؤادها

فما كان في خدودها شيء من الرقة. رقة؟ لقد كان يخيل إليّ أن جلدها أديم نعال، وآه لو رأيت عرقها يتصبب، وكأنه على وجهها ماء موحل فى أخاديد أرض مهملة !

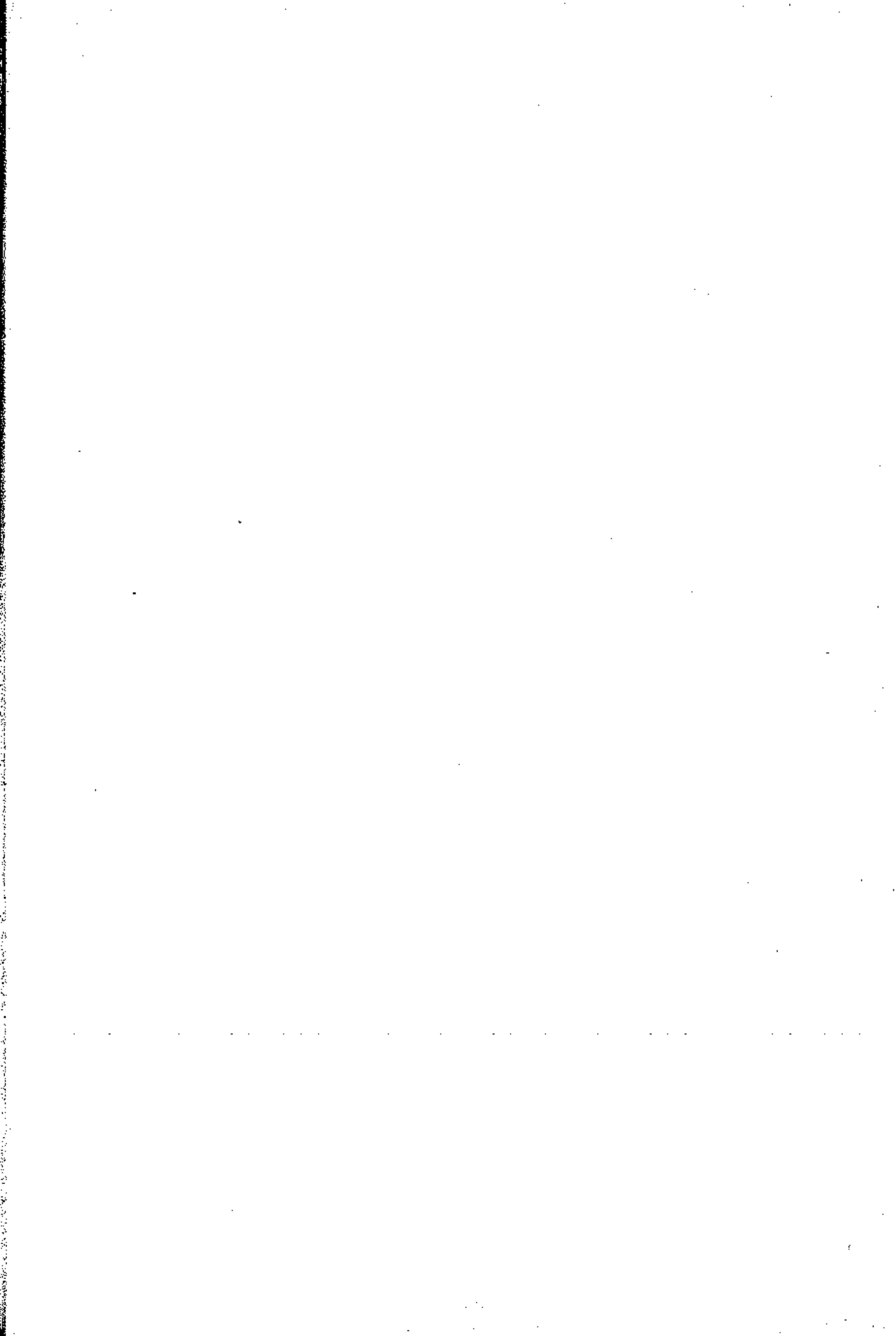
ماتت رحمها الله! وكانت جنازتها حافلة، مشى فيها الكبار والصغار، والوجوه والذيول، وراح بعض الغلمان، فجمعوا الأزهار من فوق القبور الأخرى، وبعضها ذابل، وكدسوه على قبرها. ولما دلوا جثمانها فيه، بكى الرجال كالنساء، وليس لى دمع أذرفه، ولكنى استأذنت زوجها فنزلت فى قبرها وسويت لها ترابه، وحسرت عن وجهها ولثمت طرف كفنها! وخرجت – أو صعدت – معفراً، وانتحيت ناحية ووقفت أنتظر انصراف المشيعين، لأعود بزوجها المسكين. فتذكرت – لا أدرى كيف – أغنية مضحكة كنت أسمعها تدندن بها، وكنت أستملحها منها وأستعذبها لحسن أدائها لها من ناحية، ولما فيها من الفكاهة، وكثيراً ما كنت أرفع صوتى الخشن المزعج بالغناء معها، فتنظر إليّ باسمة – فما كان وجهها يتجهم قط – وتقول :

"أما قلت لك ألف مرة أنك لا تصلح للغناء إلا فى محطة الإذاعة؟"

تذكرت الأغنية والكلام والزجر، فغلبنى الضحك، فأدرت وجهى إلى الحائط، ولكنى لم أستطع أن أكبح نفسى على شدة حزنى عليها، فوليت هارباً لئلا تكون فضيحة !

هذه هى الظريفة حقًا! وأين مثلها فى الدنيا؟

إبراهيم عبد القادر المازنى



محدث سيارة ![1]

عهدي بالسيارات قديم، ومصيبتي بها كبيرة، وأنا سائق ماهر، وحريص محاذر، ولكنه وقع لي مالا يقع حتى لأطيش الشبان وهم سكاوى، أكون راكبًا مطمئنًا مغتبطًا حتى لأشعل سيجارة وأدندن، وإذا بالعجلات تخرج من مواضعها وتسبقني في الطريق، فتميل السيارة على جنبها، ولولا لطف الله ثم براعتي - ولا فخر- لانقلبت بي والعياذ بالله .

واشتريت مرة سيارة ألمانية جديدة من أحدث طراز وأفخمه، وقال المهندس إنه تخيرها لي وآثرها على غيرها لأنه اختبرها فألفاها أجود من سواها من نظائرها. فشكرته وخرجت بها، وما كدت أقطع بضع مئات من الأمتار حتى انفجرت العجلات الأربع جميعًا! وفي وسع القارئ أن يتخيل الباقي - كيف نجوت من صدمة وبيلة من الخلف، وكيف اجتمع خلق الله جميعًا وكيف استطعت أن أجيء بمركبة وكيف رفعنا السيارة ووضعناها على المركبة، وكيف كان وجه المهندس الفاضل حين عدت إليه! الخ الخ ...

ولكن هذا كله - ما ذكرته وما لم أذكره - لا شيء إذا قيس إلى ما أنا فيه الآن، فقد اشتريت سيارة أمريكية جديدة من أحدث طراز، لو كنت أقول الشعر لنظمت فيها ديوانًا، ولكنها طويلة عريضة، وعظيمة ضخمة، حتى لتتسع لدبابة - لا بل لطيارة معطوبة، وأنا كما تعرف أو كما يقول الشاعر :

أنا من خف واستدق فما يثقل أرضًا ولا يسد فضاء!

وقد قال لي صاحب "الجراج" حين أقبلت بها عليه، وعلى فمي أعذب ابتساماتي :

- "هذه لوري!"

قلت : "إنها على قدر المقام"

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٢٢ فبراير سنة ١٩٤٧ (ص٥) .

قال : "الأجرة أربعة جنيهات!"

قلت : "ياخبر!"

قال : "طيب من أجل خاطرك، ولأنك زبون قديم ثلاثة جنيهات"

قلت : "هذا خراب بيوت"

قال : "طيب ادفع ما تشاء!"

فتالله ما أكرمه فما طالبني قط بأكثر مما أطقت .

ولكن البلاء والداء العياء أني - لضخامتها وطولها وعمقها أيضًا ولقصري وضآلتي - لا أبدو فيها للناس وأنا أسير بها في الطريق. وأنا لا أطيق الطربوش إلا وأنا سائر على قدمي. فإذا جلست وركبت خلعته. فأكثر من يراني في السيارة - أو يرى السيارة دوني في الحقيقة - يصيح: "الله! شف! شف! السيارة ما شية وحدها! راكبها عفريت!" .

* * *

ويا ويلي وويل الناس حين أصل إلى نقطة من نقط المرور : ينظر شاويش المرور فلا يرى إلا سيارة منطلقة وحدها وليس بها أحد - على الأقل فيما يبدو له. فيضطرب - ولا سيما في الليل - ويشير بالوقوف، ويعطل حركة المرور كلها، يمينًا وشمالاً ويدنو من السيارة وهو واجف القلب، ويحني رأسه وينظر في حذر، حتى إذا رآني صاح بي - وله العذر - :

- "كيف تسوقها وأنت لا يمكن أن ترى الطريق؟"

فأبرز له الرخصة، وأقول إني أسوقها باللاسلكي !

والأمر مع ضباط المرور هين، فإنهم ظراف لطاف. ولكن الذي يطير العقل أني أعطل المرور. فتنطلق الزمارات من كل ناحية - من الشرق والغرب، والجنوب والشمال، حتى يكاد رأسي ينفلق .

* * *

وأشق ما أعانية فى قيادتها أنها لطولها وضخامتها تتطلب الحذر عند اجتياز المضايق، وفي الزحام، ولكن السائقين في مصر لا يعرفون الصبر، ولا يعبأون شيئًا بأصول القيادة وقواعد السير. وشر السائقين جميعًا سائقو السيارات الحكومية وسيارات التاكسى. فتراهم يمرقون من الشمال واليمين بلا حساب. ويمضون بسرعة لا تؤمن مغبتها. وقلما يحفلون بإشارات المرور. ركبت تاكسى مرة، فانطلق الرجل يسابق ظله كما يقول المعرى، فرجوت منه أن يتمهل فكان جوابه :

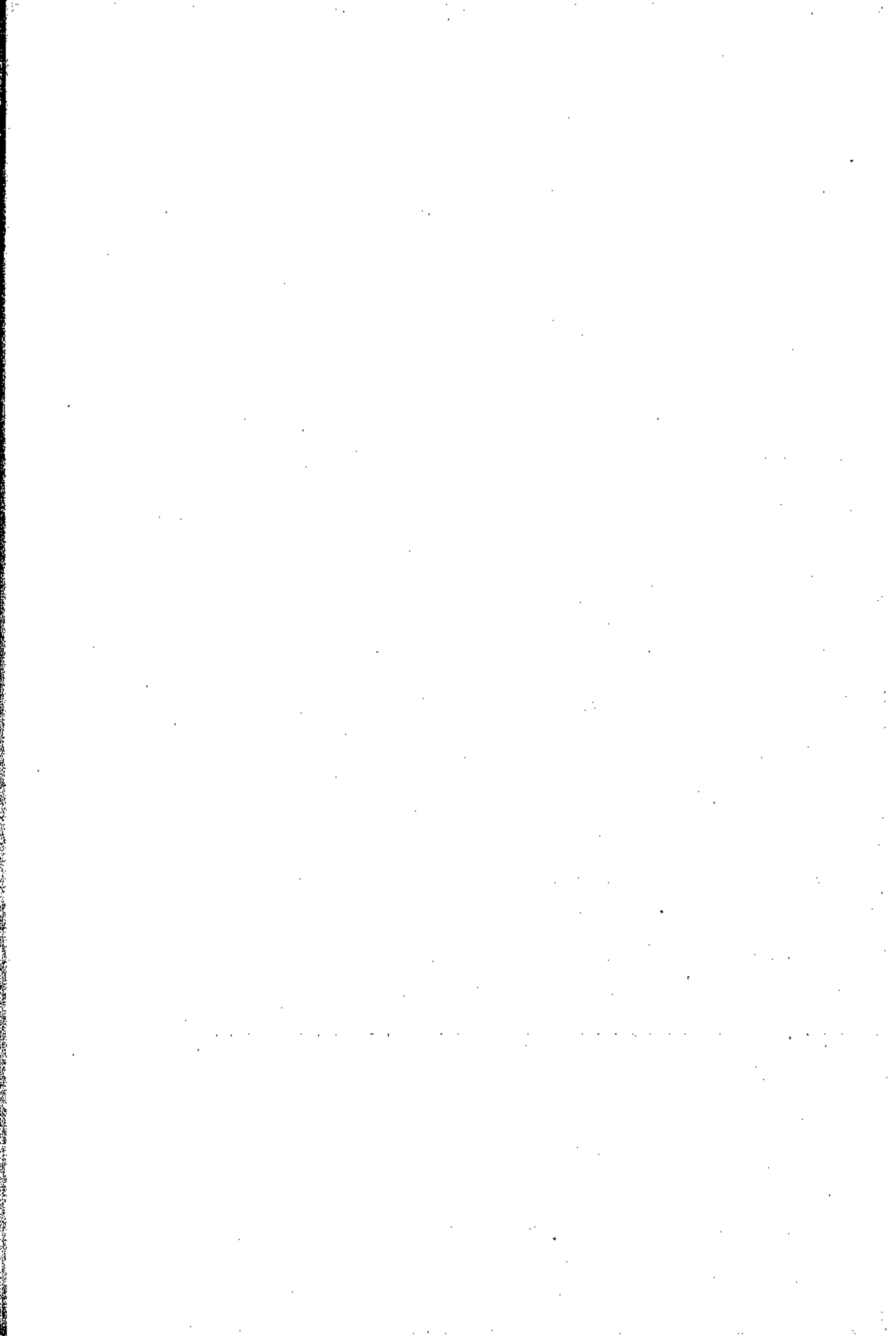
"لماذا تركب تاكسي إذن؟"

فأمرته بالوقوف ونزلت وأنا أقول له :

"إني أركب التاكسى لأن الترام بعيد من هنا. ولكني على كل حال أحب أن أصل إلى بيتى وأنا كما أنا، لا سبع قطع!"

وبعد فهل أقولها؟ إن كل سائق فى مصر يجب قبل أن يعطى رخصة للقيادة، أن يرسل إلى فلسطين أو لبنان أو سورية، ليتعلم كيف يقود السيارة قيادة مأمونة، وليؤدى هناك امتحانًا ويعود بإجازة، وإلا فلا رخصة !

إبراهيم عبد القادر المازنى



هل تشكو من عقدة نفسية؟[1]

يشكو بعضهم إليّ – في رسائلهم – من عقد نفسية شتى، ولست بطبيب نفسانى أو شبهه، وحسبى ما أعانيه أنا من العقد التى أورثتنيها الحياة فى مراحلها المختلفة. على أنى – على جهلى – أستيطع أن أقول وأنا مطمئن أن هذه العقد التى يذكرونها لا ينبغى أن تكربهم أو تزعجهم، فما من أحد يخلو من عقدة – لا العظماء، ولا الأوساط العاديون، ولا السفلة والأوشاب. وكثيراً ما تكون هذه العقد راجعة إلى عهد الحداثة ومن هنا تخفى على غير المدقق البصير. على أن مما يدعو إلى الاطمئنان أن يفطن المرء إلى أن بنفسه عقدة فإن هذه هى الخطوة الأولى فى إصلاح الحال وعلاج الأمر .

وهذا لا يكفى، ومن السهل أن يدرك المرء أن به سقاماً، وقد لا يسعه إلا أن يدرك، فلا ينفعه علمه هذا، إلا من حيث أنه يدفعه إلى الطبيب ليتبين ما به ويصف له الدواء الذى يرجى أن يشفيه مما به، وكذلك العقد النفسية فإن معرفة المرء على وجه العموم أن فى نفسه شيئاً منها، لا غناء لها إلا على اعتبار أن الشعور بذلك يغرى بنشدان المعرفة الصحيحة، فالعلاج الكفيل بتخفيف الوطأة أو حل العقدة إذا تيسر ذلك. وهذه مهمة الطبيب النفسانى، كما أن الأمراض البدنية يتولاها أطباؤها الإخصائيون. فليس فى وسع مثلى أن يشير بشىء له جدوى فيما يجاوز التجارب العامة. غير أنى أستطيع أن أقول – وأنا مطمئن أيضاً – أنه ما من طب يجدى إلا إذا كان المرء فى عون نفسه، فما يملك أى طبيب مهما بلغ من العلم والحذق والأستاذية إلا أن يتبين ويشير ويصف، والباقى – والأهم – على المريض نفسه. وما حيلة الطبيب فى مريض لا يطيعه أو لا يحرص على اتباع ما أشار به الحرص اللازم ؟

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٨ مارس سنة ١٩٤٧ (ص٥) .

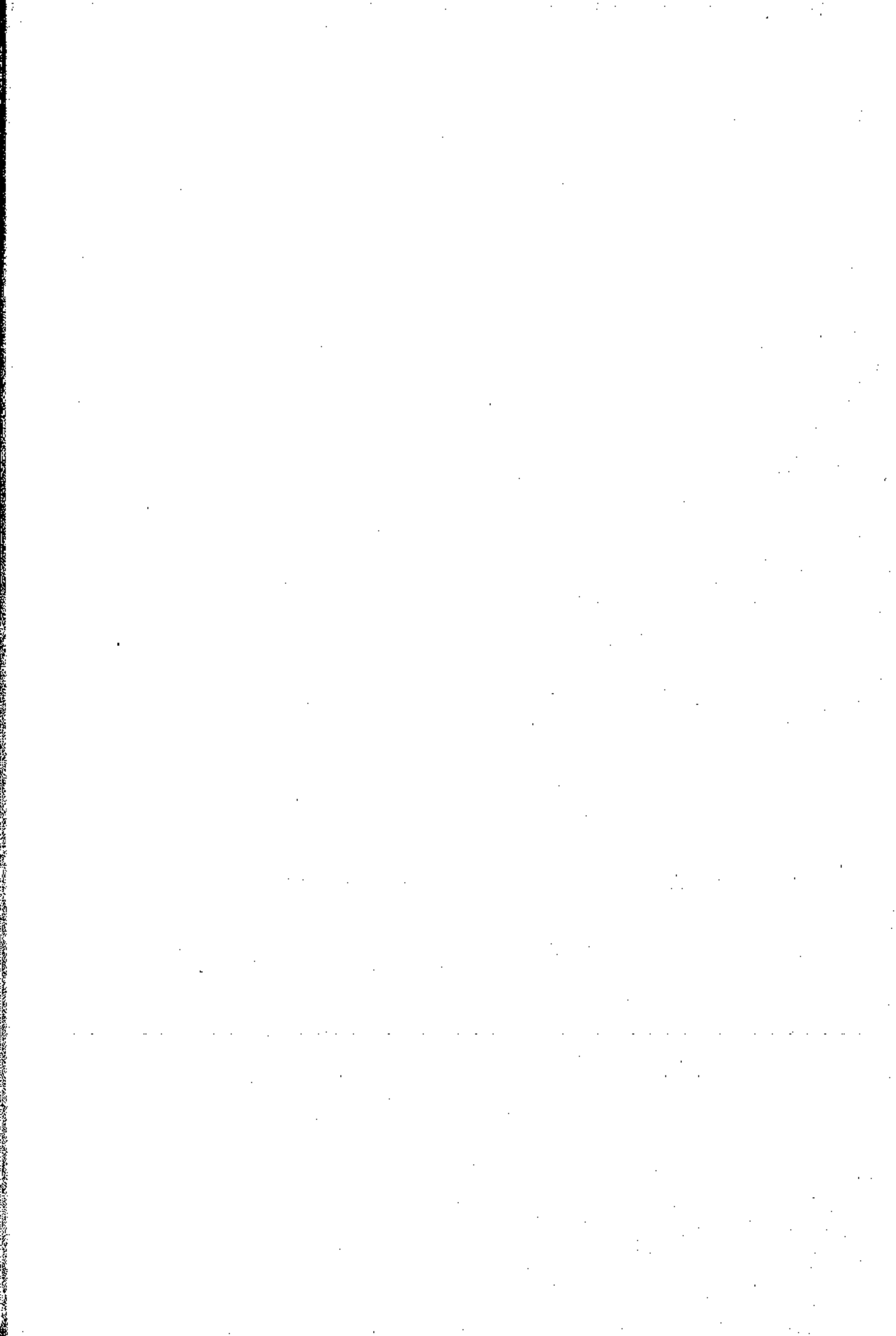
• وفي مصر أطباء نفسانيون والحمد لله، فليذهب إليهم من به عقدة نفسية يفتقر حلها إلى طبهم وعلمهم، غير أنه ليس كل عقدة تحتاج إلى طبيب، فإن في وسع المرء أن يغوص إلى بعض ما في قرارة نفسه، وأن يكر راجعاً بذاكرته إلى ماضية وما كان فيه، وأن يحاول أن يتذكر ما وقع له، وكان له أثر في توجيهه وتكوين عاداته، وتعيين أساليب تفكيره، ونوع تلقيه للحياة، واستجابته لدواعيها، فإنه خليق إذا فعل ذلك أن يهتدى إلى علة بعض العقد – على الأقل اليسيرة منها – وقد يعينه هذا الكشف على توخي ما يلطفها أو يمحوها. وهذا البحث لازم على كل حال سواء اكتفى المرء بنفسه واعتمد عليها وحدها أم رأى الحاجة تدعو إلى استشارة طبيب خبير، فإنه يستنبئه قبل أن يبدى رأياً .

وقد لاحظت أن بعض العقد يرجع إلى سلوك الناس ووقعه في نفس الإنسان، أي أن الوسط كثيراً ما يجنى على المرء ويورثه حالة نفسية خاصة، وأضرب مثالاً لذلك مما وقع لى : فقد هيضت ساقى في صدر الشباب ولم يكن هذا ذنبى، ولا أردت أن أكسرها، ولا فعلت شيئاً كان خليقاً أو معقولاً أن يؤدى إلى كسرها، وإنما أصابنى شيء هين لا أدرى ما هو على وجه التحقيق، فدعوا لى برجل قالوا إن في يده "الردة" أى أنه يرد العظام إلى مكانها ويجبر وهيها أو كسرها. فكان كما يقول المثل "جاء يكحلها فأعماها!" ثم جئنا بمن هو أدرى منه – فما كان في مصر يومئذ أطباء للعظام على ما أعلم – فأصلح ما فسد على قدر الإمكان. وقصرت الساق فصرت أعرج، ولا شيء في هذا، ولا هو مما يعاب به إنسان، وما ينبغى أن يكون محل ملاحظة أو كلام، ولكنى احتجت أن أزيد كعب الحذاء في الرجل التى قصرت ساقها، لأن العرج كان يتعبنى، فصار علىّ، في كل مكان، من حدق نطاق كما يقول الشاعر، فما ركبت الترام مرة، أو قعدت في مقهى أو دخلت مطعماً أو مشرباً أو دكاناً إلا رأيت الناس يشيرون إلى إشارة بينة، ويتهامسون، بل يتبادلون الرأى بصوت مسموع يسك الأذن يؤذى السمع – سمعى أنا على الأقل – فلم أعبأ بذلك أول الأمر، ولم أجعل بالى إليه، ولكنهم ألحوا علىّ بهذا الفضول الثقيل حتى أتلفوا أعصابى فعجزت عن الاحتمال، فكان من جراء ذلك أن اشتريت سيارة حتى أكون فيها بحيث لا يرانى الناس، وإن أبيت إلا أن

أكون أنا سائقها تمرداً منى على العجز أو العاهة، وإن زهدت فى المجتمعات والحفلات واتقيت كل مكان يكثر فيه الناس، ثم اتفق أن كنت ضيفًا على سيدة كريمة ذكية فلاحظت نفورى وإيثارى العزلة، فسألتنى فصارحتها بالأمر، فلم تزل بى حتى هونت علىّ هذا الفضل الذى أستثقله، وقوت قلبى، وشجعتنى على المقاومة، فصرت بعد ذلك لا أبالى من نظر أو لم ينظر إلى ساقى، ومن قال أو لم يقل فيها شيئًا. غير أن حب العزلة ظل مع ذلك مستولياً على نفسى وأعان على ذلك كثرة العمل ووهن البدن، وقلة المتعة أو الفائدة من لقاء الناس .

وهذا مثال لأثر البيئة، وجنايتها على الإنسان، ولو شئت لسقت أمثلة عدة من حياتى وتجاربى وحدها، ولكن فى هذا المثل الكفاية ومن السهل القياس عليه .

إبراهيم عبد القادر المازنى



السعادة لا توهب !..[1]

ضحكت حين تلقيت رسالة معنونة هكذا: "الفيلسوف الكبير..." ولبثت لحظة محجمًا عن فضها مخافة أن أقرأ فيها ما هو شر من ذلك. وإذا كانت الفاتحة أنى "فيلسوف" و "كبير" أيضًا – ألا ليت من يكتبون إليَّ، يرونني!! وإن كنت لا أحب أن يريهم الله سوءًا – فما ظنك بالخاتمة؟ وقلت، وأنا أفتح الظرف بعد طول التردد "إذا كنت أنا فيلسوفًا، فالله يرحم مصر"! وتساءلت وأنا أهز رأسي أسفًا: متى يعتدل الميزان في بلدنا المسكين؟ حتى متى نسرف ونشتط في كل شيء : في الرضى والسخط، وفي المدح والذم، والحب والبغض ؟

وتوكلت على الله، وقرأت الرسالة، فجف وجهي، وأحسست أن شعلة ساطعة ذات لهيب شديد وزفير قوي، تستطير فيه، فقد ردتني بعنف إلى عهد الطفولة والشباب الذى قطعته "وثبًا"، ورفعت أمام عيني صورًا كنت أتوهم أني طويتها أو أدرت وجهها إلى الحائط .

وتلوت الرسالة مرة، وأخرى وثالثة ورابعة، فقد وجدت فيها عزاء. أنا إذن لست الوحيد الذى عاني ويعاني ما شاء الله أن يكتب له في لوحه!.. فهذه فتاة في سن السادسة والعشرين تكتب إليَّ، فتقول :

"ولو سألتني عن سر انطوائي على نفسي لحرت ولم أدر بماذا أجيب... غير أني أذكر طفولة غير سعيدة، وتعليمًا بدأ مبكرًا وسار سيرًا حثيثًا، لينقطع فجأة وأنا أشد ما أكون رغبة في مواصلته، وأحوالاً مالية مرتبكة أدت إلى ذلك الانقطاع وآمالاً كبارًا

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٢٩ مارس سنة ١٩٤٧ (ص١١) .

عقدتها على ذلك التعليم انهارت كأنها كوم من الرمل، واضطراري لمزاولة عمل بسيط ينافي ما كنت أرغب فيه وأتطلع إليه، مع قوم أجزل الله لهم حظهم من تفاهة الخلق، وأصابني منهم إيذاء وإيلام وتجريح، ولقد حاولت كثيراً أن أضحك وأن أتلقى ما تجيء به الأيام بالسخر، ولكن كلمة تبدر أو إشارة تصدر، تردني إلى الحقيقة – حقيقة نفسي الموجعة. وعبثًا حاولت أن أنسى أو أتناسى... ولقد وهبني الله قبسًا من السعادة في شخص صديقة عرفتها – سيدة عاقلة فاضلة مهذبة، حباها الله ذكاء نادراً وزودها العلم بثقافة عالية، وجمعت بين دقيق الشمائل وحميدها، وقوة العزم ومضائه، ولكن الأيام باعدت بيننا، ففقدت بفراقها هدوءاً وجدته في ظلها، وحرمت سكينة النفس، وما كنت أفيده من علمها وفضلها وأدبها وتهذيبها... والآن أراني قد أصبحت على شفا انهيار عصبي لا يعلم نتيجته إلا الله... فأنا أكتب إليك راجية أن أجد عندك طبًا لما أعانيه من جراء الكبت والانطواء على النفس، من شتى الأحاسيس والانفعالات" .

* * *

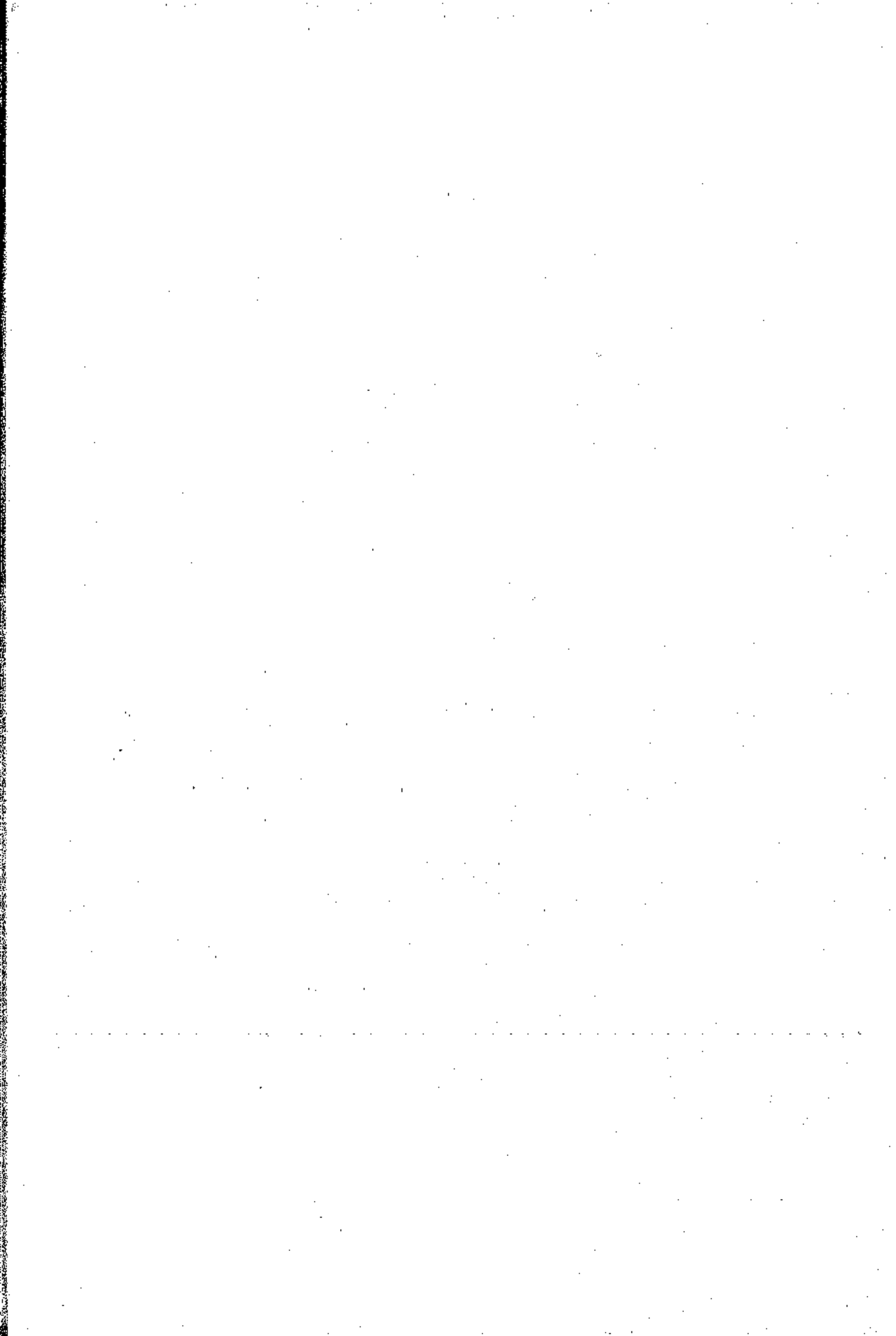
أنا أيضًا عانيت هذا كله وصليت بحر نار لم أكن، علم الله، من جناتها، فافتقرت، بعد يسر، في حداثتي، وكاد ينقطع تعليمي لولا عناد أمي، وإباؤها كل الإباء أن أخرج من المدرسة، وجاء يوم يابس تناهى فيه سوء الحال، فاقترح قريب لنا – من أدنى ذوي قربانا – أن نقدم طلبًا بإعفائي من نفقات التعليم – فقد كان هذا هو كل ما تحرص عليه أمي، أما ما عداه فأمره مما نحتمله فيما بيننا وبين أنفسنا – وكتب الطلب، وذهب به ثم عاد يقول: – أي والله، غفر الله له – أن الناظر يطلب رشوة!.. وكان الناظر من أنزه الناس وأعفهم يداً ولسانًا وقلبًا، وريعت أمي، فقد كان أبي محاميًا، فتعلمت منه أشياء وأبت كل الإباء، وأوجز فأقول أنها دفعت الرشوة إلى قريبنا لا إلى الناظر المظلوم!.. وبعد شهر وزيادة جاء القريب الفاضل سامحه الله يقول إن الوزارة أعفتني من نصف المصروفات فقط، فقلنا خيراً على كل حال، وكانت "المصروفات" ستة جنيهات في العام على ثلاثة أقساط فأعطتني أمي جنيهًا من ذهب وقرشين ونصف قرش. وألهمني الله أن أتحرز – وتصور طفلاً في العاشرة يتنبه إلى وجوب التحرز – فلم أذهب إلى "الصراف" بل قصدت إلى الناظر في حجرته، ودفعت إليه الجنيه والقروش،

فاستغرب فلما قصصت عليه ما أنبأنا به القريب الفاضل، كاد يبكي، فقد كان جاراً وصديقاً لأبي، وقال إنه يأسف، فقد رفضت الوزارة الطلب، وأبت المجانية، وأمهلني ما شئت!.. فعرفنا أن قريبنا "نصب" علينا وهو في يسر ونحن نتضور .

وكانت الحياة كلها في ذلك العهد كبتًا في كبت وانطواءً تامًا على النفس، ولا حاجة بي إلى شرح ذلك وبيان أسبابه، فإنه هو الذي كان لا مفر منه، مع الفاقة، وفي الأحوال الاجتماعية التي كانت يومئذ مقررة سائدة. وعكفت على القراءة - وماذا كان هناك غيرها؟.. حتى أضر ذلك بصحتي وكاد يطفئ نور عيني، ولكني كنت قد اعتدت الاعتماد على النفس، والاستقلال في التفكير والتصرف، وأصابتني النوراستينيا، فلجأت إلى الأطباء فكادوا يطيرون لي ما بقي من عقلي فتوكلت على الله مرة أخرى... وعالجت نفسي بنفسي، أو بذلت كل ما يدخل في طاقتي من جهد، وما زايلني تلف الأعصاب، ولكني أغالب ذلك بالإرادة، ورياضة النفس، ومواجهة الحقائق لا الهروب منها، وتلقي ما تجيء به الأيام بأعظم ما يسعفني من التهوين، وبإنزال كل شيء منزلته دون مغالاة، وبقولي لنفسي أن هذه هي الدنيا، وأن الحياة هكذا أبداً - كانت كذلك وستظل كذلك - والناس هم الناس، فيهم الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وكل شيء في الحياة قسم وحظوظ وأرزاق، وفي وسع الإنسان أن يجمل الحياة، والسعادة ليست هبة تأتيه من الخارج، وإنما هي ثمرة لسكينة النفس الصحيحة الإدراك، ولا داعي على كل حال للتهويل على النفس، فإن ما لا يدرك في صورة ما، يدرك في صورة أخرى، وفي مقدور كل امرئ أن ينال ما حرمه، وأن يفوز بما يبغي أو يتلهف عليه، ولو على وجه غير الذي تعذر، واتقاء الكبت أوجب ما يجب، فإن عواقبه وخيمة، وما من أحد يعدم - إذا عني بالتماس الوسيلة - مخرجاً من الكبت .

وأظن هذا جواباً كافياً، وإن كان غير مباشر ...

إبراهيم عبد القادر المازني



ما هى السعادة ؟..[1]

كتب بعضهم إلىَّ من العراق يقول "أن القارئ الذكى لما تكتبه من مقالات على صفحات "أخبار اليوم" الغراء يستخلص أن حضرتكم من أولئك الذين يحملون بين ضلوعهم قلوبًا جريحة دامية، فيحاولون أن ينقذوا هذا الفريق مما هم فيه .

ثم يسأل بعد ذلك "هل من حق الإنسان أن ينتحر بعد أن ألفى الأبواب كلها موصدة فى وجهه؟" ثم يخرج من هذا الإجمال إلى التفصيل فيقول أنه لا يتجاوز السابعة عشرة، وأنه عاش فى ظلام منذ نعومة أظفاره – وقع فى صباه فانكسرت رجله وأصيب بالعرج ورمضت عيناه، فأدى ذلك إلى وقع كثافة على "بؤبؤ" عينى، وعلى الرغم من ذلك ثابرت حتى أتممت الدراسة الثانوية. وساعده بعض الخيرين فتقدم إلى كلية بعد أخرى، فرد عنها جميعًا لأنه لم ينجح فى "الفحص الطبى" وفاز فى امتحانات المسابقة للالتحاق بالوظائف ولكن الفحص الطبى حرمه أن يجنى ثمرة نجاحة. "وأخيرًا بعد توسلات عينت مدرسًا لا أعطى مرتبًا فى العطلة المدرسية فى قرية جبلية نائية لا يسرى عنى فيها سوى مقالاتكم التى أقرأها فى الصحف التى يرسلها إلى صديق". ويحز فى نفسه أنه أعياه أن يتم دراسته العالية. وأنه موظف بسيط معرض للاستغناء عنه فى أية لحظة. ولهذا: يتساءل: لم لا أتجرع المرارة كلها دفعة واحدة وأذهب إلى ربى لأعلمه بحالى ؟.

* * *

وأتناول الأمر من ذيله فأقول أن ربه لا يحتاج أن يكلفه هذه الرحلة التى لا إياب منها، ليعرف حاله. ويذكرنى قوله هذا بقصيدة لتوماس هاردى اسمها على ما أذكر

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ١٢ إبريل سنة ١٩٤٧ (ص٢) .

"وفد الأرض" تصور فيها وفداً من أرضنا صعد إلى السماء، واستأذن في المثول أمام العزة الإلهية، ووصف له ما في الأرض من كوارث ومحن آلام وأوبئة وحروب وفساد شامل. فقال سبحانه وتعالى ما معناه أني أنكر أني خلقت منذ عدة ملايين من السنين شيئًا كهذا في جملة ما خلقت من ملايين الكواكب فهل الأرض لا تزال باقية ؟.

وأرتد من الذنب إلى الرأس فأقول أني لست ذا قلب جريح دام، ولكني أشعر كلما نظرت في مصائر الخلق، أن شيئًا مني يموت. ولعل هذا بعض ما تساعدنا به الطبيعة على توطين النفس على الموت ورياضتها شيئًا فشيئًا على السكون إليه، وما أظن إلا أن صروف الأيام من شأنها – وإن شئت فقل من وظيفتها – أن تبلد الإحساس على سبيل التمهيد للقاء الأجل في غير جزع ولست، كما قلت، جريح القلب داميه بمعنى أني لا أدع قلبي هذا يدمى من أجل أني فجعت في أمل، أو خبت في سعي، فما قال أحد أن هذه الدنيا جنة عدن، ولو كانت لما وعدنا بجنة في الآخرة، وما زعم أحد أنه ليس علينا إلا أن نطلب أو نشتهي لننال، والنجاح محتمل كالإخفاق، وكلاهما يجب أن يقدر، والأمر بعد ذلك حظوظ وقسم وأرزاق، وكل ما عنى الإنسان أن يسعى جهده – جهده كله – والتوفيق لا يؤتاه كل ساع، ولو كان مخفق يختصر الأمر وينتحر لخلت الدنيا ممن عليها. فما فيها واحد لم يخفق في مطلب من المطالب. وأحسب بأن كل إنسان – بلا استثناء – يصدق إذا تمثل بقول الشاعر[٢] :

وَلِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ مَن يَبِيعُنِي ... بِهَا كَبِدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ؟

وما زال الناس – وسيظلون – ينشدون هذه الكبد التي سلمت من القروح فلا يقعون عليها، ولا يهتدون إليها .

وإذا كان ما أكتب يشعر القارئ بشيء من الشجي، فليس ذلك لأني حزين موكوم موقوم مغموم، بل لأن كل ما يكتبه الكاتب المخلص لابد أن يورثه هو – قبل قرائه – شيئًا من الشجي، ولا سيما بعد أن تمضي الأيام. ويصبح ما خلا خيالات وأشباحًا.

---

(٢) يعني الشاعر الأموي ابن الدمينة (ت. ١٣٠هـ/٧٤٧م) والشعر من الطويل .

ذلك أن الكاتب أو الشاعر لا ينسج من خيوط أمعائة لأنه ليس دودة قز. وكل ما يكتبه الكاتب - في باب الأدب المحض كما يقولون - لابد أن يكون مستمداً مما رأى أو عاني وجرب، أو سمع به واستطاع أن يتمثله وليس مدار الفن الموضوع الذي يعالجة الكاتب أو الشاعر وإنما مداره أسلوب التناول للموضوع، وما يشعشعه به من الخيال. وحتى إذا تناول الكاتب أو الشاعر تجربة سارة، فإنه لا يسعه وهو يشعر بالرضى عن طيب ما مر به، إلا أن يأسف لأنه مضى وانقضى، وأن يرجو أن يقسم له أن يذوق مثل هذه الحلاوة مرة أخرى. وأن يشفق من أن لا يكتب له أن يذوقها، ولو لم يكتب لكان خليقًا أن ينسى، وأن تذهله الحياة عما كان، وعن كر الزمن فكل متعة يجدها الكاتب أو الشاعر مشوبة لا محالة بشيء من الشجي والشجن. والقارئ الذكي - كما يقول صاحبنا العراقي - لابد أن يفطن إلى ذلك.

وأني لأتساءل أحيانًا : لماذا اخترع الساعة مخترعها؟.. لماذا أراد أن يعرف في أي وقت من النهار أو الليل هو؟.. وأن ساعة بعد ساعة تمضي وتغيب في ذلك الفراغ المهول الذي نسميه "الزمن" ؟..

ويبدو لي - أحيانا أيضًا - أننا معشر الكتاب - والشعراء، ولست منهم ولله الحمد! - نتخذ "ثلاجة" كتلك التي في المستشفيات نحفظ فيها ما كان حيًا، من عمل، أو شعور، أو منظر، أو تجربة، أو سرور، أو حزن إلى آخر ذلك، نحفظه مبرداً، مثلوجًا، مجلوداً لا حياة فيه ولا نفس، لنخرجه بعد ذلك ونروح ننفخ جاهدين لنعيد إليها الحرارة والروح - وهيهات !

ويخيل إليّ - أحيانًا أيضًا - أننا لسنا أكثر من فراشات جمعها صبي ووضعها في زجاجة، فقصارانا أن نطير في هذا المجال الضيق، وأن نرسل اللحظ إلى ما يمكن أن يمتد إليه من خلل هذا الزجاج المحيط بنا. وهذا كل ما نقدر عليه ويسعنا أن نفعله.

وأن أسال بعد ذلك: ما قيمة الحياة كلها حتى يفكر أحدنا أو لا يفكر في الانتحار؟.. ولماذا يستعجل شيئًا لن يحرمه؟.. وما هي السعادة؟.. إنها ليست المال،

ولا المنصب الكبير، ولا النعيم المقيم، وإنما هي سكينة النفس - أن تدرك الحقائق إدراكها فلا تغالي بشيء، ولا تعدو به منزلته، وأن تكون قادراً على احتمال الإخفاق، واحتمال التوفيق أيضاً، فإن من يتلقى النجاح بغير اغترار وبطر، أعظم وأقوى نفساً ولا شك ممن يتلقى الخيبة بالصبر والتشدد، وهل للخائب مفر من الصبر حتى يكون له به فضل ؟..

إبراهيم عبد القادر المازني

رد إبراهيم عبد القادر المازنى[1]

كل ما قاله صديقى الأستاذ العقاد صحيح – ولست أستثنى قوله أنى مكار. وأنى شاعر. أما قوله أنى لعلى قدرت أن الناس لا يسمعوننى أنكر الشاعرية على نفسى حتى يهرعوا إلىَّ فيجذبوننى إلى الطليعة فى أول الصفوف، فهذا من المزح البارع المبطن بالجد، فما أنكر أنى أحيانا أتخيل هذه واقعًا، وأتصور أن الناس رفعونى إلى أعلى مقام، ولست بإنسان إذا أنا لم أفعل ذلك. وإلا ففيم كل هذا العناء الذى أكابده وأصبر عليه وأتشدد له؟ ألآكل وأشرب فقط؟ ورحم الله الملك الضليل الذى قال :

ولو كان ما أسعى لأدنَى معيشةٍ	كفَانى ولم أطلُب قليلٌ من المالِ
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثلٍ	وقد يُدركُ المجدَ المؤثلَ أمثالى

وأنا أروى البيتين من الذاكرة ويخيل إلى أن فى رواية البيت الأول خطأ فليصححه من ليس به مثل كسلى عن المراجعة أو من يستطيع على خلافى أن يصل إلى ما يريد فى مكتبة بسهولة[2] .

وأنا أمكر ولا شك – لا أحيانًا بل كثيرًا – ولكن مكرى غير سيئ كما يعرف الصديق الذى لعله أدرى منى بنفسى، وهو مكر يحملنى عليه أمران – أولهما الدفاع عن النفس، وثانيهما ما أرانى مغرى به فى أحيان كثيرة من العبث "الصبيانى" الذى يزين لى ركوب بعض الإخوان بالفاكهة. وإنى لقادر على المكر السيئ ، وأن نفسى لتحدثنى وتغرينى به، وأحسبنى لا أستطيع أن أنكر أنى فعلتها – أى والله الذى أطمع

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٣ مايو سنة ١٩٤٧ (ص٤، ص٨) .

(٢) يبدأ البيت الأول بقوله : "فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة" .

في غفرانه! وأن ندمي على ما اجترحت لشديد، وأن توبتي لصادقة – حتى لقد صرت أكره أن أرى أظافري تطول لأنها تذكرني بطول لساني وسوءُ ما ركبت به الناس جاداً وهازلاً .

وصديقي الأستاذ العقاد يعرف أني الآن رجل طيب، وهذا منتهى الخيبة، وأنا أعرف ذلك، وأتسخطه حينا، وأحمده حينا وأتعجب ماذا يكون من أمري غداً، فإني أراني لا أثبت على حال؟ أتراني سأعود شرساً سيئ المكر، أم سأظل رجلاً طيباً أوثر الترفق والحسنى؟ لا أدري! فإني أراني كل يوم في شأن – أستغفر الله، فما أعني إلا أني لا أثبت على رأي ولا أستقر على حال، ولا أزال كل يوم أنظر إلى الناس والحياة نظرة جديدة، فأنا في كل يوم "مازني" جديد، قد يكون خيراً أو شراً من "مازني" الأمس، ولكنه غيره والسلام .

أما كفي عن قرض الشعر فحكايته طويلة، ولم يتيسر لي إلى الآن أن أبسطها للقراء – إذا كان هذا يعنيهم – لأنها ليست أقل من ترجمة حياة، ولكني أغتنم هذه الفرصة التي أتاحها لي صديقي الأستاذ العقاد، فأقول إنه لم يكن من الهين على نفسي أن أقول للناس أني لست بشاعر، وأني أخفقت فيما عالجت من الشعر، وأصارح الصديق والقراء فأقول أني أشعر وأنا أقول ذلك أني أقتلع أحشائي. فالأمر ما تركت الشعر ونفضته يدي منه، ولكني ما حيلتي؟ لقد كنت بطيء النظم جداً، وقلما كنت أرضى عما أقول – أعرضه على أذني فلا تطرب، وعلى عقلي فيهز رأسه ويقول: "يا شيخ! ما هذا الكلام الفارغ؟ وأين هذا من قول فلان وعلان وترتان؟ وأقرأ الشعر الغربي والعربي، وأنظر في شعري فأتحسر! وكنا مرة – قبل الحرب العالمية الأولى – في بيت المرحوم الدكتور ميرزا مهدي خان "زعيم الدولة ورئيس الحكماء" – وكان هذا لقبه الرسمي – وهو من زعماء الثورة الدستورية في إيران – في زمانه – وكان يتقن العربية وينظم الشعر فيها، وكان معمراً. فقص علينا قصة ودعانا إلى تلخيص مغزاها في بيت واحد من الشعر. فلم أفهم شيئاً مما قال – لا لعجز فيه عن الإبانة – وما راعني إلا أنه ما كاد ينتهي من قصته حتى "طلع العقاد في حلقة" – كما يقول العامة، ببيت من الشعر، فهمت منه مغزى القصة وفحواها، وإن كنت لم أفقه شيئاً منها !

والعقاد هكذا – ينظم ثم يدون وينشر أن يغير حرفًا مما نظم لأنه سريع البديهة، حاضر الذهن، وله قدرة عجيبة عل النظر المحيط، والتصفية والتلخيص فى أوجز عبارة. وقد قرأت كثيراً مما قرأ من الكتب، ويسألنا سائل عن كتاب بعينه. فأرانى حائراً، وإذا به يجمل للسائل لبابه كله ومحوره فى بضع كلمات، فأتعجب لقدرة هذا العقل على التفطن السريع إلي الجوهر، ولعجزى وحيرتى وضلالى بين التفاصيل والحواشى .

ثم إني أسأت الظن بصدق سريرتى فيما نظمت من الشعر، وشككت في إخلاصي، وكبر في وهمي أن العواطف التى وصفتها، والتى ولدت ما أعزيت عنه من آراء، لم تكن صادقة وإنما كانت مما أوحيت إلى نفسي، فأنا إذن مقلد لا أكثر .

ونظرت فإذا الشعراء الذين أنجبتهم الأمم مئات وآلاف ومئات آلاف، ولكن لم يخلد منهم إلا آحاد وعشرات فقلت لنفسي: إنه لا يخلد إلا شاعر من الطبقة الأولى. أما الأوساط فيعفي الزمن عليهم ويمحو ذكرهم. وما أرانى جئت بشيء له قيمة حقيقة – نعم قلت شعراً فيه موسيقية، وله حلاوة، وعليه طلاوة، ولكن ما قيمة هذا؟ وما خير أن أمضى فى نظم شعر لا أراه يبلغ هذا المبلغ الذى يكفل له الخلود؟ ولماذا أضيع عمرى في عبث؟ وسأضيعه – كالملايين من الخلق – فى عبث آخر. ولكن هذا العبث الآخر أجدى عليّ فى حياتى على الأقل .

ثم إني كفرت بالخلود، وكفرت بنفسي، وكفرت بالأدب كله، كفراً هو ثمرة الإيمان العميق بالحق. وكما "طلع فى دماغى" كما يقول الصديق الكريم، أن أنكر على نفسى الشاعرية، "طلع فى دماغى" أيضًا أن أنكر أننى أديب، ذلك أنى أرى أن الأدب قد صار عندى "صناعة" – ولا أقول حرفة – وما أنا اليوم إلا صاحب دكان أدب أو "ورشة" أفتح الدكان كل صباح على بركة الله، ويقبل الزباين، هذا يريد مقالاً بعشرة جنيهات مثلاً، فأدفع إليه كلاماً طوله عمود، وإذا زاد زدنا، وما أكثر الكلام الفارغ. وذاك يطلب رسالة قصيرة، أو كتيبًا يدخل فى الجيب ويقرأ فى الترام أو المقهى، أو كتابًا "يوضع على الرف" فأساومه ونتفق على الثمن، وأقبض العربون أو الثمن كله إذا كان "الطلب" حاضراً، شأنى فى ذلك شأن "دالفكو" و"على خليل" و"الفطرانى" وغيرهم من التجار .

ولست أعبأ اليوم شيئًا بالخلود، الذى كنت أركب حافظًا رحمه الله بالهزل وأقول له – بإغراء العقاد، ذلك المكار الأكبر على الرغم من طوله – إنى مستعد أن أهبه ثلاثمائة عام منه (أى من خلودى) إذا هو اجتهد! كلا، لا خلود إلا العدم، ولست أبالى ما يقول الناس فىّ غداً ولا أنا يعنينى غير حياتى فى هذه الدنيا، أما بعد أن أخرج منها بعد عمر طويل، فليس للناس عندى سوى "طظ!" ..

الحقيقة أنى أخفقت، ولم أبلغ حيث كنت أريد، وأنا أعظم احتراماً للحق، وأحسن فهماً للأدب، من أن أعد ما وسعني وتيسر لى، على فرط اجتهادى، من الأدب الصحيح. ولست أرى غضاضة في هذا الاعتراف. وإني لأطمع أن أكون قدوة لغيرى ممن يشير إليهم الصديق فى مقاله ولكن شكي كبير مع الأسف .

وأظن فى هذا القدر الكفاية، ولكن تبقى كلمة أخيرة، هى أنى ما أردت، ولا دار فى خلدى قط، حين أنكرت على نفسى الشاعرية، أن أغرى الناس بإنكار الفضل على ذويه غيرى. ذلك حسد لا أسف إليه، وما عرفتنى حسدت أحداً قط، أو أحجمت عن الإقرار بالفضل والمزية لمن فيهم فضل ولهم مزية، وما شعرت قط بعجز حيال الناس، وإنما شعرت ولا أزال أشعر بالعجز عن بلوغ المثل الأعلى الذى رفعته أمام عينى، وجعلته مطلبى أو مناى، فقعد بى القصور كما قعد بى القصر .

والحمد لله، والشكر للصديق الكريم على ما أثنى ونصح، فإنى أعرفه لا يقول إلا مخلصاً، وليتنى أستطيع أن "أعملها" كما يشير فى ختام مقالة البديع. وما يصدنى قلة الثقة بالنفس، فإن نصيبى من الغرور جزيل، وإنما يصدني بعد الغاية كما أتمثلها، وعدم وفاء الأداة كما تبينت بالتجربة الطويلة. وقد سعيت سعيى على قدر ما وسعنى، والأدب يا أخى شىء عظيم مهول، لا يستخف به إلا أمثال من أشرت إليهم، وما قيمة هؤلاء ؟

وإنه لحسبى عزاء وجزاء أن يكون هذا رأى العقاد فى أخيه الشاكر المخلص .

إبراهيم عبد القادر المازنى

المازنى بعد ٢٠ سنة[1]

بعد عشرين عامًا، إذا أنسأ الله فى الأجل – وعسى أن يفعل – كيف تراني ساكون؟ وأي إنسان أكون؟ ولست أسال عن "الأين" فليس لأهل الأرض غير الأرض، ظاهرها وباطنها في الحياة وبعد الممات، وإنما أسال عن "الكيف" لأن الحياة قائمة عن التطور الدائم، وما من شيء فيها يبقى على حال، أو يثبت فلا يلحقه تغير. حتى الموت الذى نعده نقلة حاسمة نهائية، ليس كذلك، وما هو بحاسم أو نهائى إلا فيما يتعلق بالشخصية الفردية، أى بشعور الإنسان بذاته، وشعور الناس بها. أما الحقيقة فهى أن الفرد ليست له حياة قائمة بذاتها مستقلة عما عداها من مظاهر الحياة الأخرى، وإنما هو قطرة فى بحر الحياة الأعظم، وليس الموت بفناء له، بل هو دخول فى مرحلة جديدة من التطور، على نحو ما تتسرب الموجة وتغيب فى أمواج المحيط الأخرى، أو كما تتبخر القطرة من الماء لتعود فتنزل مع سواها مطرًا، يسقى الأرض وما فيها وعليها، ويعين على إخراج صور شتى من الحياة، فهى دروة إذن وفق قانون سرمدى، وأيين أبدى أزلى، وليس قولنا أننا نموت إلا خطأ مرجعه إلى الشعور بالذات، شعورًا يخيل إلينا ويوهمنا أننا خلق مستقل عن مظاهر الحياة العديدة الأخرى، وأن شأننا غير شأن سوانا، وشبيه به خطأ القول بأن قطرة الماء تموت حين يطويها الخضم أو تتبخر فى الهواء.

* * *

(١) نشرت فى مجلة "الهلال" فى يونيه سنة ١٩٤٧ (ص٥٨، ص٦٠). وقد قدمتها الهلال بهذه التقدمة: "مددنا للأستاذ المازنى فى عمره عشرين عامًا يجرى فيها إلى الأمام، ولكنه أبى إلا أن يتوكأ على عصا. ومع هذا فنحن لا نصدقه، فالمازنى سيظل فياض النبع، ضاحك السن متجددًا مهما امتدت به السنون".

ولا شك عندي في أني سأكون غيري – إنسانًا جديداً كل الجدة لا بعد عشرين عامًا، بل عشرين يومًا، أو عشرين ساعة إذا شئت. وليس في قولي هذا مبالغة، فإن أنسجة الجسم نفسه وخلاياه تتغير، وحركة البلى والتجدد لا تفتر ولا تنقطع، وقديماً أعربت عن هذا في قصيدة منها هذه الأبيات :

إني أراني كبرت، وانتسخت ... مع الصبي سورة من السور

وصرت غيري، فليس يعرفني ... إذا رآني، الشباب ذو الطرر

ولو بدا لي، لبت أنكره ... كأنني لم أكنه، في عمري

كأننا اثنان ليس يجمعنا ... في العيش، إلا تشبث الذكر

مات الفتى المازني، ثم أتى ... من مازن غيره على الأثر[٢]

ومعنى هذا أن الإنسان لا يظل إنسانًا واحداً طول عمره، بل هو أناس عديدون يتعاقبون، وكلما ذهب واحد جاء غيره على الأثر، ولا يبقى على حاله ويثبت، ولا يكاد يلحقه تغيير إلا معدنه الأصلي، فإذا كان معدنه "مازنيًا" مثلاً، فهذا المعدن "المازني" يلازمه على كثرة ما يطرأ عليه من وجوه التغير. مثال ذلك أن شجرة الحنظل لا تنبت ثمر الكمثرى، لأن البذرتين مختلفتان، وقد تطعم شجرة من شجرة، ولكن هذا لا يجنيك إلا ثمرة فيها مشابه من الثمرتين، في الطعم أو الرائحة أو الجسم، ولكن الأصل يبقى، فلا ينقلب البرتقال تفاحًا، ولا الحنظل كمثرى، وإن كان النوع يتحسن ويرتقي .

فأنا إذن سأظل المازني المعهود بفطرته ووراثته واستعداده، ولكني سأتكيف على مقتضى ما تفرضه الأحوال الجديدة، وعلى قدر ما أوتيت من المرونة، لأن من لا يتكيف يعجز لا محالة عن النهوض بالأعباء التي يلقيها عليه تطور الزمن. والقاعدة التي لا شذوذ فيها هي أن يتكيف الخلق أو يبيد. وما دامت حياتنا مستمرة فإن في مقدورنا

(٢) الأبيات بها تغييرات كثيرة، قارن بما سبق وراجع ديوان المازني. ج٣، ص٢٤٤ .

أن نتكيف إلى حد ما، وهي قدرة تقل مع تضعضع القوى، وانهداد الكيان واليبس، وقلتها تنذر بوشك الرحيل. وهل الشيخوخة إلا هذا اليبس؟ وهل الشباب إلا المرونة أو القدرة على سرعة التجدد ؟

فأنا سأزداد يبسًا على الأيام، وإن كنت سأظل أكافح لأحتفظ بقدر كاف من المرونة اللازمة، ولكن المصير محتوم، فإنه لا حكمة على الإطلاق في خلق إنسان خالد لا يدركه فناء. إذ كان مؤدى هذا تعطيل قوانين الحياة كلها، وأن يمنى الوجود بالجمود، ويقضي عليه به. وما الحاجة إلى قانون أو قوانين للحياة إذا كان الناس خالدين في الأرض؟ وماذا يصنعون، ولأى شيء يسعون، أو ماذا يغريهم بالسعى وقد ضمنوا البقاء إلى آخر الأبد إن كان له آخر؟ وما دام للوجود قوانين، فإن عملها يقتضي هذا الذي نعده فناء والذى هو في الحقيقة تطور لا أكثر. وقد تخفى علينا الحكمة الكبرى من وراء هذا كله، ولكن هذا ليس بالسر الوحيد الذى أعيا عقولنا القاصرة إلى الآن .

* * *

وستكون الدنيا بعد عشرين سنة غير هذه الدنيا التي ألفناها، وتكون العادات والأخلاق والآداب والمقاييس والمذاهب وأساليب التفكير قد تطورت كثيرًا أو قليلاً - كثيرًا على الأرجح فإن الخطوات سريعة في هذا العصر عصر الطائرة والراديو وما إليهما - وسيشق على الكثيرين أن يسايروا هذا التطور السريع ويتكيفوا على مقتضاه بمثل سرعته، والشيوخ أعجز عن ذلك من الشبان، غير أن المسألة مع ذلك ليست مسألة شيخوخة وشباب، وإن كان هذان عاملين لا يجوز إسقاطهما من الحساب، وإنما هي قبل كل شيء مسألة مرونة نفسية، قد يظل الشيخ الهرم الهم، محتفظًا بها على الرغم من تداعي بنيانه، ولا يرزقها الفتى ذو الرخاصة والغضوضة .

وأعتقد أنى سأحتفظ بقدر كاف جدًا من مرونة العقل والنفس، وإن فقدت مرونة البدن، وسأظل قادرًا على مسايرة الزمن، بل أستطيع أن أقول، في غير اغترار، أنى سأكون قادرًا لا على مسايرته فحسب، بل سبقه أيضًا بعقلي ونفسي وبالتمنى وأحلام اليقظة،

ولكنى سأعجز لا محالة عن ركوب تيار الحياة كما أركبه الآن، فلن ترانى يومئذ أنهز بدلوى أو أسوم بسرح لهو، وأنى لى أن أفعل ذلك، واليبس يقعد بى، ويحطنى، ويصدنى، ولا أسف على فقدان القدرة يومئذ على مواقعة الحياة فإنا لا نفقد بذلك شيئًا جوهريًا لا عوض عنه. وأخلق بحياة النفس والعقل أن تصبح أفتن للقلب وأسحر للب، ومن فضل الشيخوخة أنها تعين المرء على تصفية الجوهر من الأخلاط، ووزن الأمور بميزان صحيح دقيق، وتهذيب المطالب والغايات، وتنقيتها كما تنقى الحنطة وتعزل عنها الغث والمدر والزوان. وتلك مزية الشيخوخة الناضجة ولا شك لم يحرمها الشباب، ولا أوتيها كل شيخ، ولكنى لا أرتاب في أني سأكون من الشيوخ الذين رزقوا نعمتها، وأوتوا فضلها بمنه تعالى .

كلا، لا أسف على الارتفاع عن الشباب والدخول فى الهرم، فإن ضعف البدن يعوضه قوة العقل واطراد نموه، والطبيعة لا تهب المزايا جزافًا، ولا تسرف فى العطاء. ومن عدل الطبيعة أنها تزيد فى عقولنا بقدر ما تنقص من أجسامنا، أو تهد من قوى أبداننا، وصحيح أن الحياة تبنينا ثم تعود فتهدمنا ولكنها ليست فى هذا عابثة، فما تهدم إلا ما تراه قد أصبح غير صالح للبقاء لسبب هى أدرى به. ثم هى بعد ذلك تأخذ منه وتبنى به سواه، فلا يذهب شىء هباء .

إبراهيم عبد القادر المازنى

عندما قرصت أذن الحمار ![1]

ذهبت مرة – في بعض السنين الخوالي – أصطاف في لبنان مع أهلي، أو أستريح على الأصح، وكان المرحوم عبد القادر حمزة باشا هو الذي أشار عليَّ بذلك، وحضني عليه، فقد كنت بادي الإعياء، وكان تلف أعصابي قد بلغ مبلغًا يؤذن بالانهيار، فلا صبر لي على ضجة، ولا حلم لي مع الناس، ولا استقرار في مكان، وكنت أدخل عليه – رحمه الله – لخاطر يخطر لي، حتى إذا بلغت مكتبه نسيت ما جئت له، فأنصرف بالكلام، فينتظر لحظة ثم يدخل عليَّ في غرفتي، ويشغلني بحديثة الطلي حتى يراني هدأت وسكنت، فيخرج فتفيض نفسي بالشكر له .

على أن خيراً من هذا الوصف الذي لا يصف شيئًا : أن أروي حادثتين : أما الأولى فهي أنه كان على مكتبي بالبلاغ جهاز التليفون، وكنت، كما أسلفت، قد تحلل بي كلال الأعصاب، ودق جرس التليفون وأنا أكتب، فانزعجت واضطربت من هذه المفاجأة – وهل كان عليه أن ينذرنا بأنه سيدق؟ فما كان مني إلا أن تناولت التليفون وضربت به الأرض فتحطم وانقطع حبلة، ونهضت وذهبت إلى عبد القادر باشا، لا لأعتذر كما هو الواجب بل لأصيح: "من قال لكم أني أريد تليفونًا على مكتبي؟" .

والحادثة الثانية أدهى وأمر : تسلمت في صباح يوم سيارة قديمة – أو نص عمر كما يقولون – اشتريتها، وأصلحتها ودهنتها، فعادت كالجديدة ذات لألأ، ومضيت فرحًا بها إلى البلاغ، وتركتها إلى جانب الرصيف، وأنا مطمئن، وشاء الحظ أن تقبل "عربة كارو" على هذا الطريق يجرها حمار، وأن يترك صاحبها حمارة يسير على هواه، وماذا تنتظر من حمار إلا أن يكون حمارًا؟ وأبى هذا الحمار إلا أن يحك بعربته سيارتي،

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٥ يوليه سنة ١٩٤٧ (ص١٢) .

فيخدشها ويجرحها، ويمزق جانبها، ويشوه منظرها تشويهًا شديداً، وكنت لسوء الحظ أطل من النافذة، فرأيت ما حدث، فطار عقلي! لا لأن السيارة أنيقة، أو غالية الثمن، فما كان أرخص السيارات يومئذ! بل لأن من يزعم أنه إنسان في رأسه عقل، يترك حمارًا يسير في الطريق "بعربة" كما يشتهي !

وأسرعت فنزلت إلى مكان الحادثة، وأنا أتلهب سخطًا، فلم أجد غير الحمار دون صاحبه الذي اختفى عامداً على ما يظهر بعد أن رأى ما جر إليه إهماله، ولكني لم أستطع كبح غضبي، فوقفت أمام الحمار أوبخه وأقرص أذنه، وأدير له وجهه ليرى سوء ما صنع، كأنما يمكن أن يفقه شيئًا مما أقول !

والمصيبة أن عبد القادر باشا كان يطل أيضًا من النافذة فرآني وسمعني وأنا أؤنب الحمار وأعظه، وقد لجمته، فرحت أزعق وأشرح له ما حدث وهو لا يزيد على هز الرأس. ولكنه كان ولا شك يضحك في سره، فقد كان أقدر من عرفت على ضبط نفسه، والسيطرة على أعصابه .

* * *

ذهبت إذن إلى لبنان، ومعي الأسرة كلها، لأني كنت أحوج ما أكون إلى رعايتها، وآثرت العزلة والانزواء في البداية، على قدر ما يتيسر ذلك، واتفق أن كان الأستاذ محمد عبد الوهاب يقضي شهور الصيف في عالية، إذا كانت الذاكرة لم تخني، وأنا لا أعرف لانزوائي وكفي عن قراءة الصحف، وسمع هو بوجودي في "بكفيا" أو قرأ الخبر، فتفضل وزارني ومعه شاعر لبنان الأخطل الصغير كما يؤثر أن يسمي نفسه تواضعًا. وبينما هما عندي، دعاني ابن صاحب البيت الذي استأجرته ورجا مني وهو يلهث – كأنما كان في سباق – أن أسمح له برؤية "عبد الوهاب" ففعلت. فلجس يحدق في وجهه ويتثره النظر دون أن يطرف، كأنما يشهد معجزة. ولما انصرف الضيفان الكريمان وجدنا السيارة غاصة بالزهر مما قطف المعجبون، والطريق على جانبيه الناس يتزاحمون ويتدافعون، ليروا "عبد الوهاب". وقد فرحت بذلك، ورجوت – في سري – أن يعتقد عبد الوهاب والأخطل الصغير، أني صاحب الفضل في تنظيم هذه "المظاهرة" لتكريمهما وإدخال السرور على نفسيهما .

وكنت مغموراً لا يعرفنى أحد فى "بكفيا"، أمر بالناس فلا يعبأ بى أحد، وأحيى من عرفت من أهلها، فيرد التحية رداً جميلاً، ولا يزيد. أما بعد أن زرانى "عبد الوهاب" فقد صرت شيئًا عظيمًا!.. وصار الناس يفقون لى حين أمر بهم ويبدأوننى بالسلام والتحية وأنا أولى بذلك، ويدعوننى إلى بيوتهم ويحتفون بى، ويتذكر هذا أو ذاك أنه قرأ لى كتاب كذا أو كذا، ويعرب عن إعجابه ويثنى أطيب الثناء ولا عجب، فقد ظهر، وثبت للعيان لا بالسماع، أن المازنى رجل له قيمة، وإلا لما تكلف عبد الوهاب أن يزوره !..

وأضجرتنى هذه الشهرة المفاجئة، لأنها أخرجتنى من عزلتى، وصرت أهرب من الضيعة إلى حيث لا يعرفنى أحد، فقصدت مرة إلى مكان اسمه "الدلب" – وهو اسم شجر – على مسافة ساعة من "بكفيا" ورأينا مقهى ظليلاً جميلاً فأوينا إليه، وانتوينا أن نقضى النهار كله فيه، وما كدنا نستريح حتى أقبل صاحب المقهى وحيانا وسألنى: "ألست المازنى" .

قلت : "نعم لسوء الحظ، وأرجو أن لا يثقل عليك أو يسوءك أنى هو بطوله وعرضه، أو بقصره ونحافته" .

فترك هذا وقال : "لقد سمعنا بزيارة عبد الوهاب لك" .

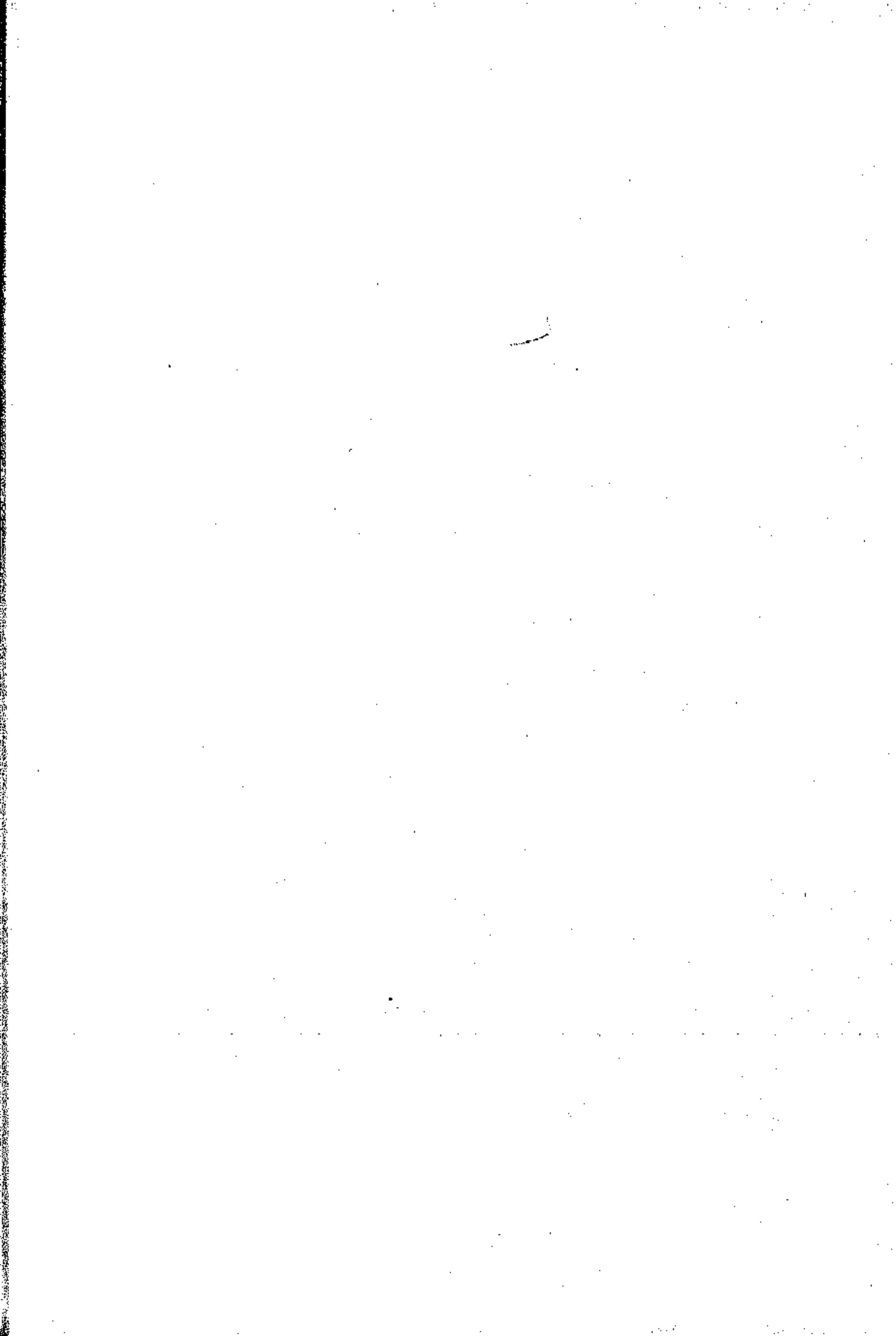
فقلت فى سرى : "عبد الوهاب خلفى وقدامى، وعن يمينى وشمالى، هذه مصيبة!.. إلى أين أهرب منه ؟..

وآثرت الإياب بسرعة، فأبى الرجل الكريم كل الإباء أن يأخذ منا مليمًا من ثمن القهوة أو غيرها، ولم يطل مقامى فى لبنان إلا نحو شهرين، فقد سخط علىّ الفرنسيون سخطًا شديداً، فاضطررت إلى العود إلى مصر فجأة .

* * *

"هذه قصة أسوقها إلى الصديق الأستاذ كامل الشناوى على ذكر ما كتبه فى "آخر ساعة" عن كبار الكتاب .

إبراهيم عبد القادر المازنى



صبر أيوب ![1]

يحتاج الإنسان في هذا الزمان إلى مثل صبر أيوب، وإلى أضعاف أضعاف ما أثر عنه إذا كان من سكان القاهرة. وعلى ذكر أيوب أقول أنه عربي لا عبري، وإنه شاعر أيضًا ويزعم فكتور هيجو أن موسى عليه السلام ترجم شعره ويقول: "ناهيك بأيوب من شاعر. وبموسى من مترجم!" على أنى أشك في صحة هذا، أى أن موسى ترجم شعر أيوب، وهذا كله من التاريخ الضائع. حتى إن فرويد - وهو عالم يهودى - يرجح أن موسى كان مصريًا أميرًا أو حاكمًا - اتخذ اليهود شعبًا له بعد الردة التى حصلت بمصر عقب وفاة إخناتون، ويزعم فرويد أيضًا أن اليهود قتلوا موسى بعد الخروج من مصر.. الخ" .

وأعتقد أن الله أكرم من أن يعاقب القاهرى المفطر في رمضان، وليست هذه فتوى، ولكن هى شكوى، وأستغفر الله إذا كنت مخطئًا، وهل يكون مخطئًا من يؤمن برحمة الله ؟..

وقاهرتنا هذه قاهرتان : إحداهما - وشرهما - لنا نحن المصريين أهل البلاد المساكين، والأخرى لغيرنا ولمن استطاعوا منا أن يسلكوا أنفسهم مع "غيرنا" وهذه القاهرة الثانية مبعثرة الأحياء، وكلها مما يطاق العيش فيه على الرغم من الضيق والكظة، أما قاهرتنا نحن المصريين فالعياذ بالله منها!.. فإنها شيء يعجز العقل عن تصور المحنة به. لأنه لا يبقى في رأس ساكنها عقل .

وإليك بعض الخطوط الرئيسية لصورة الحياة فيما ألفنا أن نسميه "الأحياء الوطنية" - وهو اسم ثقيل بغيض يفيد معنى الذلة والتحقير - وعلى القارئ أن يكمل الصورة، وما أسهل ذلك وأقل حاجته إلى البراعة فيه !..

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٢٦ يوليه سنة ١٩٤٧ (ص٤) .

فأنا مثلا أقيم في شارع من أوسع شوارع القاهرة – بل القاهرتين جميعًا – وأحدثها، ولكنه يشق حيًا وطنيًا، فهو من أقذر الشوارع وأكثرها ترابًا وإن كان مفروشًا بالأسفلت، وأعظمها ضجة وأشدها ضوضاء، وعلى جانبيه الشجر، ولكنه شجر من الضرب الذى جاء به عهد الاحتلال والسيطرة البريطانية، [يُقلم] في الصيف حين يشتد الحر وتحمي الشمس ويحتاج السائر إلى الظل، ويكثف ورقه، وتنتهى أغصانه في الطول، ويخرج زهره ونواره فى الشتاء حين يستحب المشى فى الشمس .

وطول هذا الشارع ألفا متر، فهل تدرى كم مقهى فيه؟ مائتان وعشرون – عددتها واحدًا واحدًا – وقل ما شئت في عدد الدكاكين، فإنه لا خوف من الغلط ولا بأس الدكاكين، فإنها تيسر قضاء الحاجات، ولكن البلاء، والداء العياء، أن فى كثير من هذه الدكاكين، وفى المقاهى جميعًا، أجهزة للراديو، فإذا أضفت إلى هذه ما فى البيوت – أو الشقق – من أجهزة الراديو وأن هذه الأجهزة كلها – بلا استثناء تقريبًا – يرفع الصوت فيها إلى آخر مداه، نهارًا وليلاً فإن فى وسعك أن تتصور الضجة العظمى التى يمتاز بها هذا الشارع الحديث !

ولكن الأمر لا يقتصر على هذا – فإن بعض الدكاكين متخذ "ورشًا" لإصلاح السيارات وما إليها، على طول الطريق، والطقطقة فيها تطير العقل، أو على الأقل تورث الصداع الذى لا يشفى منه أو يلطفه عشرة أقراص من الأسبرين .

وشر من ذلك احتفال بعض الدكاكين برمضان المعظم، أو اغتنام فرصته للإعلان! أو تصور عشرة دكاكين متقاربة، فى كل واحد منها مقرئ يتلو آيات الكتاب الحكيم، وأنعم بهذا، ولكن التلاوة لا تجوز – على ما يظهر – إلا إذا كان هناك مكبر للصوت يسمع الصم – عشرة دكاكين متقاربة فيها عشرة مكبرات للصوت، تذيع القرآن الكريم "محليًا" وتتنافس وتتبارى فى إسماع خلق الله جميعًا أرادوا أم لم يريدوا – ولا شك أن الناس جميعًا يودون أن يسمعوا كلام الله، ولكن كيف بالله يستطيعون أن يتبينوا شيئًا، وهم يسمعون أصواتًا مختلطة بسور مختلفة فكأنهم فى ميدان العلمين حين بلغت المعركة غاية الشدة فى القذف والقصف ؟

وقبل أن يذاع شيء نسمع أمثال هذه العبارة: "اللو! اللو! هنا محل فلان الحلواني المشهور (أو البقال أو غيرهما) وهو مستعد لتوريد أصناف الحلوى من كذا وكذا (أو اللحم أو البقالة إلخ) بأسعار متهاودة لا تزاحم وتوصيلها للمنازل مجانًا، وسيذاع عليكم من محله الآن.... أما الميكروفون فتركيب وتجهيز محل كيت بشارع كذا رقم...) .

القرآن يتخذ أداة للإعلان، ولإزعاج الناس وإقلاق راحتهم، فيا له من ابتذال لكلام الله! ولو كان في الإذاعة فائدة لأغضينا عن الشر والأذى من أجل الخير الذي يجنى !

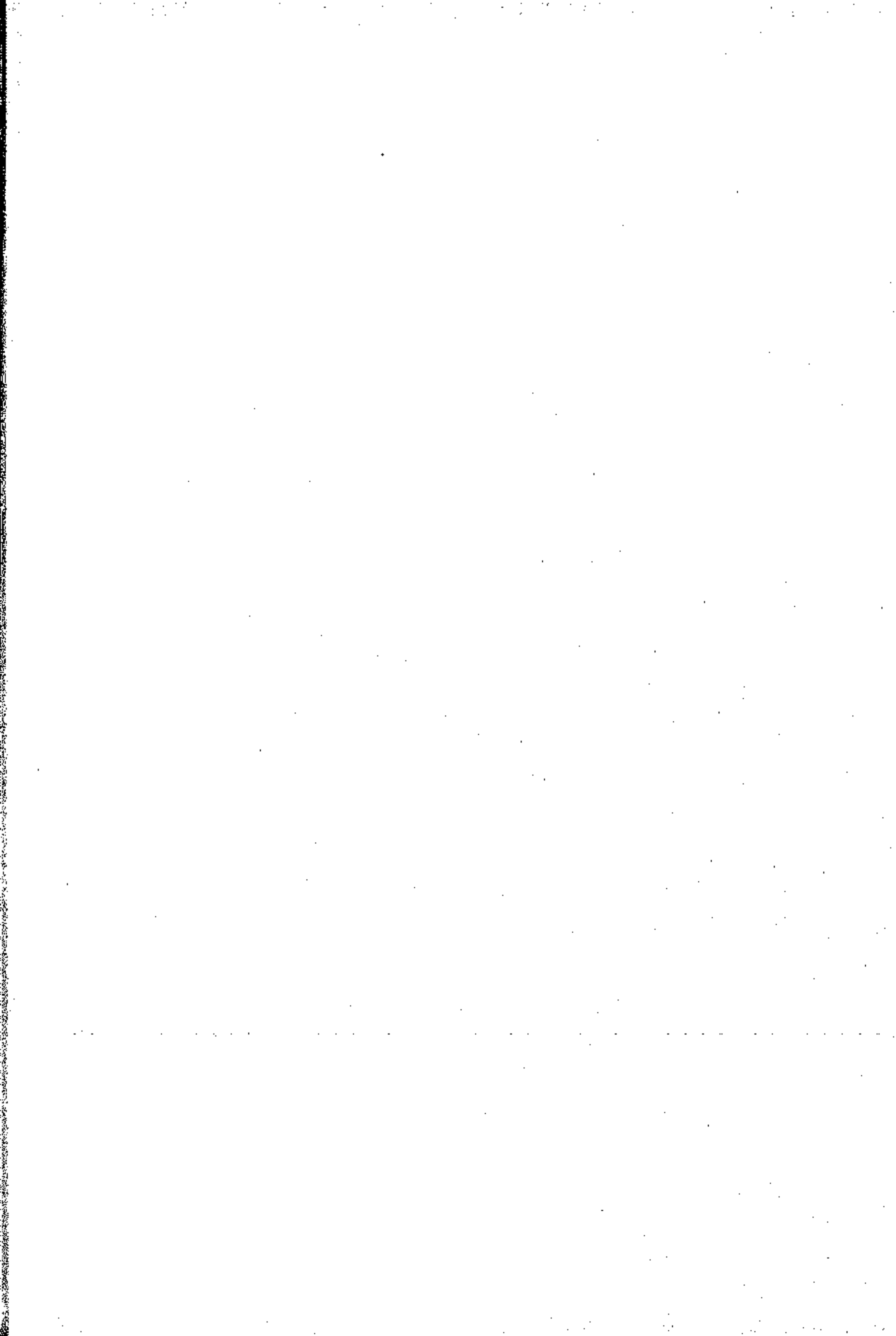
وحتى هذا كله لا يكفي، فإن بعض الدكاكين يؤجر الموتوسيكلات (أو الطعطعانات كما يسميها أهل نجد حكاية لصوتها) للشبان بالساعة فيركبونها أربعة أربعة ويقطعون بها الشارع المسكين جيئة وذهوبًا ألف مرة (وكم مرة تقطع كيلومترين في ساعة؟ ولا تنسى عدد الموتوسيكلات) وهم يطعطعون أو يقعقعون – كما تشاء – فرحين بما يصنعون، مباهين بالسرعة وشدة القعقعة، ومن لم يعجبه هذا فلينفلق !

فإذا كان هذا حال شارع عظيم حديث، فما ظنك بما هو دونه ؟

وإني لأسأل سؤالين اثنين ليس إلا: أليس في هذا البلد حكومة؟ ومتى يفهم الناس أن لبعضهم على بعض حقوقًا ترعى، وأن الدنيا ليست فوضى ؟

ومما يعزيني – أنا على الأقل – أن هذه الضجات تحول دون الكلام – أي دون المطالب – لأن الكلام لا يتيسر إلا بعد السحور، وحينئذ أكون نائمًا !

إبراهيم عبد القادر المازني



الفشر![1]

الفشر – أو الفيش، أو النفج، أو.. بلغة المتحذلقين الذين لا يريدون أن تكون اللغة أداة مرنة، أو كائنًا حيًا، لا نعشا لألفاظ ميتة يتعب الناس حملها، وحقها الدس في التراب – هو تحديث الناس بما يظن المرء أنه أبعث على الإعجاب به، وأدعى إلى حسن الرأي فيه، أو التمدح بالباطل، أو بأكثر مما عنده. فهو ضرب من الكذب، يقوم، في الأكثر، على المبالغة أو التوسع في القول بغير ضابط، أو الإسراف في التخيل .

والفشار يجد أو يهزل. فإمّا ما يكون منه هزلا فالغرض القريب منه إدخال السرور على النفوس، وشرح الصدور، وإضحاك السن، أي التسلية. غير أن الفشار الذي يضحك الناس بما يقص عليهم، ويروي لهم، إنما يدفعه إلى ذلك أنه يريد – وهو مدرك أو غير مدرك للغاية التي ينشدها – أن يكون خفيفا على القلوب، محببا إلى النفوس، لينعم بفضل ذلك بما يتطلع إليه ويرغب فيه من الإقبال عليه والاستئناس به، أو من المنافع المادية التي يمكن أن يفوز بها تبعا لذلك .

غير أن كل شيء في حياة الإنسان وسيرته سرعان ما يصبح عادة، وأخلق بالفشار الذي يبدأ مازحًا أن ينقلب جادًا. أذكر أنه كان في حي الإمام الشافعي – وكان بيتي يومئذ قريبًا منه أو على مشارفه – قزم قميء طوله ثلاثة أشبار زدها شبرًا أو أنقصها شبرًا، فلن يزيد هو أن ينقص شيئًا، ورأسه كالبطيخة الكبيرة، فوجهه وجه رجل تام الخلق وجسمه لا زيادة في ألواحه وعظامه على ما في طفل صغير. ولا أدري أحي هو أم ذهب في سبيل من غبر، فما رأيته منذ أكثر من عشر سنين. وكان يقف عند نهاية خط الترام يستقبل الوافدين للصلاة في المسجد أو الاستحمام في "عين الصيرة"

---

(١) نشرت في مجلة "الهلال" في أغسطس سنة ١٩٤٧ (ص٢٥ – ص٢٧) .

أو زيارة المقابر، ويرحب بهم، ويزعم أنه يفسح الطريق لهم، أو يدلهم على طريقهم إلى مبتغاهم، ويدعو لهم، ولكنه ما كان يسألهم شيئًا، ترفعًا عن الاستجداء، فإذا جادوا عليه بقرش أو ملاليم أظهر التمنع ثم قبل مع الاعتراض والتأفف. وكان فشارا مستظرفا يؤنسنا ويرفه عنا بمبالغاته وتمثيله، فيروى مثلا أنه صفع فلانا - من العمالقة بالقياس إليه - علقة تركته مرضوضا مهيضا، ويمثل لنا كيف فعل ذلك، فينط ويضرب برأسه فى الهواء، فيقع على الأرض فنضحك، وينهض لإتمام التمثيل، فيدفع بيديه ورجليه كحركة من يلكم أو يركل، ويسمعنا ما يزعم أنه أسمعه من الكلام المقذع، فنحمل كل ذلك منه على محمله، ونتسلى به. وكان بعضنا يكايده ويعابثه. فيتقبل ذلك بصدر رحب. غير أنه على الأيام أصبح يؤمن بفشره، ويغضب ويثور، إذا أظهر الناس الشك أو فثقلت وطأة فشره على النفوس .

وهذه هى الآفة، فإن الفشر يقبل ويستملح إذا كان على سبيل المزاح والتلهى ساعة، أما إذا كان الفشار جاداً، وكان يتوقع من الناس التصديق أو التظاهر به على الأقل، فإن هذا لا يكاد يطاق إلا بعناء وجهد .

ولست أحب أن أقول أن الفشر فى الطباع، وأوثر أن أتحرز فأقول أنه مما تسوق إليه الطباع، وإن كنت - والحق يقال - لا أدرى ما الفرق فى النهاية بين القولين، بل إنى لا أعرف شيئًا يغرى به الإنسان ولا يكون مما تسوق إليه الطباع، وتحمل عليه، ولكنى أظن أنى أعنى أنه ثمرة شعور - جلى أو غامض - بنقص ما. فالمرأة الجميلة حقا لا تشعر أن بها حاجة إلى التحدث بمن افتتنوا بحسنها وشغفتهم حبا، لأنها تعرف أن لها حسنا، لا يكابر فيه أحد بخلاف، أما الدميمة فإن شعورها بالنقص - وأى نقص؟ إنه سلاح المرأة الأمضى - يدفعها إلى تعويضه، فتقبل على العلم مثلا تتزود منه، أو على الأدب أو الفنون أو أعمال الخير والبر وما يجرى هذا المجرى، لتكون لها مزية تعوض إلى حد ما، ما حرمته. وأقول "إلى حد ما" لأنه لا شيء - بالغا ما بلغ - يعوض مزية الجمال. ومن أجل هذا يندر أن تجد امرأة دميمة غير فشارة ولو بقدر وحساب، لتوقع فى روع السامع أنها - على دمامتها التى لا تعترف بها طبعا،

إلا في فلتات مفردة - محل التقدير والإعجاب. وقد تكون جديرة بالتقدير، وأهلا للإعجاب. ولكنها هي لا يعنيها التقدير والإعجاب بعقلك، وإنما همها أن تقنعك بأنها واجدة هذين من الرجال بقلوبهم، أي أن الرجال يحبونها ويصغون بقلوبهم إليها لأنها امرأة، لا لأنها عالمة أو أديبة أو فنانة أو غير ذلك، وإن كان هذا يسرها أيضاً .

وما يقال عن النساء يقال مثله عن الرجال. فلن ترى فشارا إلا وهو يفشر لنقص يشعر به في نفسه. وليس الفشر إلا ستارا رقيقا جدا يشف عما وراءه من النقص الذي يراد حجبه .

كنا مرة في فلسطين، فحدث أن خرجنا عند منتصف الليل من فندق الملك داود، فأطلق علينا شاب رصاصات لم تصبنا، لأن بعضنا انطرح على الأرض، والبعض لاذ بعمود، إلى آخره، واختفى المعتدي، فبحث بعضنا عن بعض واجتمعنا، وكان أحدنا - رحمه الله فقد قتل بعد ذلك في مدينة أخرى - قد ارتمى على الأرض "ليصغر الهدف" كما يقول العسكريون فأصابت راحتيه من الحصى خدوش، أرانا إياها وعرضها علينا وزعم - حتى في محضر التحقيق الرسمي - أنها من رصاصتين أصابت كل واحدة منهما بطن كف! أما كيف يمكن أن تصاب جلدة بطن الكفين من رصاصات تمر بالكفين وهما مفتوحتان، محاذية لسطحيهما لا مسددة إليهما، فذلك ما لم أستطع أن أتصوره إلى الآن. ولم تكن بصاحبنا هذا رحمة الله حاجة إلى هذا الفشر، فقد كان رجلا رشيدا كريما واسع المروءة رضي الأخلاق محبوبا من إخوانه، ولكنه كان يعرف، كما نعرف، أنه بغيض إلى كثيرين ممن يسخطون على سيرته العامة، ولم نكن نحن منهم فقد كنا نحبه ونقدر وجهة نظره، وقد اعتدى عليه قبل ذلك، مرات، وأصيب في مقتل. وقد عللت فشره بأنه أراد أن يزيد عطفنا عليه، ومناصرتنا له، وأن يحملنا على الإعجاب بشجاعته وثبات جنانه ورباطة جأشه وهو معرض للقتل في كل يوم .

ولا ضير من الفشر إذا اقتصر أمره على الفشار ولم يتجاوزه إلى سواه من الناس. أي إذا كان الفشار لا يتناول إلا ما يدعيه هو لنفسه وينحلها إياه من المحامد والمناقب والصفات وما إلى ذلك. ولكن الفشر الثقيل البغيض المستنكر هو الذي يتناول

الغير بما يؤذيهم ويغض منهم ويسئ إليهم. وقد لا يكون الفشار متعمدا لذلك، ولا يكون غرضه إلا التمدح، والمفاخرة بغير الحق. ولكن الفشار يذكر أناسا آخرين، ويعزو إليهم أقوالا أو أعمالا إذا صحت كان فيها غض شديد من أقدارهم، وتلك إساءة بينة، بلا موجب أو مسوغ. وشر ما فيها أنه لا سبيل إلى دفع مثل هذا الأذى، لأن من يؤذى به لا يدرى أنه أوذى في سمعته عند الناس. وأجبن الجبن أن تضرب من لا يملك دفاعاً، وليس يشفع لك أنك تضرب وأنت لا تدرى أنك تفعل ذلك .

وليس فى الدنيا إنسان لا يفشر أحيانا، ومن زعم غير ذلك فهو "فشار" بل أفشر الفشارين .

إبراهيم عبد القادر المازني

عيب واحد .. فى الجيل الحاضر ![1]

ليس فى الجيل الحاضر من عيب سوى هذه البقية المتخلفة من جيل مضى وانقضى، وكان حق الزمان – لو أنصف – أن يحملها معه، فما لها غناء إلا يوم إحصاء، وما فيها خير لأنها فساد .

كان لنا معلم للغة العربية من آحاد ذلك الجيل القديم، وكنا نحن الطلبة من أشياع "مصطفى كامل" الزعيم الوطنى الشاب، فكان معلمنا، غفر الله له، أو ما شاء فليصنع به، يأبى إلا أن يزودنا بنصحه الغالى! فكان إذا فرغ من الدرس – وما أوجز ذلك! – يشير إلى بعضنا فيغلقون النوافذ، ثم ينثنى يحدثنا عن عهد إسماعيل ويصف لنا ما كان فيه من جور وظلم واستبداد واستبعاد، وكيف أن الإنجليز – بارك الله فيهم ومد فى عهدهم! (ذلك كان دعاؤه) أنقذوا مصر من ذلك العهد الباغى الطاغى وما جره على البلاد من فساد وانحطاط، ثم يستطرد إلى ذكر مصطفى كامل فيقول إنه شاب مخدوع، ولو قد كان شهد ذلك العصر المظلم!! ولكنه لم يشهده فله عذر الغرير الذى لم يجرب، ولم يعرف غير النعمة التى هو فيها فأبطرته – نعمة العدل والحرية والمساواة والأمن على الأرواح والأموال. وهل كان يجرؤ لو كان الزمن تقدم به أن يقول فى ظلم ذلك العصر ما يقوله فى الإنجليز اليوم؟ إذن لسجن وذاق من العذاب أغلظه، أو ألقى به فى النيل ليلا، وعلى قلبه حجر! فاتقوا الله فى أنفسكم وبلادكم يا بنى، وارشدوا، ولا تتبعوا كل ناعق! إلخ إلخ ..

ولم يكن الغريب أن يبذل لنا هذه النصيحة، فقد ألفنا ذلك منه، وكان يحلو لنا أن نستدرجه إلى مثل هذا الكلام، ونجادله فيه، ولكن الغريب أنه كان يغلق النوافذ ليوهمنا

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٩ أغسطس سنة ١٩٤٧ (ص١٢) .

أنه يخشى – أو لا يحب – أن يسمع الإنجليز (الذين يتولون أمر المدرسة والتعليم فيها) ما يحدثنا به، وفي ظنه أن عمله هذا يجعل وقع كلامه أعمق. فيا ما كان أشد نفاقه وتضليله !

* * *

وبعد سنوات من تعليم صاحبنا هذا الذى لم يثمر قط، صرت معلما، فاتفق يومًا – في آخر عهدى بالتعليم في وزارة المعارف – أن قصدت إلى مدرسة دار العلوم، وكنت معلمًا بها، فألفيت ناظرها – وهو مصرى – على بابها، فاستقبلني بالاحتجاج على تأخرى، فاستغربت وبينت له أنه لا يزال على موعد دروسى نصف ساعة. فصاح :

"من قال أننا نريد منك اليوم دروسًا؟ إن جناب المستشار يطلبك! وقد بعثت إليك رسولا فكيف لم تعلم ؟"

فطمأنته وطيبت خاطره، وقلت: "إني سأذهب إلي الوزارة بعد الفراغ من دروسى"

فكأنما ألقيت على النار حطبا، فقد جعل يصيح – على الباب وأمام المارة : "يا خبر أسود! وجناب المستشار ينتظر سعادتك حتى تفرغ! أما مصيبة! هل تريد أن تخرب بيوتنا؟.. رح إليه حالا!.. الآن!.. "

فركبنى عفريت الشباب المتمرد، وكنت أكره هذا الناظر ولا أحترمه – فأبيت أن أذهب إلا إذا أعطانى أمرًا كتابياً باعفائي من التدريس في ذلك اليوم!.. فكاد يجن، ولكنه اضطر أن يعطينى ما طلبت. وقصدت إلى الوزارة فإذا على رأس السلم طائفة من كبار الموظفين المصريين لا أسميهم لأنى لا أقصد التشهير بأحد، فجعلوا يشيرون إلى كالمجانين، ويأمروننى أن أجرى، وكيف بالله كان يستطيع أن يجرى من كسرت ساقه ولم يبرح بيته إلا منذ أسبوع؟.. وقابلت المستشار، ومعه كبار الإنجليز، وسألنى عما أراد فجاوبته، وانصرفت وأنا أستغرب وأتساءل عن ذلك الغول الذى يرعب كل هؤلاء الرجال، أين هو؟.. ولاحظت وأنا منصرف أن رؤوسًا أو وجوها تطل من الأبواب المواربة، ولا شك أنه أذهلهم أن يروا مدرسًا صغيرًا يدعى لمقابلة المستشار، فقلت استريح

– وقد أعفيت من العمل – عند زميل لي في الديوان، فسألني عن السر في دعوتي فأخبرته أني كنت أدرس اللغة العربية لطائفة من المدرسين الإنجليز، ثم رأيت أن هذا عناء فاستقلت من هذا التكليف، وشاء المستشار أن يسألني عن رأيي في أحد هؤلاء الإنجليز فأديت الشهادة بالحق، وقلت إنه لا أمل لهذا الإنجليزي في تعلم العربية، فضحك زميلي وقال: "طول عمري حمار!.. ألم تدرك أن المراد ترقية هذا المدرس مفتشاً، وأن شهادتك قد تعطل ترقيته؟.."

فقلت : "وما ذنبي أنا إذا كان هو حماراً؟!.. ثم من أكون أنا وما قيمة شهادتي، وكيف تعطل الترقية إذا أرادوها؟"

فقال زميلي بارك الله فيه: "على كل حال لقد فعلت الواجب.. وملعون أبوهم!.." .

فشرحت صدري هذه "اللعنة" بقدر ما أمضني وألعجني سلوك الكبار من المصريين في الوزارة، وليس معنى هذا أن كل الكبار كانوا كذلك، فقد كان هناك نفر قليل جداً من الأباة – مثل عاطف بركات "باشا" – لم يكن يسع الإنجليز إلا الاحترام .

هؤلاء شبوا وترعرعوا، وشابوا تحت أقدام الإنجليز، أيام كان المستشار هو الحاكم بأمره، والوزير "طرطوراً" كل عمله أن "يبصم" وأيام كان الوزراء يختارون "بالوزن"، فأضخمهم جثة وأثقلهم وزناً أصلحهم لرياسة الوزارة، وهكذا، وأيام كان الذي تفوته الوزارة، يعتقد أن "العميد" البريطاني بقصر الدوبارة، غير راض عنه، فيتجرع السم لينتحر لأنه فقد الرضا لا المنصب، وليس في قولي هذا مبالغة، فقد انتحر بعضهم وأسعف فلم يمت – سيان – فرثى له كتشنر وأراد تعيينه وزيراً فاحتال الخديو على الرفض في حكاية طويلة ليس هذا مكانها، فكانت أزمة !..

* * *

واليوم كيف ترى جيل مصر الحاضر؟ إنه الجيل الذي لم يزل منذ سنة ١٩١٩ في ثورة لا تهدأ، والذي لا يحني رأسه لإنجليزي، ولا يخشى غضبه، ولا يبالي برضاه. والذي أغنى حكومة مصر عن المستشارين والخبراء الأجانب، في معظم الأبواب، ورفع

رأس بلاده في كل مؤتمر دولي، والذى يقبل على الغمار الحر يخوضه واثقا بنفسه مطمئنا إلى قدرته، مزحزحا من استولوا على مصالح مصر فى غفلة الزمان، والذى ينازل بريطانيا الآن فى مجلس الأمن بسلاح أمضى من سلاحها، ويقارعها بحجة أنهض من حجتها فمن هذا الذى يقول أن الجيل الحاضر دون الجيل الماضى ؟

وقد يشفق بعضنا حين يتأمل ما يبدو له من "خفة" الجيل الناشئ الذى لا يزال فى دور التحصيل، وقلة تقديره لتبعات، ولكن هذا سببه القلق والاضطراب اللذان جرهما على البلاد طول النزاع بيننا وبين بريطانيا، وعدم استقرار أمورنا على حد نسكن إليه، ويتسنى لنا معه أن ننصرف جادين إلى علاج شئوننا وإصلاح أحوالنا. ولست أخشى على هذا الجيل الطالع، فإنه ينشأ فى عصر تقرر فيه التجنيد الإجبارى، وسيحتاج فيه كل شاب إلى حظ وافر من جرأة القلب، وصلابة العود، وصحة العزم، والثقة بالنفس، ووفرة العلم، لأن الكفاح في سبيل الحياة أصبح أعسر، ولم تعد مطالب العيش هينة قريبة المنال كما كانت قبل ربع قرن. وأخلق بصعوبة الكفاح وبالجندية أن تخلق من أبنائنا رجالا أشداء أمتن وأقوى وأكفأ. بل أخلق بعزة الحياة القومية الحرة أن تبث في أبنائها روحا جديدة، وأن تدفعهم إلى نشدان ما يجعلهم أهلا لوطنهم الحر .

إبراهيم عبد القادر المازنى

زيتون في قرطاس من الشِّعر ![1]

في بعض سنوات الحرب العالمية الأولى، أدركتني "حرفة الأدب" أو سوء الحظ، أو قلة العقل، إذا أردت الحق، فأصبحت يوماً وليس في بيتي كسرة من الخبز – لا ناشفة ولا طرية – ولم أكن أفكر في يومي، فإن يوما من الجوع لا يقتل، وإنما كنت أفكر في شهور طويلة كان لا معدى عن قضائها في صوم ليس فيه إفطار إذا لم يحلني الله القادر على كل شيء أنا وأهل بيتي، كأهل الكهف، أو إذا لم يلهمني الله مخرجًا من هذه الضائقة، ولما كان أهل الكهف – كآدم والمسيح عليهما السلام – آية لا مطمع لي في تكرارها، فقد وجب أن أتولى أنا تدبير الأمر، ومن الأسرار التي لم أبح بها لأحد – حتى ولا للأستاذ العقاد الذي كان يعرف دون غيره ما أنا فيه من الضنك واللأواء، لأني خجلت أن أفضي حتى إليه بذلك – أني قدمت طلبين إلى شركة الترام وشركة المياه، لم تردا عليهما، ولهما العذر، لأني "أهملت" أن أضع طوابع البريد !

على أني لم أنتظر الرد، بل ذهبت إلى صديق وقلت له: إن عندي ملء غرفة من الكتب، وأريد أن أبيع منها ما لا حاجة بي إليه. "فسألني عن الباعث، فغالطت وقلت: يا أخي إن أكثر ما قرأت يبعد أن أعود إليه فما فائدة بقائها مرصوصة عندي؟" فأدرك أني في ضيق، وكأنما أراد أن يهون الأمر علي، فقال إنه هو أيضا يبيع بعض كتبه كلما افتقر إلى المال، فإذا احتاج إليها مرة اشتراها من السوق. وأشار علي أن أبدأ بالنسخ الباقية عندي مما ألفت. ونهض معي إلى وراق اشترى هذه النسخ بالأقة !

(1) نشرت في "أخبار اليوم" في 16 أغسطس سنة 1947 (ص9) .

ووجدت أن بيع الكتب مورد كاف أستطيع الاعتماد عليه في اجتياز الشهور التي كنت أقدر أن تستغرقها الأزمة، فصرت أدعو - بمعاونة أصدقائي - أصحاب المكتبات، "لمعاينة" البضاعة، وكانوا أمين وكان تسعيرهم للكتب عجيبا فقد كان الواحد منهم يحمل الكتاب على يده، كأنما يزنه، فإذا ألفاه خفيفا قال: "قرشين" وإذا كان ثقيلا قال: "خمسة" فأسفت لأني كنت أحرص على اقتناء الطبعات الحسنة الأنيقة الرقيقة الورق .

واستغنيت بذلك عن الاقتراض، وإراقة ماء الوجه، واجتزت الأزمة بسلام .

واتفق يومًا أن اشتريت من بقال زيتونا أسود، فلفه لي في ورقة، حملتها وانصرفت، فلما صرت في البيت أفرغت الزيتون في صحن وهممت أن أرمي الورقة، وإذا بها منزوعة من ديواني الذي كنت قد بعت ما بقي منه بالأقة !

من ذلك اليوم بدأ رأيي يتغير في الأدب وقيمته، وما قيمة أدب مصيره إلى دكاكين البقالين ومن إليهم؟ وما زلت أكتب وأنشر، وإن لي لنصيبي من الغرور الذي لا تطاق الحياة بغير قدر كاف منه، ولكني حلت شيئًا فشيئًا حتى صرت أشبه بنجار لا يأسف على حجرة جلوس أو مائدة باعها، وقد خلت نفسي من ذلك الشعور "بالأبوة" لما أكتب، فليس يعنيني مصيره، وليس يثقل على أن يقول فيه الناس ما قال مالك في الخمر، ولا يطربني أن أسمع الثناء عليه، وإن كنت أستطيبه إذا كان القصد متوخى فيه، لأن المبالغة توهمني أن صاحبها إما جاهل أو ساخر، أو منافق. وأكثر كتبي ليس عندي منه نسخة، وأكسل أحيانا عن القراءة، ولما كانت عادة، فإني أشعر بالضجر والضيق إذا لم أجد ما أقرأ، أو إذا فترت عن القراءة، فأتسلى بتصفح بعض كتبي، فلا أراني راضيا عنها - لا عن مادتها ولا عن أسلوبها - وأتعجب كيف كتبت هذا التخريف؟ وأتساءل: لماذا عجلت؟ لم لم أنتظر حتى أنضج؟ وكثير من الناس ينضجون في شبابهم، أما أنا فقد احتجت - وما زلت محتاجا - إلى زمن طويل، وتجربة، حتى أبلغ درجة مرضية من النضج، ومن ذلك أني قرأت ما قرأت من الأدب العربي على الخصوص، كيفما اتفق، لأني لم أجد من يوجهني، على خلاف الأدب الإنجليزي فقد

أحسن أساتذتي توجيهي فيه، وكنت قد ذهبت إلى آراء في الأدب العربي اجترأت على إعلان بعضها، ولكنني شعرت منذ بضع سنوات أن علي أن أراجع هذا الأدب وأدرسه درسا جديدا منتظما. وقد أسأل نفسي أحيانا: ولم كل هذا العناء؟. فلا يحضرني من الجواب إلا أني لا أعرف عملا آخر أزجي به الفراغ وأضيع الوقت، وأن القراءة قد أصبحت عادة ثابتة كالتدخين .

وأحيانا أتساءل : أليس الأولى، وأنا أزداد على الأيام نقصا في القوة أن أزداد أيضا جهلا؟ وأدير عيني فيما حولي، فأرى أبنائي، فأتذكر معنى أبيات لابن الرومي بديعة أرتجلها لمن قال أن له أربعين من السنين وأربعين من الولد، فقال على لسانه قصيدة لا أتذكر الآن سوى مطلعها :

"لي أربعون من السنين　　وأربعون من الولد

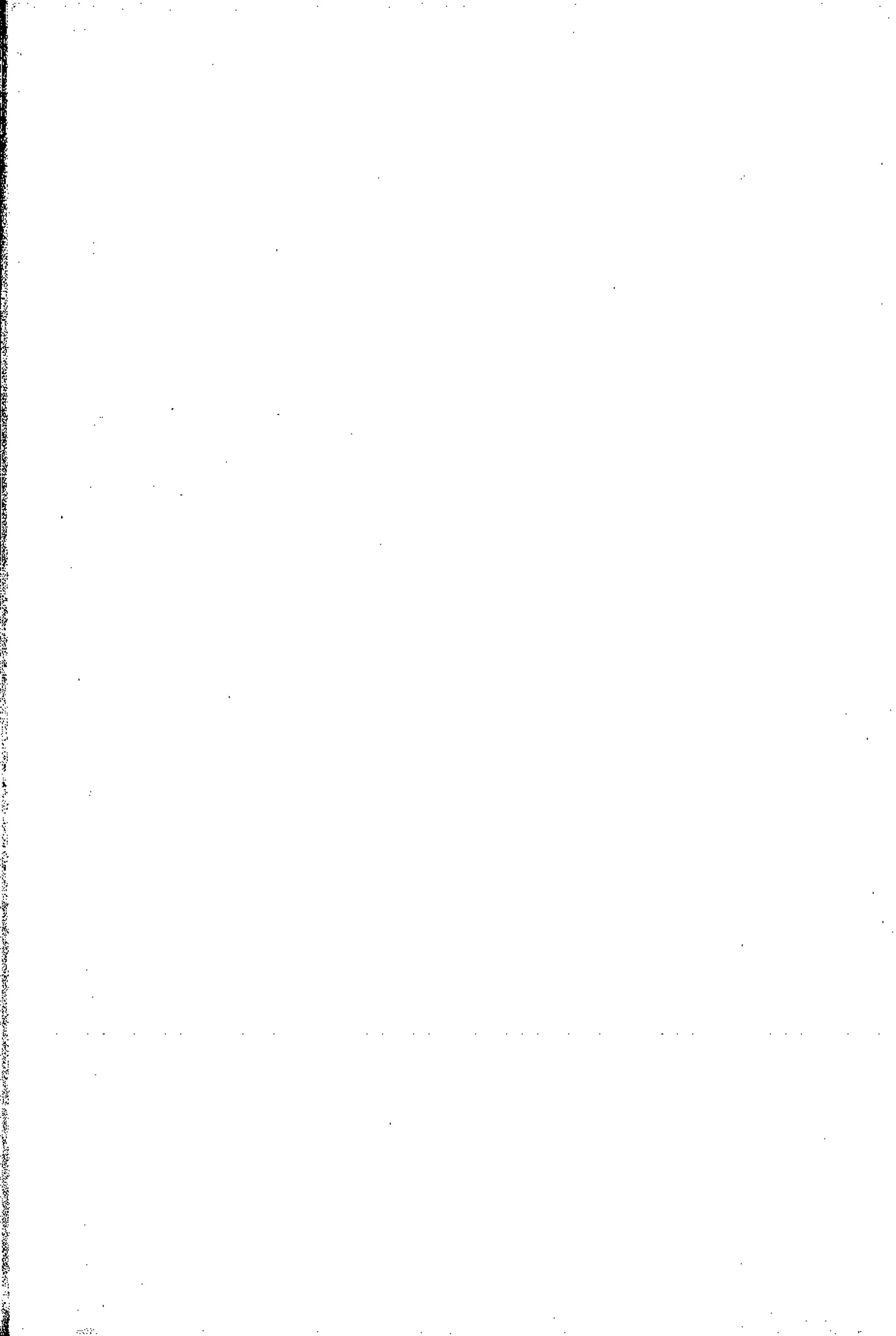
ثم يقول فيها على ما أذكر :

ومن العجائب أن نسر　　بما يشد بأن نهد

وهذه طبيعة الحياة - الأبناء - كما يقول العامة - "في الطالع" والآباء "في النازل" .

أدب؟ يا حسرة على ما ضيعت من العمر! ومتى يا ترى أنسى الزيتون الملفوف في قرطاس من صفحة من ديوان شعري؟! شعري؟ تالله ما كان أخيبني وأضل سبيلي !

إبراهيم عبد القادر المازني



هكذا شاءت الأقدار ![1]

هل ينبغي أن يكون للإنسان – لكل إنسان – غاية يعتمدها حين يبلغ مبالغ الرجال، ويجعلها نصب عينه كما يقولون ولا ينفك يسعى لها دائبا حتى يبلغها أو يقع دونها؟ أو أجعل السؤال هكذا: هل يستطيع الإنسان أن يقول لنفسه، أنى أريد أن أكون كذا أو كذا، وسأجعل متوجهى إلى غايتي هذه من هنا، وسأجتنب الانسياق مع تيار الحياة، وأتقى أن يقذف بى إلى حيث لا أبغى ؟

والسؤال يبدو سهلا، أليس ينبغى أن يعرف الإنسان مراده من دنياه؟ بلى! ولكن الصعوبة ليست فى معرفة ما تروم وتنشد لنفسك، بل فى أمور أخرى. منها أنك تصلح أو لا تصلح لهذا الذى تتطلع إليه أى فى صحة معرفتك بنفسك، ومنها توجيه الحوادث لك، وإمكان انحرافها بك عن طريقك. وقد سئلت، فقلت بلا تردد أو تلعثم: أى نعم كانت لى غاية مضيت إليها ولم أعدل عنها قط، ولم أفتر عن السعى لها .

* * *

ثم دار السؤال فى نفسى بعد ذلك فتبينت أنى تسرعت فأخطأت وقلت غير الحق، وأن طول الزمن أنسانى أشياء كثيرة وأمانى مختلفة، أو قل أن طول مسيرى على الدرب الذى ما زلت فيه أوهمنى أن هذا ما كنت أبغى من أول الأمر. والحقيقة أنه "لم يكن ما كان شيئًا يعتمد" كما يقول ابن الرومى. ولا أدرى ماذا كان مصيرى خليقا أن يكون لو كان أبى عاش حتى كبرت، ولكن الذى أدريه هو أن الفقر الذى صرنا إليه بعده وجهنى. فلما أتممت التعليم الثانوى وددت أن أتعلم الطب، لا لسبب سوى أن "المصروفات المدرسية"

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٧ (ص٤) .

كانت مما يدخل في الطاقة، ولكن الدكتور كيتنج ناظر مدرسة الطب يومئذ رمى لي أوراقي في الشارع، وكان دكتاتورا لا سلطان لأحد عليه ولا مرد لحكمه، فجمعت أوراقي المبعثرة، وقلت أدخل مدرسة الحقوق، والسبب في هذا التحول هو أنها كانت المدرسة الأخرى التي يسعني أن أؤدي "مصروفاتها" وكانت خمسة عشر جنيها في العام، وما كدت أقدم أوراقي إليها حتى ضوعفت المصروفات، فاستعدت أوراقي، وحرت ماذا أصنع؟ وإذا بمدرسة المعلمين العليا تفتح وتقول "تعالوا تعلموا بالمجان، بل خذوا كل شهر ثلاثة جنيهات في العام الأول، وأربعة جنيهات كل شهر في العام الثاني وهكذا حتى تتخرجوا، وتصور فرحتي: مدرسة عالية لا تكلفني شيئًا، وثلاثة جنيهات ثم أربعة كل شهر، وهي ثروة لفتى دخل أسرته في الشهر جنيهان ليس إلا، تنفقها على الطعام والكسوة. أما المسكن فما كان له كراء فقد كان لبعض أهلنا دار عظيمة أباحها للفقراء من أقاربه الأدنين أو الأبعدين، ولمن يجيء من الأرياف من أبنائهم لطلب العلم وإن لم يكن فقيراً. وهكذا شاء القدر – أو المصادفة – أن أكون معلماً !

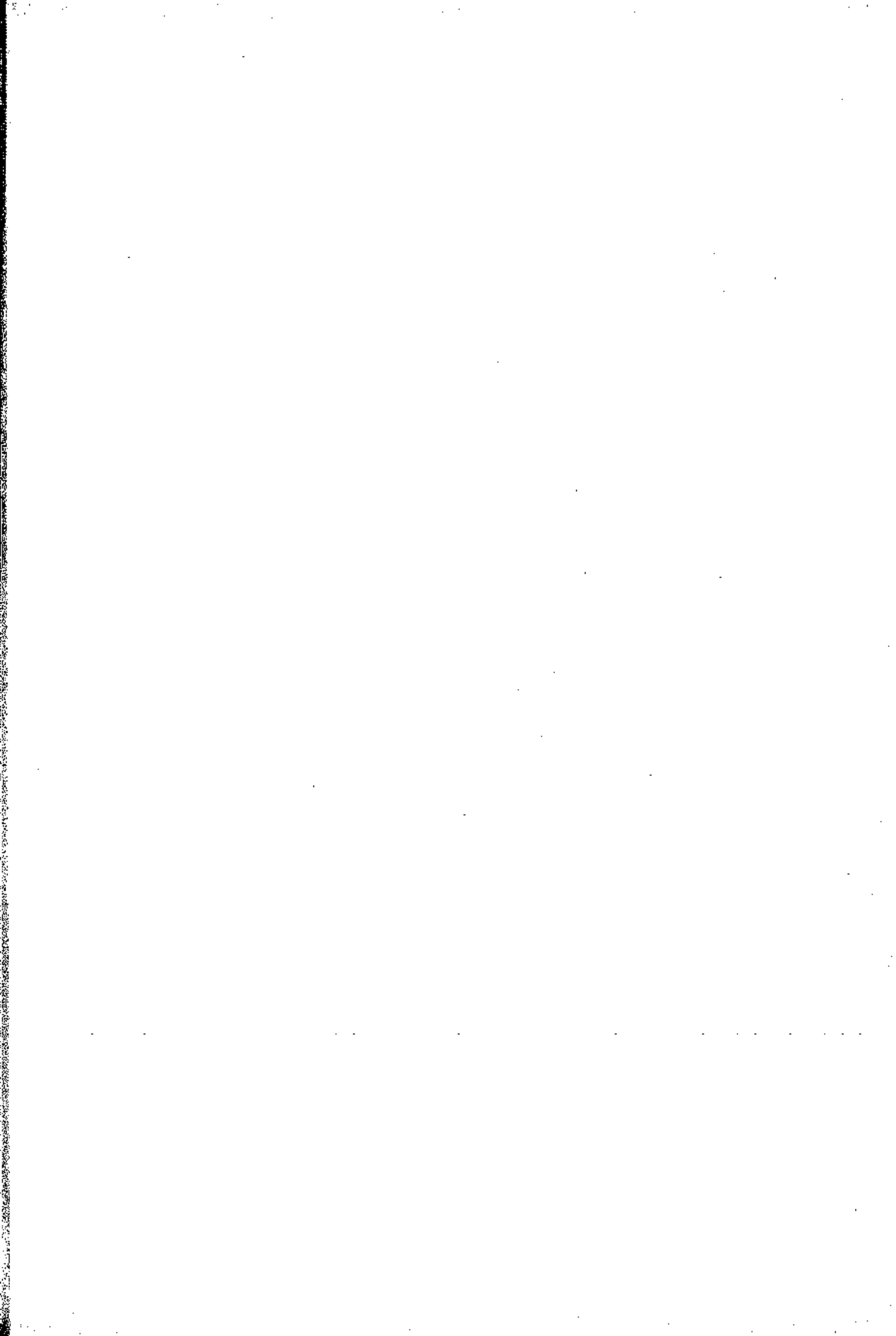
وشاءت الأقدار – أو المصادفة – أيضا أن أشتغل بالأدب لا بالطب ولا بالقانون، فقد كان من زملائي في مدرسة المعلمين الأستاذ عبدالرحمن شكري، وكان كاتبا شاعرا واسع الإطلاع على الأدب العربي والآداب الغربية، وقد أخرج أول جزء من ديوان شعره وهو في السنة الأولى بمدرسة المعلمين، فكانت له ضجة، وكان هذا الديوان – كما كانت يوميات الأستاذ العقاد – بداية اقتحام المذهب الجديد في الأدب للميدان، وفاتحة الصراع بينه وبين المذهب القديم – مذهب شوقي وحافظ وأضرابهما – وتوثقت الصلة بيني وبين شكري فصار أستاذي وهو زميلي. وكان لي قدر يسير من الاطلاع على الأدب العربي. ولكنه كان ينقصني التوجيه، فتولاه شكري، فعكفت على الدرس. ومن الإنصاف أن أقول أن أساتذتنا في اللغة الإنجليزية وآدابها كانوا رجالا مخلصين أكفاء، فأحسنوا توجيهنا وتشجيعنا. وبفضل شكري عرفت عبدالحميد بدوي (باشا الآن) والسباعي رحمه الله، ثم عرفت العقاد من طريق آخر، وعرفته بشكري فصرنا "ثالوثا" – العقاد وشكري والعبد لله .

وهكذا صرت أديبًا – وقررت أن أكون "شاعرًا وناقدًا" وأن أنفض يدى من التعليم وأتخلى للأدب، فاستقلت من وزارة المعارف بعد خمس سنوات فيها واضطررت أن أظل معلمًا خمس سنوات أخرى. ثم كانت الثورة المصرية فهجرت التعليم، وأقبلت على الصحافة لأخدم الثورة بقلمى وما زلت كاتبا صحفيًا برغمى إلى اليوم، وأديبا مشكوكا فى قيمة أدبه لأنه غير قادر على التفرغ له والانقطاع لتجويده .

سقت هذا لأقول : من الذى يستطيع أن ينكر يد المصادفة أو الأقدار فى هذا؟ ولا شك أن الاستعداد عامل لا يمكن تجاهله وإغفاله، وهذا الاستعداد يظهر شيئا فشيئا، ويقوى على الأيام وله أثره البين فى مبلغ قدرة الحوادث أو المصادفات على التوجيه، وقد كان من الممكن أن أشتغل بالأدب وأنا طبيب أو محام أو قاض. فقد كان ميلى إليه ظاهرا فى صدر حياتى، وعلى الرغم من جهلى، وكنت أنظم شعرا محطم الأبيات مضحك القافية عجيبها ولا أخجل، ولكن المصادفات التى أسلفت الإشارة إليها هى التى جعلتنى كما أنا الآن ومن يدرى؟ إن الإنسان ليريد الشىء، فتجىء الأقدار وتريد له غيره، ومن يدرى أيضا؟ لعل الأقدار أدرى بما هو أصلح له وأقدر عليه. وصدق الشاعر :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى   ومن أين، والغايات بعد المذاهب؟

إبراهيم عبد القادر المازنى



لو تزوجت للمرة الثالثة !(١)

أتزوج مرة ثالثة؟ حاشا لله! والعياذ بالله! أو كما يقول العامة: "أشتاتا! أشتاتا!" .

لا لأن الزواج مصيبة، والمرأة بلية، فما أعرف كيف يستطيع رجل أن يعيش، ويحيا حياة كاملة، بغير امرأة. ولو وسعني أن أتزوج كل يوم امرأة جديدة لفعلت غير متألم أو متحرج. ولكن العين بصيرة، واليد قصيرة ولا حول ولا قوة إلا بالله، والأمر له، وما لنا خيار .

وإنما أستعيذ بالله من زواج ثالث لأني أخاف على عمري! ولا يتعجل القارئ - أو القارئة - فلست أعني أن الزوجة الثالثة - إذا كتب الله لي ثالثة، وعسى أن لا يفعل - ستقبض روحي أو تزهقها، وإنما أعني أنها ستقصف عمري! ومهلا مرة أخرى، فإن لهذا حكاية قديمة يحسن بي أن أحكيها قبل أن يتلهب الغضب علي، ويتفاقم السخط .

في سنة ١٩١٧ - في أخريات الحرب العالمية الأولى - عرفني صديق بضابط هندي، وتلاقينا مرارا، وتغدى عندي يوما، فقال لي "أرني كفك" ولست أؤمن بهذا الذي يسمونه "علم الكف" ولكني بسطت له يدي - فتأمل هذه ثم هذه، وأطال النظر والجس والتثني والبسط، ثم هز رأسه كالآسف، فتبسمت له، أشجعه، أو أشجع نفسي، وقلت: "هات ما عندك" .

قال : "إن الأمر يحتاج إلى فحص آخر، ولشد ما أود أن آخذ طابع كفك وأدرسه على مهل" .

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في أول نوفمبر سنة ١٩٤٧ (ص١١) .

قلت : "ألم تتبين شيئًا؟"

قال : "بلى! ولكن ليطمئن قلبى" .

قالها بالعربية، فقد كان مسلما وكان يحفظ آيات من القرآن الكريم. فقلت :

"لا بأس! حدثنا بما رأيت على أن يكون مفهوما أن هذا الكلام مبدئى" .

فقال لى : "إنك أصبت بما يعد عاهة"

فضحكت، فإنه يرى ساقى المهيضة، ويرى ظلعى وعرجى وأنا أمشى معه، ولكنه لم يجعل باله إلى ضحكى ومضى يقول: "لم أكن أود أن أقول هذا – ولكن الذى أراه إلى الآن أنه لن يبقى لك من نسلك إلا البنون، وأنك ستتزوج ثلاث مرات، وسيكون زواجك الثالث هو الذى يردى بك" .

فقهقهت! أنا أتزوج ثلاث مرات؟ هذا مجنون! أليست لى زوجة وولد؟ فما حاجتى إلى زوجتين أخريين؟ ثم كأنما لطمتنى يد خفية فتذكرت أنى رزقت – أول ما رزقت – بنتا ماتت قبل ولدى هذا، وظلت فى سياق النزع على حجرى ثلاث ساعات، وأمها تكاد تجن، وأمى حائرة بين البنت التى تجود بأنفاسها بين يدى، والأم التى تبكى بأربع، وتصرخ وتلطم وتندب !

ومضى عامان، وولدت لى امرأتى بنتا كان عمرها كعمر الزهر ما سلمت حتى ودعت .

ثم حملت زوجتى وحضر الطبيب فإذا برائحة الخمر من فمه تزكم الأنف، فماتت زوجتى بين يديه، وماتت البنت التى أخرجها قسرا قبل الأوان. أليس بسكران ؟

وتذكرت كلام الهندى. لقد ماتت لى ثلاث بنات، وماتت زوجتى. فقلت لا زواج بعد هذا. ولبثت ثمانية أعوام معرضا عن الزواج، زاهدا فيه، خائفا منه، ثم شاء الله أن أتزوج هذه المرأة الكريمة التى صارت على الأيام زوجة وأختا، وبنتا، وأما – بعد أمى

رحمها الله. ومن الغريب أنى رزقت منها بنتا هى الرابعة ماتت أيضا! وأنا أعرف أن موت هذه البنات له سببه الطبيعى المعقول، وأعرف لماذا ماتت كل واحدة منهن، ولكن أعصابي تلفت، فوق تلفها، فإذا شكت زوجتى الزكام، أو اضطرابا فى المعدة، أو أرقا أو مغصا. مت فى جلدى، خوفا عليها وعلى نفسى. فقد استقر فى أعمق أعماق نفسى أن الثالثة هى القاضية. ولهذا ترانى أدعو الله صباحا ومساء، أن يطيل الله عمر زوجتى، وأن يبقيها لى كما هى، أما وأختا، وزوجة، وبنتا لأنى ألفتها أولا، ولا أستطيع أن أتصور كيف تكون حياتى بدونها، وهذه أنانية ولا شك، ولكن أين غير الأنانى، على أن الأنانية الكبرى أنى أصبحت أجزع حين يخطر لى أنى قد أحتاج إلى زواج ثالث! فإن معنى هذا هو الموت. ومن هذا الذى يشتهيه أو يستعجله؟ وما فقدت عقلى، وإنى لأرانى ازداد اتزانا على الأيام، ولكنى أعتقد اعتقادا جازما أنى بخير وعافية ما اجتنبت أن تكون لى زوجة ثالثة !

* * *

وآه من زوغان العين! وآه من الضعف الإنسانى! وألف آه من لهفة القلب على الفوز بالمتع قبل الخروج من هذه الدنيا إلى غير رجعة إليها! ولكن الحرص على الحياة أقوى - مائة مرة - من هذه اللهفات. فأنا أتمنى كلهن لى - كل من تعجبنى وتروقنى من صغيرة وكبيرة، وبدينة وهيفاء، وسمراء وشقراء، ولست أحاول أن أكبح نفسى، فقد تكفل عنى بكبحها أنى أرى فى كل واحدة منهن يد عزرائيل تهم بالامتداد إلى عنقى وقبض روحى! فأرتد مذعورا - لا عن زهادة، فإن عينى فارغة كما يقول عامتنا، ولكن عن جزع وفزع !

وقد يسأل سائل: ما كل هذا الحرص على الحياة؟ فأقول: "سبحان الله العظيم! وهل لى فى هذه الدنيا حياة أخرى حتى أجازف بحياتى فيها؟ وما لى لا أقنع بزوجة كريمة تعفو عنى وتغفر لى ذنوبى، ولا تكون معى إلا على خير ما أحب؟ وما الفرق فى النهاية بين امرأة وامرأة إلا الصلاح والمساناة وطيب العشرة وحسن المؤاتاة؟ ولا خير

لى فى صغيرة – ولا لها فى – فإنى أكون كأبيها أو جدها – ومآل هذا ماذا؟ ولا خير فى الكبيرة، لأنها تكون مثلى فقدت شبابها، فالخير كل الخير فى الواقع والرضى به ورياضة النفس على السكون إليه .

إذا صدقت فراسة ذلك الهندى أو نبوءته، وكانت الزوجة الثالثة هى القاضية، فإنى بإذن الله سأتقيها ما وسعنى اتقاؤها، لأنها ستكون الخازوق! وأدع للقارئ أن يتصور شعور رجل يعتقد أن زوجته الثالثة ستقضى عليه وتودى به!! أعوذ بالله منها، ومنه لها!

إبراهيم عبد القادر المازنى

كهولتى خير من شبابى[1]

الكهولة والشباب عهدان مختلفان فى كل شىء. ولك أن تقول أنهما يجعلان من الإنسان الواحد إنسانين متميزين، لا يشبه أحدهما صاحبه، لا فى المخبر ولا فى المظهر. ولا عجب، فإن سنة الحياة التغير الدائم، فلا بقاء لشيء على حاله، لأن قانون الطبيعة يأبى هذا الجمود. ولا قيمة لبقاء اسم الإنسان من البداية إلى النهاية، دون أن يلحقه تبديل أو تعديل. فما يمنع بقاؤه طول العمر كما هو، إنه فى الحقيقة اسم واحد لناس كثر جاء بعضهم فى إثر بعض، وذهبوا على التوالى .

فأنا فى كهولتى إنسان جديد من كل وجه، لا يشبه ذلك الإنسان القديم الذى كان، أيام الشباب. فقد ذهب ذلك الإنسان إلى غير رجعة، وذهب معه كل ما كان له من خصائص، وصفات وسمات، ومعارف، ونزعات، وآمال، وآلام، ومخاوف، ومطامع، وشهوات إلى آخر ذلك، وحل محله – بعد ناس كثيرين آخرين اتخذوا اسمى – هذا الكهل الذى يدلف إلى الشيخوخة، والذى هو اليوم "أنا"، والذى سيصبح غدا إنسانا آخر يعقبه غيره فغيره، إلى أن يمضى الله مشيئته فى مخلوقه .

ولك أن تقول أيضا أن الشباب والكهولة معنيان فى النفس.. فإن منا من يخطئ معنى الشباب فى عهده المألوف، ثم يجده فى غير أوانه. وهذا ما وقع لى.. فما عرفت طعم الشباب، ولا ركبت به ما يركب الناس به، لأنى امتحنت فى صدر حياتى، وغضونة سنى، بما تركنى أحس كان الدهر كله عمرى .

---

(١) نشرت فى مجلة "الهلال" فى يناير سنة ١٩٤٨ (ص٣٩، ص٤١) .

ودارت الأيام.. وكبرت، وازددت بالدنيا والناس معرفة، وبنفسي أيضا، فإذا كل شيء يتغير. التشاؤم انقلب تفاؤلاً واستبشاراً، والضغن أصبح عطفًا ورقة قلب، وحبًا للحياة والناس، وكنت أظنني لن يطول عمري، وأحمد الله على هذا وأسأله في سرى أن يعجل بالراحة الكبرى، وإن كنا لن ندرى بأنا فزنا بها، فإذا بي واثق أني سأكون من المعمرين جداً، وإذا بى قد صرت أحرص الناس على حياة، بل إذا بى أشعر شعورا قويا أنى رددت شابا، وإن كان رأسى قد شاب ولم يبق فيه سواد. وأذهلنى هذا الشعور المستغرق عن سنى التى لا تكف عن الارتفاع. وكنت في الترام ذات يوم وكان الزحام شديدا، ولا موضع لقدم، ولكنى كنت مستعجلا، فجاهدت حتى دخلت ووقفت بين الناس، فنهضت فتاة صغيرة السن لا أظنها تتجاوز الثانية عشرة، وقالت: "تفضل!"، فسألتها "نازلة؟"، قالت: "كلا!"، قلت" "إذن عودى إلى مقعدك، وشكرا لك"، قالت: "لا يليق فإنك رجل كبير". فكأنما لطمتنى على وجهى.. لا لأنى أجهل، أو أكره أن أعترف، أنى كبرت، بل لأنى لم أكن أشعر أنى "رجل كبير". ولم يكن يجرى لى فى خاطر أن من يرانى يمكن أن يقول أنى كبرت، وثقل على نفسى ظن الفتاة أنها أقدر منى على احتمال الوقوف المتعب فى هذا الزحام. وفقدت السيطرة على أعصابى، فأبيت أن تقف هى وأقعد أنا، فلما رأيت إصرارها نزلت في أول محطة، وانتظرت تراما آخر .

وليس هذا من مغالطة النفس في الحقائق، وإنما هو وليد شعور عميق لم يكن لى به عهد فى شبابى. ولو كنت فى شبابى وقدمتنى هذه الفتاة على نفسها، لكان الأرجح ألا أغضب، ولعددت هذا من الاحترام الذى استحقه. أولا لأن الشاب هو الذى يشتهى - ويسره ولا يسوءه - أن يعد رجلاً كبيراً.. وعلى ذكر ذلك أقول أنى كنت أحلق لحيتى وشاربى ثلاث مرات فى اليوم، لظنى أن هذا أعون على سرعة ظهور الشعر. وثانيا لأنى كما أسلفت، كنت أشعر أنى هرم لا ينقصه إلا عصا يتوكأ عليها. وقد كنت أتخذ عصا وأتوكأ عليها ولا أتخلى عنها، وكنت أعلقها على شباك السرير لتكون قريبة المتناول .

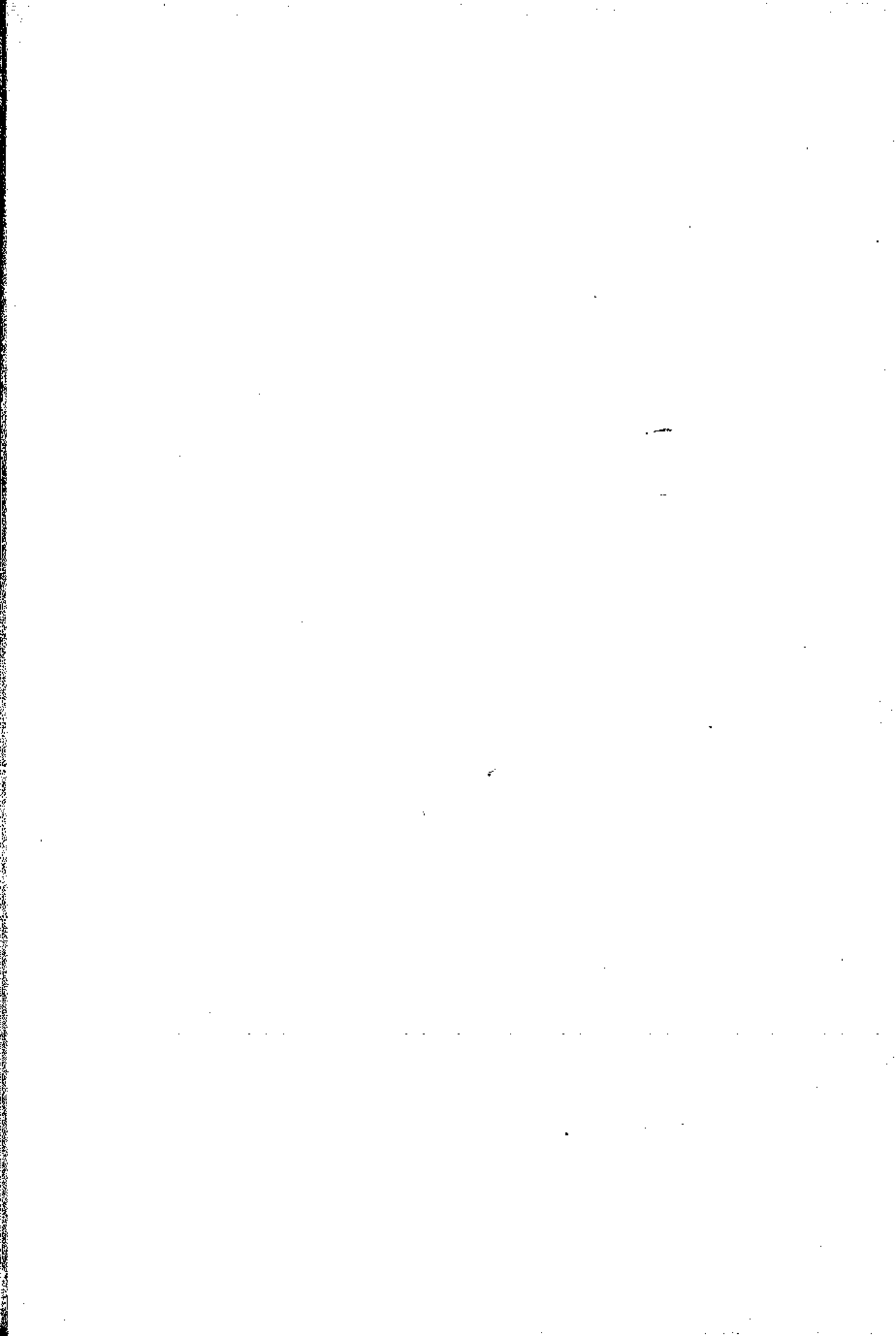
أما الآن، فإنى أستغرب أن يظن أو يقول أحد أنى كبرت. نعم.. علت سنى، ولكنى لا أحس بهذا الكبر، ولا يدور فى نفسى معناه. وصحيح أن حركتى أصبحت أبطأ، وأن ساقى المهيضة ضمرت قليلا، فهي تتعبني وتؤلمنى، وتصدنى عن المشى والوقوف الطويلين، ولكن ما قيمة هذا ؟

وكنت في شبابي قليل الثقة بنفسي، على الرغم من غروري. فكنت أراجع الكتب أكثر مما أراجع عقلي، أي أني كنت لا أفكر بعقلي ولا أنظر بعيني، بل أفكر بعقول غيري وأنظر بعيونهم. ولهذا كانت شخصيتي مستسرة، وقلما تتبدى. وكان الذي يتبدى هو اطلاعي، أي ثمرة دراساتي وقراءاتي. ولهذا اتهمت بالسطو على آثار الأقدمين، وللتهمة وجه لأن عكوفي على الكتب كان يبدو أثره فيما أكتب أو أنظم. ثم إني طوال عمري ضعيف الذاكرة سريع النسيان، فكان معقولا أن تعلق المعاني بذهني حتى إذا كتبت شيئًا أو نظمت شعراً، وخطر لي بعض هذه المعاني، توهمتها من "ابتكاراتي". وقد تنبهت إلى هذا الضعف، لما رأيت غير واحد يتهمني بالسرقة الأدبية، فتحرزت جدا. وما أظن الآن أن أحداً يذهب إلى أني أسطو على غيري – والحمد لله .

ذلك أني الآن لا أرجع إلى الكتب إلا إذا كان الرجوع لا مفر منه للاهتداء بحقيقة علمية أو تاريخية أو ما يجرى هذا المجرى. ولا أعتمد إلا على عقلي وحده، ولا أتخذ من الكتب أصناما تعبد، بل أقرؤها قراءة الناقد الذى لا يسلم إلا بما يقتنع به. فالمعول أولا وآخرا على نظرى أنا، أما ما أقرأ فقد أصبح كله "محل نظر" عندى على خلاف الحال في شبابي، فقد كنت أتلقى كل ما أقرأ بالتسليم. وعلة ذلك أني لم أجد من يوجهني ويرشدني ويثقفني، ويفقهني. نعم.. استفدت من إخواني وتابعتهم في مجال الإطلاع، وتشجعت بهم، وأعدوني بغيرتهم وإخلاصهم، فمضيت أدب وراءهم فى الطريق القويم. ولكنى لم أكن قادرا كقدرتهم على التمحيص والغربلة والنخل، فنضجوا هم في شبابهم، ولم أشعر أني في سبيل النضج، وعلى الدرب إليه، إلا في كهولتي. وما نضجت بعد، ولكني خير مما كنت، وأهدى سبيلا فيما أعتقد، وأقدر على التفكير المستقل، وتلك نعمة حرمتها في الشباب .

لهذا ولغيره مما لا يتسع المقام له، أقول فى غير تردد أن كهولتى خير من شبابي. ولم لا؟ وما خير هذا الشباب إذا كانت حيويته تتبدد كالسيل الذى لا تقام له السدود والخزانات للانتفاع به؟ ولماذا لا تفضله وترجح عليه الكهولة الناضجة التى تحسن الانتفاع بكل ذرة من الحيوية الباقية ؟

إبراهيم عبد القادر المازني



إرادتي عناد صبياني ![1]

لست أعلم أن لي إرادة ربيتها، ولكنى أعلم أن الزمن من رباني ورباها لي إلى حد ما، أليس الشاعر يقول: "من لم يؤدبه والداه، أدبه الليل والنهار"؟.. وأنا ذلك الرجل الذى حرم تأديب الوالدين فتولى الزمن تأديبه، وتالله ما أغلظ عصا الزمن، وأوجع وقعها على الطفل .

وأحسب أن إرادتي - إذا كانت لي إرادة - ليست إلا ضربًا من "العناد" الصبياني. وقد يستغرب القارئ قولي هذا، ولكنه الحقيقة فيما أعتقد. وأشرح ذلك فأقول إن أبى مات وأنا طفل فتولت أمي تربيتي بلا معين سوى لطف الله فى قضائه... وكانت سيدة صالحة صريحة، ليس فى طباعها التواء، وكانت مزيتها الجلية: الصدق، والصبر، والجلد، والتعفف، والتوكل على الله، والتواضع الذى كله كبر.. فلم يكن يخجلها أو يضعضع نفسها أننا صرنا إلى الفاقة بعد أبى، ولم تكن تتطامن أمام الأثرياء من أهلنا الذين كانوا يوقرونها لعقلها وحكمتها وصلابة عودها ..

وعلى الرغم من فقرنا، ونضوب الموارد جميعا - وعلى الرغم من معارضة ذوى قربانا الأدنين - أبت كل الإباء إلا أن أمضى فى التعليم إلى نهايته المقدورة، وكانت تبيع حليها، ومالا حاجة إلينا به من أثاث، بل ما كان عنها من ثياب، (اعتاضت منها السواد الذى ظلت تلبسه ثلاثين عامًا ولم تخلعه إلا قبل وفاتها بشهور) لتنفق على تعليمي، حتى وسع الله رزقنا قليلاً وكانت تقول لي - فيما بعد: "ثق بالله دائمًا، وكن على يقين أنه ساترنا وأنه لن يفضحنا، ألست ترى كيف أدركتنا رحمته ونحن على

---

(1) نشرت فى مجلة "الإثنين والدنيا" فى ١٩ يناير سنة ١٩٤٨ (ص٨) .

حرف الهاوية التي لا قرار لها؟". ولم تقل هذا بلفظه، بل بمعناه، فقد كانت لا تقرأ ولا تكتب – لا، لم تكن أمية، فقد كان أبوها وأخوها عالمين، وتزوجت عالما ابن عالم، فحفظت سورا من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث، وكثيرا من الحكم والمواعظ، والأدعية، "والأوراد". ولم يكن عجيبا أن تحفظ هذا كله، وإنما العجيب أنها كانت نادرة زمانها في "الأمثال العامية" .

وكان أول ما علمتني – وأنا طفل – أني "رجل البيت" و"سيد الأسرة ومعولها" بعد الله، وعودتني – تبعا لذلك – الاستقلال والحرية، وبغضت إلي الكذب، والعبث الصبياني، وكل ما لا يليق بالرجل ذي الكرامة والمروءة.. وكانت تحترم رأيي وتنزل على رغبتي، لا تدليلا لي، بل لتعودني احترام النفس، وتقرر في ثرى نفسي أن لي كرامة، وأني ذو شأن ومكانة، وكانت إذا خالفتني في رأي تجادلني مجادلة الند للند، وإذا بدا لها مني طيش أو إسراف أو حماقة، تبسط لي الأمور على وجهها الصحيح، وتكلني بعد ذلك إلى رأيي.. وكانت تؤثر في توجيهي سبيل الإيحاء الخفي، فلا تأمر ولا تزجر، ولا تعترض، بل تلقي بالكلمة، وكأنها غير مقصودة أو متعمدة، ثم تتركني لأفكر فيما سمعت، وما أكثر ما كنت أرجع إليها مقرًا بالخطأ، فتقول: "كل إنسان يا ابني يخطئ، والمهم هو الرجوع إلى الحق إذا تبينته" .

ولم تكن – كما قلت – تريد تدليلي، فقد كانت تروضني على السكون إلى حياة خشنة جدا، ولكن أسلوبها الاستقلالي في تربيتي جعل مني إنسانًا كثير النقائض: ففيّ عناد شديد، لا أعرف أن لي قدرة على كبحه، فأنا أركب رأسي، أو أضعه على كفي وأمضي على وجهي غير عابئ بشيء مما كان أو ما عسى أن يكون، وليس هذا العناد إلا حماقة، أو قل إنه مظهر صبيانية، فإن الرجل الرشيد ينبغي أن يفكر ويتروى ويتبصر العواقب .

وهذا العناد الصبياني لا يطول، فإني أراني لا أكاد أمضي راكبا رأسي كما قلت، حتى أعود فأتردد وأراجع نفسي.. ولكن بعد ماذا؟ بعد خراب مالطة – كما يقول العامة – فلا أنا بلغت شيئًا، ولا أنا بقيت حيث كنت.. فإذا لم تكن هذه صبيانية، فماذا تكون الصبيانية غير ذلك؟ وأين مظهر الإرادة هنا إلا في الزجر بعد الأوان ؟

وأفادتنى تربيتها لى على هذا النحو، شعوراً دقيقًا بالمسئوليات فأنا أقدمها حتى على الحقوق، أليست قد علمتنى أنى رجل مسئول منذ كنت طفلا؟.. ولكن مع حرصى على الاضطلاع بالتبعات أرانى أخشى جدا أن أكون ظالما، أو متعنتا، فأنا لا أزال أرفع الميزان لنفسى قبل أن أرفعه لغيرى، ولا أنفك أضع نفسى فى موضع غيرى لأرى كيف كنت خليقًا أن أتصرف لو كنت مكانه.. فتكون النتيجة ماذا؟ تكون ألا أفعل شيئًا، لأن عقلى يقول لى شيئاً، وضميرى يقول لى شيئًا آخر، وأنا أوثر أن أنقاد لضميرى، ولكنى لا أستطيع أن أهمل ما ينادى ويشير به عقلى .

ثم إن حياتى أو نشأتى أرتنى كيف تخبط الحظـوظ خبط عشـواء، وعلمتنى أنه لا قيمة للحياة الفردية وإنما القيمة "لجملة" الحياة.. حياة الجماعة الإنسانية بأسرها، وحياة الحيوان والنبات، من كل نوع وطبقة، ومن هنا أصبحت لا أغالى بشىء شخصى أو أعتز به، أو أقيم وزنا لحياتى كفرد ليس إلا مظهراً ضئيلاً لا يقدم أو يؤخر فى جملة الحياة بمظاهرها المختلفة فى هذا الكون الرهيب ..

ومن هنا أيضا أعتقـد أن الإنســان آلة فى يد الحيـاة وأنه مسير لا مخير وأن ما يعتقد أنه رزقه من المواهب والملكات يصرفه عن النظر السديد والإدراك الصحيح، ويخدعه ويعينه على مغالطة نفسه .

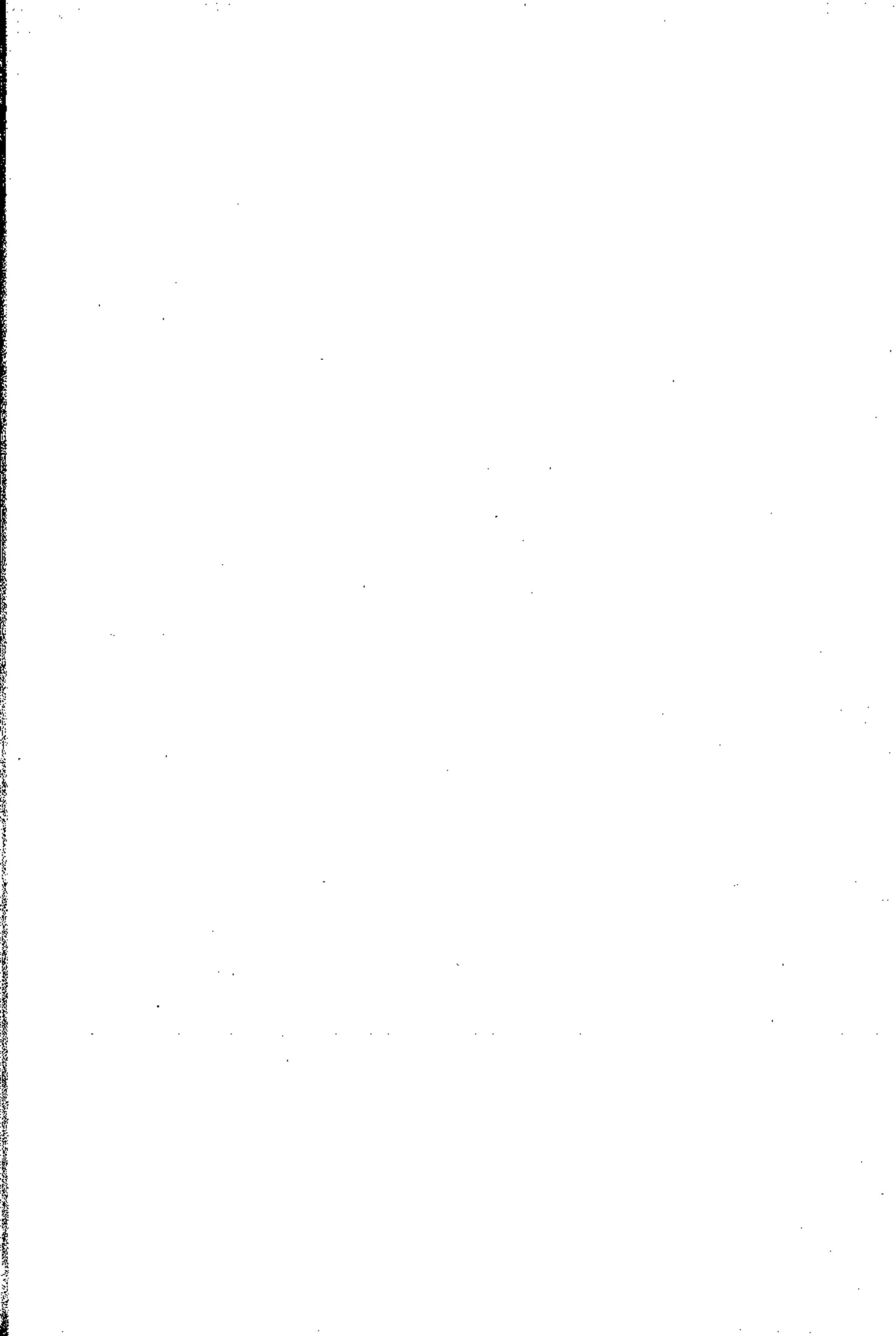
ومن كان هذا رأيه، فكيف بالله تكون له إرادة! ما إرادة قطرة الماء فى البحر الأعظم؟ ما إرادة من يدفعه التيار إلى هنا وههنا وهو يتوهم أنه فى فُلك، وأن بيده السكُّان ؟[٢]

قد تكون لى إرادة – وإن كان شكى كبيراً – فى هذا – ولكنها إرادة سلبية أو قل إنها الإرادة التى رباها لى الزمن وما لقيت فيـه، والتى أحاول أن أفهم بها الحياة والناس على الوجه الصحيح على قدر ما أستطيع. أما أن أريد شيئًا وأسعى له حتى يكون، فلا! لم أرزق هذه القدرة .

إبراهيم عبد القادر المازنى

---

(٢) دفة قيادة المركب أو السفينة .



لو كانت لى بنت(١)

منذ بضعة أيام، سألتنى – بالتليفون – زميلة فاضلة، قالت: "لو كانت لك بنت، ورأيتها فى الطريق مع شاب غريب، فماذا عساك كنت صانعاً ؟"

وما أكثر ما يلقى على التليفون مثل هذا الأسئلة المحرجة التى تحتاج إلى روية، وكان لابد أن أجيب بشيء، فقلت: "لا شيء !"

فتعجبت وقالت: "أتعنى أنه يحسن إتقاء إحداث ضجة حتى تخلو بها وتتفاهم معها؟"

فقلت : "هذا معقول، على أنى أعنى شيئا آخر هو أنى وجدت بالتجربة أن علاج كثير من المشكلات فى بدايتها قد يكون أيسر بالامتناع عن فعل شيء ما، أى بأن ينام المرء على ما يدور فى نفسه، وما تشير عليه (نفسه) أن يفعله ليلة أو ليلتين، حتى تهدأ ثائرته ويستعيد الاتزان ويستطيع أن يفكر وهو ساكن غير فائر أو مهتاج مضطرب، على أنى أحسب أن المعول فى مثل هذا الأمر على التربية" .

وقد دار فى نفسى الأمر بعد ذلك، على عادتى، فإنى بطئ التفكير والعمل، وقلما أحسن الجواب إذا فوجئت بسؤال، ومع ذلك ما أكثر ما أطيش وأركب رأسى، بلا أدنى تفكير، ثم أندم، ثم لا أرى جدوى من الندم، فأكف وأتناسى .

وقلت لنفسى : "إنك يا هذا ليس لك بنات – لسوء الحظ إذا شئت، أو لحسنه، فمن يدرى؟ – نعم رزقتهن، ولكنك احتسبتهن فى صغرهن، فما كتب لاحداهن أن تعيش إلا كعمر الورود، كما يقول الأستاذ العقاد فى أبيات عزانى بها عن إحداهن :

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٢١ يناير سنة ١٩٤٨ (ص١٢) .

أن تكن قـد رزئـت بنتـا فـمـمـا قـد تعـوضت من بنات الخلود

لا تبـت آسـفـا عليـهـا وهبـهـا وردة والربيـع عـمـر الورود !

قد عزتني أبياته كما لم يعزني شيء، وقد كنت حكيما حين تعزيته، "وقليل العقل مغروراً حين تلهيت ببنات الخلود" !

وأدع هذا، وأقول أن السؤال الذي دار في نفسي هو: "كيف كنت خليقـا أن أربيها – أي بنتي – وأي نهج كنت أوثر؟"

والجواب صعب، فإني اليوم إنسان مختلف جدا عن ذلك الذي كنته في شبابي – كنت يومئذ "محافظا" ينزع إلي التحرر ويجاهد أن يتحرر، ويشعر أن البيئة العامة أقوى منه، وأن نشأته عون لهذه البيئة عليه. وأتذكر أني كنت أركب الترام يومًا مع زوجتي رحمها الله – قبل أن يرحمها الله كما لا أحتاج أن أقول – وكان مقعدنا وراء السائق، وكان في الترام الذي أمامنا، والذي ندركه في كل محطة – في آخر مقعد منه – أي أمامنا – مدرس زميل لي، وكان يراني مع زوجتي فيغضي، فأدركتني رقة له، وأشفقت على رقبته أن تنكسر، فكنت كلما رأيته يرفع رأسه، أرفع يدي له بالتحية، فيسرع الرجل وينكس رأسه! فلم يسعني إلا أن أرحمه بعد أن كررت ذلك مرات .

أما الآن فإني لا محافظ، ولا متحرر، وإنما أنا رجل جرب، وقرأ، واهتدى إلى بعض الحقائق الأولية، أو الأساسية في الحياة. وليس يعنيني ما يصفني به الناس، ولا أبالي ما يقولون في، وإنما الذي يعنيني هو النزول على حكم هذه الحقائق، وأولها أننا معشر الآدميين حيوانات أصلية، فيجب أن نفهم الجانب الحيواني فهمًا صحيحًا دقيقا – ولكنا ارتقينا عن مرتبة الحيوان بعض الشيء – كثيراً إذا شئت أن تخدع نفسك وتغالطها، وقليلا، إذا صدقتني – فيجب تبعا لهذا الرقي الذي أخالفك في مبلغه. أن نروض أنفسنا على السلوك الذي يقتضيه .

وعندي أن تربية البنت ينبغي أن يكون قوامها أمرين: الأول الفهم العلمي الصحيح للحقائق الجنسية، وهذا واجب الأبوين جميعا قبل أن يكون واجب المدرسة؛

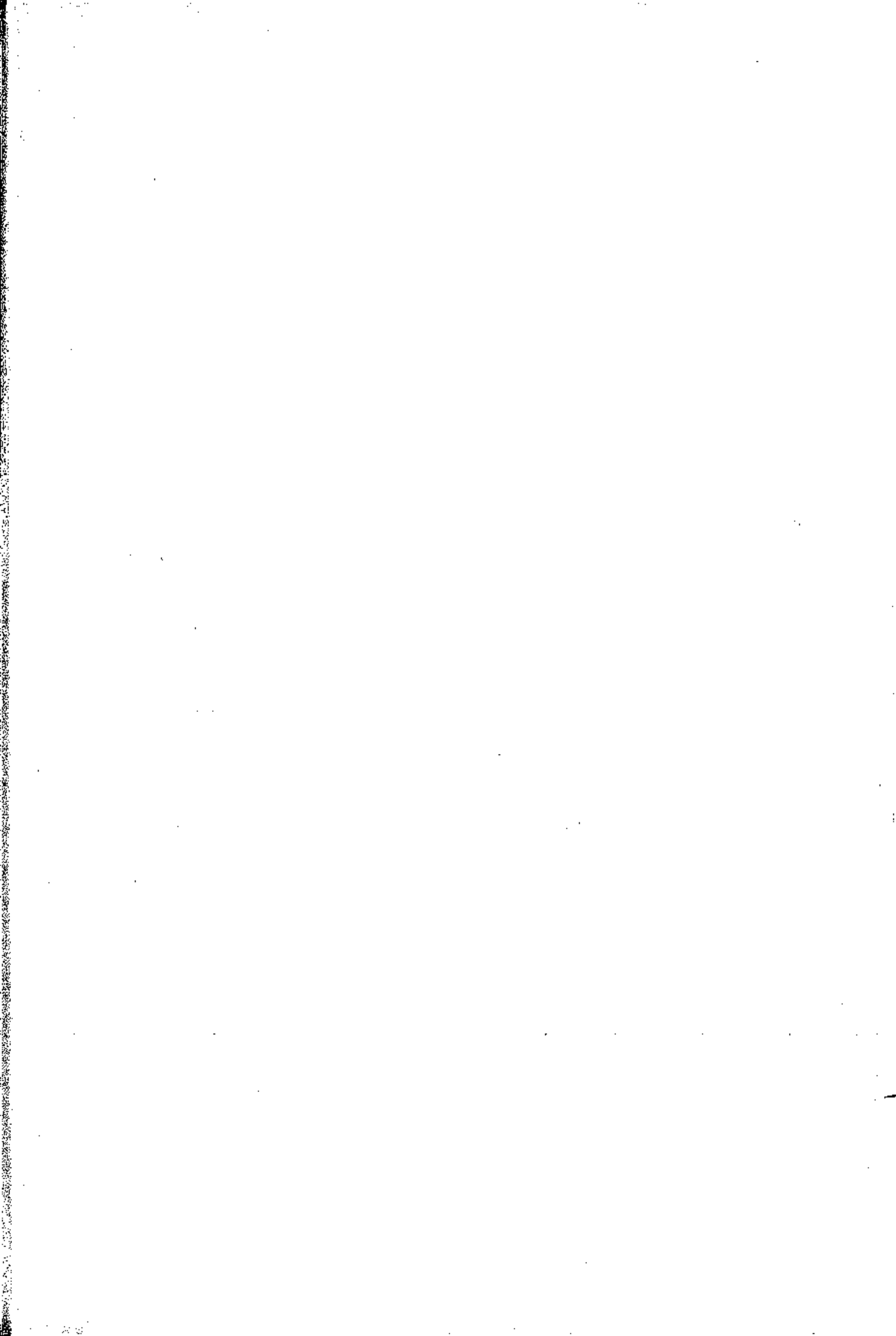
فعليهما أن يعرفا بنتهما كل هذه الحقائق في صراحة تامة؛ ولما كان أكثر الآباء في هذا العصر جهلاء؛ فإن هذا العبء يقع على عاتق المدرسة؛ ولهذا دعوت من قبل – وما زلت أدعو – إلى إنشاء معهد تشرح فيه وتبسط هذه الحقائق للشباب من الجنسين فإن الجهل بها مصيبة وعلة كثير من المآسي، ومن مظاهر الفساد .

والثاني – وقد شرحه الأستاذ العقاد في مقاله "لو كان لى ولد" هو أن تعود الفتى أو الفتاة الاعتزاز بالكرامة، ومتى اعتاد هذا فدعهما، وكن مطمئنا .

ومعقول أن مثل هذا الأسلوب فى تربية الفتاة يستوجب أن تكون بينها وبين أبويها، صراحة في تناول كل أمر، وبحث كل شأن لأنها تربية استقلالية، سبيلها أن تعوّد الفتاة أن تنظر بعينيها، وتفكر بعقلها، ولا تخجل من عواطفها، وإحساساتها ولا خوف من هذا ولا ضير ما دامت قد تعودت أن تشعر أن لها كرامة ينبغى أن تتحفظ بها، ولذلك يخيل إلى أنه لو كانت لى بنت، لما ترددت، ولا شعرت بأى حرج حين تعانى أى مشكل أو أزمة وجدانية أو جنسية، أن تجىء إلى، وتطرحها على، وتبحثها معى، ولما ترددت أنا أيضا فى أن أشرح لها ما تجهل مما أعرف، وأن أبسط لها الأمور على وجهها الصحيح وأن أزودها بثمرات تجاربى وقراءتى، ثم أكلها إلى رأيها وأنا مطمئن إلى حسن تصرفها بعد أن عودتها الاعتزاز بكرامتها واستقلالها .

ومن أولى من الأبناء بأن يجنوا ثمرة تجارب الآباء وعلمهم. ومما يدعو إلى الأسف أن العكس هو الحاصل، أى أن الآباء شديدو الحرص على حرمان بنيهم ثمرة تجاربهم وعلمهم، حياء وخجلا، أو جهلا، وأن الشباب من الجنسين يتعثرون، ولا يجدون لهم هاديا، ثم لا يستخلصون العبرة من التجارب، ولا يقفون على الحقائق التى كان ينبغى أن يعرفوها ويحذقوها فى صدر حياتهم، إلا بعد الأوان !

إبراهيم عبد القادر المازنى



لو كنت أعزب ؟[1]

لو كنت أعزب لما أطقت الحياة – أو هذا أكبر ظني الآن، وأنا أدلف إلى الستين، وبعد أن ألفت حياة من له زوجة وبنون، والعادة يصعب على المرء أن يغيرها بعد طول الجرى عليها، على أني جربت الحياتين – حياة الأعزب، وحياة المتزوج، فقد ماتت زوجتي الأولى فلبثت ثماني سنوات معرضا عن الزواج، لا زهدا فيه أو نفورا منه، بل حتى يكبر ابني قليلا، ويستغني عن كفالة امرأة أبيه، فلما اطمأن قلبي تزوجت مرة أخرى، أو "تأهلت" كما يقول المصريون، أي اتخذت لي أهلا أي زوجة.. فلي من التجربة ما يجرئني على القول بأن الأعزب مسكين، بل مسكين المساكين! يسير في الحياة "مستفردا وحدا" كما يقول الشاعر، بلا أنيس، أو رفيق، أو معين، أو مشجع، أو سكن. ولو كان كل ما في الزواج أن تكون في البيت امرأة تهيئ له الطعام، وتعد له الثياب، وتمهد له الفراش، وتعينه على حاجته، لهان الأمر جدا، ولوسعه أن يستغني عن الزوجة بخادم أو خادمة، ولكن أكبر مزية الزوجة أنها "سكن" وأنها تقبض على نفس الرجل، وتفرغ على قلبه "سكينة"، هي في رأيي السعادة التي يحق للإنسان أن يطمع فيها، في دنيانا هذه، ولا يعجز عن الفوز بها ولا يقل أحد أن هذا القول يصدق إذا كان الزواج موفقا، أما إذا أخفق فمن أين تجيء هذه السكينة النفسية؟ ذلك أن التوفيق في الزواج، هو في الحقيقة القاعدة، وليس الإخفاق إلا الشذوذ والاستثناء، وما عليك إلا أن تراجع نسبة الطلاق في كل بلد لتتبين هذا، أي أن الأكثرين يتزوجون، وأن الأقلين منهم يخيبون ويفترقون .

---

(١) نشرت في مجلة "الهلال" في فبراير سنة ١٩٤٨ (ص٣٩، ص٤١) .

ثم إنى أذهب إلى أن الإخفاق يسأل عنه الرجل قبل أن تسأل عنه المرأة، لأنه هو الذى بيده الزمام، وهو الذى يحسن أو يسىء سياسة الزوجة. وليس قولى هذا من الغرور "الرجالى" وما أنا ممن يزدرون المرأة، أو يستخفون بها، أو يحاولون الغض من قدرها أو شخصيتها، أو يعدونها "جارية" لا أكثر ولا أقل، وإنما أنا ممن يعترفون بالحقائق الطبيعية التى لا خير في تجاهلها، وممن يؤثرون أن يزنوا الأمور بميزان صحيح أو دقيق، ليعطوا كل شيء حقه، بغير بخس، ويجتنبوا المغالاة والتجسيم والتهويل. والحقائق الطبيعية تقول أن الرجل دوره إيجابى، ووظيفته أيضا، ولا ينفى هذا أن فى الدنيا نساء هن أقوى من الرجال شكيمة وأصلب عودا، فإن هؤلاء قلة وفلتات. ومع ذلك أرى أن سياسة امرأة من هذا الضرب الشاذ لا تستعصى على الرجل الرشيد الحكيم، كما لا يستعصى علاج مرض بين على الطبيب العليم الحاذق. والمسألة في اعتقادى مسألة عقل وحكمة، لا مسألة "قوة" – أى قهر من جانب، وذلة من جانب آخر .

وأقرّب إليك ما أعنى، فأقول: تصور معلمًا مع فرقة من التلاميذ – أربعين تلميذًا مثلا – هؤلاء الأربعون، وإن كانوا صغارًا، يستطيعون أن يتناولوا معلمهم هذا ويقذفوا به من النافذة، ولو كان مصارعًا، ولكنهم لا يفعلون ولا يخطر لهم أن يفعلوا، لأسباب شتى منها التوقير الطبيعى المستقر فى النفوس للمعلم، ومنها – ولعله أهمها – قدرة المعلم على سياسة تلاميذه، فما يمنعهم هذا التوقير أن يستهينوا ويعبثوا به إذا بدت لهم منه حماقة أو سوء تصرف، أو قصور فى أية ناحية. وقد يكون علمه نزرا، ولكنه يستطيع بحسن التصرف والحكمة فى سياسة تلاميذه أن يعوض هذا النقص، وأن يحملهم على احترامه. فلا قيمة لكون المرأة شرسة أو نزاعة إلى السيطرة أو عنيفة سريعة الغضب، فإن كل هذا يعالج بالحكمة، وأحكم الحكمة أن تحرص على أن يظل الزمام فى يدك دون أن تراه المرأة أو تشعر به، وأن تسرق وعيها وتستولى عليه كما يسرقه منها النوم، بخفة ولباقة، وبغير إزعاج، ثم يصبح الأمر عادة: هى تظن أن الأمر كله إليها، وماذا يضيرك ظنها؟ ولكنها مع ذلك تنتظر رأيك قبل أن يكون لها رأى، وما يبدو لها أن لك فيه رغبة، قبل أن تستوحى هى رغبتها، بل لا تكون لها رغبة سوى رغبتك، أو إرادة سوى ما تريد .

والحياة الزوجية متعبة ولا شك، وهي تكلف الرجل والمرأة على السواء نصباً شديداً، ولكن أي شيء في هذه الحياة الدنيا هين؟ وإنها لتحمل الزوجين مسئوليات جسيمة، ولكن قيمة الحياة رهن بما يضطلع المرء به من تبعات. أما من تخلو حياته من التبعات - إذا أمكن هذا - فإنه يفقد حقه في الحياة نفسها، إذ ما خيره في الدنيا؟ وماذا يصنع فيها؟ ولماذا يبقى بها؟ وبأي شيء يستحق هذا البقاء؟ وما محله أو أثره في هذا الوجود الإنساني؟ إن كل عمل - بالغا ما بلغ من ضآلة الشأن - ينطوي على تبعة، ومن كان لا يعمل شيئًا - ماديًا أو أدبيًا - لنفسه ولأسرته أو للجماعة، أي من كان لا ينهض بفرض من فرائض الحياة، فأولى به أن يخرج من الدنيا .

* * *

ولست ممن يقولون أن المرأة هي وحي الأديب أو الفنان أو العالم أو غير هؤلاء، فإن في هذا القول مبالغة وتخليطا أيضا، والذين يلهجون بهذا الكلام الفارغ يعنون - في الأغلب - المرأة بالمعنى الجنسي، ولا أدري لماذا لا تكون الأم أو البنت أو الأخت، أو الصديقة - إذا أمكن أن تكون المرأة صديقا للرجل بالمعنى الذي يفهمه هو من الصداقة - هي وحيه إذا كان لابد من وحي؟ إن كل ما أعرفه - وأعترف به - في هذا الباب، هو أن المرأة أداة لإراحة أعصاب الرجل من الناحية الجنسية - وكذلك هو أداة لها - ومتى استراحت الأعصاب وسكنت وأعفيت من الاضطراب، تيسر التفكير الهادئ المتزن، والإنتاج في يسر وبغير إجهاد، واستطاعت الأعصاب أن تتحمل جهد العمل بلا كل أو ملل - أي أن هذه الراحة وسيلة للانتعاش والتنشيط، وأظن أن هذا بديهي لا يحتاج إلى بيان .

ولو كنت أعزب لعددت نفسي نصف حي، أو غير حي إلا على المجاز أو التسامح، لأنه لا يعد حيا من يجهل المرأة ولا يعرفها، وليس يعرف المرأة من لا يعرف الزوجة، ولو عرف ألف امرأة غيرها، فإن غير الزوجة لهو ساعة، أما الزوجة فهي الأداة التي اختزنت فيها الطبيعة سر الحياة كله، ولست أزعم أن كل زوج يفهم المرأة والحياة كما لا يفهمها الأعزب، فإن كل امرأة ككل امرأة أخرى في الطباع الأصيلة، ولكني أقول أن

الحياة لا تتم إلا بزوجة، أى بامرأة تشارك الرجل وتقاسمه حياته، ولا خوف من جورها عليه، فما تستطيع أن تجور إلا على رجل ناقص الرجولة أو قليل العقل، ولا خوف من سوء أثر الزواج في حياة الأديب أو العالم أو الفنان أو غير هؤلاء، كما لا خوف من العزوبة أيضا إلا إذا كان الرجل شاذًا ينفر من المرأة نفوراً لا مسوغ له .

كلا، لا أستطيع أن أتصور أني أعزب، لأنى لا أستطيع أن أشيح بوجهى عن أهم جانب من جوانب الحياة، أو أن أرضى بحياة تجعل المرء أشبه بحصان مشدود إلى مركبة، وعلى جانبى وجهه ما يحجب عنه ما حوله، ولا يسمح له إلا برؤية ما هو أمامه دون غيره .

إبراهيم عبد القادر المازنى

حب قديم[1]

كنت تلميذاً في المدرسة الخديوية، فقلت لزميل لي كنت آلفه "اسكت!"

قال: "ما هي الحكاية؟"

قلت: "أنا أحب!"

وكنت متهلل الوجه من فرط فرحي بهذا الحب الجديد، وكنت أتوقع أن يهنئني ويبارك لي فيه فإذا به - وكان أطول مني كما لا أحتاج أن أقول، فإن كل من خلق الله أطول مني - ينظر إلى من تحت إلى فوق، بغاية الازدراء ثم يقول: "تحب؟ أنت تحب؟ تعرف كيف تحب؟"

فوجمت هنيهة، ثم قلت: "كيف يعني ماذا؟ أحب والسلام!"

فقال: "رح! رح! كلام فارغ، ولعب عيال!"

فرحت - أعني انصرفت ساخطاً، ولم أكلمه بعد ذلك قط، وكنت أقول لنفسي: "شيء عجيب، ولماذا لا أحب إذا شئت؟ وما شأنه هو؟ وما سؤاله هذا عن الكيف؟ أترى الحب أكلة تطبخ؟ سبحان الله العظيم" !

وكانت محبوبتي هذه - ولم تكن الأولى، ولا الأخيرة - فتاة في مثل سني، وتلميذة بالمدرسة السنية، وكنت ألقاها - أو أراها - كل صباح وأنا ذاهب إلى المدرسة، وكل عصر وأنا عائد إلى البيت، فطريقنا واحد - (وكان درب الجماميز) سوى أن بيتي

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٧ فبراير سنة ١٩٤٨ (ص١٢) .

في طرف منه، وبيتها في الطرف الآخر. وكانت تأتزر - أي تتخذ "حبرة" سوداء براقة، وتضع على وجهها برقعًا أبيض، ينسدل من أرنبة الأنف ويحجب ما تحته - أي الفم والذقن والعنق والخدين - وكان يرافقها في جيئتها ورواحها خادم أسود الوجه لماعه، كالفحم الكوك وعلى رأسه لفة بيضاء ناصعة، فأبيض ما فيه عمامته وأسنانه، وكان يحمل لها كتبها وكراساتها، ويحرص على أن يتخلف عنها مقدار خطوة، فهو معها، وليس معها، ولعل هذا ما كانت تقتضيه "المراقبة" أو "الحراسة" أو "الأدب" !

ولم أكن أكلم "حبيبتي" هذه، ولا كانت تكلمني، ولكن - على الأيام - صارت العين تقع في العين، ولم يكن معي خادم كخادمها، وأنى لي به، وأنا فقير، أخرج كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، فأستبضع للبيت - أشترى له اللحم والخضر - إذا طبخنا لحما - أو "الفول النابت" أو "العدس" وأدس في جيوبي عشر برتقالات - بنصف قرش من فضلك - !

ومع وضوح فقري، فقد كانت ثيابي رثة - لا كل الرثاثة - ولكنها قديمة على كل حال، فقد كانت البذلة الواحدة "يجب" أن تكفيني عامين - على الأقل - وكنت أستحيي من قدم ثيابي، بل من تعريقها في القدم، وأنفر من أترابي وزملائي لهذا السبب، وأتقي كثرة اللعب مخافة أن تبلى الثياب، وأن لي بغيرها؟ ولهذا كنت أكتفي برياضتين: الجري أو العدو، واللعب على المتوازيين ثم أغريت - وروح الطفولة غلابة - بالوثب فوق "الحصان" - كما كنا نسميه - فوثبت مرة وثبة عظيمة، فتخطيت "الحصان" والمرتبة التي وراءه، ووقعت على الأرض الصلبة، فهيضت ساقي قليلا، وكان هذا نذيرا بما أصابني بعد ذلك، ولكني في سني وميعتي لم أحفل بهذا .

أقول أنه مع وضوح فقري كانت الفتاة الحلوة المشوقة ذات الخادم الأسود اللماع الوجه كالفحم الكوك - تلقى إلي، كلما التقينا بنظرة - وكنت يومئذ شابا عفيفا لأني نشأت في بيت فيه مصلي، وكانت حلقات "الذكر" تعقد فيه مساء كل خميس وصباح كل جمعة، إلى آخره! وياما أطول حسرتي الآن على ما ضيعت وياما أكثر ما تزوغ العين اليوم، ويتقطع القلب ويتوجع! وآه، وألف آه لو كنت ركبت بشبابي،

ما يركب المرء!! إذن لأحسست الآن في كهولتي، أو شيخوختي إذا شئت، بالرضى! ولا أطيل في هذا، فإنه لا يخف على النفس .

وظللت أرى "حبيبتي" هذه عامين، ولم أكن عفيف النفس، وإن كنت عفيف اللسان، فقد كانت هذه "الحبرة" السوداء البراقة، تطير عقلي! آه لو رأيت ما تحتها!. وقد كنت يومئذ "أعف عما في سراويلاتها" كما يقول المتنبي، ولكن هل أقل من المتعة بالنظر؟؟

وليتصور القارئ موجدتي على الأيام، وأعينه على التصور فأقول أني عدت إلى بيتي ليلة، فعانقتني امرأة في الحارة؟! فهل يدري القارئ ماذا كان مني؟ سيضحك ولا شك حين أقول أني ظننتها "عفريتة" وتخلصت من عناقها وذهبت أعدو إلى بيتي !!

ومضى عامان، وإذا بقريب لي ينتحر! وذهبت إلى بيته أعزي فماذا تظن؟ انتحر لأن فتاتي "حبيبتي" التي أراها كل يوم – مسافة عامين – أبى أبوها أن يزوجه إياها، وكان يحبها، ففقد أعصابه وانتحر !!

ودار الفلك، وسلوتها كما سلوت غيرها، وإذا بي مرة في الترام أرى سيدة خيل إلي أني أعرفها، ومعها غلامان، وكانت تنظر إلي كما أنظر إليها، فتشجعت وسألتها :

"هل بيننا معرفة؟"

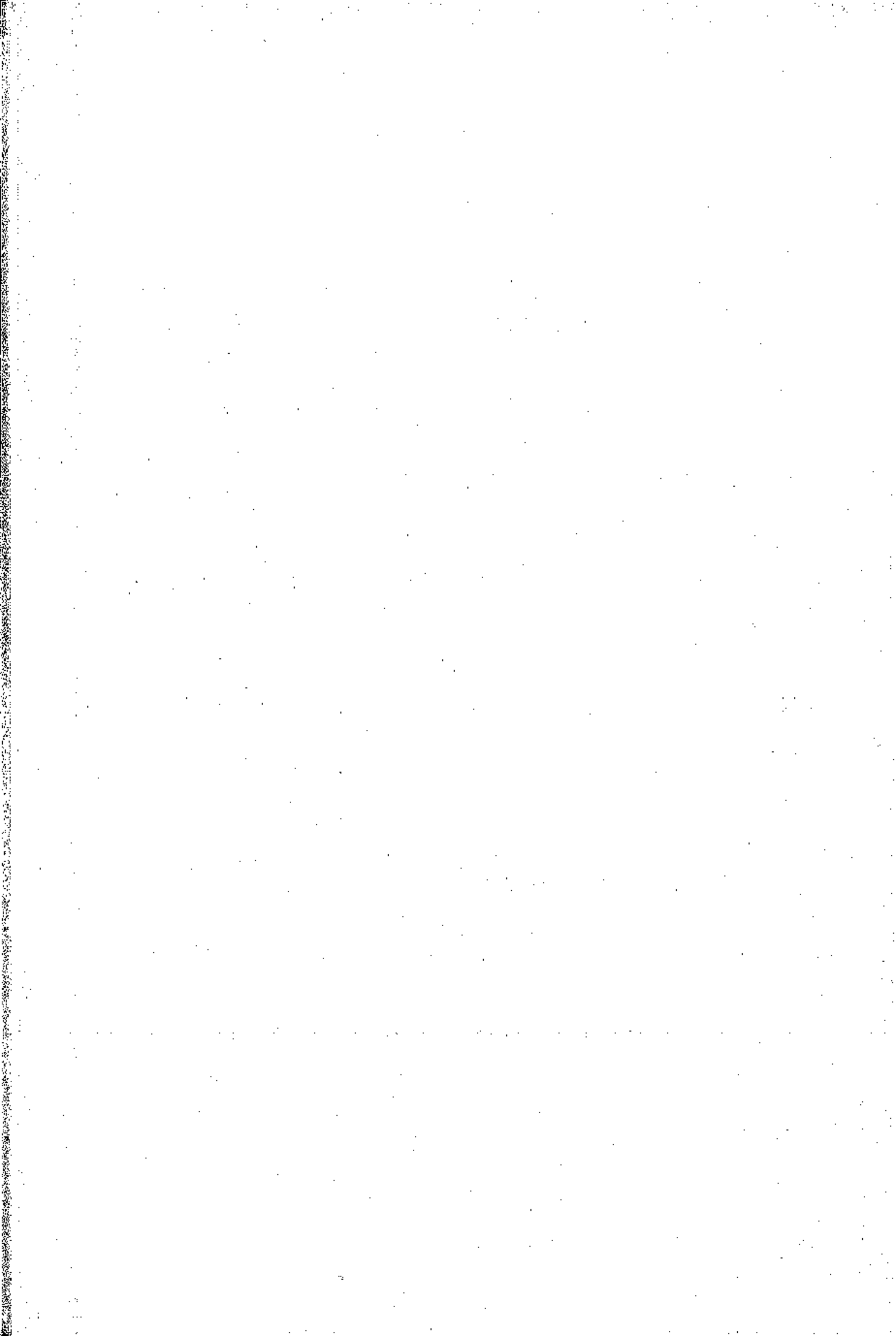
قالت: "أظن"

وعرفتني بنفسها وعرفتها بنفسي، فقلت لها: "هذان كان يمكن أن يكونا ولدي، ولكن الحظ جرى بغير ذلك – على كل حال أرجو أن تكوني سعيدة!"

وما زلت أرجو لها السعادة، وإن كنت لا أعرف اسمها، ولا مكانها – ولا شيئًا عنها .

رحم الله هذا الحب القديم! ما كان أحلاه على الحرمان والكبت !

إبراهيم عبد القادر المازني



ميراث من الاستبداد والاستعباد[1]

كتب إلي، بعضهم – أو حدثني فقد نسيت على قرب العهد – أنه سمع في الطريق ناسا يصيحون "حرامي! حرامي!" وبعد خطوات رأى رجلا عالي السن يمشي الهويني، وبعضهم ممسك به، ومن حولهما خلق كثير، ثم أقبل شرطي، فرفع يده، ولطم الرجل لطمة قال محدثي أنه أحس أنها أطارت أسنانه. وجارى الناس الشرطي فانهالوا على "الحرامي" لطما، وصفعا، وركلا. ويسألني: إذا كان هذا الرجل مذنبًا فإنه سيلقى جزاءه الذي قضى به القانون، فلماذا هذه المهانة وذلك الإيجاع ؟

وأظن أن هذه قصة ليس فيها جديد، فإنا نرى نظائر لها كل يوم. وقد يكون لهذا الشرطي بعض العذر، وهو أنه أولا شبه أمي، لم يثقفه أحد لا في البيت ولا في المدرسة ولا في حيث يعمل، أو كان يعمل قبل أن يصبح شرطيا، وأنه وجد هذا الرجل مقبوضا عليه في "حالة تلبس"– إذا كان هذا هو التعبير القانوني – وأنه أخيرا سيتعبه ويحوجه إلى الذهاب إلى "القسم" والإدلاء بأقواله في التحقيق إلى آخر ذلك وهذا عناء، أيسر منه، وأخف أن يتمشى ويتفرج على خلق الله في المنطقة التي وكل إليها أن يحرسها ويراقبها .

على أني أرى هذا هينا بالقياس إلى غيره مما رأيته بعيني رأسي، فقد زرت مرة مركزًا اجتماعيًا – أو لا أدري ماذا يسمونه – في بعض الريف، وهذه المراكز مجمولة للإرشاد والتوجيه وترقية الأحوال من وجوهها المختلفة، ومع ذلك رأيت الناس يضربون ويشتمون ويهانون! حتى لقد كرهت البقاء، فانصرفت يائسا من أي جدوى لمثل هذه المنشأة .

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ١٤ فبراير سنة ١٩٤٨ (ص٣) .

ودخل علي ذات يوم ولد لي، وكان طفلا صغيرا يلبس "بنطلونا" قصيراً، وإحدى ساقيه تدمى، والدم يسيل من جرح تحت الركبة إلى الحذاء، فتعجبت وسألته عن الخبر، فقال "نسيت كراسة، فضربني المدرس برجله – أي بحذائه – فكان ما ترى" فظهرت الجرح على قدر ما أستطيع، وقصدت بالولد إلى طبيب، اتقاء لعواقب هذه الركلة بحذاء قذر .

وكتبت إلى المدرسة أعرب عن دهشتي وتعجبي، وأقول أني معلم قديم لم أحتج أن أعاقب تلميذاً – ولا بنظرة – في عشر سنوات، وأن التربية لا تكون بالضرب، فما ظنك بالركل بالحذاء، وأن أطفال أمة يركلون بالأرجل وهم يتعلمون وينشأون، لا خير فيهم لهذه الأمة، لأنهم سيكونون "جيلا من العبيد الأرقاء" .

وقد تلقيت اعتذاراً واستغفاراً – وكان ناظر المدرسة رجلاً طيباً كريماً، وأراد أن يجرى تحقيقًا مع المدرس، فأبيت هذا، وجاء المدرس إلى، يعتذر، ويبالغ في الاعتذار حتى لقد خجلت – لا منه بل له – بل لأن للمعلم كرامة، دونها كل كرامة، وقد كان المسيح عليه السلام يسمى "المعلم" وكذلك الفلاسفة الكبار القدامى، غير أن الذي زاد عجبي وسخطي أن حضرة الأستاذ حدثني أن معلمه في صغره ضربه فأحدث له "عاهة مستديمة" في إصبع! ومع ذلك يضرب التلاميذ ويركلهم بالحذاء !!

رويت هذا كله لأقول أن هذا بعض ما أورثنا الاستبداد الطويل القديم، فنحن أحرار بحكم القانون ومتساوون في الحقوق والواجبات بحكم الدستور والقانون، ولكن أثر الاستبداد القديم الذي ظل قرونا مديدة، لم يزل، فالموظف يعد نفسه حاكما، وللحاكم أن يفعل ما يشاء، وغير الموظف "رعية"، وعلى الرعية الطاعة ولو ظلمت – حتى أعمال البر والخير لا تخلو من معاملة الذين هم موضع البر والاحسان، بالقسوة والعنف والغلظة، أو على الأقل جدا بقلة الترفق، حتى المستشفيات تساء فيها معاملة المرضى – ولا سيما المستشفيات الحكومية – لأن عمالها في طبقة "الحكام" .

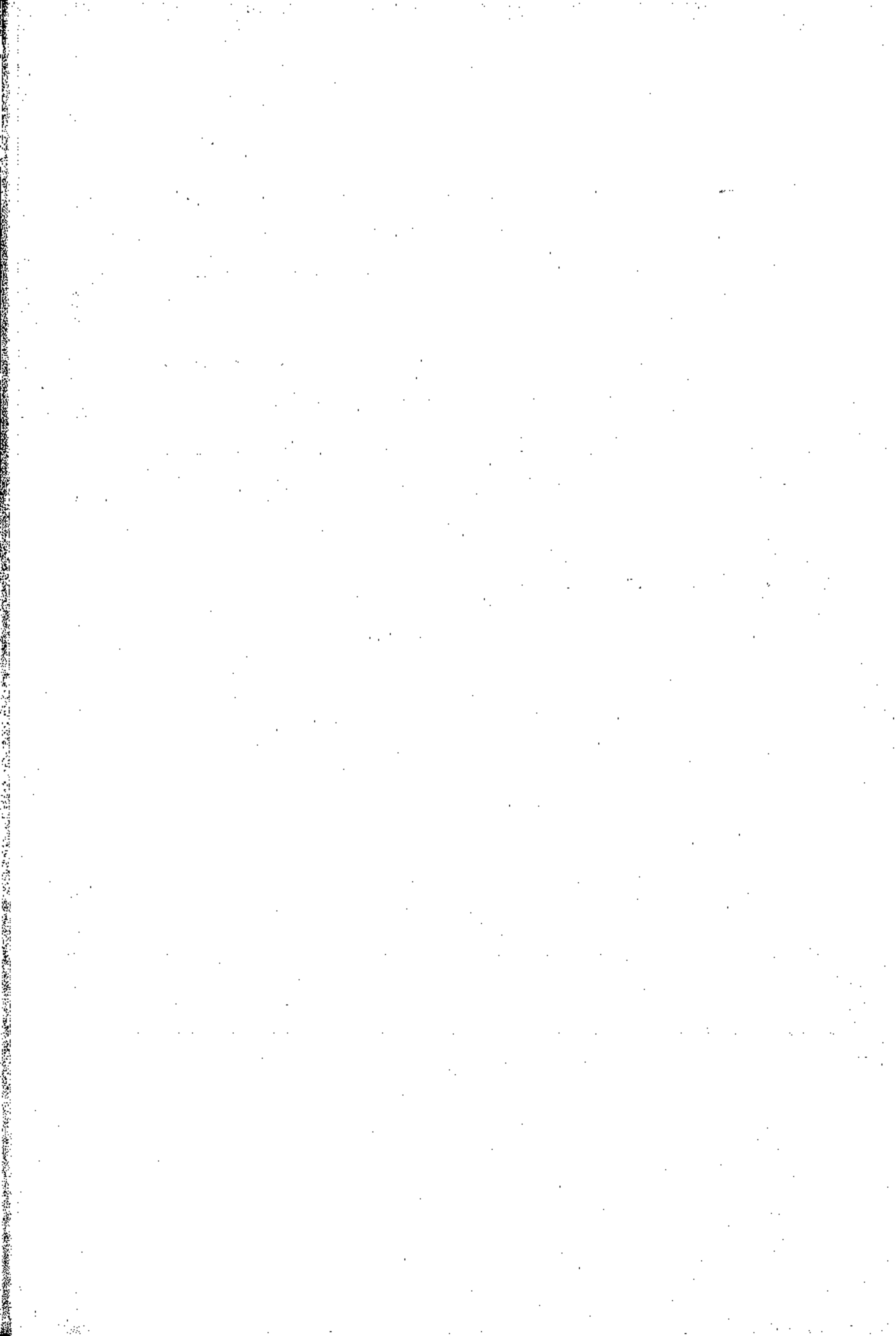
هذه العقلية تتغير – ولا يمكن أن تتغير إلا – بوسيلتين: الأولى – التعليم الصالح، وهو ليس مجرد تحفيظ مبادئ العلوم المختلفة، بل هو قبل كل شيء توجيه وتهذيب،

والثانية – التربية الاستقلالية وقوامها فهم الطفل واحترامه، وتعويده الشعور بكرامته – كرامته الشخصية، وكرامته العائلية، وكرامته الاجتماعية، وكرامته القومية، وكرامته الإنسانية – ومعرفة حقوقه والحرص عليها، واحترام واجباته ومسئولياته الخاصة والعامة .

وأعترف – وأنا أتأمل أحوالنا كلها – أني أكاد أيأس من صلاح الحال، ولكني تعودت الكفاح، فأنا أدفع اليأس بالتشبث بالأمل ولو كان خيطًا ضئيلاً .

ألا من لهذه الأمة المسكينة التى تحمل عبئا ثقيلا من عشرات القرون!! ربنا قادر أن يهيئ لها من يطرح عنها هذا الذى أورثتها قرون الاستبداد والاستعباد. أليس الله قادراً على كل شيء؟ أليس معدن الأمة سليما؟ إذن فلا يأس ؟

إبراهيم عبد القادر المازني



هل يحفر الشيوخ قبورهم بأيديهم[1]

لا أدرى ماذا دها شبان هذا الزمان؟ الدنيا كلها تجدُّ وهم يلعبون، وتكدّ وهم يتمطون ويتثاءبون، وتسعى وتدأب وتتشدد، وهم يريدون أن يكتفوا بأن يفتحوا أفواههم لتملأها لهم الملائكة بما يشتهون !

حدثنى بعض الإخوان، قال إن روحا عجيبة تسرى بين الشبان من مظاهرها قولهم إن الشيوخ يسدون فى وجوههم كل فج، وأن عليهم - أى على الشيوخ - أن يفسحوا لهم، ويتنحوا عن طريقهم! فلم أفهم المراد. أهو أن يحفروا قبورهم بأيديهم قبل أن يوافيهم الأجل، ويئدوا أنفسهم فيها، وعليهم أكفان من رغبة الشباب فى زحزحتهم عن ميادين الحياة؟ وماذا ترى يمنع الشباب أن يستولوا هم على الميادين بما أوتوا من حيوية، وعلم، وذكاء وابتكار؟ هل يسع شيخًا بالغًا ما بلغ من الاقتدار أن يمنع شابا أن يبلغ بمجهوده حيث يريد، أو حيث يستطيع ؟

قال صاحبى الذى روى فى هذا الذى كنت أجهله والذى أرجو أن لا يكون صحيحًا: "أنهم يحسدون الشيوخ وينفسون عليهم ما استطاعوا أن يوفقوا إليه، ويريدون أن يخطفوا الثمرة التى لم يغرسوا شجرتها ولم يتعهدوها" .

قلت : ليس هذا بحسد، وإنما هو كسل، والكسل جهل، والجهل عجز، وماذا يستطيع الجاهل أو المقصر فى حق نفسه وحق الجماعة عليه، وحق الحياة نفسها، فى عالم أصبح كل ما فيه يقوم على دعائم من العلم الصحيح ؟

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٨ (ص١٢) .

وفكرت في هذا الذي حدثني به الصديق، وأديرته في نفسي، فقلت إنه لا شك في أن بشبابنا كلا، أو سمه "فتوراً" إذا شئت، عن التحصيل، وعن حشد الأهبة التي لا غنى عنها لمن يريد أن يشق لنفسه طريقا في الحياة، ولم يكن جيلنا كذلك، فقد كنا نستقل ما نتلقاه من الدروس، ونعكف على القراءة غير مكلفين، ونقتصد من "مصروفنا" الضئيل، ليتسنى لنا أن نشترى كتابًا نقرؤه، وكنا نتبادل الكتب بعد قراءتها، لقلة المال في أيدينا، وأتذكر أنى في مدرسة المعلمين، اشتريت كل ما وسعني شراؤه من الكتب في التربية وتاريخ رجالها، فلما رآها معي الأستاذ، قال لي : ما دمت تقرأ هذه الكتب فلا حاجة بك إلى مذكراتي، فإن هذه هي التي أرجع إليها وأعتمد عليها في دروسي فخجلت، وأظهرت له العناية بمذكراته، وكانت جديرة بذلك .

وأنا أقول أنى أزداد كل يوم جهلا، فيظن الذين يسمعون منى هذا، أنى أتكلف التواضع، وليس هو من التواضع في شيء، فإنه الحقيقة لا أكثر ولا أقل، ذلك أن الإنسان، كلما توسع في القراءة، أو إذا شئت كلما زاد علمه، ازداد شعوره بالجهل، أى بالبون الشاسع بين القليل الذي يعرفه والكثير، بل المهول، الذي يجهله .

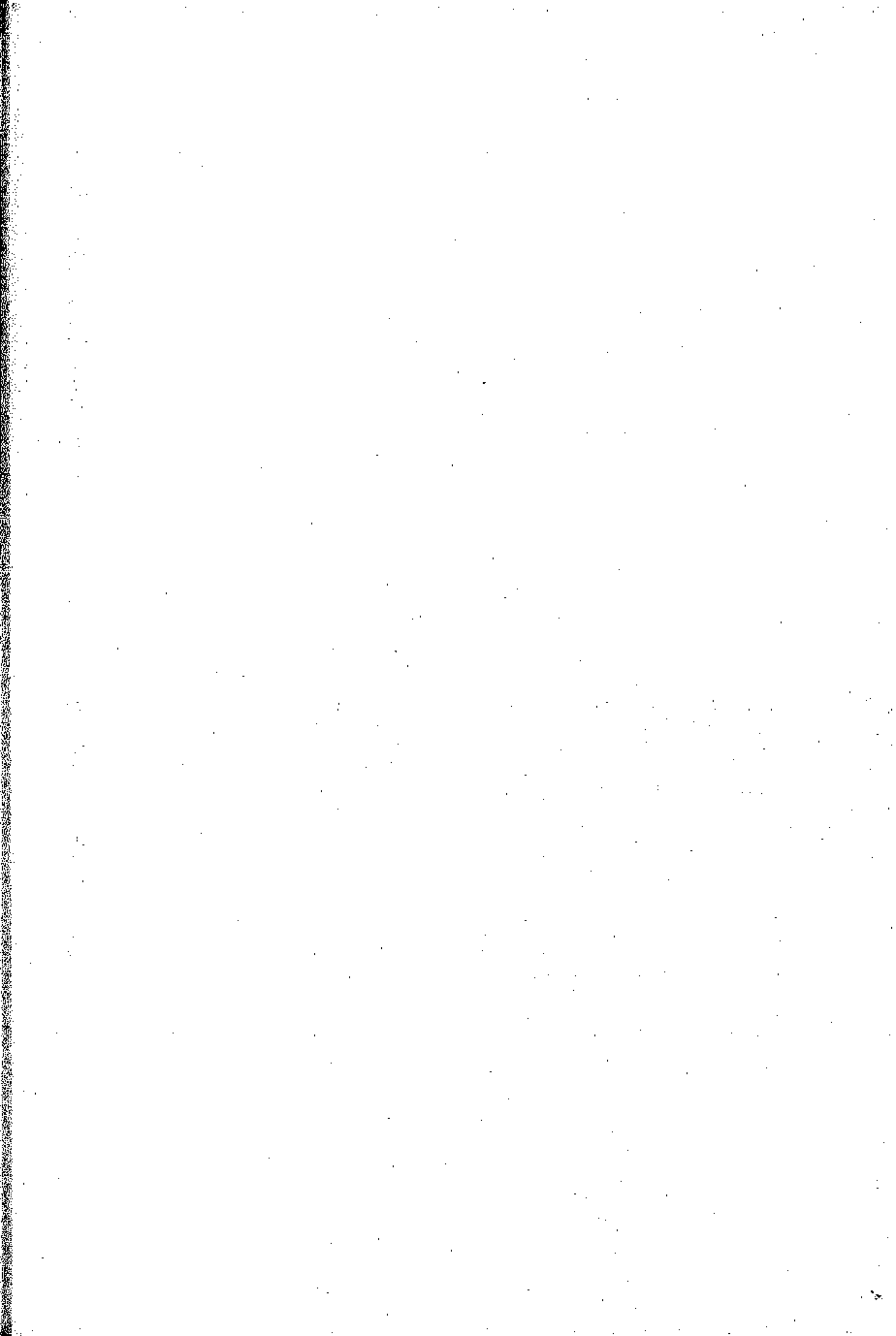
وأنا أكتب منذ سنة ١٩٠٧، أى منذ أربعين سنة، وزاولت التعليم، ثم الصحافة، وصارت لي فيها شهرة، وتوليت رياسة التحرير في صحف مختلفة، ومع ذلك ظللت إلى سنة ١٩٣٠ لا أفيد من أدبي مالا! وكان ما ينشر لي في باب الأدب يعد "فوق البيعة" وكان نشره - بغير أجر - يحسب علينا لا لنا، أى أنه تفضل من الناشر، ومنة تذكر له فتشكر، وبعض كتبي لم أربح منه مليما واحداً، وبعضه كان نشره نكبة تغرى بالضحك، وشر البلية ما يضحك كما يقولون. ولم أكن وحدي الذي عانى ذلك، وما أظن أن حياة إنسان تخلو من المصاعب والمتاعب والمشقات في بدايتها، وما أكثر ما تطول هذه البداية، وتمتد إلى آخر العمر، فتكون نهايتها هي النهاية والخاتمة لكل شيء! وما أقل الذين يولدون وفي أفواههم ملاعق من الفضة أو الذهب! وما قال أحد أن الحياة فردوس، أو ملهى، وكل إنسان يقول لك إنها ميدان عمل مضن، وكل عمل لابد له من أداة، تظفر بها بعد عناء، وتتقنها وإلا فالخيبة المرة هي المآل، أما من يعتمد على الحظ فما أشبهه بغافل أو سكران يستند إلى خيال شجرة !

على أنى راجعت نفسى فقلت أن الشبان مجنى عليهم فى هذا الزمان، فالذنب – إذا أردت الحق – ليس ذنبهم، ولماذا لانعذرهم إذا تعجلوا، وزهدوا فى التحصيل، وملوا إتقان الأداة، وهو يرون منذ شبوا من الطوق، أمثلة شتى – تعد بالآلاف – للنجاح بغير فضل أو حق؟ ولماذا تلومهم وهم يشعرون بثقل وطأة الحياة، ويتلفتون فلا يجدون معينا، ولا تقع أعينهم على منصف؟ ومالهم لا يسأمون ولا يحاولون قطف الثمار، وهم يلفون أنفسهم بين أعمال حرة يحتكر معظمها غير المصريين، وأعمال حرة أخرى مصرية لا تخلو من عيوب الوساطات والشفاعات، ولا تجعل الجزاء على قدر الاجتهاد، وحكومات غافلة مستخفة بمعانى العدل والحق، مقصرة فى الإصلاح، مكتفية بفرحتها بأبهة الجاه والسلطان؟ ولماذا لا يكسلون ويفترون عن التحصيل الجدى، وأسلوب التعليم فى المدراس يغريهم بذلك ويشجعهم عليه ؟

ولا أحب أن أطيل وحسبى أن أقولها كلمة موجزة صريحة أن عيوب شبابنا كثيرة حتى أن المرء ليسأل الله السلامة لهذا البلد ولكننا نحن الشيوخ مسئولون عما انتابهم، فقد أفسدناهم لأن أساليب التربية والتعليم فاسدة، ولأن الشاب يتلفت فلا تقع عينيه إلا على فساد فى كل ناحية. وقل لى بالله أين يجد الشاب القدوة الحسنة الصالحة ؟

والمعول مع ذلك، وعلى الرغم من ذلك، على هؤلاء الشبان الذين أفسدناهم، وسيكون الأمر كله إليهم يوما ما، فعليهم أن يوطنوا أنفسهم على ذلك، وأن يتهيأوا لهذا اليوم، ويعدوا له عدته، ليكونوا أهلا لما سيوكل إليهم، وليست العدة أن يكسلوا ويستعجلوا، وإنما العدة أن يتقن كل واحد أداته، وأن يدرك أنه مستقبل أمة، وأن الأمر ليس أمر لقمة قد تبطئ على الفم، أو تكون غير سائغة، فستجيء اللقمة المشتهاة فى أوانها، والصبر كما يقولون طيب، وأطيب منه، وأكفل بالنجاح، الجد والكد .

إبراهيم عبد القادر المازنى



أربّي أولادي على الرقة والقوة(1)

كان أحد أبنائي، وهو صغير، إذا رأى قطرة من دم إنسان أو حيوان أو طير، تتهض معدته، ويكاد يغمى عليه، فكنت أرضى وأسخط في آن معًا، فأما الرضى فعن هذه الرقة في القلب، وذلك النفور من مناظر الألم في صوره المختلفة، واستبشاعها، وكراهة القسوة، وأما السخط فلأني كنت أخشى أن تفضي الرقة إلى الضعف، فتترك صاحبها خرعا، سريع الجزع، قليل الجلد، والدنيا قاسية، والحياة لا ترحم، وقد بلوت من المحن، وتقلب الأحوال بي، ما أقنعني بأن المرء ينبغي أن يكون طودًا راسخًا، لا يعبأ – بل لا يحس – بالعواصف والأعاصير، وصرت، كلما أصابتني مصيبة، أتمثل بقول الشريف الرضي وأكرره وأردده: "لا زعزعتك الخطوب يا جبل!" لأقوى ضعفي، وأزيد قدرتي على التحمل والتجمل، وأغرتني الحاجة إلى التشدد، بالتفلسف على نفسي: وأحمد الله، وأشكر نعمته علي، فقد سكنت، وأصبح عندي كل شيء ككل شيء، وكل حال ككل حال، فلا المال يبطرني، ولا النعيم يفتنني، ولا الفقر يشق علي، ولا الحرمان يشقيني، وأعانني على ذلك أني نظرت إلى الناس طرا، وإلى نفسي، ثم إلى هذا الكون المهول الذي لا أول له يعرف، ولا آخر له يدرك، وإلى "جملة" الحياة فيه على اختلاف مظاهرها، ووضعت هذا الناس في كفة، وهذا العالم في كفة، فشال الناس، فاستحييت أن أضع نفسي في الميزان أمام كون لا وزن فيه للناس طرا، وصرت أقول لنفسي: من أنا؟.. ماذا؟.. ولا أجد جوابًا سوى أني أنا وهذا الناس جميعا "لا شيء"! إذن يستوي أن أجزع وأن أصبر وأتجمل وأتحمل، فالصبر والتشدد أول وأرشد، وقد يكون الصبر – أو القدرة على – مظهر بلادة، أو يكون مظهر إدراك صحيح، ولكنه على الحالين هو الأخلق بالإنسان .

---

(1) نشرت في "أخبار اليوم" في ٢٧ مارس سنة ١٩٤٨ (ص١٢) .

وأضحك من نفسي أحيانا، وأركبها بالسخر من تفلسفها، وأسألها: ما الفرق بالله، في نظر "الحياة" بين أن تكون صابرا غير جزوع عن بلادة، وبين أن تكون كذلك عن إدراك صحيح؟.. إنه لا فرق عند الحياة، لأنها لا تباليك جزعت أم صبرت، لأن همها أن تظل مظاهرها باقية، لماذا؟.. لا يدرى أحد، لا أن تسعدك أو تشقيك، فلتسعد، أو فلتشق، هذا لا يعنيها، وهى لا تقصد إليه، ولعلها لا تفهم هذه السعادة التى تنشدها أو الشقاء الذى تتبرم به وتسخط عليه .

ورأيت مرة بيتا للنمل في أصل جدار، خرجت منه مئات وآلاف من هذه المخلوقات الصغيرة، خرجت منه صفا طويلا، وعادت إليه صفا طويلا، متعاونا على حمل قشة لو نفختها لطارت عشرة أمتار، فهممت أن أدوس هذا النمل كله، وماذا لو فعلت؟... آلاف من الأرواح أزهقتها بوطأة قدم!.. وأى قدم؟.. قدم رجل فيه من الضعف فوق ما فيه من القوة!.. بل كله ضعف، وليست له قوة، وأية قوة له أمام هذه "الحياة" العاتية التى لا تعرف إلا قانونها الصارم ؟..

ولو دست هذا النمل لهلك منه آلاف، ولكن النمل يبقى، ويظل يروح ويجيء إلى بيوته، ولا [يفنيه] ذهاب آلاف منه، ولا يمنعه هلاك هذه الآلاف أن يعتقد أن دنياه هى الدنيا، وأن حمل القشة إلى بيت من بيوته أهم ما فى الحياة، وأن التضحية بهذه الآلاف فى سبيل قشة، لا تستكثر ولا تستهول .

فقلت لنفسي، وأنا أتأمل هذا النمل، هذا هو حالنا نحن بنى آدم!.. قشة نشقى فى سبيل الفوز بها، ويدوسنا القدر، فنهلك، ولكن يبقى الجنس الإنسانى، والقدر لا يتعمد دوسنا وهلاكنا، فإنه ماض فى طريقه، وما أهلكنا إلا أننا كنا فى الموضع الذى كان لابد أنت تطأه قدمه .

وفكرت فى التربية وصعوبتها. إذا تركت ولدى على الرقة خفت أن يكون ضعيفًا خوارا، وإذا قويت ضعفه، خفت أن يكون متمردًا جبارًا، والوسط بين هذين عسير مطلبه، فإنا كما يقول "هكسلى" فى كتاب حديث له، نعيش فى "ثورة" وقد جاءت هذه الحرب وأعقابها بما أضعف الثقة - بل ضيعها - بالعدل والحق، وكاد يقضى على

الإيمان بهما، وعود الناس القسوة وغـلاظة الكبد، وأنذرتهم القنبـلة الذرية أن الدنيا – أو الحضارة – إلى فناء، وقد يكون في هذا تهويل مقصود، ولكن الجماهير في كل أمة جاهلة، والإلحاح بهذا التهويل [موئس] ، فإذا تنتظر؟.. الدنيا – أو الحضارة – ستفنى قريبا، فماذا يبقى من قيمة القوانين، أو الشرائع، وما قيمة التعاطف والتراحم والمؤاخاة، والمساناة في عالم هذا مآله القريب الذي لا مفر منه ؟..

من ذا الذي يستغرب هذا الإجرام الذي فشا في العالم، وبلادنا في جملتها؟.. أما أنا فلا أستغربه، فإنه مظهر يأس، لا من أحوال اجتماعية خاصة في بلد من البلدان، بل من أحوال عالم بأسره ممتحن بمعاناة ثورة أو انقلاب في تفكيره واتجاهاته، ومحتاج إلى زمن طويل حتى يستطيع أن يستعيد سكينة النفس، واتزان الأعصاب، والقدرة على التفكير الرشيد القويم .

كيف يربي الرجل ابنه في هذا الزمن الحافل بعوامل الاضطراب النفسي ؟..

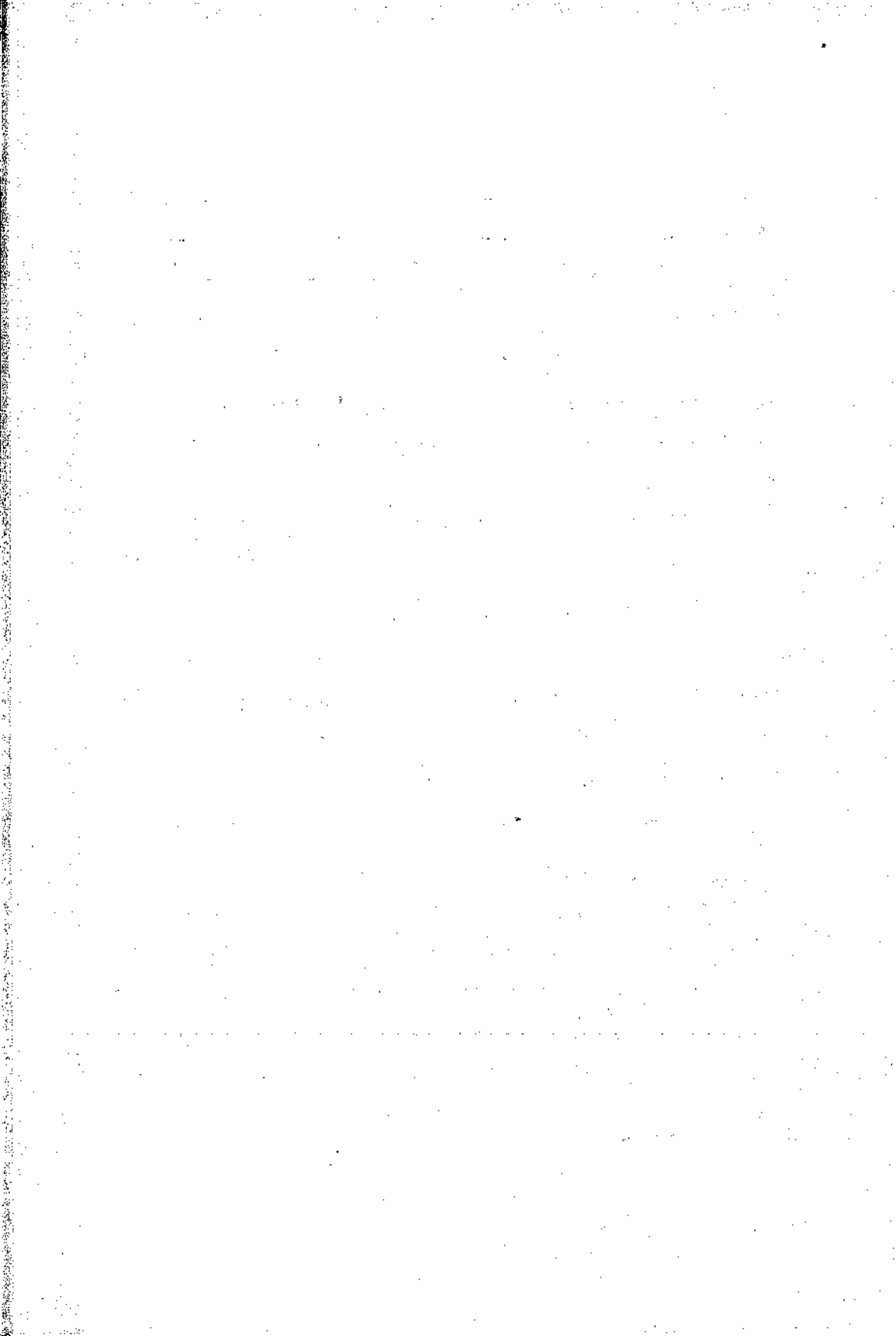
أعترف أني حائر، ولكني آثرت أخف الشرين، وحاولت – وأرجو أن أكون قد وفقت – أن أحتفظ لابني برقة قلبه، وأن أقوى نفسه من ناحية أخرى حتى لا يضعف، أو يعجز عن التشدد في المواقف التي تتطلب الجلد وقوة القلب .

ومن يدري أأصبت أم أخطأت؟ ووفقت أم خبت؟.. جواب هذا رهن بالامتحان. وياما أكثر ما أقول لنفسي: "تحاول أن تعالج ضعف ابنك وأنت أضعف منه ؟..

ثم أقول في الجواب – وكل امرئ مغرى بإنصاف نفسه –: "ولم لا؟.. ألست قد كبرت وعرفت أشياء، وصار السلطان لعقلي دون شعوري أو عاطفتي، في الأغلب؟.. ومن أولى من ابني بأن ينتفع بتجاربي وبما بلغته من الرشد؟.." ثم أعود فأقول لنفسي، وأنا أهز رأسي: "وهل رأيت أحداً انتفع إلا بتجاربه هو دون تجارب الناس ؟

الحق أقول أني حائر لا أهتدي، ومضطرب لا أستقر، ولا عجب، فهل أنا إلا بشر؟.. أو نملة في هذا الوجود المهول، مشغولة بقشة، قشة ليس إلا ؟!..

إبراهيم عبد القادر المازني



هل نحن فى بلد العجائب ؟[1]

"حقًا إن مصر بلد العجائب!" قالها لى صديق من إخواننا العرب، غيور على مصر كغيرته على وطنه .

فقلت له: أحسبك تعرف كلمات كثيرة تشيع وتجرى على الألسنة كأنها صواب محض، وهى فى الحقيقة خطأ صرف، ولهذا أرجو أن تذكر لى أعجوبة واحدة من أعاجيب بلدنا الذى يتوهم كثيرون - ومنهم مصريون - أنه بدع بين الأمم، وشاذ من كل مألوف ومعهود .

فأجاب بسؤال: "ألا ترى معى أن قضية مصر كانت أولى بغيرة أبنائها واتحادهم من قضية فلسطين؟ أليست الحكمة المأثورة تقول "إبدأ بنفسك ثم بمن تعول"؟ وإن فلسطين لحبيبة إلينا وعزيزة علينا، وأن الدفاع عنها والاحتفاظ بها لأهلها العرب لواجب مقدس، ولكن ألا ترى كما ترى أن من عجائب بلدكم أن يهب هذه الهبة القوية المدهشة فى سبيل فلسطين، على حين بدا لنا كأن قضيته هو لا تعنيه، فلولا ما تكتبه الصحف لما شعرنا أن لمصر قضية ؟"

قلت : كلا، لا أرى فى هذا رأيك، وإنى أستأذنك فى كلمتين، ولك بعد ذلك أن تذهب إلى ما شئت من تأويل أو تفسير :

فأما الكلمة الأولى فهى أن المصرى يشعر بضيق وملل لمكابرة الإنجليز وتلكؤهم فى إنصاف مصر، ولكنه يشعر أيضا بثقة واطمئنان، فإن قضيته عادلة، وحقه ثابت، والإنجليز أنفسهم لا ينكرون هذا الحق، ولا يجادلون فيه بخلاف، وإن كانوا يماطلون

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ١٢ يونيه سنة ١٩٤٨ (ص٦، ص١١) .

ويطاولون، ويرجئون ما وسعهم الإرجاء، والنزول على ما يقتضيه الاعتراف لمصر بحقوقها، وبواعثهم على هذا السلوك معروفة، ولا خفاء بها، ولسنا نقرها، أو نسلم بأنها تقتضى منهم هذا السلوك حيالنا، ولكن المصرى على العموم واثق مطمئن، مدرك فى قرارة نفسه أن حقه كاملا، واصل إليه لا محالة، وأنه لا خوف من ضياعه، مهما يفعل الإنجليز، وأنه يستطيع أن يتجاهلهم إلى حين، ولا يعبأ بهم، وأن يتولى جميع أمره بنفسه غير ناظر إليهم، أو متأثر بهم أو مكترث لما يقولون، أو يفعلون، – وهذا فى الواقع هو الحاصل الآن – فبقاء النزاع بيننا وبين الإنجليز لا ينفع الإنجليز ولا يكسبهم شيئًا، ولا يمنع مصر أن تستعمل حقها كاملا، وبأتم حرية فى الاستقلال .

أما قضية فلسطين فمختلفة جدا، والخطر عليها وعلى جاراتها عاجل ومحقق، والصبر هنا ليس بطيب، وفرصة اتقاء الخطر تضيع لا محالة إذا ترك الصهيونيون يمكنون لأنفسهم فى فلسطين، ويعدون العدة للوثوب منها على جاراتها .

والفرق كبير، بين أن تشعر بالملل وأنت مطمئن إلى النتيجة أو العاقبة، وأن تشعر بالخوف المزعج من خطر لا شك فيه على كيانك ووجودك .

وأما كلمتى الثانية، فهى أن ما تراه وتتعجب له من هبة مصر بقوة وعزم فى سبيل فلسطين، هى فى الحقيقة هبة فى سبيل مصر نفسها، أو قل إنها هبة مبعثها الضيق الذى يشعر به المصرى من مطل الإنجليز فى إنصاف بلاده .

وشرح ذلك إذا كان الأمر يحتاج إلى شرح، أن مصر مخنوقة مكبوتة منذ أكثر من خمسة وستين عامًا، أى منذ دخل الإنجليز أرضها، ولك أن تقول أنها مخنوقة من قبل دخولهم، وهل كان ما يسمى الحركة أو الثورة العرابية، إلا تنفيسا عن شعور مخنوق؟ وليست الحركات الكبيرة التى تشمل عددا عظيما من الناس، وتترك الباقين (حتى ولو كانوا الأكثرين) مشغولين بها – مثل الحروب والثورات وما إلى ذلك – إلا تحويلا للشعور العام إلى مجرى يكون أعون على التنفيس. وقد لا يعجبك هذا التفسير للحروب والثورات والحركات العامة، ولكنى أظن أنه تفسير صحيح، لأن هذه الحركات القوية تثير أو تحرك فى النفوس شعوراً قويًا مستغرقًا، وتصرفها عن كثير

مما كان يشغلها في العادة، بل مما كان يثقل عليها ويقيمها ويقعدها. فإني لأذكر أنى في خلال ثورة مصر على الإنجليز سنة ١٩١٩، كنت عاطلا، وكان بيتى على "تخوم العالمين" وأبعد ما يكون من العمران، ولم يكن لى مرتزق ولا أمل فى مرتزق، فكنت أخرج في الصباح وأنحدر إلى القاهرة وأجوبها كلها على قدمي، وأمشى فى المظاهرات، واستقى أخبار الحوادث هنا وههنا، حتى برزت أصابع رجلى من حذائيهما وأنا ذاهل عن هذا المظهر الزرى، وغير عابئ بما أنا فيه من الضنك، وكان الخجل ربما وسوس أو همس في أذنى، وخلو الوفاض يحيرنى، ولكن شهيدا تشيع جنازته، أو اشتباكا داميا يقع فى حى من الأحياء، أو مظاهرة تسير، أو غارة يقوم بها لفيف من الجند الإنجليز على مقهى، أو منشورا يوزع فى الطريق، من الذى يبالى حينئذ أنه حاف، أو كالحافى، وأن ثيابه قاربت التهلهل وشارفت البلى، وأن كل ما تيسر له من طعام فى يومه هو "طعمية" بمليم، وكسرة خبز – نصف رغيف على الأكثر – بمليمين، يلتهمهما وهو سائر فى الطريق ؟

ولكن هذه الثورة لم تكن على هذا كافية للتنفيس عن الأمة، ولعلها كانت أبعث على الشعور بالكرب والاختناق، لأنها كانت ثورة أمة لا تملك سلاحا، ولا تقدر على أكثر من العمل بالأيدى، واطلاق صيحات الاحتجاج والألم، على جند كثيف شاك مستعد .

وكان شعور الأمة بعد ذلك بقلة الحيلة، والاضطرار إلى سلوك نهج تدرك بفطرتها أنه لا يصل بها إلى غايتها، ثم ضعف الزعماء الذين تنازعوا على الأكفان، واقتتلوا فيما بينهم ليظفر من يستطيع منهم الظفر بغنائم الحكم وتركوا الأمة تطق وتنفلق، ولم يرتقوا بأنفسهم حتى إلى "الحضيض الأوهد، الذى هوى إليه البيزنطيون المتفلسفون، ومحمد الفاتح يدك أسوار عاصمتهم، كل هذا، وما يجرى مجراه، زاد فى شعور الأمة بالاختناق .

وأخيراً جاء بعض الفرج، جاء من ناحيتين: ناحية شق الفاروق الطريق إليها، حين وجه حكومته وجهة عربية، فشعر المصريون أن لهم سنداً من العرب، قد لا يكون كافياً،

ولكن معناه في النفس كاف، وناحية أخرى حين استوزر الفاروق رجلا استطاع أن ينازع الإنجليز وينازلهم ويسلقهم من أعلى منبر عالمي بأحد لسان، ويرغمهم على احترام استقلال مصر .

ومع هذا، كان هذا غير كاف أيضا. والذى جعله غير كاف هو أن المصرى شعر باحترام الذات، وبعزة لم تكن له من قبل، وباستقلال صحيح لم يكن يحلم به في مسافة من الزمن تتجاوز نصف قرن، بل تكاد تبلغ ثلاثة أرباع القرن، ومع ذلك لا يزال الإنجليز في منطقة السويس!.. فنهض لحربهم؟.. كيف؟.. وأين الأداة الكافية؟.. تنازعهم مرة أخرى؟.. وما خير هيئة كل ما استطاعته أنه لا خير فيها، وأنها تعرف الحق وتعترف به، ولا تقوى على نصره وإن كانت بقية من ضمير تصدها عن إنكاره ؟..

والمرجل المحكم السد تغلى فيه النار، فلا يستطيع أحد أن يعرف من أى موضع يكون الانفجار. وقد جاءت حكاية فلسطين، وأزمتها، فانفجر المرجل، وكان من الممكن أن ينفجر من ناحية أخرى "وهل هذه الحوادث البشعة التى تقع في مصر إلا ثقوب ضيقة في مرجل يغلى؟..". ولكن أزمة فلسطين جاءت قبل غيرها، وجاء معها وعى كاف لإدراك مبلغ الخطر الصهيونى على مصر، فانفجر المرجل، لأنه كان لابد أن ينفجر يوما ما، وبسبب ما، وزاد في قوة الانفجار أمران: أنه لا حرص على حياة بذلة، وأن هؤلاء الإنجليز يجب أن يعرفوا قدر مصر وقيمتها وأن يرغموا على احترامها، وأن ينشدوا صداقتها على الصورة التى ترضاها هى، وأن يعلموا ويوقنوا أن لها وزنا .

وقد علم الإنجليز أن لمصر وزنا، بل أوزانا، وأنها هى القوة الحقيقية التى يعول عليها في الشرق الأوسط كله، دون غمط لغيرها، وأنها الدولة التى يرجى خيرها، ويجب أن يتقى شرها .

وبودى أن أقول كيف وسع حكومة الفاروق التى كانت تعاب بصمتها، أن تكسب كل هذه القوة، ولكن في فمي ماء، فإنها أسرار دولة، في إبان معركة لا في فلسطين وحدها، بل في مصر نفسها، فهى معركة حربية، هناك، وسياسة هنا، وخليق بمن صبروا على الضنك سبعين عاماً أن يصبروا على الاضطرار إلى الكتمان أسابيع أو شهوراً .

إبراهيم عبد القادر المازنى

الدنيا حر !.[1]

الفقر، كما قالوا فيه – وقاك الله شره – كافر، وذلك أن تقول "مكفر" أي مغر باقتلاع الإيمان والثقة والأمل والحب، ويغرس البغضاء، والحقد، والحسد والتمرد، ولهذا قال الحكيم: "لو كان الفقر رجلا لقتلته"، وأنا أزيد عليه: "ومثلت به". وإن كان التمثيل، قلة عقل وانتكاسا وارتدادا بالإنسان إلى الوحشية الجامحة بغير لجام، ألم تقل بنت أبي بكر وقد حدثها بخوفه من التمثيل به: "إن الشاة لا تألم السلخ بعد الذبح؟". وتا الله ما أصدقها و"أفحلها" أيضا!.. ولكن التمثيل فيه شفاء للحنق المكظوم والغيظ الملتهب، وفيه تخويف وزجر، والإنسان حيوان ضعيف – حتى في قوته – ومن ضعفي أتمنى لو تيسر لي – وأنى يتيسر – أن أمثل بالفقر .

والفقر لا يعرفه إلا من يعانيه، وقد تجد غنيًا رافلا في حلل النعيم، يبدي عطفًا حين توصف له أحوال الفقراء، وقد يزيد فيجود بالمال ويسخو سخاء عظيما، ولكني لا أرى هؤلاء إلا أحد رجلين قد يكون لهما ثالث لم ألتق به في حياتي: أحدهما لا يعرف مذ فتح عينيه على الدنيا، إلا هذا الرغد الذي هو فيه، فهو لا يعرف الفقر إلا سماعا، كما تقرأ وصف نكبة "بومبيي" في رواية اللورد ليتون، لما ثار بركان فيزوف ودفنتها هي وأهلها، فلا يفيدك هذا إلا صورة غامضة ملتاثة لجملة ما حدث دون تفصيله وإن كان الكاتب لم يقصر في الاجتهاد، وآخر أثرى بعد فقر وأنساه حاضره وماضيه لبلادة فيه، أو لزهد في تذكر هذا الماضي الأليم، أو أنفة أن يقال كان فقيراً، أو ترهلاً من طول الخفض والسعة والخصب – إلى آخره، إلى آخره !

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ١٩ يونيه سنة ١٩٤٨ (ص١٢) .

وقد أشقاني حر هذه الأيام وأتلف أعصابي، واسترق كل ذرة باقية من القوة في بدني – في أعقاب مرض منذو – فغلقت الأبواب والنوافذ، وقعدت فاترا متهافتا أتساءل: إلى أين المهرب من هذه الوقدة التي لا صبر لي عليها؟ وما بي علم الله تطر، وما كنت يوما من المترفين المدللين وما في بيتي – ولا أحب أن يكون فيه – شيء وثير أو مريح ولكنها السن تعلو فتضعف القدرة على الاحتمال والتشدد، والحاجة إلى العمل لكسب الرزق لا تدع سبيلا إلى الراحة والكسل.. وأمثالي هم السواد الأعظم والجمهور الأكبر الذين إذا عملوا طمعوا، وإذا كفوا أو كسلوا جاعوا، أفلسنا نحن هذا الجمهور الأكبر براحة خلقاء ؟؟

وتذكرت، كيف كنت وأنا صغير، إذا جاء الصيف، وتعطلت المدارس، أذهب إلى بيوت أخوالي في صحراء الإمام الشافعي، حيث الوقدة بعض نار جهنم، والرمل جمر والماء يحمل إلى البيوت المتلظية في قرب، والقربة بنصف قرش، وللقرش قيمته، والاقتصاد واجب، وهب المال وفيرا – وعند من؟ واحد أو اثنين من عشرين ألفا؟ – فأين القِرَبي؟ ومن ذا الذي يغريه بأن يحمل القربة على ظهره من "مصر القديمة" إلى حي الإمام – أي ثلاثة فراسخ – من أجل خمسة مليمات ؟

وتذكرت أني شببت عن الطوق، ومن ذا الذي لا يشب إذا لم يمت – واستقلت من عملي في الحكومة، واشتغلت بالصحافة، وآثرت – لأسباب شتى بعضها عاطفي – أن أتخذ مسكني في هذه الصحراء الجرداء، وكان من حسن الحظ أن البيت يملكه رجل له حظوة عند شركة الماء، فمدت له أنابيبها، وأعفته من "العداد" واكتفت بأن تتقاضى خمسة عشر قرشا في كل شهر، ففتحت باب البيت على مصراعيه، وتركت أهل الحي يستقون كما يشاءون – ولا سيما بعد الغروب – فما لهذا الماء ثمن! فكان الغريب الذي يتفق له أن يزورني، يتوهم أن في بيتي شيخا دفينا، وهذا "مولده"، لكثرة المحتشدين في حديقة الدار، وفي يد كل منهم – أو منهن – أو على رأسه أو رأسها، جرة أو "صفيحة" أو "بلاصي" .

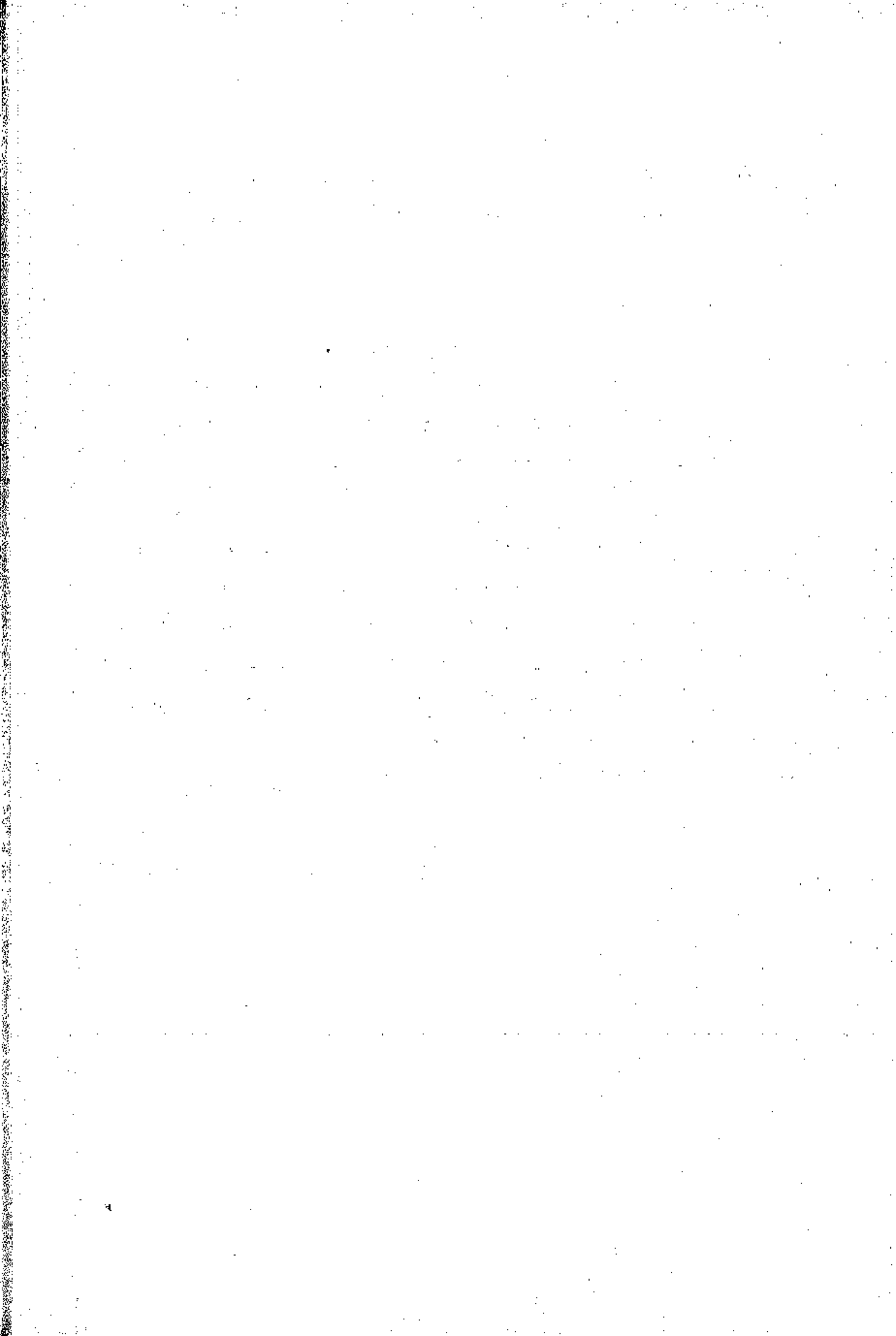
وقد ذهب هـذا الزمن، ولكن الحـر لا يذهـب في الصيف، وهذا الجمهور الأكبر لا يستطيع أن يفر منه إلى حيث يجد الماء والبرد ويستجم ويستفيد عافية، وتجديداً لأنسجة بدنه .

أفلا يمكن أن يدبر الأمر بحيث يتسنى لهذا الجمهور أن تقضي طوائف منه بعد طوائف، أياما على شاطئ البحر الأبيض أو الأحمر أو البحيرات، إن هذا واجب، وليس لقطار البحر الذى تسيره مصلحة السكة الحديدية إلا غناء يسير، وحسبك من قلة غنائه أن راكبه يعود برأس محطم، وصداع شديد، ولا يقضى على البحر إلا ساعات معدودات لا تعوض ما أصابه من مشقة السفر ذهابا وإيابا، سبع ساعات على الأقل .

لهذا أقترح على الحكومة – فإن بنا حاجة مع الأسف، إليها في كل باب لقلة ما بيدى الأغنياء من العطف أو مما يسمى "الروح العامة" – أقترح أن تنظم الوزارة أو الوزارات التي هي أولى بهذا الشأن – أمر الاصطياف للمجاهيد من أبناء هذه الأمة – وهم كثرتها – فما حياتهم بحياة، وإنها لأشبه بوجود نباتي.. والشعب طوائف شتى، من طلبة وعمال وموظفين صغار، في الحكومة وغيرها، وإذا كان معظم الطلبة يعودون في الصيف إلى قراهم، فإن غيرهم من الطوائف لا يسعه مثل هذا، وعلى أنه لا خير في كثير من القرى، فالحال في الحقيقة واحد، ومن الواجب إعداد المصايف وتيسير الإقامة بها، بأقل نفقة، ولو على نحو ما تفعل المدارس وفرق الكشافة .

وليذكر أولو الشأن – إذا كانت بهم حاجة إلى التذكير – أن أمة لا يجد أبناؤها المكدودون الوسيلة إلى الراحة والاستجمام لهي أمة مسكينة حقًا !

إبراهيم عبد القادر المازني



مصر في ثورة سنة ١٩١٩[١]

... وفي سنة ١٩٤٨

ليس هذا مقالاً في موضوع سياسي، ومع ذلك أقول في مستهله أن هؤلاء الإنجليز أغبياء. حكموا مصر أكثر من نصف قرن، وكانت لهم الكلمة العليا والقول الفصل في كل ما جل ودق من الأمور، وظلوا على الرغم من هذا أجهل أهل الأرض بهذا الشعب المصري وحقيقة روحه، ومبلغ استعداده، ونوع عزيمته في الشدائد، لأنهم ترفعوا عن مخالطته، وتوهموا أنهم في الشرق ينبغي أن يتبوؤا مقاعد السادة، ولا ينزلوا عنها أبداً، وأن يعيشوا بمعزل عن الأمة مكتفين بالأمر والنهي، ليحتفظوا بمقامهم واحترامهم ورهبة سطوتهم ولهذا لم يعرفوا مصر، وظنوا أنها فقدت إلى الروح الحربية، وأن المعول في الشرق الأوسط يجب أن يكون على تركيا دون مصر! ومن هنا فزعوا وجزعوا لما رأوه من شدة بأس مصر وبطولة أبنائها! وبعض المصريين أيضاً - ولا سيما الطبقة التي تتوهم أنها طبقة السادة - ليسوا أعلم من الإنجليز بمصر وحقيقة روحها، لأن هؤلاء يعيشون في أبراج، وحولهم أسلاك شائكة من الاغترار وقصر النظر وقلة العناية بالتبصر والتدبر.

دق لي التليفون أحد سكان هذه الأبراج - وكنت أهم بكتابة كلمة لأخبار اليوم - وسألني : "هل قرأت الأهرام؟".

قلت : "قرأتها هي وغيرها من صحفنا"

قال : "هل اطلعت على الوفيات؟"

قلت : "اطلعت يا سيدي فماذا فيها؟!"

قال : "فيها جديد في تاريخ مصر"

قلت : "كلا! لا جديد هناك سوى أنك بدأت تفتح عينيك، والفضل لهذا الشعب المجهود لا لك، فإنه هو الذى شق لك جفونك بالسيف"*.

والذى يشير إليه هذا "البرجي" هو نعي جاء فيه "بكل فخار واعتزاز نعلن استشهاد البطل المرحوم الملازم الأول مصطفى كامل محمد، في سبيل الله والملك، والعروبة وهو نجل الخ" ثم لا ذكر لعزاء لرجال أو نساء !

وإنه لجديد إذا اعتبرنا المألوف من صيغ النعي في الصحف، ولكنه لا جديد فيه على من يعرف هذا البلد الذي يجهل حقيقته حتى أهله. ولست أنوى أن أعيد ما نشر من بطولة رجالنا فى فلسطين وكيف أنهم يثبون على دبابات تشرشل بالسلاح الأبيض ويفتكون بمن فيها، ويستولون عليها، وينطون منها على خنادق العدو ويعصفون برجالها، وكيف أن قوة مصرية هاجمت حصنا، ففقدت جميع ضباطها - جميعهم لا معظمهم - ومع ذلك لم تضطرب، ومضى الجنود بغير ضباط فى الهجوم حتى استولوا على الحصن .

ولكنى سأذكر شيئًا من الحوادث التى شهدتها بعينى رأسى والتى هى فى رأيى أدل على روح مصر من كل هذه البطولات الرائعة. فليس بمستغرب أن يظهر الجندى المدرب حذقا وجلدا، وإقداما، فإن هذا ما درب عليه، واستخدم فى تدريبه عليه حسن استعداده له، ولكن الذى يجوز أن يستغرب هو أن يظهر المدنيون الجهلاء بالحرب وفنونها وأساليبها وأسلحتها مثل هذه المزايا .

حدث فى ثورة ١٩١٩ أن كنت فى حى الأزهر، ودخلنا المسجد نستمع إلى خطب القسيسين والعلماء، ثم خرجت الألوف فى مظاهرة، وإذا بجماعة من الجنود الإنجليز يتصدون للمظاهرة بالمدافع الرشاشة عند مفارق الطرق، ولجأت أنا إلى "ربع" وأطللت من نافذة، فإذا تحت عينى ثلاثة مدافع رشاشة عليها ستة من هؤلاء الجنود أو أكثر قليلاً، وخلا الشارع وتوارى الناس، وإذا بامرأة تجيء "بحلة" وتلقيها من النافذة التى كنت أطل منها، فأصابت رأس جندى فهوى إلى الأرض، وخف إليه بعض زملائه،

واستعد الآخرون لإطلاق النار وإذا بأزهرى يخرج من حيث لا أدرى، وينتزع المدفع الرشاش الذى سقط الجندى الموكل به، ويحمله بكلتا يديه، ويضرب به رءوس الجنود جميعا فتركوا مدافعهم وفروا!! وخرج الناس، ولا دراية لهم بها "المدافع، ولذلك حطموها .

امرأة من أفقر طبقات الأمة وأجهلها فعلت هذا من غرفتها الوحيدة فى "ربع" متداع، و"بحلة" لعلها لا تملك سواها. وأزهرى بجبته وقفطانه يغتنم الفرصة، فيقدم هذا الإقدام وما معه حتى ولا عصا، ويتخذ من المدفع الذى خطفه "نبوتا" يلوى به بستة من الجنود المدربين، فيولون هاربين ويتركون سلاحهم الرشاش! لم يبد لى هذا عجيبا وإن كان قد ألهب حماستى، فانحدرت، واشتركت فى المظاهرة التى قامت بعد هذا "النصر" الذى أتاحته امرأة وطالب أزهرى. ذلك أنى نشأت فقيرا فأنا أعرف جمهور هذه الأمة وسوادها، ولا تخفى على روحها، وإن كنت أجهل "السادة" ولا أحبهم ولا أحترمهم ولا أرى لهم عقلا أو مروءة .

فى حداثتى كنت أسكن فى حى الأزهر، فى شارع اسمه "الداويدارى" عفى عليه التنظيم الحديث ومحاه، وكان لكل حى فى ذلك الزمان "فتواته" وكان فتوات الأحياء يغير بعضهم على بعض، ولكنهم كانوا ذوى رجولة فما كانت إغارة من حى على حى تقع إلا بعد إبلاغ أو إنذار - أى إعلان حرب - وقلما كان البلاغ أو الإنذار يخلو من تعيين ساعة الإغارة، حتى لا يتهم المغيرون بأنهم غدارون ومغتنمو غفلة من خصومهم، ولأن كرامة الرجولة تقتضى المواجهة الصريحة وكانت لهم مضحكات، ولكن هذا ليس وقتها، ولا بأس مع ذلك من القول بأنهم كانوا يشعرون بوجوب تسويغ الغارة، ولهذا كانوا يختلقون أسبابا - لعل بعضها صحيح - يجعلونها باعثا على الانتقام، ولا يكتفون بذلك، بل يذهب المغيرون إلى الحى المنذر بالإغارة، فى صورة مسالمين، والعصى الغليظة مخبوءة تحت ثيابهم، ويتخذون من بعض الصبية - وأنا منهم ولهذا أعرف - ما يسمى "جر الشكل" مثال ذلك أن أرمى بحجر - عامداً - فيصيب بعضهم فيزجرنى أو يضربنى، ويتدخل بعض الذين دسونى على الحى، دفاعًا عن الصبى الصغير المسكين - وهو أسلوب معروف ومقرر بينهم جميعا - فتنتهى المجادلة بالمضاربة وتثور المعركة .

فإذا كنا نحن الصبيان من الحي المغير، هربنا، وإذا كنا من الحي الذي عليه الغارة – أي الحي المدافع – انطلقنا فصعدنا إلى أي بيت ومعنا ذخيرة كافية من الحجارة نقذف بها من النوافذ خصوم حينا، وتساعدنا النساء – تساعدنا بالماء، مغليًا وباردًا، وبالحجارة تقذف بها المغيرين بعد الاستيثاق والتبين بل بالحلل والطشوت والأباريق، وبالصراخ العالي أو "التصويت" إذا آذنت المعركة بانهزام حيهن، والغرض من "التصويت" حشد الجيران لفض المعركة – أما البوليس فما كانت له قيمة في ذلك الزمان، وله العذر فقد كان يصاب في مثل هذه الدعكة ولا يكاد يسعه شيء !

مصر في هذا العهد هي مصر التي عرفتها في صباي، ومن استغرب ما تبديه الآن من قوة العزم، وشدة البأس، والفحولة، فهو أجنبي عنها، غريب عنها، جاهل بها. وستظل مصر هي مصر – تفنى الأمم ولا تفنى – ولست أقول هذا تحميسا لأحد فإني أعرف أن مصر لا تحتاج إلى تحميس إذا جد الجد .

وكثيرًا ما تبدو لغير العارف بها – كالإنجليز وسكان البروج – فاترة ناضبة الحيوية، لا تكاد تقوى على حركة، ولكن الحقيقة أنها تدرك بفطرتها السليمة – على الرغم من شيوع الجهل فيها – أن الحماسة بغير موجب ليست إلا تبديدا لحيوية نفيسة، ولهذا تختزن حيويتها وتدخرها لوقت الحاجة حتى إذا جاء هذا الوقت راعت الدنيا، وأذهلت الجهال .

إبراهيم عبد القادر المازني

سرقت لأصبح أديبًا ![1]

حدثني بعض الزملاء قال إن الأدباء الشبان يزعمون أننا نحن "الشيوخ" – كما يسموننا – نسد في وجوههم كل الفجاج! فتبسمت وقلت لنفسي: يظهر أن شياطيننا مردة، وشياطينهم صبية صغار لا يزالون يلعبون في "الحارة" ويهملون اكتساب المعرفة والتجربة والحنكة !

وأتكلم جادا فأقول أني تذكرت كيف كنت وأنا غض السن صغيرها، وكيف كان يخجلني حتى أن أمر على مقهى، فأنزل عن الرصيف إلى الشارع! وكيف كنت أحيي الليل بالسهر وأنا عاكف على قراءة كتب عويصة مثل "أصل الأنواع" لداروين. وعلى طبعة سخيفة، ولكنها رخيصة – وتلك كانت مزيتها يومئذ – لكتاب الأغاني تكاد تعصف بالعقل، وعلى طبعة "هندية" أهداها إلي، صديق كريم، لديوان الشريف الرضي، محشوة بالأغلاط والتصحيف والتحريف .

وتذكرت كيف كنت أنفق نصف دخلي على اقتناء الكتب، وكان موظفو مكتبة "ديمر" يعرفونني ويأتمنونني لكثرة ما اشترى منهم، وهو في كل شهر فوق الكفاية لشهور، ومع ذلك غافلتهم وسرقت طبعة "جيب" لروايات شكسبير، وإن كانت عندي مجموعة كاملة منها بشروحها وتفاسيرها، ولا خوف من الاعتراف بهذه الجريمة، فقد سقطت "بمضي المدة" ثم إنها جريمة طالب معرفة، لا جريمة طامع في مال !

وكنت كثير "الغياب" في مدرسة المعلمين، لأني كنت أسهر إلى الصباح أقرأ وأحاول أن أفهم، ثم أنام فأتخلف، فدعاني ناظر المدرسة المرحوم إسماعيل حسنين

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٤ سبتمبر سنة ١٩٤٨ (ص١٢) .

باشا – عليه ألف رحمة – وقال لى : "يا بنى، أنك "حمار" فى العلوم الرياضية، وأنا أخشى عليك الرسوب، ولا ألومك على التخلف ما دام هذا عذرك، فخذ إجازة خمسة عشر يوماً، واقرأ ما شئت، ثم واظب بعد ذلك على الحضور" .

وكان أساتذتنا يحضوننا على القراءة، وتخرجت، وصرت مدرسا فى مدرسة ثانوية، واتفق يوما أن كنت فى مقهى فيما يعرف الآن بميدان الإسماعيلية، وكان معى كتاب "الشاعر على مائدة الإفطار" لويندل هولمز، وكنت أقرأ فيه، فما كان هناك يومئذ بنات يشغلن الجالس فى المقهى بالنظر إليهن مقبلات ومدبرات، فمرّ أستاذى فى الأدب الإنجليزى، فنهضت لتحيته، فقال لى بعد كلام: "لقد أصبحت موظفا، وأكبر ظنى أنك انصرفت عن القراءة والاطلاع" فأريته الكتاب، فربت على كتفى وقال: "هذا ما أرجو، أن تظل تقرأ وتقرأ ولا تشبع، وأن تحرص دائما على أن تضيف عقولا إلى عقلك". فقلت فى سرى هذا مثل كلام الجاحظ الذى ما ترك فى زمانه شيئًا. يقرأ إلا قرأه، وقد مات حين سقطت عليه كتبه !

وكنت أكتب، وأنظم الشعر، وأحاول النشر، ولم يكن ثمة سوى جريدتين تشجعان الأدب، هما "الدستور" لفريد وجدى بك، و"الجريدة" للطفى السيد بك، وكنا نفرح حين ينشر لنا شىء، وإن كنا لا نتقاضى عليه أجرا، فما كان يخطر لنا الأجر على بال، ونظمت قصيدة طويلة قلت أنشرها فى "اللواء" فلبثت ثلاثة أسابيع أسعى وأرسل الشفعاء والوسطاء حتى نشر نصفها !

وكنا نطبع الكتب على نفقتنا – ونودعها المكتبات "أمانات" ويتكفل الإخوان "بتوزيع" بعضها – مجاملة ومساعدة. ومن ألطف ما يروى أن أحد إخواننا طبع كتابا، وأودع نسخا منه مكتبة، ثم مر بعد شهور بالمكتبة يسأل عما بيع من كتابه، فطلب صاحبها "الإيصال" فقدمه إليه، فدسه فى فمه وبلعه !

وأصبحت أديبًا معروفًا، تستكتبه صحف شتى، واسمه يظهر كل يوم، وكنت أكتب وأنشر، منذ سنة ١٩٠٧، ومع ذلك بعت أضخم كتاب لى – وأحسن ما كتبت فى رأى بعض الزملاء – فى سنة ١٩٢٤ بثلاثين جنيها! وقد طبع الكتاب ثلاث مرات. ولكن هذا

كل ما أفدت منه، ويقول المثل العامى "يكفيني نعيرها" - أى الساقية ولم يخرج منها ماء! وقد كفانى "نعيرها" فعلا .

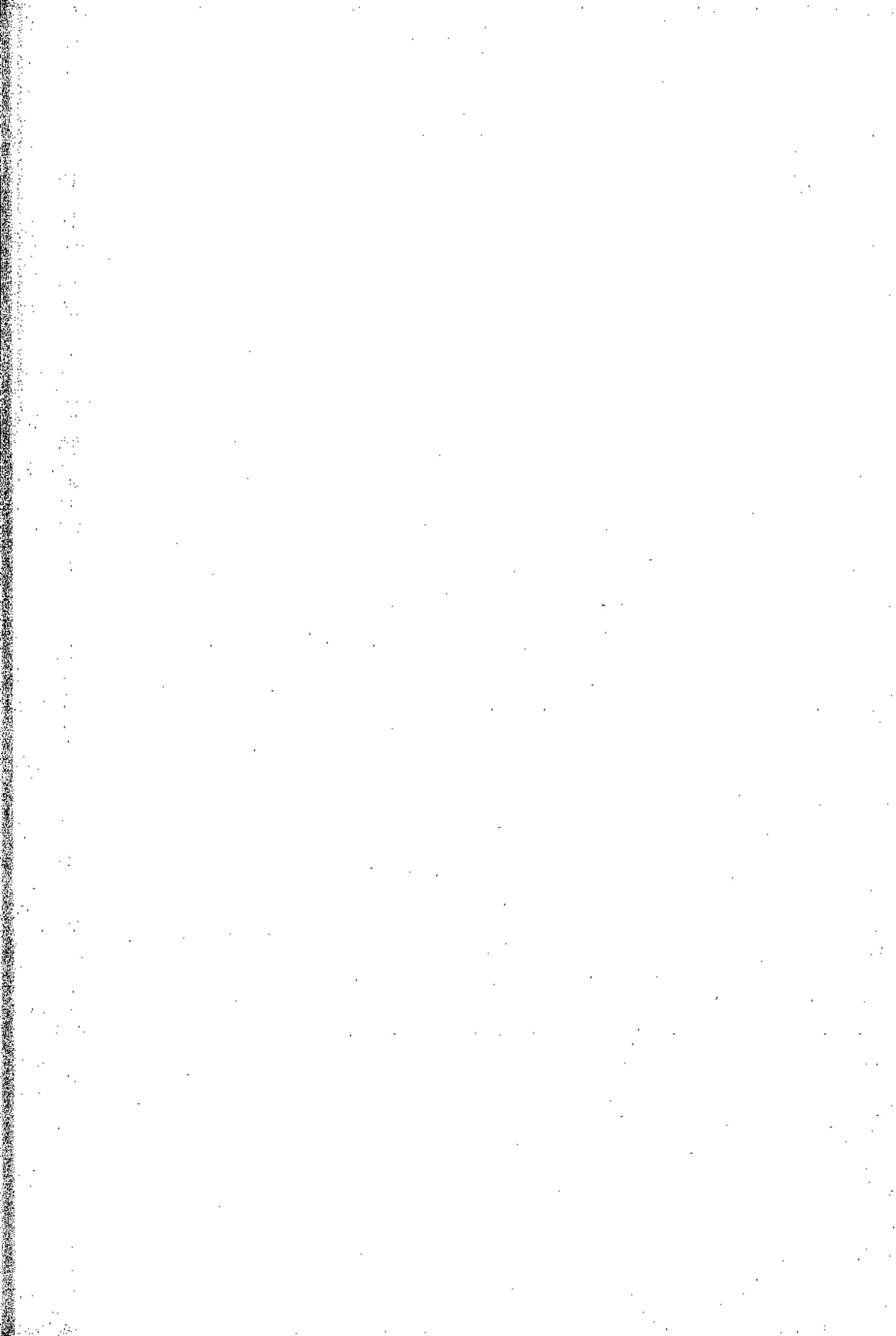
وفى سنة ١٩٢٩ تفضل ناشر فطلب أن ينشر لى "صندوق الدنيا" وهو أروج كتبى، فقبلت وطبع الكتاب، ونفذ، ولم أقبض من ثمنه مليما واحداً !!

وفى سنة ١٩٣٠ طلبت منى مجلة الهلال مقالا، فلبيت، وبعد أيام تلقيت رسالة مسجلة فيها "شيك" بخمسة جنيهات! وكنت وحدى فى غرفتى، ومع ذلك احمر وجهى خجلا - أو شعرت أنه احمر - فقد كان هذا أول أجر على مقال أدبى، وكان قد تقرر فى نفسى أن الإنتاج الأدبى لا يباع، ولا يطلب به الربح .

أريد أن أقول أن طريق الأديب طويل وشاق، وأن ظل خطوة فيه تتطلب منه كفاحا وصبرا، وأن الذين يعدون شيوخا فيه إنما صاروا كذلك، لا بارتفاع السن، بل بأنهم يعدون أنفسهم "تلاميذ" لا تنقضى حاجتهم إلى الدرس والتحصيل والمثابرة عليهما، وبالنظر والتأمل، ومحاولة الإدراك الصحيح .

وهل يستطيع أحد أن يعيش بلا طعام؟ كذلك العقل لابد له من غذاء .

إبراهيم عبد القادر المازنى



من ذكريات الماضي

كنت مدرسًا[1]

كنت مدرسًا – برغمي !

أو قل إني أردت شيئًا، وأراد الله بخلافه. ولذلك قصة طويلة أوجزها في سطور، فأقول إن هواي كان أن أدرس الطب، فقدمت إلى مدرسته طلب الالتحاق بها، ولكن الدكتور كيتنج "ناظرها" يومئذ – لاعفا الله عنه! – رمى لي بأوراقي في الشارع! فجمعتها ورجعت بها محزونا. ورأيت أن أتحول إلى "الحقوق"، وقدمت الطلب.. وفي اليوم التالي ضاعفت وزارة المعارف "المصروفات" فجعلتها ثلاثين جنيها في العام، وكانت قبل ذلك خمسة عشر.. فلم يسعني لفقري إلا أن أسترد أوراقي .

وقعدت في البيت مكروبًا، مهمومًا، مغمومًا.. لا أدري ماذا أصنع. وكان لي قريب صالح – ابن عم لأمي – فأشار علي بأن أدخل مدرسة المعلمين العليا، وزينها لي بأن مدة التعليم فيها سنتان اثنتان، وأنه فيها بالمجان. وإنها تعطي الطالب كل شهر في السنة الأولى ثلاثة جنيهات، وأربعة في السنة الثانية، وتلك مزايا عظيمة لفقير مثلي .

وكان لقريبي الصالح هذا مدرسة حرة في حي "البغالة" فدعاني إلى التدريس فيها في فترة الصيف لأتدرب، فقلت مغتبطا وأنا أتوهم أنه يطلب معونتي، وإذا به في آخر الشهر ينقدني مائة وخمسين قرشًا جزاء ما عملت! فخجلت، ولكن الفقر لا يرحم، وكيف يتعفف ويتزهد من لا يستطيع أهله أن يعطوه في اليوم غير نصف قرش ؟؟

---

(١) نشرت في مجلة "الهلال" في أكتوبر سنة ١٩٤٨ (ص٢٦ – ص٢٨) .

ودخلت المدرسة، وكنا فيها سبعة وعشرين طالبا أنا أصغرهم، وأجهلهم بلا مراء، فقبلت على الكتب أقرؤها، وشجعني ووجهني الأساتذة، وزميلي الأديب الجليل الأستاذ عبدالرحمن شكري، وأني أجد معي في أول كل شهر، مالاً كافيًا لاقتناء الكتب، وكانت يومئذ رخيصة. وسافر بعضنا - بل أكثرنا - في بعثات إلى إنجلترا، وبقيت مع من بقي، لأن المرحوم الدكتور طلعت باشا "حكيمباشي" المعارف في ذلك الوقت أبى أن يأذن لي في السفر خوفًا علي، وكانت مدة الدراسة سنتين، كما أسلفت، ولكنها زيدت سنة أخرى، فلم يشق هذا علي، فإني أقبض أربعة جنيهات كل شهر أدع منها للبيت نصفها، وأمتع نفسي بالنصف الآخر، فأشترى الكتب، وأتقمش، وأجالس زملائي في "بار" كملر، حيث نشرب "البيرة" الألمانية النفيسة، ولا يكلفني ذلك غير بضعة قروش، ثم إني كنت صغيرا، أحلق وجهي - ولا أقول لحيتي - ثلاث مرات في اليوم لينبت الشعر ويغزر، ويكون لي مظهر الرجال!! وإلا فأي مدرس يكون هذا الغلام الأمرد، القصير الهزيل الذي لا يمكن أن يملأ العين ؟

وتخرجنا في المدرسة، وعينت مدرسًا للترجمة في المدرسة السعيدية الثانوية باثني عشر جنيها في الشهر! وتصور هذه الثروة في ذلك الزمان - سنة ١٩٠٩ - بعد طول الفقر والحرمان! لقد بلغ من فرحي بهذه النعمة إني كنت أوثر أن أذهب إلى المدرسة في مركبة خيل! ومع هذا الإسراف الذي يغري به حديثو النعمة، وسع أمي - عليها ألف رحمة - أن تدخر لي بعد تسعة شهور مهر زوجة !!

وكان الطلبة طوالا، عراضًا، ضخامًا، ذوي شوارب، وأنا قميء ضئيل، أو كما يقول ابن الرومي :

أنا من خف واستدق، فما يثقل أرضا ولا يسد فضاءً

ولكن الناظر الإنجليزي، والوكيل المصري كانا رجلين حازمين... فلما كان أول درس، دخلت "الفصل"، ووقفت وحييت الطلبة بيدي، فوقف بعضهم وظل بعضهم قاعدا، وأنا صامت أنظر إليهم ولا أقول شيئًا، حتى استحى القاعدون فوقفوا، وما كادوا يفعلون حتى أومأت إليهم أن يقعدوا. وبدأت الدرس بلا تمهيد، وخرجت أحمد الله

لا على التوفيق فى تعليمهم، بل على استتباب "الأمن" والنظام. وكان من فضل الله على، أنى لم أحتج قط – فى عشرة أعوام – إلى عقاب تلميذ، أو لومه، أو حتى إلى نظرة غضب، وظل ما بينى وبين تلاميذى عامراً إلى اليوم .

ولم يكن الأمر يخلو مع ذلك من نوادر، فقد كان بعض التلاميذ يحاولون معابثتى، ولكنى أنا كنت حديث عهد بالتلمذة، وكنت فى الواقع من أشقى "التلاميذ" وأكثرهم عبثا، فى مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى. ولهذا كان عبثهم لا يجديهم شيئًا معى. ثم إنى كنت يومئذ شاباً متمرداً، زاهداً فى الوظيفة الحكومية، راغبا فى نبذها وفى الاشتغال بالصحافة، ولم أكن أعبأ شيئًا بالمفتشين وغيرهم من الرؤساء. وكنت فوق هذا مغرورا أتوهم أن ثقافتى أوفى من ثقافة هؤلاء الرؤساء. وكان بعضهم – فعلا – من الجهلاء الأدعياء. ويظهر أن سلوكى كان يعجب تلاميذى فرضوا عنى، كما رضيت عنهم .

دخل على ذات يوم مفتش، وكان دخوله غلطا لأنى أدرس الترجمة، وهو مختص باللغة العربية.. وعز عليه أن يعترف بهذا الغلط الذى لا قيمة له، فبقى معى، يستمع إلى الدرس، وتحامق فتدخل. وكنا نعالج ترجمة جملة ورد فيها لفظ "كلمى" أى مكلومة أو جريحة، فاستأذن فى توجيه سؤال، إلى التلاميذ، وطلب أن يذكروا له بيتين من "المحفوظات" وردت فى أحدهما هذه الكلمة، فذكروا له بيتى المتنبى المشهورين فى سيف الدولة :

وقفت وما فى الموت شك لواقف   كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضاح، وثغرك باسم

فسألهم عن عيب فى البيتين، فذكروا له النقد المشهور وهو أن الشطرين الأخيرين يمكن إحلال أحدهما محل الآخر. فقال: "كلا! إنما أراد الشاعر أن يقول أن الموت خائف منك. فقال إنه نائم عليك". ثم التفت إلى وسألنى: "أليس كذلك يا أستاذ؟"

وكان صدرى قد ضاق، فصحت بصوت عال: "كلا!" فإنه أولا لا يجوز لك أن تحكم على نية شاعر مات منذ ألف سنة، ثم إن القول بأن الموت يخاف، سخافة مطبقة، فقال الرجل: "لكل رأيه"، وخرج !

وقد استقلت من وزارة المعارف بعد خمس سنوات، وزاولت التعليم بالمدارس الحرة، وتوليت إدارة مدرسة ثانوية، فألغيت العقوبات، وكانت المدرسة "تحت تفتيش" الوزارة، فقامت القيامة: هي – أي الوزارة – تقول كيف تلغى العقوبات؟ وأنا أقول إنى لا أفهم كيف أعاقب تلميذا جاءنى ليتعلم، والتعليم لا يكون بالعقاب، بل بالإفهام والإرشاد بالحسنى، وهذه تجربتى أمامكم، وهى ناجحة، فلماذا تعترضون؟ فيقولون "الأصول" وقانون نظام المدارس إلخ إلخ، فأقول: إن هذا أسلوب غير صالح، وأنا لا أوافق عليه .

وقد ظل الخلاف قائمًا إلى أن قامت الثورة المصرية، فتركت التعليم إلى الصحافة. ولا أدرى أيهما خير، ولكنى غير آسف أو نادم .

إبراهيم عبد القادر المازنى

ذكريات طريفة عن شاعر النيل

صديقي حافظ إبراهيم[1]

لم تكن بيننا لا صداقة ولا عداوة حين عرفته، فقد كنت يومئذ في سن الطلب والتحصيل، ولم يكن لي إلا تفكير يسير في الأدب ومذاهبه، وكانت الرغبة في الاطلاع والدرس عظيمة، ولكن اليد كانت قصيرة كما يقول المثل، وكانت كتب أبي وجدي عند أخي الأكبر رحمه الله، وقد ضيعها سامحه ربه، وتركها بوصية لمن لا يقرأ ولا يكتب! على أنها كانت كتبا في الفقه وما إليه ولم تكن بي يومئذ حاجة إليها أو رغبة فيها، ولو كانت الرغبة موجودة لظلت رغبة، فقد كانت بيننا مقاطعة ظلت سنين طويلة! وكنت أسمع حافظا ينشد شعره في الجمعيات الأدبية، والاجتماعات السياسية التي كان مصطفى كامل يعقدها ويخطب فيها، فيعجبني منه حسن الإلقاء والبساطة والجزالة، ثم أوفدني إليه صديق لي في شأن له، وكنت يومئذ طالباً في مدرسة المعلمين العليا، فتلقاني بترحاب وقضى لصديقي حاجته، دون أن يبدو منه تردد، أو تغشى أساريره جهامة، على أنه استصغرني على ما يظهر، فقد كان يخاطبني بلفظ "يا شاطر" فساءني ذلك، وكانت الحال قد انتقلت بي قليلاً، وتيسر لي أن أشبع نهمي، وأشتري ما أرى أنه ينبغي أن أطلع عليه من الكتب، فأفادني ذلك ثقة بالنفس أو غرورا إذا شئت، فقلت له قبل أن انصرف شاكراً: "لقد قرأت ترجمتك للبؤساء، ولا شك في أنه كتاب نفيس إذا نظرنا إلى اللغة، ولكنه لا شك أيضا في أنه ليس ترجمة بالمعنى الصحيح، وأحرى به أن يسمى تلخيصاً". فغضب وقال: "تعيب البؤساء يا ولد؟" فقلت،

---

(١) نشرت في مجلة "الهلال" في نوفمبر سنة ١٩٤٨ (ص٣٩-ص٤١).

وقد سرني أني أغضبته: "دع الولد والبنت، فإنك لا تخاطب جرسون المقهى، وأنا لم أعب البؤساء، وإنما عبت الترجمة، لا لغتها" فسكت قليلا، وهو يدخن "الشيشة" ثم قال: "أجيب لك شيشة؟". فضحكت، فقد سرني أن يفيء إلى الرضا بسرعة، وقلت: "كلا، وشكرا، ولك أن تقول أني مازلت ولداً" .

ومضت سنوات، كنت ألقاه فيها أحيانا مع إمام العبد، أو عبد الحليم المصرى، رحمهم الله جميعا، في مقهى "متاتيا" أو "جراسيمو" وهما متجاوران، وأنا دائم الخلط بينهما، ولا أدرى هل كان يتذكر أو لا يتذكر هذا "الولد" الذى عابثه، أو كان يحسن استقباله لا لسبب سوى أنه يكرم وفادة كل قادم. وكنت معه مرة ألاعبه "الطاوله" فأقبل عليه إمام العبد، وأدنى كرسيه منه، وأسر إليه شيئا، فأخرج حافظ "محفظته" ودفع بها إلى إمام، ففتحها هذا وأخذ منها كفايته وردها إلى حافظ، فدسها في جيبه دون أن ينظر فيها.. ومضينا في اللعب!. وفي مرة أخرى كان بعضهم يلاعبه، فجاء إمام، وأبى إلا أن ينشده قصيدة له، وإلا أن يعرف رأيه فيها، فقال له حافظ: "دعك من اللفظ والمعنى، القصيدة بديعة" !

وكان يشنع على إمام العبد مازحا، فيعزو اليه قصيدة لا أذكر سوى مطلعها :

الأرض أرض، والسماء سماء والماء ماء، والهواء هواء!

فكاد إمام العبد يجن! وراح يسب حافظاً ويشهر به في كل مكان، ويقول إني أنا الذى خلقته. ثم صفا الجو، وافتقر إمام إلى حافظ، فجاء إليه يسأله المعونة، فقال له حافظ: "والله يا مولاى كما خلقتني" وسرته نكتته، وشفت غيظه، وخلا قلبه إلا من المروءة .

* * *

ودارت الأيام دورة أخرى، وإذا بالغرور ينحرف بي عن سواء السبيل، وإذا بعفريت اسمه المذهب الجديد في الأدب يركب كتفي، فأنقد شعر حافظ نقدا كله سخر وتهكم وقلة أدب، أو قلة عقل، لأنه صار في رأيي ممثلا لمذهب قديم يجب هدمه.

وغضب حشمت باشا صديقه وكان "ناظراً" للمعارف، واضطهدني، وكنت مدرساً، وأوصى بي الرؤساء شراً، فكان هذا من أسباب استقالتي وزارة المعارف .

ولست أرى أني كنت مخطئا في نقدي لشعره، ولكني ولا شك أخطأت في أمرين: أولهما التطاول وسلاطة اللسان، وثانيهما ظني أن نقدي يهدم رجلا بناه فضله في زمانه. وقد خدمت - إلى حد ما - مذهبنا الجديد بهذا النقد، ولكني لم أهدم حافظاً، لأن الزمن وحده هو الذي يجرد المرء من كل ما زاد على حقه، وإن كان يخطئ أحيانا فيضيف إليه ويصفي عليه ما ليس من حقه. وهل الزمن إلا الناس؟ والناس من تعرف، فلا حاجة إلى إطالة !

ومضت سنوات، وأخرجنا - الأستاذ العقاد والعبد لله - جزءين من كتاب "الديوان" في النقد والتعريف بالمذهب الجديد في الأدب، وكنا نلتقي بحافظ من حين إلى حين في مقهى أمام دار الكتب، ونتحدث في هذا المذهب الجديد، وأن الأدب فرع من شجرة الحياة، وأن التقليد يفسده، وأن الأديب يجب أن ينظر بعينه ويفكر بعقله، ويحسن بقلبه، وأن يكون - قبل كل شيء، وفوق كل شيء - مخلصاً. إلى آخر هذا، فيوافقنا حافظ، ويقول ببساطة محببة: "طيب يا واد انت وهوه، إذا كان الأمر كذلك فأنا من المذهب الجديد" .

وأشهد أن نقدي له على مرارته لم يترك في نفسه مرارة .

وتوثقت صلتي به وأنا أعمل في جريدة السياسة، وكان صديقا لمحمد محمود باشا، وكان محمد باشا يكرمه ويعظمه ويسره ويبره، ويتقبل مزحه بأرحب صدر. وكان حافظ قد ترك وظيفته في دار الكتب، فكان يزورني ويلقي إلي بمقطوعات قصيرة في الأحوال السياسية، ويقول لي: "إذا كان لك اعتراض على بيت أو كلمة، فغير وبدل أو اعترض كما تشاء" ولا يغضب إذا فعلت. وسمعت منه في تلك الأيام خير شعره، وأعني به قصيدته في عهد صدقي باشا، وهي في أكثر من ثلاثمائة بيت، وقد بحثنا عنها بعد موته، بين أوراقه، وسألنا عنها من كنا نعرف أنهم سمعوها منه، وقيل لنا دونوا مقطوعات منها - مثل محمد محمود باشا، والشيخ المراغي - فلم نعثر على بيت واحد، لأنه رحمه الله كان ينظم الشعر ويحفظه ولا يدونه .

ومن نـوادره أننا دعينا إلى غـداء في بـيت صديق لنا، ودعـونا حـافظا معنا ولم نخبره باسم الداعي، فقال : "إذا كان الغداء عند محمد محمود باشا، فأنا مستغن" فسألنا عن السبب، فقال : "ده يا أخي يقدم الأكل في برشامة"! وروينا النكتة بعد ذلك لمحمد باشا فضحك كثيراً. وجلسنا إلى المائدة وعليها ديك رومي عظيم، فالتفت حافظ إلى رب البيت، وقال : "تضحك علينا يا ولد؟ أهذا ديك؟ هذا ديك مرفي!"

وكنا نعرف كرم حافظ وسخاءه وقلة احتفاله بالمال، فأراد أحد محبيه - وما كان أكثرهم - أن يزيدنا تعريفا بذلك، فاقترض منه خمسة جنيهات لا حاجة به إليها، وفي اليوم التالي طلب جنيهين، فأعطاه إياهما وقد نسي الجنيهات الخمسة، وتكرر ذلك أياما متعاقبة وحافظ لا يذكر إلا ما أقرض في ساعته، ثم ينساه بعد دقيقة، ثم رد إليه الصديق كل ما سلبه وحافظ يتعجب ولا يصدق لولا شهادتنا .

والواقع أن حافظا كان فذا في سخائه، ومروءة قلبه، وسماحة نفسه، وسعة صدره، وحبه للخير، هذا إلى ظرف نادر، وفكاهة حلوة، وشجاعة عظيمة في تقبل ما تجيء به الأيام - وما أكثر ما تقلبت به - في مرح. ولم يكن هذا منه عن استخفاف، بل عن إباء واستنكاف أن يظهر ضعفا، وعن حسن تقدير لقيم الحوادث - من خير وشر - ولم يكن هزّالا، على كثرة مرحه، فقد كان يكرم نفسه ولا يهينها أو يسف بها، ولا يصبر على مذلة، ولست أعرف أن أحداً اجترأ عليه بإهانة .

ذلك - بإيجاز هو حافظ كما عرفته. أجزل الله ثوابه، فقد كان جم الإحسان في حياته .

إبراهيم عبد القادر المازني

القاهرة فى عام الثورة[1]

كنت فى سنة ١٩١٨ ناظراً لمدرسة ثانوية حرة وإن كانت "تحت تفتيش" وزارة المعارف، وكان بينى وبين الوزارة خلافات لا تنقطع على طريقتى فى إدارة المدرسة، مثل إلغاء العقوبات، وفتح باب المدرسة على مصراعيه، ورفض استعمال "الدفاتر" الوزارية التى تحتاج إلى موظفين عديدين، وفى دفتر واحد ما يغنى عن هذا التل من الدفاتر، ولكن هذه حكاية أخرى ليس هذا وقتها .

وكنت لا أبرح المدرسة إلا إلى البيت، ولا البيت إلا إلى المدرسة، فلا مقهى، ولا ملهى، ولا سهرة، ولا شيء إلا الكتب، والأهل، والمدرسة بمعلميها وتلاميذها. وكان الذى بينى وبين تلاميذى عامراً، وكان يعجبنى منهم حبهم للنظام، وحرصهم عليه، وإقبالهم على التعلم، حتى لقد فتحنا لهم المعمل ليلا ليدرسوا ويجربوا، كما يشاءون، وأستاذهم يشرف عليهم متطوعاً غير مأجور .

وبدأت الدراسة فى موعدها المألوف ذات يوم، فسمعت لغطا فى فناء المدرسة على غير العادة، فأطللت من النافذة، فإذا التلاميذ كلهم فى الفناء، والمدرسون معهم، فاستغربت وأشرت إليهم أن يصعد بعضهم إلى، فدخل على، لفيف منهم، فسألتهم: ما هى الحكاية ؟

قالوا : ألم تسمع ؟

قلت : هأنذا أنتظر أن أسمع، فماذا وراءكم ؟

قالوا : تألف وفد من كبار المصريين للمطالبة باستقلال مصر !

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٤٨ (ص٤).

قلت : يظهر أني أعيش في غير مصر! ومن أنبأكم بهذا !

قالوا : إن الخبر على كل لسان، ولكنك يا "أفندي" لا تجالس الناس ولا تتصل بأحد .

قلت : هذا صحيح، وهو غلط مني، وسأخرج بعد اليوم من عزلتي، وممن يتألف الوفد ؟

فذكروا لي أسماء بعضها صحيح، ومعظمها لا صلة له بالوفد، كما تبينت فيما بعد، فقلت لهم : "اذهبوا إلى دروسكم، وسأخرج أتحرى، وأعود إليكم بالنبأ اليقين" .

فأطاعوا، وخرجت، فكأني ما كنت رأيت القاهرة إلا يومها، فقد خيل أنها خلية نحل، وكان الناس يستوقفونني في الطريق ويسألونني عن الحقيقة في "هذه الإشاعات" فأقول "علمي علمكم" وقد وبخني بعضهم فقال "لا تحف يا أفندي، نحن كلنا مصريون" .

ورحت أذرع الشوارع، وأنا حائر لا أدري من أستخبر؟ وتعبت، فلجأت إلى "نيو بار" بميدان الأوبرا لأستريح قليلا، فإذا بالله يرزقني بمن يقول فيهم الشاعر "ويأتيك بالأخبار من لم تزود" وهو صديق محام من رجال الحزب الوطني، فأخبرني أن سعدا ومحمد محمود، وعبد العزيز فهمي، وأحمد لطفي السيد، اتفقوا على تأليف وفد للمطالبة بحقوق مصر، وأن الأمير عمر طوسون دخل في الأمر فمنعه السلطان، وأن السلطان يؤيد هذه الحركة ويؤازرها، وماعدا ذلك إشاعات .

فسألته : أما من خطر على هؤلاء الرجال ؟

قال : وهل في هذا شك؟ إن الأحكام العسكرية لا تزال مضروبة على البلاد .

قلت : وإذا أصابهم سوء ؟

قال : تثور الأمة !

قلت : واثق ؟

قال: واثق أتم ثقة، فإنى أعرف الريف والحواضر، وأجوب مصر من شمالها إلى جنوبها، وماذا تخشى الأمة؟ إنه لن يصيبها شر مما هى فيه، أو مما يهددها إذا نفذ مشروع "بروتيات" الذى يجعل مصر أشبه بمستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى.. إسمع إن الأمة لا ينقصها إلا القادة وقد ظهر بعضهم، ومتى تم تأليف الوفد وعرفت الأمة ذلك فستهب كلها وراءه فى غير تردد .

ثم قال : يا أخى أنت معلم تاريخ، فكيف نسيت ثورة المصريين على نابليون، مرة، وعلى خلفة مرة أخرى ؟

وعدت أذرع الشوارع إلى المدرسة، ولكنى فى أوبتى كدت أنا أستوقف الناس – على غير معرفة – وأفضى إليهم بما علمت فكان يسرنى أن أرى فرحهم واستبشارهم، وأن أسمع دعاءهم "ربنا ينصرهم على الظالمين" .

ودخلت على التلاميذ فى فصولهم، فأبلغتهم ما وقفت عليه، ووصفت لهم شعور الناس فى الشوارع وقلت لهم هذا نبأ عظيم، فخذوا بقية اليوم أجازة وأفشوا الخبر فى الناس، فى حذر وتقية. وأوصوهم بمثل ذلك .

وعلمت بعد ذلك أن مدرستى لم تكن الوحيدة التى انتشر تلاميذها فى الشوارع يمشون فرادى أو اثنين اثنين، واضطربت الدراسة بعد ذلك، وتعذر أن تنظيم، لأن كل تلميذ كان أكثر عناية بالوقوف على ما جد منه بالتحصيل والدرس .

ومن أغرب ما كان يحدث فى ذلك العالم من التنظيم "غير المدبر" أن الطلبة كانوا يقضون ما يقضون فى مدارسهم المختلفة – اليوم المدرسى كله أو بعضه – ثم يتفرقون على المقاهى البلدية فى الأحياء الوطنية، وخاصة حى الأزهر. وفيها ينشرون الأخبار بلياقة تستغرب من أغرار سذج مثلهم لا تجربة لهم. ويهيئون النفوس لما ستجىء به الأيام "حتما" .

وكان تلاميذى يأتمنوننى على أخبار مساعيهم، واتصالهم بزملائهم، وربما استشارونى سلفا فأشجعهم أو أنهاهم عما أرى فيه طيشا وقد طلبوا منى أن أكتب

لهم "منشورات" فنصحت لهم بالعدول عن ذلك وإرجائه إلي أن نرى ما يكون وعندئذ لن يقتصر الأمر على "المنشوارت" .

وما أظن أن أحداً يدرى كيف تنتشر الأخبار المكتومة كأنها النار فى الهشيم اليابس، مثال ذلك أنى فى صباح اليوم الرابع عشر من نوفمبر ذهبت إلى المدرسة كالعادة فإذا "البواب، ينبئنى أن سعدا ومعه اثنان قابلوا المندوب السامي وطلبوا استقلال مصر. ولم يزد وكان حسبه أن يعلم هذا بهذه السرعة !

وفى مساء ذلك اليوم كان الناس فى المقاهى والشوارع والبيوت يلغطون بهذه المقابلة، ويروون تفاصيل عجيبة لما دار فيها كان أكثرها من نسج الخيال، وأقلها هو الصحيح. فأما الجانب المتخيل فغير مستغرب لأن مبعثه الأمل والتلهف، والثقة التى خلقتها شجاعة هؤلاء الرجال الثلاثة، ولكن المستغرب حقا أن يصل إلى الجمهور بعض التفاصيل الصحيحة لما دار فى هذه المقابلة التاريخية .

وقد سمعت رجلا من العامة فى مقهى بالحلمية الجديدة يقول بأعلى صوته: "ترك إيه يا عم؟ إحنا لا عايزين لا ترك ولا إنجليز! اتفضلوا اخرجوا ورونا عرض اكتافكم! أما شيء بارد!"

فتعجب السامعون وسأله بعضهم عن "الترك" فقال : "آل إيه المندوب السامى بيقول لسعد باشا هو احنا مش أحسن من الترك؟"

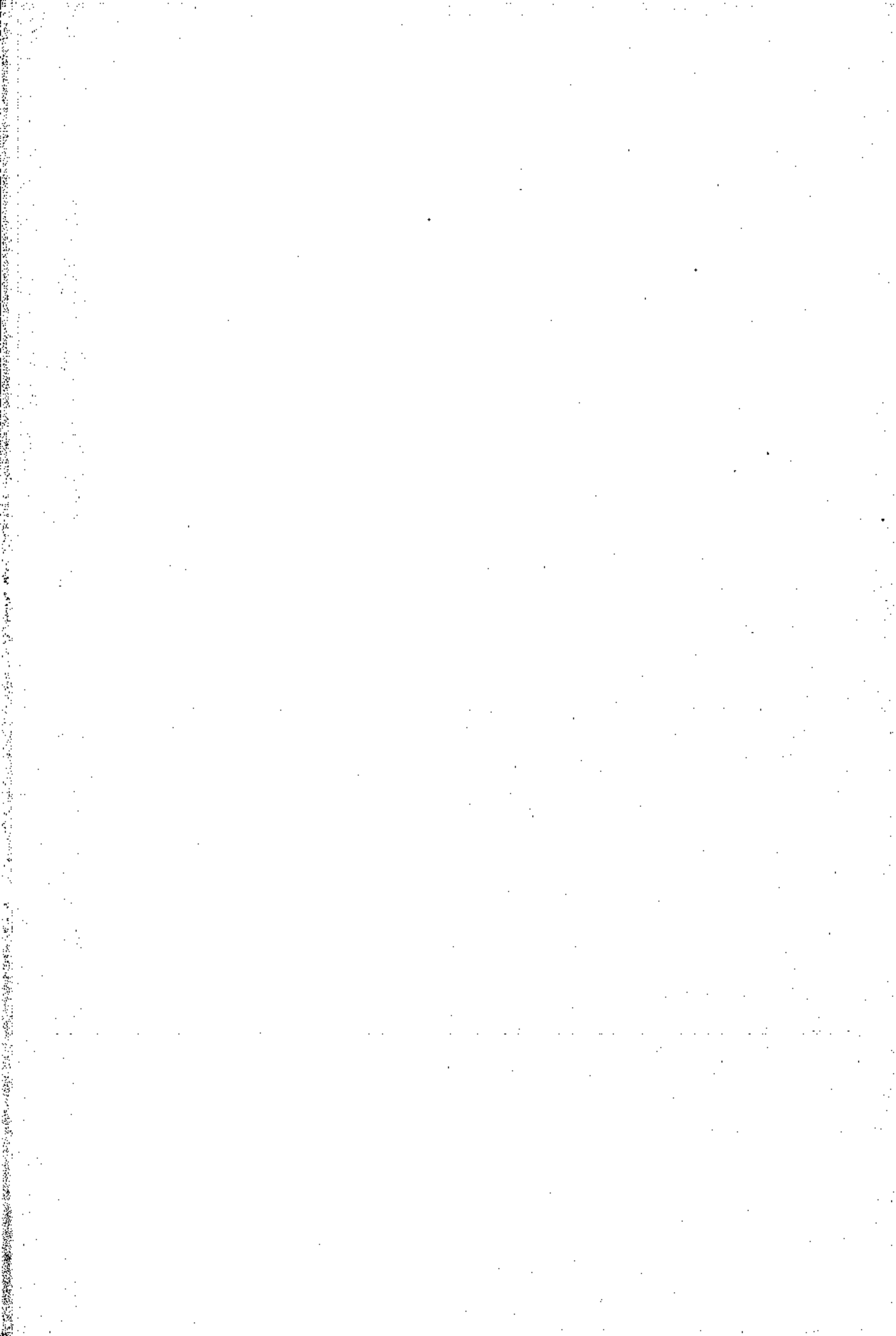
ولم يكن هذه هو الذى قاله السير ريجنالد ونجت، على وجه الدقة، ولكنه كان معناه، بلاشك فكيف وصل الشعب إلى العلم بهذا؟ وكيف ذاع الخبر بسرعة وفى فحمه الليل، حتى لهج به الناس فى اليوم التالى فى كل مكان ؟

وقد ظلت القاهرة تتلقى الأنباء والإشاعات بأعصاب كأنها عارية لا يكسوها شيء من اللحم والجلد وكان الشعور عاماً، وعميقاً، باقتراب العاصفة، فراح بعض من أعرف – ولهم أشباه كثيرون – يخزنون القمح والأرز والزيت والسمن وما إلى ذلك استعداداً

للمستقبل الذى قد لا يكفل فيه انتظام التموين، وأعدانى هذا الشعور فخفت عنى عملى، وانتقلت بهم إلى بيت كان لجدى لأمى فى حى الإمام الليث بن سعد، على مسافة نصف كيلو متر من "عين الصيرة" أو على تخوم العالمين !

ثم دخلنا فى عام ١٩١٩ - وله حديث آخر هو حديث الثورة قد يتناوله غيرى .

إبراهيم عبد القادر المازنى



إصلاح الكون بمليم[1]

يخيل إلى – مما أقرأه في بعض الرسائل التي أتلقاها – أنى مطالب بإصلاح هذا الكون المرزوء! لا لأنى قادر على ذلك، وكفؤ له، بل لأن سوء الحظ قضى بأن أكون رجلاً كاتبًا. وكيف تكون في الدنيا رزايا وبلايا ولا أعالجها بقلمي؟ وكيف أغضى عن المرض والفقر والجهل، وأروح أتكلف ما لا أزال أتكلفه من العناء الباطل منذ أربعين عامًا – فمن قصص سخيفة، إلى روايات لا قيمة لها ولا انتفاع بها، ومن دراسات وبحوث أدبية لا طائل تحتها، إلى غير ذلك مما لا يغير ما بالدنيا – أو على الأقل ما بمصر .

وما أظن إلا أن غيرى من أدباء جيلنا قد تلقى أمثال هذه الرسائل الساخطة الناقمة، المتسائلة عن هذه الأدب ما خيره وما فائدته؟ وأحب أن أؤكد لكتاب هذه الرسائل أنها تسرني ولا تسوءني، فإني أستطيع أن أدرك أن أصحابها يمضهم، ويقض مضاجعهم ما في الدنيا من أسواء، وصحيح أن هذه الأسواء ليست بنت اليوم، وأن الدنيا ما خلت قط من أمثالها، وأكبر الظن أنها لن تخلو منها، ولكن سخط الساخطين يكشف عن إدراك صحيح، وشعور كريم، وفى الكتابة به إلى وإلى إخوانى – وأن كان لا ذنب لنا – تنفيس وتسرية وترفيه عن أعصاب هؤلاء الكرام البررة، ثم إن النقمة والسخط أقوى ما يستحث الناس على طلب الإصلاح والسعى له ومعالجته .

إنى أحب أن أقول كلمة أو كلمات وجيزة لحضرات الغيورين الساخطين لا على سوء الحال بل علينا نحن معشر الأدباء والكتاب. وأول ما أود أن أقوله هو أن الواحد

---

(١) نشرت في "أخبار اليوم" في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤٨ (ص١٦) .

منا مسكين والله، بل مسكين المساكين. وتصور أن يقضي إنسان عمره معلقًا بساقية لا ينفك يدور حولها، فإذا ونى أو فتر أو كل، صاح به الموكل بالساقية "عا" إذا آثر الترفق، أو ألهب ظهره بالعصى أو بالسوط! ليستأنف الدوران، ولا شك أن كل إنسان له ساقية هو مشدود إليها، ولكن هناك فرقًا بين ثور، وثور .

وما الفائدة بين كل هذا العناء، أو التدويخ؟ لا أدرى، وليس في وسعي أن أهتدى إلى حكمة، يستطيع عقلى القاصر أن يطمئن إليها ويسكن. وما أرى أن غيرى أدرى وأهدى، ولعل من العزاء لنا في عنائنا وجهلنا، أن كرتنا الأرضية كلها دائخة مثلنا، في دورانها الدائم حول الشمس وحول نفسها أيضا. وليست بالوحيدة أيضا. فما قمتنا نحن وما نحن إلا هباء على سطح هذه الكرة الدائخة ؟

ويضحكني في هذا المقام أن بعض المحبين كتب إلى يهنئنى بأن صار لى – بعد أربعين سنة من الجهد والنصب – "دارة" أو فيللا! وإنه لشكور على تهنئته، ولكني أرجو أن يضيف فضلا إلى فضله فيدلني على مكانها! ولست بشاك أو متذمر، فإن المال "غاد ورائح" أو هو هكذا عندى، وحسبى من دنياى القوت الذى يقيم الأود، والمسكن الواقي، والملبس الساتر، والقدرة على مواصلة الكدح. وسأظل فقيرا إلى الله مغتبطا بفقرى إلى ربى، وغنيا عن الناس، لا بالمال، فماله عندى قيمة، بل بالصبر والقناعة بالستر .

وأقول بعد ذلك أن الفقر والمرض والجهل أفات مزمنة فى دنيانا هذه، ولعل أشقى الأشقياء هم الذين يعرفون مبلغ جهلهم وضعفهم والذين يؤتون من الرزق الكفاية المهددة بالنقص عن حدها. ألم يقل المتنبي أن الحياة إنما تصفو للجاهل والغافل، والقادر على مغالطة نفسه في الحقائق؟ أما الذى يعلم شيئًا، ويدرك أنه غابت – وستظل غائبة – عنه أشياء، والذى يتعب جسمه في مراد نفسه، والذى يسعى وهو مشفق ولا يزال دهره بين توفيق مرة وإخفاق مرات، فهذا هو الشقى بلا مراء .

وليس ذنبي أو ذنب إخواني وزملائى أنّا كتاب، حتى نطالب بإصلاح الكون الذى لا يبدو له وجه صلاح، أن مطالبة الأديب بعلاج الفقر والمرض والجهل ليس لها مؤدى

إلا أن يكون نائحة ونداية وما جدوى الندب ولطم الخدود؟ ومن ذا الذى يجهل بلاء هذه البلايا من ذا الذى يخفى عليه سوء حال السواد الأعظم من الناس فى كل بلد، لا فى مصر وحدها؟ والكتابة فى هذا نواح لا أكثر ولا أقل، وأظن أن الساخطين علينا يسعهم أن ينوحوا كما يشاءون، إذا طاب لهم ذلك، ولا حاجة بهم إلى تكليفنا النواح لهم والندب من أجل أنهم يشترون المجلة التى نكتب فيها بقرشين، وما أرخصنا إذا فعلنا!! إن من يكتبون لأخبار اليوم مثلا كثيرون، وثمنها قرشان، فكل كاتب ينوح ويندب بماذا؟ بمليم؟ خير من ذلك أن نهجر الأدب وأن ننقلب نواحين محترفين فإن هذا على قلة جدواه، أربح ولا بأس أحيانا من أن يخسر المرء عقله ليكسب مالاً .

ويعيبنا الساخطون بأننا نكتب "سخافات" ولست أرى هذا عيبًا، فإنه هو الطبيعى، والذى لا معدى عنه، على الأقل أحيانا، فليس أحد بمعصوم، وكل إنسان يعتريه الفتور والضعف والكلال ويحسن السيرة ويسيئها، ويصدر عنه الطيب والقبيح، وهو فى أدبه – إذا كان أديبًا – يحلق أحيانًا، ويسف أحيانا أخرى وليس بإنسان من يسلم من النقص والقصور، والضعف .

والميزان الصحيح هو أن تجعل أمامك الكفتين – واحدة فيها الحسنات وواحدة فيها السيئات – فى كل شىء لا فى الأدب وحده – فإذا رجحت الحسنات، كان المرء إنسانا أو أديبا فاضلا، وإذا رجحت السيئات وشالت الحسنات جاز لك أن تحكم عليه لا له، وليس الأدب إلا فرعًا من شجرة الحياة، وقد أحسن ابن الرومى كل الإحسان حين قال :

قولا لمن عاب شعر قائله	أما ترى كيف ركب الشجر؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليابس	والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق	رب العباد، لا البشر

على أن الأدب شىء، والإصلاح الاجتماعى شىء آخر مختلف جدًا، ومن العبث والإفساد أن تكلف الأديب أن يتولى عملا من أعمال الإصلاح، وليس من المعقول أن

تطالب النجار أن يكون حداداً، أو المهندس أن يكون طبيبا، وليس للأدب غاية خاصة وهو إذا خدم المجتمع، فإنما يفعل ذلك من طريق غير مباشر، أى بتفتيح العيون، وإيقاظ القلوب وتنبيه العقول ولو بإزعاجها، وتثقيف النفوس، بوسائله الخاصة، لا بالنواح ولا بالوعظ وما يجرى هذا المجرى. ومن هنا صح قول من قال إن كل نهضة قومية قد سبقتها نهضة أدبية، وأن غير هذا الترتيب مستحيل، والنهضة الأدبية مستحيلة أيضا إذا فرضت على الأدب وجهة خاصة وألزمتها طريقاً معيناً .

وفى هذا القدر اليوم كفاية .

إبراهيم عبد القادر المازنى

لماذا لا ندخل الحكم الذاتى فى المدارس ؟[1]

أمامى بضع رسائل جاءتنى تعليقًا على مقالى الأخير فى "أخبار اليوم" وفيها كلها مواضع للنظر، وأرى من الخير أن أتناول طائفة منها كشفت لى عن بلبلة يحسن أن تعالج. وأحب قبل أن أقول شيئًا، أن أشهد لكُتاب هذه الرسائل الذين لا معرفة لى بهم، بالإخلاص والغيرة، وأن أقرر أنى مقتنع بأن معدن شبابنا سليم. ولكنه لا يجد من يهديه ويوجهه إلى الطريق المستقيم، وأن يبصره بالحقائق، ويعده إعدادًا حسنًا لما يستقبل من حياته بعد أن يفرغ من الدرس والتحصيل، وهذه، فى رأيى هى العلة الكبرى فيما نشكو منه، ونسخط عليه، ونشعر بالجزع من عواقبه .

إن المستقبل للشباب، وأمر البلاد كله رهن بما يكون منه، وبمبلغ قدرته على الاضطلاع بالعبء الذى سيحمله يوما ما، ومما يدعو إلى الأسف الشديد أن مدارسنا ومعاهدنا تكتفى بتلقين العلوم والمعارف، ولا تعنى بأن "تربى"، أى بأن تهيئ الشباب لهذا المستقبل .

وقد كان من أغلاطنا، بعد أن ارتفعت اليد الأجنبية عن وزارة المعارف، أن رأى بعض من تولوا هذه الوزارة أن ما يتلقاه الطلبة والتلاميذ من العلوم والمعارف يسير، وأن الواجب التوسع فى ذلك والزيادة عليه، فزادوا، وأسرفوا، وأرهقوا، وصار التعليم حشو رؤوس بطوائف شتى من المعارف .

والخطأ هنا خطآن، أولهما أن وظيفة المدرسة ليست أن تعلم كل شىء، لأن هذا محال، وإنما وظيفتها أن تعلم ما لا غنى عنه، وما يعد "مفتاحًا" يدخل به حيث يريد .

---

(١) نشرت فى "أخبار اليوم" فى ٨ يناير سنة ١٩٤٩ (ص٩) .

والثانى أن "الحشو" لا مؤدى له سوى إضعاف القوة المفكرة، لأن الاتجاه كله في الحقيقة إلى الذاكرة، ثم إرهاق أعصاب الطلبة بهذا الحشو الكثير الذى لا مسوغ له ولا فائدة حقيقية منه .

وقد أهمل المسئولون عن معاهد التعليم المختلفة "تربية" الطلبة، وأعنى هنا بالتربية تدريبهم على النظر والتدبر، وتعويدهم نشدان الحقائق ومواجهتها. وأداء الواجب وحمل التبعات. فمعاهدنا العلمية كلها - على اختلافها - "آلية" النظام - يدخل التلاميذ والطلبة، ويقبل الأساتذة، ويلقون دروسهم، وينصرفون وبهذا ينتهى عملهم والأمر كله - من أوله إلى آخره - في يد الناظر أو ما شئت فسمه، وأيدى معاونية وهو المرجع فى كل شيء، ولا رأى لسواه وهذا نظام آلى ديكتاتورى لا يمكن أن يؤدى إلى تربية طالب، أو إعداده للحياة .

ولا أدرى لماذا لا يدخل المسئولون عن معاهد التعليم نظام "الحكم الذاتى" فى هذه المعاهد؟ وأعنى بذلك أن يجلعوا من المعهد "دولة" مصغرة أو مختزلة، فيها لجان تتولى كل الشئون العملية والنظامية التى يتولاها الموظفون، وفيها محاكم النظر فى الشكاوى وعقاب المخطئين، وكلها من الطلبة وبالانتخاب مع إشراف المدير أو الناظر ومن إليه من المساعدين إشرافًا يراد به التوجيه السديد حتى ينتظم الأمر .

لقد جربت هذا النظام - نظام الحكم الذاتى - فى مدرسة كنت أتولى أمرها قبل الثورة المصرية، ولم تطل التجربة لأن قيام ثورتنا القومية أغرانى بترك التعليم والاشتغال بالصحافة، وكانت التجربة فى بدايتها ضيقة النطاق فلم تزد على إلغاء العقوبات المدرسية وتأليف لجنة منتخبة من الطلبة تتولى محاكمة المشكو منهم من الطلبة، ويستوى أن أكون أنا الشاكي أو يكون الشاكي غيرى، من المعلمين أو الطلبة، وأظن أنى كنت موفقًا في هذه التجربة القصيرة، فما اجتمعت اللجنة أو المحكمة ولا مرة واحدة لأن مجرد تأليفها من الطلبة بالانتخاب الحر، قطع دابر "المخالفات" .

ومن الممكن والسهل التوسع فى هذا بحيث يتولى الطلبة، بالانتخاب شئون الطعام، والنظافة، والألعاب، والمكتبة، والجمعيات العلمية المختلفة وغير ذلك،

وبذلك يتدربون على حمل التبعات، وعلى النهوض بالأعباء عمليا، وعلى التفكير ووزن الأمور والاجتهاد في الاهتداء إلى الصواب، وتبث فيهم روح الرجولة المتزنة، وبذلك أيضا يعتادون أداء ما يسمى الخدمة العامة، وينفقون نشاطهم – أو الفائض منه – في عمل صالح ويشعرون أنهم رجال بالمعنى الصحيح، وأنهم أكفاء لما يتولون، ويخرجون إلى الحياة وفيهم ثقة بالنفس، واتزان في السلوك والتصرف، ولهم دربة وخبرة .

أظن أن نظام الحكم الذاتي خليق أن يشفى أدواء كثيرة يشقى بها الطلبة الآن و [يعفيهم] من قلق نفسي فيه أذى كبير لهم ولبلادهم ويوجههم وجهة صالحة. ويهيئهم لتولى أمور الأمة حين يجيء دورهم .

وهذا نظام لا يحتاج إلى استصدار قانون به، فإن في وسع كل مسئول عن معهد علمي أن يدخله دون أن يحتاج إلى استئذان أحد .

أما الاكتفاء بالإذاعات والخطب المنبرية والوعظ فقليل الجدوى .

إبراهيم عبد القادر المازني





تليجرام

هنا

سور الأزبكية

المحتويات

طبع بالهيئة العامة لش

رقم الإيداع ١٦٨

/٣٦



الغلاف/ نسرين كمال